



المدونة

قصة
نبي الله يوسف

د. رشيد الجراح

Certificate of Registration
CopyrightFrance

Copyright Registration Number: 9H2F1R2

CopyrightFrance.com, Website registered under number 2104 by the State Prosecutor of the High Court of Evreux (FRANCE) certifies having delivered the certificate of the original following registration

Name of the registrant: Rasheed Saleem Al-Jarrah

Title or URL of the registered document: https://www.dr-rasheed.com/

Description: Dr. Rasheed's blog documents his lifelong reflections on the Quran, offering linguistic and analytical insights without adhe ring to any specific sect. The goal is to officially archive and le gally protect his writing, ideas and stories presented in the blog.

Date / time of the registration: 15-02-2025 à 20:46

The submitted document has been time stamped by a RGS qualified Certification Authority and ETSI TS 102 023 certified.

Paris (date) 15-02-2025 - The publication manager G.E.E. :

Reminder : (code of the intellectual property, extracts) :

✔ **Point L.335-2.** All publishing of written documents, musical composition, drawing painting or any other totally or partly printed, engraved production regardless of the laws and regulations concerning author's property is a forgery and any forgery is an offence. In France, forgery of published work in France or abroad is punished by 3 years in prison and a 300.000 euros fine. Will be punished the same way selling export and import of counterfeit work.

✔ **Point L.335-3.** Is also considered a forgery offence all reproduction , representation or circulation by any mean, of piece of spiritual work by violating the author's rights, as they are set and regulated by law. Is also considered as a forgery offence the violation one of the owner of the software's rights.



3c14c5091f191db578780f4e846d7a176d3cb058592f3b129f067ba1aa063728

كلمة فريق عمل مدوّنة روح

الحمد لله الذي علّم الإنسان بالقلم، وخصّه بنعمة البيان، وجعل تدبّر كتابه العزيز سبيلًا للهداية. أمّا بعد،

يمرّ الفكر الديني المعاصر بمنعطفٍ تاريخي يفرض إعادة تأسيس العلاقة مع النصّ المؤسِّس؛ فكثير من المفاهيم والمناهج قد ترسّخت عبر القرون حتى غدت في الوعي العام بمنزلة المسلّمات المطلقة. في خضمّ هذه الحاجة الملحة للمراجعة والتجديد، يأتي مشروع الأستاذ الدكتور رشيد سليم الجرّاح ليقدّم قراءةً مغايرة للقرآن الكريم، قراءةً لا تكتفي بحدود التفسير الموروث بل تتجاوزه نحو فهمٍ جديد يتأسّس على منهجٍ علميٍّ دقيق، يلامس روح النصّ بعمق ويقترب من منطق العقل والفطرة السليمة.

لعلّ في الاسم الذي يحمله الدكتور رشيد سليم الجرّاح إشارةً بالغة الدلالة؛ فهو بحقٍّ يُجري عمليةً جراحية للكلمة القرآنية. إنه يتعامل مع مفردات الوحي برُشدٍ متناهٍ، كأنّه يضعها تحت مجهر الفكر واللغة، فيُريك نسيجها العضوي، ويكشف عن أعصابها الصرفية وعروقها الدلالية، لتتجلّى بذلك أبعادها النفسية والمادية العميقة. هكذا تتحوّل الكلمة في مشروعه من مجرّد رمزٍ صوتي إلى كيانٍ حيٍّ نابضٍ بالمعنى، يحمل إمكانات التأويل التي تنتظر التحرير.

لقد كانت أبحاث الدكتور الجرّاح ومقالاته بمثابة أطروحات نوعية تميّزت بالعمق والجرأة الفكرية، فمثّلت دعوةً صريحةً لإعادة بناء علاقتنا التلقّائية بالوحي، لا على قاعدة التلقّي الجامد، بل على أساس الفهم المتدبّر والتحليل العلمي المحكم. وهي دعوةٌ ضرورية تُعيد إلى النصّ حيويته الجوهرية، وإلى الفكر الديني توازنه المنشود، وتُحيي مسؤولية الباحث في إعمال العقل وكسر حاجز السؤال الموقوف.

وانطلاقًا من قناعتنا الراسخة بأهمية هذا المشروع الريادي، وبضرورة حفظه وتوثيقه ليكون مرجعًا للباحثين والمهتمين، تضافرت جهود فريق المدوّنة. لقد قمنا بجمع هذه المقالات والدراسات المنشورة، ومن ثم تنظيمها وتصنيفها وتحريرها بعناية فائقة، لتصدر الآن في هذا العمل المتكامل الذي نضعه بكل تقدير بين يدي القارئ الكريم.

نحن نؤمن يقينًا بأنّ هذه الكتابات تمثّل إسهامًا محوريًا في مسار الفكر القرآني المعاصر، وأنها تفتح آفاقًا رحبة للتأمّل والمراجعة والتجديد، بما يليق بكتابٍ أنزله الله للعقل قبل التقليد، وللحياة قبل التاريخ.

إنّ هذا العمل ليس سوى نقطة انطلاق في مسارٍ نأمل أن يكون مستدامًا؛ وفاءً لصاحب هذا المشروع العلمي الرائد، وإيمانًا بما قدّمه من اجتهادٍ صادق ورؤيةٍ علمية مغايرة تستحقّ كل التقدير والاحتفاء.

فريق عمل مدوّنة الدكتور رشيد الجراح:

- المهندس **عامر محمد العوض، مهندس نظم المعلومات من مايكروسوفت.**
- المهندس **زكرياء مصباح، مهندس مدني.**
- الأستاذ **مصطفى عيسى، مصمم ديكور ومستشار في العقارات.**
- الأستاذ **محمد عادل الخولي، مستشار في العقارات.**
- الدكتور **يوسف فرمي، مهندس البحث والتطوير في الإلكترونيات الدقيقة والبصريات.**

للإتصال بالفريق : roohblog2025@gmail.com

الفهرس



الجزء الأول

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ



الجزء الأول : نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ

قال تعالى:

- ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٣ إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ٤﴾ [يوسف: 1-4]

نتعرض في الجزء الأول من كتابنا هذا تحت عنوان قصة يوسف لجزئية جاءت في بداية القص القرآني لهذه القصة العظيمة تتعلق بأن تكون تلك القصة على وجه التحديد هي أحسن القصص، لنطرح سؤالاً رئيسياً وهو: لم كانت قصة يوسف هي أحسن القصص؟

ولا شك أن هذا التساؤل نفسه سيثير تساؤلات فرعية كثيرة نذكر منها:

⇐ ما معنى أحسن القصص؟
⇐ وهل فعلاً قصة يوسف هي أحسن القصص؟
⇐ وإن كانت كذلك، فلم لا تكون قصة إبراهيم أو موسى أو عيسى أو حتى محمد نفسه هي أحسن القصص؟
⇐ وهل هناك فعلاً تفاوت في "الحسن" في القصص القرآني؟
⇐ الخ

رأينا المفترى: نحن نعتقد أن قصة يوسف هي فعلاً أحسن القصص، ولا يجاريها في الحسن أي قصة أخرى في كتاب الله، ولكن كيف؟ ولماذا؟

عودة إلى قديم:

حاولنا في طرحنا في بعض المقالات السابقة خاصة ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته. التعرض للملاحظة التي يمكن التوقف عندها في الآية الكريمة التالية:

- ﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرۡشَهَا نَنظُرۡ أَتَهۡتَدِيٓ أَمۡ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهۡتَدُونَ ٤١﴾ [النمل: 41]

وظننا أن التنكير هو عكس المعرفة، وحاولنا استنباط ذلك مما جاء في قصة يوسف مع إخوته، حيث جاء التقابل بين المعرفة من جهة ونكران الشيء من جهة أخرى ظاهراً، فبالرغم من أن يوسف قد عرف إخوته إلا أنهم كانوا له منكرون:

- ﴿وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٨﴾ [يوسف: 58]

وجاء التقابل ظاهراً أيضاً في الآية الكريمة التالية:

- ﴿أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ رَسُولَهُمۡ فَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٦٩﴾ [المؤمنون: 69]

نتيجة مفتراة: نحن نظن أن نكران الشيء تعني عدم معرفته.

باب المعرفة:

السؤال: ما هي المعرفة التي يقابلها النكران؟

لقد حاولنا في مقالة سابقة لنا التفريق بين المعرفة من جهة والعلم من جهة أخرى، وقدّمنا الافتراء الخطير بأن الله لا يعرف، وحاولنا تسويق زعمنا بضرورة عدم إلصاق المعرفة بالذات الإلهية، وكان هذا الظن مبنياً على الاعتقاد عندنا بأن المعرفة هي عمل من صنع البشر فقط.

الدليل

بعد أن تفقدنا السياقات القرآنية لم نجد آية واحدة تقرن المعرفة بالذات الإلهية، وجميع آيات الكتاب في هذا الخصوص تتحدث عن علم الله، ومن وجد غير ذلك، فنحن مدينون له بالمعرفة (ومن أراد التفصيل فلينظر مقالتنا تحت عنوان: هل لعلم الله حدود؟: جدلية القلب والعقل)

وقد جاءتني هذه الفكرة (وأسأل الله أن يكون إدكاراً) عندما حاولنا أن نرقب التحول باللفظ في الآية الكريمة التالية التي أثارت فضولنا للخوض في هذا الموضوع:

- ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ ۝٣٠﴾ [محمد: 30]

فبعد أن كان الكلام في بداية الآية الكريمة خاصاً بالمعرفة عند الحديث عن النبي، تحول مباشرة إلى العلم عند الحديث عن رب محمد. ولكن لماذا؟

أولاً، بعد التعرض لآيات كثيرة من كتاب الله زعمنا القول أن السبب يعود في بعضه إلى أنه حتى يتحصل الشخص على المعرفة فلابد أن يبذل جهداً للحصول عليها، فلا شك – عندنا- أن يوسف قد أجهد نفسه لمعرفة أن هؤلاء النفر القادمون من البدو هم أخوته الذين جعلوه في غيابت الجب منذ زمن بعيد.

افتراء 1: المعرفة تحتاج إلى بذل للجهد للحصول عليها

ثانياً، وزعمنا أيضاً أن حصول المعرفة تتطلب وجود الدليل، فلا شك – عندنا- أن يوسف قد توافر لديه دليل يرشده أنهم إخوته (كأن يكون قد عرفهم من عددهم أو من شكلهم أو من المكان الذي قدموا منه، الخ). ولا شك أيضاً أن معرفة النبي بالمنافقين تتطلب التدقيق في قولهم وفي سيماهم:

- ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾ [محمد: 30]

افتراء 2: المعرفة تحتاج إلى دليل

لاحظ كيف جاء اللفظ بصيغة المجهول في الآية الكريمة التالية:

- ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾﴾ [الرحمن: 41]

ربما لتدل بأن فعل المعرفة لا يتعلق بالذات الإلهية وإنما بكل الناظرين إلى المجرمين في ذلك اليوم الرهيب.

ثالثاً، كما زعمنا أن المعرفة تراكمية، يمكن أن يطرأ عليها التعديل من وقت إلى آخر، فهي محكومة بالجهد الذي تبذله وبالدليل الذي تملكه، فإن أنت ضاعفت في جهدك، وهذّبت دليلك، زادت المعرفة عندك، ومتى تقاعست عن بذل الجهد، واكتفيت بأدلة باهتة، اضمحلت عندك المعرفة.

افتراء 3: المعرفة تراكمية تزيد وتنقص

لذا نحن نزعم أن كل ما تحصل عند الناس من خبرات بشرية هي محصلة تراكمية تقع في باب المعرفة ولا تقع في باب العلم، وذلك لأننا نفتري الظن أن العلم – على عكس المعرفة- لا يتطلب الحصول عليه إلى جهد ولا إلى دليل وهو- في رأينا- ليس تراكمي، فهو يأتي دفعة واحدة في صورته النهائية، يستحيل بعدها أن يضاف إليه شيء ليحسّنه. فمتى كان الخبر ناتجاً عن علم فهو إذاً نهائي، ولكن إن كان الخبر ناتجاً عن معرفة فيمكن حينئذ أن يحدث عليه تحسين (وربما تغيير).

افتراء من عند أنفسنا: كل ما تحصل للبشر (غير الذين منّ الله عليهم بالعلم) بطريقة البحث والتجربة والدليل يقع في باب المعرفة وليس في باب العلم، فالجامعات والمعاهد كلها مبنية على مبدأ المعرفة، ولا يوجد حتى الساعة مؤسسات علمية مبنية على أساس العلم، فما تحصل للغرب حتى الساعة من خبرات لا تتعدى أن تكون معرفة، ولكن ما نحاول البحث عنه في هذا الكتاب العظيم فهو العلم، لذا فالله أسأل أن يأذن لنا الإحاطة بشيء من علمه كما كان لصاحب موسى مثلاً:

- ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ [الكهف: 65]

أو كما كان لبعض ملأ سليمان:

- ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ۝٤٠﴾ [النمل: 40]

والله أسأل أن أكون من الذين آتاهم الله العلم:

- ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ۝١٠٦ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝١٠٧﴾ [الإسراء: 106-107]

ونحن نتجرأ على القول بأن الصراع الحقيقي لن يكون بين من تحصل على معرفة ومن يتحصل على معرفة أكثر (س مقابل س+1)، بل يجب أن يكون بين من تحصل على المعرفة (هم) ومن تحصل له العلم (نحن).

دعاء: أسأل الله أن يأذن لنا الإحاطة بشيء من علمه إنه هو السميع المجيب.

(للتفصيل انظر مقالتنا تحت عنوان النظرية العالمية الإسلامية في كشف أسرار الكون)

الدليل

وفي خضم حديثنا ومحاولتنا التفريق بين المعرفة من جهة والعلم من جهة أخرى، استوقفتنا الآية الكريمة التي ترد في بداية سورة يوسف التي تفصّل قصة نبي الله يوسف قرآناً عربياً لقوم يعقلون على وجه الخصوص، قال تعالى:

- ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣﴾ [يوسف: 3]

وطرحنا على أنفسنا حينئذ التساؤلات التالية:

⇐ لم جاءت هذه الآية في بداية سورة يوسف على وجه التحديد؟
⇐ وهل فعلاً قصة يوسف هي أحسن القصص؟
⇐ وهل هناك مفاضلة في قصص كتاب الله؟ أي هل يمكن أن تكون قصة أحسن من قصة أخرى؟ أو هل يمكن أن تكون طريقة قص تلك القصة أحسن من طريقة قص القصص الأخرى؟
⇐ ألم يتحدث القرآن الكريم عن قصة إبراهيم؟ لِم لَم تكن هي أحسن القصص؟

⇐ ألم يتحدث القرآن الكريم عن قصة موسى؟ لِم لَم تصبح أحسن القصص؟
⇐ ألم يتحدث القرآن الكريم عن قصة نبي الله نوح وصالح وشعيب وزكريا وعيسى، الخ؟ فلِم لَم تكن أي منها أحسن القصص كما هو الحال بالنسبة لقصة يوسف؟
⇐ الخ.

وبعد أن حاولنا النبش في التراث وجدنا السؤال مطروحاً عند البعض، ولكن – الذي قد لا يثلج الصدور- هو أن جلّ الإجابات المطروحة تدور في مضامين ما جاء في أمهات كتب التفاسير كتفسير القرطبي الذي جاء فيه مثلاً:

واختلف العلماء لم سميت هذه السورة أحسن القصص من بين سائر الأقاصيص ؟ فقيل : لأنه ليست قصة في القرآن تتضمن من العبر والحكم ما تتضمن هذه القصة ; وبيانه قوله في آخرها : " لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب " [يوسف : 111] . وقيل : سماها أحسن القصص لحسن مجاوزة يوسف عن إخوته , وصبره على أذاهم , وعفوه عنهم - بعد الالتقاء بهم - عن ذكر ما تعاطوه , وكرمه في العفو عنهم , حتى قال : " لا تثريب عليكم اليوم " [يوسف : 92] . وقيل : لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين والملائكة والشياطين , والجن والإنس والأنعام والطير , وسير الملوك والممالك , والتجار والعلماء والجهال , والرجال والنساء وحيلهن ومكرهن , وفيها ذكر التوحيد والفقه والسير وتعبير الرؤيا , والسياسة والمعاشرة وتدبير المعاش , وجمل الفوائد التي تصلح للدين والدنيا . وقيل لأن فيها ذكر الحبيب والمحبوب وسيرهما . وقيل : " أحسن " هنا بمعنى أعجب . وقال بعض أهل المعاني : إنما كانت أحسن القصص لأن كل من ذكر فيها كان مآله السعادة ; انظر إلى يوسف وأبيه وإخوته , وامرأة العزيز ; قيل : والملك أيضا أسلم بيوسف وحسن إسلامه , ومستعبر الرؤيا الساقي , والشاهد فيما يقال : فما كان أمر الجميع إلا إلى خير .

ولمّا كان هذا الكلام لا يروقنا على الأقل لسببين رئيسيين، أولهما أنه مجرد كلام قد "قيل"، وثانيهما أن هذا "القيل" من الكلام لا يثبته الدليل ولا تشده الحجة، وجدنا – والحالة هذه حسب زعمنا - أن الحاجة ملحّة (كما هي على الدوام) أن نسأل الله (كما نفعل دائماً) أن يأذن لنا بشيء من علمه، فكان (ولله المنّة) ما نظن أنه تفسير يمكن أن يكون أكثر إقناعاً من أقوال من سبقونا، وربما تدعمه الحجة المستنبطة من كتاب الله.

أما بعد

نحن نظن أن المشكلة في الأفهام السابقة تكمن في عدم إعطاء الكلمات حقها من التدقيق والتفكر، ربما لظن سادتنا من أهل الدراية أنهم قد ألفوها وأحاطوا بها علما، فما شغلتهم كثيراً. ولكنهم – لا شك عندنا- قد أخطئوها، فظلوا الطريق قروناً طويلة، والكلمة التي نظن أنها لم تلق هنا الانتباه الكافي من السادة العلماء أهل الدراية في البداية وأهل الرواية من بعدهم هي مفردة " أَحْسَنَ " نفسها في قوله تعالى (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ

أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ)، ليصير السؤال الذي كان يجب أن يطرح منذ قرون على النحو التالي: ما معنى كلمة " أَحۡسَنَ "؟ ويكون سؤال البحث بعد ذلك على النحو التالي: لم كانت قصة يوسف على وجه التحديد هي أحسن القصص؟ أو بكلمات أكثر دقة نسأل: لم جاءت هذه العبارة " أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ " في بداية سورة يوسف على وجه التحديد؟ لم لم ترد في بداية سورة القصص مثلاً حيث تفاصيل قصة موسى؟ أو في بداية سورة النمل حيث تفاصيل قصة سليمان، أو في بداية سورة نوح حيث تفاصيل قصة نوح، وهكذا؟

رأينا: نحن نظن أن مفردة أَحۡسَنَ تعني الوصول إلى مرحلة الاكتمال، فهي – في ظننا- يجب أن تفهم من باب إجراء التحسينات أو إدخال التعديلات، فعندما تقوم شركة بصناعة سيارة مثلاً – ولله المثل الأعلى- تبقى تلك السيارة (كمنتج للشركة التي صنعتها) في حالة تطوير دائم، وذلك بإدخال تحسينات عليها بعد كل حين، ولا يمكن أن تصل سيارتهم تلك إلى مرتبة السيارة "الأحسن" مادام أن الفرصة باحتمالية إضافة شيء من التعديلات عليها لاحقاً قائمة، لأنها متى ما وصلت إلى مرتبة الأحسن ينتفي مع تلك المرحلة الحاجة (وربما القدرة) على إجراء تحسينات أو إدخال إضافات عليها. ومن هذا الجانب نحن نفهم قوله تعالى:

- ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ۝٧﴾ [السجدة: 7]

فمادام أن الله قد أحسن كل شيء خلقه فيستحيل إذاً إجراء إضافات أو تعديلات على خلق الله، لأن الله هو أحسن الخالقين:

- ﴿ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ۝١٤﴾ [المؤمنون: 14]
- ﴿أَتَدۡعُونَ بَعۡلٗا وَتَذَرُونَ أَحۡسَنَ ٱلۡخَٰلِقِينَ ۝١٢٥﴾ [الصافات: 125]

ومادام أن الله هو أحسن الخالقين، فإن خلقة لا يمكن أن يجرى عليه تعديلات، أما لمّا كنا نحن البشر لسنا أحسن الخالقين (وإن كنا فعلاً خالقين) كان بالإمكان إجراء التعديلات وإدخال الإضافات على ما نخلق على الدوام.

ولما كان خلق الله قد أصبح أحسن الخلق وانعدمت احتمالية إجراء التحسينات على ذلك الخلق، فإن ذلك الخلق يمكن أن يتراجع إلى الوراء ولكنه لن يتقدم إلى الأمام قيد أنملة (وهذا هو – في رأينا- ما يرق أن يقع في باب العلم):

- ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ۝٤ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾ [التين: 4-5]

وفي هذا رد (نظن أنه) واضح على من صّدق وتبنى نظرية داروين في النشوء التي تقدم الافتراض بأن الإنسان في حالة تطور ورقي على الدوام، فنحن نرد عليه بالمنطق المعاكس بالظن بأن خلق الإنسان جاء منذ اللحظة الأولى في أحسن تقويم (أي باستحالة إضافة تحسينات على هذا الخلق على وجه التحديد)، لذا فنحن نرى الصورة معاكسة لنظرية داروين: ففي حين يرى داروين أن الإنسان نشأ من كائن أقل مرتبة (كسلالة القردة مثلاً)، نظن نحن احتمالية أن تكون مثل تلك السلالات قد انحدرت من الإنسان مادام أن خلق الإنسان كان هو الأحسن منذ اللحظة الأولى:

- ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ۝٦٥﴾ [البقرة: 65]
- ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّـٰغُوتَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ۝٦٠﴾ [المائدة: 60]
- ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ۝١٦٥ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ۝١٦٦﴾ [الأعراف: 165-166]

(للتفصيل انظر مقالتنا تحت عنوان تحريم لحم الخنزير)

ولو دققنا بآيات سورة التين لوجدنا أنها تصور أن خلق الإنسان قد بدأ منذ اللحظة الأولى في أحسن تقويم، أي بالصورة النهائية (لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)، ولربما وجدنا أيضاً أنها تثبت احتمالية أن ينزل ذلك الخلق لا أن يرتقي (ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ).

وسنحاول لاحقاً – إن أذن الله لنا الإحاطة بشيء من علمه- أن نبين علاقة ذلك بذكر التين والزيتون على وجه التحديد في هذه الآية الكريمة، ومن ثم محاولة توضيح العلاقة التي يجب أن تفهم لتربط خاتمة السورة الكريمة (فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَـٰكِمِينَ ۝٨) مع مقدمتها (وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢)، جاهدين أن نبرز كيف تكون تلك نتيجة حتمية لهذه المقدمة البديهية، ولكن –حتى الساعة، تأمل - عزيزي القارئ- السورة الكريمة جيداً وحاول أن تربط آياتها بعضها مع بعض:

- ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١﴾ [التين: 1]
- ﴿وَطُورِ سِينِينَ ۝٢﴾ [التين: 2]
- ﴿وَهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾ [التين: 3]
- ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ [التين: 4]

- ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ٥﴾ [التين: 5]
- ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ٦﴾ [التين: 6]
- ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ ٧﴾ [التين: 7]
- ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٨﴾ [التين: 8]

وحاول التفكر بالسؤال التالي: هل في هذه الآية الكريمة دليل كاف نستطيع أن نستنبط من خلاله التصديق بالدين وعدم تكذيبه؟

- ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ ٧﴾ [التين: 7]

و أن الله هو أحكم الحاكمين؟

- ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٨﴾ [التين: 8]

(هذا ما سنحاول التعرض له لاحقاً بحول من الله وتوفيق منه)

نتيجة مفتراة: إن ما نود أن نجلب انتباه القارئ الكريم له هنا هو ما يخص خلق الإنسان من قبل الله الذي هو أحسن الخالقين لنفتري القول أن هذا يقع في باب العلم ولا يقع في باب المعرفة، أما ما يخص ما يخلقه الناس، فلا يمكن أن يكون قد وصل إلى درجة الأحسن، لذا فهو على الدوام قابل للإضافة والتعديل، لذا فهو يقع في باب المعرفة وليس في باب العلم.

ومن هذا المنظور يمكن أن نفهم قوله تعالى:

- ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا ٨٦﴾ [النساء: 86]

فعندما يبادرك شخص بالسلام على نحو "السلام عليكم" ترد عليه بأحسن منها وذلك بزيادة شيء على ما قال، كأن تقول له مثلاً "وعليكم السلام ورحمة الله"، وهكذا.

ومن هذا المنظور يمكن أن نفهم جانباً من قول الحق في الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ٣٣﴾ [الفرقان: 32-33]

ولو دققنا في الآية الكريمة لوجدنا أن الكافرين يطلبون تفسيراً عن سبب أن هذا القرآن لم ينزل جملة واحدة، فيأتي التفسير الرباني بأن القرآن قد نزل على تلك الشاكلة التي نزل بها (كَذَٰلِكَ) لسببين وهما (1) لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ و (2) لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا. ولو أمعنا التفكر في هذين السببين لوجدنا أنه من الاستحالة تقديم إجابة أحسن من هذه الإجابة، ولكننا بحاجة أولاً وقبل كل شيء أن نفهم مراد القول فيهما، ونحن نؤمن إيماناً يقينياً أن فهم ذلك على الحقيقة سيفتح آفاقاً من العلم يصعب على القارئ تصديقها لو نحن نثرنا بعضها على عجل هنا. لذا أسأل الله وحده أن يؤتيني من لدنه علماً لا ينبغي لأحد غيري وأسأله جل وعلا أن يقضي أمره بإرادته ومشيئته لي الإحاطة بشيء من علمه لا ينبغي لأحد غيري إنه هو السميع المجيب.

فهل يمكن أن يضاف شيء ليزيد على تفسيرٍ جاء من ربنا؟ كلا وألف كلا، فما دام أن التفسير قد جاء من عند الله فهو نهاية المطاف ومقصد العلم وغايته، والمهم أنه سيكون نهائياً وذلك باستحالة الزيادة عليه، فالزيادة عليه ستفسده ولن تزيده حسنا.

ومن هذا المنظور يمكن أن نفهم بعض ما جاء في الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [العنكبوت: 46]
- ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل: 125]

فهذه دعوة إلى كل من قام بواجب الدعوة لغير المسلمين أو المجادلة: وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ، وهو ما حدده ربنا في الآية نفسها، فقولوا:

1. ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ
2. وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ
3. وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ

ولا أظن أن زيادة شيء على ذلك (كما يفعل كثير من الدعاة) يمكن أن تفيد الدعوة إلى الله في شيء، بل على العكس، فقد تؤدي –في ظننا- بمردود عكسي، فأنا لا أظن أن جدال أهل الكتاب يكون مثلاً بأمور العبادات (كالصلاة والزكاة والصيام والحج وغيرها) وذلك لأن الله جعل لكل منّا شرعةً ومنهاجا:

- ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [المائدة: 48]

ولا تظن أخي الداع أن شريعتك ومنهاجك المختلفة عن شريعتهم ومنهاجهم هي أفضل، فالله خلقنا لنكون مختلفين:

- ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [هود: 118-119]

فنحن نصلي وهم يصلون، ونحن نزكي وهم يزكون، ونحن نحج وهم يحجون، ونحن نصوم وهم يصومون:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة: 183]

ولكن كلٌ يفعل ذلك على شرعته ومنهاجه الذي جعله الله لهم. فلا تظن عزيزي الداع أن طريقتك في الصيام مثلاً هي أفضل من طريقة صيامهم، ولا تظن عزيزي الداع أن حجك أفضل من حجهم، فكل طائفة من أهل الإيمان تصوم بطريقتها وتحج بطريقتها، فنحن نحج إلى الكعبة وهم يحجون إلى نهر أو إلى حائط أو إلى...الخ.

خلاصة القول: لا تظن عزيزي الداع أن شِرْعَتك (أي طريقتك في تأدية الشعائر) حجة عليهم، لأنهم هم أيضاً يظنون أن شرعتهم (أي منهاجهم في تأدية الشعائر) حجة عليك، وسنعرض لهذه القضايا بتفصيل أكثر في مقالات مستقلة بحول الله وتوفيقه خاصة عندما نتعرض لموضوع تماثيل سليمان لاحقاً، لنطرح تساؤلاً كبيراً حول الآية الكريمة التالية التي جاءت لتصور لنا ما كان يفعل الشياطين لسليمان:

- ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: 13]

وسيكون سؤالنا على النحو التالي: لِمَ كانت الشياطين تعمل التماثيل لسليمان؟ ماذا كان يفعل سليمان بتلك التماثيل؟ ألم يستنكر إبراهيم على قومه وجود التماثيل بينهم؟

- ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنبياء: 52]

ألم يجعل إبراهيم تلك التماثيل جذاذا عندما تولوا عنه مدبرين؟ ثم، ألم يحطم محمد كل تلك التماثيل التي كانت في البيت وحوله عندما دخل مكة فاتحاً؟

السؤال: كيف بسليمان يأمر الجن أن تعمل له التماثيل في حين أن محمد وإبراهيم يحطمون التماثيل؟ هذا ما سنتناوله في تلك المقالة بحول الله وتوفيقه.

لذا فالله أسأل أن يأذن لي الإحاطة بشيء من علمه لا ينبغي لأحد غيري إنه هو السميع المجيب).

وحذاري أخي الداع أن تجلب من أقول العلماء والسلف (أو حتى الأحاديث المنقولة) في مجادلتك أهل الكتاب لأن ذلك لن يزيد الطين إلا بلة. فالحجة يجب أن تكون من الكلام الذي هو أحسن فقط:

- ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ۝٢٣﴾ [الزمر: 23]

لأن الذين يستمعون القول (إن كان هدفهم تجلية الحقيقة طبعاً) سيتبعون بكل تأكيد أحسنه:

- ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝١٨﴾ [الزمر: 18]

فقد شاهدت بأم عيني بعض مجادلات علماء المسلمين مع أهل الكتاب، ولا زلت أذكر كيف كانت حجة علماء المسلمين منصبة على افتراء النصارى بأن المسيح هو ابن الله، وكان جل ما يحاول علماء المسلمين إثباته أن عيسى بن مريم ليس إلهاً وإنما هو إنسان مثلنا مادام أنه قد ولد من امرأة، فكانت حجتهم – على ما أظن- أن عيسى ابن مريم هو إنسان، وقد كنت أتمنى أن يكون المجادل من أهل الكتاب على علم بما في كتابنا ليقرأ على علماء المسلمين قول الله في كتابه الكريم:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ۝١٣﴾ [الحجرات: 13]

ليسأل بعدها علماء الإسلام كيف يظنون أن عيسى بن مريم إنساناً (كما يروجون لذلك صباح مساء) في حين أن القرآن الكريم يثبت بما لا يدع مجالاً للشك بأن الإنسان مخلوق من ذكر وأنثى (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ)، فأين - يا ترى- هو الذكر الذي خلق منه عيسى بن مريم ليكون إنسان مثلي ومثلك؟

أرجو أن لا تقتبس هذه الفقرة بمعزل عن سياقها للترويج لفكرة أني مؤمن بالفكر المسيحي الذي يدّعي أن عيسى بن مريم هو إله، فهذا أبعد ما يكون عن الحقيقة، فأنا على عقيدة مفادها أن عيسى بن مريم ليس إلهاً وليس ابن إله لأن الله قد كذّب دعوى النصارى كما كذب دعوى اليهود من ذي قبل عندما زعموا أن العزير هو ابن الله:

- ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [التوبة: 30]

فالقول بأن عزيرا ابن الله أو أن المسيح ابن الله ليس إلا إفك مفترى.

ولكن ما نود أن نثيره هنا هو في حين أن إدعاء النصارى هو إدعاء كاذب وهو ليس إلا إفك مفترى، فإن ذلك لا يجب أن يشكل دليلاً على أن ما يزعمه علماء المسلمين هو الحق بعينه، لا بل، فنحن نظن أن دعوى علماء المسلمين في عيسى بن مريم هي أيضاً إفك مفترى، فنحن نتحدى أن يقدم لنا أي مسلم (سواء كان من أهل الدراية أو من أهل الرواية) دليلاً واحداً من كتاب الله يثبت أن عيسى بن مريم هو إنسان (أي من جنس الناس). وسنتعرض (بحول الله وتوفيقه) بالتفصيل لهذه القضية عند الحديث عن قصة المسيح عيسى بن مريم، كما سنحاول التعرض لمثل هذه القضية عندما نتحدث عن العزير عند الحديث عن قصة موسى، وعندها سنطرح بحول الله وتوفيقه السؤال المثير التالي: لماذا قالت اليهود أن العزير هو ابن الله ولم يفعلوا كما فعل النصارى بأن ينسبوا ذلك لنبيهم؟ أي لماذا لم تدعي اليهود أن موسى (نبيهم) هو ابن الله كما فعلت النصارى عندما زعموا أن عيسى (نبيهم) هو ابن الله؟

نتيجة: إن ما نحاول أن نبيّنه هنا هو أن مجادلة أهل الكتاب لا يجب أن تكون بالتفاصيل حسب رواية كل فرقة، وإنما بالتي هي أحسن:

- ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل: 125]

والأحسن كما ذكرنا سابقاً هو ما جاء في كتاب الله خاصة:

- ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [العنكبوت: 46]

عودة على بدء

ولكن ما علاقة ذلك كله بقصة يوسف؟ أي لم كانت قصة يوسف هي أحسن القصص؟

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن قصة يوسف هي أحسن القصص لأنها – افتراء من عند أنفسنا- قد وردت كاملة غير منقوصة جملة واحدة في مكان واحد من كتاب الله، فلم يجري عليها تحسين (أي إضافات) في أي مكان آخر من كتاب الله.

الدليل

لو تدبرنا ما جاء في القرآن الكريم على شكل قصص كقصة موسى أو صالح أو شعيب أو زكريا، الخ:

- ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء: 164]

لوجدنا أنها جميعاً كانت ترد في أكثر من مكان في كتاب الله، وليس أدل على ذلك من قصة موسى عليه السلام، فقصة موسى جاءت في كثير من سور الكتاب الكريم مثل البقرة والأعراف والكهف وطه والنمل والقصص، الخ. فهل كانت قصة موسى أحسن القصص؟

رأينا: لا لم تكن أحسن القصص. ولكن لماذا؟

جواب: لو تفقدنا تلك القصة في أي من تلك السور القرآنية التي وردت فيها لما وجدنا أنها جاءت بجميع تفاصيلها، فبعض التفاصيل التي ترد عن قصة موسى في البقرة لا ترد في الأعراف أو في الكهف أو في طه أو في النمل أو في القصص. والعكس صحيح، فبعض تفاصيل قصة موسى في الكهف لا توجد في غيرها، وهكذا. فبقيت قصة موسى في كل سورة يضاف إليها ما يجعلها مختلفة في كل مرة تقص في كتاب الله، ولم ترد كقصة متكاملة محتوية جميع التفاصيل جملة واحدة في موضع واحد، والحالة كذلك لم تكن هي – في رأينا- القصة الأحسن، ولكن بالمقابل كانت قصة يوسف (دون قصص القرآن جميعاً) هي أحسن القصص لأنها جاءت – نحن نفتري الظن- جملة واحدة بجميع تفاصيلها في سورة واحدة، فلم يتم قصها في موقع آخر غير سورة يوسف نفسها، فجاءت في تلك السورة بنسختها النهائية (أي الأحسن). فالقصص برأينا هو تتبع التفاصيل خطوة بخطوة كحال الذي يتتبع الأثر:

- ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾ [الكهف: 64]

ولما كانت قصة يوسف قد جاءت مرتبة مرة واحدة بجميع تفاصيلها في موطن واحد كانت – نحن نزعم القول- هي القصة الأحسن، والله

15 كانون ثاني 2013

المدّكرون: رشيد سليم الجراح & علي محمود سالم الشرمان

بقلم: د. رشيد الجراح



الجزء الثاني

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ



الجزء الثاني: إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ

حاولنا في الجزء السابق من هذا الكتاب تقديم إجابتنا المفتراة على السؤال الذي أثرناه في بدايتها وهو: لم كانت قصة يوسف على وجه التحديد هي أحسن القصص كما جاء في قوله تعالى:

- ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٣ إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ٤﴾ [يوسف: 1-4]

وخلصنا إلى الظن الذي مفاده أن قصة يوسف هي وحدها من بين جميع القصص القرآني جاءت دفعة واحدة في مكان واحد، فلم يجري عليها تعديل أو تحسين في أي مكان آخر من كتاب الله كما هو الحال مثلا بالنسبة لقصة موسى التي وردت في سياقات قرآنية متعددة كان كل سياق يختلف عن غيره بعض الشيء، وكان لزاما أن تكمل جميع السياقات الخاصة بقصة موسى بعضها البعض ليتم فهم القصة على أصولها، وكذلك هو الحال بالنسبة لقصة نوح أو شعيب أو إبراهيم، ولكن قصة يوسف هي القصة الوحيدة التي جاءت بنسختها الأولى والنهائية في مكان واحد، فاستحقت بذلك – نحن نفتري الظن- أن تنعت بلفظ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ.

وسنتابع في هذا الجزء من الكتاب الحديث عن تفاصيل تلك القصة الأحسن طارحين تساؤلات جديدة. وسنحاول في هذا الجزء من الكتاب طرح التساؤل المثير التالي: لماذا نزل القرآن الكريم عربيا؟ وما علاقة ذلك بقصة يوسف؟

أما بعد،

السؤال الأول: لماذا ارتبط فهم قصة يوسف بعربية القرآن الكريم كما جاء في بداية قصة يوسف؟ وهل لو نزل القرآن بلسان غير اللسان العربي كان من الممكن أن يؤثر على "تعقلنا" لقصة يوسف مثلا؟

- ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٣﴾ [يوسف: 1-3]

جواب: نحن نرى بداية ضرورة التفريق بين الكتاب من جهة والقرآن من جهة أخرى، فلقد زعمنا في مقالات لنا سابقة أن الكتاب هو النسخة الأصلية لقول الله الأزلي، أما القرآن فهو النسخة العربية من ذلك القول كما فصله (أي ترجمه) النبي محمد بلسان قومه (لماذا قدم نبي الله لوط بناته بدلا من ضيوفه من الجزء الحادي عشر). ولا أرغب العودة إلى ذلك الموضوع هنا ولكني أود الإشارة فقط إلى قضية جديدة نظن أننا

نتخذ منها موقفا عقائديا ربما يختلف (بشكل جذري) عن مجمل الفكر السائد حولها عند أهل الدراية والرواية من أبناء المسلمين، والمسألة هذه تتعلق بالهدف من أن يكون القرآن عربيا. فهل في هذا مدحا للعربية؟ وهل في هذا تفضيل لأهل هذا اللسان على غيرهم من أمم الأرض؟ وهل يجدر بأبناء العربية أن يتخذوا من ذلك موقفا عقائديا يميّز لغتهم عن لغة غيرهم؟

الفكر السائد:

لعل الجميع يدرك جل ما جاء في هذه القضية في مؤلفات أهل العلم خاصة أصحاب اللسان العربي منهم، فأهل العربية (عالمهم ومتعلمهم) قد تطيّروا بعربيتهم لأنها في ظنهم هي من حملت كلمات الله، فتغنى بها شعراؤهم، وامتدحها خطبائهم على المنابر في كل المحافل، فظن العامة منهم أن في هذا تميّزا لهم على غيرهم من الأمم، (فهم بالإضافة إلى أنهم يحمدون الله أن ولدوا بين المسلمين – ولا أعرف ما ذنب غيرهم أنه قد ولد في غير أهل الإسلام - فلسان حال العربي منهم أنه يحمد الله كذلك أنه عربي من أهل اللسان الذي جاء القرآن بلغتهم، فلربما شعر بشيء من التميّز على غيره من أبناء المسلمين اللذين لا يتكلمون اللسان العربي، لا بل وتنامى الشعور عند البعض أن من الخير أكثر أن يكون من أهل جزيرة العرب، وربما يزيد الخير إن كان من أهل مكة أو من بطن من بطونها، وربما يصل الحال أن تكون الخيرية في عائلة من بين كل أولئك – من يدري!!!).

رأينا: نحن نتخذ الموقف العقائدي الذي مفاده أن الله عادل لا يحابي أمة على حساب أخرى، لمجرد أن تأتي كلماته بلسانهم. لأنه إنْ كان الأمر على هذه الشاكلة، فقد سبقنا إلى تلك الخيرية أمم كثيرة، ولأصبحنا نحن آخر أمة يحق لها أن تتباهى بذلك. لكن السؤال الذي لا يجب أن يُغْفَل عنه عن قصد أو عن غير قصد هو في ظننا: هل مجيء التوراة باللسان العبراني تفضيل لتلك الأمة على غيرها؟ وهل في ذلك تفضيل للسان العبراني على غيره من الألسنة في ذلك الزمان؟ وهل إن كان الإنجيل قد نسخ باللسان الآرامي، هل في ذلك تفضيل لتلك اللغة على غيرها، ولأهل ذلك اللسان على غيرهم؟ فإن كانت الإجابة بالإيجاب، فنحن العرب إذن نكون آخر تلك الأمم في ذلك التكريم الرباني الذي نظن أنه مفترى. وإن كانت الإجابة بالنفي، فليس لنا حق إذن أن نتفاخر على غيرنا بذاك اللسان.

لكن هذا الطرح لا يحل إشكالية السؤال نفسه وهو: ما الحكمة أن يكون القرآن عربيا إذن؟

رأينا: نحن نرى أن الإجابة متوافرة في تكملة الآية الكريمة نفسها التي جاءت لتتحدث عن قصة يوسف، فانظر – عزيزي القارئ- الآية جيدا:

- ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢﴾ [يوسف: 2]

نعم هو كذلك: لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ

وهنا سيظن البعض على الفور أن في هذا انتصار لموقفهم السابق، وأن في هذا تفضيل للسان العربي، ولكننا نستدركهم على الفور بطرح السؤال المباشر التالي: على ماذا يعود ضمير الجمع الغائب في مفردة لَعَلَّكُمْ في الآية الكريمة نفسها؟ فمن هم الذي يمكن أن "يعقلون"؟ هل تعود مثلا على العرب أهل اللسان العربي فقط؟

جواب: كلا وألف كلا، فكلام الله موجه للناس كافة:

- ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٨﴾ [سبأ: 28]

ولا ننسى أيضا أن التحدي بالقرآن الكريم جاء للجن والإنس جميعا بغض النظر عن لسانهم:

- ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ٨٨﴾ [الإسراء: 88]

لذا يأتي طرح السؤال نفسه مرة أخرى على النحو التالي: من الذي سيعقل القرآن الكريم بلسانه العربي؟ هل العرب فقط هم اللذين يستطيعون ذلك؟ وهل العرب من يجب أن يعقلوا كلام الله أولا، ليتولوا هم بعد ذلك مهمة نقله إلى الأمم الأخرى؟ فهل يجب أن يأتي فهم البشرية (الناس كافة) للقرآن الكريم من خلال أهل اللسان العربي (أي العرب)؟

إن هذا الظن هو ما دفع – في رأينا- كثير من أهل العلم إلى اشتراط توافر عنصر المعرفة باللغة العربية (لا بل وإتقانها) لمن أراد الاجتهاد في كتاب الله، وبكأن لسان حالهم يقول "أنك لا تستطيع أن تعقل ما في كتاب الله إن لم يكن لسانك عربيا، لا بل ما لم تكن متقنا للعربية وفنونها"، أليس كذلك؟ وبكأن لسان حالهم يقول بأن التصدي لمهمة فهم كتاب الله يجب أن تمر لزاما من خلال أهل اللسان العربي، وبكأنهم هم الواسطة بين كتاب الله والبشرية، وبكأنهم مكلّفون كرسل لينقلوا ما في كتاب الله إلى البشرية، وبكأنهم يظنون أن الناس كافة يجب أن ينتظروا ما تجود به عقول أهل اللسان العربي من فهم لكتاب الله.

إذن، ها هو العالم بأكمله في مرحلة انتظار منذ أربعة عشر قرنا من الزمن، والنتيجة ... . من يدري!!!

رأينا: نحن نرفض مثل هذا الموقف جملة وتفصيلا لظننا بأن ذلك يجعل أمر الاجتهاد والاشتغال بعلوم القرآن الكريم محصورا على أمة بعينها، لتبقى الأمم الأخرى تابعة مقلدة، تأخذ ولا تعطي، كما نعتقد جازمين أن مع مثل هذا الواقع (إن صح) ينتفي العدل الإلهي، فلو كنت أنا نفسي من أمة لسانها غير العربي لما قبلت بذلك إطلاقا. فما قيمة المسلم الهندي والصيني والأمريكي والتركي و...، إلخ إن بقي عملهم مختصرا جله على ما يتلقّونه من أهل اللسان العربي. أليس في ذلك تضيق على أمم الأرض؟ وأليس في ذلك تحفيز لفكرة أن القرآن الكريم خاص بأمة وبثقافة محددة بعينها؟ ألم ينفر بشر كثيرون من كتاب الله لظنهم أن هذا من ثقافة أهل الصحراء؟ ألم يصوّر الكثيرون القرآن على أنه ليس أكثر من كتاب يروي "بعض تاريخ" أمم محددة

بمنطقة جغرافية بعينها؟ ألم يتوصلوا إلى النتيجة التي مفادها ما دام أن القرآن هو كذلك، فهو لا يعنيهم بأي حال من الأحوال؟

السؤال: من الذي أوصل الناس كافة إلى مثل هذه الأفهام التي هي – في ظننا - لا شك مغلوطة للسبب البسيط وهو أن هذا القرآن جاء للناس كافة وأن الرسول الذي جاء به قد أرسله الله رحمة للعالمين؟

- ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٨﴾ [سبأ: 28]
- ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: 107]

الفهم البديل المفترى من عند أنفسنا: أولا، نحن نردد بداية موقفنا العقائدي الثابت بأن ليس هناك لغة على وجه الأرض يمكن أن تتسع لكلمات الله مصداقا لقوله تعالى:

- ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ١٠٩﴾ [الكهف: 109]
- ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٧﴾ [لقمان: 27]

لذا نحن نتجرأ على تقديم النتيجة المفتراة من عند أنفسنا التالية: نحن نظن أن لا العربية (ولا أي لغة بشرية أخرى) تستطيع أن تحتوي كلمات الله، لذا لا يحق للعرب أن يتغنوا بأن لغتهم قد وسعت كتاب الله لفظا وغاية كما رددها أحد شعراءهم في مدحه للغته العربية (كما أحفظه أنا منذ الصف الثاني أو الثالث الإعدادي ب):

وسعت كتاب الله لفظا وغاية   وما ضقت عن آي به وعظات

ثانيا، نحن نظن أن أي كتاب سماوي (بما فيها القرآن) يأتي بلسان قوم الرسول الذي بعثه الله فيهم:

- ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٤﴾ [إبراهيم: 4]

نتيجة مفتراة: لذا جاء القرآن عربيا لأن الرسول الذي بعثه الله فينا كان عربي اللسان، وليس في هذا تفضيل للسان ذلك الرسول على لسان غيره، فلقد جاءت رسالات الله بألسنة رسله الكثيرين:

- ﴿وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾ [النساء: 164]

ولمّا كانت كل أمة قد خلا فيها رسول، تتساوى جميع الأمم في ذلك:

- ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ٢٤﴾ [فاطر: 24]

فلا تفاخر للأمم على بعضها البعض من هذا الجانب، لأننا لو تفاخرنا على غيرنا، لحق لغيرنا أن يتفاخر علينا، وعندها سيقع الجميع في فلسفة مفادها (أنني ملاك سماوي وغيري شيطان رجيم).

نتيجة: لقد جاء كل رسول (بمن فيهم محمد) برسالة صاغها بلسان قومه، باستثناء عيسى بن مريم فقط وذلك لأن عيسى لم يكن له قوم، فعيسى جاء رسولا إلى بني إسرائيل ولكنه لم يكن من بني إسرائيل، فهو بظننا لم يتحدث لغة بشرية إطلاقا (انظر سلسلة مقلاتنا كيف تم خلق عيسى بن مريم).

ثالثا: كان الرسول هو من يتولى مهمة نقل الرسالة إلى الناس بلسانهم، وهذا يعني بمفرداتنا البسيطة أن الرسول كان يتلقى الرسالة كما هي في نسختها الأصلية (قول رباني) كما تشير الآيات الكريمة التالية التي جاءت في بداية سورة الشورى:

- ﴿حمٓ ١ عٓسٓقٓ ٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٣﴾ [الشورى: 1-3]

ثم يقوم الرسول نفسه (بما علّمه ربه) بتحويل تلك الشيفرة الإلهية إلى لغة بشرية بلسان قومه. فالقرآن مثلا نزل على قلب محمد بتلك الصيغة الإلهية الأصلية (حمٓ ١ عٓسٓقٓ ٢)، وتولى محمد بنفسه مهمة نقل تلك الصيغة الإلهية إلى النسخة العربية منها، فكان ذلك هو – في رأينا- تفصيل الكتاب بلسان عربي:

- ﴿حمٓ ١ عٓسٓقٓ ٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٣﴾ [الشورى: 1-3]

فالتفصيل هو إذن – كما نفهمه بالطبع- تحويل الكلمات من لغة إلى لغة أخرى، وهذا المعنى ربما يمكن استنباطه من السياق القرآني التالي:

- ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ٤٤﴾ [فصلت: 44]

والآية الكريمة تشير صراحة إلا أن قضية تفصيل القرآن أعجمي أو عربي ليست بالأمر الفصل، لأنه بأي حالة كان، فهو هدى وشفاء (قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ)، ولكن بالنسبة للذين لا يؤمنون بغض النظر عن لسانهم الأم فإن الوقر مستحكم في أذنيهم، وهو لا شك عليهم عمى (وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ

عَمًى)، لذا لن يستطيعوا الوصول إلى معانيه مهما بلغوا من الفصاحة، ولو كان الأمر يحسمه التحكم بناصية اللغة لكان أبو جهل وأبو لهب وأمية بن خلف وسهيل بن عمر أولى بالإيمان به من سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي. فالقرآن كان هدى لسلمان وصهيب وبلال (على عجمتهم)، ولكن لسان حال أبو جهل وأبو لهب وأمية بن خلف وسهيل بن عمر فإنه سيكون على النحو التالي:

- ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠﴾ [الملك: 10]

فهؤلاء (على فصاحة لسانهم) إلا أنهم لا يعقلون باعترافهم أنفسهم.

وبهذا المنطق المفترى من عند أنفسنا يمكننا أن نفهم بعضا من قدر الرسول الذي بعثه الله فينا، فالله لا يبعث رسولا إلا إذا كان ذلك الشخص المبعوث للناس رسولا يستطيع الاضطلاع بمهمة خاصة وهي مهمة تفصيل الكتاب، أي يستطيع أن يستوعب الكتاب بنسخته الإلهي الأصلية:

- ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾ [الشورى: 1-2]

وهذه هي لغة الوحي:

- ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣﴾ [الشورى: 3]

ثم تكون مهمة ذلك الرسول أن يبيّن للناس ما نزل إليهم من ربهم بلغة قوم ذلك الرسول:

- ﴿بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝٤٤﴾ [النحل: 44]

ويستطيع الرسول القيام بذلك بما علمه الله من الذكر (وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ)، فيقوم ذلك الرسول بتفصيل (أي ترجمة) لغة الوحي إلى لغة بشرية. وهذه مهمة لا نظن أنه يستطيع القيام بها إلا رجالا من أمثال محمد. فالشرط الرئيس لقبول طلب من تقدم إلى شغر وظيفة رسول من الله إلى قومه هو أن يثبت أنه يستطيع فهم لغة الوحي وتفصيلها إلى لغة بشرية، وهذا لا شك باب من العلم عظيم:

- ﴿وَلَقَدْ جِئْنَـٰهُم بِكِتَـٰبٍ فَصَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢﴾ [الأعراف: 52]

السؤال: لماذا محمد؟ لماذا موسى؟ لم لا أستطيع أنا أو أنت الاضطلاع بتلك المهمة؟ ولم لم يجتبينا الله لتلك المهمة؟ ولم اجتبى الله محمدا وأمثال محمد ممن سبقه من الرسل؟

جواب: نحن نظن أن الجواب يمكن في فهم ماهية التعقل؟ من الذي يستطيع أن يعقل ما جاء في كتاب الله؟

جواب: نحن نفتري القول أن الذي يستطيع أن يعقل ما في كتاب الله هو القلب وليس اللسان، فصاحب القلب السليم هو من يستطيع أن يعقل ما في كتاب الله وليس بالضرورة أن يستطيع القيام بذلك من كان لسانه سليما (أو فصيحا)، لذا من أراد أن يضطلع بمهمة الرسول مثلا، فعليه أن يكون قلبه كقلب محمد. فالمشكلة تكمن في القلب الذي يعقل:

- ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۚ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنعام: 25]

فلكي يتم تعقل ما في هذا الكتاب فلابد من تزال الأكنة عن القلب، وهي ما يحجز الذين لا يؤمنون عن فهم ماهية ما في ذلك الكتاب. لذا فإن الذي استطاع أن يزيل تلك الأكنة عن قلبه هو من يستطيع أن يتصدى لتلك المهمة العظيمة. فالدعوة لدينا هي أن ننقل مهمة فهم هذا القرآن الكريم من بين أيدي أصحاب اللسان الفصيح إلى أيدي أهل القلوب التي تعقل وإن لم تكن ألسنتهم فصيحة.

(دعاء: اللهم رب العرش العظيم اكشف الأكنة عن قلبي لأعلم كيف فصّلت آيات الكتاب قرآنا عربيا، وأسألك ربي وحدك أن تنفذ

قولك بمشيئتك وإرادتك لي الإحاطة بشيء من علمك لا ينبغي لغيري إنك أنت العليم الحكيم)

سؤال: وكيف يختلف قلب محمد عن قلبي وعن قلبك أو عن قلب أي شخص آخر؟

جواب: نحن نظن أن الإجابة على ذلك تكمن في جلب سياقين قرآنيين معا، ثم لننظر إلى الأمر من خلال مجمل ما يمكن أن نفهمه منهما معا، لذا حاول عزيزي القارئ أن تتدبر السياقين التاليين معا:

- ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر: 21]
- ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: 192-195]

فما الذي يمكن أن نستنبطه من وضع الآيتين جنبا إلى جنب؟

رأينا: لقد كان قلب محمد أشد تحملا من الجبل. فالذي نزل على قلب محمد لو أنه نزل على جبل لتصدع ذلك الجبل من ثقل ما حُمِّل.

نتيجة: إن من أراد أن ينزل على قلبه كلام من ربه، فيجب أن يمتلك قلبا يزيد في قدرة تحمله على الجبل وذلك لأن كلام الله لا شك ثقيل:

- ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ [المزمل: 5]

ونحن نظن أن في هذا إشارة واضحة إلى تميّز شخص الرسول عن غيره من البشر، فالرسول ليس مجرد ساعي بريد (جو- أرض) ينقل رسالة من مصدر إلهي إلى نهاية أرضية. لا بل فهو متصرف بتلك الرسالة بطريقة لا يستطيع غيره القيام بذلك التصرف.

الدليل

نحن نظن أن الدليل على افترائنا هذا يأتي من المشاهدة البسيطة بأن الرسول قد أكتسب صفة المبعوث علاوة على صفة الرسول:

- ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ [الجمعة: 2]

السؤال: كيف يكون الرسول مبعوثا؟ أو كيف يكون المبعوث رسولا؟ وما الفرق أصلا بين الرسول من جهة والمبعوث من جهة أخرى

معنى أرسل مقابل معنى بعث

تتناوب السياقات القرآنية في إيراد مفردتين متقاربتين في العربية ربما لم يجري التمييز بينهما بالدقة المطلوبة وهما مفردة "أرسل" كما في قوله تعالى:

- ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ۝١٥١﴾ [البقرة: 151]

مقابل مفردة "بعث" في قوله تعالى:

- ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ [الجمعة: 2]

السؤال: كيف نفهم أن الله قد أرسل محمد رسولا فينا(كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ) وفي الوقت ذاته كان محمد مبعوثا فينا رسولا من الله (هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ)؟

جواب: نحن نظن بأن الفرق بين الرسول والمبعوث تكمن في الواجب المكلّف أن يقوم به كل منهما، ولكن كيف ذلك؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن مهمة الرسول المرسل تكمن في قوله تعالى:

- ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ٩٩﴾ [المائدة: 99]
- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٣٥﴾ [النحل: 35]
- ﴿۞ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ ٥٤﴾ [الروم: 54]
- ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٨﴾ [العنكبوت: 18]

نتيجة: تكمن مهمة الرسول (أو من أرسله الله رسولا) في التبليغ فقط ولا شيء غير التبليغ.

السؤال: فما هي مهمة المبعوث؟ أو بكلمات أكثر دقة نسأل: ما هي مهمة الرسول المبعوث، أو من بعثه الله رسولا؟

رأينا: نحن نظن أن لمن بعثه الله رسولا حق التصرف بما بُعِث فيه. فهو يستطيع أن يتدخل بالأمر ويستطيع أن يتدخل في تفاصيل الرسالة التي جاء بها.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: الرسول يحمل رسالة محددة يقوم بمهمة نقلها كما هي فقط، بينما المبعوث يحمل رسالة مجملة يحق له التصرف بتفاصيلها

الدليل

ها هم أهل الكهف يبعثوا أحدهم إلى المدينة ليحضر لهم من طعامها أزكاه:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْۚ قَالَ قَآئِلٞ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٖۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامٗا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٖ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ١٩﴾ [الكهف: 19]

فأصبح ذلك الذاهب منهم إلى السوق مبعوثا يحمل مجمل الرسالة (وهو أن يحضر لهم رزقا من طعام المدينة)، ولكنه هو من سيتخذ القرار في نوع الطعام الذي سيختاره لهم. ولا شك أن ليس لهم بعد ذلك حق بالاعتراض على ما يختاره لهم من بعثوه منهم. فمجمل القول أن من بعثوه منهم قد ذهب يحمل رسالة مجملة (وهي أن يحضر لهم من طعام المدينة أزكاه)، ولكنهم لم يحملوه تفاصيلها، وعليهم القبول باختياره هو لهم (فهو من سيقرر ما هو أزكى طعام المدينة الذي سيحضره لهم).

وإذا ما دب الخصام بين الرجل وامرأته، فإن إحدى وسائل الحل تتمثل في أن يبعث كل طرف بواحد من أهله ليكونا حكما بينهما:

- ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمٗا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا ٣٥﴾ [النساء: 35]

ولا شك عندنا أن المبعوث حكما لا يأتي وهو يحمل كامل التفاصيل لتتقلص مهمته في نقل ما يحمل، بل هو حكم مفاوض يستطيع أن يدلي بدلوه بالأمر، وعلى من بعثه أن يتحمل نتائج حكمه وقراره، فالمبعوث إذا هو صاحب قرار بتفاصيل الرسالة ضمن الإطار العام لها.

ولا زلنا حتى اللحظة نستخدم المفردتين بهذا المعنى، فعندما يدب نزاع في منطقة ما تقوم الأمم المتحدة مثلا بتسمية مبعوثا لها (فيسمونه المبعوث الأممي) ليذهب هناك في مهمة تفاوضية، ويكون مخوّلا بالخوض بالتفاصيل التي لم يأتي يحملها في جيبه. فهو يحمل رسالة مجملة (بخطوطها العريضة) وليست مفصلة (بدقائق الأمور).

وعندما ابتعثني الجامعة في بعثة دراسية إلى الخارج، فقد ذهبت حاملا في جعبتي رسالة مجملة غير مفصلة وهي الحصول على شهادة (والعودة بعد ذلك إلى الوطن)، ولكن من ابتعثني (أي الجامعة) لم تحدد جميع التفاصيل خطوة بخطوة، فتركت لي (كمبعوث) حق التصرف في كثير من تفاصيلها التي لا تتعارض مع مجمل الهدف من البعثة نفسها. ولو أن تلك الجهة قامت بإرسالي إلى جهة أخرى (ولم أكن مبعوثا)، لما كان لي حق التصرف بشيء من تفاصيل الأمر، ولما تجاوزت مهمتي القيام بنقل الرسالة كما هي.

نتيجة مفتراة: الرسول يحمل رسالة يبلغها كما هي دون زيادة ولا نقصان، أما المبعوث (أو المبعوث رسولا) فتتجاوز وظيفته مهمة النقل، ليكون له حق التصرف ببعض تفاصيلها التي لا شك لا تتعارض مع مجمل الرسالة، قال تعالى:

- ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [المائدة: 67]

السؤال: إذا كانت مهمة من أرسله الله رسولا تقتصر على تبليغ الرسالة كما هي بدون زيادة ولا نقصان، يبقى السؤال الأكثر إثارة هو: كيف يتصرف المبعوث رسولاً بالرسالة؟

لو دققنا في السياق القرآني التالي لوجدنا أن الرسول نفسه هو من يقوم بتزكية من تلى عليهم آياته، وهو من يقوم بمهمة تعليمهم الكتاب والحكمة:

- ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة: 2]
- ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [البقرة: 151]

فكيف نفهم أن الرسول يقوم بمهمة تزكيتنا والله نفسه هو من أمرنا بأن لا نزكي أنفسنا لأن الله هو من يزكي الأنفس:

- ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾ [النجم: 32]
- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ [النساء: 49]

نتيجة: نحن نظن أن للرسول حق تزكية الأنفس التي هي في الأساس من حق الله نفسه. فكيف يكون ذلك؟

رأينا: نحن نظن أن الرسول ليس فقط مجرد رسول مرسل ولكنه أيضا رسولا مبعوثا، لذا فإنه يستطيع - بما آتاه الله من علم الكتاب - أن يزكي الأنفس. (وسنتعرض لهذه الجزئية لاحقا، فالله أسأل أن يأذن لي بشيء من علمه وأن أكون ممن يزكيهم رسوله المبعوث فينا وممن علمهم الكتاب والحكمة، واسأل الله أن يخرجني من الظلال المبين الذي اشهد أنني واقع فيه ما لم يعلمني رسوله)

لذا نعود إلى لب النقاش بالقول بأن محمد كان قد بعث رسولا من الله فينا لأن له حق التصرف في جزئيات الرسالة بما لا يتعارض مع المهمة الرئيسة التي أرسله الله بها للناس كافة:

- ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٨﴾ [سبأ: 28]

السؤال: ما علاقة ذلك كله بتفصيل الكتاب عربيا (موضوع النقاش الذي ابتدأنا به)؟

جواب مفترى: قام محمد بتلقي رسالة ربه بكلماتها الأصلية كما هي في مصدرها الرئيس (الكتاب)، وعمل – بما آتاه الله من الذكر- على تبيان ما نُزِّل للناس إليهم من ربهم:

- ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٤٤﴾ [النحل: 44]

فقام هو (أي محمد) بالتصرف بها، فنقلها إلى الناس بلسان عربي مبين (لسان قومه) بكل صدق وأمانه، فما كان محمد يستطيع أن يتصرف بالتفاصيل بما يتعارض مع الرسالة المجملة:

- ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ٤٥ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ٤٦﴾ [الحاقة: 44-46]

فكان الله هو المطلع على الدوام على ما يقوم محمد من تفصيل رسالة ربه للناس، لذا جاء قول الحق صريحا بأن نأخذ كل ما آتنا به محمد:

- ﴿... وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٧﴾ [الحشر: 7]

وقد لخّص الله كل ما آتانا به الرسول في قوله تعالى:

- ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ٨٧﴾ [الحجر: 87]

وكان التحدي بهذا القرآن للجن والإنس معا على أن يأتوا بمثله:

- ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ٨٨﴾ [الإسراء: 88]

وهنا يطرح التساؤل التالي على الفور: كيف يتحدى الله الجن والإنس (على حد سواء) أن يأتوا بمثل هذا القرآن مادام أنه عربي؟ فهل لغة الجن هي العربية؟ وهل يتحدث كافة الإنس اللسان العربي؟ وكيف يستطيع من لا يتحدث اللسان العربي أن يعقله كما جاء ذلك واضحا في بداية سورة يوسف وهو ما استدعى جلب النقاش هذا كله في هذا المحل:

- ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢﴾ [يوسف: 2]

افتراء جديد من عند أنفسنا: نحن نظن أن بإمكاننا أن فهم ماهية هذا التحدي لو أننا نسمح لأنفسنا (ولو لبعض الوقت) أن نغرّد خارج السرب قليلاً، لنقع عن قصد ضحية تخيّلات مفتراة من عند أنفسنا، ملتمسين في الوقت ذاته من سادتنا العلماء العذر على الإساءة التي يمكن أن نقترفها، طامعين بحلمهم الذي نظن أنه قد يتسع لنا ولو لبعض الوقت.

التخيلات

1. **الإساءة الأولى**: القرآن نزل عربيا لأن العرب هم أقل أمم الأرض قدرة على فهمه
2. **الإساءة الثانية**: القرآن نزل عربيا لأن العربية هي أقل لغات الأرض قدرة في توصيل المراد
3. **التخريف الأول**: القرآن نزل عربيا ليكون حجة على الناس كافة لأن كافة الناس (عربيهم وأعجميهم) يستطيعون فهمه دون الحاجة أن يتحدثوا اللسان العربي
4. إن صحت تخريفاتنا هذه، فإنه يسهل عندها تسويق النتيجة المفتراة من عند أنفسنا وهي أن القرآن الكريم ليس كتابا خاصا بأهل العربية، لذا يجب أن يكون شاغلا للبشرية بأكملها، ولن يجد شخص على وجه الأرض الحجة (أو لنقل العذر) لئلا يشتغل به حتى وإن لم يكن من أهل الفصاحة والبداوة العربية.
5. الخ

التعليق

هذه لا شك افتراءات خطيرة و(ربما) مسيئة للكثيرين خاصة لأهل العربية (وأظن نفسي أني أحدهم)، وأنا على يقين أن الكثيرين سيحاولون اجتزاءها عن سياقها الكلي، ليروجوا لحجم الإلحاد الذي وقع به رشيد الجراح (كما فعلوا أكثر من مرة)، ولكني أقول لكل من يمكن أن يقوم بمثل هذا الفعل (الذي أظن أنه مسيء) بأني لا أقبل أن يكون بيننا حكما سوى الله نفسه:

- ﴿قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٢٦﴾ [سبأ: 26]

أما بعد،

الإساءة الأولى: القرآن نزل عربيا لأن العرب هم أقل أمم الأرض قدرة على فهمه

عذرا أيها السادة نحن نظن (مفترين القول بالتأكيد) أن أمة العرب ليست من الأمم الراقية فكريا، فهم أمة قلما تلتزم بجادة الصواب، ونحن نظن أن هذا جزء مما نفهمه نحن مما جاء في قوله تعالى في الآيات الكريمة التالية:

- ﴿وَجَاءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٩٠﴾ [التوبة: 90]
- ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٩٨﴾ [التوبة: 98]
- ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ۝١٠١﴾ [التوبة: 101]
- ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٢٠﴾ [التوبة: 120]
- ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ۝١١﴾ [الفتح: 11]
- ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٦﴾ [الفتح: 16]
- ﴿۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٤﴾ [الحجرات: 14]

وبالرغم من هذا الكم الكبير من الآيات التي تشكّل – في ظننا- دليلا على ذم الأعراب، لم يأتي المديح لبعضهم (وليس لهم جميعا) إلا في سياق قرآني واحد:

- ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٩٩﴾ [التوبة: 99]

(دعاء: أسأل الله أن أكون من هذه الفئة من الأعراب)

ولكن الذم المباشر للمجموع جاء صريحا لا لبس فيه في الآية الكريمة التالية:

- ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾ [التوبة: 97]

ولو أردنا أن نكون منصفين لمن تفاخر عبر القرون بأصله العربي فإننا نقول دعنا نخرج حتى اللحظة بفكرة لا غالب ولا مغلوب: فإن كنت لا ترضى أن تُذَمَّ عربيتك، فكن منصفا فلا تسلطها سيفا على رقاب الأمم الأخرى.

الإساءة الثانية: القرآن نزل عربيا لأن العربية هي أقل لغات الأرض قدرة في توصيل المراد

نحن نظن أن القول بأن القرآن نزل عربيا لا يشكل بأي حال من الأحوال دعوة للظن بأن العربية قد تميزت على غيرها من لغات الأرض، وذلك للأسباب التالية:

1. لقد سبقت لغاتٌ كثيرة العربيةَ في حمل كلمات الله، وما كانت العربية إلا آخر تلك اللغات التي شرفت بحمل الرسالة، ولو كان هناك داع للتفاخر بعنصر اللغة لكانت العربية هي آخر من يستحق ذلك، ولكن لغيرنا السبق في ذلك.

2. جاءت جميع رسل الله أقوامهم برسالاتهم بلسان غير عربي، فنوح لم يكن عربي، ولم يكن إبراهيم عربيا، ولم يكن موسى عربيا، ولم يكن عيسى عربيا، أليس كذلك؟ وقد حاولت بعض الأمم السابقة الدعوة إلى أمميتهم (كأن يكونوا شعب الله المختار مثلا)، عندها شعرنا نحن (من لسنا جزءا من ذلك الشعب) بالامتعاض، وظننا أن في ذلك فوقيّة نتنه وإساءة واضحة لا تمت إلى العدل الإلهي بصلة، لذا كان على علمائنا الأجلاء من باب أولى أن لا يقعوا (وأن لا يوقعونا) في الشرك نفسه الذي وقعت فيه الأمم الأخرى. فكما أن الله أختار بني إسرائيل على العالمين:

- ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [البقرة: 47]

جاء خطاب الله واضحا ليضع كل من اتبع عيسى بن مريم فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة:

- ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [آل عمران: 55]

وجا خطابه جليا لتكون أمة محمد خير أمة أخرجت للناس:

- ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران: 110]

ولو راقبنا الشرط في ذلك جميعا لوجدناه شرط الإيمان وليس شرط اللغة أو العرق، فمن تبع رسالة موسى ومن تبع رسالة عيسى ومن اتبع رسالة محمد الصحيحة فهو من فضله الله على العالمين وهو من جعله الله فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة وهو من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وذلك لأن دين الله واحد في جميع تلك الرسالات وهو دين الإسلام:

- ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٩﴾ [آل عمران: 19]

فكما كان محمد مسلما، كان إبراهيم وموسى وعيسى وجميع رسل الله من المسلمين.

3. إن الدعوة إلى أفضلية اللسان العربي تجعل من القرآن الكريم كتابا خاصا بثقافة محددة بعينها وبأمة محددة بلسانها. الأمر الذي نرفضه عقائديا جملة وتفصيلا.

4. الخ

النتيجة: إن ترك الأوهام القديمة المتمثلة بثقافة التعالي على الآخرين، ووضع الأمور في نصابها الصحيح ربما يقودنا إلى النتيجة التي مفادها أن يكون القرآن شغلا شاغلا للبشرية بأكملها، ولا يجب أن يجد شخص على وجه الأرض الحجة (أو لنقل العذر) لئلا يشتغل به، وذلك لأن مجرد الدعوة إلى التحيّز للسان العربي تحرم البشرية من العقول الكبيرة والكثيرة التي كان يمكن أن تشتغل بكتاب الله لو أنهم ظنوا أن لسانهم غير العربي ليس حاجزا بينهم وبين قول ربهم، وأننا بحاجة إلى قلوبهم لتفقه ما في هذا الكتاب العظيم وليس فقط إلى ألسنتهم التي تردد ألفاظه ولا تعي معانيه. وهنا أطرح السؤال على كل ذي لب: ماذا قدّم غير أهل اللسان العربي لهذا الدين؟ وكيف ساهموا في فهم كتاب الله؟

وهنا لا أتحدث عن من كان من أصل غير عربي ولكنه أتقن العربية كالبخاري ومسلم و... الخ. فأمثال هؤلاء الرجال قد أتقنوا العربية وامتلكوا ناصيتها ثم عملوا بعد ذلك في قضايا الدين، لكن سؤالي يدور حول من لم يملك اللسان العربي وإن كان مسلما (وما أكثرهم!). فهل ساهم مسلمو الصين والهند واندونيسيا وتركيا وأوروبا والأمريكيتين (ممن لا يتقنون اللسان العربي) في هذا الدين غير مهمة النقل؟ هل ساهموا في صناعة الفكر الإسلامي؟!

الخطأ الجسيم

لقد نخر علماؤنا الأجلاء (من أهل اللسان العربي) في ذهن المسلمين (غير العرب) أن الاشتغال بالدين (وخاصة كتاب الله) يتطلب معرفة اللسان العربي أولا، ولمّا كان غالبية المسلمين لا يستطيعون ذلك (فعدد المسلمين من غير العرب أضعاف أضعاف عددهم من الأعراب ومن أبناء العربية)، فقد أراحوا أنفسهم

وضمائرهم عناء المحاولة عندما ظنوا أن ليس من واجبهم أن يشتغلوا بكتاب الله ما دام أنهم لا يتقنون اللسان العربي، فظلوا قرونا طويلة من الزمن يتلقّون ما تجود به عقول أبناء العربية التي لا أظن أنها (مع احترامي لنفسي ولأبناء جلدتي من أهل العربية) قد أجادت أصلا بشيء أكثر من خربطات وتخريصات ضحكوا بها على "بعض الآخرين"، فأضحكوا بها كثير من الآخرين علينا.

السؤال: ولكن كيف يستطيع أهل غير اللسان العربي أن يعقلوا ما في كتاب الله؟

التخريف:

نحن نظن أن القرآن قد نزل عربيا ليكون حجة على الناس كافة لأن كافة الناس يستطيعون فهمه حتى دون أن يفهموا اللسان العربي، وأن العرب هم أقل الناس قدرة على العلم بما في كتاب الله. ولكن كيف ذلك؟

رأينا: لما كان الأعراب هم الأشد كفرا والأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله (﴿ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٩٧﴾ [التوبة: 97])، كانت المهمة واقعة لا محالة على غيرهم ممن هم أقرب إلى الوصول إلى جادة الصواب (وهم لا شك من غير الأعراب). لذا فإن الظن أميل عندي إلى الاعتقاد بأن غير الأعراب هم الأولى أن يتصدوا لهذه المهمة (أي أن يعلموا حدود ما أنزل الله)، وأتخيل أنه لو فعلاً حصل أن أشتغل غير الأعراب في كتاب الله، لخرج منه علما غزيرا لا تستطع عقول أهل العربية أن تتبيّنه.

السؤال: ألا ترى يا رجل أنك قد وصلت إلى درجة متقدمة من الهذيان؟ فما الحكمة أن ينزّل الله القرآن بلسان أمة هي الأقل بين أمم الأرض بالعلم بحدود ما أنزل على رسوله؟

جواب: نحن نظن أن في هذا إيقاع للحجة على البشرية بأكملها، ولكن كيف ذلك؟

رأينا:نحن نعتقد جازمين أن القرآن الكريم جاء مبينا للناس كافة:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩﴾ [البقرة: 159]
- ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٤٤﴾ [النحل: 44]

لنخلص إلى نتيجة بسيطة من خلال هذه الآيات الكريمة وهي أن التبيان لم يكن لأمة العرب ولكن للناس جميعا (مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ). لذا لابد أن يكون هذا القرآن مبينا حتى لمن لا يملك اللسان العربي، ولكن كيف ذلك؟

سنرى لاحقا عندما نقدم بعض الأمثلة لشرح هذه الفكرة بأن السبب في ذلك يكمن في أن القرآن يبين نفسه بنفسه، فمن أراد أن يصل إلى الإبانة المتوافرة في كتاب الله فهو لا يحتاج لأكثر من كتاب الله نفسه (وسنتحدث عن تلك الآلية بحول الله لاحقا)

أما ما يهمنا هنا قبل أن ننتقل إلى هناك هو القول بأنه لو اشتغل الناس كافة (وليس فقط أهل اللسان العربي) بكتاب الله (حتى مع وجود حاجز اللغة) لخرج العلم المكنون الذي نظن أنه لا يقدر عليه من تحجرت عقولهم وراء لسان أباءه وأجداده.

ونحن نظن (معتذرين مسبقا لمن يشعر بالإساءة) أن الأعراب هم أقل الناس قدرة على التوصل إلى إبانة الكتاب الكريم، وفي هذا حجة على الناس كافة بالمنطق المفترى التالي: متى ما استطاع الأعراب أن يعلموا ما في كتاب الله وهم أي ﴿ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٩٧﴾ [التوبة: 97]، عندها لن تبقى على وجه الأرض أمة أخرى لا تستطيع ذلك، فما دام أن الأعراب قد علموه وهم الأجدر (أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ)، فإن غيرهم من أمم الأرض لا محالة سابق لهم، وهنا لا تبقى حجة لأحد على الأرض بأن لا يعلم حدود ما أنزل الله على رسوله. ولنضرب المثال التالي (ولله المثل الأعلى) لتوضيح الفكرة فقط:

تخيل أنك معلم في الصف، وقد قمت بشرح درس في الرياضيات لطلاب هذا الصف جميعا، ولكن ذلك الدرس (أو تلك الحصّة كما نقول نحن في الأردن) كان موجها للطلبة الأكثر ذكاء وقدرة على الفهم فقط، فمن يستطيع إذن أن يفهم درسك؟ هل يستطيع الطلبة الأقل قدرة على الاستيعاب فهم الدرس الذي شرحته للصف مرة واحدة بطريقة لا تتماشى وقدراتهم العقلية؟ ثم ألا يكون للطلبة الأقل قدرة على الفهم حجة عليك كمعلم أنك لم تعطهم حقهم من الانتباه والتدريس؟ ألن تصل عندها الفكرة التي تنوي تقيدمها فقط للقلة القليلة بينما تبقى الأكثرية محرومة من هذا الخير الغزير الذي تفضلت به عليهم؟

والآن لنتصور الموقف على النقيض من ذلك. تخيل أنك قمت بشرح المعلومة الرياضية في ذلك الدرس بطريقة ميسّرة (ميسرة ميسرة)، كما القرآن الذي يسره الله:

- ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ۝١٧﴾ [القمر: 17]

أي بطريقة سهلة مبسطة جدا لدرجة أن أقل الطلبة ذكاء وقدرة على الاستيعاب قد وصلته المعلومة، ألن تصل المعلومة إذن للجميع؟ فهل يبقى لأحد من الطلبة (الذكي والكسلان منهم على حد سواء) حجة عليك في توصيل مرادك؟

نحن نتخيل الموقف في الرسالة الإلهية (ولله المثل الأعلى) على تلك الشاكلة. لقد جاءت الرسال الخاتمة مبينة بلسان عربي لأن أهل هذا اللسان هم في ذيل القافلة (علما) للوصول إلى علم حدود ما أنزل الله

فيه، والحالة كذلك، فإن أهل الأرض جميعا قادرون أن يعلموا ويستوعبوا تلك الرسالة مادام أن أقلهم (الأعراب) قد علموها.

كما أننا نفهم كذلك - وإن كان في قولنا المفترى بأن العربية هي أقل لغات الأرض قدرة على إيصال المراد تقليل من شأن العربية بحد ذاتها- أن في قولنا ذاته في الوقت نفسه تعظيم لشأن منزل الكتاب. فالله هو من أنزل الكتاب المبين، ورسوله الكريم هو من فصّله لنا قرآنا عربيا مبينا، ولو كانت اللغة بحد ذاتها مبينة لما كان للمنزل وللمفصّل فضل كبير في إحكامه، ولكن لما كانت أدوات التفصيل (اللغة العربية) غير دقيقة، و (بالمقابل) خرج المنتج (القرآن عربيا) بأحسن حال (محكما)، نستطيع حينها أن نضع قدرة المنزل وبيان المفصل كل في مكانها الذي يليق بها. ودعنا نضرب مثلا (ولله المثل الأعلى) على ذلك. فلو وفّرت لي أدوات صناعة سيارة كاملة، وقمت أنا فقط بمهمة تركيبها، فهل يكون لي فضل عظيم في ذلك؟

ولكن (بالمقابل) تخيل لو أني لا أملك كامل الأدوات لصناعة تلك السيارة (أو أن الأدوات لم تكن بأحسن حال)، وقمت بالرغم من ذلك بإخراج السيارة التي قمت بتركيبها بأحسن ما يمكن أن تكون عليه سيارة على الإطلاق، ألا يرفع ذلك من شأني كصانع لتلك السيارة؟ ألا يكون لي في ذلك فضل لا يمكن أن يشكك به أحد؟ نعم، نحن نفتري الظن أن العربية ليست أكثر من أسماء سميتموها أنتم وآباءكم ما أنزل الله بها من سلطان:

- ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴿٢٣﴾﴾ [النجم: 23]

(فهي لا تختلف في ذلك عن غيرها من لغات الأرض – انظر مقالاتنا تحت عنوان علم اللغة، وهل للغة العربية قدسية خاصة؟)

ولكن على رغم من أن الأدوات ليست بأحسن حال (سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ)، خرج المنتج وهو القرآن العظيم باستخدام تلك الأدوات نفسها بأحسن صورة:

- ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر: 23]

الأعراب هم آخر من يستطيع أن يعلم حدود ما أنزل الله

قال تعالى:

- ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾ [التوبة: 97]

لقد أوكل الأعراب إلى أنفسهم مهمة التصدي لفهم كتاب الله قرونا من الزمن، متسلحين بذريعة أنهم هم أهل اللغة التي نزل القرآن بها، وأنهم أهل بلاغة وفصاحة قد أخذوا باللغة من ناصيتها، وأنهم لا يجاريهم إلى ذلك أحد من أمم الأرض الأخرى، فما الذي فعلوه؟

نحن نجلب انتباه القارئ الكريم للتفريق بين الأعراب أهل اللغة العربية (ببدوهم وحاضرتهم) والبدو الذين قد لا يكونون أصلا من الأعراب، فيعقوب وأبناءه (وهم من بني إسرائيل) قد جاءوا يوسف من البدو:

- ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّاۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ١٠٠﴾ [يوسف: 100]

رأينا: سنحاول تقديم بعض الأمثلة على ما فعله الأعراب بكتاب الله، أظن مفتريا القول من عند نفسي أن أمة على وجه الأرض غيرهم لم تكن لتقع بمثل الأخطاء الفادحة الفاضحة التي وقع الأعراب فيها وأوقعوا الناس من بعدهم في شرك أفعالهم، وسنحاول في الصفحات التالية أن نقدم بعض الأمثلة التي قد لا تنطلي على ... في تفكيرهم. وهنا أتقدم بالاعتذار المسبق لكل من يجد في كلامنا هذا إساءة له أو لمشايخه من سادتنا العلماء أصحاب الفضيلة والإمامة والآيات، (فالعذر العذر يا إمامنا الأعظم ويا آية الله الأكبر!!!)

المثال الأول: سد يأجوج ومأجوج

تَذْكُرُ بعضُ مؤلفات أهل العلم أن أحد الخلفاء العباسيين قد شكّل بعثة من العلماء (على غرار هيئة كبار العلماء التي شكّلها غيرهم)، وأسند إلى تلك البعثة مهمة الذهاب في أصقاع الأرض للبحث عن سد يأجوج ومأجوج. وتكاد تتزاحم مؤلفات "أهل الدراية" بالحديث عن سد يأجوج ومأجوج، فاختلفوا فيه، فمنهم من ظن أنه سد الصين العظيم، ومنهم من ظن أنه خط برمودا الذي تحدّث الناس عنه لاحقا، ومنهم من ظن أنه قد اندثر ولم يعد موجودا على سطح الأرض، ومنهم من ظن أنه في باطن الأرض عندما أعيته الحيلة في التوصل إليه على سطحها، ومنهم من رفعه إلى السماء، وهكذا.

لكن السؤال المربك الذي أود أن أطرحه هنا – يا ساده- هو سؤال غاية في البساطة: هل فعلا يتحدث القرآن الكريم عن سد ليأجوج ومأجوج؟ هل ذكر القرآن الكريم أن هناك سد تم بناؤه فعلا من قبل ذي القرنين؟ أو بكلمات أكثر دقة نحن نسأل: هل قام ذو القرنين ببناء سد أصلا ليحجز مأجوج ومأجوج عن من طلبوه منه؟

رأينا: كلا وألف كلا، لا يذكر القرآن الكريم أن ذا القرنين قد قام فعلا ببناء سد، وجل ما قام به الرجل – كما نفهمه- هو الردم. فالرجل لم يبن سدا ولكنّه قام بفعل الردم، فانظر – عزيزي القارئ- السياق القرآني جيدا حيث يطلب القوم من ذي القرنين أن يبني لهم سدا ليحجز عنهم يأجوج ومأجوج:

- ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا ٩٤﴾ [الكهف: 94]

فالقوم هم من طلبوا من ذي القرنين أن يبني لهم السد، ولكن ماذا كان فعلاً من ذي القرنين نفسه؟ أي ما الذي فعله ذو القرنين نتيجة طلبهم ذاك؟

جواب: لم يبن لهم السد ولكنه عمل لهم ما هو خير من بناء السد وهو الردم، انظر السياق القرآني التالي:

- ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا ٩٥﴾ [الكهف: 95]

المعضلة: مادام أن ذا القرنين قد اتخذ قراره بعمل الردم ولم يبن السد أصلا، فالسؤال هو يا سادتنا العلماء أصحاب الفضيلة والإمامة والآيات: ما الذي ذهبت بعثة الخليفة العباسي من كبار العلماء لتبحث عنه؟ وأين هو السد أصلا الذي يجب أن يبحث عنه؟ وأين هو السد الذي أنفق علماؤنا الأجلاء وقتهم وجهدهم في التأليف عنه؟ فهل هناك أصلا سد لنختلف في تحديد مكانه؟! وهل هناك أصلا -كما يقول المثل الأردني الشهير- جوز لتتهاوش عليه الضراير)؟ من يدري!!!

النتيجة الموجهة إلى العامة من الناس فقط: هل عقلية من ذهب ليبحث عن السد (وإن سمى نفسه عالما واختاره أهل السياسة ليجمعوه في فرقة كبار العلماء) ومن كتب المؤلفات لتحديد مكان سد (هو في الأصل غير موجود) هي عقلية - يا سادة- تستحق أن تقود أمم الأرض الأخرى فكريا؟ هل هذه عقلية يجب أن يتم الوثوق بقدراتها؟ أما أنا، فلا أدري!!!

المثال الثاني: كيف بدت لآدم وزوجه سوءاتهما بعد أن أكلا من الشجرة

بعد مراجعة أمهات كتب التفسير للآية الكريمة التي تتحدث عن ظهور سوءة آدم وزوجه لهما بعد أن أكلا من الشجرة:

- ﴿فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ١٢١﴾ [طه: 121]

وجدنا أن ما جادت به معظم عقول علمائنا الأجلاء بخصوص مفردة السوءة هو القول بأنها العورة، أي أن عورة آدم وزوجه قد ظهرت مباشرة بعد أن أكلا من الشجرة، وهنا السؤال الذي نريد أن نطرحه على العامة قبل الخاصة هو: ألا تختلف –حسب مفردات أهل العلم أنفسهم- عورة الرجل عن عورة المرأة؟ فهل إذن ما ظهر من عورة آدم يختلف عن ما ظهر من عورة زوجه (التي سموها حواء- وأنا لا أعرف من أين جاءت هذه التسمية غير أكاذيب أهل الكتاب من قبلنا)؟ فكم حجم ما بدا من آدم (وهو رجل) من عورة مقارنة بحجم

ما ظهر من حواء (وهي أنثى)؟ فهل ما بدا من عورة حواء أكبر مما بدا من آدم (مادام أن معظم جسم المرأة هو عورة)؟

السؤال: هل يعقل أن السوءة هي العورة فقط؟

رأينا: لو أن عقول غير الأعراب اشتغلت بهذا الكتاب العظيم لما عجزوا أن يحلّوا المعضلة ربما بأقل التكاليف وأعظم الفائدة، ولكن كيف ذلك؟

رأينا: أنا أظن أن عقول غير الأعراب لن تغفل عن بقية قصة آدم خاصة أبناءه من بعده، الذين تخاصموا فيما بين بعضهم لأسباب سنتحدث عنها بحول الله في مقالات منفصلة، فسوّلت لأحدهم نفسه قتل أخيه (وقد تحدّثنا عن القاتل والمقتول في سلسلة مقالاتنا تحت عنوان لماذا قدم لوط بناته بدلا من ضيوفه) فقتله، وبعد أن أقدم على فعل القتل، قام القاتل بعمل شي بخصوص سوءة أخيه، مقلدا ما فعله الغراب على مرأى من القاتل:

- ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِيۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ٣١﴾ [المائدة: 31]

وهنا تظهر مفردة السوءة من جديد، ليتكون السؤال الآن على النحو التالي: هل السوءة هنا تعني العورة؟ فهل قام القاتل فقط بمواراة جزء من جسد أخيه وهي عورته فقط؟

جواب: كلا وألف كلا، لقد قام بمواراة كامل جسد أخيه، وهذا برأينا معنى السوءة: إنه الجسد بأكمله، وهو ما نظن أنه ظهر من آدم وزوجه عندما أكلا من الشجرة بعد أن كانت أجسادهما نورانية بفضل النفخ الإلهي فيهما:

- ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٢٩﴾ [الحجر: 29]

فالله الذي هو نور السموات والأرض:

- ﴿۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٖ فِيهَا مِصْبَاحٌۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيْتُونَةٖ لَّا شَرْقِيَّةٖ وَلَا غَرْبِيَّةٖ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٞ ٣٥﴾ [النور: 35]

هو من نفخ في آدم بعد أن سواه، فكان آدم نورا ظاهرا (وكذلك كانت زوجته التي خلقت من نفسه) حتى أكلا من الشجرة بناءً على نصيحة الشيطان لهما، فانطفأ ذلك النور الإلهي، وبان التراب الحقيقي الذي خلق منه آدم في البدء. فأجسادهم كانت قبل الأكل من الشجرة كالقمر الذي نراه في كبد السماء (نور بفعل

انعكاس أشعة الشمس عليه)، ولكن لو انطفأ ذلك النور عنه لما تبقى من ذلك القمر أكثر من التراب الذي يتكون منه.

النتيجة: أظن أن عقول غير الأعراب يمكن أن تصل إلى مثل هذه النتيجة البسيطة بكل يسر وسهوله لأنهم – برأينا- لن يغفلوا أن يضعوا النصين (النص الذي يتحدث عن سوءة آدم وزوجه والنص الذي يتحدث عن سوءة المقتول من ولديهما) جنبا إلى جنب ليستنبطا بكل يسر وسهولة معنى السوءة.

فأنا ممن يظن أن مشكلة الأعراب كانت تكمن على الدوام في المعالجة المتقطعة للنصوص، المعالجة التي تضفي القدسية على كل نص لوحده دون تمحيصه وتدقيقه في ضوء منطوق النصوص الأخرى. وهذا المنطق هو الذي كنا نفعله على الدوام في جميع مقالاتنا السابقة: جلب النصوص مع بعضها البعض لتتحدث هي عن نفسها، ولا أظن أن عقبة اللغة ستعيق التوصل إلى الحقيقة، وسأقدم المثال التالي لتبيان كيف أن غير أهل اللسان العربي يمكن أن يصلوا إلى استنباطات ربما تكون أكثر دقة من أصحاب اللغة أنفسهم، فمن خلال المثال التالي سنوضح كيف استطاع بعض الطلبة الأجانب الذين جاءوا ليدرسوا عن القرآن الكريم وهم لا يعرفون اللسان العربي من التوصل إلى نتائج أقل ما يمكن أن يقال عنها أنها مرضية.

المثال (آلية تعقل ما في كتاب الله)

قرأنا في واحدة من الدروس الآية الكريمة التالية من بداية سورة الإسراء وكان ذلك في محض الحديث عن بني إسرائيل:

- ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝٢﴾ [الإسراء: 2]

فكان السؤال اللغوي الذي طرحناه حينئذ (من أجل فهم الآية نفسها) على نفر من الطلبة الأجانب الذين جاءوا ليتعلموا عن القرآن الكريم يخص الضمير في الفعل و وَجَعَلْنَـٰهُ: فكان السؤال حينئذ على النحو التالي:

من الذي جعله الله هدى لبني إسرائيل، موسى أم الكتاب (وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ)؟

فهل الضمير في وَجَعَلْنَـٰهُ يعود على موسى أم على الكتاب أم على كليهما؟

وعندما حاولنا الرجوع إلى أقول أهل الدراية كما نقله عنهم أهل الرواية وجدنا ما كنا نُسْكَت به على الدوام وهو الرد المفحم التالي: في ذلك أكثر من قول، فمنهم من قال أنه يعود على موسى، ومنهم من قال أنه يعود على الكتاب، ومنهم من قال أنه يعود على كليهما معا؟

سبحان الله! حلت المشكلة إذن؟ وهل هناك خيارات أخرى؟ فما الذي استفدته أنا من أهل العلم إذن؟ ومن منهم يجب أن أثق بقوله؟ جميعهم، أليس كذلك؟ من يدري!!!

وهنا طلبت من الطلبة الأجانب الذين لا يعرفون اللسان العربي أنفسهم أن يحاولوا حسم الخلاف بين سادتنا العلماء أهل الفصاحة والبلاغة، وما أن أخذ الطلبة الأمر بالجدية المطلوبة حتى بدأ تحاورنا بالأمر على النحو التالي:

أولا، كان لابد من التعرض للآية القرآنية نفسها في ضوء آية قرآنية أخرى تظهر فيها المعضلة (قيد البحث نفسها)، وهي موجودة في سورة السجدة:

- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾﴾ [السجدة: 23]

وهنا يظهر موسى ويظهر الكتاب ويأتي فعل الجعل مرتبطا بالضمير (وَجَعَلْنَٰهُ)؟

ثانيا، كان القرار الأول أن الضمير لا يمكن أن يعود على موسى والكتاب معا، وذلك لأن في مثل هذه الحالات كان الضمير يأتي بصيغة المثنى، فلو كان الفعل يعود على موسى والكتاب معا، لجاء الفعل على نحو وجعلناهما، كما في الآيات التالية:

- ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾ [المؤمنون: 50]
- ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الأعراف: 22]
- ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [الإسراء: 23]

النتيجة: الضمير في الفعل وَجَعَلْنَاهُ يعود على مفرد: موسى أم الكتاب؟ ولا يجب أن يفهم على أنه يعود على كليهما معا، فكيف ستحل المشكلة إذن؟

عند هذه النتيجة، لم يتردد الطلبة الأجانب أن يظنوا أن الحل يكمن في التعرض لفعل الهداية، فكان المنطق المفترى حينئذ على النحو التالي: مادام أن الله قد جعل هذا الشيء (سواء كان موسى أو الكتاب هدى لبني إسرائيل) فلابد من معرفة الجواب على التساؤل التالي: من الذي يمكن أن يهدي موسى أم الكتاب؟

فجاءت الإجابة على الفور من السياق القرآني التالي الذي يتحدث عن هداية محمد للناس:

- ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص: 56]

فكان الاستنباط حينئذ هو: مادام أن محمد لا يهدي فإن موسى أيضا لا يهدي، ولا تتجاوز مهمة محمد أكثر من أن يهدينا إلى صراط مستقيم:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢﴾ [الشورى: 52]

وفي هذه الآية الكريمة جاء الجواب واضحا أن محمد يهدي إلى الصراط المستقيم ولكن مهمته لا تتجاوز ذلك الحد، ولكن تشير الآية نفسها أن الهداية تأتي من الكتاب (مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ). فمهمة محمد تقتصر بأن يوصلنا إلى الصراط المستقيم، وهناك سنجد إبليس قاعداً لنا صراط الله المستقيم:

- ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝١٦﴾ [الأعراف: 16]

ولا يمكن أن يفلت من شراك إبليس هناك إلا من أراد أن يهديه الله:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ۝١٦﴾ [الحج: 16]

(دعاء: اللهم أشهدك أني أريد الهداية، فأسألك أن تهديني أنت صراطك المستقيم)

فكانت النتيجة أن من يهدي هو الله، ولكن يبقى السؤال قائما: ماذا عن الكتاب؟هل يمكن للكتاب أن يهدي؟

ما أن طرح هذا التساؤل حتى جاء الجواب سريعا، فاستذكرنا على الفور ما جاء في مطلع سورة البقرة التي تؤكد أن الهداية يمكن أن تأتي من الكتاب:

- ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَۛ فِيهِۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة: 1-2]

وجاءت الآية الكريمة التالية لتؤكد أن القرآن يهدي:

- ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩﴾ [الإسراء: 9]

فانتهى النقاش الذي دار لأكثر من ساعة من الزمن في الغرفة الصفية انتهى إلى الظن بأن مصدر الهداية هما مصدران فقط: الله نفسه والكتاب (القرآن)، عندها لم يتردد الطلبة الأجانب في العودة إلى قضية حسم مسألة الخلاف في الضمير في الآية الكريمة مدار البحث وهي:

- ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝٢﴾ [الإسراء: 2]

فكانت النتيجة السهلة التي توصلوا لها بأنفسهم (وبمساعدة المدرس في التذكير بالآيات، والتسلسل في تدبرها) هي أن الضمير هنا يعود على الكتاب وليس على موسى.

وقد ساعدني صاحبي علي (الشريك في الادكار على الدوام وهو الذي يحمل شهادة دبلوم فقط) بالتذكير بأنه لو كان موسى هو الذي يهدي لانتهت هدايته لبني إسرائيل بمجرد موته، ولكن لمّا كان الكتاب هو الذي يهدي لا تنفك أن تكون هدايته واصلة لبني إسرائيل على مر العصور وتقلب الأجيال، بالضبط كهذا القرآن الذي لازال يهدينا حتى الساعة بعد موت محمد قبل أربعة عشر قرنا من الزمان.

السؤال: هل تحتاج هذه الادّكارات إلى أصحاب الألسنة (التي حصّلت لهم الشهادات العالية والألقاب التي أُنعمت عليهم من ولي النعمة من أهل السياسة) أم إلى أصحاب القلوب (التي تعقل وتفقه)؟

أما أنا: فأسأل الله أن يؤتيني قلبا يفقه ويعقل ما جاء في كتابه الكريم.

المثال الثالث: ملك الموت قابضا وليس زائرا

صعد الخطيبُ المنبرَ في واحدة من أيام الجمع لنضيّع (كالعادة) جزءا من وقتنا غير المهم في ساعة مما نفتري القول أنه ليس أكثر من تهريج ديني، فتحدث في تلك الخطبة عن بعض الأحداث التي حصلت – حسب رواياته- في اللحظات الخيرة من حياة النبي ساعة وفاته، وكان مما أتحف أذاننا في سماعه جزءا من حديث مطوّل في ذلك، نجتزئ شيئا منه هنا، وهو استئذان ملك الموت للدخول على رسول الله ليقبض روحه الطاهرة، ولمّا أنني غير قادر أن أتذكر حرفية ما قاله الخطيب في ذلك الحديث الطويل، اضطررت للبحث عنه في ما نقله أهل الرواية في هذا الشأن، فوجدت أن كثيرا مما قاله شيخينا وخطيبنا الجليل في تلك الخطبة العصماء (لا تخلو من جزالة الألفاظ التي لم استطع أن أفقهها حينئذ) قد جاء عن بعض أهل العلم في الرواية التالية:

... فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوت ملك الموت صلى الله عليه وسلم فقال: "يا فاطمة من بالباب؟ ". فقالت: يا رسول الله، إن رجلاً بالباب يستأذن في الدخول فأجبناه مرة بعد أخرى، فنادى في الثالثة صوتًا أقشعر فيه جلدي وارتعدت فرائصي، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم: "يا فاطمة أتدرين من بالباب؟ هذا هازم اللذات ومفرقُ الجماعات، هذا مُرمل الأزواج ومُوتِم الأولاد، هذا مُخرِّبُ الدُّور عامر القبورِ، هذا ملك الموت صلى الله عليه وسلم ادْخل رحمك الله يا ملكَ الموت". فدخل ملك الموت على رسول اللّه صلى الله عليه وسلم، فقال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: "يا ملك الموت جئتني زائرًا أم قابضًا". قال: جئتك زائرًا وقابضًا، وأمرني الله أذنت وإلا رجعت إلى ربي عز وجل، فقال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: "يا ملك الموت أين خلفت حبيبي جبريل؟ " قال: خلفته في السماء الدنيا والملائكة يعزونه فيك، فما كان بأسرع أن أتاه جبريل عليه السلام، فقعد عند رأسه فقال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: "يا جبريل هذا الرحيل من الدنيا

فبشرني ما لي عند الله". قال: أبشرك يا حبيب الله أني قد تركت أبواب السماء قد فتحت، والملائكة قد قاموا صفوفًا صفوفًا بالتحية والريحان يحيون... (منقول)

والآن دقق - عزيزي القارئ- بهذا النص الذي يسميه بعضهم"حديثا"، لنطرح عليك بعض التساؤلات علّنا نجد عندك ما قد يُسْكِتُ تفلتنا عن جادة الصواب التي سلكها مشايخنا من أهل العلم.

السؤال: هل يرى الناسُ ملكَ الموت؟ كيف إذن فتحت فاطمة لملك الموت؟ هل يمكن لأحد أن يرى جبريل؟ من الذي رأى جبريل يخاطب الرسول حينها، فسمع تحاورهما؟

السؤال: مادام أن جبريل لا يراه الناس، ومادام أن الناس لا يستطيعون أن يسمعوا الحوار بين ملك الموت من جهة ومن جاء لأجله قابضا من جهة أخرى، ومادام أن الرسول نفسه قد انتقل إلى الرفيق الأعلى ﴿...فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٣٤﴾ [الأعراف: 34] ، فمن - يا ترى- نقل مثل هذاالكلام الذي يسمونه حديثا؟ هل أخبر الرسول أحدا به قبل موته؟ فلو كان كذلك، لقال المخبر ذلك، ولجاء نص الحديث على نحو " أخبرني رسول الله ... الخ)، ولربما جاء الحديث مرويا عن فاطمة (وهي التي فتحت الباب لملك الموت حسب رواية الحديث نفسه) أو على لسان عائشة (وهي التي مات الرسول وهو واضع رأسه في حجرها كما تشير إلى ذلك روايات أخرى). ولكن مادام أن الرسول قد مات ولم يحدّث أحدا بما جرى بينه وبين ملك الموت من حوار وبما جرى بينه وبين جبريل من حوار (هذا إن كان هناك حوار قد جرى أصلا)، وما دام أن ملك الموت - في ظني- لم يخبر أحد بذلك، فكيف انتهى ذلك الكلام ليكون حديثا منقولا عن رسول الله؟ من يدري؟!

السؤال: هل يا ترى يمكن أن تنطلي مثل هذه الكذبة الكبيرة إلا على عقول من جاءوا إلى الجمعة لظنهم أن ذلك مكان للتسلية الدينية التي نأخذها كما هي، ولا يحق لنا أصلا أن نتدبرها ولو للحظة من الزمن؟ وهل يمكن أن تنطلي مثل هذه الكذبة على عقول غير عقول الأعراب؟!

أما أنا، فلا أظن غير ذلك.

السؤال: كيف يستطيع غير الأعراب (الأمم الأخرى التي لم ينزل القرآن بلسانها) إدراك علم حدود ما أنزل الله؟

رأينا: لأنهم يستطيعون أن يضعوا المتناقضات مع بعضها البعض لتمحيصها والتدقيق فيها، ولكن كيف ذلك؟

جواب: سمعت من خطبائنا حديثا عن القضاء بين المتخاصمين، فبحثت عن متنه على الشبكة العنكبوتية، فوجدت بعض صيغه:

(1) حدثنا أبو بكر قال حدثنا وكيع قال حدثنا هشام بن عروة عن أبيه عن زينب بنت أم سلمة عن أم سلمة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنكم تختصمون إلي ، وإنما

أنا بشر ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، وإنما أقضي بينكم على نحو مما أسمع منكم ، فمن قضيت له من حق أخيه بشيء فلا يأخذه ، فإنما أقطع له قطعة من النار يأتي بها يوم القيامة.

(2) حدثنا أبو بكر قال حدثنا وكيع قال حدثنا أسامة بن زيد الليثي عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة عن أم سلمة قالت : جاء رجلان من الأنصار إلى النبي صلى الله عليه وسلم يختصمان في مواريث بينهما قد درست ليس لهما بينة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنكم تختصمون إلي ، وإنما أنا بشر ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، وإنما أقضي بينكم على نحو مما أسمع منكم ، فمن قضيت له من حق أخيه بشيء فلا يأخذه ، فإنما أقطع له به قطعة من النار ، يأتي بها إسطاما في عنقه يوم القيامة ، قالت : فبكى الرجلان وقال كل منهما : حقي لأخي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما إذ فعلتما فاذهبا واقتسما وتوخيا الحق ثم ليحلل كل واحد منكما صاحبه .

(3) حدثنا أبو بكر قال حدثنا محمد بن بشر الغنوي قال حدثنا محمد بن عمرو قال حدثنا أبو سلمة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما أنا بشر ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فمن قطعت له من حق أخيه قطعة فإنما أقطع له قطعة من النار

عندها حاولت أن أتدارس الأمر مع السيد علي الشرمان (صاحبي في هذه الخربطات) وهو من كان قد جلب انتباهي إلى هذا الحديث في البداية، فلم ننتظر طويلا حتى جاءتنا الآية القرآنية الكريمة التالية التي تدلّ بما لا يدع مجالا للشك أن حكم النبي صحيحا على إطلاقه:

- ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: 65]

ألا تشير هذه الآية الكريمة – يا سادة – أن حكم النبي بين الخصمين قطعي؟ ألا ترشدنا إلى القبول بحكم النبي في الحال؟ ألا تنفي الإيمان عن من شك بحكم النبي ولو للحظة؟ فكيف بعد كل ذلك يمكن أن يأتي شخصان ليتحاكما عند النبي في خصومة بينهما، فيستطيع أحدهم أن يتلاعب بالكلام ليجعل محمدا (نفسه) يقضي له بما لا يستحق؟ ولو حصل فعلا وقضى النبي بمثل ذلك، فأين تأيد السماء له؟ لم لا يأتيه جبريل في الحال ليرد الحقوق إلى أصحابها؟ هل النبي على هذه الدرجة من السطحية ليتمكن أحد الخصام أن يوقع به؟ وها هو صاحبي علي يذكرني مرة أخرى بالآية الكريمة التالية التي لا أظن أن عقول غير الأعراب يمكن أن تغفل عنها:

- ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾ [محمد: 30]

ألا تدل هذه الآية الكريمة أن الرسول يعرف هذه الفئة من الناس من لحن القول (وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ)؟ فكيف إذن سيستطيع أحد الخصمان أن يتلاعب بالقول ليوقع النبي في مثل هذا الفخ؟

أما أنا فهذه ليست عقيدتي، فأنا أعلم أن محمدا ما كان لينطق عن الهوى، وأعلم أنه ما كان لأحد مهما بلغ من فصاحة الكلام وقوة الحجة أن يوقع بمحمد في شرك أفعاله؟ فهذا ربما لا ينطلي على قاض متمرس (كذاك الذي تحدثون عنه في نوادرهم) ناهيك أن يكون القاضي هو محمد بن عبد الله نفسه وهو الذي شهد الله له بأنه يعلم من يحاول التلاعب بلحن القول (وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ).

المثال الرابع: باب استنباط الأحكام

لقدأسهب أهل العلم في الحديث عن الحدود، وكان من بينها حد الزاني وحد السارق، وما يهمنا هنا هو أن نتحدث عن كيف يمكن أن يفكر عقل غير العربي بما جادت به عقول الأعراب في هذين الحدين على وجه التحديد.

حد الزاني

ميّز العلماء بين حد الزاني المحصن من جهة وحد الزاني غير المحصن (حسب مفرداتهم التي هي في ظننا خاطئة وسنتحدث عن معنى المحصن في مقالات لاحقة بحول الله) من جهة أخرى، لكن الذي يهمنا هنا هو اعتقادهم بأن الزاني غير المتزوج (أي غير المحصن في مفرداتهم) هو المئة جلدة، بينما حد الزاني المحصن (أي المتزوج في مفرداتهم) هو الرجم.

السؤال في عقل غير أهل العربية هو: إذا كان حد الزاني المحصن هو الرجم، فكيف يمكن تطبيق الحد في الآيات الكريمة التالية؟

- ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ٣٠﴾ [الأحزاب: 30]

السؤال: كيف يمكن تطبيق الرجم بالمضاعفة ضعفين في حالة نساء النبي لو وقعت احداهن (لا قدر الله) بفعل الفاحشة؟

وكيف يمكن تطبيقه في حق فتياتنا المؤمنات (وهو أمر وارد) بتنصيف الحد إلى نصفين؟ فهل ترجم نصف رجمة؟ وكيف يمكن إذن تنفيذ ذلك الحد على أرض الواقع؟

- ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٖۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٖ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٖۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى

ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْۚ وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾ [النساء: 25]

وهنا ربما سيطير البعض إلى جلب حد الرجم الذي طبقه (حسب رواياتهم نفسها) الرسول بحق الغامدية، وهنا لا أتوقف عن طرح التساؤلات التالية:

⇐ إذا كان الرسول قد طبق حد الرجم بحق الزانية (الغامدية)، فلم لم يطبقه بحق الزاني (من ارتكبت الغامدية معه واقعة الزنى)؟ ألا يحق للقاضي أن يتحقق من وقوع الجرم قبل إيقاع العقوبة؟ وهل يقع الزنى بوجود طرف واحد (الزانية)؟

⇐ ألا تذكر رواياتهم أن الناس قد تجمعوا ليشهدوا الواقعة، وهم من رموها بالحجارة، فكيف ينتهي الحديث أن يكون من الأحاديث المختلف فيها سندا ومتنا؟

⇐ أما أنا فإن كنت عزيزي القارئ لا تريدني أن ألقي بظلال الشك على كل رواياتهم عن هذه الحادثة، فعليك أن تقدم الإجابات.

حد السرقة

تحدث العلماء بأن حد السارق هو قطع اليد، وكان القطع في ظنهم وفي تطبيقهم هو بتر اليد من رسغها (كما تفعل ذلك بعض الدول التي تطبق حدود ربهم على الأرض).

السؤال في عقل غير أهل العربية هو: ما الذي فعلته النسوة عندما رأين يوسف؟ ألم يقطعن أيديهن؟ هل تم ذلك ببتر الرسغ عن بقية اليد؟ ألم تشعر إحداهن بذلك؟ وكيف استطاعت باستخدام سكين أن تفصل عظم اليد بعضه عن بعض؟ أليس ذلك فعل تقطيع الأيدي؟

- ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [يوسف: 31]

السؤال: هل تظن أن عقول غير الأعراب ستغفل عن وضع النصين جنبا إلى جنب: النص الذي يتحدث عن حد السرقة:

- ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المائدة: 38]

مقابل النص الذي يتحدث عن تقطيع النسوة لأيديهن عندما رأين يوسف:

- ﴿... فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [يوسف: 31]

(هذا ما سنحاول التعرض له في واحدة من المقالات القادمة بحول الله وتوفيقه عن قصة يوسف مع أولئك النسوة، فالله أسأل أن يؤتيني رحمة من عنده وأن يعلمني من لدنه علما، فيأذن لي الإحاطة بشيء من علمه لا ينبغي لأحد غيري إنه هو السميع المجيب)

السؤال: كيف يستطيع غير أهل اللسان العربي الوصول إلى تبيان ما في كتاب الله وهم لا يتحدثون اللسان العربي أصلا:؟

رأينا: بالاستفادة من التشابه الموجود فيه.

سؤال: وكيف ذلك؟

جواب: نحن نظن أن القرآن الكريم يفسر بعضه بعضا، ولا يحتاج من يريد أن يشغل نفسه به أكثر من النظر في تشابهه. ولكن كيف ذلك؟

مثال: المحصنات

تحدث العلماء في جل مؤلفاتهم أن مفردة المحصنة (ومشتقاتها) تدل على المتزوجة من النساء،، أليس كذلك؟ ففرقوا كما ذكرنا سابقا بين حد المحصن (والمحصنة) في الزنا و حد غير المحصن (والمحصنة)، فظنوا أن الحد الوارد في الآية الكريمة التالية:

- ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٖۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٢﴾ [النور: 2]

يطبق فقط في حالة الزانية والزانية غير المحصنين (حسب مفرداتهم بالطبع). بينما ذهب علماؤنا الأجلاء إلى الظن بأن الدليل على حد الرجم في حالة الزانية والزاني المحصنين قد جاءنا في السنة. وقد حاولنا أن نسجل في مقالة لنا سابقة (تحت عنوان تعدد الزوجات 2) تحفظاتنا على مثل هذا الفهم الذي جاءنا من عند أهل الدراية كما نقله لنا أهل الرواية. وحاولنا تقديم فهمنا المفترى الذي نظن أنه بديلا لما جاءنا من عند أهل العلم. ومن أحب أن يدخل في هذه الجدلية فلينظر في مقالتنا تلك.

أما هنا، فسنحاول فقط أن نناقش معنى مفردة المحصنة (ومشتقاتها)، ظانين بأن المعنى هو على عكس ما قال وظن سادتنا العلماء أهل الدراية في ذلك.

المعنى المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن المحصنة من النساء هي التي لم تتزوج قط، وأن المحصن من الرجال هو الذي لم يتزوج قط.

الدليل

نحن نظن أن الدليل قد جاء صارخا في كتاب الله كما في قوله تعالى:

- ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ [النساء: 25]

السؤال: إذا كانت المحصنة هي المتزوجة من النساء (كما زعمنا سادتنا العلماء)، فكيف سنستطيع أن ننكح من هي أصلا محصنة متزوجة (وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ)؟ وكيف ستنكح المحصنة (أي المتزوجة) بإذن أهلها؟

ثانيا، إذا كانت المحصنة من النساء هي المتزوجة (كما أفهمنا أهل العلم)، فكيف يمكن أن ترمى المحصنة (أي المتزوجة حسب رأي سادتنا العلماء) وفي الوقت ذاته لا ترمى غير المتزوجة كما جاء في الآية التالية؟

- ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾﴾ [النور: 4]

وما معنى أن ترمى المحصنات أصلا؟ وهل تكون المحصنة غافلة مادام أنها متزوجة أصلا (حسب رأي سادتنا العلماء)؟

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [النور: 23]

وكيف سيتم إثبات رمي المحصنة إن كانت متزوجة أصلا؟ ألم يدخل بها؟ أليس الرمي أكثر تأثيرا بحق غير المتزوجة؟ أليس ذلك ما يطعن في شرفها؟ ثم أليست غير المتزوجة أكثر غفلة عن المتزوجة؟ من يدري!!!

ثالثا، لكن الذي أربكني أكثر بخصوص مفردة المحصنة هو السؤال التالي: كيف إذا يحرم علينا (نحن مجموع الرجال) أن ننكح المحصنات من النساء كما جاء في قوله تعالى؟

- ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ

وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٢٣﴾ ۞ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم مُّحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَۚ فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا تَرَٰضَيۡتُم بِهِۦ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡفَرِيضَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿٢٤﴾﴾ [النساء: 23-24]

فمن هم الذين حرمت عليهم نكاح المحصنات؟ هل هناك فئة محددة من الرجال مقصودة في هذا التحريم؟ أم أن التحريم على الرجال كل الرجال؟ وكيف يمكن استثناء ما ملكت اليمين منهن (وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ)؟ فهل لو كانت المحصنة من ذات اليمين، فهل يجوز نكاحها وهي أصلا منكوحة (حسب رأي سادتنا العلماء)

رأينا: إن الخروج من هذا المأزق الذي أوقع العلماء أنفسهم فيه قد جاء – في ظننا- في الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغۡنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا لِّتَبۡتَغُواْ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَمَن يُكۡرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٣﴾﴾ [النور: 33]

نعم، نحن نظن أنه يحرم الدخول بمن أرادت التحصن من النساء، ولا يجوز إكراه من أرادت من النساء أن تتحصن كما فعلت مريم بنت عمران التي أحصنت فرجها:

- ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التحريم: 12]

ولكن يستدعي الأمر التوقف هنا عند معنى البغاء في قوله تعالى:

- ﴿...وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا لِّتَبۡتَغُواْ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَمَن يُكۡرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٣﴾﴾ [النور: 33]

فلقد ظن علماؤنا الأجلاء مدفوعين بلغة أجدادهم وبقواميس آبائهم اللغوية أن البغاء يعني الوقوع في فعل الفاحشة، مستنبطين ذلك من أحاديثهم عن البغايا (خاصة من دخلت منهن الجنة بقط أو بكلب). فإن كان ما قاله سادتنا علماء عن أن البغاء هو الوقوع في فعل الفاحشة (أي الزنا)، فليحاول أحدهم الإجابة على التساؤل التالي الذي نثيره من خلال الآية الكريمة نفسها، ألا وهو: كيف تكون عاقبة من أكره فتياته على البغاء

(أي الزنا) أن الله من بعد إكراههن غفور رحيم (وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)؟ هل هذه إذن دعوة لفتح بيوت الدعارة (فترتكب فيه الفتيات البغاء أي الزنا الذي أكرهن عليه) لنجد أن الله (من بعد ذلك الإكراه) غفور رحيم لمن أكرههن على ذلك؟ من يدري!!!

رأينا: كلا وألف كلا، فنحن نظن أن هذا أبعد ما يكون عن الحقيقة، مدفوعين بالافتراء من عند أنفسنا بأن لا علاقة للبغاء بالزنا إطلاقا، وأن البغاء ليس أكثر من اعتداء طرف على طرف كما جاء في قوله تعالى:

- ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ٩﴾ [الحجرات: 9]

فعندما تبغي طائفة على طائفة فإن ذلك يحصل بأن تأخذ طائفة (وهي الأقوى) حق طائفة أخرى (وهي الأضعف)، كما حصل في حالة قارون الذي بغى على قوم موسى:

- ﴿۞إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِي ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ٧٦﴾ [القصص: 76]

وكما فعل فرعون بمن رحل مع موسى من أرض مصر:

- ﴿۞وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ٩٠﴾ [يونس: 90]

وكما كان يفعل أهل الكتاب فيما بين بعضهم:

- ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ١٩﴾ [آل عمران: 19]

عندها نكون ملزمين أن نقف إلى جانب من بُغِي عليه:

- ﴿۞ذَٰلِكَۖ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ٦٠﴾ [الحج: 60]

فهي إذن دعوة إلى إيجاد حالة من التساو لا يبغي طرف فيها على طرف آخر كما في حالة وجود البرزخ بين البحرين، فيحول دون أن يبغي البحر الكبير على البحر الصغير:

- ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ٢٠﴾ [الرحمن: 19-20]

وسنتعرض بالتفصيل بحول الله إلى الاتهام الذي وجهه الناس إلى مريم يوم جاءت بوليدها تحمله:

- ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ۝٢٨﴾ [مريم: 28]

لنؤكد حينها استحالة أن يتبادر إلى ذهن القوم اتهام مريم بنت عمران بالزنا، وهو الغلط الذي نظن أن معظم أهل الدراية قد وقعوا به عندما تعرضوا لتفسير ما جرى من أمر مريم مع قومها يوم عادت تحمل طفلا (فالله أسأل أن يؤتيني رحمة من عنده وأن يعلمني من لدنه علما)

ولكن دعنا نعود هنا إلى لب التساؤل وهو: كيف تحرم علينا المحصنات من النساء بهذا الفهم المفترى لمفردة البغي؟

رأينا نحن نظن أن من أرادت تحصنا من النساء (اي أن لا تتزوج إطلاقا)، فلا يحل نكاحها، لأن في ذلك اعتداء عليها، فمريم ابنت عمران هي من أحصنت فرجها:

- ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ۝١٢﴾ [التحريم: 12]

نتيجة: المحصنة من النساء - في ظننا- هي التي اختارت أن لا تفض بكارتها من قبل الرجال. وبهذا يصبح من المحرّم على الرجال نكاح المحصنات من النساء مادامت حرة، أما إن كانت من ذات اليمين، فلا تستطيع أن تمنع نفسها عمن ملكها:

- ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٢٣ ۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٢٤﴾ [النساء: 23-24]

تبعات هذا الظن

أولا، نحن نعتقد أن في ظننا هذا تخريجا للمأزق الذي أوقعنا به أهل العلم عندما أخطأوا في فهم ما جاء في قوله تعالى:

- ﴿... وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ [النور: 33]

فالسؤال الذي طرحناه سابقا حول هذه الآية الكريمة هو: كيف سيكون الله غفورا رحيما لمن أكره فتياته على البغاء إن أردن تحصنا؟

رأينا: نحن نظن أنه إنْ اختارت الحرة من النساء أن تحصن نفسها فلا تتزوج (فلا تفض بكارتها)، فلها ذلك (كما فعلت مريم ابنت عمران)، وليس لأحد الحق أن يبغي عليها حتى وإن كان وليّها، ولكن لو حصل أن بغى عليها وليّها (كأبيها أو أخيها) كونه هو الأقوى، وأجبرها على الزواج كونها هي الأضعف، ففضت بكارتها، فإن الله غفور رحيم من بعد ذلك الإكراه، فعلى من أكره فتياته على الزواج وهن غير راغبات فيه، فعليه أن يتوب إلى ربه ويستغفره على ما ارتكب من ذنب بحقهن، فعسى أن يتوب الله عليه، ولتبسيط الفكرة نقول مرة أخرى أنه إنْ حصل وأجبر الوالد (أو الولي) فتاته على الزواج لأنه ربما يرى في ذلك خير لها، فإن هذا قد يتعارض مع رغبة الفتاة نفسها التي قد لا ترى في ذلك الزواج خيرا لها، ولو حصل أن أجبر الطرف القوي وهو الولي الطرف الضعيف وهي الفتاة على الزواج، لكان في هذا اعتداء عليها (أي بغاء)، فقد بُغِي عليها من قبل وليّها، ولكن ما يهمنا قوله هنا هو أن هذا الاعتداء ليس من القبح لدرجة أن لا يغفره الله لمن أوقع نفسه فيه، لأن ذلك البغي غالبا ما يكون مدفوعا بالمصلحة التي قد يراها الولي لفتاته ولا تراها هي لنفسها، ولو تدبرنا عزيزي القارئ الآية الكريمة نفسها من هذا الجانب لوجدنا أن دافع الولي واضح في ذلك، وهو أن يبتغي الولي عرض الحياة الدنيا:

- ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ [النور: 33]

ولتوضيح الفكرة أكثر فإننا نقول أن بعض أولياء أمور الفتيات قد يقدمون على إجبار فتياتهم على الزواج من شخص ربما لا تريده هي، وفي هذه الحالة تكون رغبة ولي الأمر مدفوعة بشيء من عرض الدنيا (لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا)، كما شاهدنا ذلك مرات ومرات في المسلسلات المصرية أو الأفلام الهندية التقليدية، حيث يقدم والد الفتاة الفلاحة الجميلة على تزويجها من ولد العمدة (أو ربما العمدة) نفسه (الذي غالبا ما يكون بشعا أو أبله أو ...الخ) طمعا بشيء من مكاسب الدنيا (لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا)، وغالبا ما يكون

ذلك على حساب الطرف الأضعف (وهي الفتاة نفسها)، فتعيش الفتاة المسكينة في ظل راجل (بالمصرية) لا تطيقه، ولكن تضحية منها ربما لإنقاذ عائلتها الفقيرة، أليس في ذلك بغي عليها؟

ثانيا، نحن نظن أن مثل هذا الفهم ربما يحل لنا إشكالية الرجم التي تحدثنا عنها سابقا، ولكن كيف ذلك؟

جواب: إن صح زعمنا أن المحصنة هي غير المتزوجة، فإن التفريق بين المحصنة وغير المحصنة (كما جاء في كتب الأحكام عند معظم أهل العلم) يصبح غير ضروري، فيصبح حد الزنا واحد للجميع:

- ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٖۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾ [النور: 2]

(للتفصيل انظر مقالتنا تعدد الزوجات 2)

نتيجة: نحن نظن أن هذه الإشكالات التي وقع فيها أهل العلم (حسب ظننا) كان سببها الرئيس هو عدم الاحتكام إلى كتاب الله نفسه، وخاصة عدم الرغبة في (أو ربما الخوف من) وضع المتناقضات جنبا إلى جنب لتمحيصها وتخريجها بالطريقة التي لا تؤدي إلى بقاء تلك التناقضات، وبالتالي الوقوع في أغلاط هي في ظننا كارثية على العقيدة في التشريع وعلى الناس في المعاملات. وربما لا يقل خطورة عن ذلك هو عدم قدرة أهل – نحن نفتري القول- في الوصول إلى أحكام قطعية للأمور العقائدية التي تخص حياة الناس اليومية، وسنقدم المثال التالي الذي نظن أنه غاية في البساطة لو أن هذه المنهجية التي نقترحها قد كانت مسلك أهل العلم منذ قرون من الزمن.

المثال: اتيان المرأة من المكان الذي أمرنا الله به.

سألني أحد الزائرين الذين جاءوني محمّلين بالتساؤلات الكثيرة في زياراتهم الأولى، وأظن أنهم قد جاءوا فاحصين في بداية الأمر لأنهم كانوا يحجزون لأنفسهم حيزا كبيرا في الحديث، ثم أصبحوا – على ما أظن- راغبين في المعرفة لاحقا عندما أخذت أصواتهم تخفت شيئا فشيئا لحساب أذانهم التي أصبحت تصغي أكثر فأكثر، المهم أن صاحبنا ذاك قد سألني في واحدة من زياراته الأولى السؤال المثير التالي: ما هو المكان الذي أمرنا الله أن نأتي المرأة منه؟ وقد جاء سؤاله هذا بعد أن تلى على مسامعنا الآية الكريمة التي تبين أن نساءنا حرث لنا:

- ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٞ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْۖ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢٢٣﴾ [البقرة: 223]

فكيف علينا أن نأتي المرأة من مكان محدد بذاته كما أمرنا الله بذلك في الآية التالية؟ يسأل صاحبنا.

- ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ٢٢٢﴾ [البقرة: 222]

فكأن مراد القول عند صاحبنا هو: مادام أن الله قد شرع أن تكون نساؤنا حرث لنا، فكيف جاء التقيد بأن نأتي النساء من حيث أمرنا فقط؟ وما هو إذن المكان الذي أمرنا الله أن نأتي النساء منه أصلا؟ وهل هناك مكان أمرنا الله أن لا نأتي المرأة منه؟ وكأن لسان حال صاحبنا كان يقول: هل يجوز أن تؤتى المرأة من دبرها؟ وهل أمرنا الله أن لا نأتي النساء من ذلك المكان؟ وأين ذلك في كتاب الله؟ وقد ساعدني صاحبنا ذاك عندما أكد بأنه قد بحث عن إجابة لهذا التساؤل عند أهل العلم فوجد في ذلك أقوال، وهو ما نجده على الدوام عندهم: في المسألة وجهات نظر، وهناك أكثر من رأي، أليس كذلك؟

رأينا: لكن - يا سادة- هل هذا هو فعلا شرع الله؟ ألا يجب أن يكون شرع الله واضحا للجميع؟ هل في اختلاف الأئمة في مثل هذه القضايا رحمة بالأمة كما يحاول علماؤنا الأجلاء أن يفهمونا على الدوام؟

رأينا المفترى: كلا وألف كلا، لابد أن يكون شرع الله واضحا، ولابد من الحسم في هذه القضايا، ولابد أن تكون الاجابة واحدة لا تخفى على الصغير قبل الكبير، ويجب أن يعرفها غير المتعلم كما يعرفها طالب العلم. فهذا لا يخص شخص بعينه، وإنما هو من الأمور التي تخص كل فرد في الأمة.

السؤال: كيف يمكن فض الخلاف في ذلك؟ سألني صاحبي محاورا ومجادلا في بادئ الأمر.

جواب: إنني أظن يا صاحبي أن الجواب واضح تماما لو أننا قرأنا الآيتين الكريمتين معا وبنفس الترتيب كما وردتا في كتاب الله، ولنتدبر الآيتين معا الآن:

- ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ٢٢٢ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْۖ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٢٢٣﴾ [البقرة: 222-223]

فهمنا المفترى: نحن نظن أن الله قد أمرنا أن نأتي النساء من المكان نفسه الذي يخرج الحيض منه فقط.

الدليل

دعنا نقدم الدليل على افتراءنا هذا بطرح جملة من التساؤلات أولاً:

سؤال: ماذا طلب الله منا أن نفعل في حالة أن تكون المرأة في المحيض؟

جواب: الاعتزال (وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلْمَحِيضِ)

سؤال: وكم يجب أن تستمر فترة اعتزال النساء؟

جواب: حتى يطهرن (وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ)

السؤال: ومتي يحق لنا أن نأتي النساء؟

جواب: فقط عندما يتطهرن (فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ)

سؤال: ومن أين تحيض المرأة؟

جواب: من فرجها (أي من قبلها)

سؤال: وما علاقة دبرها بالمحيض؟

جواب: لا علاقة له بذلك، فالمحيض لا يخرج إلا من الفرج.

السؤال المربك لي (1): لو أن إتيان المرأة في دبرها مسموح به، فما الداع أن نعتزل النساء في المحيض أصلا؟

السؤال المربك لي (2): لو أن إتيان المرأة في دبرها مسموح به، فما الداع أن يأتي الأمر الإلهي ليس فقط بأن نعتزل النساء في المحيض ولكن لأكثر من ذلك وهو أن لا نقربهن (وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ)؟

نتيجة: على الرجل أن يعتزل المرأة وأن لا يقربها فلا يأتيها مادامت في حالة محيض، ولكن لماذا؟

جواب: لأن الله أمرنا أن نأتيها من حيث أمرنا.

سؤال: وما هو ذلك المكان؟

جواب: إنه المكان الذي يخرج منه المحيض. فمادام أن ذلك المكان فيه الأذى وهو المحيض (وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى)، فعلى الرجل أن لا يأتي زوجته ولا يقربها حتى تطهر منه. ولو كان إتيان المرأة في دبرها مسموح به، لما كان هناك أصلا حاجة إلى اعتزال النساء في المحيض، ولما كان هناك أمر إلهي بعدم القرب من النساء مادمن على تلك الحالة. فهل هذا منطق يصعب فهمه؟

هنا استدركني صاحبي نفسه بالسؤال المباشر التالي: إذا كان الأمر بهذه السهولة كما تزعم، فلم لم يدركه أهل الدراية من قبلك؟ أتظن نفسك أنك أكثر قدرة على فهم كتاب الله من كل من سبقك؟

جواب: لما كنت أظن أن في هذا التساؤل اعتداء على قدراتي التعقلية (غير العادية)، جاء جوابي له صادما: نعم أنا أكثر أهل الأرض علما بكتاب الله، ولا أظن أن أحد سبقني إلى ذلك.

عندها اشتد النقاش مع صاحبنا، ولم تنقصه الفراسة أن يستنبط من قولي ذاك مقدار الغرور الذي وصلت أنا إليه، فتغيّرت نبرة صوته، وتبدّلت تعابير وجهه، لذا آثرت أن أصدمه أكثر في تلك اللحظة، فقلت له: أتدري يا صاحبي لم ذلك؟

وعندما رأيت الدهشة بادية على وجهه الذي لا تخفي تعابيره رغبته في معرفة السبب، قلت له على الفور: لأن القرآن نفسه ليس أكثر من كلام مفترى.

عندها لم يستطع صاحبي أن يتمالك نفسه، وآثر أن يتوقف النقاش عند هذا الحد، ولمّا وجدت أنه يفضل ذلك، حاولت أن أنقل الحديث إلى مواضيع أقل جدية على الفور. ولم الحظ من صاحبنا رغبة في معرفة ماهية ما افتريت من قول بخصوص القرآن، ولمّا كان من عقيدتي أن لا أتبرع بالعلم (الذي عندي) لمن لا يطلبه، آثرت السكوت عليه في تلك اللحظة، ولم أوضح لصاحبي ما أقصد من قولي أن القرآن ليس أكثر من كلام مفترى.

باب: القرآن كلام مفترى

بادئ ذي بدء، إن ما أود أن أقوله من خلال النقاش التالي هو أن الأعراب (أهل اللغة العربية) قد فتنوا بلغة آبائهم وأجدادهم، وطاروا وتطيّروا بها، ففسّروا كتاب الله بناءً على أفهامهم لتلك اللغة التي ورثوها، فكانت الكارثة – برأينا- طامة عامة. وكان الأولى بهم (في رأينا المفترى) أن يخضعوا كلام أبائهم وأجدادهم للغة القرآن الكريم بدل أن يخضعوا القرآن الكريم لألسنتهم المحرفة. وسنقدم هذا المثال للتدليل على ما نفتريه من القول بأن القرآن هو كلام مفترى (جملة ذهبية لمن أراد أن يجتزء النصوص لينشر فضائح العباد على رؤوس الأشهاد، أليس كذلك؟)

السؤال: ما هو الافتراء أولا؟ وما معنى أن يكون الشيء مفترى؟

جواب: لو راجعنا قواميس اللغة العربية جميعها، وألسنة الخطباء والفصحاء من أبناء العربية الذين يُشهَد لهم بأنهم قد امتلكوا ناصيتها، لوجدنا أنهم غالبا ما يربطون مفهوم الافتراء بالكذب، فهم يظنون أن المفترى من القول هو القول الذي فيه الكذب، أليس كذلك؟

لذا، فإني أزعم أنه عندما قلت لصاحبي أن القرآن هو كلام مفترى، ظن على الفور (كما يظن مخطئا بعض من يقرأ هذه السطور الآن) بأني أنعت القرآن على أنه كلام فيه الكذب، لذا آثر أن لا يجادل، وأكتفى أن يطلب منى أن استغفر ربي على تلك الكلمة العظيمة التي قد هوت بي في جهنم سبعين خريفا (ولا أدري لم خريفا وليس شتاء بالرغم أن فصل الشتاء هو أكثر برودة! أو لِم لَم تكن سبعين صيفا بالرغم أن الصيف أشد حرارة! ربما لأن هذا ما نقله أهل الرواية لهم).

رأينا: كلا وألف كلا، نحن نظن أن لا علاقة لافتراء القول بالكذب فيه. فالكلام المفترى ليس كلاما كاذبا أبدا، بل هو كلام حق لا جدال فيه.

الدليل

نحن نظن أن الدليل على ذلك يأتي من الآيات الكريمة الكثيرة التي تفرق بين الكلام المفترى من جهة والكلام المفترى كذبا من جهة أخرى، فهناك كم كبير من الآيات القرآنية التي تورد لفظ الكذب مصاحبا لمفردة الافتراء (ومشتقاتها)، انظر الآيات الكريمة التالية:

- ﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٩٤﴾ [آل عمران: 94]
- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢١﴾ [الأنعام: 21]
- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ٩٣﴾ [الأنعام: 93]
- ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٤﴾ [الأنعام: 144]
- ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ٣٧﴾ [الأعراف: 37]
- ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ٨٩﴾ [الأعراف: 89]
- ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ١٧﴾ [يونس: 17]
- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٨﴾ [هود: 18]
- ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ١٥﴾ [الكهف: 15]
- ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ٦١﴾ [طه: 61]
- ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ٣٨﴾ [المؤمنون: 38]

- ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ۝٨﴾ [سبأ: 8]
- ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٢٤﴾ [الشورى: 24]
- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ۝٦٨﴾ [العنكبوت: 68]

السؤال: لم جاءت مفردة الافتراء مصاحبة لمفردة الكذب في جميع هذه السياقات القرآنية (ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا)؟

السؤال المربك: لو كان الافتراء بحد ذاته يحمل في ثنياه معنى الكذب، فلا أظن أن هناك ضرورة لأن ترد مفردة الكذب مصاحبة لها ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ۝١٠٥﴾ [النحل: 105] ، فما الداعي أن تأتي مفردة الكذب مصاحبة لمفردة الافتراء في جميع هذه السياقات القرآنية إن كان الافتراء يحمل في ثناياه معنى الكذب؟ ألا يكفي عندها أن ترد مفردة الافتراء لوحدها؟

رأينا: نحن نظن أن الافتراء لا يحمل معنى الكذب إلا إذا جاءت مفردة الكذب مصاحبة لها كما في جميع السياقات السابقة، وانظر عزيزي القارئ في هذه الآية الكريمة من هذا الجانب:

- ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ۝١٠٥﴾ [النحل: 105]

نتيجة: مادام أن هناك من يفتري الكذب، فلابد أن هناك من يفتري القول فقط، أليس كذلك؟

السؤال: وهل هناك سياقات قرآنية ترد فيها مفردة الافتراء غير مصاحبة لمفردة الكذب؟

جواب: انظر الآية الكريمة:

- ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٤٣﴾ [سبأ: 43]

لاحظ كيف أن مفردة الافتراء قد جاءت مصاحبة لمفردة الإفك، الذي هو أصلا الاتهام بالباطل.

السؤال: وهل جاءت مفردة الافتراء لوحدها؟

جواب: انظر الآية الكريمة التالية جيدا:

- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ۝٤٨﴾ [النساء: 48]

ألا تدل هذه الآية الكريمة أن الكاذب هو من يفتري الكذب، ولكن من يفتري القول فهو ليس بكاذب؟ وإلاّ لما كان لهؤلاء الفئة من الناس الذين يفترون الإثم مشكلة تذكر، لأن الإثم سيكون غير موجود أصلا مادام أنه قد جاء من باب الكذب في القول. لأن قولهم يصبح حينها من باب قولهم الكذب الذي لا يقصدونه، فلو كان شركهم الذي جاء من باب الافتراء هو من القول الكاذب، لأصبحت مشكلتهم سهلة لا تستدعي أن لا يغفر الله لهم. لكن لما كان الافتراء (كما نظن) هو قول حق يقصده صاحبه بلفظه، فإن قولهم بالشرك هو من باب القول المقصود لذاته، لذا استحقوا أن لا يغفر الله لهم بسبب فعلتهم تلك لأنهم افتروا (عن قناعة) الإثم العظيم:

- ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ۝٢٢٥﴾ [البقرة: 225]

ولكني أظن أن هذا ليس دليلاً قطعيا على صحة ما نزعم، أليس كذلك؟ فهل هناك سياقات قرآنية أخرى يمكن الاستدلال من خلالها على صحة ما نقول؟

جواب: انظر السياقات القرآنية التالية التي تتحدث عن ما قاله المشركون بحق النبي محمد وعلاقته بكتاب الله:

- ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝١٣﴾ [هود: 13]
- ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ ۝٣٥﴾ [هود: 35]
- ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِۚ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٨﴾ [الأحقاف: 8]

السؤال: هل يعتقد المشركون أن ما جاء به محمد هو كلام كاذب؟

رأينا: كلا وألف كلا، لو كان كذلك، لما كانوا بحاجة أن يتحدثوا عن مصدر ذلك الكتاب، لأن مشكلة المشركين هنا في ظننا تكمن في مصدر ذلك الكتاب، وليس بما جاء فيه، فهم يظنون أن هذا الكلام هو من صنع محمد نفسه، لذا فهم يظنون أن محمدا هو من افترى ذلك الكلام. لذا جاء دفاع محمد عن نفسه بنص القرآن نفسه على النحو التالي:

- ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ ۝٣٥﴾ [هود: 35]

وقد كان جلّ جهد المشركين منصبا على أن يقنعوا محمد بأن يفتري كلاما غير الذي يأتيه من عند ربه:

- ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾﴾ [الإسراء: 73]

والآن حاول – عزيزي القارئ- أن تربط هذه الآية الكريمة السابقة بالآية الكريمة التالية:

- ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ [يونس: 15]

نتيجة: يحاول المشركون أن يقنعوا محمدا بأن يأتيهم بقرآن غير هذا أو أن يبدل هذا القرآن، فهم يريدونه أن يفتري الكلام من تلقاء نفسه (ولكنهم بالتأكيد لا يطلبون منه أن يكون كلامه الجديد المفترى فيه الكذب). فهل يستطيع محمد أن يفتري هذا القرآن من تلقاء نفسه؟

جواب، كلا، فـ لكي يستطيع محمد أن يفتري هذا القرآن فلابد له من مساعدة خارجية، فمن الذي ساعد محمد أن يفتري هذا القرآن؟

جواب مفترى: الله هو من ساعد محمدا حتى استطاع محمد أن يفتري هذا القرآن. كلام خطير جدا جدا. فأين الدليل على ما تفتريه من قول؟

جواب: نحن نظن أن الآية الكريمة التالية تقدم لنا الدليل (حسب فهمنا لها بالطبع) على أن هذا القرآن هو كلام مفترى، فانظر – عزيزي القارئ- السياق جيدا:

- ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [يونس: 37]

ألا تدل هذه الآية الكريمة - عزيزي القارئ – على أن القرآن هو فعلا كلام مفترى، ولكن من الذي افترى هذا القرآن، أليس محمد هو من افتراه بتأييد من ربه (وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ)؟ وهل يستطيع محمد أن يكذب القولَ فيه في ضوء ما جاء في قوله تعالى:

- ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة: 40-46]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن محمد كان يفتري القول (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ)، ولكن قول محمد كان يختلف عن قول الشعراء (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ) أو قول الكهنة (وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا

تَذَكَّرُونَ)، لأنه كان يتنزل إليه من ربه (تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ)، ولم يكن محمد يستطيع أن يضيف فيه شيء من عنده (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ)، لأن النتيجة ستكون وخيمة جدا (لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (45) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (46))

السؤال: ما معنى الافتراء إذن؟ وكيف يختلف القول المفترى عن القول المفترى كذبا؟

رأينا: نحن نظن أن القول المفترى كذبا هو القول الذي فيه الكذب، وهو الذي يكون قائله قد قصد (عن نية مسبقة) تمرير معلومة كاذبة غير صادقة، لذا فالمتكلم يعلم في قرارة نفسه أن ما يقوله ليس صحيحا وأن الهدف من ذلك هو تشويه الحقيقة أو التغطية عليها. فيكون بذلك قد افترى كذبا.

أما من يفتري القول فقط، فهو الذي يقول المعلومة وهو مصدّق لما فيها، ويظن أن ما جاء فيها صحيحا، ويكون غرضه إيصال الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة. ولكن هذا لا ينفي احتمالية أن تكون المعلومة بحد ذاتها خاطئة، فقد أفتري أنا قولا (ظانا ومؤمنا أن ما أقوله صحيحا)، فيتبين بعد ذلك أنه لم يكن كذلك، ويتبين خطأه بالدليل القاطع، لذا فإن صحة المعلومة أو خطأها ليست ركنا أساسيا في القول المفترى ولكن ما هو أساسي في افتراء القول هو قصد (ولنقل نيّة) المتكلم فقط، فمادام أن المتكلم يصدّق كلامه ولا يقصد به تشويه الحقيقة أو إخفاء شيء منها، فكلامه يأتي من باب افتراء القول، ولا يندرج في باب القول المفترى كذبا إطلاقا.

ولكن لماذا؟

رأينا: نحن نظن أن السبب في ذلك هو وضع الكلام للاختبار والتدليل عليه بالبرهان، فالكلام المفترى هو الكلام الذي يمكن اختباره لإثبات صحته أو خطأه بالبرهان، فعندما أقول أنا شيئا مقتنعا بصحته يكون ذلك من باب افتراء القول (ولكنه ليس من باب افتراء الكذب مادام أني لا اقصد الكذب فيه) وبالمقابل يمكن أن تقول أنت شيئا آخر مختلفا تماما وتكون مقتنعا بصحته فيكون كلامك أيضا من باب افتراء القول (ولكنه ليس من باب افتراء الكذب مادام أنك لا تقصد الكذب فيه). وربما يكون قولي (ما قلت أنا) وقولك (ما قلت أنت) متعاكسان تماما (بالضبط كما في حالة الجدال العلمي الذي يحصل بين أهل الاختصاص)، فكيف يمكن فض الخلاف بيننا؟

جواب: بالدليل، فعندما يحدث صراع فكري بين أهل العلم تكون الغلبة لمن يقدم البرهان على صحة ما يقول. فمن يستطيع تقديم الدليل على إثبات صحة قوله (أو ربما تقديم الدليل على إبطال قول خصمه)، فهو الذي يجب أن تكون له الحجة، أليس كذلك؟

السؤال: وهل ينطبق مثل هذا المنطق المفترى من عند أنفسنا على القرآن الكريم؟

جواب: نعم، نحن نظن أن هذا المنطق يمكن أن يطبق على القرآن الكريم نفسه، ولكن أين الدليل على ذلك؟

جواب: نحن نظن أن الإله هو إله، وهو يسأل ولا يسأل، أليس كذلك؟

- ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ٢٣﴾ [الأنبياء: 23]

ولكن بالرغم من ذلك، هل قال الله لنا في كتابه الكريم أن هذا القرآن هو كلامه، ومادام كذلك فهو صحيح، ويجب علينا أن نأخذه حتى دون دليل؟ وبكلمات أخرى نقول: هل استخدم الله نفوذه كإله وطلب من الناس الانصياع لأمره والأخذ بقوله دون الحاجة إلى الدليل؟

جواب: كلا وألف كلا، هذه ليست منهجية الإله، ولكن منهجيته تلخصت في أمرين أثنين، أولهما أنه قدم بنفسه الدليل على صدق ما يفتري من قول، ويلخص ذلك حسب ظننا قوله تعالى:

- ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ٣٣﴾ [الفرقان: 33]

وثانيهما أنه تحدى الجن والإنس أن يقدموا الدليل الذي يمكن أن ينقض كلام الإله نفسه، كأن يأتوا بعشر سور من مثله مفتريات:

- ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ١٣﴾ [هود: 13]

أو أن يجمعوا أمرهم ليأتوا بمثله:

- ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ٨٨﴾ [الإسراء: 88]

ونحن نظن أن هذا النهج الإلهي تلخصه الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ١١١﴾ [البقرة: 111]
- ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ٢٤﴾ [الأنبياء: 24]

- ﴿أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٦٤﴾ [النمل: 64]

نعم، قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ،إن من أراد أن يثبت أن كلام الله غير صحيح فعليه أن يقدم الدليل على صحة ما يقول (أي البرهان).

نتيجة مفتراة: نحن نظن أن القول المفترى هو القول الصحيح الصادق الذي لا يمكن أن ينقض إلا بالبرهان، فمن يملك البرهان هو الذي يستطيع أن يثبت أو أن ينفي صحة القول المفترى. وما لم يثبت بطلان القول المفترى بالبرهان يبقى صحيحا لا جدال فيه.

نتيجة: وبهذا المنطق المفترى نقول: مادام أنك لا تملك الدليل على اثبات بطلان القرآن الكريم يبقى القرآن هو كلام مفترى، افتراه محمد (ليس من تلقاء نفسه) ولكن بتأييد إلهي:

- ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٧﴾ [يونس: 37]

ولا شك أن كل منا يفتري على قدره، فأنا أفتري القول ولكن هذا لا ينفي أن لي حدود في العلم لا أستطيع أن أتجاوزها، وكذلك هي الحال بالنسبة للبشر جميعا، فيبقى لكل منا حده الذي لن يتجاوزه مهما بلغ علمه:

- ﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ٧٦﴾ [يوسف: 76]

فمادام أن فوق كل ذي علم عليم، تبقى الفرصة مهيأة أن نخطئ فيما نفتري من القول وإن لم نكن نقصد الكذب فيه.

ولكن عندما يأتي افتراء القول من عند الإله نفسه، فهل هناك علما يمكن أن يتجاوز علم الإله نفسه:

- ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ١٢٢﴾ [النساء: 122]

أليس قول الإله هو الحق بعينه:

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنعام: 73]

وهل هناك بعد الحق إلا الضلال:

- ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [يونس: 32]

نتيجة مهمة جدا جدا: إن قول الله هو قول مفترى وذلك لأنه يمكن أن يمحّص بالدليل وبالبرهان، ولكن ذلك البرهان أو الدليل سيفضي بلا شك إلى نتيجة واحدة وهي أن قول الله صحيح صادق لا كذب فيه.

لو كان صاحبنا القديم حاضرا لربما سألني: لماذا لم يلحظ أهل الدراية من قبلك الفرق بين القول المفترى والقول المفترى كذبا؟ ولِمَ لم يتوصلوا إلى ما توصلت إليه من أفهام (لا شك افتريتها من تلقاء نفسك)؟

جواب: ألا ترى يا صاحبي – كنت سأقول له- أن في هذا دليلا على أني أعلم أهل الأرض بكتاب الله، وأني غير مسبوق في ذلك؟!

سيهز صاحبنا رأسه، الذي لن تخفي تعابير وجهه ما يدور في داخله (إنك مغرور، وماخذ بحالك مقلب – كما نقول بلهجتنا الأردنية)

نعم، أظن أنك يا صاحبي قد أصبت كبد الحقيقة، لذا فإن ملاذي الوحيد هو أن أدعو الله وحده قائلا: اللهم آتني رحمة من عندك وعلمني من لدنك علما لا ينبغي لأحد غيري إنك أنت السميع المجيب، وأسألك ربي أن تنفذ مشيئتك لي الإحاطة بشيء من علمك لم تنفذ مشيئتك به لغيري إنك أنت العليم الحكيم).

السؤال: لِم لَم تصل أفهام سادتنا العلماء لمثل هذه الافتراءات؟ ربما يريد أن يسأل من ظن بأن في كلامنا هذا شيء من الصواب.

جواب: ربما لأنها افتراءات لا تستحق منهم (وهم أهل الفضيلة والإمامة والآيات) كثير عناء التفكر بها، فاشتغلوا بما هو (في نظرهم) أهم من ذلك. ولكن إن صح شيء مما نفتريه نحن من قول، فلابد من وجود سبب حقيقي ربما منعهم عن الوصول إلى حقيقة ألفاظ الكتاب الكريم، فما هو يا ترى؟

رأينا المفترى: إننا نظن أن السبب في ذلك هو تطيّرهم (كما ذكرنا أكثر من مرة) بلغة آباءهم وأجدادهم. وقد وصلت الجرأة ببعضهم أن يضع ما يسميه هو بالقواعد ثم ما يلبث أن يطبق تلك القواعد التي هي من صناعته وصناعة أهل العلم من أبناء جلدته على ما جاء في كتاب الله. والذي استوقفني هنا في محض حديثنا عن قصة يوسف هو ما جاء في مؤلفات بعض أهل الدراية (أهل اللسان الفصيح) عن الآية الكريمة التالية:

- ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۝٣١﴾ [يوسف: 31]

فقال بعض أهل اللغة منهم، وتبعه في ذلك كثير من أهل الشريعة، أن الباء في مفردة (بِمَكْرِهِنَّ) هي زائدة. لأن المعنى يستقيم حسب ظنهم بدونها.

الله أكبر الله أكبر الله أكبر

الباء زائدة؟! وهل في كلام الله يا أهل اللغة ويا أهل الشريعة (نحن نصيح بأعلى صوتنا) ما يمكن أن يكون زائدا؟ أليس كلام الله هو الكلام المطلق الذي لا تشوّهه زيادة فيه ولا يعتريه نقص؟

وكم هناك من الأمثلة التي خرجتموها على تلك الشاكلة؟ ومن أراد الاستزادة من مثل تلك الأمثلة، فما عليه إلا أن يراجع صاحبنا العزيز الدكتور هيثم العزام الذي وقعت يداه مؤخرا على بحث منشور في إحدى المجلات العلمية المحكمة عن موضوع الزيادات في القرآن الكريم، عندها ربما سيتعرف على كمية المعلومات التي جاءت زائدة في كتاب الله!!! فالله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله!!!

موقفنا العقائدي: نحن لا نتزحزح عن موقفنا العقائدي بأن كتاب الله كتاب كامل لا تشوّهه زيادة فيه ولا يعتريه نقص، وأن من يقول بغير ذلك، فحسابنا وحسابه على ربنا وحده:

- ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ۝٢٦﴾ [سبأ: 26]

(دعاء: اللهم ربنا افتح بيننا بالحق وأنت خير الفاتحين)

أما بعد،

السؤال: هل الباء زائدة في مفردة بِمَكْرِهِنَّ قوله تعالى:

- ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۝٣١﴾ [يوسف: 31]

سنحاول يا سادة أن نجمل في الصفحات الأخيرة من هذا الجزء من الكتاب ما استطعنا (وبحول من الله وتوفيق منه نرجوه) أن نحصيه من الحاجة إلى تلك الباء في هذا السياق القرآني، طارحين المشكلة من

خلال التساؤل التالي: ما فائدة الباء في مفردة بِمَكْرِهِنَّ في هذه الآية الكريمة؟ وماذا لو جاءت تلك المفردة بدون تلك الباء؟ فهل كان النص سيختلف كثيرا؟ وهل كانت الرسالة التي ستصلنا من ربنا ستختلف كثيرا؟

رأينا: لو لم تكن تلك الباء موجودة في مفردة بمكرهن لأصبحت الرسالة التي يريد ربنا أن يوصلها لنا عن تلك القصة مختلفة تماما، فوجود تلك الباء في هذا السياق القرآني لا شك يفيد في فهمنا القصة الحقيقية كما حصلت فعلا على أرض الواقع، ولكن كيف ذلك؟

جواب: للإجابة على هذا التساؤل فلابد من التعرض لمعاني هذه الباء في هذا السياق القرآني، وعندها سنتعرض على حجم المعلومة التي كان يمكن أن نفقدها لو غابت تلك الباء عن النص.

أولا، نحن نفهم أن استخدام الباء في بداية المفردة تدل على وجود الواسطة، كما جاء في قوله تعالى:

- ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ١٩٥﴾ [البقرة: 195]
- ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ١٤﴾ [التوبة: 14]

فالعذاب سيقع عليهم، ولكن الواسطة في تنفيذ ذلك العذاب هي أيديهم أنفسهم.

نتيجة مفتراة: لذا نحن نفتري الظن أن هناك واسطة جاءت بالخبر لامرأة التعزيز عن مكر النساء. فامرأت العزيز لم تسمع من النساء مباشرة، ولكنها سمعت عن مكرهن من خلال واسطة نقلت لها خبر مكر النسوة في المدينة (وسنتحدث عن تلك الواسطة التي نقلت الخبر لامرأة العزيز في الأجزاء القادمة من هذا الكتاب، فالله أسأل أن يعلمني ما لم أكن أعلم إنه هو السميع المجيب)

ثانيا: نحن نظن أن وجود الباء تدل على أن السماع لم يكن مباشرا، فما الفرق بين أن نقول:

سمعت مكرهن

سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ

فلو كانت امرأة العزيز قد سمعت مكر النساء، لكان سماعها للخبر جاء مباشر ولحصل ذلك مرة واحدة، ولكن لما كان سمعاها كان على نحو (بمكرهن) فهي إذن لم تسمع من النساء مباشرة، ولكنها سمعت بالخبر عن طريق الواسطة كما أسلفنا.

ثالثا، لو كان سماع الخبر من قبل امرأة العزيز مباشر لسمعت الخبر كما قالته النساء بحرفيته، ولكن لما كان سماعها للخبر منقولا (وليس مباشر) يستحيل أن يكون الخبر قد وصلها بالضبط بالحرفية التي قالته النسوة. فالباء قد تفيد الجزئية كما في قوله تعالى:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٦﴾ [المائدة: 6]

فبالرغم أننا مأمورون أن نغسل وجوهنا وأيدينا وأرجلنا (انظر حركة الفتح وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ ... وَأَرْجُلَكُمْ) كاملة إلا أننا مأمورون أن نمسح برؤوسنا (أي جزء منها) فقط.

رابعا، لما كان الخبر قد جاءها بطريقة غير مباشرة، وربما أصابه شيء من التحريف، يستحيل أن يكون صحيحا على إطلاقه، لأن نقل الأخبار غالبا ما يشوبه التحريف والتشويه بواسطة من ينقل الخبر، خاصة إذا كان الناقل أكثر من طرف. فأنت عندما تسمع بخبر أن رئيس الوزراء الأردني المبجل قد ألقى خطابا (ليعلن تخفيض أسعار السلع كعادتهم بالطبع)، ولا تسمع الخطاب نفسه، فإن الناقل للخبر غالبا يضفي صبغته الخاصة (وربما شيئا من آراءه الشخصية) على الخبر ذاته (كما أفعل الآن عن حديثي عن السيد رئيس الوزراء الأفخم!)

خامسا، لمّا كان النقل يمكن أن تنقصة بعض الدقة (لخلوة من عنصر المباشرة)، فلا يستبعد أن يكون فيه شيء من التهويل والمبالغة، خاصة عندما يصل الأمر إلى الحديث عن أخبار علية القوم (كامرأة مثل امرأة العزيز)، لذا لابد أن المرأة قد أخذت تدابيرها الخاصة لتحقق مما يتناقله الناس عن أخبارها.

سادسا، عندما يأتي الخبر بطريقة غير مباشرة، فربما يتم تناقله في أكثر من مرة، فلو كانت امرأة العزيز قد سمعت مكرهن (أي مباشرة)، لربما فهمنا أن سماع الخبر قد حصل في مناسبة واحدة، فتكون النسوة بذلك قد دبّرن الأمر معا مرة واحدة، ولكانت هي قائمة حينئذ تسمع الخبر مباشرة في تلك اللحظة، ولكن لما كانت قد سمعت بمكرهن (أي ليس مباشرة)، فلربما فهمنا أن مكر تلك النسوة قد حصل على فترة من الزمن، وتم نقل تلك الأخبار تدريجيا لامرأت العزيز في أكثر من مرة، فهي كانت – كما نتخيل الأمر- تتابع (من خلال من يقوم بنقل الأخبار لها) مجريات مكر النسوة شيئا فشيئا (وسنرى بحول الله وتوفيقه تبعات هذا الظن على فهمنا القصة الكلية لاحقا).

سابعا، مادام أن النقل لم يكن مباشرا، وقد أخذ قسطا من الزمن، استطاعت امرأة العزيز – في ظننا- أن تأخذ وقتا كافيا لتدبير الخطة التي ستنفذها لتوقع تلك النسوة في شرك أفعالهن ضدها (وسنحاول تبيان ذلك لاحقا بحول الله وتوفيق منه).

الخ.

السؤال: هل الباء إذن زائدة يا أهل اللغة ويا أهل الشريعة؟

استغاثة: أسألكم بالله يا أهل القلوب التي تفقه وتعقل أن لا تلتفتوا إلى أكاذيب أهل الألسنة التي تظن أنها فصيحة، وأسألكم بالله أن تنقلوا أمانة هذا الكتاب العظيم من بين أيدي أهل اللسان (الذين ظنوا أنهم أهل الفصاحة والبلاغة) لتضعوه في أيدي أهل القلوب التي تعقل وتفقه (وإن لم تكن من أهل الفصاحة). وأن لا تسقطوا قواعد وضعتموها أنتم وآباءكم على ما في كتاب الله، فتجوزوا ما جوزته قواعدكم وتحطوا ما حطت، بل فانظروا إلى الأمر من الزاوية المعاكسة تماما، فاحكموا على قواعدكم التي حاكتها عقولكم من خلال ما جاء في كتاب الله، فالقرآن حكم على غيره، ويستحيل أن يكون غيره حكما عليه. وسنبيّن في مقالات لاحقة بحول الله وتوفيقه الكم الهائل من الأمثلة القرآنية التي لا تتماشى مع قواعدكم ... ، والقارئ مدعو لمراجعة بعض ما جاء في سلسلة مقلاتنا تحت عنوان ماذا كتب في الزبور كنقطة بداية في هذا النقاش الذي سيطول إن أذن الله لنا بشيء من علمه!!!

المدّكرون: رشيد سليم الجراح & علي محمود سالم الشرمان
بقلم: د. رشيد الجراح
21 تشرين أول 2013
د. رشيد الجراح مركز اللغات
rsaljarrah@yahoo.com جامعة اليرموك



الجزء الثالث

اقْتُلُواْ يُوسُفَ

أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا



الجزء الثالث: اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ

نعود في هذا الجزء الثالث من الكتاب إلى قصة يوسف نفسها مبتدئين بالتساؤل التالي: لم تآمر أخوة يوسف على أخيهم؟

جواب: نحن نظن أن الذي دفع بأخوة يوسف أن يتئآمروا (حسب الإملاء الصحيح الذي لا أعرفه) عليه هما سببان اثنان:

1. رغبتهم بأن يخلو لهم وجه أبيهم
2. لكي يكونوا من بعد يوسف قوما صالحين كما جاء على لسانهم في الآية الكريم التالية:

- ﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ٩﴾ [يوسف: 9]

نعم، نحن نظن أن بقاء يوسف بين ظهرانيهم سيكون سببا في وجود الفساد بينما سيؤدي غيابه عن الساحة إلى الصلاح، فنص الآية الكريمة لم يكذّب دعواهم تلك بأن رد عليهم الحجة بالقول مثلا (بل أنتم قوم فاسدون، أو بل كانوا كاذبين، ونحوه).

وهنا سينطلق لسان الجميع بالقول وكيف ذلك؟ كيف يكون وجود يوسف بين ظهرانيهم سبباً في تحقق الفساد؟ وكيف سيكون غياب يوسف سببا في حصول الصلاح؟

رأينا: لابد بدايةً من الإشارة إلى أن يوسف كان الأخ غير الشقيق لمن تآمر عليه من إخوته، فنحن نظن أن نبي الله يعقوب كان قد تزوج وأنجب من أكثر من امرأة، وكان يوسف وأخوه (في ترجيحنا) أبناء أم واحدة بينما كان إخوته الآخرون (وهم الذين تآمروا عليه وعددهم عشرة) إخوة له من أبيه وليس من أمه، وربما يؤكد ظننا هذا ما جاء على لسان يوسف عند حديثه عن ذلك الأخ الآخر في أرض مصر:

- ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ٥٩﴾ [يوسف: 59]

فذاك الأخ هو أخ لهم من أبيهم (ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ) وليس من أمهم، ليكون يوسف وأخوه من جهة وهم من جهة أخرى بالنسبة للأم وإن اشتركوا جميعا في الأب يعقوب النبي.

وربما يصدق ظننا هذا أيضاً ما جاء في الآية الكريمة التالية على لسان الأخوة المتآمرون أنفسهم:

- ﴿إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٨﴾ [يوسف: 8]

فالآية تشير إلى الفصل الواضح بين يوسف وأخيه من جهة وبقية الأخوة العشرة الآخرين (أي العصبة) من جهة أخرى، فانقسم الأخوة في صفين: يوسف وأخوه في صف (لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ) يقابله إخوته العشرة الآخرون في صف آخر (مِنَّا وَنَحْنُ). فكانوا هؤلاء بنص القرآن عصبة:

- ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨﴾ [يوسف: 8]

فالعصبة من الرجال هم - برأينا – عشرة في العدد، يتكاتفون معا على تدبير أمر بينهم (كيد) لا يطّلع عليه الآخرون، ويكون تلاحمهم وتماسكهم كمثل أصابع اليدين الاثنتين العشرة إذا ما تشابكت مع بعضها البعض كما في الشكل:



فلا يستطيع أحد منهم أن يفلت عن المجموعة، لأن المجموعة ككل (العصبة) ضامنة عدم انفلاته. لذا نحن نفتري الظن أنه بالرغم من طول الفترة الزمنية وبالرغم من حزن يعقوب الطويل على فراق يوسف، لم ينبر من بين الأخوة من يسكت حزن والده، كأن يبوح له بالسر على نحو ما فعلوه حقاً بيوسف. والسبب في ذلك في رأينا هو أن جميعهم كانوا مشتركين في المؤامرة وكانوا يمسكون بعضهم البعض، فلا يستطيع أن يخرج أي منهم من المجموعة، وسنرى تبعات ذلك لاحقا في نهاية القصة، عندما نتحدث كيف استطاع يوسف من أرض مصر ويعقوب من البدو أن يفكوا تلاحمهم ذاك (فلا يعودوا عصبة كما كانوا). كما سنحاول لاحقا الحديث (إنْ أذن الله لنا بشيء من علمه) أن نبيّن كيف أن الذين جاءوا بالإفك (وهم عصبة) كانوا عشرة من الرجال، الذين دبروا حادثة الإفك بحق واحدة من زوجات النبي الكريم وهي السيدة عائشة، فكان تدبيرهم يشبه في ترتيبه تدبير أخوة يوسف ضد أخيهم وهو لا يعلم:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١١﴾ [النور: 11]

وسنرى أن تدبيرهم ذاك كان شرا لهم، بينما كان فيه الخير لمن دُبِّر الأمر ضده (الرسول وزوجه وصالح المؤمنون). فالعصبة - بنظرنا - هم مجموعة محددة بالعدد من الرجال (عشرة بلا زيادة ولا نقصان)، وبخلاف ذلك تصبح عملية حمل مفاتيح كنوز قارون (الذي يتحدث عنها النص القرآني في موطن آخر) أمرا غير مستساغ:

- ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ٧٦﴾ [القصص: 76]

فنحن نظن أن عشرة من (أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ) من الرجال لا يستطيعون حمل تلك المفاتيح، ولكن لو زاد العدد عن ذلك ولو بواحد كأن يكونوا أحد عشر رجلا من (أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ) لأصبح الأمر ممكنا (وسنتحدث عن ذلك بحول الله وتوفيقه في سلسلة مقلاتنا عن قصة موسى، فالله اسأل أن يعلّمني من لدنه علما، وأسأله أن يعلمنا الحق فلا نفتري عليه الكذب ولا نقول عليه ما ليس لنا بحق، إنه هو السميع المجيب).

نتيجة: لقد تآمر العشرة من أخوة يوسف (وهم عصبة) ضد أخيهم. ولم يشترك الأخ الشقيق (الحادي عشر) في تلك المؤامرة:

- ﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ٤﴾ [يوسف: 4]

فبالرغم أن إخوة يوسف هم أحد عشر إلا أن الذي اشتركوا في المؤامرة هم عشرة فقط، فكانوا عصبة.

لو كانوا تسعة في العدد لأصبحوا رهطا وليس عصبة:

- ﴿وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ٤٨﴾ [النمل: 48]

وربما يفسر لنا مثل هذا الافتراء سبب ظن الأخوة بأن في التخلص من أخيهم يوسف سيتحقق لهم الصلاح، ولكن كيف ذلك؟

رأينا: نحن نظن أن الإجابة على هذا التساؤل تكمن في طرح التساؤل الثاني التالي: ما الذي جعل يوسف يختلف عن إخوته؟ ولماذا سيكون في غياب يوسف صلاح لهم جميعا (وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ)؟

جواب: إنها نظرة وتصرف أبيهم يعقوب. ولكن كيف ذلك؟

جواب: لعل الكثيرون لا يجادلون بأن يعقوب النبي كان يحب يوسف (وأخيه الآخر) أكثر من بقية أولاده جميعا وذلك بصريح اللفظ القرآني كما جاء على لسان الإخوة أنفسهم في الآية الكريمة التالية:

- ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨﴾ [يوسف: 8]

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن هذا ربما يفسر - برأينا- الفساد (عكس الصلاح) الذي كان يمكن أن يقع لو بقي يوسف بين ظهرانيهم:ولكن كيف ذلك؟

جواب مفترى: إنه ضلال الأب يعقوب.

نعم، لقد كان يعقوب في ضلال مبين (إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ)، لذا فإن من الواجب علينا الخوض في التساؤل التالي الذي طرحناه في بعض مقالاتنا السابقة وهو: من الذي يجب أن يتحمل المسؤولية فيما حصل ليوسف؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن المسؤولية الأولى والأكبر تقع على عاتق الأب يعقوب نفسه، فهو سبب المشكلة لأنه هو من خلق التشاحن (وربما العداوة) بين الأخوة، وما تآمر الأخوة – في ظننا- على أخيهم إلا بسبب ما فعله أبوهم يعقوب، فإن كنا نظن أن جزءا من اللوم ربما يقع على كاهل الأخوة الذين تآمروا على أخيهم، إلا أننا في الوقت ذاته نلقي بجل اللّائمة على عاتق الأب الذي فرّق (بسبب بعض تصرفاته) بين الأخوة. وقد افترينا القول سابقا أن غياب يوسف كان يحمل في ثناياه عقابا ليعقوب نفسه على ما قدّمت يداه، ولكن كيف ذلك؟

أولا، إنني أدعو القارئ الكريم إلى أن يضع نفسه (ولو بالمخيال) في مكان إخوة يوسف، وليحاول أن يكون منصفاً في تصوره لردة فعله على ما كان يفعل يعقوب النبي مع يوسف وإخوته، فهل لو كنت أحد أبناء يعقوب النبي، هل كنت سترضى أن يفضّل أبوك يعقوب أحد أبناءه عليك وعلى إخوتك الآخرين جميعا؟

ثم إذا ما تصورنا بأن يوسف وأخاه الآخر هم أبناء يعقوب من أم واحدة بينما الأخوة الآخرين هم أبناء يعقوب من نساء أخريات، فهل كنت سترضى أن يفضل يعقوب النبي أبناء زوجة من أزواجه على أبناء الزوجة الأخرى؟

- ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨﴾ [يوسف: 8]

ولتنسى – عزيزي القارئ- أمر يعقوب لدقيقة من الزمن لتتخيل أن والدك متزوج فعلا بأكثر من امرأة، فهل تقبل أن يكون الرجل المتزوج بأكثر من امرأة غير مقسط بين أبناءه فيفضل بعضهم على بعض؟

افتراء من عند أنفسنا: نعم، نحن نظن أن هذا هو الضلال المبين الذي كان واقعا يعقوب فيه، إنه تفضيل طرف من أبناءه على الآخرين. ولقد ورد خبر ضلاله هذا في موطنين من القصة:

1. جاء في بداية القصة على لسان الأبناء بأن الأب في ضلال مبين:

- ﴿إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٨﴾ [يوسف: 8]

2. ثم جاء مرة أخرى مع نهايتها أن الأب لازال على ضلاله القديم عندما عاد ليبكي يوسف (بدل أن يبكي أبناءه الآخرين الذين فقدهم أيضا) :

- ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ٩٤ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ٩٥﴾ [يوسف: 94-95]

فبعد أن كان ضلالا مبينا في وجود يوسف (إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ)، أصبح ضلالا قديما في غيابه (قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ).

نتيجة مفتراة: لقد توقف يعقوب عن التمييز بين من تبقى له من أبناءه بعد أن غاب يوسف عن الساحة.

ولو راقبنا النص القرآني جيدا لوجدنا أنه على الرغم من قول الذين هم حول يعقوب حينئذ أن الرجل في ضلال مبين، إلاّ أن الأب لم ينكر الخبر في الحالتين، والسبب في ذلك أن يعقوب كان – برأينا- يدرك في قرارة نفسه أنه هو السبب في إيقاع الفرقة ومن ثم الخصومة بين أبناءه. والأهم من ذلك كله أن الله لم يكذّب قولهم ذاك في النص القرآني كما هي العادة عندما يفتري أحد الكذب:

- ﴿لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ٤٢﴾ [التوبة: 42]
- ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٠٧﴾ [التوبة: 107]
- ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ ٨٦﴾ [النحل: 86]
- ﴿بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ٩٠ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ٩١﴾ [المؤمنون: 90-91]
- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٢﴾ [العنكبوت: 12]

- ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ١٨﴾ [المجادلة: 18]
- ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ١١﴾ [الحشر: 11]
- ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ١﴾ [المنافقون: 1]

لذا نحن نظن أن هذه من أساسيات النص القرآني، فهو يفضح كل من يقول شيئا مفتريا الكذب، لذا نحن نتجرأ على الاستنباط بأنه لو كان إخوة يوسف غير صادقين في ظنهم، ولو لم يكن يعقوب فعلاً في ضلال مبين، لجاءت تكملة الآية على نحو (وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ أو وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ أو أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ، الخ).

افتراء من عند أنفسنا: لقد كان يعقوب فعلا في ضلال، ولم يتوقف أمر يعقوب عند الضلال بل تجاوز ذلك ليكون في (ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ)، فعندما يصل الضلال إلى درجة أن يكون مبينا، فهذا يعني – في ظننا- أن الجميع ممن حوله كان يدرك هذا، فقد وصل الأمر بيعقوب أن يفضل أحد أبناءه على الآخرين دون تستر على الأمر. فنحن عادة ما نجد أن بعض الآباء ربما يفضلون أحد أبنائهم على الآخرين، لكن غالبا ما يحاول الأب التستر على ذلك بأن لا تفضح تصرفاته مشاعره تجاه الأخوة، ولكن الأمر بالنسبة ليعقوب قد تجاوز مرحلة المشاعر إلى مرحلة الأفعال، فكان ضلاله مبينا، أي يستطيع من حوله أن يقدّم الدليل على ذلك، مصداقا لقوله تعالى:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ١٩﴾ [النساء: 19]

فمن جاءت بالفاحشة المبينة من النساء فهي قد أشهدت على نفسها حتى يقع عليها العذاب جزاء فعلتها تلك.

ولكن كيف وصل أمر تفضيل يعقوب ليوسف على إخوته إلى درجة أن يكون ضلالا مبينا؟

رأينا: نحن نظن أن الإجابة على ذلك يمكن أن تستنبط من السياق القرآني التالي:

- ﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ٩﴾ [يوسف: 9]

فلقد كان دافع الأخوة الأول في التآمر على أخيهم هو أن يخل لهم وجه أبيهم (ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ)، وكان دافعهم الثاني بعد ذلك هو أن يكونوا قوما صالحين من بعد يوسف (وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ). وسنحاول التعرض لهذين السببين بشيء من التفصيل.

أولا، ماذا كان يقصد الأخوة من قولهم لبعضهم البعض (يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ)؟ فكيف كان سيخل وجه أبيهم لهم بعد التخلص من يوسف؟ وكيف لم يكن الأمر ممكنا في وجود يوسف؟

للإجابة على هذا التساؤل لابد من التعرض لمعنى عبارة (يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ)، لنطرح التساؤل على النحو التالي: كيف يمكن أن يخلو الوجه؟ ومتى لا يكون الوجه خاليا؟

أولا، نحن نعلم من سياق قرآني أن الوجه يمكن أن يُقلَّب كما فعل الرسول محمد عندما كان يقلب وجهه في السماء:

- ﴿قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ١٤٤﴾ [البقرة: 144]

فتقلّب الوجه هو – برأينا- النظر في أكثر من اتجاه، فعندما كان النبي محمد يقلب وجهه في السماء، فإنه كان (نحن نتصور) ينظر في أكثر من موطن فيها، أليس كذلك؟

السؤال: هل كان يعقوب يقلّب وجهه بين أبناءه؟

جواب مفترى: كلا، لأنه لو كان يعقوب يقلب وجهه بين أبناءه لما كانوا بحاجة أن يخلو لهم وجه أبيهم، فعندما يخلو شيء بشيء (أو نفر بنفر) فإنهم يكونون متجهين إلى بعضهم البعض:

- ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٧٦﴾ [البقرة: 76]

نتيجة مفتراة: لمّا لم يكن وجه يعقوب خاليا إلى أبناءه الآخرين فقد كان خاليا فقط إلى يوسف، فنحن نتصور (ربما مخطئين) أن يعقوب كان ينظر على الدوام جهة يوسف حتى في حضور أبناءه الآخرين. والآن إن صح ما نزعم، كيف يمكن أن تتخيل – عزيزي القارئ- أن تكون عليه ردة فعل أبناء يعقوب تجاه يوسف (وربما يكون كثير منه أكبر منه سنا) إذا كان يعقوب ينظر جهة يوسف على الدوام حتى في حضورهم؟

ثانيا، نحن نظن أن الخلو يتطلب أصلا التواجد معا:

- ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ٢٤﴾ [فاطر: 24]

فالنذير الذي خلا في كل أمة كان متواجدا بينهم، فالأبناء إذاً يطلبون أن يتواجد الأب مع أبناءه جميعا، فيخلو لهم وجهه، لذا نحن نتخيل (ربما مخطئين) أن يوسف كان على الدوام مصاحبا لوالده يعقوب (أو لنقل أن يعقوب كان على الدوام مصطحبا يوسف معه)، فما استطاع الأخوة أن يخلو لهم وجه أبيهم نتيجة ذلك. لذا كيف يمكن أن تتخيل (إن صح زعمنا بالطبع) أن تكون ردة فعل أبناء يعقوب تجاه يوسف (وربما كثير منهم أكبر منه سنا)؟

السؤال: وأين الدليل على أن يعقوب كان مصاحبا ليوسف على الدوام؟

نحن نظن أن الدليل على هذا الافتراء الذي هو بلا شك من عند أنفسنا ربما يمكن استنباطه من الآية الكريمة التالية:

- ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ١٣﴾ [يوسف: 13]

فلو راقبنا هذه الآية الكريمة على وجه التحديد لوجدنا أن يعقوب يعترف بلسانه بأن مجرد ذهاب يوسف مع أخوته سيسبب له الحزن، أليس كذلك؟

السؤال القوي: ألم يكن ذهاب الأخوة جميعا يسبب له ذلك الحزن؟ ولم كان ذهاب يوسف على وجه التحديد هو ما يسبب له الحزن؟ أليس بقية الأخوة هم أبناءه كما أن يوسف هو أبنه؟ لم لم يحزن يعقوب على ذهاب الأبناء جميعا وحزن فقط على ذهاب يوسف؟ أليس في هذا – يا سادة- ضلالا مبينا؟

وعندما تكررت حادثة فقدان الأبناء الآخرين (أخ يوسف الشقيق الذي طلبه يوسف بنفسه أن يحضروه له، والأخ غير الشقيق الذي رفض الرجوع إلى أبيه دون أخيه الذي قطع لأبيه العهد أن يرجعوا به إليه) في أرض مصر، ألم يخص يعقوب يوسف حينها بالذكر ولم يتذكر أبناءه الآخرين:

- ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ٨٤﴾ [يوسف: 84]

السؤال القوي: لم لم يذكر يعقوب أبناءه الآخرين الذين افتقدهم كما تذكر حينها يوسف؟ أليس في هذا – يا سادة- ضلالا مبينا؟

السؤال القوي جداً جداً: لماذا أوقع يعقوب نفسه في هذا الضلال؟ ولِم تصرف نبي من أنبياء الله بهذه الطريقة التي أظهرت التمييز الفاضح بين الأبناء؟ ألم يكن يعقوب يدرك أن في تصرفه هذا اعتداء على حقوق الأبناء الآخرين؟ ألم يكن يدرك أن نتائج تصرفه هذا ربما تكون كارثية (وقد كانت فعلا كذلك)؟ ألم يدرك أن

الأخوة سيتآمرون على أخيهم نتيجة ذلك؟ هل كانت الفراسة تنقص يعقوب حتى يوقع نفسه في هذا الحرج الذي نسجناه من مخيالنا (إن صح)؟

جواب: لم يكن يعقوب يستطيع أن يفعل غير ذلك. لقد كان الأمر – في ظننا- خارجا عن قدرة يعقوب النبي.

السؤال: لماذا لم يستطع يعقوب إلا أن يحب يوسف أكثر من جميع أبنائه الآخرين؟

رأينا: نحن نفتري الظن أن هذا يعود إلى علم يعقوب.

الدليل: نحن نظن أن الدليل على ذلك يأتي مما يمكن أن نستنبطه من الآية الكريمة التالية:

- ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [يوسف: 86]

لو راقبنا الآية الكريمة التالية لوجدنا أن يعقوب يثبت لنفسه علما لم يكن لأبنائه (وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ)، وها هو ظنه ذاك تثبت صحته بعد حين عندما عادوا من أرض مصر يحملون القميص الذي بعثه يوسف ليلقى على وجه أبيه فيرتد بصيرا:

- ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [يوسف: 96]

وهنا فقط يقر كل من حوله لأبيهم يعقوب بذلك العلم، وبصدق أفعاله، وخطأهم في عدم قدرتهم على استيعاب الأمر (كما استوعبه الأب).

- ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾﴾ [يوسف: 97]

السؤال: ما الذي كان يعلمه يعقوب ولم يكن يعلمه أبناءه؟ وهل كان ذلك مبررا لأن يحب يعقوبُ يوسفَ أكثر من حبه لأبنائه الآخرين؟

جواب: نحن نظن أن السبب في ذلك كله يعود إلى إدراك يعقوب بنفسه بمكانة هذا الصبي على وجه التحديد. فلقد أدرك يعقوب أن الله قد رفع هذا الصبي (يوسف) فوق جميع إخوته وفوق والده يعقوب نفسه درجات. فلم يكن يستطيع يعقوب إلا أن يضع هذا الصبي في المنزلة التي يستحقها.

السؤال: وأين الدليل على ذلك؟

جواب: نحن نظن أن الجواب يكمن في فهم السنة الإلهية الكونية التي تصورها الآية الكريمة التالية:

- ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ٧٦﴾ [يوسف: 76]

انظر عزيزي القارئ إلى ما وضعنا تحته الخط (وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ). والآن ما هو مطلوب منك هو أن تطبّق هذه السنّة الإلهية الأزلية بحق الاثنين: الصبي يوسف والأب يعقوب.

أما بالنسبة للصبي يوسف: فقد جاء قول الحق في كتابه الكريم عن علم يوسف في الآية الكريمة التالية:

- ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ٥٥﴾ [يوسف: 55]

فيوسف إذن يثبت لنفسه أنه عَلِيمٌ.

أما بالنسبة ليعقوب، فقد جاء قول الحق في كتابه الكريم عن علم يعقوب في الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٦٨﴾ [يوسف: 68]

فيعقوب إذن وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ (ولكنه ليس عليما).

والآن لنطبّق السنّة الإلهية بحق الاثنين معا: ففي حين أن يعقوب كان ذو علم كان يوسف عليما، وبالرجوع إلى السنة الكونية سنجد أن الله قد جعل من هو عليم (يوسف) فوق من هو ذو علم (يعقوب): وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن يعقوب النبي قد أدرك أن هذا الصبي (من بين جميع أبناءه) له مكانة خاصة تجاوزت مكانته هو بنفسه، فلم يكن له بدّ إلا أن يعطي لهذا الصبي ما يستحق من مكانة أنزله إياها ربهما. ولما كان أبناء يعقوب لا يستطيعون أن يروا بأم أعينهم في أخيهم ما راءه أبوهم فيه نتيجة عدم علمهم، ظنوا صادقين القول أن في حب أبيهم لأخيهم يوسف (وأخيه الآخر) ضلالا مبينا.

السؤال: كيف علم يعقوب بمكانة يوسف هذه التي أنزله إياه ربهما؟

جواب: ربما نستطيع استنباط ذلك من مطلع سورة يوسف نفسها، والآن لنقرأ من بداية قصتها:

- ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ۝٣ إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤﴾ [يوسف: 3-4]

جواب مفترى: لقد علم يعقوب بمكانة يوسف من هذه الرؤيا.

السؤال: وماذا كان من أمر يعقوب مع يوسف قبل الرؤيا؟ ألم يكن يعقوب يحب يوسف قبل هذه الرؤيا؟

جواب: نحن نظن أن حب يعقوب ليوسف قبل الرؤيا لم يكن باديا تماما للعيان، بدليل أن الإخوة قد ظنوا أن أبوهم يحب يوسف وأخيه (وليس فقط يوسف) أكثر منهم جميعا.

- ﴿إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝٨﴾ [يوسف: 8]

السؤال القوي جدا: لماذا كاد الإخوة ليوسف على وجه التحديد؟ لم لم يكيدوا للأخ الآخر؟ لم وجهوا كيدهم تجاه يوسف على وجه التحديد في تلك المؤامرة بالرغم أن أبوهم كان يحب الاثنين (يوسف وأخيه الآخر)؟ ولم توقف كيدهم عند يوسف فتخلصوا منه ولم يتخلصوا من أخيه الآخر؟

للإجابة على هذه التساؤلات فلابد من العودة إلى القصة من بدايتها لنفهم كيف حصلت فعلا على أرض الواقع، فالله أسأل أن يعلمني الحق الذي أقوله فلا افتري عليه الكذب إنه هو السميع المجيب.

أما بعد،

السؤال: كيف حصلت القصة فعلا؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا الذي نظن أنه يختلف تماما عن المخيال الشعبي حول القصة: نحن نفتري الظن أن القصة حدثت على النحو التالي الذي نطلب من الجميع أن لا يثق به ما لم يجد أن الدليل يدعمه:

... ما أن ولد يوسف وأخوه الآخر (الذي ظهر للإخوة الآخرين أنهما أحب إلى أبيهم منهم جميعا) حتى أصبح باديا ليعقوب (بعلم علّمه إياه ربه – سنتحدث عنه لاحقا بحول الله وتوفيقه) أن في أحد هؤلاء الاثنين سيكون الاجتباء الإلهي للرسالة، ولكن يعقوب لم يكن (قبل تلك الرؤيا التي قصّها يوسف على والده) يستطيع أن يجزم في أي منهما سيكون ذلك الاجتباء: في يوسف أم في أخيه ذاك. فتعامل مع الاثنين (نحن نتخيل) بطريقة مميّزة يظهر فيها تفضيل لهما عن بقية الأخوة، وفي هذه المرحلة بدأ تدبير الأخوة الآخرين بالمكيدة، فجاء قولهم الأول:

- ﴿إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝٨﴾ [يوسف: 8]

وكان هذا – برأينا- قبل أن تتحصل ليوسف تلك الرؤيا العظيمة. ولكن ما أن قص يوسف على أبيه تلك الرؤيا:

- ﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ٤﴾ [يوسف: 4]

حتى حذره من مكيدة ثانية من أخوته، فجاء لفظ المكيدة مرتين:

- ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٥﴾ [يوسف: 5]

وهناك تحقق يعقوب بأن الاجتباء الإلهي سيكون في يوسف:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦﴾ [يوسف: 6]

فانتهت حيرة يعقوب في محل الاجتباء الإلهي: فكان في يوسف ولم يكن في أخيه الآخر.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: لقد كاد أخوة يوسف لأخيهم مرتين، مرة قبل الرؤيا واشترك في ذلك مع يوسف أخوه الصغير. ولكن ما أن جاءت الرؤيا حتى أصبح هناك كيد آخر (ثاني) خاص بيوسف فقط دون أخيه الآخر، فكاد الإخوة ليوسف مرتين وكادوا لأخيه الآخر مرة واحدة، ولكن لماذا؟

رأينا: ما أن أصبح يقينا ليعقوب (بسبب تلك الرؤيا) أن الاجتباء سيكون في يوسف وليس في أخيه، حتى أصبحت معاملة يعقوب لولده هذا (يوسف) تتميز عن معاملته لجميع أبناءه الآخرين بمن فيهم أخ يوسف الآخر الذي كان يظهر للأبناء أن أبيهم يحبه كحب يوسف. وفي هذه المرحلة انتقل تدبير الأخوة إلى مرحلة جديدة، وهي التخطيط الفعلي للتخلص من يوسف على وجه التحديد مادام أنه أصبح واضحا لديهم أن حب الوالد منحصر في يوسف فقط، فجاء في الآية التالية تدبيرهم صريحا بحق يوسف نفسه (دون أخيه):

- ﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ٩﴾ [يوسف: 9]

فالآية تشير بصريح اللفظ بأن قتل يوسف أو طرحه أرضا هو ما سينتج عنه خلو وجه أبيهم لهم ولا علاقة للأخ الآخر ليوسف بهذا الأمر من قريب أو من بعيد. وربما يفسر مثل ظننا هذا السبب في غياب الأخ الآخر عن الساحة تماما بعد أن تم التخلص من يوسف، فلم يُقدم الأخوة على التخلص منه أو الكيد له بالرغم من ظاهر حب أبيهم له في البداية. ولكن لماذا؟

رأينا: لمّا كان يعقوب يحب ولديه يوسف وأخاه في بداية الأمر، ثم أصبح الأمر واضحا بأن الحب فعلا خاص بيوسف، وليس بأخيه، كان حتى تلك اللحظة ضلاله (أي ضلال يعقوب) مبينا، وما أن غاب يوسف عن

الساحة بعد أن أبعده إخوته عن أبيهم حتى انتهى ذلك الضلال المبين، ولم يعد الأب يعقوب يميّز بين أبنائه جميعا بمن فيهم أخ يوسف الشقيق. وما بان ضلال يعقوب مرة أخرى إلا مع عودة الحديث عن يوسف في نهاية القصة، بعد أن عاد يتذكر يوسف، ولكن الملفت للانتباه في هذا النص أن ضلال يعقوب ذاك قد صوّره القرآن الكريم على أنه ضلال قديم:

- ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ۝٩٥﴾ [يوسف: 95]

وكان ذلك يوم أن اشتم يعقوبُ رائحة يوسف:

- ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ۝٩٤﴾ [يوسف: 94]

نتيجة مفتراة: لقد كان ضلال يعقوب سببه يوسف على وجه التحديد وليس أخ يوسف الشقيق، بدليل أن ذلك الضلال قد ارتبط على الدوام بوجود خبر يوسف.

السؤال: وأين الدليل على ذلك؟

جواب: نحن نظن أن بالإمكان استقصاء الدليل على ظننا هذا من السياقين التاليين، حيث يتحدث أحدهما عن فراق يوسف لأبيه بينما يتحدث الآخر عن فراق أخ يوسف الآخر لأبيه، أما ما يخص فراق يوسف لأبيه عندما طلب إخوة يوسف من أبيهم أن يبعثه معهم ليرتع ويلعب، فقد جاء قول يعقوب على النحو التالي:

- ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ۝١٣﴾ [يوسف: 13]

وأما ما يخص فراق الأخ الآخر مع إخوته يوم راودوا أباه عنه ليبعثه معهم إلى أرض مصر (بناء على طلب من عزيزها آنذاك الذي رفض أن يكتل لهم ما لم يحضروه معهم)، فقد جاء قول يعقوب على النحو التالي:

- ﴿قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ۝٦٦﴾ [يوسف: 66]

السؤال القوي: ما الفرق بين القولين: قول يعقوب في حالة مفارقة يوسف له وقوله في حالة مفارقة أخ يوسف الآخر له؟

رأينا: الحزن

لو دققت عزيزي القارئ لوجدت أن مجرد ذهاب يوسف في رحلة لمدة يوم واحد مع إخوته كان يسبب ليعقوب الحزن (إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ)، ولكن ذهاب أخ يوسف الآخر مع إخوته في رحلة إلى مصر قد تستغرق وقتا طويلا لم يكن ليسبب ليعقوب ذلك الحزن، فلماذا؟

رأينا: لأن حب يعقوب كان خاصا بيوسف فقط، وما أن ذهب يوسف عن الساحة حتى أصبحوا جميعا قوما صالحين لا يفضل الأب أحدهم على غيره، فتوقف كيد الإخوة عند ذلك الحد.

السؤال القوي جدا جدا: لماذا يوسف؟ لم أحب يعقوب يوسف على وجه التحديد بالرغم أن حبه في البداية كان ظاهرا ليوسف وأخيه؟ ولماذا تغير سلوك يعقوب بعد الرؤيا؟ وبكلمات أجنبية نقول Why did he have a change of heart?

رأينا: نحن نظن – كما أسلفنا- أن يعقوب كان في بداية الأمر غير جازم رأيه في أي الاتجاه سيكون الاجتباء الإلهي: في يوسف أم في أخيه الآخر. فظهر منه عندها ما يبين أن حبه كان لكليهما: ليوسف وأخيه. ولكن ما أن جاءه خبر الرؤيا (على لسان يوسف نفسه) حتى استقر اليقين في فؤاد يعقوب أن الاجتباء لا محالة في يوسف فقط، وهنا بالضبط – نحن نفتري القول- انتهى تفضيل يعقوب لولده الآخر هذا على إخوته الآخرين ولكنه استمر في تفضيل يوسف عليهم جميعا بمن فيهم أخيه هذا. فجاء تحذيره خاصا ليوسف من مكيدة أخرى يكيدها له إخوته نتيجة تلك الرؤيا علاوة على المكيدة الأولى التي كانت بسبب حب الوالد له ولأخيه. فكان هناك – في فهمنا للقصة- مكيدتان، مكيدة قبل الرؤيا (كانت موجهة ليوسف وأخيه) ومكيدة بعد الرؤيا (كانت موجهة ليوسف فقط)، فجاء التكرار في اللفظ:

- ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥﴾ [يوسف: 5]

ونحن نظن أن المكيدة الأولى كانت بسبب ما فعله يعقوب، أما المكيدة الثانية فأصبحت من نزغ الشيطان بين الإخوة: إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (وسنتعرض لهذا بالتفصيل لاحقا بحول من الله وتوفيق منه).

السؤال: لماذا استمر يعقوب في حب يوسف وتفضيله له على جميع إخوته بعد الرؤيا وتوقف عن حب أخيه الآخر بعد الرؤيا؟

إن صح زعمنا هذا فإننا قد نستطيع أن نستنبط الإجابة من السياق القرآني التالي:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦﴾ [يوسف: 6]

لو دققنا عزيزي القارئ في هذا السياق القرآني جيدا لوجدنا أن يعقوب يقر بنفسه أن ما سيحصل لولده يوسف هو اجتباء خاص من ربه، وفيه تمام نعمته عليه، ولكن الملفت للانتباه هو أن تمام تلك النعمة التي سيتمها الله على يوسف قد كانت من قبله لأبويه إبراهيم وإسحق (كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ).

السؤال القوي جدا جدا: أين يعقوب نفسه في تمام تلك النعمة؟

دقق عزيزي القارئ جيدا في هذا النص، حيث يبيّن النص أن في اجتباء يوسف ذاك تمام للنعمة على يوسف نفسه وعلى كل آل يعقوب (وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ) كما كانت لإبراهيم وأسحق من ذي قبل (كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ). فأين يعقوب نفسه في تمام تلك النعمة؟ نحن نسأل مرة ثانية.

جواب مفترى وخطير جدا جدا: نحن نظن أن نعمة الله لم تتم على يعقوب شخصيا بينما تمت على أبويه من قبله إبراهيم وإسحق وآل يعقوب من بعده من خلال ولده يوسف.

الدليل

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن يعقوب (على وجه التحديد) لم يكن دوره يتجاوز أن يكون حلقة وصل بين من أتم الله نعمته عليهم من قبله (وهما إبراهيم وإسحق) ومن جاء بعدة (وهم آل يعقوب من خلال يوسف). فماذا كان يعقوب إذن؟

جواب: لم يكن يعقوب أكثر من نافلة:

- ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ ٧٢﴾ [الأنبياء: 72]

فالبشرى جاءت لإبراهيم أصلا بإسحق:

- ﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١١٢﴾ [الصافات: 112]

فتحصلت الذرية لإبراهيم على الكبر بإسماعيل وإسحق فقط:

- ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٩﴾ [إبراهيم: 39]

وما جاء يعقوب إلا حلقة وصل في تلك السلالة الطيبة:

- ﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلًّا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ٤٩﴾ [مريم: 49]

- ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٢٧﴾ [العنكبوت: 27]

عودة على بدء: لمّا كان يعقوب يعلم أن هناك اجتباء إلهي لا محالة حاصل في واحد من أبناءه، ولمّا كان يعلم أن هذا الاجتباء لم يكن له شخصيا، فهو قد وصل إلى درجة من العمر ولم يتم الله نعمته عليه كما كانت على أبويه من قبل إبراهيم وإسحق، كان متلهفا – نحن نتخيل- أن يرى ذاك الابن الذي سيكمل رحلة الآباء (إبراهيم وإسحق)، فكان ما يشغل يعقوب عن علم هو – في رأينا- إتمام تلك النعمة، فهو يعلم أن الكتاب والنبوة هي في ذرية إبراهيم من خلال هذه السلالة الطيبة:

- ﴿ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢٦ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٢٧﴾ [العنكبوت: 26-27]

ولما استقر في فؤاد يعقوب أن تلك النعمة ستتم على آل يعقوب جميعا من خلال هذا الصبي يوسف (بعد أن حدثه الصبي بما راه في منامه)، كان حب يعقوب ليوسف – نحن نفتري الظن- هو من باب المحافظة على ذلك الإرث الديني العظيم. لذا كان حبه ليوسف ليس حبا لشخص يوسف وإنما لمكانته التي أنزله إياها ربه:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٦﴾ [يوسف: 6]

نتيجة: نحن نظن أن حب يعقوب لأحد أبناء على وجه التحديد كان حبا خاصا بمن اجتباه ربه سواء كان يوسف أو غيره، ولما كان ذلك الاجتباء الرباني قد انكشف في أن يكون في يوسف، أصبح حب يعقوب ليوسف عن علم.

ولم يكن إخوة يوسف – نحن نفتري الظن أيضا- على دراية بهذا العلم الذي كان يخبئه يعقوب في صدره، فطلب يعقوب بنفسه من ولده يوسف أن لا يقصص رؤياه على إخوته، لأن هذا سيفتح الباب واسعا لفتنة لا يعلم مدى خطورتها إلا الله وحده، وذلك لأن الشيطان هو من سيشعل فتيلها حينئذ

- ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝٥﴾ [يوسف: 5]

المعضلة: في حين أن الإخوة كانوا يظنون أن الأب يفضّل يوسف عليهم اعتباطا دون وجه حق، استقر العلم في قلب يعقوب أن يوسف يستحق منزلة لا ينازعه عليها أحد من إخوته، منزلة تفوق منزلة الوالد نفسه،

ولكن لمّا كان الأب مجبولا على حب الخير لأبنائه ربما أكثر من نفسه، لم يكن خبر الرؤيا إلا ليدخل البهجة والسرور على قلب الوالد لأن العلاقة بين الوالد والولد هي علاقة تكاملية، فالولد مكملا لوالده، ولكن هل الإخوة مجبولون على ذلك؟

رأينا: كلا، ليس بالضرورة أن يحب الإخوة لبعضهم البعض ما يحبونه لأنفسهم، فالعلاقة بين الإخوة هي علاقة تنافسية، بالضبط كما حصل في قصة ابني آدم، حيث قتل الأخ أخاه. ولمّا كان يعقوب يعي مثل هذه العلاقة التنافسية، حذّر يوسف من أن يطلع إخوته على ما رأى في منامه حتى لا يتسبب ذلك في إشعال فتيل كيدهم له من جديد.

نتيجة مفتراة: لم يكن الإخوة يعون تماما سبب تفضيل والدهم ليوسف عليهم، ولم يكن يستطيع يعقوب أن يبوح لهم بالسر، واكتفى أن يذكّرهم على الدوام بالقول بأنه يعلم من الله من لا يعلمون:

- ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨٦﴾ [يوسف: 86]

فاكتفى بأن يشكو بثه وحزنه إلى الله مادام أنه لا يستطيع أن يشكوهما لأولاده الذين قد لا يتحملوا الأمر. وما تأكد للأولاد خبر ذلك (أي أن أباهم يعلم من الله ما لا يعلمون ويسكت عليه) إلا بعد أن تكشّفت القصة برمتها:

- ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٩٦﴾ [يوسف: 96]

عندها فقط أقر الإخوة جميعا بخطئهم أمام يوسف:

- ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ٩١﴾ [يوسف: 91]

فعلموا كيف أن الله قد آثره فعلا عليهم، كما أقروا بذلك أمام أبيهم يعقوب نفسه:

- ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ٩٧﴾ [يوسف: 97]

السؤال: ماذا لو أن يعقوب قد شكا بثه وحزنه لأولاده (أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ)؟ أي ماذا كان يمكن أن يحصل لو أخرج يعقوب ذلك السر الذي دفعه لتفضيل يوسف عليهم من صدره؟ وماذا لو حدّث يوسف إخوته بخبر تلك الرؤيا؟ ما الذي كان يمكن أن يحصل من أمر الإخوة تجاه أخيهم حينئذ؟

جواب: نحن نظن أن يعقوب لم يكن يستطيع أن يبوح بذلك السر لأبنائه لأن ذلك – برأينا- كان سيسبب فتنة عظيمة لا يتحملها كل بني إسرائيل من بعده. كما نفتري الظن بأن النتيجة ستكون على نحو قتل يوسف وليس الاكتفاء في طرحه أرضا، فقد كان الخيار أمام الإخوة هو إما أن يقتلوا يوسف أو أن يطرحوه أرضا:

- ﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ٩﴾ [يوسف: 9]

ونحن نظن أنه لو تأكد للإخوة بأن الله قد اجتبى يوسف عليهم جميعا لربما لجئوا إلى خيار القتل بدل خيار أن يطرحوه أرضا، ونحن نفتري الظن بأنهم ما طرحوه أرضا إلا لأن خبر الاجتباء لم يصلهم. فلا يعقوب أفشى السر ولا قص يوسف على إخوته الرؤيا.

رأينا: للخوض في هذه القضية العظيمة نحن نرى ضرورة الوقوف عند بعض التفاصيل التي لا يمكن تجاوزها، وربما تشكل أساسيات في فهمنا لهذه القصة، نذكر منها:

1. أن نبي الله يعقوب لم يكن ليتصرف بطريقة هوجاء، فالرجل متعقل يعلم ما يفعل، لذا لو كان في بوح الأمر خير لبني إسرائيل لفعل
2. أن يعقوب رجل على قدر من العلم لا يستطيع أحد أن ينكر ذلك (وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ)
3. أن الأولاد كانوا على دراية بمنزلة والدهم النبي، لذا كانوا طامعين في أن يخلو لهم وجه أبيهم
4. أن الأولاد يعلمون قدر هذا البيت العظيم، لذا كانوا ينشدون الصلاح
5. أن الأولاد لا شك طامعين جميعا في ميراث هذا البيت العظيم
6. والأهم من هذا كله هو إدراكهم في أن ميراث النبوة والكتاب هو في هذا البيت العظيم مصداقا لقوله تعالى:

- ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧﴾ [العنكبوت: 27]

السؤال: من - يا ترى- يمكن أن يحظى بهذا الشرف العظيم من الأبناء؟ هل تتخيل عزيزي القارئ أن الأبناء سيقتتلون على حفنة من الدراهم أو قطعة من الأرض (كما نفعل نحن)؟

رأينا: كلا وألف كلا. إنه ميراث النبوة والكتاب، ولا أظن أن أحدا منهم كان غير راغب فيها، ولا أظن أن أحدا منهم كان يمكن أن يسكت عن الأمر لو بان له منذ البداية أن صاحب هذا الشرف سيكون يوسف على وجه التحديد، ولربما دب عندها الخلاف بين الإخوة منذ تلك اللحظة، ولرفض الإخوة أن يكون الفضل لأحدهم دون الآخرين، ولربما تكررت قصة ولدي آدم مرة أخرى، ولربما أقدم بعضهم على قتل بعض، ولربما ظهر الفساد في الأرض من جديد، ولربما خسروا جميعا ميراث النبوة والكتاب منذ تلك اللحظة.

الدليل:

الأولاد يريدون أن يقتلوا يوسف لكي:

1. يخلو لهم وجه أبيهم يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ
2. ليكونوا صالحين من بعد يوسف وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ

- ﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ۝٩﴾ [يوسف: 9]

السؤال القوي جدا: إذا ما استطعنا أن نتفهّم أن في قتل يوسف سيخل للأولاد جميعا وجه أبيهم، فكيف يمكن أن نتفهم أن في قتله صلاحا لهم من بعده (وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ)؟

افتراء من عند أنفسنا: نعم، نحن نظن أن في التخلص من يوسف صلاح لهم جميعا، بينما في بقاءه بين ظهرانيهم الفساد في الأرض (عكس الصلاح)، ولكن كيف ذلك؟

رأينا: نحن نظن أن الصلاح لا يتحقق إلا بوجود العدل، ومتى انتفى العدل ظهر الفساد في البر والبحر:

- ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ۝٤١﴾ [الروم: 41]

فالفساد الذي كان سيظهر فيهم كان سببه ما كسبت أيدي الناس (ربما يعقوب نفسه)، وما كان يمكن أن تكسبه أيديهم جميعا، وقد تحدثنا في مقالتنا تحت عنوان "ماذا كتب في الزبور؟" عن معنى الصلاح، وزعمنا القول أن الصلاح هو السبب الرئيس في وراثة الأرض:

- ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ۝١٠٥﴾ [الأنبياء: 105]

فتلك سنة إلهية كونية لا يمكن إلا أن تنفذ (أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ)، ونحن نفتري القول بأن خسارة يعقوب للأرض المقدسة وهبوطه مصرا (وأبناءه جميعا) واستعبادهم في الأرض من بعد هلاك يوسف على يد الفراعنة، وقدوم موسى ليعيد بني إسرائيل إلى الأرض كلها هزات ارتدادية لذلك الحدث العظيم، وهو – برأينا- نتيجة طبيعية لذاك الفساد الذي كانوا شركاء فيها جميعا. ولكن كيف ذلك؟

رأينا: نحن نستطيع الخوض بذلك من خلال افتراءات هي بلا شك من عند أنفسنا، نبدأها بالافتراء الخطير التالي: لقد كان في غياب يوسف عقابا ليعقوب نفسه.

السؤال: كيف كان ذهاب يوسف عقابا ليعقوب نفسه؟

نحن نظن أن تجلية الأمور التالية ربما تساعدنا على تهذيب معرفتنا عن القصة التي سننسج خيوطها من مخيالنا ولا نطلب من الآخرين تصديقها ما لم يجدوا الدليل عل ما نزعم جليا.

1. يعقوب لم يدع ربه أن يعيد له ولده
2. يعقوب كان يعلم ما يدبره الأخوة لأخيهم لكنه أرسله معهم
3. يعقوب هو من ذهب للقاء يوسف (بالرغم من تقدمه في السن) ولم يأتي يوسف للقاء ولده (بالرغم من نفوذه في الأرض)
4. يعقوب هو من هبط إلى مصر بدل أن يعود يوسف إلى الأرض المقدسة
5. الخ

ولنبدأ بهذه القضايا تباعا.

السؤال الأول: يعقوب لم يدع ربه أن يعيد له ولده

نحن نعلم مقدار حب يعقوب لولده يوسف (بغض النظر عن الدافع وراء ذلك)، ونعلم كذلك أن يعقوب لم يكن مقتنعا تماما بالقصة التي نسجها أبناءوه عن موت أخيهم يوسف، فبعد أن جاءوا أباهم عشاء يبكون وأخبروه بأن الذئب قد أكل يوسف كما في السياق القرآني التالي:

- ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧﴾ [يوسف: 17]

جاء رده على كلامهم على النحو التالي:

- ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨﴾ [يوسف: 18]

ونحن نظن أن شك يعقوب بالقصة التي افتراها كذبا أبناءوه يأتي أولاً من دليلين هما

1. نبرة التشكك في خطاب الأبناء عندما قالوا وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ، فالذي يقول الصدق لا يهمه في العادة ردة فعل من يحاوره، لذا يأتي كلامه قاطعا بالدليل اليقيني بالضبط كما حصل عندما فعل الأبناء أنفسهم يوم أن أخبروا والدهم ما حل بولده الآخر في أرض مصر:

- ﴿ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ٨١ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ٨٢ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٨٣﴾ [يوسف: 81-83]

2. طريقة رد يعقوب على الافتراء الكاذب لأبنائه، فالرجل يعلم أن هذا من باب ما سولت لهم أنفسهم:

- ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨﴾ [يوسف: 18]

نتيجة مفتراة: يعقوب يشك بخبر وفاة يوسف ويظن أن ما جاء به الأخوة من خبر موت أخيهم هو من باب ما سولت لهم أنفسهم.

والملفت للانتباه في الموضوع أن يعقوب لم يلتجئ إلى ربه ليدعوه أن يعيد له ولده، ولكنه اختار الصبر على ذلك، فأكمل ردة فعله على النحو التالي:

- ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨﴾ [يوسف: 18]

نتيجة: يعقوب يختار أن يصبر على فراق يوسف بالرغم من يقينه بعدم وفاته، وهنا نثير تساؤلين اثنين هما:

---

1. أين الدليل على أن يعقوب كان متيقنا أن يوسف لم يمت
2. لماذا اختار يعقوب الصبر على ذلك؟

رأينا: نحن نظن أن الدليل على يقين يعقوب بعدم موت يوسف ربما يمكن استنباطه من سياقين قرآنيين هما:

أولا، استمرت قناعة يعقوب بعدم موت يوسف حتى بعد أن فقد بعض أبناءه الآخرين في أرض مصر، عندها قال:

- ﴿قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٨٣﴾ [يوسف: 83]

وخص يوسف بالذكر ليبحثوا عنه:

- ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧﴾ [يوسف: 87]

ثانيا، أما الدليل الأكبر على ذلك فيأتي من السياق التالي:

- ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨﴾ [يوسف: 18]

فلقد علم يعقوب أن الدم الذي جاء به أبناءه على قميص يوسف هو دم كذب.

السؤال: كيف علم يعقوب ذلك؟ أي كيف علم يعقوب أن ذاك الدم المتواجد على القميص الذي أحضروه ليس بدم يوسف؟

رأينا: نحن نظن أن يعقوب كان يستطيع أن يميز ريح يوسف عن بعد، والدليل على ذلك هو أنه قد اشتم ريح يوسف عندما فصلت العير:

- ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ٩٤﴾ [يوسف: 94]

وسنتحدث عن تلك الكيفية التي استطاع من خلالها يعقوب أن يشتم رائحة يوسف لاحقا عندما نفرد فصلا خاصا بقصة القميص بحول الله وتوفيق منه (فالله أسأل أن يعلمني ما لم أكن أعلم، فلا أفتري عليه الكذب إنه هو العليم الحكيم)

أما مراد القول هنا هو أن الذي يستطيع أن يشتم ريح يوسف عن بعد لا يمكن أن يخدع بذلك الدم الكذب. وسنرى لاحقا أنه ما أن رأى يعقوب ذلك الدم (واشتمه) حتى علم أن ذلك من باب ما سولت لهم أنفسهم، وأنهم قد دبروا أمرا لأخيهم فسكت يعقوب على ذلك. واكتفى بأن يصبر على الأمر.

نتيجة مفتراة: إن ما نود إثارته حتى الساعة هو أنه على الرغم من كل ذلك العلم المتوافر عند يعقوب عن ما حصل فعلا ليوسف، إلا أنه لم يتوجه إلى ربه طالبا العون منه في أن يرد إليه ولده المفقود، فلا نجد في كتاب الله نصا يبين لنا أن يعقوب قد دعاء ربه أن يعيد له يوسف إلا مع نهاية القصة بعد كل تلك المعاناة التي تحملها نتيجة فراق ولده له:

- ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾ [يوسف: 83]

السؤال: لماذا لم يتوجه يعقوب إلى ربه بأن يعيد له ولده المفقود كل تلك السنين وصبر على ذلك؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نفتري القول بأن يعقوب هو نفسه من أرشد أولاده إلى تلك الخطة التي سينفذوها بحق يوسف. ولكن كيف ذلك؟

رأينا: نحن نظن أن الجواب على هذا التساؤل له علاقة مباشرة بقضية الصلاح والفساد التي طرحناها آنفا. ولكن كيف ذلك؟

افتراء من عند أنفسنا: لقد أيقن يعقوب بأن الخير (له ولجميع أبناءه) يكمن في غياب يوسف وليس في وجوده بين ظهرانيهم، ولكن لماذا؟

رأينا: نحن نظن أن يعقوب قد علم بأنه إن بقي يوسف بين ظهرانيهم فإن أبناءه الآخرين لا محالة قاتلوه، وستحدث عندها المفسدة في الأرض، وسيخسر بنو إسرائيل جميعا وراثة الأرض التي وعدها الله لعباده الصالحين:

- ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: 105]

لذا فإن المخرج الوحيد لكي ينجو يوسف ببدنه أولا، ولكي لا يحدث الفساد في الأرض بالقتل ثانياً هو أن يبتعد يوسف عن هذه الأرض حتى حين. فكيف حصل ذلك؟

رأينا المفترى الغريب جدا: نحن نظن أن يعقوب هو من دبر المؤامرة التي نفذها الإخوة بأخيهم يوسف، فهو من رسم لأبنائه الخطة التي يجب أن ينفذوها بحق يوسف، ولكن كيف ذلك؟

- ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [يوسف: 13]

وبالرغم أن الأولاد قد أكدوا للوالد أن باستطاعتهم حماية يوسف من الذئب كما في الآية التي تليها:

- ﴿قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [يوسف: 14]

إلا أنهم عادوا مساءا ليخبروا والدهم أن الذئب هو من أكل يوسف:

- ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧﴾ [يوسف: 17]

السؤال: ألا تجد عزيزي القارئ غرابة في ذلك؟ ألم يكن الأبناء يستطيعون أن يفكروا بطريقة أخرى للتخلص من يوسف غير تلك التي رسمها أبوهم في البداية؟ ألا يمكن أن يكون هناك سيناريو آخر يمكن تنفيذ الجريمة من خلاله؟

رأينا: كلا. ولكن لماذا؟

جواب: نحن نظن أن الإجابة على ذلك يكمن في الخطة التي وضعها الأبناء في البداية للتخلص من أخيهم، فلقد كان أمامهم واحد من خيارين: إما أن يقتلوا يوسف فعلا أو أن يطرحوه أرضا:

- ﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ٩﴾ [يوسف: 9]

وانتهى القرار الذي اتخذوه (بعد تشاور) كما اقترحه أحدهم (والذي نظن أنه هو نفسه الذي رفض العودة إلى أبيه من أرض مصر بعد فقدانهم الأخ الآخر الذي قطعوا العهد لأبيهم أن يعيدوه إليه) إلى الخيار الثاني:

- ﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ١٠﴾ [يوسف: 10]

وهنا لابد من الانتقال إلى السؤال الحتمي وهو: كيف سيتم تنفيذ عملية طرحه أرضا؟ أو بكلمات أخرى، ما معنى أن يطرحوا يوسف أرضا؟

رأينا: نحن نظن أن الطرح أرضا تعني بمفرداتنا الدارجة "النفي"، فعندما يتم طرح شخص الأرض، فإنه يتم نفيه منها، أي إخراجه منها عنوة.

الدليل

نحن نظن أن الدليل على ذلك يأتي من السياق القرآني نفسه، وهو بمنطقنا المفترى على النحو التالي: الأولاد يريدون التخلص من أخيهم يوسف سواء بالقتل، أو بالطرح أرضا، وهنا يأتي الحل على لسان أحدهم ويكون ذلك على نحو أن يلقوه في غيابت الجب، ولكن ليس بهدف أن يهلك يوسف فيها، وإنما من أجل أن يلتقطه بعض السيارة، ويأخذوه معهم خارج هذه الأرض، إلى أرض أخرى:

- ﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ١٠﴾ [يوسف: 10]

وهذا بالفعل ما حصل، فخرج الإخوة مع أخيهم إلى المكان الذي سيرتعون به ويلعبون، وقاموا بإلقائه في غيابت الجب، وانتظروا حتى جاءت السيارة، وأخرج واردهم يوسفَ منها بعد أن أدلى دلوه، وأسروه بضاعة، وما أن تأكد للإخوة جميعا أن يوسف قد ترك الديار إلى غير رجعة (في ظنهم) حتى قفلوا عائدين ليلا إلى أبيهم لينقلوا له خبر يوسف. وعلى الرغم من أنهم قد نفذوا خطة طرحه أرضا (أي الخيار الثاني) إلا أنهم نقلوا الخبر لأبيهم على أن يوسف قد مات (الخيار الأول).

السؤال: وكيف يمكن أن يقتنع الوالد بأن الذئب قد أكل يوسف؟ وكيف سيسوّق الأبناء ذلك على الوالد؟ لِم لَم يختاروا طريقة أخرى غير طريقة أن الذئب قد أكله كما قال الوالد لهم في البداية؟ ألم يأخذوا عهدا على أنفسهم بأن لا يدعوه فريسة سهلة للذئب وهم عصبة؟ ألا يشكل ذلك قدحا في قدراتهم؟ ألا يشكل ذلك دليلا على أنهم مسئولون عن فقدانه؟ لم لم يحملهم الأب المسؤولية؟

جواب: للإجابة على هذه التساؤلات فلابد من التعرض لكيفية أن يأكل الذئب إنسانا (كيوسف)، وعندها ستطرح التساؤلات التالية:

1. ما هو الذئب الذي أكل يوسف؟
2. كيف أكل الذئب يوسف؟
3. أين أكله؟
4. متى أكله؟
5. كم يبعد ذلك المكان عن ديارهم الأصلية؟ وكم يبعد عن مكان السبق الذي ذهب إليه الإخوة جميعا؟
6. لم تركوا يوسف على وجه التحديد عند المتاع؟
7. لم لم يتركوا غيره هناك؟ ولم لم يتركوا أحدهم معه هناك؟ ألا يكفي أن يستبق بعضهم ويمكث بعضهم الآخر مع يوسف عند المتاع؟ ألم يطلب منهم والده أن لا يتركوه فريسة سهلة للذئب أصلا؟
8. كيف سيسوّقون الأمر على الوالد إذن؟
9. لِم لَم يطلب يعقوب الذهاب إلى ذلك المكان ليتفقده بعد أن جاءه أبناءه بهذا الخبر المفجع؟
10. لِم لَم تطلب والدة يوسف (إنْ كانت موجودة حينئذ) الذهاب إلى ذلك المكان لتبكي ولدها المفقود عنده؟
11. الخ

جواب: نحن نظن أن مفردة الذئب لا تعني المفرد (ذئبا واحدا) بل هي الفصيلة، فعندما نقول أن الأسد حيوان قوي مثلا، فذلك لا يعني أننا نتحدث عن قوة حيوان واحد بعينه، وإنما نتحدث عن تلك الفصيلة، لذا يستحيل أن يكون الأبناء (أو ربما الأب يعقوب) كان يقصد ذئبا واحدا بعينه، وإنما كان يشير إلى فصيلة الذئاب.

ثانيا، مادام أن الذئب قد أكل يوسف في غياب الإخوة (حسب روايتهم) فيستحيل أن يكونوا على دراية بعدد الذئاب التي اشتركت في أكل يوسف. فهل يستطيع أحد أن يجزم بأن من قام بأكل يوسف هو ذئب واحد محدد بعينه؟

ثالثا، لو أن ذئبا واحد قد أكل يوسف لربما ترك شيئا منه غير قميصه مثلا، فأين شعر يوسف؟ وأين عظامه؟ وأين...؟

لذا لابد من إعادة إعمال مخيالنا الشعبي في القصة من جديد، ونحو نتصور الأمر على النحو المفترى التالي:

نحن نفتري القول بأن خوف يعقوب من الذئب في البداية (وتبني الأولاد لقصة الذئب كما صورها أبوهم) يعود إلى سبب رئيس واحد، وهو العلم المسبق لدى الجميع أن هذا المفترس (الذي يسمى ذئبا) عندما يهاجم فريسته فإنه يأخذها إلى مكان آخر غير ذلك المكان الذي قتلها فيه. فلو أن ذلك الذئب من النوع الذي يقتل الفريسة فيأكلها في المكان نفسه، لترك (نحن نتخيل) منها مخلفات تدل على أثر المقتول. ولو أن الأمر قد حصل على تلك الشاكلة، لربما أحضر الأبناء إلى أبيهم من مخلفات يوسف أكثر من القميص، ولو أن الأمر حصل على تلك الشاكلة، لربما طلب الوالد الذهاب للوقوف على مكان مسرح الجريمة. ولربما طلب بعض الأهل (كالأم والأقارب) القيام بتلك المهمة نيابة عن الرجل نفسه.

أما الدليل الثاني على زعمنا هذا فيأتي من عودة الأبناء ليلا حاملين قميص يوسف فقط، وفي هذا – في رأينا- أشارة للقول بأن الأبناء قد جدّوا في البحث عن يوسف طوال يومهم عندما عادوا من السبق فلم يجدوا يوسف عند متاعهم، وكأن لسان حالهم يقول لوالدهم بأننا ما أن عُدنا من السباق ولم نجد يوسف عند متاعنا حتى أخذنا نبحث عنه جميعا في كل مكان فما وجدنا من أثره إلا هذا القميص. فلا تتعب نفسك ولا غيرك في البحث عنه، لأن الذئب (الفصيلة المفترسة من هذه الحيوانات) لا محالة قد أخذ يوسف بعيدا عن مكان الجريمة. وفي هذا في ظننا سببا كافيا أن يتوقف الوالد عن البحث عن الولد مادام أن الجاني هو الذئب.

ولا أخال أن هذا يمكن أن يفوت يعقوب النبي، لذا فإن يعقوب – في ظننا- هو من أرشد أولاده إلى الطريقة التي يمكن أن يتخلصوا بها من يوسف: أن يأكله الذئب، فيتحقق طرح يوسف في الأرض (النفي) بدل أن يقتل الإخوة أخاهم بأيديهم.

لكن هذا الطرح لا يحل الإشكالية الأكبر وهي أن لا يتحمل الإخوة المسؤولية. فالأب قد حذر الأبناء من الذئب مسبقا، فكيف سيعودون إليه بالقول أن الذئب قد أكل يوسف؟ والأهم من هذا كله هو: لم تركوا يوسف عند متاعهم؟ ولم لم يتركوا عنده من يحميه منهم من الذئب مادام أن خطر الذئب كان متوقعا؟ ألم يحذرهم الأب نفسه من هذا الخطر قبل الانطلاق في رحلتهم القصيرة؟

رأينا: نحن نظن أن الأبناء قد تنصلوا من المسؤولية بكل ذكاء، ولكن كيف ذلك؟

جواب: عندما تركوا يوسف عند متاعهم. ولكن كيف ذلك؟

جواب: نحن نرى أن الإجابة تكمن في مفردة واحدة وهي "يَبْكُونَ" عندما جاءوا أباهم عشاء:

- ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ١٦﴾ [يوسف: 16]

قد يظن البعض على الفور بأن البكاء هو نزول الدمع من العيون، فيتصور أن الأبناء قد جاءوا تفيض أعينهم من الدمع حزنا:

- ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨٣﴾ [المائدة: 83]
- ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ٩٢﴾ [التوبة: 92]

السؤال القوي: هل جاء الأولاد أباهم عشاء وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا؟

جواب: كلا، لأنه لو حصل ذلك فعلا لجاء النص على نحو:

وَجَاؤُواْ أَبَاهُمْ عِشَاء تفيض أعينهم من الدمع حزنا

السؤال: القوي: ما معنى يبكون إذا؟ كيف جاء الأولاد أباهم عشاء يَبْكُونَ؟ وما الفرق بين من يبكي ومن تفيض أعينهم من الدمع حزنا؟

جواب: ألا ترى عزيزي القارئ أن الوقت كان عشاء، فهل كان الدمع الذي يفيض من العين سيرى في وقت العشاء؟

رأينا: كلا وألف كلا، ذلك (برأينا) أبعد ما يكون عن الحقيقة، فالأولاد لم يذرفوا دمعة واحدة على أخيهم، وجل ما فعلوا أنهم قد جاءوا أباهم يَبْكُونَ؟ فكيف تم ذلك إذن؟

رأينا: نحن نظن أن البكاء هو ارتفاع الصوت بالعويل عند النائبة (ولا زال إخواننا السوريون يستخدمون لفظة العياط: أي المناداة برفع الصوت)، ولكن لماذا كان صوت الإخوة مرتفعا؟

جواب مفترى: لقد جاء الإخوة يرفعون أصواتهم ربما لإيصال الرسالة إلى أبيهم بأنهم لا ذنب لهم في خسارة يوسف. وأنهم غير مسئولون عن ذلك إطلاقا؟ وأنهم لم يقصروا في الحفاظ على يوسف؟ وأنهم قد اتخذوا أقصى درجات الحيطة للمحافظة على يوسف؟ وكما نقول بلهجتنا الأردنية (أخذوه بالصوت العالي)، فقد رفعوا صوتهم فوق صوت أبيهم.

فكانت نبرة صوتهم لا تخلو من القوة، ولو كانوا يشعرون بالذنب (نحن نتخيل) لما ارتفع صوتهم في حضرة والدهم المكلوم على ولده. ولما كانوا أصلا قادرين على الكلام بهذه الجرأة. لذا نحن نتخيل المشهد على النحو المفترى التالي: يعود الأولاد إلى أبيهم، ليخبروه نبأ أن الذئب قد أكل يوسف، فتكون أصواتهم مرتفعة (لا تخلو من نبرة التنصل من المسؤولية)، ويكأن لسان حالهم يقول لوالدهم لا تلقي باللائمة علينا، ولكن هناك

من هو فعلا مسئول عن ضياع يوسف وهو ليس بالتأكيد نحن إخوته، لأننا ما قصرنا بواجب الحفاظ على أخينا الذي قطعنا لك العهد عليه عندما وافقت أن ترسله معنا.

السؤال القوي جدا: من المسئول إذا (حسب رأي الإخوة بالطبع)؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: إنه يوسف نفسه. نعم نحن نفتري القول أن الأولاد يريدون أن يوصلوا الرسالة لوالدهم بأن يوسف هو من يجب أن يتحمل مسؤولية ضياعه وليس نحن.

السؤال: وكيف ذلك؟

جواب: لأن الإخوة قد تركوه عند متاعهم:

- ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧﴾ [يوسف: 17]

وما علاقة ذلك بتحمل يوسف نفسه مسؤولية ضياعه وليس إخوته؟

جواب مفترى لا تصدقوه: نحن نعلم أنه في مثل هذه الحالات التي يخرج بها الناس لأن يرتعوا ويلعبوا لا شك يضعون متاعهم في مكان يظنون أنه آمنا لا يمكن أن يتهدده الخطر، أليس كذلك؟ كما أن المكان الخاص باللعب والرتع يكون (نحن نفترض) مألوفا لكثير من الناس، لذا يصعب أن يتهدده خطر كقدوم الذئاب إليه مثلا، إن صح زعمنا هذا، فإن الرسالة التي ربما يريد الأولاد أن يوصلوها إلى أبيهم من قولهم وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا هي (في ظننا) أننا فعلا قد تركنا يوسف في المكان الأكثر أمنا الذي يستحيل أن تقربه الذئاب أو أن يتهدده الخطر، لذا فنحن قد حافظنا على يوسف، ولم ننكث العهد الذي قطعناه معك في المحافظة عليه من الذئب، ولكن الذي حصل (حسب منطقهم) هو أن الذئب لم يأت إلى يوسف في ذلك المكان ولكن يوسف هو من ذهب إلى الذئب برجليه، فكيف ذلك؟

نحن بحاجة من القارئ الكريم أن يتصور المشهد بناء على التساؤل التالي: أين أكل الذئب يوسف؟ هل يمكن أن يأكل الذئب إنسانا في مكان يرتع فيه الناس ويلعبون؟ وهل الذئب (وجميع الحيوانات المفترسة بلغتنا الدارجة) معتادة أن تقترب في رابعة النهار من المكان الذي يتواجد فيه الناس؟ من يدري!!!

رأينا: نحن نشكك بتلك الاحتمالية، لذا نحن بحاجة أن نتخيل فنبحث عن المكان الذي كان يمكن لذئب أن يأكل فيه إنسانا. فأين هو ذلك المكان؟

رأينا: نحن نظن أن الرسالة التي كان الأولاد ينقلونها للوالد من خلال قولهم (وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا) هي أننا قد تركنا يوسف في مكان يستحيل أن يقترب منه الذئب، ولكن الذي حصل أن يوسف قد ترك ذلك المكان بنفسه، وهرب منه، وأن الذئب قد أكله في مكان غير المكان الذي تركناه فيه.

السؤال: لماذا هرب يوسف إذن؟ لماذا ترك المكان؟

جواب مفترى وخطير جدا جدا: إنها السرقة

وكيف ذلك؟

جواب: نحن نتخيل أن الأبناء سيقولون لوالدهم بأننا قد تركنا يوسف عند متاعنا لأننا كنا نعتقد أن يوسف هو الشخص الأكثر حفظا للأمانة، فنحن قد وثقنا به، فتركناه (تكريما له) عند متاعنا ليحافظ لنا عليه، ونحن نظن (كما يقول المنطق البسيط) أن هذا المكان هو الأكثر أمنا من الخطر. ولكننا نأسف أن نخبرك أن يوسف (هذا الصبي الذي تحبه أكثر منا) قد خان تلك الأمانة لأنه قد سرق شيئا من ذلك المتاع وهرب به، وما أن هرب من المكان الذي تركناه فيه بسبب فعلته تلك حتى كان الذئب له بالمرصاد، فأكله. لذا لا تحملنا (يا أبت) مسؤولية فقدان يوسف بعد أن حافظنا عليه، ولكن يجب أن تحمّل يوسف نفسه مسؤولية أنه خان الأمانة بالسرقة كما يجب أن تلومه لأنه هو من ترك إخوته عن رغبة منه وطمعا بشيء سرقه من متاعنا.

السؤال: وأين الدليل على هذه الخربطات التي لا تقنع أحدا؟ وأين الدليل (على الأقل) على أن الإخوة يتهمون أخاهم يوسف بالسرقة؟ هل جننت – يا رجل؟ سيصيح كثير من القراء مشكورين.

جواب: نحن نجد الإجابة على ذلك في السياق القرآني التالي:

- ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧﴾ [يوسف: 77]

تساؤلات حول هذه الآية الكريمة:

⇐ من هو الأخ الآخر الذي يتهمونه بالسرقة؟
⇐ أليس ذلك يوسف نفسه؟
⇐ فما الشيء الذي سرقه يوسف (حسب دعوى إخوته)؟
⇐ ومتى حصل ذلك؟
⇐ ولم اتهم الإخوة أخاهم بالسرقة؟
⇐ ولم لم ينفي يوسف عن نفسه تهمة السرقة؟
⇐ لم اكتفى بالقول بأنهم هم أكثر شرا منه؟
⇐ وهل في يوسف فعلا شر حتى يقرّ بأن الشر في إخوته أكثر من الشر عنده؟
⇐ الخ.

هذا ما سنحاول النبش فيه في المرة القادمة بحول من الله وتوفيق منه، فالله أسأله وحده أن يؤتيني رحمة من عنده وأن يعلمني من لدنه علما لا ينبغي لأحد غيري إنه هو السميع المجيب، وأعوذ به سبحانه أن أفتري عليه الكذب أو أن أقول عليه ما ليس لي بحق، إنه نعم المولى ونعم المجيب.

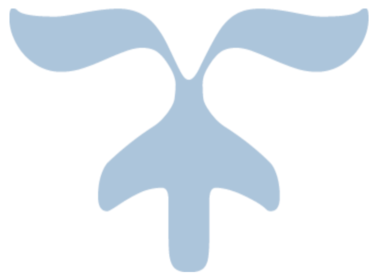
وللحديث بقية.

المدّكرون: رشيد سليم الجراح & علي محمود سالم الشرمان
بقلم: د. رشيد الجراح
26 كانون ثاني 2013



الجزء الرابع

وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ



الجزء الرابع: وَيُعَلِّمُكَ من تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ، وَلِنُعَلِّمَه مِنْ تَأْوِيلِ الأُحَادِيثِ، وَعَلَّمْتَنِي من تَأْوِيلِ الأَحَادِيث

خلصنا في الجزء السابق من هذا الكتاب إلى القول بأن الصلاح تحقق لأبناء يعقوب بعد أن تخلصوا من أخيهم يوسف، وكان ذلك بعد أن خلا لهم وجه أبيهم.

- ﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ٩﴾ [يوسف: 9]

فما عاد الأب يميز بين الأبناء. فظننا أن المشكلة كانت تكمن في وجود يوسف (وليس في وجود أخيه الآخر)، وذلك لأنه بمجرد أن غاب يوسف عن الساحة لم يعد الأبناء يعتدون على الأخ الشقيق ليوسف الذي كانوا يظنون في بداية الأمر أن أباهم يحبه كحب يوسف. فظننا أن ظنهم ذاك كان سابقا لحادثة الرؤيا، ولكن ما أن حصلت الرؤيا حتى أصبح واضحا للجميع أن حب يعقوب منحصر في يوسف. وخلصنا إلى افتراء القول بأن حب يعقوب لم يكن لشخص يوسف وإنما لمكانته التي اجتباه لها ربه في أن يكون هو وارث بيت النبوة لتمام النعمة على آل يعقوب بعد أن كان الله قد أتمها على أبويه إسحق وإبراهيم من قبل:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦﴾ [يوسف: 6]

كما افترينا القول بأن الأولاد قد استطاعوا بكل ذكاء أن يتنصلوا من المسؤولية التي ألقاها أبوهم عليهم في المحافظة على يوسف عندما يأخذوه معهم للرتع وللعب. فهم قد كادوا ليوسف (وسنرى لاحقا بحول الله كيف أن الكيد يكون محكم التخطيط والتنفيذ عندما نتعرض للمفردة لاحقا عند الحديث عن كيد النسوة ليوسف، فالله أسأل أن يهدينا إلى نوره الذي أبى إلا أن يتمّه ولو كره الكافرون). فحاولنا تسويق زعمنا المفترى بأن يوسف (من وجه نظر الأخوة) هو من يجب أن يتحمل مسؤولية فقدانه وليس إخوته لأنهم قد تركوه عند متاعهم:

- ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧﴾ [يوسف: 17]

فزعمنا أن في قولهم هذا (وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا) سببا كافيا في أن لا يلق الأب باللائمة على أبناءه لضياع يوسف، وبررنا زعمنا ذاك بالظن المفترى من عند أنفسنا بأن المتاع غالبا ما يترك في المكان الأكثر أمنا، فمن غير المنطقي أن يترك من خرج في نزهة متاعه في مكان غير آمن، وغالبا ما يتم اختيار المكان الذي يكون تواجد الناس فيه شبه دائم، فلا يكون عرضة للخطر مثل خطر الحيوان المفترس (كالذئب مثلا)، فلا أظن أن

الإخوة قد تركوا متاعهم في مكان كان يمكن للذئب أن يقترب منه، لذا فإن الرسالة التي نظن أننا نفهمها من كلام الأبناء إلى أبيهم في قولهم (وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا) هي أن يوسف نفسه هو من يجب أن يتحمل المسؤولية وذلك لأن الذئب يستحيل أن يكون قد أكله في المكان الذي تركناه فيه، ولو أن يوسف مكث في المكان نفسه الذي تركناه فيه حيث يوجد متاعنا لما استطاع الذئب أن يقترب منه، لذا لابد أن يوسف هو من ترك المكان الذي يتواجد فيه المتاع وذهب إلى الذئب برجليه. وربما لهذا السبب لا نجد أن الأب يعقوب قد عاد للحديث مع أبناءه عن تلك الحادثة بعد ذلك قط.

كما زعمنا أن السبب في ذلك يعود إلى ظنهم بأن يوسف هو من تركهم وهرب طمعا في شيء كان قد سرقه من متاعهم:

- ﴿۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧﴾ [يوسف: 77]

كما افترينا القول أن في ما نفذه الأبناء هي الخطة نفسها التي رسمها لهم الأب دون دراية منهم، فهم كانوا ينفذون مخطط والدهم عن غير دراية منهم (باستثناء ربما واحد منهم فقط وهو الذي أشار عليهم بأن يلقوه في غيابت الجب ليلتقطه بعض السيارة)، لظننا أن هذا الابن هو فقط من فهم رسالة والده. وبكأن لسان حاله يقول لهم مادمتم أنكم لا محالة تريدون التخلص من يوسف بواحدة من اثنين وهما إما القتل أو الطرح أرضا، فالحل هو أن نلقي بيوسف في غيابت الجب حتى تأتي السيارة، فتأخذه من هناك إلى غير رجعة، فنكون بذلك قد تخلصنا منه (أي طرحناه أرضا)، ثم نعود إلى أبينا فنخبره بأن الذئب قد أكله.

وحاولنا التبرير لذلك بالقول بأن يعقوب كان على علم بكيد الإخوة بأخيهم، فهم لا محالة قاتلوه إن بقي بين ظهرانيهم، لذا كان لابد من العمل على إنقاذ يوسف من بين أيديهم. فما كان منه إلا أن رسم لهم خطة طرحه أرضا، فنبههم إلى خطر أن يأكله الذئب، فكان في ذلك رسالة ضمنية من الأب إلى الأبناء بالقول بأنهم يستطيعون أن يطرحوا يوسف أرضا ويتهموا الذئب بأكله زورا وبهتانا. فرسم لهم خطة الذئب دون دراية منهم. فما كان منهم إلا أن يأتوه بدم كذب ليبرروا فعلتهم تلك، فما أن رأى يعقوب ذلك الدم حتى علم أنه دم كذب وأن يوسف لم يقتل وإنما طرح أرضا. فعلم أن الآبناء قد نفذوا مؤامرة في أخيهم، فآثر الصبر على ذلك:

- ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨﴾ [يوسف: 18]

وقد كان يعقوب – في ظننا- على يقين بأن يوسف لا محالة تاركه، ولابد أن يخرج من هذه الديار. فآثر أن لا يدعو ربه أن يعيده له، واستعان بربه على هذا الفراق الذي لا مفر منه (وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ).

السؤال: من أين علم يعقوب أن يوسف لابد أن يرحل عن هذه الديار؟

جواب: من الرؤيا. نحن نظن أنه لو قرأنا الرؤيا كما قرأها يعقوب لربما ما ترددنا في الخروج بالاستنباط بأن يوسف لا محالة تارك ابيه هذا. ولكن أين ذلك؟

افتراء من عند أنفسنا: ليذهب إلى أبيه الآخر

سؤال: ما الذي تقول يا رجل؟ إتق الله وهل ليوسف أب آخر حتى يذهب عنده؟

جواب: نعم، كان ليوسف أب آخر سيحط الترحال بيوسف في بيته.

جواب: وأين الدليل على هذا الافتراء المفضوح غير المسبوق؟

جواب: نحن نقرأ ذلك من مفردتي " وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ " كما وردتا في صريح لفظ رؤيا يوسف:

- ﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ٤﴾ [يوسف: 4]

سؤال: وكيف يكون ذلك؟

جواب: لقد تعرضنا في مقالة سابقة لنا (تحت عنوان لماذا قدّم نبي الله لوط بناته بدلاً من ضيوفه؟) لهذه الجزئية، ولكن لمّا أصبح الحديث هنا خاصا بقصة يوسف على وجه التحديد فلا بد من التعريج عليها مرة أخرى للهدف المنشود في هذا الجزء الجديد.

أما بعد،

نحن نرى أن الضرورة استدعت هناك أن نثير التساؤل التالي حول قصة يوسف: أين أم يوسف؟

وقد جلب هذا التساؤل في ثناياها حينئذ تساؤلات كثيرة نذكر منها:

⇐ لم لا يذكر القرآن شيئاً عنها؟
⇐ أليست الأم هي من ينفطر فؤادها على فراق ولدها؟ هل نسينا أم موسى يوم فارقها طفلها بوحي من الله؟ ألم تكن لتبدي به من شدة لهفتها على ابنها لولا أن الله قد ربط على قلبها؟
⇐ لم حزن يعقوب على يوسف أكثر من حزن أمه عليه؟
⇐ إذا كان يعقوب قد ابيضّت عيناه على فراق ولده من الحزن، فماذا حصل ببصر أم يوسف؟ هل لا زالت تبصر بمن حولها؟
⇐ لم تحدث يوسفُ عن والده حتى في غيابه؟ فهو على الأقل قد بعث بقميصه إلى أبيه، ألم يكن يملك (وهو الآن رب مصر وسيدها) أن يرسل إلى أمه (ولو) بهدية بسيطة يعبر لها فيها عن حبه واشتياقه لها؟ هل كان ينتظر عيد الأم ليفعل ذلك؟ من يدري!!!

⇐ لم لا نجد خطاباً ليوسف يتحدث فيه عن أمه؟

⇐ الخ.

رأينا الذي افتريناه سابقا: نحن نفتري القول بأن والدة يوسف لم تكن موجودة إطلاقا في خضم الأحداث كلها، فلقد توفاها الله (نحن نفتري القول) من ذي قبل.

الفكر السابق:

لقد درج الفكر السابق على الزج بأم يوسف في القصة بين الفينة والأخرى متى ظنوا أن الحاجة تستدعي ذلك دون دليل من كتاب الله نفسه، فكانت حاجة المفسرين (أهل الدراية من أصحاب الفضيلة والإمامة والآيات) لوجود أم يوسف واضحة في موطنين فقط هما:

1. لإسقاط الرؤيا التي راءها يوسف على أرض الواقع (وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ)

2. لفهم كيفية رفع يوسف لأبويه على العرش (وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ)

فظن علماؤنا الأجلاء أن أم يوسف قد تواجدت لهذين الغرضين في القصة، ولم تتعامل تفسيراتهم مع المرأة في أي موطن آخر من القصة (ومن يجد في تفسيرات أهل الدراية شيئا عن المرأة في غير هذين الموطنين فليسعفنا به وله من الله الأجر إن شاء ومنا الشكر والثناء)، فلا نجد ردة فعل لها على فراق ولدها، ولا على لقياه في أرض مصر، ولا حتى في شكوى بث وحزن يعقوب. فالرجل لم يشتكي حتى لأم يوسف بثه وحزنه، ولجأ إلى الله في ذلك (قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللّهِ). والأهم من ذلك كله أن المرأة لم تشكو بثها وحزنها لله على فراق ولدها كما فعل زوجها المكلوم على فراق ولده!

السؤال: فهل يعقل هذا يا أهل الدراية والرواية من أصحاب الفضيلة والإمامة والآيات؟!

النظرة الجديدة المفتراة من عند أنفسنا

رأينا: نحن نظن بأنه لا علاقة لأم يوسف على الإطلاق بهذين الموقفين، فلا هي المشار إليها في الرؤيا التي راءها يوسف ولا هي من رُفِعتْ على العرش في أرض مصر. ولكن كيف ذلك؟

افتراء من عند أنفسنا: غالباً ما فهم العامة (بسبب تفاسير معظم أهل الدراية كما نقلها لهم أصحاب الرواية) أن قصة الشمس والقمر اللذين جاء ذكرهما في قصة يوسف ربما تشير أن المقصود في الخطاب عن (الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ) هما أم يوسف وأبيه، أليس كذلك؟ ولكننا نحب أن نثير تساؤلاً بسيطاً جداً، وليعذرنا السادة القراء على بساطة (وربما سخافة) سؤالنا الذي هو: أيهما الأب وأيهما الأم؟ هل الأم هي الشمس أم القمر؟ وهل الأب هو الشمس أم القمر؟ فأيهما أيهما؟

نحن نرجو سادتنا العلماء الذين استنبطوا أنّ الشمس والقمر هما أم يوسف وأبوه (أو العكس) أن يسعفونا بالتعرف على الأم والأب بشيء من التفصيل.

أما نحن، فإننا نعتقد جازمين أن الشمس والقمر لم يكونا أم يوسف وأبوه، ولكن من هم إذاً؟

لا شك أن الشمس والقمر سيكونون تابعين، والمتبوع هو يوسف، ليسبحوا (نحن نظن) في فلكه:

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ ٣٣﴾ [الأنبياء: 33]

كما كان إخوته تابعين له، لأنهم جميعا خروا له سجدا، واعترفوا له بفضلهم عليه:

- ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ٩١﴾ [يوسف: 91]

السؤال: كيف حصل كل هذا؟ ومن هم الذين خروا سجدا ليوسف إذن؟

جواب مفترى: نحن نخالف سادتنا العلماء الأجلاء الرأي لأنه لو كان المقصود بالشمس والقمر أم يوسف وأبيه لربما جاء اللفظ – في رأينا- على نحو "ورفع **والديه** على العرش"، ولكن لما جاء اللفظ على أن من رفعهم يوسف على العرش هم أبويه وليس والديه، استدعت الدقة منا أن نبحث عن الفرق بين مفردتي أبويه ووالديه في النص القرآني.

الفرق بين أَبَوَيۡهِ و وَٰلِدَيۡهِ في النص القرآني

رأينا: نحن نفتري الظن بأن كثيرا من أهل العلم لم يميّزوا بالدقة المنشودة بين مفردتين متقاربتين استخدمتا في النص القرآني وهما: **والديه وأبويه**، فيوسف قد رفع أبويه ولم يرفع والديه على العرش، دقق – عزيزي القارئ- في النص جيداً:

- ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ١٠٠﴾ [يوسف: 100]

فما الفرق؟

بداية لا شك عندنا أن يوسف قد رفع على العرش شخصين بدليل أن مفردة **أَبَوَيۡهِ** تدل على المثنى، أليس كذلك؟ ولكن السؤال المطروح هنا هو: من كانا هذان الشخصان؟ هل فعلاً كانا أم يوسف وأبوه (كما ظن أهل الدراية من قبلنا)؟ أم كانا شخصين آخرين (كما نظن نحن)؟

رأينا المفترى: إننا نرى أنه بالإضافة إلى أن معنى مفردة "**أَبَوَيْهِ**" في النص القرآني يمكن أن يكون الأب (مذكر) والأم (مؤنث) كما ظن من سبقنا، يمكن كذلك أن تحمل المعنى بأن يكون الأبوان الاثنان مذكر (أي أب و أب) وليس فقط مذكر مع مؤنث (أب و أم)، ولكن لماذا؟

رأينا: نحن نظن أنه لو جاء النص القرآني على نحو أن يوسف قد رفع والديه على العرش، لربما سلّمنا بصحة ما قاله مشايخنا وذلك لأن مفردة "والديه" – كما سنبين بعد قليل- لا تحمل في النص القرآني إلا على معنى الأب والأم معاً، ولكن لما كان يوسف قد رفع أبويه (وليس والديه) على العرش، ربما تبقى لنا ما يمكن أن ندلوا بدلونا فيه.

الدليل

عند دراستنا للسياقات القرآنية الكثيرة التالية وجدنا أن الحديث عن الأب والأم معاً يرد في النص القرآني بصيغة "الوالدين":

- ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [البقرة: 83]
- ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾﴾ [البقرة: 180]
- ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾ [البقرة: 215]
- ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾﴾ [النساء: 7]
- ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ۚ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾﴾ [النساء: 33]
- ﴿۞ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء: 36]
- ﴿۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ۚ وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ [النساء: 135]

- ﴿۞ قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ١٥١﴾ [الأنعام: 151]
- ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ٤١﴾ [إبراهيم: 41]
- ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ٢٣﴾ [الإسراء: 23]
- ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩﴾ [النمل: 19]
- ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارَۢا ٢٨﴾ [نوح: 28]

لذا، فإننا نرى أن الخلط جاء واضحاً عند كثير من أهل العلم بين مفردة أبويه عند الحديث عن يوسف:

- ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ٩٩﴾ [يوسف: 99]
- ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ١٠٠﴾ [يوسف: 100]

مع مفردة أخرى في النص القرآني تتحدث بصريح اللفظ عن الأم والأب معاً، وهي مفردة **والديه**، فها هو يحيى يتحدث عن والديه:

- ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ١٣ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ١٤﴾ [مريم: 12-14]

وكذلك جاءت الوصيّة من الله للإنسان خيراً بوالديه:

- ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٨﴾ [العنكبوت: 8]

ونهى الله الإنسان عن الإساءة إلى والديه:

- ﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٧﴾ [الأحقاف: 17]

وغالباً ما جاء الحديث عن الأم مفصلاً عند الحديث عن الوالدين:

- ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ١٤﴾ [لقمان: 14]
- ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهٗاۖ وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٥﴾ [الأحقاف: 15]

فالأم هي والدة:

- ﴿۞وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ لَا تُكَلَّفُ نَفۡسٌ إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوۡلُودٞ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ وَعَلَى ٱلۡوَارِثِ مِثۡلُ ذَٰلِكَۗ فَإِنۡ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٖ مِّنۡهُمَا وَتَشَاوُرٖ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَاۗ وَإِنۡ أَرَدتُّمۡ أَن تَسۡتَرۡضِعُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا سَلَّمۡتُم مَّآ ءَاتَيۡتُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٢٣٣﴾ [البقرة: 233]

لذا جاء حديث عيسى بن مريم عن والدته:

- ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗاۖ وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ١١٠﴾ [المائدة: 110]
- ﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ٣٢﴾ [مريم: 32]

والأب هو كذلك والد:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ٣٣﴾ [لقمان: 33]
- ﴿وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ٣﴾ [البلد: 3]

نتيجة مفتراة: عندما تحدث يوسف عن من رفعهم على العرش، جاء حديثه عن أَبَوَيْهِ وليس عن وَالِدَيْهِ، أليس كذلك؟ لذا يصبح الظن عندنا أميل إلى الاعتقاد بأن يوسف قد رفع على العرش رجلين.

السؤال القوي: إذا كان الأب والأم معاً هما في النص القرآني والدان، فأين الدليل على أن الأبوين يمكن أن يكونا شخصين من نفس الجنس (أب و أب)؟"

الجواب: لو استعرضنا ما قاله يعقوب نفسه لابنه يوسف يوم أنْ قص عليه الرؤيا، لربما وجدنا ما يثير الانتباه:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦﴾ [يوسف: 6]

فيعقوب إذاً يتحدث مع يوسف عن إبراهيم وإسحق على أنهما أبويه (وليس والديه)، أليس كذلك؟

النتيجة: الأبوان يمكن أن يكونا رجلين وليس فقط رجل وامرأة

نحن لا نستثني أن يكون الأبوين رجل وامرأة ولكن هذا لا يمنع أن يكونا رجلين كما في حالة يوسف:

- كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ

السؤال: من هم أبواه اللذان رفعهما على العرش؟

السؤال القوي: هل تعتقد - عزيزي القارئ- أن يعقوب الذي استخدم مفردة الأبوين في النص القرآني نفسه لتدل على رجلين هما (إبراهيم وإسحق) يمكن أن يظن أن الشمس والقمر هما أم يوسف وأبوه؟

أما أنا، فلا أدري!!!

السؤال القوي جدا جدا: إن صح ما قلت بأن الأبوان هما رجل ورجل (وليس بالضرورة أن يكونا رجل وامرأة) فالسؤال الذي لا مفر منه هو: من هم الأبوان اللذان رفعهما يوسف على العرش؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: لا شك عندنا أن أحداهما كان يعقوب، أما الآخر فيمكن استنباطه من الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يوسف: 21]

نعم، ذلك هو أب يوسف الآخر الذي رفعه على العرش مع أبيه يعقوب. فلقد كان ليوسف أبوان: أب بالولادة وهو يعقوب، وأب بالتبني وهو الذي اتخذه ولدا بعد أن اشتراه من الذين أحضروه من بلاده البعيدة.

تصور جديد: لقد كان ليوسف أبوان يسكن كل منهما بلاد تبعد عن الأخرى، فكان أحدهما يسكن في الشرق بعيدا عن أرض مصر وهو يعقوب (حيث تطلع الشمس) وكان الآخر يسكن قريبا من مصر حيث تغرب (فيظهر القمر). فكان يعقوب هو الشمس بينما كان هذا الأب الآخر ليوسف هو القمر الذي راءهما يوسف في رؤياه التي قصّها على أبيه يعقوب.

لقد كان ليوسف في بلاد الشمس (الشرق) - موطنه الأصلي أب (وهو يعقوب)، وكان له في بلاد القمر (إلى الغرب)– أرض مصر- أب آخر (وهو الذي اتخذه ولدا). فالمسافة بين أبيه في موطنه الأصلي (يعقوب) وأبيه في أرض مصر تمثلها المسافة بين الشمس والقمر في كبد السماء، فما أن تغيب الشمس حتى يظهر القمر.

تبعات هذا الظن المفترى من عند أنفسنا:

أولا، نحن نظن أن يعقوب النبي قد فهم الرسالة، فعلم أن الله مبدل يوسف والده يعقوب (في بلاد الشرق) بوالد آخر له في بلاد الغرب، أي إلى الغرب من موطنه. فكان في هذا – نحن نزعم القول- عقابا ليعقوب نفسه جزاء بما قدمت يداه. ولكن كيف ذلك؟

رأينا: عندما اختص يعقوب النبي أحد أبناءه بمعاملة تميّزه عن بقية إخوته حتى أصبح سلوك يعقوب ذاك واضحاً للقاصي والداني، ولم يعد إخفاءه ممكناً (إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)، فهو نفسه لم ينكر ذلك، كان ذلك سبباً في أن يكيدوا أخوة يوسف لأخيهم، لذا جاء العقاب – في نظرنا- ليعقوب النبي من نفس الفعل، لقد اشتغل قلب يعقوب بيوسف أكثر مما يجب على حساب إخوته، لذا نرى أن الله قد شطر حب الأب في قلب يوسف بين أبوين اثنين، وفي هذا – نحن نفتري القول- حكمة عظيمة لكل أب، فلا يعطي حبه لأحد من أبناءه على حساب الآخرين لأن ذاك الابن ربما يجد في قلبه متسعاً من المكان لأكثر من أب. ففي حين أن لهفة يعقوب على يوسف قد بدت على محيّاه، فضعف جسمه وابيضت عيناه من الحزن فأصبح كظيما، لا نجد مثل ذلك عند يوسف بنفس الدرجة والمقدار. وربما يدلنا على مثل هذا الظن ما فعله يوسف تجاه والده، فبالرغم أن يوسف هو الولد وأن يعقوب هو الوالد إلا أن الوالد هو من جاء يسعى من الأرض البعيدة ليلتقي بالولد. لقد كنا نتصور أن من آداب حقوق الآباء على الأبناء (كما صدعت رؤوسنا بها من فوق منابر أهل الدراية) هي أن يسعى الولد إلى الوالد، فلم - يا ترى- سعى يعقوب الوالد إلى يوسف الولد؟ ألم يكن من الواجب أن يحدث العكس. ثم لو دققنا في المشهد كما يجب لوجدنا أن يوسف لم يكلّف نفسه عناء الخروج على والده، فانتظر في الداخل حتى دخلوا عليه جميعا:

- ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يوسف: 99]

ألم يكن حريّ بالابن (نحن نتساءل فقط) أن يخرج لملاقاة والده بدل أن ينتظر في مكانه حتى يدخل عليه والده؟

السؤال الموجه إلى يعقوب نفسه هو: هل بادلك يوسف الحب بحب مثله؟

أما أنا فلا أظن ذلك.

نتيجة: لقد علم يعقوب من الرؤيا نفسها أنه سيكون ليوسف أب غيره، وأن يوسف لا محالة تاركا يعقوب للذهاب إليه.

السؤال: من هو ذلك الرجل؟ أو من هو أب يوسف الآخر الذي ذهب يوسف إليه؟

جواب: إنه الرجل الذي تبناه في منفاه؟

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يوسف: 21]

رأينا: لما دخل أبوه (الشمس) يعقوب أرض مصر لم ينسى يوسف أباه الذي أشراه في أرض مصر فأحسن إليه واتخذه ولدا، فما كان من يوسف إلا أن يرفع كلاهما (أي أبويه) على العرش، ولكن يوسف توجه بالخطاب إلى أبيه يعقوب الذي يعلم خبر الرؤيا من قبل بالقول:

- ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [يوسف: 100]

السؤال القوي: لماذا توجه يوسف بالخطاب هنا إلى يعقوب على وجه التحديد ليبين له كيف تحقق خبر الرؤيا؟

رأينا: لأن أب يوسف الآخر كان يعلم ذلك وهو ليس بحاجة أن يريه يوسف ذلك.

السؤال: ومن أين علم هذا الأب خبر تلك الرؤيا؟

جواب: إن هذا التساؤل يعيدنا على الفور لطرح التساؤل القوي جدا الذي سبق وطرحناه وهو: لماذا كان لابد من أن يبتعد يوسف عن يعقوب إلى أرض بعيده كأرض مصر مثلا؟

جواب: بالإضافة إلى تحقق للعدل الإلهي وتصحيح الخطأ الذي ارتكبه يعقوب بحق أولاده كما ذكرنا سابقا، نحن نظن أن في إبعاد يوسف عن يعقوب تحققت على الأقل فائدتان وهما:

1. تصحيح لفكر يعقوب الخاطئ بخصوص ما فعله جده إبراهيم.
2. ليتعلم يوسف علما لم يكن يتوافر عند أبيه يعقوب

ولكن كيف ذلك؟

أولا، رحيل يوسف فيه تصحيح لفكر يعقوب الخاطئ

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن يعقوب كان يشك في أن ما فعله جده إبراهيم بابنه إسماعيل لم يكن عين الصواب. فلربما كان يظن يعقوب (كما نتخيله مخطئين لا شك) أنه ما كان لجده إبراهيم أن يبعد ولده إسماعيل عن ولده الآخر إسحق. فلربما رأى في ذلك فصلا غير مبرر بين الإخوة، وربما لم يدرك يعقوب في بداية الأمر الحكمة من فعل جده إبراهيم هذا، وما أدرك حكمة ما فعله جده إبراهيم بولديه إلا متأخرا. ففي حين أن إبراهيم كان قد نقل إسماعيل طواعية فأبعده بنفسه عن المكان الذي كان يتواجد فيه ولده الآخر إسحق، أُجبِر يعقوب على فعل ذلك على غير رغبة منه.

فلقد ظننا في مقالة سابقة لنا أن واحدة من الأسباب التي دفعت بإبراهيم إلى فعل ذلك هو حتى لا تتكرر قصة ابني آدم مرة أخرى، فلا يتقاتل الإخوة فيما بينهم على ميراث النبوة، فيكون لأحدهما ولا يكون للآخر. ولمّا كان الله هو من آتى إبراهيم رشده (وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ)، ولمّا كان الله هو من آتى إبراهيم حجته على قومه من قبل (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ)، فهم إبراهيم (نحن نفتري القول) أن في بقاء الإخوة في نفس المكان معا مهلكة لأحدهما دون الآخر، وربما تكون الغلبة للقاتل على المقتول كما حصل في حالة ابني آدم. فاختار إبراهيم طواعية أن يفصل بينهما، ففي حين أبقى إسحق وأمه في بيت المقدس، اختار لإسماعيل وأمه مكانا لا يقل قدسية عن سابقة، فأسكنهما في واد غير ذي زرع عند بيت الله المحرم، ودعا اللهَ لهما ولذريتهما بإقامة الصلاة:

- ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم: 37]

فكان ميراث النبوة في كليهما مادام أن كل منهما أصبح له قومه، فكان إسحق نبيا من الصالحين في بني إسرائيل، وكان له بيته، وكان إسماعيل كذلك نبيا من الصالحين في تلك الأفئدة التي أواها ربهما إليهم، وكان له بيته، ولم تدب الخصومة بينهما. فكان جميع أبناء إبراهيم من الشاكرين. (للتفصيل انظر مقالتنا تحت عنوان لماذا قدم نبي الله لوط بناته بدلا من ضيوفه؟)

هذا نداء للآباء جميعا: لا تسكنوا الإخوة معا في نفس المكان. لا تدعو حبكم لأبناءكم يكون غشاوة على أبصاركم. افصلوا بين أبناءكم طواعية قبل أن ينفصلوا عن بعض كرها.

أما يعقوب الذي لم يدرك (نحن نهذي القول) هذه الحكمة في البداية، فقد آثر أن لا يفترق الإخوة، فاختار أن يجمعهم جميعا في بيت واحد ظانا أن باستطاعته التوفيق بينهم. وما هي إلا سنوات قليلة حتى ثبت له بالدليل أنه لا يستطيع ذلك، فنشب الخلاف بين الإخوة، وبدل أن يختار بنفسه أن يفرق بينهما كان قرار الفراق رغما عنه.

ثانيا، يوسف سيبتعد عن والده يعقوب ليطلب علما عند غيره

وهناك - في رأينا- سبب آخر كان (حسب ظننا) كافيا أن يُبعَد يوسف عن أبيه لأجله، ألا وهو طلب العلم الذي لم يكن متوافرا عند والده يعقوب، ولكن كيف ذلك؟

جواب: انظر – عزيزي القارئ- السياق القرآني التالي جيدا:

- **وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ يوسف (6)**

لنجد أن يعقوب يقول بملء فيه أن الله سيعلم يوسف من تأويل الأحاديث، أليس كذلك؟

السؤال: هل قام يعقوب بتعليم يوسف ذلك العلم (مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ)؟

والآن انظر إلى السياق القرآني التالي جيدا:

- ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١﴾ [يوسف: 101]

لتجد أن يوسف يعترف لربه بذلك الفضل في نهاية القصة. فلقد تعلم يوسف تأويل الأحاديث،أليس كذلك؟

السؤال: إذا كان يوسف قد تعلم من ربه من تأويل الأحاديث، فمن يا ترى تولى من البشر مهمة تعليم يوسف ذلك العلم؟ هل جاء العلم ليوسف مباشرة من ربه؟ هل كان يوسف هو التلميذ الذي يتلقى العلم مباشرة من ربه دون وسيط؟

رأينا المفترى: كلا، فنحن نظن أن الله قد سخّر ليوسف من البشر من يقوم بمهمة تعليمه ذلك العلم (مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ). ومادام أن والده يعقوب لم يقم بتلك المهمة بدليل أن يوسف قد ابتعد عن يعقوب طيلة سنين عمره بعد تلك الرؤيا، فمن - يا ترى- تولى من البشر تلك المهمة؟

رأينا: إنه أب يوسف الذي اشتراه من مصر فأحسن إليه.

السؤال: وأين الدليل على ذلك؟

جواب: نحن نقرأ الدليل على ذلك في الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يوسف: 21]

دقق – عزيزي القارئ -في لفظ التعليم في الآيات القرآنية الثلاث التي تتحدث عن تعليم يوسف من تأويل الأحاديث، لتجد أن اللفظ في بداية الأمر جاء بصيغة المفرد "وَيُعَلِّمُكَ" في حديث يعقوب الموجّه لولده، فنأى يعقوب بنفسه عن تلك المهمة. وجاء على صيغة المفرد "وَعَلَّمْتَنِي" عندما تحدث يوسف عن نفسه في نهاية القصة، فنسبها إلى ربه. بينما جاء على صيغة الجمع "وَلِنُعَلِّمَهُ " عندما أخبرنا الله نفسه عن ما حصل ليوسف بالفعل بعد أن اشتراه ذلك الرجل من مصر. فماذا يمكن أن نستنبط من هذا الاختلاف في اللفظ؟

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن التعليم الفعلي ليوسف مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ قد حصل في بيت هذا الرجل الذي اشتراه من مصر.

عقيدتنا: نحن نؤمن يقينا أن العلم الذي جاء ليوسف هو من عند الله، ولكننا نؤمن أيضا بأن ذلك العلم لم يأتي من الله إلى يوسف مباشرة، فلم يكن الله هو من علم يوسف بنفسه. وبكلمات أكثر دقة نقول أنه في حين أن علم يوسف كان من عند الله إلا أنه لم يكن من الله. وهذا يعني في ظننا أن الله (نحن نفتري القول) قد يسّر ليوسف من يقوم بتلك المهمة، فتولى ذلك الرجل مهمة تعليم يوسف المباشر مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ. ونحن نفتري القول أن يكون هذا هو (برأينا) السبب الذي من أجله جاء فعل تعليم يوسف من تأويل الأحاديث على صيغة الجمع (وَلِنُعَلِّمَهُۥ) في بيت هذا الرجل:

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يوسف: 21]

الدليل

ربما يود الكثيرون إثارة السؤال التالي: من هو ذلك الرجل الذي تولى مهمة تعليم يوسف مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ بتيسير إلهي؟

جواب: للإجابة على هذا التساؤل الكبير جدا، فلابد من إعادة حبك قصة يوسف مع هذا الرجل من جديد، لنطرح من خلال ذلك تساؤلات أوّلية مثل:

⇐ كيف وصل يوسف إلى هذا الرجل؟
⇐ لماذا اشترى ذاك الرجل يوسف؟
⇐ كم دفع ذلك الرجل من المال ليشترى يوسف؟
⇐ ماذا كان يفعل يوسف في بيت ذاك الرجل طوال فترة إقامته فيه؟
⇐ كم لبث يوسف في بيت ذلك الرجل؟
⇐ من كان يسكن مع يوسف في ذلك البيت؟
⇐ الخ

نظرة جديدة في أحداث قصة يوسف

أما بعد،

نحن نعلم من مجمل القصة أن إخوة يوسف قد جعلوا أخاهم في غيابت الجب بهدف أن يلتقطه بعض السيارة، فيأخذوه بعيدا عن أرضهم، ليخلو للأبناء جميعا وجه أبيهم بعد أن يكونوا قد طرحوا يوسف أرضا:

- ﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ٩ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ١٠﴾ [يوسف: 9-10]

وقد افترينا الظن سابقا بأن إخوة يوسف ما قفلوا عائدين إلى أبيهم عشاءً يبكون إلا بعد أن تأكد لهم أن يوسف قد أصبح بضاعة في أيدي السيارة:

- ﴿وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ١٩﴾ [يوسف: 19]

وهنا نتوقف لنلفت الانتباه إلى جزئية لم يغفل عنها من يقرأ القصة على عجل ألا وهي فرحة السيارة العارمة بهذا الغلام، بدليل البشرى التي زفّها لهم من وجد يوسف في غيابة الجب (قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ)، فما كان من السيارة جميعا إلا أن اتخذوا قرارهم بأن يسروه بضاعة (وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗ).

السؤال: كيف أسر السيّارة يوسف بضاعة؟

جواب: لا شك لدينا أن البضاعة في النص القرآني هي ما يستخدم في التعاملات التجارية، فيوسف قد رد لإخوته بضاعتهم في رحالهم دون علم منهم، حتى رجعوا إلى أبيهم وقد وجدوا بضاعتهم قد ردت إليهم:

- ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَـٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَـٰذِهِۦ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾﴾ [يوسف: 65]

وقد استخدم إخوة يوسف البضاعة المزجاة ليتبادلوا بها من خيرات مصر بعد سنين القحط:

- ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [يوسف: 88]

نتيجة: البضاعة هي ما يتم التبادل التجاري بواسطتها. لذا أصبح يوسف في أيدي السيارة بضاعة، ليبيعوا ويشتروا به (كما نقول بمفرداتنا العامية الدارجة).

ثانيا، نحن نفتري الظن أيضا بأن إخوة يوسف لم يأخذوا مالا من السيارة لقاء يوسف (كما جاء في تفاسير بعض أهل الدراية)، لأنهم لو أرادوا ذلك لما كانوا أصلا بحاجة أن يضعوا أخيهم في غيابة الجب، ولربما تمت المبادلة مباشرة مع السيارة دون الحاجة إلى جعل أخاهم في غيابة الجب، وذلك لأننا نحمل العقيدة أن ما قام به إخوة يوسف كان من باب الكيد. ومادام أنه كيد، فإنهم لن يتركوا دليلاً على تورطهم في القصة إن انكشف أمرهم. ولكن كيف يمكن أن ينكشف الأمر؟

رأينا: لو أن إخوة يوسف قاموا ببيع يوسف للسيارة لقاء شيء من المال لربما ما تردد السيّارة في أن يبيعوا يوسف في نفس الأرض التي وجدوه فيها، لأن بيع يوسف يصبح حينها من باب بيع الرقيق، أو لربما باعوه في بلاد قريبة، مادام أنه قد أصبح عبدا مملوكا يباع ويشترى به على الملأ. ولكن لمّا كان يوسف هو "اللقيّة"، كان لابد للسيارة من الابتعاد به عن تلك الأرض التي وجدوه فيها إلى أرض بعيده لكي يبيعوه هناك، فلا يستطيع أحد أن يدّعي ملكيته لهذا الغلام هناك. ولكن أين الدليل على ذلك؟

جواب: نحن نجد الدليل على ذلك متوافرا في مفردة " وَأَسَرُّوهُ بِضَـٰعَةً ". لذا نحن نفهم أن ما فعله السيارة هو من باب كتمان الخبر "أي السر"، وهو يقع أيضا في باب الأسر. فلقد أصبح يوسف أسيرا ولكن في الخفاء حتى لا يعلم أحد به من أهل تلك البلاد، فكانت النتيجة العمل على الذهاب به إلى أرض بعيده لكي يظهروه من جديد. فيصبح يوسف في تلك الأرض ليست أكثر من بضاعة (وَأَسَرُّوهُ بِضَـٰعَةً).

لذا، نحن نظن أن يوسف لم يظهر على الملأ من جديد إلا بعد أن ابتعد السيارة به عن الأرض التي وجدوه فيها. وهناك تم بيع يوسف من قبل السيارة ولكن بثمن بخس.

- ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ٢٠﴾ [يوسف: 20]

ثانيا، نحن نظن أن هناك دليلا آخر ربما يصدق ظننا في أن إخوة يوسف لم يبيعوا يوسف للسيارة لقاء شيء من المال، وهذا الدليل يظهر عندنا من فهمنا لمفردة وَشَرَوْهُ في هذه الآية الكريمة نفسها. ولتجلية هذا الدليل، فلابد من التعرض لمعنى هذه المفردة بمقارنتها بمفردة قريبة جدا وردت في سياقات قرآنية أخرى وهي مفردة اشْتَرَاهُ ، ولكن كيف ذلك؟

الفرق بين شرى (وَشَرَوْهُ) واشترى (اشْتَرَاهُ) في النص القرآني

افتراء من عند أنفسنا: غالبا ما خلط الناس بين مفردتي شرى واشترى اللتان تردان في النص القرآني، ونحن نظن أن الفرق بين المفردتين هو فرق جوهري يترتب عليه إعادة صياغة بعض الأفهام العامة، ففي حين أن شرى تعني – حسب ظننا- باع بالمفردات الدارجة (أي إعطاء السلعة مقابل قبض الثمن)، فإن اشترى تعني العكس تماما (أي أخذ السلعة مقابل دفع الثمن). لذا نحن نفهم أن السيارة هم من شروا يوسف بثمن بخس، أي إعطاء يوسف (السلعة) مقابل الثمن (المال)، فكان ثمنه دراهم معدودة:

- ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ٢٠﴾ [يوسف: 20]

ولكن ذلك الرجل الذي أخذ يوسف مقابل الدراهم المعدودة التي دفعها من جيبه هو من اشتراه من مصر، أي هو من دفع الثمن ليصبح يوسف ملكا له:

- ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٢١﴾ [يوسف: 21]

نتيجة: لقد حصل تبادل يوسف كبضاعة تشرى وتشترى بين السيارة من جهة ومن اشتراه من مصر من جهة أخرى. ولم يكن – في ظننا- دخل لإخوة يوسف في هذه الصفقة التجارية.

ولكن هذا الطرح (كما فهمه نحن من هذه الآيات الكريمة) تتطلب منا محاولة إزالة لبس آخر يخص ذلك الرجل الذي اشترى يوسف، لنطرح التساؤل التالي على الفور: من هو ذلك الرجل؟

رأينا: نحن نظن أن النص القرآني الذي يتحدث عن ذلك الرجل ربما يحتمل معنيين اثنين وهما:

1. أن الرجل مصري الجنسية ولكنه اشترى يوسف في مكان بعيد عن مصر (وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ)، كأن تكون أنت مصري الجنسية ولكن الصفقة التجارية تمت في غير أرض مصر، أو
2. أن ذلك الرجل ليس مصري الجنسية ولكن عملية شراء يوسف من قبل هذا الرجل تمت في أرض مصر. فأنت ربما تقول اشتريت السلعة من عمان (عاصمة الأردن)، فهذا يعني أنك لست من أهلها، ولكنك تواجدت فيها لفترة من الزمن واشتريت السلعة منها. ولا أظن أن من يسكن عمان يقول اشتريت السلعة من عمان مادام أنه ساكن فيها، لأن ذلك يصبح من باب حشو الكلام الذي لا فائدة فيه، ولكن يمكن أن تقول أنك اشتريت السلعة من عمان مادام أنك لست من أهلها.

السؤال: أي الخيارين أجدر بأن نتبناه؟ هل الرجل مصري الجنسية فاشترى يوسف من أرض غير أرض مصر؟ أم أن الرجل غير مصري الجنسية واشترى يوسف من أرض مصر؟

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن الخيار الثاني ربما أجدر بالتبني، فنحن نفتري القول (ربما مخطئين) أن ذلك الرجل لم يكن مصريا، وما كان وجوده في أرض مصر (مصادفة أو عن قصد) إلا في مكان حيث يباع الرقيق فيه، فقام بعملية شراء يوسف، ومن ثم عاد به إلى بلاده (أي أرض غير أرض مصر)

الدليل

رأينا: نحن نظن أن باستطاعتنا جلب الدليل على هذا الظن من فهمنا المفترى للآية الكريمة نفسها التي تتحدث عن شراء ذلك الرجل ليوسف:

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِى مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٢١﴾ [يوسف: 21]

السؤال: وأين ذلك؟

جواب: نحن نظن أن ذلك متوافر في عبارة "وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ"

سؤال: وكيف ذلك؟

رأينا: نحن نظن أنه ما أن تم شراء يوسف من قبل ذلك الرجل، وما أن تواجد يوسف في بيت ذلك الرجل، حتى كان ذلك تمكينا له في الأرض، أليس كذلك؟

ولكن المدقق في السياق القرآني التالي يجد أن تمكينا آخر في الأرض قد حصل ليوسف عندما استخلصه الملك لنفسه في نهاية القصة:

- ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ۝٥٤ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ۝٥٥ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٥٦﴾ [يوسف: 54-56]

النتيجة: لقد حصل التمكين ليوسف في الأرض مرتين: حصل في المرة الأولى في بيت ذلك الرجل الذي اشتراه من مصر (وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ)، كما حصل مرة أخرى في بلاط الملك (وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاء). ليكون السؤال على النحو التالي: كيف تم ذلك؟ ولماذا حصل تمكينان ليوسف في الأرض؟ ألا يكفي أن يُمكّن في تلك الأرض مرة واحدة؟

رأينا: نحن نظن أن التمكين حصل ليوسف في الأرض مرتين لأن يوسف قد سكن في المرة الأولى أرضا غير أرض مصر، وما سكن أرض مصر إلا بعد أن بلغ أشده، وما حصل التمكين ليوسف في أرض مصر إلا بعد أن انكشفت الحقيقة واستخلصه الملك لنفسه.

افتراء من عند أنفسنا: نحن نعلم من مجمل القصة أنه بالرغم من التمكين الأول ليوسف في الأرض إلا أن السجن كان مأواه فترة من الزمن، أليس كذلك؟ لذا نحن لا نتردد عن إثارة التساؤل التالي: كيف يحصل التمكين ليوسف في الأرض من الله ثم ما يلبث أن يسجن يوسف بضع سنين؟

رأينا: لقد حصل التمكين الأول ليوسف في أرض غير أرض مصر، ونحن نفتري الظن أنه لو كان يوسف في ذلك الوقت في أرض مصر لما حصل وأن سجن الرجل فيها، مادام أن الله قد مكّن له فيها.

الدليل

تحدثنا في مقالات عديدة سابقة عن معنى مفردة الأرض في النص القرآني، وزعمنا القول بأن مفردة الأرض لا تعني الكرة الأرضية كلها، وإنما أي بقعة محددة منها تسمى أرضا، فبنو إسرائيل قد سكنوا الأرض:

- ﴿وَقُلۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱسۡكُنُواْ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا ۝١٠٤﴾ [الإسراء: 104]

فلا يعني ذلك – حسب فهمنا المفترى لمنطوق الآية الكريمة- أن بني إسرائيل قد سكنوا في جميع أنحاء الكرة الأرضية وإنما في تلك الأرض التي كتب الله لهم.

كما أن يوسف قد طلب بنفسه أن يكون على خزائن الأرض:

- ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ۝٥٥﴾ [يوسف: 55]

فلا يعقل - حسب فهمنا المفترى لمنطوق الآية الكريمة- أن يكون يوسف على خزائن الأرض جميعها، وهكذا. (للتفصيل انظر مقالتنا السابقة تحت عنوان: ماذا كتب في الزبور؟)

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن بأن التمكين الأول قد حصل ليوسف في أرض تختلف عن الأرض التي حصل له فيها التمكين مرة أخرى.

السؤال: إذا كانت الأرض التي مكّن الله ليوسف فيها في المرة الثانية هي – لا شك- أرض مصر مادام أن الملك الذي استخلصه لنفسه هو ملك مصر، ومادام أن أهل يوسف جميعا قد دخلوا عليه في أرض مصر في نهاية القصة:

- ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ٩٩﴾ [يوسف: 99]

فأين – يا ترى- هي الأرض الأولى التي حصل ليوسف فيها التمكين في المرة الأولى؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: إنها أرض سيناء (بيت المقدس)

الدليل

نحن نجد الدليل الأول على هذا الكلام المفترى من عند أنفسنا في الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ١٠٠﴾ [يوسف: 100]

لنخلص إلى ملاحظة نظن أنها مهمة جدا في هذا السياق، ألا وهي أن يوسف يطلب من إخوته أن يأتوه بأهلهم جميعا الذين كانوا متواجدين في البدو، فهم قد جاءوه جميعا من البدو (وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ)، لذا أصبح لزاما – نحن نظن- أن نعيد النظر في الفكر الشعبي السائد الذي أشاع بين العامة (ربما بسبب موروثات يهود المحرّفة) بأن يعقوب كان يسكن مع أبناءه ونفر من بني إسرائيل في الأرض المقدسة، ولكنهم حسب النص القرآني – كما نفهمه- كانوا يسكنون البدو (وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ)، لنثير التساؤل التالي: هل من كان يسكن البدو كان متواجدا في الأرض المقدسة؟ من يدري!!!

كما نظن أننا نجد دليلا آخر على صحة زعمنا هذا يمكن استنباطه من النص القرآني من الحديث عن المكان الذي يتواجد به غيابة الجب (أي المكان الذي جعل إخوة يوسف أخيهم فيه)، فنحن نعتقد أن غيابة الجب ذاك كان واقعا عند تقاطع طريق التجارة، بدليل أن المكان يأتيه السيارة ليدلوا بدلوهم للتزود بالماء منه.

لذا لم يكن المكان –كما نتخيله- حاضرة المنطقة (كبيت المقدس مثلا)، وإنما يقع على طريق السيّارة (أهل التجارة بين الأمصار – حواضر البلدان حينئذ). وهذا يستدعينا أن نعيد بعض تفاصيل القصة من جديد.

الفهم البديل المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن القصة قد حصلت على النحو التالي: ما أن يجعل الإخوة أخاهم في غيابة الجب حتى تأتي السيّارة، فيرسلوا واردهم، فيدل دلوه، وتأتيه البشرى بالعثور على ذاك الغلام في غيابة الجب، وهنا يسرّوه بضاعة، فيذهبوا به بعيدا عن المنطقة حتى لا يطلب أحد ملكية الغلام، وما يظهروه إلا في أرض مصر حيث يباع الرقيق هناك. وهنا يحصل أن يكون ذلك الرجل الذي اشترى يوسف من مصر متواجدا هناك. وما أن يشتري يوسف من مصر حتى يعود به إلى أرضه التي جاء منها، يصحبه ذلك الغلام. وما أن يدخل يوسف ذلك البيت حتى يعامل معاملة كريمة بطلب من الرجل لامرأته:

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِى مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢١﴾ [يوسف: 21]

فيحصل التمكين الأول ليوسف في الأرض هناك (وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ)، وهناك يبدأ تعليم يوسف من تأويل الأحاديث على أيدي هذا الرجل الكريم الذي تكفل يوسف (وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ).

تفنيد الفكر السائد

لا شك عندنا بدايةً أن الذي اشترى يوسف من مصر لم يكن عزيز مصر (كما روّجت لذلك معظم تفاسير أهل الدراية من قبلنا)، وذلك للسبب البسيط التالي: هل يحتاج عزيز مصر أن يشتري غلاما بثمن بخس دراهم معدودة من قوم كانوا فيه من الزاهدين؟

رأينا: نحن نظن أن من هو من عِليَة القوم (كعزيز مصر مثلا) لا يذهب إلى السوق ليبحث فيه عن ما هو قليل الثمن، فلا نشك قيد أنملة أن عزيز مصر لديه من المال ما يكفي لشراء أغلى البضاعة، فلم يبحث – نحن نتساءل فقط-عن بضاعة كيوسف ليشتريه بثمن بخس دراهم معدودة؟

جواب: قد يرد البعض بالقول: ولكن يوسف كان بضاعة ثمينة بالرغم أن السيارة قد شروه (أي باعوه) بثمن بخس؟

رأينا: إذا كان الأمر كذلك (أي أن يوسف كان بضاعة ثمينة حينئذ)، فلم يشروه (أي يبيعوه) بثمن بخس؟ ولم كانوا فيه من الزاهدين؟ ألم يستبشروا به عندما أخرجوه من غيابة الجب؟

السؤال: كيف يمكن التوفيق بين حقيقة أن السيارة قد استبشروا به عندما أخرجوه من غيابة الجب ثم ما لبثوا أن اصبحوا به من الزاهدين في أرض مصر؟

رأينا: كلا، نحن نظن أن يوسف لم يصل إلى أرض مصر مع السيارة الذين وجدوه في غيابت الجب وهو في أحسن حالاته. لذا لابد أنه قد حصل ليوسف – نحن نفتري القول- ما جعل السيّارة يزهدون به ويشروه بثمن بخس دراهم معدودة ويكونوا فيه من الزاهدين بالرغم من فرحتهم العارمة به عندما أخرجوه من غيابة الجب.

السؤال: ما الذي حصل ليوسف؟

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن التعب (وربما المرض) قد أصاب من الغلام مبلغا. فالغلام مكث في غيابة الجب بعض الوقت، وما أن خرج منه حتى وجد نفسه بين أيدي السيّارة الذين عملوا بيوسف ما لا يعلمه إلا الله:

- ﴿وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ١٩﴾ [يوسف: 19]

وكانت الرحلة من المنطقة التي وُجِد بها الغلام (غيابة الجب) إلى أرض مصر رحلة طويلة وشاقة لم يستطيع الغلام أن يتحمل أعباءها الجسدية، فالغلام لا زال طري العود لم يستوي على سوقه بعد. لذا أصاب منه التعب والإعياء – نحن نتخيل- ما جعل السيّارة يزهدون فيه، ويشروه بثمن بخس دراهم معدودة.

السؤال القوي: لماذا أشترى هذا الرجل (الذي لا نعرفه) يوسف مادام أنه غلام مريض هزيل البنية والجسم بعد هذه الرحلة الشاقة كما تزعم؟ لم لم يبحث له عن غلام أكثر حيوية منه؟

رأينا: ذلك من تقدير العزيز العليم، ولكن كيف ذلك؟

نحن نظن أن ذاك دليل علم هذا الرجل (الذي لا زلنا لا نعرفه). لذا نحن نفتري القول أن الذي اشترى يوسف من مصر كان رجلا صالحا على قدر من العلم مكّنه من معرفة قدر هذا الغلام منذ أن راءه في السوق. فكان من تقدير العزيز العليم أن يتواجد يوسف في السوق في حالة بدنية كانت تصرف عنه عيون من كانوا يبحثون لهم عن عبيد يتمتعون بقوة بدنيّة، فما وقعت – في ظننا- عين أحد من المشترين على يوسف في ذلك السوق سوى هذا الرجل الذي نظن أنه صاحب العلم الذي سيتولى تعليم يوسف من تأويل الأحاديث في بيته. فكان وجود يوسف في بيت هذا الرجل –حسب منطقنا المفترى هذا- مرحلة ضرورية لكي يتم الله نعمته عليه كما أتمها على أبويه من قبل إبراهيم وإسحق. وكان ذلك – كما زعمنا في بداية هذا الجزء- سببا مهما في أن يترك يوسف أباه يعقوب الذي لم يكن يمتلك مثل هذا العلم، وليحط به المقام في بيت هذا الرجل الذي يملك علما من نوع آخر وهو تأويل الأحاديث، وهناك تعلم يوسف من تأويل الأحاديث حتى بلغ أشده واستوى:

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِى مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢١﴾ [يوسف: 21]

فمكث يوسف في بيت هذا الرجل الذي اتخذه ولدا، فكان ليوسف أب بالولادة (وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ)، وكان ليوسف أب بالتبني (أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ).

فكان هذا الرجل بمثابة من كفل يوسف تماما كما حصل لموسى من بعده في بلاط فرعون مصر يوم أن وقع حب موسى في قلب امرأة فرعون، فكفت عنه القتل واتخذته ولدا:

- ﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّى وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٩﴾ [القصص: 9]

ولو دققنا في اللفظ لوجدنا أن امرأة فرعون قد استخدمت المفردات نفسها التي استخدمها هذا الرجل الذي اشترى يوسف من مصر لتبرير تواجد يوسف في بيته (عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ):

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِى مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢١﴾ [يوسف: 21]

نتيجة: لقد وقع يوسف بين أيدي من يتخذه ولدا (هذا الرجل) كما وقع موسى في أيدي من اتخذه ولدا (امرأة فرعون). ونحن نفتري الظن بأنه كما حاولت أم موسى أن تنقذ طفلها من القتل على أيدي فرعون إن هو بقي في بيتها، حاول يعقوب أن ينقذ يوسف من القتل من بين أيدي أبناءه الذين كادوا له إن هو بقي في بيته. فوقع الغلامان (يوسف وموسى) في كلا الحالتين في أيد أمينة أحسنت إليهما.

وقد زعمنا القول في سلسلة مقالاتنا عن موسى أن موسى قد وقع في كفالة أهل بيت، وكان كافله آنذاك نبي من أنبياء الله الصالحين وهو في ظننا نبي الله ذو الكفل. انظر (قصة موسى: باب الطفولة)

السؤال القوي: من الذي كفل يوسف؟ أو من الذي اتخذ يوسف ولدا؟

هذا ما سنحاول النبش فيه في الجزء القادم بحول الله وتوفيقه.

فالله وحده أسأل أن ينفذ قوله بمشيئته وإرادته لى الإحاطة بشئ من علمه إنه هو السميع البصير، واسأله وحده أن يهدينى إلى نوره الذي أبى إلا أن يتمّه ولو كره الكافرين. والله أسأل أن يهدينا رشدنا فلا نفتري عليه الكذب ولا نقول عليه ما ليس لنا بحق، إنه هو العليم الحكيم.

وللحديث بقية

المدّكرون: رشيد سليم الجراح & علي محمود سالم الشرمان
بقلم: د. رشيد الجراح
4 تشرين ثاني 2013
د. رشيد الجراح مركز اللغات جامعة اليرموك



الجزء الخامس

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا



الجزء الخامس: وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا

خلصنا في الجزء السابق إلى الافتراءات التالية:

1. وقع يوسف في أيدي السيارة الذين أخرجوه من غيابة الجب مباشرة، فلم يتدخل إخوته في بيعه
2. أسر السيارة يوسف حتى ابتعدوا به بعيدا عن المنطقة لكي لا يدعي أحد ملكيته
3. كان السيارة مستبشرين به عندما أخرجوه من غيابة الجب
4. كان الله وحده هو من يعلم ماذا كان يعملون به خلال الرحلة

- ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةًۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ١٩﴾ [يوسف: 19]

5. أصاب يوسف التعب والإعياء من تلك الرحلة الطويلة، لذا لم يصل يوسف إلى السوق وهو في أحسن حالاته
6. وصل يوسف إلى سوق مصر فبيع هناك بثمن بخس دراهم معدودة وكان السيارة زاهدين فيه

- ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنِۭ بَخْسٖ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ٢٠﴾ [يوسف: 20]

7. لم يكن ليشتري يوسف من كان يبحث عن عبد قوي البنية ليخدمه
8. وقعت عين رجل واحد في السوق على يوسف فعرف مكانته، فاشتراه على الفور
9. عاد به ذاك الرجل إلى بيته فطلب من زوجته أن تكرم مثوى يوسف لغرضين اثنين، لينفعهم أو ليتخذوه ولدا
10. هناك فقط في بيت ذاك الرجل الصالح بدأ التعليم المباشر ليوسف من تأويل الأحاديث

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٢١﴾ [يوسف: 21]

وانتهى ذلك الجزء من الكتاب عند طرح التساؤل الكبير التالي: من هو ذلك الرجل الذي اشترى يوسف من مصر؟

رأينا: بداية، نحن نرفض جملة وتفصيلا الفكر الشعبي السائد بأن عزيز مصر هو من اشترى يوسف وذلك للسبب البسيط أن عزيز مصر لم يكن ليبحث له في سوق العبيد عن شخص ليشتريه بثمن بخس دراهم معدودة. فرجل كعزيز مصر سيشتري أفضل وأغلى بضاعة في السوق، ولن تقع عينه على من كانوا من يملكونه (السيّارة) أصلاً زاهدين فيه.

افتراء من عند أنفسنا: إن هذا الطرح يقودنا على الفور إلى النتيجة الحتمية وهي أن يوسف لم يتربى في بيت عزيز مصر، لذا فمن المستحيل أن تكون المرأة التي ربته حتى بلغ أشده هي من راودت يوسف عن نفسه، كما سوّق لمثل هذه ... من سبقنا من أهل الدراية. ولا أظن أن لذلك أصل سوى تحريفات يهود التي نُقلت إلى بطون أمهات كتب المسلمين، فاستقرت فيها دون تمحيص بعرضها على كتاب الله.

رأينا: نحن نظن أن المرأة التي ربّت يوسف في بيتها تختلف عن المرأة التي راودت يوسف عن نفسه. ففي حين أن المرأة التي ربت يوسف في بيتها هي امرأة الرجل الصالح الذي اشترى يوسف من مصر. فهو الذي طلب من المرأة أن تكرم مثوى يوسف:

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يوسف: 21]

فكان يوسف ساكنا في بيت ذلك الرجل حتى بلغ أشده، وقد آتاه الله حينئذ حكما وعلما:

- ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يوسف: 22]

وما حصلت مراودة المرأة ليوسف إلا بعد ذلك، وقد كان يوسف متواجدا في بيتها:

- ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يوسف: 23]

السؤال القوي: إذا كان يوسف متواجدا حتى الساعة في بيت ذلك الرجل الذي اشتراه من مصر، فكيف ينسب الله البيت الذي تمت فيه مراودة يوسف عن نفسه للمرأة؟ أي كيف يصور القرآن أن تلك المرأة هي صاحبة البيت الذي تمت فيه مراودة يوسف عن نفسه (وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا)؟ ألم يكن يوسف في بيت زوجها؟ فكيف أصبح البيت لها؟

ثانيا، إذا كان يوسف قد وصل إلى بيت الرجل الذي اشتراه صبيا (ربما لا يتجاوز العقد الأول من العمر)، ونشأ فيه سنين من عمره حتى بلغ أشده، فكم كان عمر المرأة التي تربى يوسف في بيتها؟ لا شك أنها كانت تكبره بكثير، أليس كذلك؟

السؤال: هل يعقل - يا سادة- أن تراود امرأة كبيرة في السن شابا يعتبر من جيل أبناءها؟ هل يمكن أن يقع في قلب امرأة بهذا العمر هوى شاب بهذا السن؟

أما أنا فلا أعتقد ذلك، إلا عند من كان جل تفكيره في ذكره، ويعتقد أن الدنيا (كما يعيشونها في بلادهم) وأن الآخرة (كما صوّرتها لنا كتاباتهم عن حور عينها) ليست أكثر من ساحة ساخنة للجنس.

ثالثا، لنوافقكم الرأي الآن أن امرأة بهذا العمر يمكن أن تتصابا (كما يفعل حكام العرب الذي تجلب إلى خيامهم أجمل جميلات الأرض)، ولنفترض أن امرأة بهذا العمر يمكن أن تهمّ بشاب بهذا السن (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ)، فهل يعقل (نحن نسأل) أن يهم بها الشاب كما همت به هي (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ)؟ ألم يهم يوسف بتلك المرأة كما همت به هي؟ فهل يعقل أن شابا يافعا في مقتبل شبابه وفي ذروة عنفوانه يمكن أن يهم بعجوز؟

- ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: 24]

وهنا ستنطلق ألسنة المدافعين عن دين الله ورسله بالرد على الفور قائلين بأن يوسف لم يهم بالمرأة إطلاقا، فهم ينزهون نبي من أنبياء الله من أن يقع مرادُ فعل الفاحشة في قلبه. وسيتهموننا بأننا نتجاوز حدودنا، ونتطاول على أنبياء الله بمثل هذا الكلام المفترى من عند أنفسنا.

رأينا: نحن نسرّ (أي نفرح كثيرا) لا شك عندما نجد أمثال هؤلاء يحسنون الظن برسل الله وأنبياءه. ولكن هل قرأتم - يا سادة - ما جاء في مؤلفات علمائكم الأجلاء أصحاب الفضيلة والإمامة والآيات (والسماحة بالطبع) عن سليمان ابن داوود مثلا في قصته مع المرأة التي كشفت عن ساقيها؟ ألم يصور لنا نبيا من أنبياء الله (سليمان) يعمل الحيل ليُكشف له عن ساقي المرأة لينظر في جمالها (كما تقول مؤلفاتهم)؟ ومن أراد المقارنة لتحكيم الضمير الحي فلينظر ما كتب الأولون ولحقهم فيه المتأخرون عن تلك الحادثة مثلا، ثم هم مدعون بعد ذلك (إن وجدوا عندهم متسعا من الوقت ليضيعوه) لينظروا فيما كتبنا نحن في مقالات سابقة لنا عن فعل ذلك النبي الكريم مع تلك المرأة العظيمة تحت عنوان: مادلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته: باب الساق. وبعدها سنترك المجال للقارئ ليحكم بنفسه، فينظر بأم عينه ليرى من يتجاوز حدوده ويتطاول على أنبياء الله: نحن أم مشايخكم من أهل الفضيلة والإمامة والآيات (والسماحة بالطبع)؟!

ما علينا. لنترك هذه الفلسفة الزائدة قليلا، ولنعد إلى صلب الموضوع بالافتراء الذي سنحاول الدفاع عنه والذي مفاده :

1. أن يوسف قد همّ فعلا بالمرأة كما همّت به هي
2. أن يوسف (وليس المرأة) هو المسئول الأول عن الواقعة التي حصلت، وهو الذي يجب أن يلام لو أن حادثة الزنا قد حصلت فعلا.

الباب الأول: يوسف يهمّ بالمرأة

الفكر السائد: لقد احتدم النقاش بين أهل العلم حول هذه القضية، فانقسموا إلى فريقين

⇐ قال الفريق الأول أن يوسف لم يهمّ بالمرأة أصلا لأن هذا نبي من أنبياء الله الصالحين الذين لا يجوز الشك بنواياهم إطلاقا، لذا فهم يفسرون مفردة الهمّ عند المرأة بشيء ولكن الهمّ عند يوسف شيء آخر.

⇐ وقال الفريق الآخر أن همّ يوسف بالمرأة لم يحصل فعلا، ولكنه كاد أن يحصل لولا أنه قد رأى برهان ربه، لذا فهم يقرؤون الآية بالوقف على النحو التالي:

- ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: 24]

وهناك القلة القليلة من أهل الدراية من قال بخلاف ذلك كافترائنا الكبير التالي:

الافتراء: لقد همّ يوسف بالمرأة (فانعقدت النية في قلبه على مواقعتها، وما منع يوسف من ذلك إلا لحظة أن رأى برهان ربه الذي لولاه لما تردد يوسف من متابعة رغبته الجنسية فيها). فالبرهان لم يمنع يوسف عن الهم ولكنه – برأينا- منعه عن متابعة الهم. كلام خطير جدا جدا.

نعم، هو كذلك. وأرجو أن لا يتم اجتزاء العبارات من سياقها إلا بعد مراجعة دليلنا على ذلك في السطور التالية.

أما بعد،

بداية، نحن نرفض الفكر الشعبي السائد للأسباب التالية:

أولا، جاء اللفظ نفسه بحق يوسف كما في حق المرأة (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ)، فالله هو من قال بأن المرأة قد همّت بيوسف والله نفسه هو من قال بأن يوسف قد هم بالمرأة، لذا لابد أن الفعل واحد في الحالتين وهو فعل الهمّ، ولا داعي بأن تفسر المفردة في حالة المرأة على وجه وفي حالة يوسف على وجه آخر. لذا نحن نظن أن من يفعل ذلك هو يسيء إلى الله عن قصد أو من غير قصد، ويكأن لسان حالهم يقول (كما نفهمه بالطبع) لا ضير أن يقول الله ذلك ولكنه يقصد كذا وكذا، أليس في هذا - يا سادة- اتهام مبطن بأن الله لا يعي ما يقول؟!! وإذا كان الهم في حالة المرأة شيء وفي حالة يوسف شيء آخر، فلم لم يأتي النص القرآني بلفظين مختلفين؟

ثانيا، إن من أساسيات عقيدتنا هو لو أن ما وقع في قلب يوسف كان يختلف عن ما وقع في قلب المرأة لجاءت الآية الكريمة لتصور ذلك بالدقة المطلوبة، ولجاء اللفظ في كل حالة يختلف عن الحالة الأخرى، ولكن

لمّا تطابق اللفظ في الحالتين فلابد أن ما حصل في قلب كل واحد منهم كان مطابقا لما حصل في قلب الآخر. فالله في عقيدتنا مطلع على القول ويعلم كيف يصور ما فيها بأحسن الألفاظ وأدقها (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ قِيلاً) (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ حَدِيثًا).

ثالثا، لو أن يوسف لم يهمّ بالمرأة (بمعنى أن إرادة فعل الفاحشة لم تقع في قلبه)، لما كان هناك – برأينا- داع أن تتدخل الإرادة الإلهية لتصرف عنه السوء والفحشاء. فهل لو كان يوسف (كما يصوره البعض) غير مكترث بهمّ المرأة به، هل كان هناك حاجة أن ينسب الله لنفسه أنه هو من صرف عن يوسف السوء والفحشاء. انظر الآية الكريمة جيدا عزيزي القارئ:

- ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: 24]

رابعا، إذا لم يكن يوسف قد همّ بالمرأة كما همّت به، فهل كان سيقع السوء أصلا الذي يتحدث عنه نص الآية الكريمة نفسها؟

- ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: 24]

خامسا، لو أن يوسف لم يكترث بما همّت به المرأة بحقه، ولو أنه لم يهمّ بها كما همت هي به، فما الداعي أن يكون ما سبق من عمله سببا في صرف السوء عنه؟ لم يكون إخلاص يوسف (نحن نتساءل) سببا في صرف السوء عنه؟

- ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: 24]

سادسا، ألا ترون - يا سادة أن- في ظنكم بأن يوسف لم يهم بالمرأة، ألا ترون أن في ذلك اتهام مبطن لرجولة (أو لنقل ذكورة) يوسف؟ هل تستطيعون أن تتخيلوا كيف يمكن أن يكون شاب قد بلغ أشده متواجد في موقف كهذا ولا تثار له غريزة؟ هل هذا شاب سوي البنية والجسم؟ وإذا كان هذا فعلا ما حصل، فما الفضل الذي يجب أن ينسب إلى يوسف مادام أن هم المرأة لم يثير له غرائزه؟

السؤال القوي: هل يمكن أن يُنسب فضل في عدم الوقوع في الزنا إلى من لا يستطيع عليه أصلا كأمثال أولي الإربة من الرجال الذين يطلعون على عورات النساء كالأطفال فلا يشكل ذلك حرج للنساء أصلا؟

- ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ

إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ [النور: 31]

السؤال القوي جدا: هل كان يوسف من غير أولي الإربة من الرجال؟ من يدري!!!

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن من يتهم يوسف بأنه لم يهمّ بالمرأة كما همت هي به ويكأن لسان حالهم يقول بأن يوسف من غير أولي الإربة من الرجال الذين لا تتحرج النساء من إبداء زينتهن في وجودهم.

سابعا، إذا صدّقنا ما تقولون يا سادتنا من أهل الفضيلة والإمامة والآيات (والسماحة بالطبع)، فما بال يوسف بعد قليل يصرخ بأعلى صوته مستجديا الله أن يصرف عنه كيد النساء؟ وما نبرة التهديد هذه الواضحة في خطابه والتي مفادها بأنه سَيصبُ إليهن إن لم يصرف الله عنه كيدهن ؟

- ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [يوسف: 33]

ألا تجد -عزيزي القارئ- أن يوسف يفضل السجن على ما هو فيه؟ فما الداعي أن يطلب يوسف السجن بدلا من مراودة النساء إن كان هذا الأمر لا يثير عنده الغرائز؟

ثامنا، إذا كان سادتنا العلماء قد أحسنوا الظن بنبي الله يوسف ونزّهوه أن يقع مراد الفاحشة في قلبه، فكيف سيفعلون بمن قتل نفسا وأراد أن يبطش بالأخرى من أنبياء الله ورسوله كموسى عليه السلام:

- ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [القصص: 15-19]

وكيف سيدافعون عن من فتنه الله كسليمان مثلا:

- ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾ [ص: 34]

عقيدتنا: إن الدفاع عن أنبياء الله ورسله لا يجب أن تكون من خلال تزوير الحقائق وتشويه النصوص لتتلاءم مع العقائد المسبّقة. لأن في هذا – برأينا- اتباع للأهواء بدلا من إتباع النص القرآني الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. لذا كان يجب الوقوف على الحقائق كما يجلّيها النص القرآني ثم العمل على فهمهما بدلا من إنكار منطوقها عندما لا نملك تبريرا جاهزا لها.

- ⇐ لقد قتل موسى نفسا وأراد أن يقتل الأخرى، لذا لابد من الاعتراف بذلك والبحث عن كيفية فهمه في سياق القرآني الكلي.
- ⇐ وقد همّ يوسف بالمرأة، ويجب البحث عن كيفية حصول ذلك والغاية من وجوده في النص القرآني،
- ⇐ ولقد ابتغى محمد مرضاة أزواجه، فحرم نتيجة ذلك بعض ما أحل الله، ولابد من الاعتراف بذلك، ومحاولة فهم ماهيته
- ⇐ ولقد أخفى محمد في نفسه شيئا، فأبداه الله، ولابد من معرفة ما أخفاه محمد في نفسه، والغاية من أن يبديه الله بقرآن يتلى إلى يوم الدين. (للتفصيل انظر مقالتنا تحت عنوان: تعدد الزوجات 2).

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نعم، نحن نحمل العقيدة التي مفادها أن يوسف قد وجد نفسه في مكان وقد خلت به المرأة وهمت به، فما كان منه إلا أن يهمّ به كما همت هي به، فحدّث نفسه بالوقوع بالسوء والفحشاء، فأقدم على ذلك، وتجهّز له.

السؤال: وما الذي منعه من أن يقع في ذلك مادام أن النيّة قد انعقدت في قلبه؟

جواب: للإجابة على هذا التساؤل كان لابد من الوقوف أولا عند معنى مفردة الهمّ، لنطرح التساؤل على النحو التالي: ما معنى أن تهم بفعل شيء ما؟ وما الذي فعله يوسف وما الذي فعلته المرأة فعلا حتى صور القرآن الكريم فعليهما على أنهما من باب الهمّ؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الهم هو فعل يقع بعد الإرادة وقبل التنفيذ الفعلي.

الدليل

نحن نظن أن الإرادة لا يتجاوز محلها ما يدور في داخل قلب الإنسان، لذا فإن الإنسان لا يحاسب على إرادته، وإلا لأصبح حساب الناس على كل ما يجول في قلبهم (للتفصيل انظر مقالتنا تحت عنوان مقالة في التسيير والتخيير)، وعندها لن يسلم بشر من ذلك لأنه من الاستحالة بمكان أن لا يقع السوء في قلب إنسان، وإلا لانتفت عنه صفة الإنسانية، ونحن نفتري الظن أن شخصا واحد من بين جميع خلق الله لم يقع السوء في قلبه وهو عيسى بن مريم (انظر مقالاتنا تحت عنوان: كيف تم خلق عيسى بن مريم؟)، أما بقية خلق الله من البشر فقد وقع شيء من السوء في قلبهم. كما نظن بأن وقوع الإرادة لا تعني حدوث الفعل الذي انطوت عليه

تلك الإرادة على أرض الواقع، فالجدار مثلا -كما تصوره الآية الكريمة التالية- أراد أن ينقض ولكنه بكل تأكيد لم ينقض:

- ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ٧٧﴾ [الكهف: 77]

أما التنفيذ الفعلي فلا شك أن الإنسان محاسب عليه:

- ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ٨﴾ [الزلزلة: 7-8]

نتيجة: لم يكن ما حصل في حالة يوسف يقع في مرحلة الإرادة (أي ما يجول في قلبه)، ولكنه في الوقت ذاته لم يتحقق على أرض الواقع كفعل سوء وفاحشة، ولكنه كان يقع بين الحالتين.

السؤال: ماذا كان إذن؟ كيف يمكن أن نتصور ما فعلته المرأة وفعله يوسف عندما هم كل منهما بالآخر؟

رأينا: لقد بدر من يوسف ما يقوم به من أراد أن يقع في فعل الزنا قبل تنفيذه، لذا نحن نتجرأ على الافتراء الخطير جدا الذي نطلب من القارئ الكريم أن لا يصدقه إذا لم يجد أن الدليل يدعمه: إنه مرحلة خلع الملابس.

تخيلات مفتراة على يوسف وتلك المرأة من عند أنفسنا: نحن نتخيل (نقول نتخيل) الموقف وكأنه قد حصل على النحو التالي: يحصل أن يتواجد يوسف في بيت تلك المرأة، وما هو إلا وقت قليل حتى أصبحت رغبة المرأة جامحة في يوسف، فلربما تكون هي من بادرت بذلك، ولكن المرأة لم تطلب من يوسف ذلك على الفور، فهذا أمر مناف للطبيعة إلا إذا تصورنا أن تلك المرأة (كما صورتها بعض كتابات أهل العلم) ليست أكثر من امرأة شبقة (دايرة على حل شعرها بالمصري البلدي). ولكن تلك المرأة في نظرنا هي امرأة من عِلية القوم، ومن أصول نبيلة، ولها مكانتها، فهي قبل كل شيء امرأة عزيز مصر، فيستحيل أن يكون الجنس هو ما يهمها في الدرجة الأولى. ولكن مكوث يوسف في بيتها فترة من الزمن هو ما أشعل لهيب الرغبة عندها في يوسف، فأخذت تراوده عن نفسه، وهذا يوسف يمنع نفسه عنها مرة:

- ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾ [يوسف: 23]

وها هو يستعصم مرات ومرات باعتراف المرأة بلسانها للنسوة من بنات جلدتها:

- ﴿قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ٣٢﴾ [يوسف: 32]

ولكن الأمر ضاق بيوسف بعد كل هذه المحاولات، حتى حصلت تلك الحادثة الشهيرة في يوم من الأيام:

- ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٢٤﴾ [يوسف: 24]

وفي هذه المرة على وجه التحديد، كاد يوسف أن يقع بفعل الفاحشة، لولا أن تدخلت إرادة الله بذلك فأرته برهان ربه، وقد ساعده في ذلك ما كان من إخلاصه في سابق الأيام (كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ).

إن هذا الطرح يقودنا على الفور إلى سؤالين أثنين:

1. من هو المسئول عن ذلك الذي حصل؟ المرأة أم يوسف؟
2. ما هو برهان ربه الذي راءاه يوسف فمنعه من الوقوع في الفاحشة؟

باب من المسئول: يوسف أم المرأة؟

افتراء من عند أنفسنا: ليلتمس لنا أهل الدراية العذر مرات ومرات لمخالفتنا إياهم الرأي، فلقد اعتدنا ذلك، وما عاد الأمر بالنسبة لنا يحتاج إلى إذن مسبق من أحد. فنحن نفتري القول هنا بأن يوسف يتحمل مسئولية (تكاد تكون الأولى) عن ما حل بتلك المرأة من شغف به. ولكن كيف ذلك؟

رأينا: بداية يجب النظر إلى تلك المرأة بشيء من الاحترام، فهي لم تكن كالمومس التي لا تبحث لها إلا عن رغبة بالجنس مع كل من يقع عينها عليه. فالمرأة بداية لم تفعل ذلك إلا مع يوسف، ولولا يوسف نفسه لما استهواها رجل آخر، ولما شغفها حبا:

- ﴿قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ٣٢﴾ [يوسف: 32]

ثانيا، إذا كانت المرأة (كما يتصورها الفكر الشعبي) على قلة أدب (كما يقول إخواننا المصريون)، فماذا عن بقية النسوة؟ هل كانت نساء المدينة كذلك؟ فلم شغفهن حب يوسف وراودنه عن نفسه كما فعلت امرأة العزيز؟ ألم يأتِ ذلك على لسان الملك بعد أن جمعهن عنده في نهاية القصة؟

- ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٥١﴾ [يوسف: 51]

إن مراد القول هو: هل وقع يوسف – يا سادة- في مدينة كان جل سكانها من النساء من المومسات؟ من يدري!!!

ثالثا، إذا كان من رأين يوسف من نسوة المدينة قد أكبرنه وقطّعن أيديهن لمجرد رؤيته، فماذا كانت تفعل بقية النساء عندما ترى الواحدة منهن يوسف؟ ألم يكن يوسف يمشي في أسواق المدينة وشوارعها؟ ألم يكن يوسف يخالط أهل المدينة؟ فماذا كانت تفعل كل من ترى يوسف؟ هل صوّر القرآن الكريم نساء المدينة ملقيات على قارعة الطريق يراودن يوسف عن نفسه ويقطعن أيديهن كلما مر بواحدة منهن؟ هل يعقل أن يكون من راودن يوسف عن نفسه هن فقط أولئك النسوة على وجه التحديد؟ وإن كانت الإجابة بنعم، فلم يا ترى فتنت أولئك النسوة على وجه التحديد بيوسف؟

افتراء خطير من عند أنفسنا: نحن نظن أن نساء المدينة بمجملهن لم يفتن بيوسف، ولكن من فتنت بيوسف هي فقط من رأته منهن، ولكن كيف ذلك؟

جواب: للإجابة على هذا السؤال لابد من طرحه الآن على النحو التالي: كيف كان يحصل أن تفتن امرأة بيوسف؟ فهل كلما مرّ يوسف بامرأة (حتى وإن كان ذلك مصادفة) يشغفها حبا؟

رأينا: كلا، وألف كلا. ولكن لماذا؟

جواب: بداية، لابد من التخلص من الفكرة الشعبية بأن سبب ذلك كله هو جمال يوسف. فلقد ظن أهل الدراية أن جمال يوسف (غير العادي) كان هو المحفز الأول والأخير للنساء حتى يشغفهن حبا، فلقد صوروا لنا يوسف على أنه شخص فائق الجمال في طلته، وأن جماله ذاك كان هو ما يجذب النساء إليه.

السؤال القوي: هل -يا سادة- جمال الشكل هو ما يجذب انتباه المرأة في الرجل؟ أرجو أن تسألوا النساء من حولكم قبل التعجل في الإجابة. هل لو شاهدت المرأة رجلا جميل المظهر يمكن أن يكون سببا في أن يشغفها حبا؟

أما أنا فلا أظن ذلك، لأنه لو كان الأمر على تلك الشاكلة لما كان أبي سيشغف أمي حبا في يوم من الأيام! (لا، أرجوكم لا تتسرعوا بالحكم: فأنا أجمل رجل في العالم على رأي أصدقائي الذين يعرفونني من زمان كمحمد أبو تركي وزياد الشرمان وغيرهم، فاسألوهم إن كنتم لا تصدقون).

ولو كان الأمر يقاس عند المرأة بالجمال، فإن من ظَنَك الحياة أن ترى رجالا يمكن أن تقبل امرأة على وجه الأرض أن يقبلها ذلك. على الأقل أنا لا أستطيع أن أتصور ذلك!

وإذا كنت يا من تقرأ هذه السطور من الرجال فحاول أن تتخيل ذلك، ولكن إن كان من يقرأ هذه السطور هو من النساء، فأنا على يقين بأن الأمر يعني لهن أكثر من مجرد جمال المظهر والهيئة؟

السؤال القوي جدا: كيف كان جمال يوسف؟ أو بكلمات أكثر دقة، هل كان يوسف فعلا جميل المظهر؟ وهل الجمال هو من جلب انتباه امرأة العزيز له، فشغفها حبا؟ وهل جمال المظهر والهيئة هو ما جعل نسوة المدينة يراودن يوسف عن نفسه؟

رأينا: كلا وألف كلا، لا علاقة لذاك بشيء يسمى جمال المظهر كما هو متعارف عليه في فكرنا الشعبي

الدليل

لجلب الدليل على ذلك فلابد من التعرض للتساؤل التالي: كيف كان شكل يوسف؟

جواب: نحن نجد أن شكل يوسف منصوص عليه في الآية الكريمة التالية:

- ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ٣١﴾ [يوسف: 31]

نعم لقد كان يوسف في طلعته كالملك الكريم.

السؤال الأقوى من سابقه: وهل فعلا رأت تلك النسوة الملك الكريم حتى يقارِنّ يوسف به؟ فهل تمشي الملائكة على الأرض حتى تستطيع النسوة أن تعرف شكل الملك الكريم لتعقد مقارنة بين يوسف وبينه؟ ومن أين اكتسبت تلك النسوة الخبرة عن شكل الملك الكريم؟ وإذا كان كذلك، فلم لم يشغفهن حبا ذلك الملك الكريم مادام أنهن يعرفن شكله؟ وإذا كنّ يعرف شكل الملك الكريم، فلم يثير يوسف فيهن الدهشة ليقطع أيديهن عندما رأينه؟ ولم لم يقطعن أيديهن كلما رأين الملك الكريم الذي يتحدثن عنه؟ ولم قطعن أيديهن فقط عندما رأين يوسف؟

السؤال الأقوى إشي: وهل نعرف نحن كيف هو شكل الملك الكريم حتى نستطيع أن نتخيل هيئة وطلة يوسف تلك؟ فكيف إذن يصور الله لنا (على لسان النسوة) طلة يوسف كهيئة الملك الكريم ونحن أصلا لا نعرف كيف هو الملك الكريم؟ أليس هذا من باب تفسير الماء بالماء؟!

جواب مفترى: كلا وألف كلا، نحن على عقيدة بأن كتاب الله يفصل لنا كيف هي هيئة الملك الكريم، ولو توصلنا إلى ذلك لاستطعنا بحول الله وتوفيق منه أن نتعرف على شكل وهيئة نبي الله يوسف.

(فالله أسأل أن يختصني برحمة من عنده وأن يعلمني من لدنه علما لا ينبغي لأحد غيري إنه هو السميع العليم، وأن ينفذ قوله

بمشيئته وإرادته لي بالهداية إلى نوره الذي أبى إلا أن يتمه ولو كره الكافرون – آمين)

إن ما يهمنا قوله حتى الساعة هو أن جميع هذه التساؤلات ستفضي بنا إلى الاستنباط المفترى من عند أنفسنا التالي: لم تكن امرأة العزيز هي المسؤولة فقط عن ما حل بها، ولم تكن الغريزة الجنسية هي ما دفع بنسوة المدينة جميعا أن يقطعن أيديهن ويراودن يوسف عن نفسه. ولم يكن جمال المظهر هو ما دفع بامرأة العزيز أن يشغفها يوسف حبا، ونحن نتجرأ أن نفتري القول بأن المسئول الأول عن ذلك كله هو يوسف نفسه. ولكن كيف ذلك؟

رأينا المفترى: لو لم يكن يوسف يتمتع بخصائص تميزه عن بقية من حوله من الرجال لما كان لمثل هؤلاء النسوة أن يشغفهن يوسف حبا، ولما حصل أن يراودنه جميعا عن نفسه. لذا لابد من طرح التساؤل ذاته على النحو الجديد التالي: ما الذي كان يملكه يوسف ولم يكن يتوافر عند غيره من الرجال من أبناء جيله وزمنه؟ هل هو المظهر الخارجي؟

جواب: نحن نظن أن يوسف هو من كان يوقع النساء في حبه، ولم تكن النساء يقعن في حب يوسف عن رغبة تطوعية من عند أنفسهن. فلقد كان في يوسف (نحن نتجرأ على الافتراء) ما لم تستطع النساء أن تقاومه. ونحن نظن أن الدليل على ذلك متوافر في الآية الكريمة التالية:

- ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [يوسف: 31]

لاحظ عزيزي القارئ كيف أنه بمجرد أن ترى النساء يوسف يحصل المحظور: يكبرنه، ويقطعن أيديهن، أليس كذلك؟

والآن لنسأل النساء أنفسهن السؤال التالي: هل لو رأين رشيد الجراح (بالرغم من جماله غير العادي) سيشغفهنّ حبا مباشرة كما حصل عندما رأين يوسف؟

جواب: أنا أشكك في ذلك بالرغم من جاذبيتي التي لا تقاوم.

السؤال: ما الذي جعل نسوة المدينة يكبرن يوسف ويقطعن أيديهن إذن؟

السؤال القوي: كيف كانت امرأة العزيز واثقة بأن أولئك النسوة سيقعن في المحظور؟ وكيف علمت أن النتيجة ستكون على نحو أن يراودن يوسف عن نفسه كما فعلت هي؟

السؤال: وهل هناك امرأة على وجه الأرض (حتى أمي) كان يمكن أن لا يشغفها يوسف حبا؟

رأينا المفترى: كلا، لا تستطيع امرأة على وجه الأرض أن لا يشغفها يوسف حبا، ونحن نظن أن الدليل على ذلك متوافر في قول امرأة للعزيز للنسوة من حولها (قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ)، فلقد كانت امرأة العزيز واثقة بأن اللوم لا يقع عليها، وأن هذا لا محالة مصير كل امرأة من بنات جلدتها متى ما رأت يوسف بأم عينها. والمرأة التي لا يشغفها يوسف حبا لا يمكن أن تصنف من ضمن مجموعة النساء، فهي ليس من النساء أصلا.

السؤال: كيف يحصل ذلك كله؟

جواب مفترى: نحن نظن أن ذلك يحصل بمجرد رؤيته (فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ)

السؤال: وكيف تتم الرؤية

جواب: بالنظر.

السؤال: وما علاقة ذلك بفحوى الحديث هنا؟ هل في ما تقول شيء جديد؟ أليس هذا ما قاله الأقدمون؟

افتراء خطير جدا من عند أنفسنا: نحن نظن أن مجرد النظر هو ما جعل النسوة يكبرن يوسف، ومن ثم يقطعن أيديهن. ولكن المختلف في ما نطرحه هنا هو أن جمال يوسف (الذي تحدث عنه الأقدمون) لم يكن في مظهره الخارجي (وإلا لوجدنا النساء على قارعة الطريق يراودن يوسف عن نفسه)، ولكن جمال يوسف (نحن نفتري الظن) موجود كله في عينيه فقط. لذا فإن الافتتان بيوسف كان يحصل على النحو التالي: ما أن تتاح لأي امرأة على وجه الأرض أن تنظر في عيني يوسف حتى يشغفها حبا، ولا تستطيع أن تقاوم من تراه فيهما. ولا يمكن أن تشغف امرأة بيوسف إذا لم يتيح يوسف نفسه لها تلك الفرصة.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: لذا نحن نتصور (أو لنقل نتخيل) أن يوسف كان يعيش حياة طبيعية كأي شخص آخر من أبناء جيله، يتنقل في الأسواق، ويخالط الناس والنساء، فلا تفتن النساء به، ولا يدرك الرجال من حوله خطورته على نسائهم، ولا يتاح لامرأة أن تفتن بيوسف إلا إذا أراد هو ذلك، ويحصل الأمر متى ما أعطى يوسف لنفسه الفرصة في أن ينظر في امرأة فترى نفسها في عينيه. فما أن تلتقي عيني يوسف بعيني امرأة من حوله حتى ترى السحر الذي لا يمكن لامرأة على وجه الأرض أن تقاومه. فلا تستطيع أن تصد نفسها عنه. فلقد كانت جاذبية يوسف تكمن في عينيه وهو الوحيد المسيطر عليها، فيوزعها بمعرفته وبرغبة منه. وهذا بمنطقنا المفترى ما حصل في حالة يوسف وامرأة العزيز ونسوة المدينة.

تصور جديد لما حصل ليوسف في بيت المرأة التي راودته عن نفسه

نحن نطرح التصور التالي لأحداث قصة يوسف في بيت المرأة التي راودته عن نفسه: يحصل أن يكون يوسف في بيت تلك المرأة. وما أن يمكث يوسف في بيت تلك المرأة (لغرض سنتحدث عنه لاحقا بحول الله وتوفيق منه) لا يشغل المرأةَ حبُ يوسف إطلاقا لأنه ببساطة فتاها، فليس من المنطقي أن تقع امرأة في حب من هو خادم لها على الفور. ولكن ما تبدأ الأيام تدور كالمعتاد، ويقوم يوسف بدوره كفتى للمرأة خير قيام، حتى تلحظ المرأة غرابة في سلوك يوسف، ولكن ما الذي جذب انتباه المرأة ليوسف أصلاً؟

رأينا: نحن لا نشك إطلاقا أن نبي الله يوسف كان على خلق حسن (قَالَ مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ). لذا كان غض البصر من آداب المعاملة في سلوك يوسف مع الآخرين، فكان في بيت تلك المرأة يغض بصره، فلا يتطلع فيها مباشرة بالنظرة التي يتلاقى فيها البصر بالبصر، لذا نحن نتصور أن مثل هذا السلوك الذي لا شك كان ينبع عن حسن التربية (والذي ربما لم يكن معتادا في ذلك المجتمع) سبب الفضول عند المرأة، لأن في تصرف هذا الفتى من الغرابة ما يستدعي الانتباه. ولعلي أتخيل أن ما كان يدور في ذهن المرأة هو تساؤل فحواها: كيف بفتى من فتياني لا يجذبه سحر جمالي ومكانتي فلا يثير عنده الفضول بالنظر؟ عندها (نحن نتخيل ربما مخطئين) تلقى يوسف من تلك المرأة معاملة خاصة، وكان في ظننا الدافع من وراء ذلك عند المرأة هو اكتشاف سر هذا الفتى الغريب الأطوار. فنشأت علاقة ملاحقة مكتومة (أي مراودة) من المرأة تجاه يوسف. وبدأ الأمر يتطور شيئا فشيئا، فأخذت المرأة تعمل كل ما في وسعها (كامرأة لا تعيها الحيلة) لجلب انتباه هذا الشاب الغريب. ولكن تطنيش (كما نقول بالعامية) يوسف لها كان يثير فضولها أكثر فأكثر. فإذا كنت أنا شخصيا طنشت من النساء اللواتي وقعن في حبي الكثير جدا وكان ذاك السلوك مني كان يثير فضولهن أكثر فأكثر، فما بالكم - يا سادة- بشخص كيوسف؟

ولكن كانت تلك المحاولات تبوء بالفشل لإصرار يوسف على العفاف. لذا جاء فعل تلك المرأة من باب المراودة التي نظن أنها من المستحيل أن تحصل مرة واحدة في ظروف كهذه، لذا كان فعل المراودة من قبل المرأة متكررا. ولما كانت المرأة عازمة على ذلك الأمر فهي من أخبرت النسوة من حولها لاحقا بأن محاولاتها لن تتوقف إلا بأن يفعل يوسف معها الفاحشة أو بسجنه:

- ﴿قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ٣٢﴾ [يوسف: 32]

نجحت المرأة في نهاية المطاف أن تجلب انتباه يوسف، فهو قبل كل شيء إنسان له من المشاعر والغرائز ما يجعله بشري الطبع والغريزة. فنظر يوسف في المرأة، فتلاقى بصر يوسف مع بصر المرأة، عندها لم تستطع أن تقاوم ذلك السحر الذي لا يقل عن ما يمكن أن يفعله ملك كريم. وفي هذه المرة على وجه التحديد بدر من يوسف فعل الهمّ بها كما همت هي به:

- ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: 24]

بعد أن كان تمنّع يوسف واضحا في الآية السابقة مباشرة:

- ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يوسف: 23]

نتيجة: لقد قاوم يوسف مراودة المرأة له فترة طويلة من الزمن وذلك لأن ربه قد أحسن مثواه، وحاول بكل ما أوتي من قوة أن يمنع نفسه عن تلك المرأة، ولكن الغريزة الإنسانية تبقى قوية في الإنسان فلا يستطيع أن ينكرها مهما حاول. وهذا برأينا ما أوقع يوسف في فخ نصبته المرأة له، فنزل عند رغبتها به بعد أن اكتملت رغبته فيها، فكان هاما بها لا محالة كما كانت هي هامة به، ولكن شيئا واحدا فقط هو من حال بين الإرادة بالهم والتنفيذ الفعلي للمباشرة، ألا وهو برهان ربه.

السؤال: ما هو برهان ربه الذي رءاه فمنعه عن المضي قدما في فعلته؟

رأينا: للإجابة على هذا التساؤل لابد من العودة لطرق موضوع الهم، وربطه بهذا السؤال، ولكن كيف ذلك؟

رأينا المفترى: لقد ذكرنا آنفا أن الهم هو ما يحصل بعد وجود الإرادة بالقيام بالفعل وقبل التنفيذ الفعلي للفعل، لذا يكون السؤال الآن على النحو التالي: ما الذي فعلته المرأة عندما همت بيوسف؟ وما الذي فعله يوسف عندما هم بالمرأة؟

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن الهم في حالة كهذه هو فعل خلع الملابس، فمن أراد أن يرتكب الفاحشة فإنه يبدأ بخلع ملابسه شيئا فشيئا، وهذا (برأينا) ما حصل في تلك اللحظة: لقد بدأت المرأة بخلع الملابس عندما همت بيوسف ثم ما كان من يوسف إلا أن بدأ هو أيضا بخلع ملابسه بعدها، ولو راقبنا الترتيب في الآية الكريمة ولجدنا أن همها بيوسف (أي خلع ملابسها لمواقعة يوسف) كان سابقا لهمه (خلعه ملابسه لمواقعتها):

- ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ... ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: 24]

ولو أن يوسف هو من بدأ بخلع الملابس قبلها لجاء الترتيب (في ظننا) معكوسا على نحو:

ولقد هم بها لولا أن رأى برهان ربه وهمت به

نتيجة مفتراة: لذا نحن نتطاول لنتجرأ على تقديم الافتراء الخطير التالي: لقد خلعت المرأة كامل ملابسها عندما همت به وتهيأت له بعد أن كانت قد غلقت الأبواب جميعها:

- ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ ... ٢٣﴾ [يوسف: 23]

وعلى تلك الحالة انتظرت يوسف ليفعل مثل ما فعلت، فحاول يوسف أن يمنع نفسه، لكن غريزته كان الأقوى، فبدأ بفعل الهم (أي خلع الملابس)، وهنا حصلت المفاجأة الكبرى ليوسف هو رؤيته برهان ربه الذي منعه أن مواصلة الهم (أي مواصلة خلع الملابس).

نتيجة مفتراة: خلع يوسف شيئا من ملابسه، ولكن ما أن رأى يوسف برهان ربه حتى توقف عن مواصلة خلع ملابسه، فبقي شيء من ملابسه يستر عورته، وهذا واضح تماما عندما لحقته المرأة إلى الباب في عملية استباق إليه، فقدّت قميصه الذي لا زال يرتديه:

- ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٥﴾ [يوسف: 25]

تخيلات من عند أنفسنا: نحن نتخيل أن يوسف قد أرخى قميصه عندما همّ بالمرأة، لذا استطاعت المرأة أن تمسك بطرف قميصه من الخلف لتقدّه، ولو لم يكن قميص يوسف مرخى (أي loose باللسان الأعجمي) لما استطاعت المرأة (في ظننا) أن تقدّه. فمن الصعب على امرأة أن تقاوم رجلا إن كان يريد أن ينفلت منها، ولكن لما كان القميص مرخى بعض الشيء تشبثت المرأة به بكل ما أوتيت من قوية بدنية، ولم يستطع يوسف (وهو الرجل) أن يفلت من قبضتها بسهوله إلا بالتنازل عن شيء من قميصه بين يديها، ونحن نتخيل أن ذلك لا يحدث إلا إن كان كل منهما قد بذل أقصى طاقته، فهي تحاول أن توقفه لكي لا يصل إلى الباب ليخرج منه، وهو يحاول أن يسبقها في فتح الباب والخروج من الموقف كله سالما.

السؤال القوي جدا جدا جدا: ما هو برهان ربه الذي رءاه يوسف فمنعه عن متابعة الهم (خلع الملابس) لمراودة المرأة؟

هذا ما سنحاول الإجابة عليه في الجزء القادم.

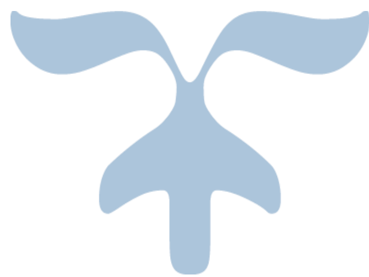
فالله وحده أسأل أن يؤتينا رشدنا وأن يعلمنا الحق الذي نقوله فلا نفتري عليه الكذب، وأسأله وحده أن يهديني إلى نوره الذي أبى إلا أن يتمه ولو كره الكافرون، وأن يعلمني تفصيل الكتاب الذي أحكمت آياته من لدنه إنه هو الحكيم الخبير- آمين.

المدّكرون: رشيد سليم الجراح &علي محمود سالم الشرمان
بقلم: د. رشيد الجراح
12تشرين ثاني 2013
د. رشيد الجراح مركز اللغات جامعة اليرموك
rsaljarrah@yahoo.com



الجزء السّادس

كم قميص كان عند يوسف؟



الفصل السّادس : كم قميص كان عند يوسف؟

﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ ... ﴿١٨﴾﴾ [يوسف: 18]

﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ ... ﴿٢٥﴾﴾ [يوسف: 25]

﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى ... ﴿٩٣﴾﴾ [يوسف: 93]

كم قميص كان عند يوسف؟

أما بعد،

نبدأ النقاش في هذا الجزء من الكتاب من حيث انتهينا في الجزء السابق، وكنا قد أثرنا التساؤل التالي: ما هو برهان ربه الذي رءاه يوسف حتى توقف عن الهمّ بمن همّت به؟

- ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: 24]

فافترينا القول حينئذ أن الهمّ كان يتمثل في وضع الملابس (أي خلعها بلغتنا الدارجة) من أجل المباشرة الفعلية، فخلعت المرأة ملابسها كاملة وتهيئات له:

- ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يوسف: 23]

وما أن بدأ يوسف بخلع ملابسه لكي يباشرها وهي على تلك الحالة التي هيأتها له، حتى رأى برهان ربه الذي منعه من الاستمرار في الهمّ بها، فحال بينه وبين الوقوع في الفاحشة، وقد صرف الله عن يوسف السوء والفاحشة لأنه كان من عباد الله المخلصين:

- ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: 24]

السؤال: ماذا كان ذلك البرهان؟

رأينا: نحن لا نشك قيد أنملة أن البرهان قد جاء إلى يوسف من ربه بدليل أن البرهان قد أضيف إلى ربه، فأصبح يعرف بـ (بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ)، ولكي نتعرّف إلى ذلك البرهان فلابدّ من التعرض للتساؤل الكبير التالي: كيف يمكن أن يكون البرهان من رب يوسف نفسه؟

جواب مفترى: ربما نستطيع أن نتفهم ذلك لو أننا جلبنا السياق القرآني التالي الذي يتحدث عن البرهان:

- ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ۝٣٢﴾ [القصص: 32]

لو تفقدنا هذا النص القرآني لوجدنا أنّ ما فعله موسى عندما سلك يده في جيبه كان برهانا من ربه، وأن ما فعله موسى من ضم يده إلى جناحه كان أيضا برهان آخر من ربه، فكانا معا (بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ). لذا نحن نحاول أن نتدبر كيف يمكن أن يكون ما رآه يوسف برهان من ربه ضمن هذا الإطار العام؟

سؤال: هل البرهان هو آية؟ وما الفرق بين البرهان والآية؟

رأينا: لا بد من التمييز بين البرهان من جهة:

- ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ۝٣٢﴾ [القصص: 32]

والآية من جهة أخرى:

- ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ۝٢٢﴾ [طه: 22]

فلقد سبق هذه الآية الأخرى آية أولى وهي عصا موسى:

- ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ۝١٧ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ۝١٨ قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ۝١٩ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۝٢٠ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ۝٢١ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ۝٢٢﴾ [طه: 17-22]

فكانت عصا موسى آية وكانت يده آية أخرى. ولكن كانت عملية سلوك يده في جيبه برهان وضم جناحه إليه برهان آخر، فلماذا؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أنه لمّا كانت عصا موسى غير مغطاة، ولما كانت يده نفسها غير مغطاة، كانت كل واحدة منهما آية لأن الجميع يستطيعون رؤيتها في الحال، ولا يحتاج موسى أن يفعل شيئا من عنده لكي يري الناس من حوله ما عنده من الآيات، ولكنّ عملية سلوك اليد في الجيب وعملية ضم الجناح إليه تؤدي إلى إخفائهما، ولابد أن يقوم موسى بفعل شيء حتى يراها من هم حوله:

- ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۝١٠٧ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ۝١٠٨﴾ [الأعراف: 107-108]

(لاحظ أن اليد كما ذكرنا في مقالات سابقة لنا هي ما يقطع في حالة السارق، لذا فهي لا تتعدى الكف والأصابع فقط، لأن هناك اليد إلى المرفق الذي يغسل في حالة الوضوء.)

دقق– عزيزي القارئ- في هذا النص القرآني جيدا، لتجد أنه لزاما علينا أن نتدبر في الفرق بين أن تكون عصا موسى (ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ) بينما كان نزع يده (لِلنَّـٰظِرِينَ)، ألم تكن العصا أيضا للناظرين؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن عصا موسى كانت ثعبانا مبينا (ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ) لأنها لم تكن مغطاة أصلا، فموسى يحمل عصاه بيده ويستطيع من حوله أن يراها دون فعل يقوم به موسى من عنده، فلم يعمد موسى إلى إخراجها من داخل شيء كان يخفيها، ولكن - بالمقابل- احتاج موسى أن ينزع يده من جيبه ويظهرها لمن هم حوله لكي ينظروا إليها ليرونها بأم أعينهم، ولو أن موسى لم يفعل ذلك لما (نحن نظن) استطاعوا أن يرونها.(وسنتحدث لاحقا في سلسلة مقالاتنا عن موسى عن السبب الذي من أجله طلب الله من موسى أن يدخل يده في جيبه والسبب الذي من أجله طلب الله من موسى أن يضم إليه جناحه، ويكفي أن نبوح هنا بالعقيدة التي مفادها أن لذلك علاقة مباشرة بقصة القميص.

فالله أسأل أن يعلمنى علما لا ينبغى لأحد غيري إنه هو السميع الحكيم

إن هذا الطرح يقودنا إلى الاستنباط المفترى من عند أنفسنا التالي: البرهان هو شيءٌ مغطى يحتاج أن يُكشف لكي يراه الناس، ويصبح برهانا متى ما رآه الناس بأم أعينهم، لذا نجد التلازم الذي يكاد لا ينفك عراه بين البرهان وفعل الرؤيا:

- ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٢٤﴾ [يوسف: 24]

لذا، فإننا نعتقد أن ما رآه يوسف كان برهانا لأنه كان قبل أن يراه مغطى، وما رآه يوسف إلا بعد أن تكشف له، ونحن نزعم الظن بأن يوسف ربما كان قد رأى آية (وليس برهانا) لو أن ما رآه لم يكن أصلا مغطى.

السؤال: ما هو الشيء الذي كان مغطى وما أن كشف يوسف عنه الغطاء حتى رآه برهانا من ربه؟

رأينا المفترى الخطير جدا الذي نطلب من القارئ الكريم أن لا يصدقه ما لم يثبته الدليل القاطع من كتاب الله: إنه الشيء نفسه الذي كان يوسف قد سرقه، فاتهمه إخوته بسرقته منهم لاحقا:

- ﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧﴾ [يوسف: 77]

لذا نحن نفتري القول بأن يوسف كان قد سرق شيئا، وإلاّ لما اتهمه إخوته بذلك بصريح اللفظ القرآني، ولربما جاء ذلك في النص القرآني حينئذ من باب الإفك:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١﴾ [النور: 11]

وإلاّ لربما جاء النص القرآني واضحا ليكذب دعواهم تلك بالقول مثلا (وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ):

- ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ ١٥١ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٥٢﴾ [الصافات: 151-152]

لذا، نحن نزعم القول أن إخوة يوسف وإن كانوا يفترون القول إلا أنهم لم يكونوا يفترون الكذب عندما اتهموا أخاهم يوسف بسرقة شيء ما، فهم كانوا مقتنعين أن يوسف قد سرق شيئا منهم، ولم يكن ذلك من باب الإفك. ولو راقبنا تتمة النص القرآني الذي يتحدث عن اتهام إخوة يوسف له لما وجدنا إنكارا صريحا من يوسف لمثل هذه التهمة:

- ﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧﴾ [يوسف: 77]

ولوجدنا أن جل ردة فعل يوسف هي أن ينسب إليهم شراً أكبر من الشر الذي نسبه لنفسه عندما قال (أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ). ألا يعني ذلك– عزيزي القارئ- أن يوسف ينسب لنفسه بعض الشر وإن لم يكن بدرجة الشر المتوافر عند إخوته؟

السؤال: ما الذي حصل فعلا؟ وما الذي سرقه يوسف واتهمه إخوته بسرقته؟

رأينا المفترى: لقد كان إخوة يوسف يتنافسون معه على ميراث النبوة. فكان ما سرقه يوسف واتهمه إخوته بسرقته هو شيء محدد من ميراث النبوة.

الدليل

لا شك عندنا أن هذا افتراء كبير وخطير جدا لما سيترتب عليه من تبعات، لذا لابد من جلب الدليل عليه، وسنبدأ البحث عن الدليل منطلقين من الافتراء التالي الذي سبق وأن حاولنا تسويقه في مقالات أخرى لنا ألا وهو: للنبوة ميراث مادي يقع في يد من كانت النبوّة من نصيبه، ويتم تناقل هذا الميراث من نبي إلى نبي. ولما كان هذا البيت الطاهر من سلالة إبراهيم هو من جعل الله النبوة فيه بنص الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧﴾ [العنكبوت: 27]

استقر في هذا البيت الكريم (نحن نفتري القول) من ميراث النبوة ما دعا الإخوة أن يتسابقون في حيازته.

السؤال: ماذا كان ميراث النبوة الذي استقر جلّه في بيت إسحق ويعقوب ويوسف من سلالة إبراهيم عليهم جميعا أفضل السلام؟

نحن نظن أن الإجابة يمكن التوصل إليها بعد طرح التساؤل الغريب التالي الذي طرحناه في بعض مقالاتنا السابقة خاصة في سلسلة مقالاتنا تحت عنوان لماذا قدم لوط بناته بدلا من ضيوفه؟

والسؤال هو: لماذا استمرت النبوة في ذرية إبراهيم من إسحق ويعقوب ومن ثم يوسف بينما توقفت عند إسماعيل ولم تستمر في ذلك الفرع الطيب كما استمرت في الفرع الآخر؟

جواب مفترى: إنه ميراث النبوة. ولكن كيف ذلك؟

رأينا: نحن نعتقد أن هناك دلالات مادية تشير إلى أن من يملكها سيكون هو الوريث الشرعي للنبوة، فلقد كان أول شيء سأل الله موسى عنه في لقاءه ربه الأول هي تلك العصا:

- ﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ١٧﴾ [طه: 17]

فجاء رد موسى المباشر على النحو التالي:

- ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ ١٨﴾ [طه: 18]

فنسب موسى العصا إليه ليدلنا على تعلقه الشديد بها، فأصبحت قصة موسى بأكملها تدور حول تلك العصا (انظر مقالاتنا تحت عنوان باب السامري). فكانت العصا بحد ذاتها دليلا ماديا على نبوة موسى.

وقد كانت آية ملك طالوت (وهو الذي لم يؤت سعة من المال) أن يأتي ذلك التابوت فيه بقية مما ترك آل موسى وآل هرون:

- ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾ [البقرة: 248]

(للتفصيل انظر مقالاتنا تحت عنوان: مادلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته). وهكذا.

نتيجة مفتراة: نحن نظن أن النبوة قد استمرت وتواصلت في بيت إبراهيم حيث فرع إسحق ويعقوب ويوسف لأن ميراث النبوة قد استقر في ذلك البيت الكريم، بينما توقفت في بيت إبراهيم حيث فرع إسماعيل لأنه خلا من ذلك الميراث.

السؤال القوي: ما هو ذلك الميراث المادي الذي استقر في هذا الفرع من بيت إبراهيم (فرع إسحق)؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: إنه ما كان يملكه إبراهيم نفسه كأعطية مباشرة من ربه.

السؤال: وما هو الشيء الذي جاء إبراهيم من ربه مباشرة؟ ومتى حصل ذلك؟

رأينا: نحن نظن أن هذا التساؤل يعيدنا على الفور إلى البحث في قصة إبراهيم نفسه، لنتدبرها من هذا الجانب، وهنا نستذكر ذلك الجانب من القصة الذي يخص ما حلّ بإبراهيم نفسه يوم أن ألقاه قومه في تلك النار العظيمة التي أوقدوها من أجله:

- ﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾﴾ [الصافات: 97]

وهنا تدخلت القدرة الإلهية لتنقذ إبراهيم من تلك النار:

- ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنبياء: 68-70]

وهنا نتوقف مع هذا السياق القرآني لنثير حوله بعض التساؤلات التي نظن أنها ستسعفنا في فهم ماهية ميراث النبوة الذي جاء إبراهيم مباشرة من ربه، ثم استمر في بيت إسحق ويعقوب ويوسف، وانقطع من بيت إسماعيل، حتى كان استمرار الكتاب والنبوة في فرع دون الفرع الآخر. (وسنتعرض للحديث عند الكيفية في انتقال ميراث النبوة إلى فرع إسحق دون فرع إسماعيل لاحقا بحول الله وتوفيق منه.

فالله أسأله وحده أن يهديني إلى نوره الذي أبى إلا أن يتمه ولو كره الكافرون - آمين).

التساؤلات

- ماذا حلّ بإبراهيم عندما ألقاه قومه في النار؟
- هل احترق إبراهيم نفسه؟
- ماذا حصل لملابس إبراهيم التي كانت تستر عورته عندما ألقاه قومه في النار؟
- كيف خرج إبراهيم من تلك النار؟ هل خرج دون ملابس تستر عورته؟
- ماذا حلّ بجسم إبراهيم؟ ألم ينكسر له عظم مادام أنه قد ألقي من بنيان مرتفع (قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا) إلى نار هي الجحيم بعينه (فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ) ؟
- كيف استطاع إبراهيم أن يخرج من ذلك الجحيم؟ أي ماذا كانت آلية خروجه من هناك؟
- الخ.

افتراء خطير جدا جدا رقم (1): نحن نفتري الظن بأن الأمر الإلهي قد صدر للنار بأن تكون بردا وسلاما على إبراهيم نفسه، ولكن لم يصدر أمر إلهي بأن تكون بردا وسلاما على ما كان يغطي جسم إبراهيم من الملابس التي كانت تستر عورته حينئذ، لذا فإن ملابس إبراهيم قد أحرقتها تلك النار التي لم تستطع أن تحرق إبراهيم نفسه، ولكن الله (نحن نفتري القول) ما كان ليدع إبراهيم ليخرج من النار دون أن يستر عورته، فألبسه الله رداء يستر به عورته وهو خارج من تلك النار، فكان ذلك أعطية من الله لإبراهيم.

افتراء خطير جدا جدا رقم (2): ونحن نفتري الظن أيضا بأن القوم قد ألقوا بإبراهيم في الجحيم، فسقط إبراهيم سقوطا شديدا من فوق ذلك البنيان الشاهق في ارتفاعه، لذا فإن كانت النار لن تحرقه، فكيف بعظامه لا تنكسر نتيجة ذلك السقوط في ذلك الجحيم السحيق في سواءه؟ وكيف به سيخرج من ذلك الجحيم مادام أن الجحيم هو مكان منخفض جدا يتم الإطلاع عليه من فوقه:

- ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾﴾ [الصافات: 55]

فكان لابد لإبراهيم (نحن نفتري القول) من وسيله تمكّنه من الخروج من ذلك الجحيم وتساعده على أن لا تتكسر عظامه نتيجة ذلك السقوط، فجاءته (نحن نفتري الظن) الأعطية الثانية من ربه التي تمكّنه من ذلك بكل يسر وسهوله.

(للتفصيل انظر مقالتنا تحت عنوان: لماذا قدّم لوط بناته بدلا من ضيوفه؟)

السؤال القوي جدا (1): ما هو الشيء الذي ألبسه الله لإبراهيم ليستر عورته في خروجه من النار؟

السؤال القوي جدا (2): وما الشيء الذي أعطاه الله لإبراهيم لكي يتمكن من الخروج من ذلك الجحيم فلا ينكسر له عظم؟

جواب مفترى خطير جدا جدا جدا نرجو أن لا تصدقوه ما لم تجدوا أن الدليل من كتاب الله يثبته:

أما الشيء الذي ستر الله به عورة إبراهيم فهو القميص

وأما الذي ساعد إبراهيم للخروج من سواء الجحيم فهي العصا

ولمّا كانت العصا باديةً لا تغطى كانت آية بيّنة، ولكن لمّا كان القميص (وهو ما يستر العورة) يمكن أن يغطى بقميص آخر فوقه كان برهانا.

(وسنرى لاحقا أن مثل هذا الافتراء ربما يفسر لنا لِم كانت العصا في يد موسى هي الآية البينة من ربه ولِم كان سلوك موسى يده في جيبه (أي جيب ذلك القميص) وضم جناحه إليه من الرهب هما البرهانان من رب موسى إلى فرعون وملئه. وسنتحدث عن قصة العصا عندما نتابع حدينا عن قصة موسى لاحقا بحول الله وتوفيق منه،

فالله أسأله وحده أن يعلمني تفصيل الكتاب الذي أحكمت آياته من لدنه إنه هو الحكيم الخبير- آمين)

أما الآن فسنتناول فقط قصة ذلك القميص الذي كان جزءا من ميراث النبوة، والذي جاء إبراهيم كأعطية ربانية يوم أن أخرجه من النار ليستر به عورته، لنفتري القول بأن يوسف كان يلبس ذلك القميص ليستر به عورته، وهو البرهان نفسه الذي رءاه يوسف عندما همّ بالمرأة التي همّت به، فحال بينه وبين الوقوع في الفاحشة.

عودة على بدء: البرهان الذي رءاه يوسف

تخيلات من عند أنفسنا: نحن نتخيل ما حصل مع يوسف في بيت تلك المرأة التي راودته عن نفسه على النحو التالي: سنحت الفرصة لامرأة العزيز أن تخلو بيوسف فتغلّق بنفسها عليه الأبواب بعد أن كانت تراوده على ذلك منذ زمن (وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ)، وما أن تجده عندها في خلوة حتى هيأت نفسها له (وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ)، فحاول يوسف أن يمنع نفسه (قَالَ مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ). إلا أن الغريزة كانت أقوى منه، فعندما وجدها قد همّت به وقد وضعت عنها (أي

خلعت) ملابسها كاملة (وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ)، ما كان منه إلا أن يهمّ بها (وَهَمَّ بِهَا)، فبدأ يخلع ملابسه شيئاً فشيئا ليواقع المرأة في فراشها، وما أن خلع شيئا من ملابسه حتى وصل إلى ما كان يستر عورته وهو – برأينا- القميص نفسه الذي ستر الله به عورة نبيه وخليله إبراهيم يوم أن أخرجه من النار. وما أن رءا يوسف ذلك القميص حتى ذكرّه ذلك القميص على الفور بمن اتبع ملتهم بعد أن ترك ملة القوم الذين تربى فيهم بعد أن أصبح عبدا يباع ويشترى في السوق:

- ﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٧ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٣٨﴾ [يوسف: 37-38]

فكان ذلك القميص الذي يغطي عورته هو - في رأينا المفترى من عند أنفسنا- برهان ربه الذي منعه عن متابعة الهم بالمرأة (وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ). ولآن لندعو القارئ الكريم أن يقرأ السياق القرآني كله من هذا المنظور الذي نفتريه من عند أنفسنا، لندع له الحكم بالمقارنة بين ما نفتريه نحن من قول عند أنفسنا وما قاله من سبقنا من أهل الدراية والرواية عن علم من عندهم:

- ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٢٤﴾ [يوسف: 23-24]

نعم، لقد جلبت رؤية ذلك القميص الداخلي (البرهان) على الفور صورة آباءه إبراهيم وإسحق ويعقوب إلى الذهن، فتذكر على الفور أن هذه السلالة الطاهرة ما كانت لتعصي الله وتقع في هذا المحظور الكبير (وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا). عندها فقط هرب يوسف من ذلك المكان مستبقا المرأة إلى الباب، ليخرج سالما بتوفيق الله الذي صرف عنه السوء والفحشاء، ولكن لم تكن رغبة المرأة الجامحة به لتتركه وشأنه، فما كان منها إلا أن لحقت به إلى الباب، لتمسك بقميصه من الخلف فتقدّه، وهناك ألفيا سيد تلك المرأة لدى الباب:

- ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٥﴾ [يوسف: 25]

الدليل :

لو دققت - عزيزي القارئ- في هذا السياق القرآني لربما وجدت بكل يسر وسهوله أن أدوات تلك الجريمة التي كادت أن تحصل كانت متوافرة عندما ألفيا سيدها لدى الباب. فلم يكن بالإمكان إخفاء تهمة الفاحشة. ولكن لماذا؟ أي لماذا لم تستطع المرأة إلاّ أن تعترف لسيّدها بأن حادثة الزنا كادت أن تقع؟ ولماذا لم يحاول يوسف إنكار أن حادثة الزنا كادت أن تقع؟

جواب: بداية نحن نعرف بأن يوسف كان فتى لتلك المرأة، أليس كذلك؟

- ﴿۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ [يوسف: 30]

لذا، لو أن تلك المرأة لم تكن في وضع محدد بعينه يبين من خلاله بجلاء لكل من شاهده أن المرأة في حالة وقوع في الفاحشة، لما كانت المرأة بحاجة أن تذكر ذلك لسيدها لتدافع عن نفسها عندما ألفياه عند الباب:

- ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ [يوسف: 25]

ولو لم يكن يوسف في حالة توحي بالوقوع بالفاحشة، لما تحدّث لسيدها ليدفع عن نفسه تلك الفاحشة أصلا:

- ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [يوسف: 26]

فهل كان يمكن أن يخطر في بال سيّدها أن الاثنين (المرأة وفتاها) كان في حالة وقوع في الفاحشة لو أنهما كانا يلبسان ثيابهما كالمعتاد؟ أليس يوسف فتى للمرأة يمكن أن يتواجد معها في البيت؟ فما الغرابة أن يتواجدا معا لدى الباب؟

ولو تصورنا بأن المرأة كانت لابسة ثيابها وأن يوسف لم يكن كذلك، ألا يكون واضحا حينها أن يوسف هو المعتدي، فهل تحتاج أن تدافع عن نفسها؟

- ﴿... قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ [يوسف: 25]

وما الحاجة أن تكون هي متواجدة في تلك اللحظة معه عند الباب؟ أليس من المفترض أن تكون المرأة في وضع هروب من يوسف وليس في وضع لحاق به عند الباب؟

ولو تصورنا أن المرأة كانت لابسة ثيابها بينما كان يوسف هو من خلع ملابسه، فهل تحتاج المرأة حينها أن تدافع عن نفسها؟ ألا يكون حينها واضح للعيان من هو المعتدي؟ من يدري!!!

ولو تصورنا أن يوسف لم يكن واضعا شيئا من لباسه حينئذ، فلم يحتاج سيدها أن يبحث عن المعتدي منهما؟ وما الداعي أن يشهد شاهد من أهلها على من كان المعتدي منهما؟

- ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [يوسف: 26-28]

رأينا: نحن نظن أن المرأة لم تستطع أن تنكر احتمالية وجودها في موقف كاد أن يترتب عليه وقوع الفاحشة، وأن يوسف لم ينكر ذلك كذلك، لأن هيئتهما من حيث اللباس على وجه التحديد كانت – برأينا- تظهر ذلك لكل من نظر بأم عينه. فكيف كانت حالتيهما من حيث الملابس عندما ألفيا سيدها لدى الباب؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن المرأة كانت واضعة (أي خالعة) لجميع ملابسها فانكشفت عورتها، بينما كان يوسف واضعا لشيء من ملابسه، فلم تنكشف عورته.

الدليل

بداية نحن نحمل الرأي الذي مفاده أن السر الأكبر في قصة يوسف بأكملها يتمحور حول سر ذلك القميص، فهناك في سورة يوسف ثلاث حوادث رئيسة كان القميص فيها الفصل في الأمر وهي:

1. الموقف الأول: عندما جاء إخوة يوسف على قميصه بدم كذب:
- ﴿وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يوسف: 18]

2. الموقف الثاني: عندما قدّت تلك المرأة قميص يوسف من دبر:
- ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ [يوسف: 25]

3. عندما أرسل يوسف إخوته بقميصه إلى أبيه ليرتد بصيرا:
- ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [يوسف: 93]

ونحن نتوقف هنا لننظر في التساؤلات التالية:

⇐ ما هي قصة القميص في سورة يوسف؟

- ⇐ لماذا تكرر ذكر القميص في قصة يوسف؟
- ⇐ كم كان يملك يوسف من "القمصان" (جمع "قميص" بلهجتنا الأردنية)؟
- ⇐ ما هو القميص الذي عاد به إخوته إلى أبيهم وعليه ذلك الدم الكذب؟
- ⇐ ما هو القميص الذي قدّته المرأة التي راودته عن نفسه؟
- ⇐ ماذا حلّ بذلك القميص المقدود من الدبر؟
- ⇐ ما هو القميص الذي أرسل يوسف به إخوته إلى أبيهم ليرتد بصيرا؟
- ⇐ السؤال القوي: وأين ذهب ذلك القميص بعد أن ارتد ليعقوب بصره؟
- ⇐ هل كان القميص نفسه في الحالات كلها؟ أم هي ثلاثة من القميص (أي القمصان: إن كانت هي جمع قميص) في الحوادث الثلاث؟
- ⇐ الخ.

هذه تساؤلات لابد من الخوض فيها للوقوف على تفاصيل القصة كما حصلت على أرض الواقع كما نفهمها نحن من السياقات القرآنية. وسنبدأ البحث بها طارحين بداية التساؤل التالي: **ما هو القميص أصلاً؟**

استراحة قصيرة

نحن نظن أن القرآن تفصيلا للكتاب الذي ما فرّط الله فيه من شيء:

- ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ٣٨﴾ [الأنعام: 38]

لذا، لابد أن نجد في كتاب الله المفصل قرآنا عربيا جوابا على تساؤلنا هذا عن القميص، ولكن كان استفسار بعض من تحاورت معهم حول مثل هذه الجزئيات يتلخص بالتساؤل الإجرائي التالي: كيف يمكن أن نصل إلى مثل هذا الهدف إن كانت المفردة (كمفردة القميص مثلا) لم ترد إلا في قصة يوسف فقط؟ فهل نستطيع – يا ترى- أن نصل إلى المعنى الحقيقي لهذه المفردة مثلا من خلال أحداث قصة يوسف نفسها؟

رأينا: كلا، لا نستطيع ذلك. أي لا نستطيع أن نستنبط معنى مفردة القميص مثلا من قصة يوسف فقط، ولابد من ربطها مع القرآن بأكمله، لأننا نؤمن إيمانا يقينيا بأن القرآن جملة واحدة لا يتجزأ. لذا فإن فهمنا للآية الكريمة التالية ربما يكون مغايرا عن ما ألفناه عند أهل الدراية من قبلنا:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ١٠١﴾ [المائدة: 101]

فقد كنا نجد من خلال مشاهداتنا اليومية لتصرفات وأقوال أهل الدراية وأهل الرواية أن شطر هذه الآية الكريمة قد سُلِّطت سيفا قاطعا على رقاب الناس لكي لا يسألوا إلا عن ما يريدهم أهل الدرية من أصحاب الفضيلة والإمامة والآيات (والسماحة بالطبع) أن يسألوا عنه. فإذا ما وجد عالمهم أنه لا يملك إجابة على تساؤل قد أثير يلجأ فورا إلى سلاحه الجاهز على الدوام ليشهره في وجه من سأله قائلا: "هناك أشياء لا يجوز أن نسأل عنها ونحن نأخذها بالإيمان (بالنقل لا بالعقل)"، ولكن إن أثار الناس من حوله سؤالا يظن أن باستطاعته الإجابة عليه لا تتوقف حنجرته عن الصدع بما في جعبته ربما لساعات وساعات. ولا يتوقف عن التغني بالمنطق والعقلانية التي يجدها في هذا الدين ويميزه عن غيره من الأديان (في نظرهم). ويكأن لسان حالهم يقول لمن حولهم هناك أشياء يحق للإنسان أن يسأل عنها، وهي ما نملك لكم جوابا عليها. وهناك – بالمقابل- أشياء لا يحق للناس أن يسألوا عنها، وهي تشمل (بمنطقنا المفترى هذا) كل ما لا يملك أهل الدراية أصحاب الفضيلة والإمامة والآيات (والسماحة بالطبع) إجابة مقنعة لها. ولعلي أظن أن هذا كان أحد المحركات الرئيسة التي دعت أن يظهر في مؤلفاتهم ما يسمّونه بفقه إثارة الشبهات عند أهل السنة والجماعة والتقية عند أهل التشيع المنتصرين لآل البيت.

أما نحن فلا هذه عقيدتنا ولا تلك، ونحن على العقيدة التي مفادها أن ليس في دين الله شبهة حتى يتم إثارتها أو السكوت عليها، وليس في دين الله ما يدعو إلى التقية، فدين الله واضح كوضوح الشمس في رابعة النهار، ولا يتقي ولا يسكت عن شبهات إلا (نحن نظن) من كان يبطن ما لا يظهر. وأظن (أقول أظن) أن هذا ليس إلا سلوك أهل النفاق، الذين كان منهجهم على الدوام هو ما نظن أن كتاب الله يصوره أحسن تصوير في الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ٩١﴾ [الأنعام: 91]

وهم الذين تصورهم (في ظننا) الآية الكريمة التالية أحسن تصوير:

- ﴿أَوَلَا يَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ ٧٧ وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ٧٨ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ٧٩ ٧٩﴾ [البقرة: 77-79]

ونحن نؤمن إيمانا يقينيا أن كتاب الله لم يفرط في شيء، وأن كتاب الله جملة واحدة يجيب على كل تساؤل يمكن أن يقع في قلب بشر، ولكن بشرط واحد، ألا وهو: أن يُقرأ كتاب الله كاملا بالطريقة التي أرادها الله. لذا فإن النهي عن السؤال عن بعض الأشياء في بداية الدعوة كان (في ظننا) بهدف أن يكتمل تنزّل القرآن، وما أن يكتمل تنزلّه حتى تكون الأشياء قد بدت لنا بنص الآية الكريمة نفسها:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ١٠١﴾ [المائدة: 101]

نتيجة مفتراة: نحن نظن أنه مادام أن القرآن قد نزّل، فلابد أن تكون الأمور بادية لنا عن كل شي.

السؤال: وما علاقة هذا كله بقصة القميص؟

عودة على بدء

رأينا: نحن نزعم القول أننا بمثل هذا الكلام المفترى من عند أنفسنا نضع المنهجية التي نظن أنها صحيحة للبحث عن معاني المفردات كما يريدها الله في كتابه الكريم بغض النظر عن عدد المرات التي ظهرت فيها المفردة في كتاب الله وبغض النظر عن المكان الذي ظهرت فيه، لذا فمن أجل أن نستجلي معنى مفردة القميص التي لم تظهر إلا في قصة يوسف مثلا، فلابد أن نتعرض لقصة الملابس بأكملها في جميع السياقات القرآنية. وإن نحن فعلنا ذلك بطريقة سليمة وصحيحة، فسوف يتبين لنا (نحن نفتري القول) ما هو القميص على وجه التحديد، وسنتعرف حينها على ماهية القميص الذي جاء ذكره في كتاب الله في قصة يوسف، والأهم من هذا كله هو أننا لن نكون رهن خرافات نسجناها من مخيالنا الشعبي. فأنا على يقين أن من يقرأ قصة يوسف ويتعرض لمفردة القميص من أبناء العربية، فإن الصورة التي ترسم في مخياله لا تتجاوز فكرة ذلك القميص الذي يشتريه من متجر الملابس، وأن صورة القميص المعلّق في دولابه (أي خزانة الملابس بالأردني) تسيطر على المشهد برمته فلا تفارق مخياله حتى يفرغ من قراءة القصة كلها، وحينها يقع (نحن نزعم القول) فريسة سهلة لتلك الأسماء التي سميناها نحن وآباؤنا وما أنزل الله بها من سلطان. والأغرب من هذا كله في ظني هو أنه عندما بحثت في الترجمات لمعاني الكتاب الكريم في نسخه باللغة الإنجليزية وجدت أن جلّها قد أجمع على أن كلمة (shirt) في اللغة الإنجليزية هي المرادفة لمفردة القميص في النص القرآني. لذا فإن من لا يعرف العربية ويقرأ النص القرآني من خلال ترجماته إلى لغات الأرض الأخرى سيقع ضحية نفس الأوهام والتصورات الشعبية التي رسمها أهل العربية وصدّروها إلى العالم كله من حولهم على أنها علم.

أما أنا، فإني أشك إن ما كتبوه بأيديهم يستحق الحبر الذي كتب فيه ناهيك عن الورق الذي كتبوه عليه.

السؤال: كيف نفهم ماهية القميص الذي جاء ذكره في أكثر من حادثة في قصة يوسف؟

رأينا: لكي نستطيع أن نجيب على مثل هذا التساؤل فلابد من طرح التساؤل الأعرض وهو: ما هي الملابس التي يرتديها الإنسان وجاء ذكرها في كتاب الله؟

جواب: ربما نستطيع أن نبدأ النقاش بالأشياء التالية: الخُمُر،الجلابيب، الثياب

السؤال: ما الفرق بين القميص من جهة وهذه الأشياء الثلاثة الأخرى من جهة ثانية؟

أولاً، نحن نظن أن الخُمُر والجلابيب من ملابس النساء والبنات ولا علاقة للرجل بذلك من قريب أو بعيد:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝٥٩﴾ [الأحزاب: 59]
- ﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوۡ نِسَآئِهِنَّ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٣١﴾ [النور: 31]

وقد تعرضنا في مقالة سابقة لنا لهذه الجزئية (انظر تعدد الزوجات2). أما ما يهمنا هنا فهو التساؤل التالي: هل الجلابيب والخمر هو ما يمكن أن تلبسه المرأة فقط؟

جواب: كلا، فالمرأة تلبس (بالإضافة للجلابيب والخُمُر) الثياب:

- ﴿وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا فَلَيۡسَ عَلَيۡهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعۡنَ ثِيَابَهُنَّ غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖۖ وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ خَيۡرٞ لَّهُنَّۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ۝٦٠﴾ [النور: 60]

وهنا يبدأ التلاقي بين لباس الإناث من جهة ولباس الذكور من جهة أخرى، فبالرغم أن الرجال لا يلبسون الجلابيب والخُمُر (كما تفعل النساء) إلا أنهم يلبسون الثياب:

- ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥﴾ [هود: 5]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٥٨﴾ [النور: 58]
- ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ۝٧﴾ [نوح: 7]

فالنبي نفسه أمر أن يطهّر ثيابه في بداية الدعوة إلى الله:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ [المدثر: 1-4]

ولا شك أنّ الثياب هي لباس جميع أهل الجنة:

- ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ۝٣١﴾ [الكهف: 31]
- ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ۝٢١﴾ [الإنسان: 21]

وكذلك هي لباس أهل النار:

- ﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ۝١٩﴾ [الحج: 19]

السؤال: أين القميص إذا؟ وكيف يختلف القميص عن الثوب؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن بأن الثوب هو ما يغطي الجسم من الخارج، وبكلمات أكثر دقة هي آخر ما يلبس الشخص من قطع الملابس المتعددة التي قد يلبسها في المرة الواحدة ليظهر بها على من حوله وهي أول قطعة يخلعها إذا ما أراد أن ينزع عنه لباسه (وبكلمات العسكر الذين يستخدمون السلاح هي آخر ما يركب وأول ما يفك):

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٥٨﴾ [النور: 58]

دقق – عزيزي القارئ- جيدا في هذه الآية الكريمة، ألا تشير بكل وضوح إلى أن الإنسان يلبس أكثر من قطعة واحدة من اللباس؟ ألا تشير الآية الكريمة أن ما يضعه الإنسان من ملابسه في وقت الظهيرة (أي القيلولة) هو الثوب فقط (وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ)؟ فهل يضع الإنسان كامل ملابسه في وقت الظهيرة؟! من يدري!!! على الأقل أنا لا أفعل ذلك.

والآن راقب الآية الكريمة التالية التي تتحدث عن القواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحا:

- ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٦٠﴾ [النور: 60]

ألا تشير الآية الكريمة أن القواعد من النساء يضعن شيئا من اللباس ولكن لا يضعنه كله؟ فما الذي رُخِّص للقواعد من النساء أن يضعنه من اللباس؟

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن ما رُخِّص للنساء اللاتي لا يرجون نكاحا أن يضعنه من اللباس هو الثوب فقط (فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ)، ولا يحق لمن كانت من القواعد من النساء أن تضع عنها الجلباب والخُمُر.

السؤال: ما هي الثياب التي تسطيع من لا ترجو نكاحا من القواعد من النساء أن تضعه؟

رأينا المفترى: إنه فقط ما يغطي الجسم من الخارج ويظهر به الإنسان على من حوله. أما الجلباب والخمر فهما يغطيان جسم المرأة من الداخل، ليصبح لباس المرأة على النحو التالي:

1. الخُمُر: وهو ما تضرب به المرأة النصف الأعلى من جسمها، فلا تنكشف عورتها:

- ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور: 31]

2. الجلباب: وهو ما تستر المرأة به النصف الأسفل من جسمها، فلا تنكشف عورتها:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾ [الأحزاب: 59]

3. الثوب: وهو ما يغطي كامل جسم المرأة من الخارج ولا يسبب وضعه انكشاف عورتها:

- ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ [النور: 60]

السؤال: وماذا عن الذكور الذين يلبسون الثياب، فيضعونها في وقت الظهيرة:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾ [النور: 58]

فهل يضع الرجل (مثلا) كامل لباسه في وقت الظهيرة؟ وهل يبقى عاريا في ذلك الوقت؟ وكيف تكون حالته في وقت الظهيرة متى ما وضع ثيابه؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الرجل يمكن له أن يضع ثيابه وقت الظهيرة، ولكن وضع الثياب هذا لا يؤدي إلى انكشاف عورته أمام أهل بيته كأبنائه وبناته المتواجدون معه في نفس البيت.

السؤال: وكيف يكون ذلك؟

رأينا: يحصل ذلك لأن الرجل يكون يلبس شيئا ما ليغطي عورته بعد أن يكون قد وضع ثيابه من وقت الظهيرة.

السؤال: ماذا يلبس الرجل ليغطي عورته به بعد أن يضع ثيابه من وقت الظهيرة؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: إنه القميص

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن الرجل يلبس على الأقل نوعين من الملابس في كل مرة هما:

1. القميص (بغض النظر عن العدد) الذي يغطي عورته فلا يستطيع أن يضعه عنه في وقت الظهيرة لأن هذا سيسبّب انكشاف عورته أمام أبناءه وبناته وكل أهل بيته.
2. الثوب الذي يغطي الجسم من الخارج ولا يسبب وضعه عنه في وقت الظهيرة انكشاف عورته

الدليل

نحن نظن أن الدليل على مثل هذا الظن ربما يمكن استنباطه من قصة يوسف يوم أن جعلوه إخوته في غيابة الجب.

السؤال: وكيف يمكن استنباط ذلك؟

رأينا: نحن نظن أن بالامكان تخيل الأمر بكل يسر وسهولة متى ما حاولنا طرح التساؤل التالي: كيف كانت حالة يوسف من حيث الملابس عندما جعله إخوته في غيابة الجب؟ فهل كان الغلام عاريا؟ هل نزع الإخوة ملابس أخيهم عنه كلها؟ فهل نزعوا جميع ما كان يلبس حينئذ؟ وهل خرج يوسف من غيابة الجب على أيدي السيارة عاريا؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: كلا، لقد جعل إخوة يوسف أخيهم في غيابة الجب وهو لازال لابسا شيئا من الملابس، نظن أنها - على أقل تقدير- ما كان يستر عورته. فمن غير المرجح أن يعطي أبناء الأنبياء فرصة لأنفسهم ليروا بأم اعينهم عورة أخيهم، فهذا ليس من سلوك من كان هدفهم من التخلص من يوسف حتى يكون من بعده قوما صالحين:

- ﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ٩﴾ [يوسف: 9]

السؤال: وكيف يكون ذلك وقد عاد الإخوة عشاءً يبكون وهم يحملون قميص يوسف بين أيديهم ليضعوه دليلا عند أبيهم على أكل الذئب للغلام؟

رأينا: نحن نظن أن الإنسان مجبول على لبس أكثر من قطعة واحدة من الملابس في الوقت الواحد. فمن منا يلبس قطعة واحدة من اللباس فقط إن هو خرج من بيته (خاصة إذا كان ذاهبا في نزهة كما فعل إخوة يوسف)؟ لذا في حين أن المرأة تلبس الخُمُر والجلباب لستر العورة وتلبس الثوب من فوقهما لتخرج به على الناس، حتى إذا ما وضعت من كانت منهن من القواعد من النساء ثوبها لا يسبب ذلك إنكشافا لعورتها، فإن الرجل يبدأ اللباس عادة بالقطع التي تغطي عورته شيئا فشيئا، فيكون كل ما يلبسه لهذا الغرض يسمى (في رأينا المفترى) قميصا. وربما يلبس أكثر من قطعة لهذا الغرض (أي أكثر من قميص)، ويتحكم بذلك عوامل العادة السائدة في المجتمع والمناخ والرفاه الاقتصادي، الخ. وما أن يفرغ من ذلك حتى يلبس القطع الخارجية التي تسمى ثوبا، والتي لا يسبب وضعها في وقت الظهيرة عند الرجال أو وضعها من قبل القواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحا انكشافا للعورة.

تصور جديد لقصة قميص يوسف الأول : وَجَآؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ

نحن نفهم من صريح اللفظ القرآني أن الإخوة قد عادوا إلى أبيهم مساء يبكون وهم يحملون قميص يوسف ليكون دليلا على أن الذئب قد أكل يوسف:

- ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨﴾ [يوسف: 18]

لذا فإن من غير المنطقي أن لا يكون القميص هو قميص يوسف فعلا، فمن غير المرجح أن يكون الإخوة قد جاءوا بقميص لا يخص يوسف، لأن ذلك لن يشكل دليلا على أن الذئب قد أكل يوسف، فصاحب القميص هو - لا شك- من أكله الذئب، أليس كذلك؟

السؤال: لماذا لم يجيئوا أباهم عشاء بثوب يوسف بدلاً من قميصه؟

رأينا: مادام أن الثوب هو القطعة الخارجية من اللباس فمن غير المنطقي (نحن نتخيل) أن يكون الدم قد وصل إليه بما يشكل دليلا كافيا على أن يوسف قد مات فعلا، فعندما يهاجم حيوان مفترس شخصا ما، فإن ذلك الشخص لن يقف مكتوف الأيدي يتفرج على ما سيفعله الذئب به، ولكنه سيقاوم ويحاول أن يهرب من بين مخالب المفترس، أليس كذلك؟ لذا فإن الإنسان في هذه الحالة سيتنازل عن شيء من ملابسه يمسكها الذئب بمخالبه أو بأسنانه، ولكن ذلك لا يمنع الإنسان الذي هاجمه الحيوان المفترس أن يهرب إذا ما استطاع أن يترك ثوبه بين مخالب الذئب لينجو بنفسه، لذا نحن نظن أن إخوة يوسف لم يعودوا يحملون ثوب يوسف

ملطخا بالدم لأن ذلك ربما لا يكون دليلا كافيا على أن يوسف قد مات بين مخالب وأسنان الذئب، لذا ربما سيطلب منهم أبوهم في هذه الحالة أن يعاودوا البحث عن يوسف في البرية، فلربما كان يوسف مصابا ولكنه غير مقتول. وذلك لأن تلطيخ الثوب (أي اللباس الخارجي) بالدم لا يشكل دليلا كافيا على نهاية الغلام على يد الذئب. ولكن الإخوة الذين يفكرون بطريقة سليمة لتنفيذ مكيدتهم المدبرة مسبقا، عرفوا كيف يكف والدهم عن الطلب منهم أن يتابعوا البحث عن يوسف. فكانت الخطة أن يحضروا له شيئا من لباس يوسف الداخلي، ربما لتصل رسالتهم إلى أبيهم على النحو الذي نفتريه التالي: مادام أن قميص يوسف قد لطخته الدماء، ومادام أن الذئب قد استطاع من الوصول إلى القميص، فمن غير المرجح أن يكون يوسف قد نجا من قبضته، فالذئب الذي يمسك بقميص فريسته من الناس، يستحيل أن يترك له فرصة للهروب.

ولكن هذا التصور لا يمنع أن يكون يوسف كان يلبس أكثر من قميص (أي أكثر من قطعة داخلية). فالأولاد جاءوا أباهم يحملون بين أيديهم قميصا واحدا بنص الآية الكريمة، ولا نشك أنهم قد تركوا يوسف مرتديا قميصا آخر ليستر عورته عندما جعلوه في غيابة الجب. ولعلي أظن أن يعقوب قد فرح فرحا كبيرا عندما رأى القميص الذي أحضره أبناءه له، فكانت ردة فعله المباشرة على ذلك في الآية نفسها على النحو التالي:

- ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨﴾ [يوسف: 18]

السؤال: كيف عرف يعقوب أن ذلك الأمر كله هو من باب ما سولت لهم أنفسهم؟

رأينا المفترى: لما رأى يعقوب القميص الذي جاء به أبناءه عرف على الفور أن يوسف لازال حيا وأن أبناءه قد طرحوا أخاهم يوسف أرضا، ولكن لماذا؟

افتراء خطير جدا جدا جدا: لأن الأبناء لم يأتوا بالقميص الذي ألبسه يعقوب ليوسف كميراث النبوة وهو الذي ورثه عن آباءه إبراهيم وإسحق، والذي لم يؤذن ليعقوب أن يلبسه هو بنفسه، فالله لم يتم نعمته على يعقوب كما أتمها على أبويه من قبل إبراهيم وإسحق وكما سيتمها على ابنه يوسف من بعده:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦﴾ [يوسف: 6]

الدليل

نحن نفتري الظن بأن ميراث النبوة (القميص والعصا) كانا متواجدين في بيت يعقوب، وفي حين أن يعقوب كان ممسكا على الدوام بالعصا إلا أنه لم يؤمر بلبس القميص، فكانت نعمة الله عليه غير تامة، وكان

ينتظر واحدا من أبناءه ليلبسه ذلك القميص، فكانت الحيرة بادية على يعقوب ليختار يوسف أو أخاه الآخر، فظن الإخوة جميعا نتيجة تصرف أبيهم هذا أن يوسف وأخاه أحب إلى أبيهم منهم جميعا:

- ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾﴾ [يوسف: 8]

فكان كيدهم الأول ليوسف وأخيه معا. وما أن حدّث يوسف والده بتلك الرؤيا الشهيرة حتى أصبح مستقرا عند يعقوب أن الوريث الشرعي للنبوة من بين أبنائه جميعا هو يوسف، فأصبح واضحا للجميع أن الكيد يجب أن يوجه ليوسف فقط وليس لأخيه:

- ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾﴾ [يوسف: 5]

ولما علم يعقوب أن الإخوة لا محالة قاتلين أو طارحين أخاهم أرضا، خطط لهم كيفية طرح أخيهم أرضا:

- ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [يوسف: 13]

فاختاروا طرح أخيهم أرضا:

- ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [يوسف: 10]

وفي هذه الأثناء قام يعقوب بتجهيز يوسف لتلك الرحلة الطويلة، فألبسه ذلك القميص الذي كان أُعطية من الله لجده إبراهيم ليستر به عورته عندما أخرجه من النار، فأصبح ذلك القميص هو برهان ربه (وسنرى لاحقا بحول الله وتوفيق منه أن هذا القميص نفسه هو سبب البرهانان اللذان ذهب بهما موسى إلى فرعون وملئه، فالله اسأل ان يعلمني قول الحق فلا أفتري عليه الكذب إنه هو الحكيم العليم). فخرج يوسف في تلك النزهة مع إخوته وهو يلبس ذلك القميص، ولكن والده لا شك ألبسه أكثر من قميص في نفس الوقت (ربما كما تفعل الأمهات عندما يخرج صغارهن من المنزل، فيلبسنهم من الثياب ما يحميهم من البرد مثلا). وبالإضافة إلى ما كان يلبس من القميص (جمع قمصان وهي التي نظن أنها مفرد وجمع في الوقت ذاته)، كما كان يوسف يلبس (كبقية الناس ممن حوله) ثوبا من الخارج فوق تلك القمصان التي تستر العورة من الداخل. ولكنّ الإخوة لم يكونوا مدركين لما فعله يعقوب (الذي كان يعلم من الله ما لا يعلمون) مع يوسف.

ما أن وصل الإخوة إلى غيابة الجب حتى نزعوا عن أخيهم ثوبه ليأخذوا واحدا فقط من قميصه فيلطخوه بالدم ليكون دليلا كافيا على أن الذئب قد أكله. فجعلوه في غيابة الجب (نحن نتخيل) وهو لازال يلبس ذلك القميص الذي ألبسه إياه أبوه من الداخل، وهناك بالضبط بدأ الوحي يتنزل على يوسف:

- ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾ [يوسف: 15]

(وسنتحدث عن السبب في ذلك لاحقا بحول الله وتوفيق منه.

فالله أسأل أن يعلمني منه الحق الذي أقوله فلا أفتري عليه الكذب وأن يهديني إلى نوره الذي أبى إلا أن يتمه ولو كره الكافرون – آمين

وما أن عاد الأبناء إلى أبيهم عشاءا وقد أخرجوا له ذلك القميص الملطخ بالدم، حتى علم يعقوب (علم اليقين) أن يوسف لم يقتل، وأن الخطة التي رسمها بنفسه لهم ليطرحوا أخاهم أرضا فلا يقتلوه قد نجحت، وأن يوسف لا زال بخير، وكان الدليل لديه يتلخص (في ظننا) بالتالي:

1. لم يحضر الأبناء القميص نفسه الذي ألبسه يعقوب لابنه يوسف وهو القميص الذي ستر عورة جده إبراهيم، فلا شك لدى يعقوب الآن أن عورة يوسف لازالت مستورة. وأن برهان الله لن يصل إليه من يعارض مشيئته (كإخوة يوسف حينئذ). ونظن أن يعقوب كان يعلم مسبقا أن هذا القميص نفسه هو الذي سيحول بين يوسف والوقوع في الفاحشة في قادم الأيام (فيعقوب رجل علمه الله من لدنه علما، فلا يجوز الاستهانة بتصرفات الرجل، ولابد أن تحمل على محمل يليق به وبعلم الله الذي علمه إياه).
2. كان الدم الذي يلطخ ذلك القميص الذي أحضروه هو دم كذب. فكيف ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن واحدة من أهم نقاط القوة (العلم) عند يعقوب هي حاسة الشم، فلقد استطاع يعقوب أن يشتم ريح يوسف عندما فصلت العير:

- ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾﴾ [يوسف: 94]

فهل تتصورون - يا سادة- أن الذي يستطيع أن يشتم ريح يوسف من تلك المسافة البعيدة لا يستطيع أن يشتم ريح يوسف من قميصه؟

كلا وألف كلا، فنحن نتخيل بأنه ما أن رأى يعقوب القميص حتى أدرك أن يوسف لم يصب بأذى، وما أن اشتم ذلك الدم حتى علم أن هذا الدم ليس بدم يوسف ولكنه دم كذب. ولكن كيف حصل ذلك؟

رأينا المفترى: ما أن أراد إخوة يوسف أن يجعلوا أخاهم في غيابة الجب حتى وضعوا عنه ثوبه، وخلعوا عنه قميصا كان يلبسه، ثم عمدوا أن يجعلوه في غيابة الجب. ولا نجد في كتاب الله إشارة بأن الإخوة قد مسوا أخاهم بأذى عندما جعلوه في غيابة الجب. ولا نجد أن يوسف قد كانت تظهر عليه علامات الأذى كالجروح مثلا عندما أخرجه السيارة من غيابة الجب. لذا فإن الدم الذي كان يلطخ القميص لم يكن هو دم يوسف. وأظن أن أنف يعقوب لم يكن ليخطئ الهدف، فقد كان قادرا على أن يدرك هذه الحقيقة. لذا نحن نظن أن

الإخوة قد وضعوا على قميص يوسف دما لم يكن أصلا من دم يوسف. فكان يوسف لازال سليم الجسم يلبس ذلك القميص الذي يستر عورته تماما كما ستر ذلك القميص عورة جده إبراهيم يوم أن أخرجه الله من النار ويكأنه في نزهة. فكان خروج يوسف من غيابة الجب يشبه في تفاصيله خروج جده إبراهيم من النار. فالحادثتان حصلتا بمكيدة من الأهل، فقد كاد للجد (إبراهيم) كلُ أهله بمن فيهم أبوه، فألقي في النار، ولكن الله أخرجه منها مستور العورة لأنه كان من المحسنين المخلصين. وكاد الإخوة للحفيد (يوسف)، فألقوه في غيابة الجب، فأخرجه الله منها مستور العورة. ويكأن القميص هو الأداة التي بقيت برهانا من ربهما لا يستطيع أن يصل لهما من كان يريد أن يحارب الله ولا يتقبل مشيئته. (وسينقلنا هذا التصور لاحقا للحديث عن السبب في لبس الإحرام في فريضة الحج عند الطواف، وعن السبب في الحلق والتقصير، وربما كل شعائر الحج التي أخذناها مسلمات ولم ندرك ماهيتها أو سبب أن تكون على تلك الشاكلة- فنحن نكتفي البوح هنا بأن مناسك الإحرام كلها قد ابتدأها إبراهيم الذي خرج من النار لابسا ذلك الثوب الذي ألبسه إياه ربه عندما أخرجه من النار، فذهب إلى ربه ليهديه- وسنتحدث عن تفاصيل ذلك لاحقا

فالله وحده أسأله أن يهديني رشدي وأن يهديني إلى نوره الذي أبى إلا أن يتمه، إنه هو الحكيم الخبير- آمين).

تصور جديد لقصة قميص يوسف الثاني : وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ

عاد الحديث في سورة يوسف ليبرز قصة القميص من جديد في بيت التي راودته عن نفسه. فحاول يوسف – كما أسلفنا أن يمنع نفسه عن الوقوع في الفاحشة، ولكن التي هيأت له نفسها وغلقت عليه الأبواب وهمت به، استطاعت أن تكسر قدرته على التحمل، فما كان من يوسف إلا أن يجد نفسه واقفا أمام امرأة فائقة الجمال، ذات مقام رفيع، عارية تماما، تدعوه إليها، فما كان منه إلا أن يهمّ بها، فبدأ بالهمّ بها (أي بوضع ملابسه)، فوضع عنه ثوبه الخارجي، وبدأ بنزع ما كان يلبس من القمصان (جمع قميص) التي تغطي عورته شيئا فشيئا حتى وصل إلى ذلك القميص المشهود الذي ألبسه إياه والده يعقوب، وما أن رءا يوسف ذلك القميص حتى تذكر على الفور تلك السلالة الطيبة: إبراهيم إسحق يعقوب

فما كان ليوسف وهو الذي انحدر من تلك السلالة الطيبة والمتمم لها أن يقع في الفاحشة، فكان ذلك القميص هو برهان ربه الذي رآه فحال بينه وبين الوقوع في الفاحشة:

- ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: 24]

ولمّا كان الشيطان قد أخذ عهدا على نفسه أن يغوي عباد الله كلهم أجمعين إلا المخلصين منهم:

- ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۝٤٠﴾ [الحجر: 39-40]
- ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۝٨٣﴾ [ص: 82-83]

كان يوسف من المخلصين الذين يستحيل أن يغويهم الشيطان:

- ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۝٢٤﴾ [يوسف: 24]

عندها ركض يوسف إلى الباب ليخرج من المكان كله، ولكن المرأة التي شغفها حبا لم تكن لتستسلم، فركضت وراءه في سباق نحو الباب، ولم يكن يوسف ليصل إلى الباب إلا وكانت المرأة قد قدّت بعض مما تبقى عليه من اللباس الداخلي (القميص) من الخلف، وهناك كانت المواجهة (وجها لوجه) مع سيدها، فلم يستطع أحد منهما (المرأة ويوسف) إنكار أن حادثة الفاحشة كادت أن تحصل، فحاولت هي أن تلبس يوسف تهمة الاعتداء عليها:

- ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٢٥﴾ [يوسف: 25]

وحاول يوسف الدفاع عن نفسه، وجاء فصل الخطاب من الشاهد الذي شهد من أهلها:

- ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٢٦﴾ [يوسف: 26]

تصور جديد لقصة قميص يوسف الثالث : اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي

إن ما يسترعي الانتباه في هذه الحادثة الثالثة حيث يأتي الخطاب مبرزا قميص يوسف مرة ثالثة هو وجود اسم الإشارة هَذَا في هذا المقام على وجه التحديد (ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا)، فما الذي يمكن أن نستنبطه من وجود هذا التحديد في هذا المقام على وجه التخصيص؟

رأينا: نحن نظن أن يوسف كان عنده أكثر من قميص، كباقي خلق الله أجمعين، ولكن كان من بينها جميعا قميص واحد هو القميص المميز الذي يمكن بواسطته القيام بمهمة خاصة لا يمكن لأي قميص آخر أن ينفذها ألا وهي أن يرد ليعقوب بصره. فما الذي حصل؟

تصورنا المفترى: جاء إخوة يوسف واعترفوا له بالإيثار الرباني له عليهم:

- ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ٩١﴾ [يوسف: 91]

وهنا فقط، أصبح الأمر مكشوفا تماما لا يستطيعون أن ينافسوه عليه (على ميراث النبوة)، فقد استتب الأمر ليوسف ولا يستطيعون الآن إلحاق الأذى به كما فعلوا من قبل:

- ﴿قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ٨٩﴾ [يوسف: 89]

فقام يوسف، وعمد إلى إحضار ذلك القميص الذي كانوا يطاردون يوسف من أجله وهم لا يعلمونه أصلاً، ولا يعلمون أن أباهم يعقوب قد ألبسه ليوسف يوم أن أرسله معهم ليرتع ويلعب. فطلب يوسف من إخوته أن يذهبوا بهذا القميص على وجه التحديد (ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا) ليلقوه على وجه أبيهم فيرتد بصيرا، وكأني أتصور يوسف يقول لإخوته الآن هذا هو القميص الذي كنتم تنافسونني على حيازته، هذا هو القميص الذي اتهمتموني بسرقته:

- ﴿۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧﴾ [يوسف: 77]

ولكن جهلكم لم يكن ليهديكم إليه، ولم تكونوا لتعلمون أني لم أسرقه من بيت أبي، ولكن أبي هو من ألبسني إياه بنفسه، ولم أكن استطيع أن أبدها لكم، فأسرتها في نفسي. والآن إذهبوا بهذا القميص نفسه فألقوه على وجه أبي يأتي بصيرا:

- ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩٣﴾ [يوسف: 93]

وما أن حمل الأخوة قميص أخيهم هذا وتوجهوا به نحو أبيهم، حتى استطاع يعقوب أن يجد ريح يوسف تملأ المكان كله، فأخبر من حوله بذلك:

- ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ٩٤﴾ [يوسف: 94]

ولمّا لم يكن من هم من حول يعقوب على علم بما علمه ربه لم يستطيعوا أن يجدوا من ريح يوسف ما وجد يعقوب منه، فكان ردهم غاية في الردع:

- ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ٩٥﴾ [يوسف: 95]

وما أدركوا ذلك وتيقنوا من علم أبيهم إلا بعد أن جاءه البشير وألقاه على وجهه فارتد بصيرا:

- ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٩٦﴾ [يوسف: 96]

وللحديث بقية

اللهم فاطر السموات والأرض أسألك وحدك أن تؤتيني رشدي وأن تعلمني الحق الذي أقوله فلا أفتري عليك الكذب، وأعوذ بك ربي أن يكون أمري كأمر فرعون، وأسألك وحدك أن تهديني إلى نورك الذي أبيت إلا أن تتمه ولو كره الكافرون، وأن تعلمني تفصيل الكتاب الذي أحكمت آياته من لدنك إنك أنت الحكيم الخبير – آمين

المدّكرون: رشيد سليم الجراح &علي محمود سالم الشرمان
بقلم: د. رشيد الجراح
14تشرين ثاني 2013
د. رشيد الجراح مركز اللغات
جامعة اليرموك



الجزء السّابع

من أين جاء قميص يوسف؟



الفصل السّابع : من أين جاء قميص يوسف

خلصنا في الجزء السابق إلى تقديم الافتراءات التالية:

1. كان البرهان الذي رآه يوسف فحال بينه وبين الوقوع في المعصية هو القميص
2. يعقوب هو من ألبس يوسف ذاك القميص يوم أن أرسله مع إخوته ليرتع ويلعب كجزء من ميراث النبوة
3. كان هذا القميص هو ما ستر الله به عورة إبراهيم يوم أن أخرجه من النار
4. انتقل هذا القميص من إبراهيم إلى إسحق ومن ثم إلى يعقوب، فلم يكن لأي منهما إخوة ينافسونه على ملكيته
5. كان ليعقوب أكثر من ولد فكان الأحق بالقميص هو يوسف من دون إخوته جميعا، ولم يستطع يعقوب أن يجزم بذلك إلا بعد أن قصّ يوسف خبر الرؤيا على أبيه.

وسنحاول في الأجزاء القادمة من هذا الكتاب الخاصة بقصة يوسف وفي بقية مقالاتنا المتعلقة بقصة موسى أن ندافع عن الافتراءات الخطيرة جدا التالية والتي سيظهر من خلالها الربط بين قصة يوسف (آخر أنبياء بني إسرائيل من سلالة إبراهيم المباشرة) وقصة موسى (أول رسول لبني إسرائيل بعد انقطاع طويل)

الافتراءات الجديدة

1. بالإضافة إلى القميص، كان هناك العصا التي استطاع إبراهيم بواسطتها الخروج من النار التي كانت جحيما (وهذه العصا هي التي كان يتنقل بواسطتها إبراهيم - كما سنفتري لاحقا- بين بيت المقدس والبيت المحرم – للتفصيل بداية انظر سلسلة مقالاتنا تحت عنوان: لماذا قدّم لوط بناته بدلا من ضيوفه؟)
2. بقيت تلك العصا في يد يعقوب حتى انتقل إلى أرض مصر، فانتهت تلك العصا في ملكية يوسف
3. بقيت تلك العصا وذلك القميص ضمن ممتلكات يوسف حتى هلك
4. عندما هلك يوسف لم يدرك الحاضرون أهمية تلك العصا وذلك القميص، فظنوا أنها من موروثات النبوة فقط، فلم تقع العصا والقميص في يد أحد، فظن الناس حينئذ أن الله لن يبعث رسولا من بعد يوسف، فكان يوسف هو آخر ألانبياء الذين جعل الله فيهم ورثة الكتاب والنبوة المباشرة (إبراهيم- إسحق- يعقوب- يوسف):

- ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾ [غافر: 34]

5. كانت تلك العصا وذلك القميص هي البينات التي جاءهم بها يوسف (وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ)

6. بقيت تلك البينات موروثات (من ممتلكات آل يعقوب)، فبقيت نعمة الله تامةً على يوسف وعلى آل يعقوب من بعده:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦﴾ [يوسف: 6]

7. لما أضاع بنو إسرائيل تلك الموروثات (ذلك القميص وتلك العصا) حصلت لهم العبودية في أرض مصر على يد الفراعنة
8. انتقلت تلك "الممتلكات" إلى بلاط الفراعنة بعد أن أزاحوا بني إسرائيل عن ملك مصر:

- ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٠﴾ [المائدة: 20]

فبالإضافة إلى النبوة، كان في بني إسرائيل الملك، وكانت تلك المقتنيات هي علامات الملك. وما أن انتقلت تلك المقتنيات إلى بلاط الفراعنة حتى أصبح الأمر لهم، فاستعبدوا بني إسرائيل في الأرض

9. بقيت العصا والقميص في بلاط الفراعنة الذين ربما لم يدركوا قيمتها إلا متأخرا
10. استقرت تلك الممتلكات في حوزة امرأة فرعون وأخيها ذي الكفل (انظر مقالتنا تحت عنوان: قصة موسى)
11. قضت الإرادة الإلهية أن يتربى طفل بني إسرائيل (موسى) في بلاط الفراعنة ليستعيد تلك الموروثات التي كانت في حوزة البلاط الفرعوني
12. قامت امرأة فرعون بإلباس موسى ذلك القميص منذ نعومة أظفاره، وأمسك موسى بتلك العصا فكان يتوكأ عليها، فنحن نفتري الظن بأن عين الله كانت ولا زالت على آياته على الدوام، وهو ما نفهمه من قوله تعالى لموسى:

- ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ۝٣٩﴾ [طه: 39]

وسنتعرض لهذه الجزئية بالتفصيل عند الانتقال للحديث عن موسى بحول الله وتوفيقه.

فالله أسأل أن يؤتيني رحمة من عنده وأن يعلمني من لدنه علما، إنه هو السميع المجيب - آمين

---

13. ما أن كبر موسى حتى أخذ العصا من بيت فرعون نفسه
14. أدرك الفرعون الأول حجم المؤامرة التي كانت تحاك ضده، فأخذ يبحث عن العصا والقميص
15. علم موسى أن فرعون قد يصل إليهما، فما كان منه إلا أن هرب بتلك المقتنيات القيّمة من بلاط فرعون الأول

16. خرج موسى من المدينة لابسا الثوب وممسكا العصا متوجها إلى الأرض المقدسة حيث آتاه الله هناك حكما وعلما عندما بلغ أشده واستوى:

- ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٤﴾ [القصص: 14]

وهو ما كان قد حصل ليوسف من ذي قبل:

- ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٢٢﴾ [يوسف: 22]

وقد كان إبراهيم من المحسنين من قبلهما:

- ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٠٥﴾ [الصافات: 105]

وقد كان إلياس من المحسنين. لتكون سلسلة المحسنين على النحو التالي:

إبراهيم --> يوسف --> إلياس --> موسى (وهارون).

- ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٢٣ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٢٤ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝١٢٥ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٢٦ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ۝١٢٧ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝١٢٨ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ۝١٢٩ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ۝١٣٠ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٣١﴾ [الصافات: 123-131]

17. أستمر الفرعون الأول يقتّل أبناء بني إسرائيل لعلمه بأن الأمر قد ينقلب عليه بين ليلة وضحاها (انظر قصة موسى: لماذا كان يقتل فرعون أبناء بني إسرائيل؟)
18. عاش موسى فترة هروبه الأول في الواد المقدس
19. بعد أن آتاه الله هناك حكما وعلما، عاد موسى إلى أرض مصر في فترة موت الفرعون الأول وكانت فترة اضطراب سياسي قبل أن يتقلد الفرعون الثاني ملك مصر، فدخل المدينة على حين غفلة من أهلها:

- ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ۝١٥﴾ [القصص: 15]

(انظر قصة موسى: فرعون الرسالة)

20. ما أن دخل موسى المدينة على حين غفلة من أهلها حتى وجد أن بني إسرائيل قد بدءوا المقاومة من جديد
21. حصل أن قتل موسى رجلا من آل فرعون وأراد أن يقتل الآخر عندما استغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه
22. كانت العصا هي ما وكز موسى الرجل بها
23. تآمر الملأ من آل فرعون على موسى مع قدوم الفرعون الجديد
24. جاء رجل من أقصى المدينة ليحذر موسى من تآمر الملأ به، وهو نفس الشخص والد الغلامين اليتيمين اللذين بنى لهما صاحب موسى الجدار في القرية (انظر: قصة موسى: باب العزير)

25. خرج موسى من المدينة خائفا يترقب فتوجه هذه المرة تلقاء مدين (أرض شعيب) حيث قضى سنين من عمره هناك
26. بعد أن قضى موسى الأجل في مدين، أخذ أهله وسار بهم باتجاه الواد المقدس
27. ما أن أشرف على ذلك المكان حتى آنس النار من جانب الطور الأيمن عند البقعة المباركة من الشجرة، وهناك حصلت المقابلة الأولى لموسى مع ربه
28. بدأ اللقاء بالخطاب أولا عن العصا:

- ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝١٧﴾ [طه: 17]

(انظر باب السامري)

29. لم ينتهي الحديث هناك بل انتقل إلى إدخال اليد في الجيب لتخرج بيضاء من غير سوء
30. أدخل موسى يده في جيبه فخرجت بيضاء من غير سوء وضم جناحه إليه من الرهب، فكانا برهانان من ربه إلى فرعون وملئه:

- ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝٣٢﴾ [القصص: 32]

وهنا بالضبط نجد التلاقي بين قصة موسى من جهة وقصة يوسف الذي سبقه في الزمن من جهة أخرى، ونقرأ هذا التلاقي في ذلك البرهان الذي رآه يوسف فحال بينه وبين الوقوع في الفاحشة:

- ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٢٤﴾ [يوسف: 24]

فكان ذلك البرهان – كما افترينا القول في الجزء السابق من هذا الكتاب- هو القميص.

وسنحاول في هذا الجزء من الكتاب أن نتابع حديثنا عن قصة يوسف، باحثين عن مصدر ذلك القميص (من أين جاء ذلك القميص؟)، مبتدئين النقاش في هذا الموضوع بالتساؤلات التالية:

⇐ كيف رأت النسوة يوسف على أنه ملك كريم؟
⇐ فهل كانت النسوة على معرفة بطلّة وشكل الملك الكريم حتى حصلت المقارنة بين يوسف (البشر) والملك الكريم بمجرد رؤيته؟
⇐ كيف شاهدت النسوة يوسف على تلك الهيئة (هيئة الملك الكريم) حتى نعتنه بتلك الصفة بمجرد أن خرج عليهن؟

- ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۝٣١﴾ [يوسف: 31]

⇐ وبكلمات أكثر دقة نحن نسأل: ما الفرق بين من هو من البشر (مثلي ومثلك) ومن هو ملك كريم (كيوسف)؟

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن لذلك علاقة مباشرة بذلك القميص. ولكن كيف ذلك؟

رأينا: لا شك أن الصورة الذهنية المسيطرة على ذهن الناس كافة عن الملك الكريم لا تخلو من فكرة اللون الأبيض، فنحن نتصور تلك المخلوقات على شكل الأجسام الطائرة ذات الأجنحة ولونها ناصع البياض، أليس كذلك؟

السؤال: ألا نستطيع أن نتصور يوسف بذلك اللون الناصع البياض الذي يشبه لون الملك الكريم؟ إن صح هذا المخيال، ألا يحق لنا أن نسأل حينئذ: من أين جاء ليوسف ذلك اللون الأبيض؟

رأينا المفترى: من ذلك القميص الذي كان يلبسه فيواري به سوءته

الدليل

نحن نظن أنه من أجل أن نستجلي الدليل على ذلك، فلابد من التعريج على حصل مع موسى يوم أن أدخل يده في جيبه، ولكن كيف يكون ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن بأنه ما أن أمر الله موسى بأن يدخل يده في جيبه:

- ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ۝١٢﴾ [النمل: 12]

حتى خرجت بيضاء من غير سوء. ولم يتوقف الأمر عن هذا الحد بل جاء الطلب الإلهي الآخر من موسى هو أن يضمم إليه جناحه من الرهب:

- ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ۝٣٢﴾ [القصص: 32]

السؤال: كيف أدخل موسى يده في جيبه فخرجت بيضاء من غير سوء؟ وكيف ضمّ موسى جناحه من الرهب إليه؟

رأينا المفترى الخطير جدا: نحن نتخيل ذلك بصورة الشخص الذي لبس الإحرام للطواف بالبيت العتيق، حيث طاف الرجل الأول الذي ألبسه الله ذلك القميص: إنه إبراهيم عليه أفضل الصلاة من الله وملائكته وعليه أفضل الصلاة والسلام منا.

افتراءات

لقد افترينا القول في الجزء السابق من هذا الكتاب أن يعقوب (والد يوسف) هو من ألبس ولده يوسف ذلك القميص يوم أن أرسله مع إخوته ليرتع ويلعب. ولما كان ذلك القميص من ميراث النبوة في ذلك البيت الطاهر وقد تأكد ليعقوب أن ميراث النبوة من حق يوسف بعد أن قص عليه خبر الرؤيا، افترينا القول أن القميص قد جاء من عند الله لإبراهيم يوم أن أخرجه من نار القوم الذي ألقوه فيه، فوارى الله بذلك القميص سوءة إبراهيم بعد أن كانت النار قد أكلت ما كان يلبس.

رأينا الجديد المفترى والأكثر خطورة: كان ذلك القميص هو ما كان يواري سوءة آدم في الجنة قبل أن ينزعه عنه الشيطان.

السؤال: وما علاقة هذا كله بقصة يوسف؟

جواب: كان اللون الأبيض مسيطرا على المشهد في حادثة مراودة النسوة ليوسف، وكان الجناح من الرهب متواجدا في المشهد نفسه. وسنتعرض لهذه الافتراءات بالتفصيل عند حديثنا عن مشروعية مناسك الحج: أصلها ومشروعيتها والحكمة منها بحول من الله وتوفيق منه.

فالله وحده أسأل أن ينفذ قوله بمشيئته وإرادته لي الإحاطة بشيء من علمه لا ينبغي لغيري إنه هو الحكيم الخبير.

أما الآن فسنحاول الوصول إلى ماهية ذلك اللون الأبيض الذي كان يلف يوسف ليواري سوءته عندما خرج على النسوة، ومن أجل المحاولة للإجابة على مثل هذا التساؤل، فإننا نظن أننا بحاجة للعودة إلى ما افتريناه في بعض مقالاتنا السابقة عن معنى العبارة (تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ) التي تتحدث عن يد موسى عندما أدخلها في جيبه. وقد زعمنا حينئذ أن لهذا علاقة بالسوءة التي بدت لآدم وزوجته بعد عصى آدم ربه عندما تقبلا نصيحة الشيطان لهما:

- ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾ [طه: 121]

كما نظن أن لها علاقة بتلك السوءة التي لم يستطع القاتل من ابني آدم أن يواريها لأخيه المقتول:

- ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المائدة: 31]

(للتفصيل انظر مقالتنا تحت عنوان: لماذا يدفن الناس موتاهم؟)

ولكن كيف ذلك؟

رأينا: عندما خلق الله آدم من طين:

- ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١﴾ [ص: 71]

لم يكن آدم بداية أكثر من بشر (أي سوءة)، ولكن ما أن نفخ الله فيه من روحه:

- ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٧٢﴾ [ص: 72]

حتى أصبح آدم مخلوقا نورانيا خالصا لأن من نفخ في سوءته هو نور السموات والأرض:

- ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٖ فِيهَا مِصْبَاحٌۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيْتُونَةٖ لَّا شَرْقِيَّةٖ وَلَا غَرْبِيَّةٖ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٞ ۝٣٥﴾ [النور: 35]

فاكتسبت تلك السوءة (الطين) النورانية من ذلك النفخ الإلهي المباشر. وقد خلق الله من ذلك الكائن النوراني زوجه:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبٗا ۝١﴾ [النساء: 1]

لعل هذه واحدة من الفروقات الجوهرية بين الرجال (الناس) والنساء، ففي حين أن مادة خلق الرجل أصلا هي التراب فإن مادة خلق المرأة هي ما نتج من الخلق من ذلك التراب. لذا يبقى تمسك الرجل بالتراب وحب الدنيا والميراث وغيرها أكبر بكثير من حب النساء لذلك.

فكان آدم وزوجه نورانيين في طلتهما وفي شكلهما، يسكنان الجنة في أمان:

- ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٣٥﴾ [البقرة: 35]

واستمرا يسكنان الجنة على تلك الهيئة حتى حصلت حادثة الأكل من الشجرة، فما أن أكل آدم وزوجه من الشجرة بوسوسة من الشيطان حتى بدت لهما سوءاتهما:

- ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝١٢١﴾ [طه: 121]

ولم يكن هدف الشيطان في ذلك يتجاوز إزالة تلك النورانية الإلهية عن آدم وزوجه، فنجح الشيطان في أن ينزع عن آدم وزوجه لباسهما ليريهما سوءاتهما:

- ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧﴾ [الأعراف: 27]

ليكونا فريسة سهلة له ولرجله وخيله فيجلبهم عليهم:

- ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ٦٤﴾ [الإسراء: 64]

ولم يكن ذلك ليتحصل لإبليس إلا بعد أن أصبح آدم وزوجه هدفا سهلا لإبليس لأنه يراهم من حيث لا يرونه:

- ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧﴾ [الأعراف: 27]

وما أن نزع عن آدم وزوجه ذلك اللباس وبدت لهما سوءاتهما حتى حلت العداوة محل الأمن الذي كان ينعمان به:

- ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ٣٦﴾ [البقرة: 36]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا (1): كان آدم وزوجه يسكنان الجنة وعليهم لباس يواري سوءاتهما، فاستطاع الشيطان أن ينزعه عنهما (يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا)، وكان آدم وزوجه يسكنان الجنة آمنين مادام لباسهما لم ينزع عنهما بعد، فذلك اللباس (نحن نفتري الظن) هو مصدر الأمان. (وسنتحدث عن هذا بحول الله بعد قليل).

النتيجة المفتراة من عند أنفسنا (2): عاد آدم وزوجه من تلك النورانية الخالصة التي ألبسهما إياها ربهما إلى طبيعتهما البشرية (التراب: الطين: الصلصال:) فظهرت سوءاتهما بانطفاء ذلك النور الإلهي بعد أن أكلا من تلك الشجرة، وبعد أن نجح الشيطان في أن ينزع عنهما لباسهما الذي كان يواري سوءاتيهما، فما عاد آدم يشبه تلك المخلوقات النورانية التي تركها (كالملائكة مثلا). فأصبح آدم بشرا ولم يعد كالملك الكريم (في طلته وهيئته).

السؤال: كيف نزع الشيطان عن آدم وزوجه لباسهما؟ وأين ذهب ذلك اللباس الذي كان يواري سوءاتهما؟

بهذه الافتراءات التي هي من عند أنفسنا، وبمثل هذه التساؤلات، نعود إلى قصة يوسف لنجد المقارنة واضحة بين البشر من جهة والملك الكريم من جهة أخرى في خطاب النسوة اللاتي رأين يوسف في الآية نفسها:

- ﴿فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ ٣١﴾ [يوسف: 31]

نتائج مفتراة

كان آدم بشرا (طين)
حصل النفخ الإلهي فيه، فاكتسب النورانية
خلقت زوجه من نفسه، فكانت كذلك
كان هناك لباس يواري سواءتيهما
تقبل أدم وزوجه نصيحة الشيطان، فنزع عنهما لباسهما (يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَا)
أصبح بالإمكان رؤية البشرية (الطين) في آدم وزوجه
لم يدخل آدم وزوجه في رحم امرأة، فبقيا بشرا خالصا
لم يمكث عيسى بن مريم في رحم أمه فترة تسعة أشهر حيث الظلمات الثلاث
خرج عيسى بشرا ولم يخرج إنسانا، فلم ينسى العهد الذي قطعه على نفسه
أصبح البشر يتكاثرون بالولادة، حيث يمكث الواحد منهم فترة تسعة أشهر في بطن أمه
يحيط بذلك المخلوق ظلمات ثلاث
ما أن يخرج ذلك المخلوق من بطن أمه حتى يكون قد نسى ذلك العهد الأول فيصبح بذلك إنسانا (من النسيان)

حاول – عزيزي القارئ- أن تتدبر هذه الافتراءات في ضوء ما يمكن لك أن تفهمه من السياقات القرآنية الثلاث التالية:

- ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ١٧٢﴾ [الأعراف: 172]
- ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ٦﴾ [الزمر: 6]
- ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨﴾ [النحل: 78]

ولكي يعوّض الله للإنسان ذلك النقص الذي اعتراه، أمده بالأدوات الثلاث التي يستطيع - إن هو أحسن استخدامها- أن يتغلب على ذلك النسيان الذي حصل له في بطن أمه، والأدوات الثلاثة هي: السمع والبصر والفؤاد (وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ).

افتراء من عند أنفسنا: ما أن يستخدم الإنسان سمعه كما أراده الله أن يستخدمه حتى يخرج بذلك من واحدة من الظلمات. وما أن يستخدم بصره بنفس الطريقة حتى يخرج من الظلمة الثانية. وما أن يستخدم فؤاده كما أمره الله حتى يخرج من الظلمة الثالثة، فيشكر به ربه كما أراده الله أن يشكره:

- ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝٧٨﴾ [النحل: 78]

اللهم اكشف الغشاوة عن بصري والوقر من أذني والأكنّة عن قلبي، واجعلني ممن يبصرون ويسمعون ويفقهون، فيعقلون - آمين.

(للتفصيل انظر سلسلة مقالاتنا تحت عنوان: كيف تم خلق عيسى بن مريم؟)

عودة على بدء بالافتراء التالي: البشر من طين والملك الكريم نورانيا

السؤال: من أين جاءت النورانية ليوسف حتى جاء تشبيه النسوة له من هذا الجانب؟

رأينا المفترى الخطير جدا: لما خرج يوسف على تلك النسوة كان لابساً ذلك القميص الذي جاء أصلا من الله ليستر به عورة إبراهيم عندما أخرجه من النار، وهو (في ظننا) ما كان يغطي به آدم سوءته قبل أن ينزعه عنه الشيطان، أي ما كان يلبس آدم في الجنة قبل المعصية:

- ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٢٧﴾ [الأعراف: 27]

وعندما راودت النسوة يوسف عن نفسه، لم ينزع يوسف ذلك القميص عنه، فبقي يواري سوءته، لذا فقد جاء اعتراف النسوة بذلك في نهاية القصة:

- ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾﴾ [يوسف: 51]

فالنسوة لم يعلمن على يوسف من سوء (مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ)، فما معنى ذلك؟ ما معنى أن النسوة لم يعلمن على يوسف من سوء؟

رأينا المفترى: لم تنكشف عورته (أي سوءته)، فما رأين من يوسف سوءة. فالسوء هنا – في زعمنا- لها علاقة مباشرة بالسوءة لأن من غير المنطقي أن يكون لها علاقة بشيء فعل يوسف وسلوكه على نحو ما زعم أهل الدراية من قبلنا، وذلك لأن يوسف لم يكن يخالط النسوة جميعا، والنسوة لم يعرفن يوسف من ذي قبل، فجل ما خبرنه من يوسف هو تلك الحادثة في بيت امرأة العزيز. لذا فإن السوء الذي لم يعلمنه على يوسف ذات علاقة مباشرة – برأينا- بالسوءة (انظر الرسم القرآني: سَوْءَاتِهِمَا **مقابل** سُوءٍ)

ثانيا، نحن نعلم أن الله قد صرف السوء والفحشاء عن يوسف، فكيف يكون ذلك؟ أي كيف يصرف الله السوء عن يوسف؟

رأينا: نحن نظن أن لذلك علاقة مباشرة بانكشاف السوءة، فمادام أن الله قد صرف عن يوسف الفاحشة فهو لم يقع بالزنا، ومادام أن الله قد صرف عنه السوء فهو برأينا لم تنكشف له عورة (مقدمة الزنا). فما وقع يوسف في فعل الزنا (وهو الفاحشة)، لم يقع يوسف في السوء (أي كشف العورة). فعورة يوسف لم تنكشف ولم يواقع النسوة في الفراش. انظر الترتيب كيف يسبق السوءُ الفاحشةَ حسب نص الآية نفسها:

- ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: 24]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: السوء هو انكشاف العورة كفعل مقدم للفاحشة. فما وقع يوسف في فعل السوء والفحشاء لأن ذلك ما يأمرنا الشيطان به:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [البقرة: 168-169]

ولكن لمّا كان يوسف يسير على منهج من سبقه من آباءه: إبراهيم فإسحق فيعقوب، ما كان له أن يتبع خطوات الشيطان الذي يأمر بالسوء والفحشاء لأنه من عباد الله المخلصين:

- ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: 24]

خروج عن النص في استراحة قصيرة

الحج: أركانه مشروعيته وحكمته:

واحد من الدروس التي تلقيتها خلال تعليمي المدرسي، واستحال عليّ أن أفهمها.

القصة: لا شك أني كنت خلال تعليمي المدرسي أحب درس (أو حصة كما نقول في لهجتنا الأردنية) الرياضة أكثر من درس التربية الدينية، فبالرغم أني لست من أصحاب الأجسام الرياضية، وبالرغم أني لم أكن أستطيع أن أنافس أقراني في أي نوع من أنواع الرياضة، وأن أكثر ما كنته أجيده في هذا الجانب هو أن أكون مع المشجعين على أطراف الملعب، ولكن بالرغم من هذا كلّه ظلّ درس التربية الرياضية أحب إلى قلبي من درس التربية الإسلامية، وربما يعود السبب في ذلك أننا لم نكن مطالبين بحفظ شيء بعد الانتهاء من درس التربية الرياضية، ولكن الأمر كان مختلفا تماما بالنسبة لدرس التربية الدينية، فما أن يفرغ المعلم من تلقينه إيانا ما كان يظن أنه علم شرعي واجب علينا تحصيله حتى تبدأ طلباته تنهال على رؤوسنا. وأظن أني لا زلت أذكر الدرس الذي كان (ولا زال) من المستحيل عليّ أن أحفظه كغيره من الدروس: إنه درس الحج.

فلقد بدأ المعلم – على ما أذكر أو أتذكر- بالحديث عن معنى الحج في اللغة والاصطلاح كالعادة، وعن تاريخ الحج عند المسلمين، فأسهب في ذلك ما شاء لنفسه أن يفعل، ثم انتقل بعد ذلك للحديث عن أركان الحج وسننه وكيفيته، وانتهى إلى الحديث عن الحكمة من مشروعيته والدروس المستقاة منه.

وكان أكثر ما أقلقني حينئذ هو طلب المعلم منا أن نحفظ كل ذلك- وهو ما لم أستطع عليه إلا ربما لغايات الامتحان، فما أن أفرغ من الامتحان حتى تكون معظم تلك المعلومات القيّمة قد تبخرت.

السؤال: لماذا؟

الجواب: لأنني بكل بساطة لم أفهم شيئا مما قاله المعلم، وكل ما كان عليّ فعله هو أن أقوم بعملية تخزين لتلك المعلومات الكثيرة لفترة في الذاكرة القصيرة حتى ينقضي الامتحان.

المعضلة: لعلي أجزم بأنه لو استطاع المدرس أن يجيب على بعض ما كان يجول في خاطري حينئذ لربما كان الأمر مختلفا بعض الشيء، ولربما استطعت أن احتفظ بشيء مما نقله المعلم لنا من ذلك العلم الشرعي منذ ذلك الزمن البعيد، وقد كان جل تساؤلاتي (التي لم أتلفظ بها حينئذ) يتمحور حول التساؤلات التالية:

1. لماذا يذهب الناس إلى مكة على وجه الخصوص لأداء فريضة الحج؟ أليس الذهاب إلى قبرص أو لارنكا أو جزر الباهاما (كما تروج لذلك شركات السياحة والسفر والحج) أكثر متعة؟
2. لماذا يلبس الناس (الرجال) ذلك اللباس الذي يسمّونه إحراما عندما يذهبون إلى هناك؟ أليس الجينز أكثر سترا للعورة وأكثر فاعلية في ذلك الازدحام الرهيب؟
3. لماذا يطوف الناس بذلك الحجر في ذلك الواد غير ذي الزرع؟
4. لماذا يحلق الناس أشعارهم حينئذ؟ ألم يكن بالإمكان عمل التسريحات الأكثر جمالا؟
5. لماذا لا تلبس النساء مثل ذلك اللباس (الإحرام) بالطريقة نفسها التي يلبس فيها الرجل؟
6. لماذا لا تقصر النساء من أشعارهن كما يفعل الرجال؟ أليس شعر المرأة في العادة أطول من شعر الرجل؟ ألا يوجد عند هؤلاء القوم صالونات نسائية؟
7. لماذا يحضر على المحرم (من يلبس ثوب الإحرام) أن يتوقف عن معاشرة النساء حتى يتحلّل منه؟
8. لماذا أحضر الحجاج لمعظم إخواني وأصدقائي أبناء جيلي بنادق (ومسدسات) أفضل وأكثر كفاءة من ذلك المسدس الصيني الصناعة (التالف قبل أن يستخدم) الذي أعطوني إياه بعد فرغوا من توزيع كل الهدايا على من هم أكثر شغبا مني؟ هل لأني كنت أسكت فلا أزعجهم بغض النظر عن ما يعطوني؟!
9. لماذا كان كل ما أحضر الحجاج من تلك الديار المقدسة موسوم بعبارة made in China؟ ألسنا نحن من أخبرنا معلّمنا بأننا خير أمة أخرجت للناس؟ ألا تستطيع هذه الأمة بخيريتها أن تصنع تلك السجادة التي يصلون عليها؟!
10. الخ

تساؤلات كثيرة لم أكن أستطيع أن أجد إجابة شافية لها منذ ذلك الحين.

السؤال: هل بالإمكان الخوض في بعض فقه الحج وأركانه ومشروعيته من جديد؟

جواب: هذا ما سنحاول أن نقحم أنفسنا فيه في هذه الصفحات بحول الله وتوفيق منه، وسنحاول ربط ذلك في نهاية الأمر بقميص يوسف من جديد. فالله أسأل أن يعلمنا الحق الذي نقول فلا نفتري عليه الكذب إنه هو السميع المجيب.

أما بعد

ما أن خرج إبراهيم من نار قومه، حتى كانت النار (كما نتخيلها) قد أحرقت ملابسه كلها، لأن الأمر الإلهي قد صدر للنار بأن تكون بردا وسلاما على إبراهيم فقط:

- ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ٦٨ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩﴾ [الأنبياء: 68-69]

لذا، نحن نفتري الظن بأن من نجا من النار هو إبراهيم فقط، ولم ينجو من النار ما لم يكن جزءا من إبراهيم، ولكن كيف ذلك؟

رأينا: لو سألت أحدكم سؤالا عن نفسه بالقول: هل تختلف أنت في كل مرة تلبس فيها لباسا جديدا؟ فهل إذا ما لبست أنا ثوبا أصبح رشيد، وإذا ما لبست ثوبا آخر أصبحت شخصا آخر؟

الجواب: كلا، فالشخص هو الشخص نفسه بغض النظر عن ملابسه. وما دام الأمر كذلك فإن الشخص يعرف بذاته دون ملابسه، فلا علاقة لملابسه به.

افتراء من عند أنفسنا (1): لذا لما كان الله قد أمر النار أن تكون بردا وسلاما على إبراهيم لم تكن النار بردا وسلاما على ما كان يلبس إبراهيم، فأكلت النار ملابس إبراهيم. فكان الكرم الإلهي على إبراهيم يتمثل بأن ألبسه قميصا ليستر به عورته بعد أن أنجاه بذاته من النار، فكان ذلك القميص (نحن نتخيل) يشبه في شكله وتفصيله ما كان يلبس آدم في الجنة قبل أن ينزع عنه الشيطان ذلك اللباس، ليريهما سوءاتهما. وربما نتجاوز في الافتراء لنقل أنه ربما هو نفس اللباس الذي كان يواري سوءة آدم في الجنة بعد أن نزعه عنه الشيطان.

السؤال: ولكن هل هذا كل ما أكلت النار من إبراهيم؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: كلا، فنحن نظن أن النار قد أكلت كل ما لا يؤثر على إبراهيم كشخص.

السؤال: مثل ماذا؟

جواب مفترى: الشعر. لقد أكلت النار شعر إبراهيم، فالإنسان بشعره (محلّق وغير محلّق) هو الشخص نفسه بغض النظر عن تسريحته، أليس كذلك؟

افتراء من عند أنفسنا (2): لمّا كان الله قد أمر النار أن تكون بردا وسلاما على إبراهيم لم يسلم من لهيبها شعر إبراهيم فأكلته النار كله، فخرج إبراهيم من النار بغير شعر يغطي جسمه ولكن خرج فقط بذلك الثوب الذي ستر الله به عورته به.

السؤال: وهل أكلت النار شيئا آخر من إبراهيم غير ملابسه وشعره؟

جواب: نعم، أظن أنها قد أكلت شيئا ما أظفاره (ولكن ليس كلها)، وهي الجزء الذي يمكن للإنسان أن يقصّره من أظفاره، فلا تزيد فيه ولا تنقص منه شيئا.

فقه الحج وشعائره

والآن، لمّا كان محمد هو أولى الناس بإبراهيم:

- ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [آل عمران: 68]

دخل محمد البيت الحرام مع صحبه البيت الحرام آمنين (يلبسون ثوب الإحرام) محلّقين رؤوسهم ومقصرين أظفارهم:

- ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ فَعَلِمَ مَا لَمۡ تَعۡلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتۡحٗا قَرِيبًا ٢٧﴾ [الفتح: 27]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن دخول إبراهيم البيت الحرام كان على تلك الشاكلة التي دخل بها محمد البيت الحرام (ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ) إن هذا يدعونا إلى السبب في وجود مفردة آمِنِينَ و لَا تَخَافُونَ في الآية ذاتها: آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ

ءَامِنِينَ : يلبسون ثوب الإحرام الأبيض

مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ

وَمُقَصِّرِينَ (أظفاركم)

افتراء من عند أنفسنا: نحن نعتقد أن الطواف بالبيت العتيق لم ينقطع يوما منذ أن طاف به إبراهيم نفسه، فهي من شعائر الله التي ابتدأها إبراهيم عند البيت الحرام، بعد أن أنجاه الله من النار، فبقيت ماثلة حتى يومنا هذا. لذا فإننا نعتقد أن ما يقوم به الحاج من الناس (أي الرجال) من لبس للإحرام (آمِنِينَ) وطواف بالبيت العتيق وهم (مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ) ليس أكثر من إتباع لنهج إبراهيم الذي طاف بالبيت العتيق على تلك الشاكلة، فنحن نتخيل إبراهيم قد لبس ذلك الثوب الأبيض الذي ألبسه إياه ربه عندما أخرجه من النار، فأصبح آمنا (بالضبط كما كان آدم وزوجه في الجنة قبل المعصية)، وطاف بالبيت العتيق محلقا شعره ومقصرا أظفاره التي أكلتها النار، لأنه عندما خرج من تلك النار لم يكن هناك – كما نتخيله- شعر يكسو جسمه، وكانت أظفاره قد تقصرت، فما بقي منه إلا إبراهيم بذاته، ولا شيء غيره، وما أن أمر الله إبراهيم أن يؤذن بالناس بالحج:

- ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ٢٦ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ٢٧﴾ [الحج: 26-27]

حتى قصد الناس ذلك المكان لأداء فريضة الحج، فذهبوا في رحلة إلى هناك دون بقاع الأرض كلها لأنه المكان الذي بوأه الله لإبراهيم. لم يقتصر على ذلك، فقد بوأ الله لبني إسرائيل أيضا مبوأ صدق:

- ﴿وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ٩٣﴾ [يونس: 93]

(وسنتعرض لهذه الجزئية لاحقا بحول الله وتوفيق منه)

فالله أسأل أن يعلمنى من لدنه علما لا ينبغى لغيري إنه هو السميع العليم

ولو راقبنا ذلك اللباس للإحرام لوجدنا الملاحظات التالية:

1- أنه لا يغطي كامل الجسم بالنسبة للرجل

ونحن نظن أنه لو كانت امرأة قد ألقيت في النار، وصدر الأمر الإلهي بأن تكون تلك النار بردا وسلاما عليها (كما في حالة إبراهيم)، لأخرجها الله مستورة العورة باللباس الذي كان يواري سوءة زوج آدم قبل أن ينزعه الشيطان عنها.

2- أنه لا يكون مخيطا

3- أنه يلبس بطريقة محددة، كما في الشكل التوضيحي التالي:



ونحن نظن أن الإجابة على هذه التساؤلات تكمن في تصور الهيئة التي كان عليها إبراهيم في طوافه بالبيت العتيق.

⇐ لم يكن الثوب ليغطي كامل الجسم لأنه جاء ليغطي عورة إبراهيم (فعورة الرجل لا تشمل ما لا يغطيه لباس الإحرام)

⇐ لم يخيط إبراهيم ذاك القميص ليبقى على الشاكلة التي جاءه بها من عند الله
⇐ لبس إبراهيم ذلك الثوب بطريقة تشبه الملك الكريم حيث البياض الناصع، ويكأن أطرافه كأجنحة الملائكة.

عودة على بدء: يوسف (ملك كريم)

افتراء من عند أنفسنا: على مثل تلك الهيئة أخرجت امرأة العزيز يوسف لتعرضه على تلك النسوة، فما أن رأينه حتى أكبرنه وقطعن أيديهن وشهدن جميعا على أن هذا الشخص الذي رأينه بأم أعينهن لا يشبه البشر في طلّته ولكنه يشبه الملك الكريم:

- ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [يوسف: 31]

ولو حاولنا أن نربط قصة موسى يوم أن أخرج يده من جيبه وضم إليه جناحه إليه من الرهب مع قصة يوسف يوم أن رأته النسوة لما خلا المشهد من البياض الذي لا سوء فيه:

- ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [القصص: 32]

فكما كانت خروج يد موسى من جيبه وضم جناحه إليه من الرهب برهانان إلى فرعون وملئه، كان قميص يوسف الذي يتلألأ (إنْ صح القول) يظهر فيه يوسف وكأنه ملك كريم، هو البرهان من ربه نفسه الذي رءاه فحال بينه وبين ما اشتهت نفسه عندما راودته المرأة وهمت به:

- ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: 24]

سؤال: إذا كان البياض هو ما يميز صفة الملك، فلم جاء خطاب النسوة عن يوسف على أنه ملك كريم (إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ)؟ فما معنى أن يكون الملك كريما؟ وما معنى مفردة "كريم" أصلا؟ فهل الكرم مرتبط بالعطاء والمال؟

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن الشيء (أي شيء) يمكن أن يكسب صفة أن يكون كريما إذا جاء من ارتفاع.

الدليل:

ها هي المرأة التي تملك قومها في سبأ يأتيها كتاب سليمان فيكون كتاب كريم:

- ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [النمل: 29]

ونحن نظن أن نعته بهذه الصفة (أي كريم) له علاقة بطريقة إلقاءه (من أعلى إلى أسفل). فالهدهد هو من ألقى ذلك الكتاب إلى تلك المرأة.

وها هو من ضل قومه، وكان فوقهم كفرعون مثلا الذي قال أن الأنهار تجري من تحته:

- ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الزخرف: 51]

فنصّب من نفسه إلها عليهم:

- ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [القصص: 38]

لن يكون مصيره إلا ما جاء في الآية الكريمة التالية:

- ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدخان: 49]

وربما يمكننا أن نفهم بعد ذلك لم ينعت عرش الرحمن بأنه عرش كريم:

- ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: 116]

وذلك لأن الكريم يعتلى ما دونه. فالشخص الكريم (الذي يعطي المال مثلا) يأتي كرمه ليس من إنفاقه ولكن لأن يده هي العليا ويد من يأخذ منه هي الدنيا.

ثانيا، لو تدبرنا الآية الكريمة التالية جيدا لوجدنا أن السماء هي مكان الرزق أصلا:

- ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات: 22]

ربما استطعنا بعد ذلك أن نتفهم التلازم بين مفردة الرزق ومفردة كريم في كثير من السياقات القرآنية:

- ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال: 4]
- ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنفال: 74]
- ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الحج: 50]

- ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٢٦﴾ [النور: 26]

فلا شك عندنا أن الرزق الكريم مصدره السماء إذا ما وضعنا الأمر في إطار قوله تعالى:

- ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ٢٢﴾ [الذاريات: 22]

لذا نحن نتخيل أن يوسف كان في نظر تلك النسوة ملكا كريما لأنه كان على هيئة النازل من أعلى، أو لربما ويكأن ما كان يواري سوءته حينئذ ويكأنه شيء قد نزل من السماء. ونحن نظن مفترين القول من عند أنفسنا أن هذا كان سببا رئيسا في أن تراود النسوة جميعا يوسف عن نفسه، ألم يخطر ببال أحدنا السؤال التالي: لم لم تمنع واحدة من النساء نفسها عن مراودة يوسف؟ هل "سحرهن" يوسف جميعا؟ ألم تستطع (على أقل تقدير) أحدهن أن تفلت من ذلك "السحر"؟

رأينا: عندما وقفن جميعا في حضرة الملك للتحقيق في الحادثة في نهاية قصة يوسف، لم تنكر أحد منهن أنهن جميعا قد راودن يوسف عن نفسه فعلا، فجاء الخطاب صريحا على لسان الملك:

- ﴿قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٥١﴾ [يوسف: 51]

ونحن نظن أن في هذا شهادة بذكاء امرأة العزيز، فلربما من أجل هذا خططت امرأة العزيز الحادثة برمتها لتضع عن نفسها عبّ التهمة، ولتلصقه بمجموع النساء (الحاضرة منهن والغائبة):

- ﴿قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ٣٢﴾ [يوسف: 32]

فنحن نفهم من قول امرأة العزيز بهذه الصيغة (فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ) أنها لا تلام وحدها في مراودتها ليوسف، وأن الأمر كان خارجا عن نطاق تحملها كامرأة، لأن كل نساء الأرض (الحاضرات منهن والغائبات عن تلك المائدة الشهيرة التي أعدتها لهن) لن يترددن في مراودة يوسف عن نفسه متى ما رأين يوسف على تلك الشاكلة، وأنا على يقين أنه لو أن أمي (رحمها الله) نفسها قد شاهدت يوسف على تلك الشاكلة لما ترددت أن تراوده عن نفسه، ولما لُمتها أنا في ذلك.

السؤال: كيف حصلت مراودة النسوة جميعا ليوسف عن نفسه؟ إذا كنا نستطيع أن نفهم كيفية مراودة امرأة العزيز ليوسف مادام أنه فتاها:

- ﴿۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٣٠﴾ [يوسف: 30]

وما دام أنه متواجد أصلا في بيتها:

- ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٢٣﴾ [يوسف: 23]

فكيف يمكن أن نفهم أن جميع النسوة اللاتي رأين يوسف على تلك الشاكلة قد راودنه عن نفسه؟ فهل أخذت كل واحدة منهن يوسف إلى بيتها لتراوده عن نفسه هناك؟ هل خلا يوسف بكل واحدة منهن؟ أم هل حصلت حفلة جماعية من المراودة؟

رأينا: للإجابة على مثل هذه التساؤلات لابد من العودة لفهم بعض تفاصيل القصة بالترتيب الذي حصلت فيه، ولكن كيف ذلك؟

جواب: دعنا نلحظ ما حصل عندما رأت النسوة يوسف وقد أخرجته امرأة العزيز عليهن:

- ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۝٣١﴾ [يوسف: 31]

السؤال: ما الذي حصل عندما خرج يوسف على النسوة كما جاء في هذه الآية الكريمة؟

الجواب: ثلاثة أشياء متتالية وهي:

1. أَكْبَرْنَهُۥ
2. وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ
3. وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ

السؤال: ما الذي يمكن أن نستنبطه من حدوث هذه الأمور الثلاث على هذا الترتيب؟

افتراء من عند أنفسنا: يمكن من خلال ذلك أن نلقي بجل ما جاءنا من عند أهل الدراية من تفسيرات عن قصة تقطيع النسوة أيديهن على لسان أهل الرواية في ____________.

السؤال: وكيف ذلك؟

جواب: نحن نظن أن لا علاقة لرؤية يوسف بتقطيع النسوة أيديهن. وأن تقطيع الأيدي لم يكن بسبب رؤية يوسف وذلك لو أن الأمر كان على تلك الشاكلة لجاء الترتيب في ظننا على النحو التالي:

1. قطعن أيديهن
2. أكبرنه
3. قلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم

وبكلمات بسيطة نقول لو أن تقطيع النسوة لأيديهن كان بسبب رؤية يوسف لما أكبرنه قبل أن يقطعن أيديهن. ولو أن تقطيع الأيدي كان بسبب رؤية يوسف لما حصل ذلك الخطاب المريح منهن (**وَقُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ**) بعد أن كانت كل واحدة منهن منشغلة بيدها التي قطعتها. ولكن هذا يتطلب منا الخوض في معاني هذه المفردات لفهمها كما يجليها النص القرآني نفسه لا كما نريدها نحن لتركب من خلالها حكاية نسجتها عقولنا وألزمنا كتاب الله بها، وهو (في ظننا) منها براء.

هذا ما سنحاول الخوض فيه في الجزء القادم من هذا الكتاب.

سائلين الله وحده أن يهدينا رشدنا وأن ينفذ قوله بمشيئته لنا بأن لا يكون أمرنا كأمر فرعون، وأن ينفذ قوله بإرادته لنا بأن يهدينا إلى نوره الذي أبى إلا أن يتمه ولو كره الكافرين، وأن يهدينا إلى الحق فلا نفتري عليه الكذب إنه هو الحكيم الخبير- أمين.

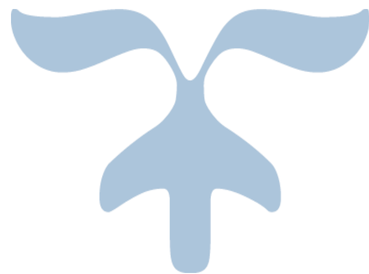
وللحديث بقية

المدّكرون: رشيد سليم الجراح &علي محمود سالم الشرمان
بقلم: د. رشيد الجراح
20تشرين ثاني 2013



الجزء الثّامن

"فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ"



الجزء الثّامن : فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ

خلصنا في الجزء السابق إلى تقديم الافتراءات التالية:

1. كان القميص الذي لبسه يوسف وخرج به على تلك النسوة هو من موروثات النبوة الذي جاء يعقوب من عند والده إسحق وهو الذي ورثه بدوره عن أبيهم جميعا إبراهيم
2. كان ذلك القميص هو ما ستر الله به سوءة إبراهيم بعد أن أخرجه من نار قومه
3. كان ذلك القميص هو نفسه القميص الذي كان يلبسه آدم في الجنة قبل أن ينجح الشيطان في أن ينزعه عنه
4. كان يعقوب هو من ألبس يوسف ذاك القميص بعد أن تأكد له من رؤيا يوسف بأن يوسف هو الأحق بتلك الموروثات من دون أولاده جميعا
5. خرج يوسف لابسا ذلك القميص مع إخوته ليرتع ويلعب
6. حافظ يوسف على ذلك القميص
7. راودته امرأة العزيز عن نفسه، فهمت به، فخلعت جميع ملابسها وتجهّزت له بعد أن غلّقت عليه الأبواب
8. حاول يوسف في أكثر من مرة أن يقاوم مراودتها له ونجح في ذلك
9. في المرة الأخيرة لم يستطع يوسف أن يمنع نفسه عنها بعد أن كانت قد همّت به، فما كان منه إلا أن يهمّ بها
10. بدأ يوسف بخلع ملابسه شيئا فشيئا ليقع في المحظور
11. ما أن وصل يوسف إلى ذلك القميص الذي يغطي عورته حتى رءاه (ولم تكن هي قد رأته بعد) حتى تذكر على الفور بأنه وريث تلك السلالة الطيبة التي ما كان لهم أن يشركوا بالله من شيء:

- ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٣٨﴾ [يوسف: 38]

12. هرب يوسف من الموقف، فلحقت به المرأة على الفور، فقدّت قميصه من الدبر
13. عابت نسوة المدينة على امرأة العزيز فعلتها تلك، فما يكون لامرأة كامرأة العزيز (بمنطق النسوة اللاتي لا زلن غائبات عن المشهد) أن تراود فتاها عن نفسه، فاعتبرن ذلك من باب الضلال المبين:

- ﴿۞ وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٣٠﴾ [يوسف: 30]

14. كانت امرأة العزيز غاية في الذكاء والدهاء والحنكة، فخططت أن تُوقع النسوة جميعا في الفخ نفسه، ليرين بأم أعينهن لم فعلت ذلك بنفسها
15. أرسلت امرأة العزيز إلى تلك النسوة وجمعتهن عندها، وأخرجت يوسف عليهن:

- ﴿فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ ... ٣١﴾ [يوسف: 31]

16. ما أن رأت النسوة يوسف على تلك الشاكلة حتى حصل ما كانت امرأة العزيز قد خططت له: أن تفتن النسوة جميعا بذلك الفتى فيراودنه عن نفسه كما فعلت هي من ذي قبل. وبالفعل حصل لها ما أرادت:

- ﴿... فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۝٣١﴾ [يوسف: 31]

17. رأت تلك النسوة يوسف على أنه ملك كريم وكان ذلك في ظننا هو السبب الذي من أجله راودنه جميعا عن نفسه.

وكنا قد أثرنا في نهاية الجزء السابق من هذا الكتاب التساؤلات التالية:

⇐ لم لم تمنع واحدة من تلك النسوة نفسها عن مراودة يوسف؟
⇐ هل "سَحَرهُن" يوسف جميعا؟
⇐ ألم تستطع (على أقل تقدير) أحدهن أن تفلت من ذلك "السحر"؟
⇐ لِمَ لَمْ تستطع أي واحدة منهن أن تنكر أنها قد راودت يوسف عن نفسه عندما وقفن جميعا في حضرة الملك للتحقيق في الحادثة في نهاية قصة يوسف؟

- ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٥١﴾ [يوسف: 51]

السؤال: فما الذي حصل فعلا؟ كيف وقعت النسوة جميعا في هذا الشرك؟ وكيف حصلت المراودة ليوسف من قبل النسوة جميعا؟

هذا بالضبط ما سنحاول النبش فيه في الصفحات القادمة في هذا الجزء من الكتاب سائلين الله وحده أن يؤتينا رشدنا، وأن لا يكون أمرنا كأمر فرعون، ونسأله وحده أن يعلمنا الحق الذي نقول فلا نفتري عليه الكذب، وأن يهدينا إلى نوره الذي أبى إلا أن يتمه ولو كره الكافرون إنه هو السميع المجيب - آمين).

أما بعد

نحن نظن أن ما حصل بين يوسف من جهة ونسوة المدينة من جهة أخرى كان بسبب ذكاء (لا بل لنقل دهاء) امرأة العزيز نفسها. فهي من خططت الحادثة برمتها، وذلك من أجل هدف واحد فقط ألا وهو : لتضع عن نفسها عبّء التهمة، ولتلصقه بمجموع النساء (الحاضرة منهن والغائبة):

- ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ۝٣٢﴾ [يوسف: 32]

فنحن نفتري فهم قول امرأة العزيز الذي جاء بهذه الصيغة (فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ) على أنها لا تلام وحدها في مراودتها ليوسف، وأن الأمر كان خارجا عن نطاق تحملها كامرأة، لأن كل نساء الأرض (الحاضرات

منهن والغائبات عن تلك "المائدة الشهيرة" المزعومة التي أعدتها لهن) لن يترددن في مراودة يوسف عن نفسه متى ما رأينه على تلك الشاكلة. ولكن هذا يتطلب منا الخوض من جديد في كيفية سير أحداث تلك القصة، لنستطيع أن نربط الأحداث بعضها ببعض بطريقة لا تبقي التناقضات تسيطر على مخيالنا عن ما حدث على أرض الواقع. وفي هذا الجانب لابد أن أؤكد من جديد على موقفنا المبدئي العقائدي التالي:

أولاً، نحن نظن أن تفسير أي قصة في كتاب الله يجب أن يجيب على كل التساؤلات التي تدور في أذهان الناس، وأن قوة أي تفسير يرتبط بمقدار ما يجيب من تلك التساؤلات، فالتفسير الأقوى هو الذي يحل إشكالات أكثر بطريقة لا تدع مجالا للتناقضات. لذا فإن الدعوة مفتوحة لكل إنسان (بغض النظر عن العقيدة التي يؤمن بها) أن لا يتردد أن ينتقد طرحنا هذا بإثارة كل تساؤل ربما يخطر على باله، فإن لم يجد إجابة شافية لتساؤلاته فليضرب بقولنا هذا عرض الحائط، وليبحث عن ما هو أجدر بالأخذ والقبول مما نفتري من قول من عند أنفسنا. أما إن وجد أن طرحنا يجيب على تساؤلات أكثر من تفسيرات غيرنا، فإن الحجة عندنا ربما تقام عليه إن هو بقي متمسكا بموروثات قد أكل عليها الدهر وشرب (كما يقولون بلسانهم العربي الذي ربما لا نفهمه).

ثانيا، نحن نظن أن في طرحنا التالي ربما نصل إلى أحكام غاية في الخطورة قد تمس جوهر العقائد، لذا فإن الأخذ بها يتطلب توافر ما يكفي من الدليل ليثبتها. لذا ننصح القارئ الكريم أن يكون حذرا في قبولها إن هو آثر متابعة القراءة أصلا. أما من كان همّه أن يحافظ على موروثات آباءه وأجداده فإن نصيحتنا الأولى والأخيرة له كانت على الدوام تتمثل بأن لا يتابع القراءة بعد هذه السطور.

وبهذه المنهجية، نستعرض أولا بعض ما سنناقشه من افتراءات في هذا الجزء من الكتاب:

1. لم تُعدّ امرأة العزيز مأدبة من الطعام للنسوة
2. لم تقدم لهن الفاكهة التي تحتاج أن تقشر بالسكين
3. لم تمسك النسوة بالسكين لتقطيع أي نوع من الفاكهة
4. لم تقطّع النسوة أيديهن بسبب رؤية يوسف، فلا علاقة لتقطيع النسوة أيديهن برؤية يوسف
5. لم يكن تقطيع النسوة أيديهن حدثا لا إراديا، وإنما كان فعلا إراديا مقصود لذاته. فالنسوة قطعن أيديهن عن قصد.
6. هناك علاقة بين حد السرقة التي تكون عقوبته تقطيع الأيدي وما فعلته تلك النسوة
7. الخ.

ومن أجل أن نحاول أن نثبت افتراءاتنا هذه، دعنا نبدأ النقاش بالتساؤل المثير التالي: كيف حصلت مراودة النسوة جميعا ليوسف عن نفسه؟ فإذا كنا نستطيع أن نفهم كيفية مراودة امرأة العزيز ليوسف مادام أنه فتاها:

- ﴿۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ [يوسف: 30]

وما دام أنه متواجد أصلا في بيتها:

- ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يوسف: 23]

فكيف يمكن أن نفهم أن جميع النسوة اللاتي رأين يوسف على تلك الشاكلة قد راودنه عن نفسه؟ فهل أخذت كل واحدة منهن يوسف إلى بيتها لتراوده عن نفسه هناك؟ هل خلا يوسف بكل واحدة منهن؟ أم هل حصلت حفلة جماعية من المراودة؟

رأينا: للإجابة على مثل هذه التساؤلات لابد من العودة لفهم بعض تفاصيل القصة بالترتيب الذي حصلت فيه، ولكن كيف ذلك؟

جواب: دعنا نلحظ ما حصل عندما رأت النسوة يوسف وقد أخرجته امرأة العزيز عليهن:

- ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [يوسف: 31]

إن تدبر هذه الآية بالدقة التي يتطلبها تدبر كتاب الله، تدعونا بداية إلى إثارة التساؤل التالي على الفور: ما الذي حصل عندما خرج يوسف على النسوة كما جاء في هذه الآية الكريمة؟

الجواب: ثلاثة أشياء متتالية وهي:

1. أَكْبَرْنَهُ
2. وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ
3. وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ

وهنا نبادر أي قارئ للنص القرآني بالتساؤل التالي: ما الذي يمكن أن نستنبطه من حدوث هذه الأمور الثلاث بهذا الترتيب الواضح في كتاب الله؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: يمكن من خلال ذلك أن نلقي بعد قليل بجل ما جاءنا من تفسيرات عن قصة تقطيع النسوة أيديهن من عند أهل الدراية على لسان أهل الرواية في ____________.

السؤال: وكيف ذلك؟

جواب: نحن نظن أن لا علاقة لرؤية يوسف بتقطيع النسوة أيديهن، وأن تقطيع الأيدي لم يكن بسبب رؤية يوسف، فرؤية يوسف وتقطيع الأيدي حدثان منفصلان لم يكن أحدهما سبب والآخر نتيجة له إطلاقا. وذلك لو أن الأمر كان على تلك الشاكلة، لربما جاء الترتيب في ظننا على النحو التالي:

4. قطعن أيديهن
5. أكبرنه
6. قلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم

وبكلمات بسيطة نقول لو أن تقطيع النسوة لأيديهن كان بسبب رؤية يوسف لما أكبرنه قبل أن يقطعن أيديهن. ولو أن تقطيع الأيدي كان بسبب رؤية يوسف لما حصل ذلك الخطاب المريح منهن (وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ) بعد أن كانت كل واحدة منهن منشغلة بيدها التي قطعتها. ولكن هذا يتطلب منا الخوض في معاني هذه المفردات لفهمها كما يجليها النص القرآني نفسه لا كما نريدها نحن لنركّب من خلالها حكاية نسجتها عقولنا وألزمنا كتاب الله بها، وكتاب الله هو (في ظننا) منها براء كما في التفسير المقتطف التالي:

فلما سمعت بمكرهن" غيبتهن لها "أرسلت إليهن وأعتدت" أعدت "لهن متكئا" طعاما يقطع بالسكين للاتكاء عنده وهو الأترج "وآتت" أعطت "كل واحدة منهن سكينا وقالت" ليوسف "اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه" أعظمنه "وقطعن أيديهن" بالسكاكين ولم يشعرن بالألم لشغل قلبهن بيوسف "وقلن حاش لله" تنزيها له "ما هذا" أي يوسف "بشرا إن" ما "هذا إلا ملك كريم" لما حواه من الحسن الذي لا يكون عادة في النسمة البشرية وفي الحديث (أنه أعطي شطر الحسن)

باب تقطيع الأيدي

التساؤلات

⇐ متى قطعت النسوة أيديهن؟
⇐ لماذا قطعت النسوة أيديهن؟
⇐ كيف قطعت النسوة أيديهن؟
⇐ ما فائدة تقطيع النسوة لأيديهن؟
⇐ ماذا فعلت النسوة بعد أن قطعن أيديهن؟
⇐ ماذا كانت ردة فعل أزواج تلك النسوة عندما رءاوا أزواجهن وقد قطّعن أيديهن بسبب ذلك الفتى؟
⇐ الخ.

رأينا المفترى: نحن نفتري القول بأن النسوة لم يقطعن أيديهن بمجرد رؤية يوسف وهو يخرج عليهن، وذلك لأن ردة فعل النسوة الأولى على رؤية يوسف لم تكن تقطيعهن أيديهن وإنما إكباره، انظر النص القرآني جيدا:

- فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ

فتقطيع الأيدي كان لاحقا للإكبار وليس لرؤية يوسف المباشرة. وهنا لابد من إثارة التساؤل التالي: ما معنى " أَكْبَرْنَهُۥ "؟ فكيف أكبرت النسوة يوسف؟ وما علاقة ذلك بتقطيعهن أيديهن؟

جواب: نحن نظن أنه ما أن رأت تلك النسوة يوسف حتى أَكْبَرْنَهُۥ. لهذا تكون رؤية يوسف هي السبب والنتيجة الفورية لتلك الروية هي إكبارهن إياه (فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ)

وهنا يأتي التساؤل المثير التالي: ما الذي حصل عندما أكبرت النسوة يوسف؟

للإجابة على هذا التساؤل فلابد من إثارة تساؤلات أخرى مرتبطة بهذا الموضوع مثل: لماذا قطعت النسوة أيديهن بعد أن أكبرن يوسف؟ ولم لم يحصل تقطيع الأيدي بعد أن رأين يوسف مباشرة وقبل أن يكبرنه، كأن يكون النص القرآني على النحو التالي مثلا:

- **فلما رأينه قطعن أيديهن وأكبرنه**

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن السبب لتقطيع النسوة أيديهن هو إكبارهن ليوسف وليس لرؤيته، لذا جاء فعل الإكبار تابعا لفعل الرؤية وغير مفصول عنه بحرف عطف (فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ) بينما جاء فعل تقطيع الأيدي لاحقا لفعل الإكبار ومفصولا عنه بحرف عطف (أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ). انظر السياق القرآني كله:

- **فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ**

السؤال: وما الفرق؟

جواب: إن هذا يتطلب منا الخوض في معنى المفردة نفسها (أَكْبَرْنَهُۥ). فكيف نفهم معنى مفردة أَكْبَرْنَهُۥ في هذه الآية الكريمة؟

افتراء خطير جدا من عند أنفسنا: نحن نظن أن تقطيع النسوة لأيديهن كان فعلا إراديا مقصود لذاته، فالنسوة لم يفعلن ذلك كردة فعل آنية، وإنما فعلن ذلك عن دراية ووعي تام منهن. ولكن كيف ذلك؟

رأينا: عندما أرسلت امرأة العزيز للنسوة اللاتي لُمْنها في يوسف، كان الأمر بينهن عبارة عن صراع لتثبت لهن فيه بالبرهان العملي أنها لا تلام وحدها عليه، وكان منطقها (في تصورنا) على نحو أن من تلومها في يوسف فإن عليها أن تتحمل رؤيته فلا تراوده عن نفسه، فإن هي فعلت فقد كسبت الرهان، وإن هي لم تقدر إلا أن تراود يوسف عن نفسها، فقد خسرت الرهان.

افتراء خطير من عند أنفسنا: ونحن نفتري الظن أيضا بأن منطق امرأة العزيز هذا كان مشروطا بتقطيع الأيدي، ولكن كيف ذلك؟

رأينا: عندما حضر النسوة اجتماع امرأة العزيز كان التحدي واضحا في خطابها بأنه لا يمكن أن تلام على ما فعلت، ومن تستطيع أن تقاوم سحر هذا الفتى فلتترك المجلس وتغادره كاسبة الرهان، ولكن من لا تستطيع منهن أن تقاوم سحر هذا الفتى وترغب في مراودته متى ما رأته فعليها أن تقوم بفعل واحد وهو أن تقطع يدها، لذا فنحن نفتري الظن بأن امرأة العزيز هي من طلبت من النسوة أن يقطعن أيديهن إن هن خسرن الرهان وأردن مراودة يوسف عن نفسه كما فعلت هي.

الدليل

بداية نحن نفهم أن امرأة العزيز كانت امرأة ذات شأن في قومها، فهي قبل كل شي امرأة العزيز نفسه، لذا فإن من الصعب أن تتفهم النسوة اللاتي لازلن غائبات عن المشهد أن لا تستطيع امرأة العزيز بجمالها ونفوذها أن تحصل على ما تريد من واحد من فتيانها، أليس في هذا تقليل من مكانتها؟

ثانيا، لم يكن يوسف أكثر من فتى للمرأة، فكيف يمكن لفتى أن يقاوم طلب من "يملكه" إن صح القول؟ أليس في هذا تقليل من شأن امرأة العزيز ونفوذها؟

ثالثا، إذا الحديث عن امرأة العزيز ممكنا في غيابها، فهل يكون ذلك أمرا سهلا في حضورها؟ فإن كانت النسوة قد ذكرنها بما لا يلق في غيابها، أليس من غير المستساغ أن يحدث ذلك بحضورها؟ لم لم تنكر الحاضرات (نحن نتخيل فقط) أنها قد ذكرتها بسوء في غيابها؟ ألم تستطع بعض النسوة اللاتي تحدثن عنها في غيابها أن ينكرن في حضرتها ما كن قد قلنه عنها من ذي قبل؟ وهنا نطرح التساؤل التالي: لم لم تنكر النساء في حضرة امرأة العزيز أنهن قد قلن عنها شيئا معيبا؟

رابعا، لم لم تنكر امرأة العزيز في حضور النسوة مراودتها لفتاها عن نفسه؟ ألم تفعل ذلك أمام سيدها عندما ألفياه لدى الباب من ذي قبل:

- ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ [يوسف: 25]

السؤال: لم فضحت امرأة العزيز أمرها بنفسها أمام النسوة على وجه الخصوص؟ ولم لم تصر أمام النسوة على شهادتها السابقة بأن يوسف هو من أراد بها سوءا؟

رأينا: ربما يجد المتدبر للنص القرآني بكل يسر وسهولة أن امرأة العزيز كانت أكثر إصرارا على مراودة يوسف عن نفسه أمام النسوة اللاتي لُمنها على ذلك، فقد اتخذت على نفسها عهدا بأن يسجن يوسف إن لم يفعل ما تأمره به:

- ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [يوسف: 32]

نتيجة: لقد أحضرت امرأة العزيز النسوة إلى بيتها لتعترف بملء فيها لهن بأمرين اثنين:

أنها هي من راودت يوسف في سابق الأيام عن نفسه وأنه هو من استعصم: وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسَتَعْصَمَ

أنها لازالت مصرّة على ذلك في قادم الأيام وأن مصيره السجن إن لم يفعل ما تأمره: وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ.

السؤال: لماذا فعلت امرأة العزيز ذلك أمام النسوة على وجه التحديد؟ ولم لم تفعل ذلك أمام سيدها مثلا؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أنه بإمكاننا أن نستنبط الإجابة على هذا التساؤل من الآية الكريمة التالية التي جاءت على لسان يوسف نفسه في العبارة التالية: إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ

- ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾ [يوسف: 50]

نعم، إنه الكيد. لقد دبرت امرأة العزيز مع تلك النسوة المكيدة ليوسف. ولكن ما علاقة ذلك باعتراف امرأة العزيز بمسؤوليتها أمام النسوة فقط؟ وما علاقة هذا كله بفعل تقطيع النسوة لأيديهن؟ وما علاقة هذا كله بمعنى مفردة أَكْبَرْنَهُۥ التي جاءت في السياق القرآني الذي لازلنا نتحدث عنه.

رأينا المفترى: نحن نظن أن المكيدة هي أمر مدبّر مسبقا لا يعلم به إلا الله ومن دبره، كما فعل إخوة يوسف عندما كادوا لأخيهم. فالله هو من كان يعلم ما دبّر الإخوة لأخيهم، ولم يكن أحد من البشر يعلم بذلك

إلا الإخوة أنفسهم لأنهم هم من دبروا الأمر بينهم. لذا لم يكن يعلم به إلا الله والإخوة أنفسهم. فكان مكيدة. ولو أن غيرهم من البشر كان مطلعا على ما خططوا له لما أصبح مكيدة أصلا.

نتيجة: المكيدة هي أمر مدبر بين مجموعة محددة بذاتها لا يطلع عليه إلا الله وأفراد المجموعة نفسها. لهذا نحن نتجرأ على تقديم الافتراء التالي: لقد دبرت النسوة مكيدة ليوسف ولم يعلم بها إلا الله:

- إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ

السؤال: ماذا كانت تلك المكيدة؟

رأينا المفترى (1): نحن نظن أن المكيدة كانت تكمن في مفردة "أَكْبَرْنَهُ":

- فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ

السؤال: كيف يكون ذلك؟

جواب مفترى: نحن نظن أن المكيدة تكمن في إحداث تدبير محدد بذاته من بين خيارات عديدة متوافرة. فعندما كاد الإخوة ليوسف كان أمامهم خياران: القتل أو الطرح أرضا:

- ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾ [يوسف: 9]

ولا شك عندنا أن الإخوة قد تجادلوا بالأمر طويلا حتى استقر رأيهم في نهاية المطاف عند أحد الخيارين كما صاغه أحدهم:

- ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [يوسف: 10]

وها هو إبراهيم نفسه يكيد لأصنام القوم:

- ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأنبياء: 57]

فلا شك عندنا أن الخيارات كانت متاحة عديدة أمامه، ولكنه اختار أن يجذّذهم إلا كبيرهم:

- ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنبياء: 58]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن الكيد هو واحد من الخيارات المتاحة بين أيدي من كاد لغيره. لذا لما كانت الخيارات المتاحة أمام إخوة يوسف هي القتل أو الطرح أرضا، كان قتل يوسف هو كيد وكان طرحه أرضا هو كيد آخر، وما فعله الإخوة هو أحد الكيدين، وما فعله القوم بإبراهيم هو كيد لأنه كان واحد من بين الخيارات العديدة المتاحة، فكان كيدهم يتمثل في حرقه:

- ﴿قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِي ٱلْجَحِيمِ ۝٩٧ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ۝٩٨﴾ [الصافات: 97-98]

وكان تجذيذ إبراهيم لأصنام القوم إلا كبيرا لهم هو كيد:

- ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ۝٥٧ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۝٥٨﴾ [الأنبياء: 57-58]

ولكن شتان بين ما اختاروا هم من كيد لإبراهيم وما ما أراده الله من كيد بهم بالمقابل:

- ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥﴾ [الطارق: 15]

نتيجة: الكيد هو أحد الخيارات المتاحة للمتآمرين لا يعلم به إلا الله ومن دبر الأمر من أفراد المجموعة نفسه. لذا فإن امرأة العزيز قد دبرت مع أولئك النسوة كيدا بيوسف، لهذا نجد أن يوسف يقر بكيدهن:

- إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ

فيطلب من الله نفسه أن يصرف ما وقع عليه اختيارهن من خيار:

- ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٣٣﴾ [يوسف: 33]

السؤال: ماذا كان كيد النسوة الذي طلب يوسف من ربه أن يصرفه عنه؟

رأينا المفترى (2): نحن نظن أن كيد النسوة كان يتمثل في مفردة " أَكْبَرْنَهُ "

السؤال وكيف ذلك؟

افتراء خطير جدا من عند أنفسنا: نحن نتخيل القصة قد حصلت على النحو التالي:

أولا، أرسلت امرأة العزيز للنسوة، فجمعتهن في مكان محدد، لم يحضر ذلك الاجتماع إلا النسوة فلم يعلم ما حصل في ذلك الاجتماع إلا الله الذي فصّله لنا في هذا القرآن. ونحن نفهمه على النحو التالي: كان إخراج يوسف من قبل امرأة العزيز على تلك النسوة أمرا لا يخلو من عنصر التحدي، لتبين لهن بأنها لازالت أمرات العزيز بموقعها وهيبتها وجمالها، الخ. ولتثبت لهن بالبرهان العملي بأن ما وقعت هي فيه لا يمكن لامرأة أخرى على وجه هذه البسيطة أن لا تقع فيه، وستثبت لهن ذلك في هذا المجلس نفسه، فأمرت يوسف بالخروج عليهن، متحدية إياهن أن لا يقعن في المحظور نفسه الذي كانت هي قد وقعت فيه، وكانت امرأة العزيز – لا شك- واثقة بأن فتنتهن بيوسف لا محالة حاصلة، وأن النسوة اللاتي لُمنها فيه لا محالة سيقعن جميعا في الفخ نفسه فيراودن يوسف عن نفسه كما فعلت هي.

ثانيا، نحن نظن أن الأمر لم يكن ليتم بعفوية مطلقة دون تخطيط مسبق، فلا شك أن نقاشا مستفيضا قد حصل بين النسوة من جهة وامرأة العزيز من جهة أخرى. ولا شك عندنا أن فكرة قدرة المرأة على إيقاع فتى في فخها كانت مسيطرة على النقاش، فكان أكثر ما يحير النسوة حتى الساعة ربما سؤال مفاده: كيف بامرأة العزيز بجاهها وجمالها ومكانتها أن تعجز في أن توقع فتاها في حبها؟ وكيف بها هي أن تراوده عن نفسه؟ فمن هو هذا الفتى الذي تحتاج امرأة مثل امرأة العزيز أن تراوده عن نفسه؟ وكيف به لا يأبه بذلك ويمنع نفسه عنها؟ أليس في هذا إثارة للشبهة حول أنوثة امرأة العزيز نفسها؟ أليس في هذا سر يحوم حول هذا الفتى الغريب؟

نحن نظن أن الكثير من تلك النسوة كن على يقين بأنهن لن يقعن في ذلك الفخ الذي وقعت به امرأة العزيز نفسها، وربما كان البعض منهن يعتقد أن عندهن من القدرة (الأنوثة) ما لم تقدر عليه امرأة العزيز نفسها؟ لذا كان النقاش (نحن نتخيل) يجري من أجل تدبير مخطط مسبق (أي مكيدة)، كما نظن أن امرأة العزيز لم تكن لتلقي بنفسها في التهلكة بما اعترفت فيه بملء فيها أمام النسوة . فكيف بامرأة العزيز تعترف بملء فيها أمام النسوة أنها هي من راودت يوسف عن نفسه لتتركهن يخرج من ذلك الموقف لينشرن الخبر على الملأ وهي التي حاولت أن تتملص من التهمة أمام سيدها؟ ألن تحاول أن تخرج من الموضوع بأقل خسارة ممكنة وهي التي لا زالت مصرة على مراودة يوسف عن نفسه؟

ثالثا، نحن نعتقد أن الحوار قد دار مطولا بين النسوة من جهة وامرأة العزيز من جهة أخرى قبل أن يخرج يوسف عليهن، كما نعتقد أن النقاش بين النسوة جميعا قد انتهى إلى واحدة من الخيارات التي تمت مناقشتها، فكان جل الحوار يدور حول التساؤل التالي: ماذا سنفعل (نحن مجموع النسوة بهذا الفتى)؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: كان ذلك الخيار الذي انتهى إليه نقاش النسوة هو ما عبر عنه القرآن – كما نفهمه- بمفردة " أَكْبَرْنَهُۥ "، وكان ذلك هو كيد النسوة بيوسف:

- إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ

وبكلمات أكثر دقة نقول: لقد كان الكيد الذي أجمعت النسوة الحاضرات أمرهن عليه (أي كدنه) فيما يخص يوسف هو أن يكبرنه:

- فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ

وما أن أكبرن يوسف حتى جاءت الخطوة التالية وهي أن يقطعن أيديهن:

- فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ

لازال النقاش غير مفهوم؟ ما الذي تريد أن تقوله؟ يرد صاحبنا المتلهف على معرفة القصة من آخرها.

رأينا: نحن نظن من أجل أن نفهم الكلام الذي افتريناه حتى الآن فلابد من التعرض لأسئلة أخرى لها علاقة مباشرة بفحوى النقاش هنا.

السؤال (1): ماذا كانت الخيارات الأخرى التي كان يمكن للنسوة أن يتخذنها بحق يوسف غير أن يكبرنه؟ ماذا كان يمكن للنسوة أن يفعله بيوسف غير أن يكبرنه مثلا؟

جواب المفترى من عند أنفسنا الذي نطلب من القارئ الكريم أن لا يصدقه ما لم يجد أن الدليل يدعمه: إنه القتل

نعم، نحن نفتري الظن بأن أحد الخيارات التي كانت متاحة أمام امرأة العزيز والنسوة جميعا أن يفعلنه بيوسف هو أن يقتلنه. ولا شك عندنا أن نقاشا مستفيضا قد دار بينهن حول ذلك في ذلك اللقاء قبل أن يخرج يوسف عليهن. فكان قرار النسوة فيما يخص يوسف يتمثل بواحد من خيارين على الأقل:

1. أن يكبرنه أو
2. أن يقتلنه

وكان خروج يوسف عليهن هو الفصل في الأمر. فما أن خرج عليهن يوسف ورأينه بأم أعينهن حتى كان قرارهن أن يتراجعن عن قتله من أجل أن يكبرنه:

- فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ

السؤال: ما معنى أن يكبرنه أصلا؟ إذا كنا نفهم أن أحد الخيارين كان يتمثل في قتل يوسف فكيف نفهم خيار أن يكبرنه؟ ألا ترى أنك تلف وتدور في المكان نفسه؟ ما الذي تريد أن تقوله بصريح اللفظ؟ يرد صاحبنا الذي يريد أن يصل إلى الجواب فورا.

رأينا المفترى: نحن نظن أن مفردة " أَكْبَرْنَهُۥ " تعني إيقاع يوسف في الفتنة (قبوله المراودة واستعداده للوقوع في الفاحشة).

الدليل:

نحن نقرأ الدليل على ما زعمنا من افتراء حول مفردة " أَكۡبَرۡنَهُۥ " في الآية الكريمة التالية:

- ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۚ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢١٧﴾ [البقرة: 217]

رأينا المفترى من عند أنفسنا: لمّا كانت الفتنة أكبر من القتل (وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ)، اختارت النسوة الخيار الأكبر وهو الفتنة، فجاء ذلك على صيغة أنهن قد " أَكۡبَرۡنَهُۥ ".

وبهذا الفهم المفترى من عند أنفسنا، نقدم للقارئ المتعجل تصورنا الجديد لبعض أحداث قصة يوسف، فنحن نتخيل الذي حصل على النحو التالي:

جمعت امرأة العزيز النسوة في عملية تحدي منها لهن (فالنساء فقط يستطعن أن يتفهمن ما وقعت هي به)، فمن ظنت أنها تستطيع أن تقاوم سحر يوسف فلتفعل. فأرسلت لهن، وتحدثت معهن، واعترفت أمامهن أنها هي من راودت يوسف عن نفسه وأنه هو من استعصم، وأصرت على أنها ماضية في ذلك الخيار حتى النهاية، فأخذت تدبر المكيدة مع تلك النسوة لمصير ليوسف، ولربما كان أحد الخيارات المطروحة تتمثل في إخراجه من البلد (وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ)، ولكن لمّا كان يوسف ليس من أهل البلد، اتجه النقاش بين المتآمرات نحو خيار قتل يوسف، وهنا (نحن نتخيل) وقفت امرأة العزيز متحدية لهن في ما سيفعلن إن هن وقعن في الفخ نفسه الذي وقعت هي فيه، عندها كان قرارهن أن يفتن، فيراودنه جميعا عن نفسه، وكان ما يحسم الخلاف بينهن هو خروج يوسف عليهن، وهنا أخرجت امرأة العزيز يوسف على الحاضرات جميعا:

- **فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ**
- ﴿فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ... ٣١﴾ [يوسف: 31]

ونحن نظن أن امرأة العزيز كانت متيقنة بالنتيجة وهي أن تفتن النسوة جميعا بيوسف، فالنسوة لن يتجرأن على قرار قتل يوسف متى ما رأينه، فهذا فتى يستحيل على امرأة أن تقبل أن يقتل. فلم يكن مفاجئا لامرأة العزيز قرار النسوة بمجرد رؤيتهن ليوسف: وهو أن يكبرنه:

- فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ

أي لقد كان خيار النسوة يتمثل في التخلي عن الكيد بقتل يوسف لصالح الكيد في فتنته، فوقع يوسف في كيد هو أكبر من القتل: إنه الفتنة.

فما كان يستطيع أحد أن يصرف عنه ذلك الكيد إلا الله نفسه، وهنا توجه يوسف إلى الله صادقا الدعاء بأن يصرف عنه ذلك الكيد لأن عدم صرفه يتمثل في وقوعه في الفتنة، فيصب لهن ويكن من الجاهلين:

- ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٣٣﴾ [يوسف: 33]

نتيجة مفتراة: نحن نظن أن كيد النسوة الذي صرفه الله عنه كان يتمثل في فتنته، وأن ما كانت النسوة تصبو إليه من يوسف هو فتنته التي لا شك كانت أكبر من قتله، فجاء قول الحق في كتابه الكريم على النحو التالي:

- فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ

ولكن لما كانت امرأة العزيز غاية في الدهاء والذكاء، لم يكن الأمر ليحصل دون أن تضع في يدها الدليل على ما فعلت النسوة في ذلك المجلس، ولم تكن لتخرج من ذلك المجلس إلا ولديها الدليل والبرهان العملي بأنها لا تلام في مراودتها ليوسف عن نفسه لأن هذا ما كان يمكن أن تفعله كل نساء الأرض (بمن فيهم بالطبع أمي):

- ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ۝٣٢﴾ [يوسف: 32]

فلم يعد أحد (من النساء والرجال) يستطيع أن يلقي باللائمة على كتف امرأة العزيز فقط مادام أن الأمر لم تقدر عليه امرأة أخرى.

السؤال: كيف تستطيع امرأة العزيز أن تلقي باللائمة عن كاهلها؟ وكيف تستطيع أن تخرج من ذلك الاجتماع بالبرهان على براءتها الشخصية ونقلها إلى تهمة جماعية تشمل مجموع النساء؟

الجواب: أنها هي من آتت كل واحدة منهن سكينا

- ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا ... ۝٣١﴾ [يوسف: 31]

إن المتدبر للنص القرآني يجد في هذا النص أمران ربما يبدوان غريبان من الوهلة الأولى:

1. أن امرأة العزيز هي من قامت بإعطاء كل واحدة منهن سكينا بنفسها: وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا

2. بالرغم من أنها هي من آتت كل واحدة منهن سكينا إلا أنها أعتدت لهن جميعا متكأ واحدا: وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا

لذا سننتقل للنقاش عن موضعين اثنين فيما تبقى من صفحات هذا الجزء من الكتاب، والموضوعان هما:

⇐ سكاكين كثيرة
⇐ متكأ واحدا فقط

الباب الأول: سكاكين (جمع سكين) كثيرة

السؤال: لماذا آتت امرأة العزيز كل واحدة من النسوة سكينا (وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا)؟ وما فائدة أن تعطي امرأة العزيز بنفسها سكينا لكل واحدة من النسوة قبل أن تطلب من يوسف أن يخرج عليهن؟ انظر النص القرآني جيدا:

- ﴿فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ ... ٣١﴾ [يوسف: 31]

علم من سبقنا: لقد كانت جل الآراء المتوافرة في بطون أمهات كتب التفاسير تدور في فلك كمن فيما وجدناه عند ابن كثير مثلا:

فلما سمعت بمكرهن " قال بعضهم بقولهن , ذهب الحب بها وقال محمد بن إسحاق بل بلغهن حسن يوسف فأحببن أن يرينه فقلن ليتوصلن إلى رؤيته ومشاهدته فعند ذلك " أرسلت إليهن " أي دعتهن إلى منزلها لتضيفهن " وأعتدت لهن " متكأ " قال ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد والحسن والسدي وغيرهم : هو المجلس المعد فيه مفارش ومخاد وطعام فيه ما يقطع بالسكاكين من أترج ونحوه ولهذا قال تعالى " وآتت كل واحدة منهن سكينا " وكان هذا مكيدة منها ومقابلة لهن في احتيالهن على رؤيته " وقالت اخرج عليهن" وذلك أنها كانت قد خبأته في مكان آخر فلما" خرج " و " رأينه أكبرنه " أي أعظمنه أي أعظمن شأنه وأجللن قدره وجعلن يقطعن أيديهن دهشة برؤيته وهن يظنن أنهن يقطعن الأترج بالسكاكين والمراد أنهن حززن أيديهن بها قاله غير واحد وعن مجاهد وقتادة : قطعن أيديهن حتى ألقينها فالله أعلم وقد ذكر غير واحد أنها قالت لهن بعدما أكلن وطابت أنفسهن مما وضعت بين أيديهن أترجا وآتت كل واحدة منهن سكينا هل لكن في النظر إلى يوسف ؟ قلن نعم فبعثت إليه تأمره أن اخرج إليهن فلما رأينه جعلن يقطعن أيديهن ثم أمرته أن يرجع ليرينه مقبلا ومدبرا فرجع وهن يحززن في أيديهن فلما أحسسن بالألم جعلن يولولن فقالت أنتن من نظرة واحدة فعلتن هذا فكيف ألام أنا ؟ " فقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم " ثم قلن لها : وما نرى عليك

من لوم بعد هذا الذي رأينا لأنهن لم يرين في البشر شبيهه ولا قريبا منه فإنه عليه السلام كان قد أعطي شطر الحسن كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح في حديث الإسراء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بيوسف عليه السلام في السماء الثالثة قال فإذا هو قد أعطي شطر الحسن وقال حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطي يوسف وأمه شطر الحسن وقال سفيان الثوري عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود قال : أعطي يوسف وأمه ثلث الحسن وقال أبو إسحاق أيضا عن أبي الأحوص عن عبد الله قال : كان وجه يوسف مثل البرق وقالت المرأة إذا أتته لحاجة غطى وجهه مخافة أن تفتن به ورواه الحسن البصري مرسلا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أعطي يوسف وأمه ثلث حسن أهل الدنيا وأعطي الناس الثلثين أو قال أعطي يوسف وأمه الثلثين والناس الثلث وقال سفيان عن منصور عن مجاهد عن ربيعة الجرشي قال : قسم الحسن نصفين فأعطي يوسف وأمه سارة نصف الحسن والنصف الآخر بين سائر الخلق وقال الإمام أبو القاسم السهيلي : معناه أن يوسف عليه السلام كان على النصف من حسن آدم عليه السلام فإن الله خلق آدم بيده على أكمل صورة وأحسنها ولم يكن في ذريته من يوازيه في جماله وكان يوسف قد أعطي شطر حسنه فلهذا قال هؤلاء النسوة عند رؤيته " حاش لله " قال مجاهد وغير واحد معاذ الله " ما هذا بشرا " وقرأ بعضهم ما هذا بشرى أي بمشترى بشراء .

انظر - عزيزي القارئ- ما وضعنا نحن تحته خط في هذا التفسير الذي يلخص جلّ ما ورد من عند أهل الدراية في التفاسير الأخرى كتفسير القرطبي والطبري مثلا.

رأينا: لو كان الأمر على نحو ما ظن أهل الدراية بأن وجود السكاكين كان من أجل تقشير الفاكهة (ولا أدري كيف علموا أنها تسمى أترج غير شطحات أهل الكتاب من قبلهم)، فهل كانت امرأة العزيز هي من ستقدّم تلك الفاكهة بنفسها؟ ثم، ألم يكن ممكنا أن تأتي السكاكين مع الفاكهة كما تفعل زوجتي عندما تقدم الفاكهة (إن وجدت في بيتنا) للضيوف (إن حضروا عندنا)؟ فلماذا قامت امرأة العزيز بإعطاء سكينا لكل واحدة من النسوة (وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا)؟ ولم لم تُعِدّ بالمقابل لكل واحدة منهن متكأ؟ لم كان المتكأ واحدا لهن جميعا (وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا)؟

رأينا: نحن نظن أن ذلك كان جزءا من المكيدة التي كانت قد دبرتها امرأة العزيز بنفسها، ولكن كيف ذلك؟

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن امرأة العزيز كانت تبحث عن الدليل الذي يزيل عن كاهلها بمفردها عبء التهمة (مراودة يوسف عن نفسه) لتلصقه بمجموع النساء، وذلك ربما من أجل أن توصل رسالة للرجال (قبل النساء) بأن ما رأته من يوسف لم تكن تستطيع أن تتحمله، وهذا لا ينطبق عليها وحدها وإنما ينطبق على كل بنات جلدتها من النساء. وأظن أنها كانت تريد أن تضع في يدها الدليل على ذلك. لذا كان مخططها يسير في ظننا على النحو التالي: ما أن رأت النسوة يوسف حتى اخترن أن يكبرنه (أي أن يوقعن يوسف –كما زعمنا سابقا- في الفتنة)، ولكن لمّا كان يوسف هو فتى امرأة العزيز فقط، لم تكن لتفرّط به بتلك السهولة، فكان

شرط امرأة العزيز على من وجدت في نفسها الرغبة في مراودة يوسف عن نفسه هو (نحن نظن) أن تقطع يدها بالسكين بنفسها. وهذا ما ثبت في نهاية القصة، فعندما جمع الملك النسوة في نهاية المطاف لم تستطع أحد منهن أن تنكر أنها قد راودت يوسف عن نفسه.

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن تقطيع النسوة أيديهن كان فعل إرادي مقصود لذاته جاء بطلب من امرأة العزيز من النسوة اللاتي رغبن في مراودة يوسف عن نفسه. فكان دليلا دامغا على اشتراك النسوة (كل النسوة) في فعل المراودة، لذا يستحيل أن يلقى باللائمة في ذلك على كتف امرأة العزيز فقط.

السؤال: ما هو الدليل على أن فعل تقطيع الأيدي كان فعلا إراديا (غير عفوي)؟

جواب: لو كان تقطيع الأيدي سببه رؤية يوسف المباشرة لكانت الأولى بتقطيع يدها هي امرأة العزيز نفسها. فهي أكثر من شغفت حبا بيوسف، وهي التي رأت يوسف أكثر من مرة مادام أنه فتاها ومادام أنه متواجد في بيتها. فلم - يا ترى- لم تقطع امرأة العزيز يدها دون جميع النسوة الأخريات؟

رأينا

أولا، مادام أن امرأة العزيز هي (في ظننا) من اشترطت على النسوة أن يقطعن أيديهن إن هن رغبن في مراودة يوسف، لم تكن تحتاج أن تشترط ذلك على نفسها.

ثانيا، مادام أن التهمة أصلا قد التصقت بامرأة العزيز فانتشر الخبر في المدينة، فلا تحتاج أن تضع علامة على نفسها بأنها قد راودت يوسف عن نفسه،

ثالثا، مادام أن النسوة هنّ من لُمْنها في مراودة يوسف، فلابد أن تضع علامة على كل من لامتها في فعلتها تلك.

وبكلمات بسيطة نقول: لقد أوقعت امرأة العزيز تلك النسوة جميعا في الفخ الذي لا يستطعن الخروج منه أو تبرئة أنفسهن من التهمة المنسوبة لها. لذا عندما جاء رسول الملك إلى يوسف ليخرجه من السجن كان رد يوسف غاية في الوضوح طالبا أن يُسأل عن النسوة اللاتي قطعن أيديهن:

- ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ۝٥٠﴾ [يوسف: 50]

فلم يكن من العسير على الملك حينها أن يجمعهن في مجلسه ليسألهن جميعا عما فعلنه بيوسف من ذي قبل:

- ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٥١﴾ [يوسف: 51]

فلم تستطع أحد منهن أن تنفي تهمة مراودة يوسف عن نفسه لأن العلامة في ذلك فارقة لا يمكن أن تنكرها: ألا وهي أن يدها قد قطعتها بنفسها.

الباب الثاني: متكأ واحدا

السؤال: في هذا الباب نطرح التساؤل التالي: لماذا أعدت امرأة العزيز للنسوة متكأ واحدا بالرغم أنها هي من آتت كل واحدة منهن سكينا؟

- ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۝٣١﴾ [يوسف: 31]

ألم يكن بمقدور امرأة العزيز أن تعد لكل واحدة منهن متكأ كما كانت قد آتت كل واحدة منهن سكينا؟

افتراء من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن بأن هذا كان أيضا جزءا من الخطة التي أعدتها امرأة العزيز بنفسها، ولكن كيف ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الأمر قد حصل على النحو التالي: عندما سمعت النسوة بخبر أن امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه أثار ذلك الأمرُ الاستهجانَ والاستغراب عندهن، ونحن نفتري الظن بأن حيرتهن كانت تنبع من الحقائق التالية التي نستطيع أن نتخيلها:

1. أن التي راودت هي امرأة العزيز نفسها. ففي الوضع الطبيعي يكون الذكر هو من يراود الأنثى عن نفسها وليس العكس كالذي حصل في حالة امرأة العزيز
2. أن من راودته امرأة العزيز هو فتاها، وهذا ما يثير الاستهجان أكثر لأن المرأة تبحث عن من هو أكثر شأنا منها في العادة على عكس ما حصل في حالة امرأة العزيز
3. أن امرأة العزيز امرأة لا شك ذات منصب وسلطه بدليل أنها كانت تصدر أوامر:

- ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ۝٣٢﴾ [يوسف: 32]

4. أن امرأة العزيز لا شك كانت امرأة على قدر من الجمال، فهي قبل كل شيء امرأة العزيز نفسه.
5. الخ.

فكانت نبرة الاستغراب في خطاب النسوة (كما نفهمه) أن كل هذا يجعل ما فعلت المرأة يقع في باب الضلال المبين، ولكن كيف ذلك؟

جواب: عندما وجد إخوة يوسف أن أباهم يميل قلبه نحو يوسف أكثر من ميله نحو الآخرين نعتوه بتلك الصفة:

- ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨﴾ [يوسف: 8]

ولو حاولنا أن نربط هذا الموقف من يعقوب تجاه يوسف بما فعلته امرأة العزيز مع يوسف، لربما خلصنا إلى نتيجة مفادها كأن لسان حال النسوة يقول في هذا الصدد ما فحواه: ألم تجد امرأة العزيز إلا فتاها لتراوده عن نفسه؟ وهل تحتاج امرأة كهذه أن تفعل ذلك؟

وربما ما زاد الطين بلة في منطق النسوة هو أن ذلك الفتى قد منع نفسه عنها. ويكأن لسان حالهن يقول: من هو هذا الفتى الذي لم تقدر امرأة العزيز بمنصبها ونفوذها وجمالها (بأنوثتها)، الخ. أن توقعه في فخها؟

النتيجة: لقد حاولت النسوة بمثل هذا المنطق المفترى من عند أنفسنا (إن صح) أن يقدحن بقدرات امرأة العزيز الأنثوية (إن صح القول)، ويكأن لسان حال كل واحدة منهن يقول: أنا أستطيع أن أوقع ذلك الفتى في الفخ، فأنا أستطيع أن أفعل ما عجزت عن فعله امرأة العزيز نفسها.

ولمّا كان مثل هذا المنطق لا يخفى على امرأة كامرأة العزيز نفسها، ولما كانت امرأة العزيز واثقة بنفسها تعلم أن الخلل ليس فيها، فهي امرأة لا ينقصها شيء لتوقع رجلا في شركها، ولما كانت على علم بأن الأمر يتعلق بصلابة موقف الفتى نفسه، قبلت التحدي وراهنت على ذلك، فأرسلت إليهن لتعطي لكل واحدة منهن الفرصة في المحاولة. ولكن شرطها (كما نتخيله) هو أن من أرادت أن تفعل وتجرب حظها في ذلك، فعليها أن تقطع يدها قبل أن تُعطى تلك الفرصة. ولكن كيف حصل ذلك كله؟

جواب مفترى: بوجود المتكأ الواحد الذي أعدته لهن جميعا.

الدليل

ما أن خرج يوسف على النسوة بطلب من امرأة العزيز حتى أكبرنه (أي وجدن في أنفسهن الرغبة على فتنته، فكان ذلك ما كدن ليوسف به)، فما كان منهن إلا أن قبلن التحدي، فقطعن أيديهن:

- ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۝٣١﴾ [يوسف: 31]

لتتيح لهن امرأة العزيز الفرصة في مراودة يوسف عن نفسه. فتحصل كل منهن على فرصة أن تجرب أنوثتها في مراودة يوسف عن نفسه. وقد حصل ذلك (كما نتخيله) على النحو التالي: من أرادت من النسوة أن تجرب فرصتها في مراودة يوسف عن نفسه فعليها أن تقطع يدها قبل ذلك، ومن ثم تعطى الفرصة للإنفراد

بيوسف في ذلك المتكأ الذي أعدته امرأة العزيز بنفسها. فلم تكن امرأة العزيز لتسمح لأحد من النسوة أن تدخل على يوسف ذلك المتكأ إلا بعد أن تكون قد قطعت يدها.

السؤال: ما هو المتكأ؟

جواب: غرفة النوم، وهل يمكن أن يكون غير ذلك؟

الدليل

نحن نظن أن المتكأ هو المكان الذي يتواجد فيه الرجل مع زوجته على إنفراد حيث يتزين كل واحد منهما للآخر، ويكون فيه الأريكة التي ينامون عليها:

- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا ٣١﴾ [الكهف: 31]

ولا يتواجد في ذلك إلا الأزواج حيث وفرة الظل كما في حالة تواجد الأزواج في الجنة مع الحور العين:

- ﴿هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ٥٦﴾ [يس: 56]
- ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ٢٠﴾ [الطور: 20]

كما لا يخلو المتكأ من تواجد الفراش:

- ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ ٥٤﴾ [الرحمن: 54]

وتواجد كل مسببات التنعم بالأزواج، فلا شمسا ولا زمهريرا (أي مكندش conditioned كما نقول باللسان الأعجمي المعرّب):

- ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۖ لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسٗا وَلَا زَمۡهَرِيرٗا ١٣﴾ [الإنسان: 13]

وربما يتواجد بالمكان من يقوم على خدمة الأزواج في ذلك المتكأ كالولدان المخلدون الذي يقدمون كل ما طاب:

- ﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مَّوۡضُونَةٖ ١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ ١٦ يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ ١٧ بِأَكۡوَابٖ وَأَبَارِيقَ وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ ١٨ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا وَلَا يُنزِفُونَ ١٩ وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ٢٠ وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ٢١﴾ [الواقعة: 15-21]

وربما ينقلنا هذا الظن إلى فهم كيف أن موسى كان يستخدم عصاه ليتوكأ عليها، (انظر سلسلة مقالتنا قصة موسى بداية وباب السامري 1 وباب السامري 2)

نتيجة مفتراة: لقد أعدت امرأة العزيز متكأ واحد لتخلو كل امرأة من النسوة بيوسف كما يخلو الرجل بزوجته، ووفّرت لهم كل ما يلزم من أسباب الراحة والحماية، فأخذت النسوة يجربن حظهن مع يوسف الواحدة تلو الأخرى، ولمّا كانت امرأة العزيز قد تعهدت لهن بالإيقاع بيوسف شاء ذلك أم أبى، لم يخطر ببال النسوة أن ذلك الفتى سيستطيع أن يقاوم أكثر مما يجب، فما هي إلا ساعات قليلة وسينزل الفتى لا محالة عند رغبة امرأة العزيز ورغباتهن جميعا، وإلا فالسجن لا محالة مأواه حتى يلين جانبه:

- ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [يوسف: 32]

وفي مثل هذا الموقف (نحن نتخيل) وجد يوسف نفسه واقعا في كيد النسوة الذي لا يستطيع تحمله أكثر من ذلك، فدعا ربه دعاء المضطر الذي ضاقت به الحال:

- ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [يوسف: 33]

فباء جهد النسوة جميعا بالفشل بدليل أن هذا ما اعترفت به النسوة جميعا أمام الملك نفسه:

- ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾﴾ [يوسف: 51]

السؤال: ما معنى قول النسوة أنهن لم يعلمن على يوسف من سوء (مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ)؟

رأينا: لا علاقة لذلك بالمعاملة، فالنسوة لم يخبرن يوسف من قبل ولم يتعاملن معه من بعد، لذا فإن الأمر لا يتعلق بطريقة معاملة يوسف لهن، وإنما يتعلق (برأينا) بما خبرنه منه في تلك الحادثة على وجه التحديد. ولكن كيف ذلك؟

رأينا: عندما خلت كل امرأة منهن بيوسف في ذلك المتكأ، حاولت أن تهمّ به، فخلعت له ملابسها وتجهزت له، وحاولت أن تقدم له كل ما يمكن أن تقدمه امرأة لرجل إن هي رغبت به. ولكن يوسف ضل ثابت العزم، رابط الجأش يحاول أن يسيطر على غرائزه لأنه من تلك السلالة الطيبة التي لا يمكن أن تقع في الفاحشة كما جاء على لسانه:

- ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [يوسف: 38]

لذا لم يحاول يوسف (كما نتخيله) في ذلك الموقف أن يهمّ بتلك النسوة، فلم يخلع شيئا من ملابسه، وهذا ما نفهمه بالضبط من قول النسوة (مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ). فما علمت النساء عليه السوء (أي انكشاف شيء من سوءته)، فمفردة السوء في هذا السياق القرآني مرتبطة (في ظننا) بمفردة السوءة التي تحدثنا عنها مسبقا.

افتراء من عند أنفسنا: نحن نتخيل النسوة اللاتي راودن يوسف عن نفسه يقلن للملك ما فحواه: بالرغم من مراودتنا ليوسف عن نفسه التي لا نستطيع أن ننكرها (فهن لا يستطعن أن ينكرن ذلك مادام أن أيديهن قد قطعت)، إلا أننا نشهد بأننا لم نعلم عليه شيء من السوء لأنه ببساطة رفض أن يعطينا الفرصة لنرى شيئا من سوءته (أي عورته – إن صح القول). لذا بقي يوسف في ذلك المتكأ (في ظننا) مرتديا ملابسه لم يضع عنه شيء منها، فكان غير مكشوف السوءة بالرغم أنه مغلوب على أمره حتى اللحظة، وكان يوسف يعلم يقينا أن شيئا واحدا يمكن أن يخرجه من هذا المأزق الذي وجد نفسه فيه: أن يتوجه إلى ربه مخلصا الدعاء بأن يصرف عنه كيد النسوة، فردد القول على النحو التالي:

- ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [يوسف: 33]

مفضلا السجن (ككيد امرأة العزيز نفسها) على كيد النسوة مع امرأة العزيز (الفتنة)، فكان له ما دعا ربه أن يحققه له.

السؤال: وكيف صرف الله عنه كيدهن؟

جواب: هذا ما سنتناوله في الجزء القادم.

فالله وحده أسأل أن يعلمني ما لم أكن أعلم، وأسأله وحده أن يهديني إلى نوره الذي أبى إلا أن يتمه ولو كره الكافرين، فيعلمني الحق الذي أقوله عليه فلا أفتري عليه الكذب، إنه هو الحكيم الخبير- آمين.

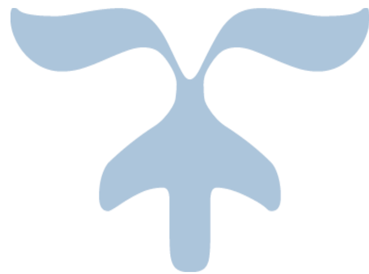
وللحديث بقية

المدّكرون: رشيد سليم الجراح & علي محمود سالم الشرمان
بقلم: د. رشيد الجراح ، 28 تشرين ثاني 2013 ، د. رشيد الجراح - مركز اللغات، - جامعة اليرموك



الجزء التّاسع

باب تقطيع الأيدي



الفصل التّاسع : باب تقطيع الأيدي ... وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ

تعرضنا في الجزء السابق من هذا الكتاب إلى الترتيب الذي نجده في الآية الكريمة التي تتحدث عن تقطيع النسوة لأيديهن، فكان عنوان ذلك الجزء هو فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ

وقد حاولنا حينئذ أن نخرج باستنباطات مفتراة من عند أنفسنا نذكر منها:

⇐ لَمْ تقطِّع النسوة أيديهن عندما رأين يوسف مباشرة، لهذا جاء فعل تقطيع الأيدي (في ظننا) مفصولا عن حدث الرؤية بحدث آخر، وهو إكبارهن إياه (فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ). انظر كيف تتوسط مفردة أَكْبَرْنَهُۥ فعل الرؤية رَأَيْنَهُۥٓ من جهة وفعل تقطيع الأيدي وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ من جهة أخرى.

⇐ ما فعلته النسوة بعد رؤية يوسف مباشرة هو أنهن قد أكبرنه (فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ)، فظننا أنّ الإكبار هو اختيارهن لفتنة يوسف على التخلص منه بطرق أخرى كإخراجه من البلد أو حتى قتله (انظر الجزء السابق قصة يوسف 8).

⇐ كان فعل تقطيع الأيدي فعلا إراديا مقصود بذاته

⇐ امرأة العزيز هي من اشترطت على النسوة تقطيع أيديهن إنْ هنّ أردن أن يراودن يوسف عن نفسه متى ما رأينه وأكبرنه. فنحن نظن أن منطق امرأة العزيز في خطابها مع النسوة حينئذ كان على نحو أن من تُكْبر يوسف (أي أرادت فتنته بمراودته عن نفسه) بعد أن تراه ، فلابد أن تقطع يدها قبل أن تعطى الفرصة إلى ذلك)

⇐ كان غرض امرأة العزيز من وراء ذلك هو إلقاء عبء التهمة عن كاهلها الشخصي لترمي به على كل بنات جلدتها من النساء

⇐ لم تستطع أحد من النسوة أن تتنصل من مسؤولية مراودتها ليوسف عن نفسها أمام الملك لأن الأيادي المقطّعة كانت دليلا كافيا على إدانتها

⇐ كانت أيدي النسوة مقطعات في حين بقيت يد امرأة العزيز نفسها (وهي التي كانت أكثر من شغفها يوسف حبا، وأكثر من راودته عن نفسه) بقيت غير مقطعة، لذا عندما طلب يوسف من رسول الملك أن يستجلي الحقيقة سأله عن النسوة اللاتي قطعن أيديهن:

- ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾ [يوسف: 50]

فلم يتطرق يوسف في طلبه هذا إلى امرأة العزيز نفسها، وهي التي بسببها حدثت القصة في الأصل.

⇐ جمع الملك النسوة ووجه الخطاب إلى اللاتي قطّعن أيديهن:

- ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ ... ﴿٥١﴾﴾ [يوسف: 51]

⇐ حضرت امرأة العزيز الموقف مع النسوة، ولكن بالرغم أن الحوار لم يكن ليشملها، جاء كلامها في ذلك الموقف من باب التطوع الذاتي، فانبرت في هذه اللحظة لتعترف بغلطتها لأول مرة أمام الناس جميعا:

- ﴿... قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٥١﴾ [يوسف: 51]

هذا على الرغم من أنها قد حاولت جهدها أن تتنصل من المسؤولية أمام سيدها عندما ألفياه لدى الباب، ملقية باللائمة كلها على يوسف حينها، ومتهمة إياه بأنه هو من أرادها بسوء:

- ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢٥﴾ [يوسف: 25]

⇐ لم تعترف امرأة العزيز بمسؤوليتها إلا أمام النسوة اللاتي مكرن بها في المدينة عندما أرسلت لهن وجمعتهن في ذلك اللقاء الشهير، فاعترفت لهن بملء فيها أنها هي من راودت يوسف عن نفسه وأنه هو من استعصم:

- ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢٥ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٢٦ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٢٧ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ۝٢٨ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ۝٢٩ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٣٠ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۝٣١ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ۝٣٢﴾ [يوسف: 25-32]

⇐ الخ.

قصة لقاء امرأة العزيز مع النسوة: تصور جديد

وقد دفعتنا هذه الافتراءات مجتمعة أن نطرح تصورنا الخاص لما حدث في قصة يوسف مع امرأة العزيز والنسوة في ذلك اللقاء الشهير على النحو التالي الذي نطلب من القارئ الكريم بداية أن لا يحمله محمل الجد ما لم يجد أن فيه من المسوغات ما يكفي لإعطائه فرصة التفكر.

تصورنا الجديد: تسمع امرأة العزيز بمكر نسوة في المدينة وقد تبادلن أطراف الحديث عن ما بدر منها فيما يتعلق بمراودتها لفتاها عن نفسه، ولم يتوقف تبادل أطراف الحديث بين أولئك النسوة عند سرد الحقائق ذاتها كما حصلت على أرض الواقع، فاتهمن المرأة بأنها في ضلال مبين لأنها هي من تراود فتاها عن نفسه:

- ﴿۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٣٠﴾ [يوسف: 30]

لذا، ظننا أن كلام النسوة ربما جاء حينها من باب السخرية التي تقلل من شأن امرأة العزيز وتقدح في مكانتها (لأنها هي من تراود فتاها عن نفسه) كما تقدح في أنوثتها (لأنها لم تقدر عليه بالرغم أنها هي من تراوده عن نفسه). ولمّا كانت امرأة العزيز واثقة بنفسها وبقدراتها الظاهرة والكامنة، ولمّا كانت على يقين بأن ليس فيها ما يعيبها كامرأة، وأن فشلها في ذلك مردّه هذا الفتى غريب الأطوار، ولما كانت على علم بأن كل بنات جلدتها من النساء سيقعن في نفس الفخ لو مررن بالتجربة نفسها، كان من ذكاء ودهاء هذه المرأة غير العادي (كما نتخيله) أن تلملم الخبر بالسرعة الممكنة، فلا يتوسع في الانتشار، وأن تمسك بيدها دليل براءتها الشخصية. ولكن كيف حصل ذلك؟

رأينا: لم تترك امرأة العزيز الخبر ليتوسع في الانتشار، فما أن سمعت بأن بثلة من النساء (نسوة) قد وصل لهن خبر ما فعلت مع فتاها، فأخذن يتبادلنه فيما بينهن من باب المكر بها (فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ)، لم تتردد بأن تدبّر الأمر على وجه السرعة، فما كان منها إلا أن أرسلت لهن جميعا(أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ)، وتجهزت على وجه السرعة لتثبت لهن بالدليل العملي أن الأمر خارج عن نطاق قدرتها على التحمل كامرأة، وأنهن سيقعن في الفخ نفسه لو رأين هذا الفتى بأم أعينهن. فكان تدبيرها أن تعتدّ لهن متكأ واحدا وتؤتي كل واحدة منهن سكينا (إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا). وكان ذلك – كما زعمنا في الأجزاء السابقة- من باب التحدي المشروط بتقطيع الأيدي.

ولمّا كانت النسوة لازلن مستغربات الأمر، غير متيقنات بقناعات امرأة العزيز نفسها، قبلن التحدي، ظانات في الوقت ذاته أن لديهن من القدرات الأنثوية ما يمكن أن تطيح بأي رجل على وجه الأرض.

لكن امرأة العزيز لم تكن لتفرّط بيوسف بالمجان دون مقابل ودون الخروج من الموقف بصيد ثمين جدا وهو شهادة براءتها الشخصية من تحمل المسؤولية، حتى يفهم الجميع (الرجال والنساء) بأنها لا تلام وحدها في ذلك، فعمدت إلى اشتراط التحدي على نحو أن من أرادت منهن أن تراود يوسف عن نفسه إن هي أكبرته (أي فُتنت به فرغبت بمراودته عن نفسه) أن تقطع يدها قبل أن تعطى الفرصة إلى ذلك. وبالرغم أن الأمر (كما نتخيل) كان غاية في الجدية من جانب امرأة العزيز، كان الأمر بالنسبة للنسوة (كما نظن) كان حتى الساعة أقرب إلى اللعب واللهو. فلم يخطر ببال النسوة (نحن نفتري القول) أن صاعقة ستقع فوق رؤوسهن بمجرد رؤية هذا الفتى. فلربما أن بعضهن كن قد مللن الرجال من كثرة المعاشرة، فما الجديد الذي يمكن أن يجدنه في فتى امرأة العزيز هذا. فكان الأمر بالنسبة لهن على نحو: دعنا نرى ونجرب، فما الذي سنخسره!!!

لكن المهم في الأمر بالنسبة لامرأة العزيز كان (في ظننا) اشتراطها على من قد تفتن منهن بيوسف وترغب بمراودته عن نفسها أن تقطع يدها. ولعلي لا أدري لم لازلنا حتى اليوم نشترط على بعضنا البعض في حالات التحدي (على الأقل هنا في الأردن) قطع الأيدي إن ثبت عكس ما نظن. فغالبا ما كنت أسمع فلانا يقول لفلان "صدقني إذا طلع كلامك صحيح لأقطع إيدي (باللهجة الأردنية الدارجة). فهل حضر بعضنا ما دار في مجلس امرأة العزيز فأوصل لنا الخبر ثم نسينا مصدره بعد ذلك؟ من يدري!!!

على أية حالة، أظن أن النسوة قد قبلن التحدي وشرط امرأة العزيز ذاك، عندها فقط طلبت المرأة بنفسها من يوسف أن يخرج عليهن:

- ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ... ﴿٣١﴾﴾ [يوسف: 31]

وما أن خرج يوسف عليهن حتى أكبرنه:

- ﴿... فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [يوسف: 31]

وما أن أكبرنه (أي اخترن أن يوقعنه في الفتنة – انظر الجزء السابق لمعنى أكبرنه)، حتى أصبح لزاما عليهن تنفيذ شرط امرأة العزيز أن يقطّعن أيديهن قبل أن تعطى كل واحدة منهن الفرصة لتراود يوسف عن نفسه، فتستعرض مهاراتها الأنثوية في الإيقاع بالفتى:

- ﴿... فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [يوسف: 31]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن امرأة العزيز قد خرجت من ذلك الاجتماع بالانتصار الأول وهو شهادة براءتها الشخصية من المسؤولية لتلقي باللائمة على مجموع النساء خاصة لبنات جلدتها من النساء اللاتي مكرن بها في المدينة:

- فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ

كما أن في ذلك براءة شخصية لها لمن لا يستطيع أن يتفهم الأمر من الرجال كزوجها مثلا. وسنرى بحول الله وتوفيقه تبعات هذا الظن على قولها بعد انكشاف الحقيقة:

- ﴿... قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [يوسف: 51-52]

ولقد زاد الطين بلّة، والموقف إثارة – كما نفهمه- هو اعتراف امرأة العزيز بنفسها لمجموع النسوة الحاضرات بأنها هي من راودت الفتى عن نفسه فاستعصم، فهي إذاً تعترف للنسوة بملء فيها أنها قد فشلت في إيقاع الفتى في شباكها، فأشعل ذلك – في ظننا- عنصر الإثارة عند من حضرت الاجتماع من النسوة، فظنت النسوة أن هذا شيء يمكن أن يكون مثاليا للتسلية وتضييع جزء من الوقت (وهو ما تحتاجه كثير من النساء على الدوام):

- فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمۡتُنَّنِى فِيهِۖ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ

فأصبح الأمر في مخيال النسوة (كما نتصوره) أن هذا الفتى لن يستطيع أن يصمد أمام كل المغريات المتوافرة، وإلا فإن التزام امرأة العزيز بسجنه نافذ لا محالة:

- ﴿... وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ٣٢﴾ [يوسف: 32]

وستكون النتيجة في ظنهن حتى الساعة وقوع هذا الفتى في أيديهن صيدا سهلا، حتى لو طال الزمن. فقد يقاوم الفتى بعض الشيء إلا أن هناك من الوسائل ما يمكن أن تلين جانبه.

ولما كان الأمر جماعيا، أصبح من المتيسر على النسوة القبول بالشروط المقترحة كتقطيع الأيدي، فإذا كانت امرأة العزيز نفسها لازالت راغبة في مراودة الفتى وتتعهد بنجاحها في ذلك، فلم التردد؟ ربما كان منطق النسوة حينئذ:

- ﴿... وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ٣٢﴾ [يوسف: 32]

منطقنا المفترى: ربما كان هذا هو منطق النسوة حينئذ، فنحن نظن أنه لم يكن ليخطر ببال النسوة إطلاقا حينها بأن ما يدبرنه من كيد بحق يوسف (وإن كان حتى الساعة ربما يقع في باب الهزل) لن ينجح مادام أن الفتى قد سلّم أمره إلى ربه الذي لا يتخذ هزوا. فإذا كان كيدهن قد جاء من باب الهزل، فإن عند رب يوسف القول الفصل:

- ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ١٤ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ١٦ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ١٧﴾ [الطارق: 13-17]

ولو أن النسوة كن يعلمن بما ستؤول إليه الأمور في نهاية المطاف، لما وضعن أنفسهن في هذا الموقف البايييييييخ أووي (كما يقول إخواننا المصريون) في مسرحياتهم الهزلية.

انتهت الافتراءات السابقة

سنتابع في هذا الجزء من القصة نفسها الحديث عن الموضوع نفسه محاولين هذه المرة أن نثير بعض التساؤلات الجديدة التي نظن أن باستطاعتنا تقديم بعض التصورات الجديدة المفتراة كأجوبة مقترحة لها، مثل:

⇐ من أولئك النسوة اللاتي حضرن إلى مجلس امرأة العزيز؟
⇐ كم كان عددهن؟
⇐ من أين خرج يوسف عليهن؟

⇐ كيف قطّعن أيديهن بأنفسهن؟ أي كيف كانت آلية تقطيع الأيدي إن كان فعل تقطيع الأيدي (كما زعمنا) فعلا إراديا مقصود بذاته؟
⇐ ماذا كانت ردة فعل أزواج أولئك النسوة وأهلهن عندما رأين أيدهن وقد تقطعت؟
⇐ ماذا كانت ردة فعل المجتمع؟
⇐ ما معنى تقطيع النسوة لأيديهن؟ هل حصل أن فصل كف اليد عن مرفقها كما في فعل قطع يد السارق؟
- ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٣٨﴾ [المائدة: 38]

⇐ ماذا حصل لخبر مراودة امرأة العزيز لفتاها في المدينة كلها بعد أن قطعت نسوة المدينة أيديهن؟
⇐ لماذا تم الزجّ بيوسفَ في السجن بعد ذلك بالرغم أن الفتى كان بريئا مما نسب إليه من التهم؟
⇐ لِم لَم يصح ضمير أحد من أولئك النسوة لتعترف ببراءة الفتى؟ هل ماتت ضمائر البشر عندما تعلق الأمر بيوسف؟
⇐ ما وجه الشبه في هذه الجزئية مع ما حصل ليوسف من قبل إخوته؟ لم لم يصح ضمير أحد من إخوته ليخبر والده المكلوم على فراق ولده بأن ابنه يوسف لم يمت وأنهم قد ألقوه فقط في غيابة الجب فالتقطته بعض السيارة؟
⇐ ما كل هذا السكوت؟ ولماذا هذا الصمت الرهيب الذي كان نتيجته ظلم للعباد؟
⇐ الخ.

أولا: باب النسوة

نبدأ هذا النقاش بإثارة التساؤل التالي: لم كانت نسوة في المدينة هنّ من مكرن بامرأة العزيز؟ لماذا جاء اللفظ بهذه الصيغة؟

- ﴿۞ وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٣٠﴾ [يوسف: 30]

لِم لَم يأتي اللفظ على نحو أن اللاتي مكرن بيوسف هن نساء المدينة مثلا؟ فما الفرق بين النساء من جهة والنسوة من جهة أخرى؟

رأينا المفترى: نحن نظن أنه لو جاء اللفظ على نحو أن اللاتي مكرن بامرأة العزيز هن نساء المدينة لربما أصبح لزاما علينا أن نخرج على الأقل باستنباطين اثنين هما:

1. أن المكر بامرأة العزيز قد جاء من كل نساء المدينة
2. أن الخبر قد انتشر في المدينة كلها

لذا يصبح من غير المستساغ أن تجمع امرأة العزيز كل نساء المدينة في مجلسها، ولربما أصبح من المتعذر أن تسمع بمكرهن كلهن، ولأصبح من المتعذر أن تراود كل نساء المدينة يوسف عن نفسه، و ... الخ.

لذا نحن نظن أن مفردة نسوة تعني "بعض من كل"، أي أن الذي مكر بامرأة العزيز كن "بعض من نساء المدينة وليس كل نساء المدينة". فمفردة النسوة تحمل (برأينا) على التخصيص، بينما تحمل مفردة النساء على التعميم الذي ينطبق على الجميع

الدليل

لو تفقدنا الخطاب القرآني الذي يرد فيه لفظ النساء، لربما وجدنا أن الخطاب موجّه للمجموع، فلقد كان فرعون مثلا يستحيي كل نساء بني إسرائيل:

- ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [البقرة: 49]

فلم يكن استحياء فرعون لنساء من بني إسرائيل خاصة بمجموعة منهن دون نساء أخريات، أي لم يكن الاستحياء يطول بعض نساء بني إسرائيل (إي نسوة منهن)، ولكنه كان يمكن أن يطول كل نساء بني إسرائيل دون استثناء.

وكذلك هو المحيض، فهو أذى يقع على كل النساء بلا تخصيص:

- ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة: 222]

وقد اصطفى الله مريم على نساء العالمين جميعا:

- ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [آل عمران: 42]

فمادام أن مريم قد أُصطفيت على نساء العالمين، فلم توجد ولا توجد ولن توجد امرأة على وجه الأرض يمكن أن تتقدم على مريم بهذا الاصطفاء الإلهي.

والرجال بمجموعهم قوامون على النساء بمجموعهن:

- ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ۚ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ۚ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [النساء: 34]

وعندما وجه الله الخطاب إلى نساء النبي، كان الخطاب موجه لهن جميعا، فجاء اللفظ كذلك:

- ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ٣٠﴾ [الأحزاب: 30]

وكذلك عندما وجه الله الخطاب إلى كل نساء المؤمنين جاء اللفظ على هذا النحو:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٥٩﴾ [الأحزاب: 59]

وقد جاء في كتاب الله التقابل الواضح بين القوم من جهة والنساء من جهة على أنها شريعة ثابتة:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١﴾ [الحجرات: 11]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن مفردة النساء تطلق في النص القرآني إذا كان المقصود عموم النساء الموجه لهن الخطاب، فعندما وُجّه الخطاب إلى نساء النبي كان المقصود فيه كل نساء النبي، وعندما وُجّه الخطاب إلى نساء المؤمنين كان المقصود فيه كل نساء المؤمنين، وعندما وُجّه الخطاب إلى النساء دون إضافة (إضافتها إلى مضاف إليه) كان المقصود شرعة كونية تنطبق على كل النساء دون استثناء.

افتراء من عند أنفسنا: وبمثل هذا الفهم المفترى من عند أنفسنا، نحن نظن أن اللاتي مكرن بامرأة العزيز لم يكن كل نساء المدينة، ولكن نسوة في المدينة (أي عدد من نساء المدينة).

السؤال: ما فائدة مثل هذا الفهم في توضيح ما حصل في قصة امرأة العزيز مع أولئك النسوة؟

رأينا: نحن نجد أن في هذا ذكاء ودهاء خارق من قبل امرأة العزيز، ولكن كيف ذلك؟

رأينا: نحن نظن أن امرأة العزيز قد استطاعت أن تلملم (باللهجة الأردنية) الخبر قبل أن ينتشر في المدينة كلها كانتشار النار في الهشيم. فما أن سمعت بأن مجموعة قليلة من نساء المدينة (أي نسوة) يمكرن بها حتى أرسلت لهن على الفور، لتوقعهن في الشرك ذاته، فتصيب بذلك هدفين اثنين:

⇐ لن تجرؤ أحد من تلك النسوة اللاتي مكرن بها أن تنشر الخبر بنفسها أن أصبحت هي في قفص الاتهام (خاصة أن بيّنة تقطيع الأيدي لازالت علامة فارقة فيها).

⇐ لن ينتشر الخبر في المدينة إلا من باب الإشاعة هذا إن استمر في الانتشار على لسان الآخرين أصلا. فلو أن الخبر استمر بالانتشار في المدينة على لسان قوم آخرين أو نساء أخريات لأصبح محور الحديث يشمل نساء أخريات (أي نسوة)، ولن يصبح الأمر يتعلق بامرأة العزيز على وجه الخصوص، ولربما انتقل الخبر حينها ليقع في باب الشائعات المغرضة أكثر منه في باب انتشار الأخبار الصحيحة. فهل

يستطيع من يريد الخوض في هذا الموضوع أن يتطرق لأعراض كل نسوة المدينة اللاتي كن يتناقلن الخبر بالإضافة إلى امرأة العزيز نفسها؟

نتيجة مفتراة: لو أن الخبر استمر في الانتشار في المدينة خاصة على لسان النسوة أنفسهن لأصبح الدليل قائما عليهن مادام أنهن قد قطعن أيديهن بأنفسهن، ولأصبحت براءة امرأة العزيز يستطيع إثباتها أقل المحامين نصبا وتحايلا آنذاك. فالمرأة لازالتا يداها سالمتين لم تقطعهما سكينا، أليس الدليل المادي هو ما يبحث عنه القاضي؟

ثانيا: باب المكر

ولكن يبقى هناك تساؤل آخر لابد من تجليته في هذه الجزئية وهو أن كلام النسوة في المدينة عن امرأة العزيز جاء من باب المكر ولم يأتي من باب الكيد، فتلك النسوة قد مكرن بامرأة العزيز ولم يكدن لها. انظر النص القرآني نفسه:

- ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ٣١﴾ [يوسف: 31]

ليكون تساؤلنا التالي هو: ما الفرق بين المكر (كما فعلت النسوة مثلا بامرأة العزيز) والكيد (كما حصل ليوسف من قبل النسوة مع امرأة العزيز أو كما حصل ليوسف من قبل إخوته)؟

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن الفرق بين المكر والكيد يكمن في الغاية المرجوة عند من يدبر كل منهما، ففي حين أن كلاً من المكر والكيد ينطويان على إيقاع ضرر بالآخرين إلا أن الفرق يكمن في الغاية المرجوة من كل منهما، ولكن كيف ذلك؟

رأينا: نحن نظن أن الكيد (كما نفهمه) يكون بإيقاع الأذى بالآخر من أجل فائدة مرجوة يمكن تحقيقها من وراء ذلك لمن دبر الكيد، فلقد حذر الوالدُ (يعقوب) الولدَ (يوسف) من كيد إخوته:

- ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ٥﴾ [يوسف: 5]

فلقد كان يعقوب على علم بأن ما يدبره الإخوة بحق أخيهم من مؤامرة يقع في باب الكيد، لأن كيد الإخوة كان مدفوعا بفائدة مرجوة ستطالهم، فكان ذلك من أجل أن يخلُ لهم وجه أبيهم ويكونوا من بعد يوسف قوما صالحين:

- ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ٩﴾ [يوسف: 9]

وربما من هذا الباب نفسه جاء كيد النسوة بيوسف:

- ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٣﴾ [يوسف: 33]
- ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ٥٠﴾ [يوسف: 50]

ولو تدبرنا ما قالته امرأة العزيز بعد انكشاف الحقيقة لوجدنا أنها تصر على أنها لم تكن من الخائنين لأن الله – بنص حديثها- لا يهدي كيد الخائنين:

- ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ٥٢﴾ [يوسف: 52]

فلربما نستطيع أن نفهم من حديثها هذا أن الله ربما يهدي كيد من لم يكن خائنا كيوسف، عندما كاد بإخوته بتدبير إلهي:

- ﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ٧٦﴾ [يوسف: 76]

فيوسف نفسه قد كاد لإخوته في نهاية القصة، وكان ذلك مدفوعا بمصلحة تتحقق له، فاستطاع من خلال ذلك الكيد أن يأخذ أخاه في دين الملك بمشيئة من الله.

السؤال: لماذا لم يأتي تدبير يوسف القصة من أجل أن يأخذ أخاه في باب المكر؟

رأينا: نحن نفتري الظن بأن المكر (يختلف عن الكيد) لأنه لا يتم تدبير المكر – نحن نظن- من أجل تحقيق مصلحة لتعود على من دبره، وإنما فقط لغرض إيقاع الأذى بالغير، وكفى.

فعندما حاول كفار قريش أن يوقعوا الأذى بمحمد (دون أن ينعكس ذلك بفائدة مرجوة عليهم) جاء قول الحق على النحو التالي:

- ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٣٠﴾ [الأنفال: 30]

ولو تدبرنا ما جاء في حديث النسوة عن امرأة العزيز لوجدناه يقع في باب المكر (وليس الكيد):

- ﴿فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ ٣١﴾ [يوسف: 31]

وذلك لأن حديثهن (في رأينا) كان حتى الساعة مدفوعا فقط بغاية واحدة وهي إيقاع الأذى بالمرأة حتى وإن لم يكن ذلك ليجلب عليهن مصلحة بعد ذلك. فالنسوة لم يخبرن يوسف بعد، وكل ما يهم تلك النسوة حتى الساعة هو – في ظننا- تشويه صورة امرأة العزيز التي لا شك أنها من علِية القوم. (وسنتحدث عن هوية المرأة لاحقا بحول الله وتوفيقه).

وما أن خرج يوسف عليهن وأصبح محط عين كل واحدة منهن حتى كان اختيارهن قد وقع على إكباره:

- ﴿... فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [يوسف: 31]

وهنا انقلبت المؤامرة التي تحاك ضد يوسف من قبل النسوة جميعا لتقع في باب الكيد (ولم تكن مكرا به)، وذلك لأن مصلحة ما – في ظننا- سترد عليهن جميعا متى ما نجحن بالإيقاع بالفتى كفريسة لكيدهن، فجاء نداء يوسف لربه عاليا في النبرة والصوت:

- ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [يوسف: 33]

فاختار يوسف طريق السجن بدلا من مراودة النسوة له.

ثالثاً: باب وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ

السؤال: من الذي زج بيوسف بالسجن؟

جواب: نحن نظن أن الذي زج بيوسف في السجن هي امرأة العزيز نفسها، فهي التي تعهدت بنجاح محاولتها وإلا فإن السجن سيكون مصير يوسف إن هو أبى ذلك:

- ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [يوسف: 32]

ولو تدبرنا قولها هذا، لوجدنا لزاما علينا الوقوف في قولها عند مفردتين أو عبارتين اثنتين وهما:

1. وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ
2. وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ

لنخلص من خلال ذلك إلى الاستنباطات التالية:

⇐ أن المرأة ذات مكانة في قومها، فهي صاحبة قول نافذ (أي هي من قد تأمر بالسجن).
⇐ أن من يخالفها الرأي سيكون من الصاغرين

ولو تفقدنا القرآن كله لوجدنا أن من **يأمر فينفذ أمره**، وأن من يخالفه الرأي سيكون من الصاغرين، لوجدناهم ثلاثة فقط، وهم:

1. الله نفسه، فهو الذي أمر إبليس بالسجود لآدم:

- ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف: 12]

وما أن رفض إبليس الأمر الإلهي ذاك حتى كان من الصاغرين:

- ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الأعراف: 13]

2. سليمان: فهو الذي تعهد بأن يكون من لا يطيع أوامره من الصاغرين:

- ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [النمل: 36-37]

3. امرأة العزيز: فهي التي أمرت بسجن يوسف ليكون من الصاغرين لأنه رفض الرضوخ لما أمرته:

- ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [يوسف: 32]

التساؤلات:

⇐ من هي امرأة العزيز هذه؟
⇐ ولماذا تم الزج بيوسف في السجن وقد تبيّن لسيدها أنها هي من راودت يوسف عن نفسه؟
⇐ ألم يشهد شاهد من أهلها أنها هي من كذبت وهو من الصادقين عندما رأى سيدها أن قميص يوسف قد قُدّ من دبر؟
⇐ ألم تعترف امرأة العزيز بملء فيها أمام النسوة بأنها هي من راودته عن نفسه فاستعصم؟
⇐ ألم تتعهد أمام النسوة أنها لن تكف عن مراودته حتى ينصاع لأمرها وإلا فإن السجن سيكون مأواه؟
⇐ الخ.

رأينا: للإجابة على مثل هذه التساؤلات فلابد من الخوض أولا في باب تقطيع النسوة لأيديهن.

رابعا: باب التقطيع الأيدي

أظن أننا نحتاج بداية أن نفهم كيف حدث أن قطّعت النسوة أيديهن في ذلك اللقاء الشهير. فلقد زعمنا الظن بأن تقطيع الأيدي كان فعلا مقصودا بذاته، مشروطا من قبل امرأة العزيز على من أرادت من النسوة أن تجرب حظّها في مراودة يوسف عن نفسه. لكن هذا الطرح يجلب في ثناياه تساؤلات عديدة نذكر منها:

⇐ كيف قطّعت النسوة أيديهن بأنفسهن؟

⇐ كيف كانت آلية تقطيع الأيدي إن كان فعل تقطيع الأيدي (كما زعمنا) فعلا إراديا مقصود بذاته؟
⇐ ماذا كانت ردة فعل أزواج أولئك النسوة وأهلهن عندما رأين أيدهن وقد تقطعت؟
⇐ ماذا كانت ردة فعل المجتمع؟
⇐ ما معنى تقطيع النسوة لأيديهن؟
⇐ فهل حصل أن تم فصل كف اليد عن مرفقها (كما يحدث عندما تطبق حدود الشرع العجيب!!!) في فعل قطع يد السارق؟

- ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٣٨﴾ [المائدة: 38]

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن لازلنا على العقيدة التي مفادها أن الإله يعي ما يقول، وأن ألفاظ القرآن الكريم دقيقة مقصودة لذاتها، ويستحيل أن تسدّ مفردة في كتاب الله مكان مفردة أخرى، وأن المفردة الواحدة تنطوي على المعنى ذاته في جميع السياقات القرآنية التي ترد فيها. وأن عجزنا في فهم المعنى الحقيقي للمفردة هو ما يجعلنا نتنقّل بين معاني كثيرة للمفردة الواحدة في السياقات العديدة. وإن نحن عجزنا حتى عن تقديم معنى جديد للمفردة لن تنقصنا الحيلة في أن نجوّز ما لا يجوز، فنطير للتحليق في عالم المجازات والاستعارات. ولا أرى في ذلك أكثر من تحايل على أنفسنا وهروبا من البحث عن المعنى الحقيقي للمفردة الذي عجزنا عن الوصول إليه (للتفصيل انظر مقالاتنا تحت عنوان جدلية الحقيقة والمجاز في القرآن الكريم و مصادر التشريع في الإسلام، و جدلية عذاب القبر).

ونحن ننصح القارئ الكريم الذي لا يعجبه مثل هذا المنهج بأن لا يتجاوز في القراءة السطر التالي، لأننا سنفتري من القول ما نظن أن أحد من البشر لم يسبقنا إليه. ولكننا لا شك نسأل الله وحده أن يعلمنا الحق الذي نقوله فلا نفتري عليه الكذب، إنه هو الواسع العليم.

أما بعد،

إن غاية ما نود إثارته من هذه الجلبة على جانب بحثنا عن ماهية تقطيع النسوة لأيديهن هو القول بأن عبارة قطع اليد قد وردت بحق تلك النسوة كما وردت في حالة قطع يد السارق أو في حد الحرابة، فهي ذاتها سواء كانت في حالة النسوة اللاتي قطعن أيديهن أوفي حالة قطع يد السارق والسارقة أو في حد الحرابة (كما يرغب أهل الدراية أن يسموها). فلقد جاء اللفظ في الحالات الثلاثة بالمفردات ذاتها، ففي حالة النسوة كان تقطيع الأيدي جليا لا لبس فيه:

- ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ٣١﴾ [يوسف: 31]
- ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ٥٠﴾ [يوسف: 50]

وفي حالة السرقة كان تقطيع الأيدي ليس أقل وضوحا:

- ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٣٨﴾ [المائدة: 38]

وكذلك هو اللفظ كـ جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا:

- ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَاۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣﴾ [المائدة: 33]

وقد كانت هذه شريعة متبعة حتى في زمن فرعون. فعندما شعر فرعون أن موسى من المفسدين في الأرض:

- ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ٥٧﴾ [طه: 57]

كان قراره بحق السحرة الذين اتبعوا موسى هو تقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف:

- ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَاۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ١٢٣ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ١٢٤﴾ [الأعراف: 123-124]
- ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ٧١﴾ [طه: 71]
- ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ٤٩﴾ [الشعراء: 49]

السؤال: ما هو تقطيع الأيدي؟ وكيف كانت تنفّذ آلية تقطيع الأيدي والأرجل؟

افتراء خطير جدا جدا جدا، لا تصدقوه ما لم يثبته الدليل من كتاب الله: نحن نفتري الظن بأن تقطيع اليد لا يكون ببترها (أي بفصل راحة اليد أو الكف عن معصمها أو عن مرفقها). وإلا لأصبح لزاما علينا أن نفهم بأن ما قامت به النسوة في حالة يوسف كان عبارة عن عملية جراحية ربما يعجز عنها الأطباء المهرة الذين يتسلحون بالأدوات الحادة جدا في غرف العمليات في المستشفيات. فهل يعقل أن تقوم النسوة بتقطيع أيديهن بالبتر كليا بمجرد رؤيتهن ليوسف؟ فأي سكين يمكن أن تفعل ذلك؟ وأي كائن حي يمكن أن يتحمل ذلك وهو لا يشعر به (كما أجمعت على ذلك تفسيرات أهل الدراية من قبلنا)؟ من يدري!!!

وإذا كان الأمر كذلك، فكيف يمكن أن نتصور أن يقوم فرعون بصلب من قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف في جذوع النحل؟ فكيف يمكن أن نرسم صورة ذهنية لذلك المشهد؟ من يدري!!!

رأينا المفترى: كلا وألف كلا. فنحن نظن أن ما قامت به النسوة لا يتعدى إحداث جرح في أيديهن باستخدام تلك السكاكين التي آتت كل واحد منهن امرأة العزيز بنفسها.

(يضيف صاحبنا في الادكار (علي) القول معلقا على هذه الجزئية أن أحد الأسباب التي ربما دفعت بامرأة العزيز أن تؤتي كل واحدة من النساء سكينا خاصا بها هو المعرفة التي كانت متوافرة حينئذ في زمن المصريين، تلك المعرفة الخاصة بانتقال المرض من شخص إلى آخر عن طريق الجروح، فلربما خشيت امرأة العزيز أن تكون أحد النساء مصابة بمرض معد ينتقل من خلال تلك السكين إلى الأخريات.)

الافتراء الأكثر خطورة: ونحن نفتري الظن بأن تطبيق حد السرقة بقطع الأيدي لا يكون بأكثر من إحداث جرح في اليد، ولا يجوز بتر اليد عن مرفقها كما تقوم بذلك بعض الحكومات التي تدّعي أنها تطبق شرع الله في الأرض، وهم (في ظننا) لا يقومون بأكثر من تطبيق ما تهواه نفس حاكمهم فيها، الذي اكتسب لنفسه (بما خطت به أقلام أهل الدراية المسيّرين بكلماته وبأهوائه) شرعية أفهمت عوام الناس بأنه خليفة الله في الأرض. ونحن نقول لأصحاب الأقلام التي تتسابق في إصدار الفتاوى التي ترضي أهواء الحكام (إن هم شككوا بكلامنا هذا) نقول لهم أننا ننتظر وإياكم مصيرنا جميعا كما تصوره الآية الكريمة التالية أحسن تصوير:

- ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ٢٦﴾ [سبأ: 26]

وإن كنتم في عجلة من الأمر، فالذي يفصل بيننا وبينكم هو حكم الله في الآية الكريمة التالية التي تعرفونها جيدا:

- ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ٦١﴾ [آل عمران: 61]

وسنحاول في ما تبقى من صفحات هذا الجزء من الكتاب أن نبيّن (مفترين القول بالطبع) كيف عطّل أهل الدراية الأحكام الواردة في كتاب الله ربما مرضاة لأهواء أهل السياسة الذي ركبوهم مطية سهلة لإخضاع رقاب العباد ظلما وجورا. والمثال الذي سنسوقه هو حد قطع يد السارق والسارقة.

الافتراء الخطير جدا جدا: نحن نفتري القول بأن القرآن الكريم – مما نفهمه من بعض آياته- لا يطلب من ولي الأمر أن يقطع بالبتر يد السارق، ولكنه يطلب منه أن يقطع يد السارق بالجرح فقط.

الدليل

دعنا نقرأ آية قطع يد السارق والسارقة كما جاءت في كتاب الله نفسه، قال تعالى:

- ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٣٨﴾ [المائدة: 38]

فلو دققنا في هذه الآية الكريمة لوجدنا أن تطبيق حد السرقة هو من أجل تحقيق غايتين اثنتين لا ثالث لهما:

1. جزاء بما كسب السارق أو السارقة جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا
2. نكالا من الله بالسارق والسارقة على فعلتهما: نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ

السؤال: كيف يمكن أن نفهم أن قطع يد السارق والسارقة يكون جزاء بما كسبا؟ وكيف نفهم أن في تطبيق حد السرقة بقطع اليد نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ ؟

رأينا: ربما نجيب على هذه التساؤلات بإثارة تساؤل كبير لازال بعد أربعة عشر قرن من الفقه (الذي استقر في ضمير الأمة وأصبح ربما غير قابل أن يوضع على طاولة النقاش) تساؤل لا زال يخالج العامة وأهل العلم على حد سواء بخصوص قطع يد السارق، والسؤال هو:

⇐ هل السرقة سرقة بغض النظر عن كمية المال المسروق؟ وهل السرقة هي نفسها سرقة بغض النظر عن آلية تنفيذها؟ وهل السرقة سرقة بغض النظر عن العواقب التي قد تترتب عليها في كل حالة؟ فهل جزاء من سرق دراهم قليلة – مثلا- هو الجزاء نفسه الذي يقع على من سرق مقدّرات الأمة كحكام دولنا الإسلامية العتيدة الذين ما انفكوا وآلهم الطيبين الطاهرين يوما عن سرقة مقدرات الأمة بأكملها وأهل الدراية من أهل العلم العارفين بحدود الله يروجون لهم بأنهم يطبقون حد السرقة بقطع أيدي كل من سولت له نفسه أن تمتد يده لأخذ دراهم معدودة ربما كانت الحاجة هي الدافع لفعل السرقة في كثير من حالاتها؟

⇐ وكيف يمكن أن نطبق حد السرقة بحق من سرق ويسرق مقدرات وثروات الأوطان تحت حماية القانون ونصوص الدستور؟

⇐ فهل نكتفي بأن نقطع أيديهم (إن قدرنا عليهم بالطبع) بنفس الطريقة التي يمكن أن تقطع فيها يد كل من سرق ولو القليل من الأموال؟ فهل سيُذهب ذلك غيض قلوب ملايين المسلمين؟ وهل سيشفي ذلك صدور قوم مؤمنين؟

⇐ **والأهم من هذا كله هو**: هل يحقق ذلك الغايات المنصوص عليها في الآية الكريمة نفسها (جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ)؟ فهل يتساوى الجزاء في ذلك مع جزاء من سرق ولو بعض دراهم لقلة ذات اليد في حين أن كل منهم قد تلقى العقوبة نفسها (وهي قطع اليد كما تصورها فتاوى أهل الدين العجيب)؟

⇐ ثم، ألم يختلف علماؤنا الأجلاء (العارفين حدود الشرع) في تقدير قيمة المال المسروق الذي يجب عنده أن يطبق حد قطع اليد؟

⇐ ألم ينسب بعض أهل الدراية حد تطبيق قطع اليد إلى زمن الجاهلية وجاء الإسلام ليقر الناس على ذلك؟ ومن لم يعلم بمثل هذه الأخبار، فليقرأ ما جاء في تفسير ابن كثير التالي عن الآية الكريمة نفسها:

يقول تعالى حاكما وآمرا بقطع يد السارق والسارقة وروى الثوري عن جابر بن يزيد الجعفي عن عامر بن شراحيل الشعبي أن ابن مسعود كان يقرؤها " والسارق والسارقة فاقطعوا أيمانهما " وهذه قراءة شاذة وإن كان الحكم عند جميع العلماء موافقا لها لا بها بل هو مستفاد من دليل آخر وقد كان القطع معمولا به في الجاهلية فقرر في الإسلام وزيدت شروط أخر كما سنذكره إن شاء الله تعالى كما كانت القسامة والدية والقراض وغير ذلك من الأشياء التي ورد الشرع بتقريرها على ما كانت عليه وزيادات هي من تمام المصالح ويقال : إن أول من قطع الأيدي في الجاهلية قريش قطعوا رجلا يقال له دويك مولى لبني مليح بن عمرو من خزاعة كان قد سرق كنز الكعبة ويقال : سرقه قوم فوضعوه عنده وقد ذهب بعض الفقهاء من أهل الظاهر إلى أنه متى سرق السارق شيئا قطعت يده به سواء كان قليلا أو كثيرا لعموم هذه الآية " والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما " فلم يعتبروا نصابا ولا حرزا بل أخذوا بمجرد السرقة وقد روى ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق عبد المؤمن عن نجدة الحنفي قال : سألت ابن عباس عن قوله " والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما " أخاص أم عام ؟ فقال : بل عام وهذا يحتمل أن يكون موافقة من ابن عباس لما ذهب إليه هؤلاء ويحتمل غير ذلك فالله أعلم وتمسكوا بما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : " لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده ويسرق الحبل فتقطع يده " وأما الجمهور فاعتبروا النصاب في السرقة وإن كان قد وقع بينهم الخلاف في قدره فذهب كل من الأئمة الأربعة إلى قول على حدة فعند الإمام مالك بن أنس - رحمه الله - النصاب ثلاثة دراهم مضروبة خالصة - فمتى سرقها - أو ما يبلغ ثمنها فما فوقه وجب القطع واحتج في ذلك بما رواه عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قطع في مجن ثمنه ثلاثة دراهم أخرجاه في الصحيحين قال مالك - رحمه الله - : وقطع عثمان رضي الله عنه في أترجة قومت بثلاثة دراهم وهو أحب ما سمعت في ذلك وهذا الأثر عن عثمان - رضي الله عنه - قد رواه مالك عن عبد الله بن أبي بكر عن أبيه عن عمرة بنت عبد الرحمن أن سارقا سرق في زمن عثمان أترجة فأمر بها عثمان أن تقوم فقومت بثلاثة دراهم - صرف اثني عشر درهما - فقطع عثمان يده قال : أصحاب مالك ومثل هذا الصنيع يشتهر ولم ينكر فمن مثله يحكى الإجماع السكوتي وفيه دلالة على القطع في الثمار خلافا للحنفية وعلى اعتبار ثلاثة دراهم خلافا لهم في أنه لا بد من عشرة دراهم وللشافعية في اعتبار ربع دينار والله أعلم . وذهب الشافعي - رحمه الله - إلى أن الاعتبار في قطع يد السارق بربع دينار أو ما يساويه من الأثمان أو العروض فصاعدا والحجة في ذلك ما أخرجه الشيخان : البخاري ومسلم من طريق الزهري عن عمرة عن عائشة - رضي الله عنها - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : " تقطع يد السارق في ربع دينار فصاعدا : ولمسلم عن طريق أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن عمرة عن عائشة - رضي الله عنها - أن رسول الله -

صلى الله عليه وسلم - قال : " لا تقطع يد السارق إلا في ربع دينار فصاعدا " قال أصحابنا : فهذا الحديث فاصل في المسألة ونص في اعتبار ربع الدينار لا ما ساواه قالوا : وحديث ثمن المجن وأنه كان ثلاثة دراهم لا ينافي هذا لأنه إذ ذاك فإن الدينار باثني عشر درهما فهي ثمن ربع دينار فأمكن الجمع بهذا الطريق وروي هذا المذهب عن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم وبه يقول : عمر بن عبد العزيز والليث بن سعد والأوزاعي والشافعي وأصحابه وإسحاق بن راهويه في رواية عنه وأبو ثور وداود بن علي الظاهري رحمهم الله . وذهب الإمام أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه في رواية عنه إلى أن كل واحد من ربع الدينار والثلاثة دراهم مرد شرعي فمن سرق واحدا منهما أو ما يساويه قطع عملا بحديث ابن عمر وبحديث عائشة - رضي الله عنها - ووقع في لفظ عند الإمام أحمد عن عائشة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : " اقطعوا في ربع دينار ولا تقطعوا فيما هو أدنى من ذلك " وكان ربع الدينار يومئذ ثلاثة دراهم والدينار اثني عشر درهما وفي لفظ للنسائي " لا تقطع يد السارق فيما دون ثمن المجن" قيل لعائشة ما ثمن المجن قالت : ربع دينار فهذه كلها نصوص دالة على عدم اشتراط عشرة دراهم والله أعلم . وأما الإمام أبو حنيفة وأصحابه : أبو يوسف ومحمد وزفر وكذا سفيان الثوري - رحمهم الله - فإنهم ذهبوا إلى أن النصاب عشرة دراهم مضروبة غير مغشوشة واحتجوا بأن ثمن المجن الذي قطع فيه السارق على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فإن ثمنه عشرة دراهم وروى أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا ابن نمير وعبد الأعلى حدثنا محمد بن إسحاق عن أيوب بن موسى عن عطاء عن ابن عباس قال : فإن ثمن المجن على عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - عشرة دراهم ثم قال : حدثنا عبد الأعلى عن محمد بن إسحاق عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " لا تقطع يد السارق في دون ثمن المجن " وكان ثمن المجن عشرة دراهم قالوا : فهذا ابن عباس وعبد الله بن عمرو قد خالفا ابن عمر في ثمن المجن فالاحتياط الأخذ بالأكثر لأن الحدود تدرأ بالشبهات . وذهب بعض السلف إلى أنه تقطع يد السارق في عشرة دراهم أو دينار أو ما يبلغ قيمته واحدا منهما يحكى هذا عن علي وابن مسعود وإبراهيم النخعي وأبي جعفر الباقر رحمهم الله تعالى . وقال بعض السلف : لا تقطع الخمس إلا في خمس أي في خمسة دنانير أو خمسين درهما وينقل هذا عن سعيد بن جبير رحمه الله وقد أجاب الجمهور عما تمسك به الظاهرية من حديث أبي هريرة " يسرق البيضة فتقطع يده ويسرق الحبل فتقطع يده" بأجوبة أحدها : أنه منسوخ بحديث عائشة وفي هذا نظر لأنه لا بد من بيان التاريخ. " والثاني" أنه مؤول ببيضة الحديد وحبل السفن قاله الأعمش فيما حكاه البخاري وغيره عنه. " والثالث " أن هذه وسيلة إلى التدرج في السرقة من القليل إلى الكثير الذي تقطع فيه يده ويحتمل أن يكون هذا خرج مخرج الإخبار عما كان الأمر عليه في الجاهلية حيث كانوا يقطعون في القليل والكثير فلعن السارق الذي يبذل يده الثمينة في الأشياء المهينة وقد ذكروا أن أبا العلاء المعري لما قدم بغداد اشتهر عنه أنه أورد إشكالا على الفقهاء في جعلهم نصاب السرقة ربع دينار ونظم في ذلك شعرا دل على جهله وقلة عقله فقال : يد بخمس مئين عسجد وديت ما بالها قطعت في ربع دينار تناقض مالنا إلا السكوت له وأن نعوذ بمولانا من النار ولما قال ذلك واشتهر عنه تطلبه الفقهاء فهرب منهم وقد أجابه الناس في ذلك فكان جواب القاضي عبد الوهاب المالكي - رحمه الله - أن قال : لما كانت أمينة

كانت ثمينة ولما خانت هانت ومنهم من قال هذا من تمام الحكمة والمصلحة وأسرار الشريعة العظيمة فإن في باب الجنايات ناسب أن تعظم قيمة اليد بخمسمائة دينار لئلا يجنى عليها وفي باب السرقة ناسب أن يكون القدر الذي تقطع فيه ربع دينار لئلا يسارع الناس في سرقة الأموال فهذا هو عين الحكمة عند ذوي الألباب. ولهذا قال " جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم " أي مجازاة على صنيعهما السيئ في أخذهما أموال الناس بأيديهم فناسب أن يقطع ما استعانا به في ذلك نكالا من الله أي تنكيلا من الله بهما على ارتكاب ذلك " والله عزيز " أي في انتقامه" حكيم " أي في أمره ونهيه وشرعه وقدره .

السؤال: هل جزاء من سرق ربع دينار– يا سادة- هو قطع يده كمن سرق المليارات من مقدرات الأمة؟ وإذا كان الربع دينار (والدينار والعشرة دراهم ونحوهم) يوجبان تطبيق حد السرقة، فكم من أيدي البشر لابد أن تقطع في هذه الساعة؟ فانظر - عزيزي القارئ- في هذه اللحظة إلى يدك، ألا يجب أن تكون الآن مبتورة إن أردت أن تلاقي ربك بقلب سليم؟

وماذا عن مصدر السرقة؟ فماذا لو سرق الولد من جيب والده؟ وماذا لو سرقت المرأة من جيب بعلها؟ وماذا لو سرق الأخ من مال أخيه؟

وماذا عن العفو؟ ماذا لو قام من سُرِق منه شيء بالعفو عن من سَرق منه؟ هل يبقى حد السرقة قائما بقطع يد السارق؟ ألم ينصص القرآن الكريم على أن هناك عفو في القصاص، فتخفف العقوبة:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٨﴾ [البقرة: 178]

وأليس قطع اليد من الجروح التي يجوز فيها القصاص:

- ﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٤٥﴾ [المائدة: 45]

وماذا عن مقاصد الشريعة؟ ألا يزيد قطع يد السارق الطين بلّة؟ أليست معظم السرقات مدفوعة بالحاجة؟ فهل نقطع يد السارق لنرمي به في المجتمع عالة على غيره، طالبا العون من الآخرين؟ ألا يزيد ذلك نقمة في صدره؟ أليس في القصاص حياة لنا:

- ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧٩﴾ [البقرة: 179]

السؤال المهم: ما مقصد الشريعة من تطبيق حد السرقة إذن؟

رأينا: نكالا من الله

- ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٣٨﴾ [المائدة: 38]

نعم، نحن نفتري القول بأن مقصد الشريعة في ذلك هو التنكيل فقط، أي تشيير السارق بعلامة واضحة فارقة لتفضحه بين الناس حتى يحترس الناس منه، جزاء بما اكتسب بيمينه (جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ)، ولكن أين الدليل على ذلك؟

جواب مفترى: نحن نقرأ الدليل على أن التنكيل هو الفضيحة على رؤوس الأشهاد من السياق القرآني التالي الذي يتحدث عن ما حل بالذين اعتدوا في السبت:

- ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِي ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ٦٥ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلٗا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةٗ لِّلْمُتَّقِينَ ٦٦﴾ [البقرة: 65-66]

فلقد كان جَعْلُ الذين اعتدوا في السبت قردة خاسئين تنكيلا بمن قام بتلك الفعلة الشنيعة التي نهاهم الله عنها. لذا فإن في السرقة (كما حصل في أهل السبت) اعتداء على ما نهانا الله أن نقربه، فكان (نحن نفتري الظن) مقصد التشريع في ذلك هو التنكيل، أي التشهير بمن فعل ذلك. ولا أظن أن مقصد الشريعة يكمن في أن نجعل البشر السويين في البنية والجسم من ذوي الاحتياجات الخاصة لنلقي بهم في الشوارع ليكونوا عالة على المجتمع.

ونحن نقرأ أن التنكيل هو تشهير بالشخص ليكون عبرة لغيره فيما حصل لفرعون:

- ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ٢٠ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ٢١ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ٢٢ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ٢٣ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ٢٤ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ٢٥ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةٗ لِّمَن يَخْشَىٰٓ ٢٦﴾ [النازعات: 20-26]

نعم إنها عبرة، ولكنها عبرة بالمثال السيئ كحالة فرعون هذا عندما أنجاه الله ببدنه ليكون آية لمن خلفه:

- ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ٩٢﴾ [يونس: 92]

وكحالة أصحاب السبت الذين جعلهم الله قردة خاسئين، وكذلك هي الغاية من تنكيل السارق: ليكون عبرة لغيره:

- ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٣٨﴾ [المائدة: 38]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن مقصد الشرع في تطبيق حكم السرقة بقطع اليد هو التشهير بالسارق والسارقة وليس إلحاق الأذى الجسدي بهما. ولكن كيف يكون ذلك؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن ذلك يتحقق بإحداث جرح بارز فقط في يد السارق (وليس في بتر اليد عن مرفقها). فإحداث مثل هذا الجرح يبقي علامة بارزة تشهّر بالسارق لكل أهل السوق. فيتبيّن للناس من خلال هذا الجرح أن هذا الشخص المقطوعة يده (بالجرح) هو ممن اعتدى على أموال الآخرين بالسرقة، فيحترس أهل السوق منه. ولعلي أظن أن الهدف من جعل تلك العلامة بارزة في اليد (وليس في مكان آخر في الجسم) ربما يكمن في أن اليد هي وسيلة التعامل في الأسواق، فمن قَدِمَ السوقَ وأراد البيع والشراء فلابد أن يستخدم يده في تبادل السلع بالأموال، فعندما يرى الناس (كل الناس) أن يد هذا الشخص قد قطعت (أي جرحت بطريقة خاصة سنتحدث عنها بحول الله بعد قليل) سيشكل ذلك دافعا للناس بأن يحترسوا من هذا الشخص، وسيكون لهذا الأمر تبعات نفسية جمّة على البشر، فمن يستطيع من الناس أن تسوّل له نفسه أن يسرق من ممتلكات الغير مادام أن الفضيحة (التنكيل) لا محالة حاصلة له على الملأ. فيتحقق بذلك مقصد الشريعة في غايتين اثنتين:

1. مادام أن في تطبيق حد السرقة تنكيل بالشخص أمام الآخرين فإن هذا سيكون رادع قويا لكل من تسول له نفسه العبث بممتلكات الآخرين
2. سيكون في ذلك حماية للمجتمع من كل من سرق شيئا من غيره مادام أن يده لا محالة مقطوعة (ولكنها بالتأكيد ليست مبتورة).

ولا يقل أهمية عن كل هذا في ظننا هو أنه ينتفي بذلك أن يكون في تطبيق الحد اعتداء على الناس، فقطع يد السارق والسارقة هو تشريع من الله الذي نعلم أنه لا يظلم مثقال ذرة:

- ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٤٠﴾ [النساء: 40]

لذا علينا أن لا نوقع ضررا أكبر من حجم الجريمة المرتكبة عندما نطبق شرع الله، ونحن نفتري القول بأن في بيتر يد السارق (كما روّج ويروج لذلك أهل الشرع العجيب) اعتداء على الناس بضرر أكبر من حجم الجريمة المرتكبة. فلا أظن أن من ارتكب جنحة يجب أن يعاقب ويكأنه ارتكب جناية، فالجنحة جنحة والجناية جناية، والعقوبة يجب أن تعكس الفرق بينهما، وهنا فقط يتحقق العدل، ويتقبل الناس بكل صدر رحب تطبيق الشرع الحنيف (بعد أن نفروا قرونا طويلة من الزمن من الشرع العجيب).

وعلينا أن لا ننسى أيضا أن يكون تطبيق حد السرقة (كما نفتري من عند أنفسنا) متساو مع حجم المال المسروق، فمن سرق دراهم معدودة يجب أن لا تكون عقوبته (في ظننا) كمن سرق مقدرات الأمة. ونحن نقرأ ذلك في الآية الكريمة نفسها في قوله تعالى جَزَاء بِمَا كَسَبَا:

- ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٣٨﴾ [المائدة: 38]

ولكن كيف ذلك؟

رأينا: لو حاولنا أن نربط تطبيق حد السرقة هذا مع حد الزنا في الآية الكريمة التالية لوجدنا الفرق – كما نزعم فهمه- واضحا:

- ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٖۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٢﴾ [النور: 2]

السؤال: ما الذي تجده – عزيزي القارئ- فارقا بين تطبيق الحدين (حد قطع اليد في السرقة وحد الجلد في الزنا) كما توضحه مفردات كل آية منهما؟

رأينا: لو أمعنا النظر في الآيتين الكريمتين لوجدنا أنه في حين أن حد السرقة مربوطا بالجزاء في الكسب (وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا)، فإن حد الجلد في حالة الزانية والزاني غير مرتبط بالكسب إطلاقا. ولو دققنا أكثر لوجدنا أن تطبيق حد الزنا منزوع منه جانب الرأفة. والآن، انظر – عزيزي القارئ- الآيتين معا جيدا، وتفقدهما من هذا الجانب:

- ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٣٨﴾ [المائدة: 38]
- ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٖۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٢﴾ [النور: 2]

السؤال: لماذا؟ لماذا لا يجب أن تأخذنا في الزانية والزاني رأفة؟ ولماذا لا يوجد مثل هذا الشرط في تطبيق حد السرقة بقطع اليد؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن لا رأفة في تطبيق حد الزنا بينما تكون الرأفة متوافرة في حد السرقة لأنها ببساطة جزاء بمقدار ما كسب السارق أو السارقة من المال. ولكن كيف يكون ذلك؟

رأينا: نحن نظن قطع يد السارق هي عقوبة تدرّجية، يزيد وينقص القطع فيها بحجم السرقة ودافعها وعواقبها، ولكن جلد الزانية والزاني ليست عقوبة تدرّجية، فلا يزيد الجلد أو ينقص حسب الحالة. وذلك لأن فعل الزنا (نحن نفتري القول) هو فعل واحد بغض النظر عن فاعله وعن آليته وعن دافعه، فلا يوجد من هو

أكثر مهارة في فعل الزنا أو من هو أقل مهارة في ذلك. ولا يوجد زاني أو زانية يأخذ أكثر من زاني أو زانية غيرهم متى ما وقع في فعل الزنا. ولا يفترق الزنا حسب المرأة التي تم ارتكاب الزنا معها، فليس الزنا بذات النسب والجاه يختلف عن الزنا بأقل أهل الأرض منزلة. فالفعل واحد، والمتعة المنشودة واحدة، تبدأ مع الفعل وتنتهي بنهايته، ولا يتحقق العقاب في الجلد بمقدار المتعة التي حصل عليها الزاني أو الزانية من فعلتهما. ولا يكون الزنا مدفوعا في مرة برغبة ما وفي موضع آخر مدفوعا برغبة أخرى، فالرغبة بالزنا هي نفسها في كل الأوقات وتحت جميع الظروف والأحوال. وبكلمات بسيطة نقول: إن ارتكاب فعل الزنا هو ذاته بغض النظر عن يقوم به وبغض النظر عن الطريقة التي ينفذها بها أو الفائدة المتحصلة من وراء ذلك. لهذا كله (وزيادة) لم يكن في تطبيق حد الجلد بحق الزانية والزاني عنصر الرأفة متوافرا، فمادام أن الدافع والوسيلة والنتيجة واحدة في كل فعل زنا قد يحصل (كما نفتري القول من عند أنفسنا)، فقد أمرنا الله بأن لا تأخذنا في تطبيق الحكم رأفة بالزاني أو الزانية:

- ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ [النور: 2]

افتراء من عند أنفسنا: لكننا نفتري الظن بأن مثل هذا المنطق لا ينطبق في حالة السرقة، فالسرقة ليست سرقة واحدة في كل الأحوال وتحت كل الظروف، فأحيانا تكون السرقة مدفوعة بالحاجة، فهناك من يسرق لأنه محتاج، وأحيانا تكون مدفوعة بالجشع، فهناك من يسرق لأنه لا يشبع، وأحيانا تكون مدفوعة بالمرض، فهناك من يسرق لأنه لا يستطيع أن يقاوم نفسه كحالة مرضية.

والسرقة لا شك محكومة بالآلية، فهناك من يسرق لأنه وجد نفسه أمام مغريات لم يستطع أن يقاومها في تلك الساعة وقد لا يكرر ذلك لو تغيرت بعض الظروف، ولكن هناك من يسرق كعادة متكررة لا يمل ولا يكل منها، كالعصابات الحاكمة في بلاد المسلمين الذين حموا أنفسهم بالقانون وبنصوص الدستور ليسرقوا في رابعة النهار مقدرات الأمة (فما أكثر العطاءات والصفقات في بلد المسلمين التي تتضخم قيمتها الاسمية بالملايين والمليارات وتتمخض في النهاية عن مشاريع لا تتجاوز قيمتها الفعلية المئات وربما الألوف في أحسن الحالات!)

والسرقة لا شك محكومة بالمقدار، فهناك سرقات بدراهم معدودة وهناك سرقة بمليارات الدنانير والدراهم والريالات والليرات. فهل من سرق عشرات أو ربما مئات لينفقها على أولاده الجياع، أو ليكسو بها عورة بناته الصبايا الجميلات، كمن سرق المليارات ليخزنها أرصدة في بنوك سويسرا أو صكوكا وأسهما وسندات تنمية في WALL St. تدر بالملايين والمليارات في خزائن الغرب، في الوقت الذي يعاني فيه أطفال المسلمين في كل مكان من سوء التغذية؟ من يدري!!!

أما أنا، فأظن أن كل هذا (وأكثر) ما كان ليكون ممكنا لولا علماء الدين العجيب الذين أحنوا أعناقهم ورؤوسهم مطيّة مريحة لأهل السياسة والوساخة مقابل بعض الفتات الذي يلقونه لهم من موائدهم العامرة على الدوام بين الفينة والأخرى. فأنا لا أتخيل حالهم بأحسن من حال القطط أو الكلاب التي يرمي لها من يأكل الأطباق الفاخرة (ليس رأفة بها) وإنما لتكف عن المواء فلا تزعجه وفي الوقت ذاته تنبهه من الدخلاء غير

المرحب بهم في تلك الساعة. وليحفظ عني كل أبناء المسلمين مقولتي التي لا أمل من تكرارها وهي أننا في بلاد الإسلام لم نُخذل إلا من قبل رجال السياسة ورجال الدين العجيب. فأهل السياسة أقعدونا على الخازوق ورجال الدين هم من سهّلوا دخول ذلك الخازوق فينا بالكريمات والدهونات الدينية التي تسوغ ما لا يسوغ وتسهل ما يصعب تفويته. وأنا مالي؟!!!

لنعد إلى صلب الموضوع بالنتيجة المفتراة من عند أنفسنا التالية: مادام أن فعل السرقة (على عكس فعل الزنا) هو تدرّجي يختلف من واقعة إلى أخرى، كان الجزاء (نحن نظن) هو ما يحكم التطبيق، وهذا ما نفهمه من قوله تعالى في الآية نفسها:

- ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ ... ٣٨﴾ [المائدة: 38]

ولكن كيف ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن أنه يجب الأخذ بعين الاعتبار واقعة السرقة من أجل تقدير الجزاء واضعين نصب أعيننا:

⇐ مكانة الشخص الذي ارتكب السرقة،
⇐ كمية المال المسروق
⇐ الدافع من وراء ارتكاب فعل السرقة
⇐ وعواقب تلك الجريمة على المجتمع،

فمن سرق دراهم معدودة لسد حاجة له ولعياله يجب أن ينفذ به الحكم على قدر المال المسروق والدافع لفعلته (جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا)، فتقطع يده بطريقة معينة تعكس حجم الجريمة التي ارتكبها. ويطبق الحد بطريقة أكثر قسوة على من سرق أكثر ولغرض أكثر جشاعة، وهكذا. ليصبح القطع (أي حجم الجرح) الذي يمكن أن يحدث في اليد معبرا عن مقدار المال المسروق والدافع للسرقة والآلية في تنفيذه.

الدليل

نحن نظن أن بإمكاننا أن نجلب الدليل على افتراءاتنا هذه متى ما تدبرنا بشيء من التمحيص المطلوب على الدوام في تدبر كتاب الله مفردة "القطع" نفسها. فدعنا نطرح السؤال بأبسط أشكاله: ما معنى القطع؟ وكيف يتم قطع الشيء سواء كان ذلك يدا أو رجلا أو أي شيء آخر؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن القطع يمكن أن يتم دون الحاجة إلى فصل الشيء عن أصله. ويمكن أن يتم ذلك لمجرد قطع السبب (أي الرابط أو لنقل الحبل) الذي يربط الشيء بأصله.

عندما ندرس الطلاب اللغة الإنجليزية عادة ما نعطي المثال التالي على مفردة **cut** التي ربما تقابل مفردة **القطع** في اللغة العربية كأن نقول : Look! He's cut his finger

فلا يكون المعنى على الإطلاق بأن الشخص قد قطع إصبعه تماما، ولكن المعنى هو أنه قد أحدث فيه جرحا.

فاللغة الإنجليزية تميز بين مفردة cut التي يمكن أن تقبل الاستمرارية والتي يمكن أن تعني فصل الشيء عن أصله تماما، كأن نقول: He's been cutting the wood

مقابل مفردة cut التي لا تقبل الاستمرارية والتي تكون بمعنى إحداث الجرح ولا تحتمل فصل الشيء عن أصله: He's cut his finger

وأظن أن هذا ما يقابله في العربية استخدام مفردة "قطع" في الجمل التالية:

- ⇐ قطعت الوادي
- ⇐ وقطع الولد الطريق
- ⇐ الخ.

وإذا أردنا أن نعبر عن الفصل الكلي بالقطع لليد أو للرجل في اللغة الإنجليزية فإن مفردة ampulate تصبح هي المفردة التي تفي بالغرض: They had to amputate his foot to free him from the wreckage.

الدليل

نحن نجد (مفترين الظن) الدليل على ذلك في بعض السياقات القرآنية التي تتحدث عن قطع الأشياء. فنجد مثلا آية كريمة تتحدث عن احتمالية وجود قرآن يمكن أن تقطع به الأرض:

- ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾ [الرعد: 31]

فهناك (على الأقل من حيث المبدأ) احتمالية أن يكون هناك قرآن يمكن أن ينزله ربنا لتقطّع به الأرض. فكيف يمكن أن نتصور ما يمكن أن يحصل للأرض لو أنها قطّعت بذلك القرآن؟

(دعاء: اللهم علمني قرآنا تسير به الجبال كما كان لداوود، وقرآنا يكلم به الموتى كما كان لابن مريم، وقرآنا تقطع به الأرض يكون لي -

آمين).

والآية التالية تتحدث عن تقطيع ثياب من نار لمن كفر:

- ﴿۞ هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ١٩﴾ [الحج: 19]

وهناك آية تتحدث عن أولئك الذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل:

- ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٢٧﴾ [البقرة: 27]

وستتقطع الأسباب – لا شك- بالذين اتبعوا:

- ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ١٦٦﴾ [البقرة: 166]

وكما يمكن للأسباب أن تقطّع، فيمكن لها أن تمد:

- ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ١٥﴾ [الحج: 15]

وقد قطع الله طرفا من الذين كفروا بعد معركة بدر:

- ﴿لِيَقۡطَعَ طَرَفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡ يَكۡبِتَهُمۡ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ١٢٧﴾ [آل عمران: 127]

وقد قطع دابر الذين ظلموا:

- ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٥﴾ [الأنعام: 45]

وتم تقطيع الذين ظلموا من بني إسرائيل في الأرض أسباطا:

- ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ١٦٠﴾ [الأعراف: 160]

ويمكن أن تقطّع قلوب الذين ظلموا:

- ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١١٠﴾ [التوبة: 110]

ويمكن أن تقطع الأرحام:

- ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ٢٢﴾ [محمد: 22]

وهناك في نار جهم من سيسقى ماء حميما ليقطع أمعاءهم:

- ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ١٥﴾ [محمد: 15]

السؤال: كيف يمكن أن تتم عملية القطع في كل هذه الحالات؟ فهل يشترط أن يفصل الشيء عن أصله حتى يحدث التقطيع؟

رأينا المفترى: كلا وألف كلا، فكما يمكن أن يتم التقطيع بفصل الشيء عن أصله، يمكن أن يحدث التقطيع دون الحاجة إلى فصل الشيء عن أصله، وانظر – عزيزي القارئ- في السياق القرآني التالي:

- ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ١٢١﴾ [التوبة: 121]

ألا يدل ذلك على أن كل منّا (نحن البشر) يستطيع أن يقطع الوادي، فهل نفصل الوادي عندما نقطعه إلى شطرين منفصلين؟ من يدري!!!

وقد طلب الله من لوط أن يسر بأهله بقطع من الليل:

- ﴿قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ٨١﴾ [هود: 81]

فهل كان ذلك القطع من الليل الذي أسرى به لوط بأهله فيه مفصولا تماما عن قطع الليل الذي سبقه أو ربما الذي لحقه؟ من يدري!!!

وهناك في الأرض قطع متجاورات:

- ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ٤﴾ [الرعد: 4]

فهل القطع المتجاورات مفصولات تماما عن بعضهم البعض؟ من يدري!!!

وهناك من الناس من يقطع السبيل:

- ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٩﴾ [العنكبوت: 29]

فهل يستل من أراد أن يقطع السبيل سيفه ليقسمه إلى نصفين؟ من يدري!!!

السؤال: ما معنى القطع إذن؟

رأينا المفترى: نحن نظن القطع هو النقيض تماما للقائم على أصوله:

- ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ٥﴾ [الحشر: 5]

لنخرج بالاستنباط الخطير التالي الذي لا نطلب من القارئ الكريم أن يتبناه لأنه ليس أكثر من شطحات فكرية نترك لأهل الدراية من علمائنا الأجلاء البت فيها للعامة متى ما فرغوا من جدول أعمالهم الذين وضعه لهم السلطان منتظرا فتاويهم العظيمة من الدين العجيب الذي يعرف أنه موجود عندهم، والاستنباط هو:

كل شيء ليس قائم على أصوله فهو مقطوع

فالعلاقة غير السليمة بين الأرحام التي لا تكون قائمة على أصولها فهي مقطوعة سواء كان ذلك قطعا كليا أو مجرد إحداث خلل فيها:

- ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ٢٢﴾ [محمد: 22]

وستتقطع الأسباب بالذين اتبعوا عندما لا تبقى العلاقة بينهم وبين من اتبعوهم قائمة على أصولها:

- ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ١٦٦﴾ [البقرة: 166]

وعندما لا تكون الأرض متصلة مع بعضها البعض على أصولها أصبحت قطعا متجاورات، حتى ولو لم تنفصل عن بعضها البعض بالكلية:

- ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٤﴾ [الرعد: 4]

والليل عبارة قطع، لأنه ليس قطعة واحدة قائمة على أصولها:

- ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٧﴾ [يونس: 27]

لذا جاء الطلب الإلهي من لوط أن يسري بأهله في واحدة من هذه القطع، وإن كانت جميعها لازالت متصلة مع بعضها البعض لم تفصل تماما:

- ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ٨١﴾ [هود: 81]

الفرق بين الليل والنهار

لاحظ عزيزي القارئ كيف يصور القرآن الكريم جانبا من الفرق بين الليل مقابل والنهار في هذه الجزئية مثلا: ففي حين أن للنهار أطراف، فإن لليل آناء:

- ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ ١٣٠﴾ [طه: 130]

وآناء الليل هذه هي (في ظننا) عبارة عن قطع:

- ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٧﴾ [يونس: 27]

ونحن نظن أن السبب في ذلك ربما يعود إلى حقيقة أن النهار مبصرا:

- ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ٦٧﴾ [يونس: 67]

فهناك الظل الذي جعل الله الشمس عليه دليلا:

- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾﴾ [الفرقان: 45]

لذا، يستطيع الإنسان خلال أي طرف من النهار أن يحسب الوقت الذي هو فيه، ولكن هذا غير ممكن بالنسبة لليل، لأننا لا نستطيع أن نحصيه بنص الآية الكريمة التالية:

- ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ ۙ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾ [المزمل: 20]

ومادمنا أننا لا نستطيع أن نحصي الليل، لا نستطيع أن نميز قطع الليل بعضها عن بعض:

- ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [يونس: 27]

ربما يقودنا فهمنا هذا إلى الافتراء بأن الليل متشابه مع النهار في التركيب حيث أن كل منهم ليس كتلة واحدة متطابقة، وإنما هي عبارة عن كتل متجاورة مقطعة غير قائمة على أصولها، لأن أجزاءها (قطعها أو أطرافها) يختلف بعضها عن بعض وإن لم تكن متفرقة. ولكن الفرق بينهما يكمن في قدرتنا على أن نحصي كتل النهار (فكانت أطرافا) ولكننا لا نستطيع أن نحصي كتل الليل فكانت آناء (قطع متشابهة وإن لم تكن متطابقة ولكنها متواصلة مع بعضها البعض).

ولو دققنا أكثر لوجدنا أن الطرف هو الشيء الذي يكون أكثر ظهورا للعيان، فأطراف الشيء لا يمكن أن يتم تخفيتها. ولكن القطع الأخرى (غير الأطراف) يمكن أن نستطيع التستر عليها ولو بالحيلة.

نتيجة مفتراة: الليل يتكون من قطع غير قائمة على أصولها بالرغم أن الليل كتلة واحدة في نهاية المطاف، وكذلك هو النهار يتكون من أطراف مختلفة غير قائمة على أصولها بالرغم أنه في نهاية المطاف لازال وحدة واحدة.

السؤال: كيف يمكن أن نقطع الشيء فلا يبقى قائما على أصوله في حد السرقة؟ أي كيف يمكن أن نقطع يد السارق دون أن نفصلها تماما عن أصلها؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن ذلك يمكن أن يتم بقطع السبب (أي الرابط أو الحبل بينهما) الذي يمتد بين اليد وأصلها:

- ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾ [الحج: 15]
- ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة: 166]

وأنا افتري الظن بأن هذا السبب هو نفسه السبيل الذي يتم من خلاله مد اليد بالدم من خلال أصلها:

- ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [العنكبوت: 29]

السؤال: كيف تكون الآلية؟ أي كيف يستطيع من ينفذ الحكم أن يطبقه على أرض الواقع؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الآلية يمكن أن نستنبطها من الآية الكريمة التالية:

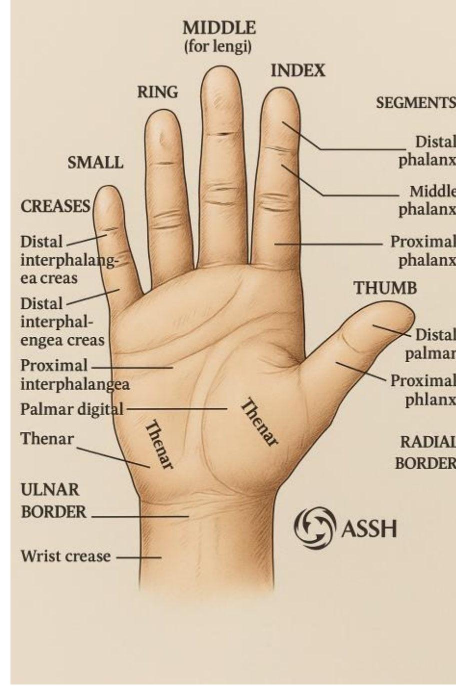
- ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [التوبة: 121]

نحن نظن أن الوادي هو عبارة عن الحد الفاصل بين جبلين، أو بكلمات أكثر دقة هو منطقة الالتقاء بين جسمين اثنين بغض النظر عن حجم كل واحد منهما أو شكله. لكن الذي يهم بالنسبة لنا هو أن الوادي هو

1. الرابط بين الجسمين، حيث يشكل كل جسم منهما كتلة مستقلة بحد ذاتها وإن لم تكن منفصلة تماما
2. المنطقة الأضعف حيث أن كل جسم من الجسمين أكثر تماسكا مع بعضه البعض من تماسكه مع الجسم الآخر
3. يكون الجسمان متجاوران ولكنهما غير منفصلين
4. لكل جسم منهما وظيفته الخاصة به
5. لكل جسم منهما شكله الذي يجعله يختلف عن الآخر
6. الخ

السؤال: أين هو ذلك الوادي؟

رأينا المفترى: إنها الحد الفاصل بين اليد من جهة واليد إلى المرفق من جهة أخرى كما تظهره صورة تشريح اليد التالية،



وهذه المنطقة (أي الوادي) هي التي يطلق عليها باللغة الإنجليزية مفردة (wrist). وهي المنطقة التي يمكن أن تطوى فتشكل ما يشبه التجعدات في الملابس غير المكوية بالمكواة أو ما نسميه بالإنجليزية crease. فتصبح هي المنطقة التي تعرف علميا باسم wrist crease . انظر الشكل السابق.

انظر - عزيزي القارئ – في يدك الآن وحاول أن تجد المنطقة التي تربط اليد مع ما نسميه نحن (ربما تجاوزا) بالساعد، ألا ترى أنها تشكل ما يشبه الوادي المتعرج في طريقة الذي يربط بين كينونتين غير متساويتين في الشكل والوظيفة؟

افتراء خطير من عند أنفسنا هو بكل تأكيد ليس فتوى، فنحن لسنا أصحاب فتاوى وإنما أصحاب آراء وشطحات فكرية لا أكثر: هناك (في ذلك الوادي) يتم إحداث قطع بالسكين ليد السارق أو السارقة، ولكن دون فصل اليد عن الساعد تماما لأن هذا يصبح من باب البتر وليس من باب القطع. ويتم ذلك بتحريك السكين ليقطع ذلك السبب (أي الرابط) الذي يربط الكف (أو اليد) ويمدها كسبيل بالدم القادم إليها من الساعد (أي اليد إلى المرفق). وتزداد حدة القطع بازدياد حجم جريمة السرقة ودافعها وآلية تنفيذها، وتكرر عملية القطع كلما ارتكب السارق جريمة السرقة مجددا.

وأظن أن آلية التنفيذ هذه مهمة جدا ليتم تميز ذاك القطع (أي الجرح) في اليد عن بقية الجروح التي يمكن أن تصيب اليد بعوامل أخرى، كأن يكون الإنسان قد وقع في مشاجرة فأصاب يده شيء من القطع، أو كأن تكون يده ضحية حادث سير على الطريق ونحوها. فلابد من تميز ذلك القطع الذي جاء بسبب جريمة

السرقة عن أي قطع آخر حصل لأي سبب آخر. وأظن أن مكان القطع وآلية تنفيذه كفيلتان بأن تميزان حد قطع اليد في جريمة السرقة عن أي ضرر آخر يمكن أن يلحق باليد جراء فعل آخر غير السرقة.

والله أعلم.

وسنتحدث بشيء من التفصيل في المرة القادمة (إن أذن الله لنا بشيء من علمه) عن تبعات هذا الفهم على فاعلية تطبيق حد السرقة على أرض الواقع، لنفتري عندها الظن بأن حد السرقة يستحيل أن ينفذ على أرض الواقع إلا في حالتين اثنتين فقط، هما:

1. إذا تكرر فعل السرقة، فسنرى أن فعل السرقة العادية لا يقام عليه الحد إذا حصل لأول مرة
2. في حالة سرقة المال العام من قبل الذين من المفترض أنهم يقومون على حمايته

فالله وحده أسأل أن يعلمني ما لم أكن أعلم، وأسأله وحده أن يهديني إلى نوره الذي أبى إلا أن يتمه ولو كره الكافرين، فيعلمني الحق الذي أقوله عليه فلا افتري عليه الكذب، إنه هو الحكيم الخبير- آمين.

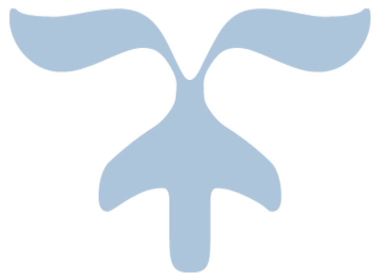
وللحديث بقية

المدّكرون: رشيد سليم الجراح &علي محمود سالم الشرمان
بقلم: د. رشيد الجراح
3كانون أول 2013
د. رشيد الجراح، مركز اللغات، جامعة اليرموك



الجزء العاشر

فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ



الجزء العاشر: فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ

حاولنا في الجزء السابق من هذا الكتاب تقديم تصور مفترى من عند أنفسنا لكيفية تطبيق الحد الشرعي بقطع اليد بحق السارق والسارقة، كما فهمناه من الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٣٨﴾ [المائدة: 38]

وقد جلبت هذا النقاش في خضم حديثنا عن قصة يوسف الآية الكريمة التي تتحدث عن تقطيع النسوة لأيديهن عندما رأينه فأكبرنه:

- ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ٣١﴾ [يوسف: 31]

فظننا أن القطع لا يعني بالضرورة فصل جزء من اليد (مقدمة اليد) عن بقية اليد (الساعد) بالبتر (amputate باللسان الأعجمي) كما ظن أهل الدراية من علمائنا الأجلاء عبر قرون طويلة من الزمن. واكتفينا (كما نزعم الفهم) بالقطع الذي يؤدي إلى إحداث جرح في مكان محدد بذاته في اليد ليكون علامة تشير إلى أن هذا الشخص من اللذين ارتكبوا جريمة السرقة، ويكون ذلك بالقطع (cut باللسان الأعجمي)، فيتحقق بذلك غاية الشارع في ذلك وهو التنكيل بالسارق والسارقة (**نَكَالاً مِّنَ اللّهِ**).

يعرّف القاموس الإنجليزي مفردة القطع (cut) على النحو التالي:

to break the surface of something, or to divide or make something smaller, using a sharp tool ,like a knife

بينما يعرف مفردة البتر (amputate) على النحو التالي: to cut off a part of the body

فيميز اللسان الإنجليزي مفردة cut عن مفردة cut off.

ففي حين أن الأولى تعني إحداث جرج، تعني الأخرى فصل الشيء عن أصله بالكامل.

وافترينا القول بأن تطبيق حد السرقة بقطع اليد يجب أن يكون مميزا عن بقية ما يمكن أن يحدث لليد من أذى بطرق أخرى غير تطبيق حد السرقة. لهذا ظننا أنه يجب أن يتم إحداث القطع ليد السارق أو السارقة بالسكين فقط، وفي مكان محدد بذاته. ويتم ذلك بتحريك السكين (ولا شيء غير السكين) لتقطع السبب (أي الرابط) الذي يربط الكف (أو اليد) ويمدها كسبيل بالدم القادم إليها من الساعد (أي اليد إلى المرفق)، دون فصل اليد عن الساعد تماما لأن هذا يصبح من باب البتر وليس من باب القطع.

ولعلي أظن أن آلية التنفيذ هذه مهمة جدا ليتم تمييز ذاك القطع (أي الجرح) في اليد الذي حدث بسبب تطبيق حد السرقة عن بقية الجروح التي يمكن أن تصيب اليد بعوامل أخرى، كأن يكون الإنسان قد وقع في مشاجرة فأصاب يده شيء من القطع، أو كأن تكون يده ضحية حادث سير على الطريق ونحوها. فلابد من تميز ذلك القطع الذي جاء بسبب جريمة السرقة عن أي قطع آخر حصل لأي سبب آخر. وأظن أن مكان القطع وآلية تنفيذه كفيلتان بأن تميزان حد قطع اليد في السرقة عن أي ضرر آخر يمكن أن يلحق باليد جراء فعل آخر غير السرقة. ولو نظر أحدنا الآن إلى يده من جهة باطن الكف، لوجد الحد الفاصل بين اليد (أي الكف) عن اليد إلى المرفق (أي الساعد) وكأنه يشبه تعرج الوادي الذي يمكن أن ينقبض على بعضه البعض كردة فعل لأي حركة تصيب اليد. فحاول عزيزي القاري تحريك يدك وانظر ما يحدث لذاك الحد الفاصل (الوادي) الواقع بين الكف من جهة والساعد من جهة أخرى. فنحن نظن أنه من الاستحالة بمكان أن يُصاب ذلك الوادي بأي أذى في أي حادث سوء غير مقصود قد يحصل لليد. فيستحيل أن يحدث فيه جرح على طول ذلك الوادي ما لم يكن الجرح (القطع) مقصودا ومتعمدا كحالة قطع يد السارق والسارقة. انظر الشكل التالي:



وظننا أن حجم ذاك القطع يجب أن يكون متناسبا طرديا مع حجم السرقة نفسها لأن قطع اليد كما تشير إلى ذلك الآية الكريمة يكون جزاء لما كسب السارق أو السارقة (جَزَاء بِمَا كَسَبَا). فعلينا أن نستبين حيثيات جريمة السرقة نفسها التي أوجبت تطبيق الحكم من حيث مكانة السارق ودافعه لارتكاب جريمة السرقة وكمية المال المسروق وآلية تنفيذ السرقة. ونحن نظن (مفترين القول من عند أنفسنا) أن تطبيق حد السرقة بقطع يد السارق والسارقة– كما نفتريه بالطبع- يتحقق على أرض الواقع في حالتين اثنتين وهما:

1. إذا تكرر فعل السرقة
2. في حالة سرقة المال العام من قبل الذين من المفترض أنهم يقومون على حمايته

ولكن لماذا؟

جواب المفترى من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن بأن هناك جريمة واحدة فقط لا يمكن لعقوبتها أن تخفف وهي حد الزنا:

- ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ [النور: 2]

(للتفصيل حول كيفية تطبيق حد الرجم، انظر مقالتنا تحت عنوان كيف تم خلق عيسى بن مريم 9؟ وتعدد الزوجات 2)

فالله أمرنا بأن نطبق حدّ الجلد بحق الزانية والزاني دون أن تأخذنا بهما رأفة في دين الله، وأظن أن السبب في ذلك يعود إلى أن الزنا لا يقع في باب القصاص الذي يمكن أن يقع فيه شيء من التخفيف إن حصل عفو من صاحب الحق كما تصور ذلك الآية الكريمة التالية أحسن تصوير:

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ۖ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [البقرة: 178]

ولكن لماذا؟

رأينا: نحن نظن أن القصاص ينطوي على رد الفعل بمثله كما نفهمه نحن من الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [المائدة: 45]

فالقصاص يحمل – برأينا- على معنى رد الفعل بالمثل. فمن قُتِل له قريب، فله الحق أن يقتل بمثله مادام أن (النَّفْسَ بِالنَّفْسِ). ومن فقئت عينه، فله الحق أن يفقأ عين من ألحق الأذى به مادام أن (وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ)، وهكذا بالنسبة للأنف والأذن والسن وكل الجروح.

وهنا يبرز التساؤل التالي: ماذا عن الزنا؟ فهل من تم إلحاق الأذى به بالزنا بمحارمه، هل يحق له أن يرد بالمثل فيزني بمحارم من زنا به؟

جواب: كلا وألف كلا، وذلك لأن الزنا – في رأينا- ليس من القصاص. فالقصاص هو سلوك الطريق نفسها ولكن بالمعكوس:

- ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾ [الكهف: 64]

ويكون ذلك باتباع التفاصيل خطوة بخطوة:

- ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾﴾ [القصص: 11]

ولكن دون الاعتداء لأن الله لا يحب المعتدين:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [المائدة: 87]

نتيجة: من قام بفعل القتل دون حضور الناس حوله، فإن الشارع يطلب منا أن نقتص منه بالقتل على مرأى ومسمع من الناس كافة، ومن فقأ عين شخص في مكان ما، فإن الشرع يطلب منا أن نقتص منه بفقء عينه أمام الناس، وهكذا. والسبب في ذلك – كما نتصوره- يكمن في رد الحقوق إلى أصحابها، وربما ليشفي ذلك صدور المؤمنين ويذهب غيض قلوبهم.

السؤال: وماذا عن السرقة؟

جواب: لو راقبنا ما جاء في هاتين الآيتين الكريمتين لوجدنا بأن التخفيف وارد في حالات القصاص جميعها (حتى في القتل)، أفلا يكون التخفيف واردا في السرقة. وماذا لو سرق (كما ذكرنا سابقا) الولد من جيب أبيه؟ وماذا لو تبيّن أن الزوجة هي من سرقت المجوهرات (التي تبحث عنها شرطة التحقيق) من بيت زوجها (ربما بتدبير مع عشيقها كما صورت ذلك كثير من أفلام الشاشة المصرية؟ وماذا لو تبين لاحقا أن الذي سرق السيارة وفككها قطعا في المدينة الصناعية في ورشة أبو --- صاحب اللحية العريضة والذي لا تفوته صلاة جماعة ويزاحم الناس على الصف الأول في المساجد لما فيه من الأجر العظيم هو أخ أو قريب المسروق منه؟ الخ.

السؤال: كيف سيتم تطبيق حد السرقة بقطع اليد في هؤلاء؟ فهل سيقبل الوالدُ أن تقطع يد ولده لمجرد أنه قد سرق منه بضعة دراهم أو دنانير؟ وهل سيقبل المجتمع أن يوقع الأخ بأخيه حد قطع اليد لمجرد أنه أخذ سيارته؟ وماذا لو تعهد برد السيارة أو بدفع كامل قيمتها؟ الخ.

وماذا لو كان حجم المال المسروق ضخم جدا؟ فهل سترد الحقوق لأصحابها بمجرد قطع يد من سرقه؟ ألا ترى أن شبابنا (وربما شيوخنا) على استعداد أن تقطع أيديهم إن سنحت لهم الفرصة في سرقة الملايين والمليارات إن كان لا يتوجب على السارق أو السارقة رد المال المسروق إلى صاحبه بعد تطبيق الحد؟

رأينا: نحن نظن أن التخفيف ربما يكون واردا في تطبيق حد السرقة في مثل هذه الحالات، شريطة رد الحقوق إلى أصحابها، وضمان عدم تكرار فعل السرقة من قبل من قام به. ولكن مع هذا كله يجب تطبيق حد السرقة في كل هذه الحالات؟

نتيجة مفتراة: نحن نظن أن تطبيق حد السرقة لازم حتى لو تم رد الحقوق إلى أصحابها، وحتى لو تعهد السارق بعدم تكرار فعلته، فلابد من قطع يد من أرتكب الجريمة:

- ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٣٨﴾ [المائدة: 38]

ولكن لماذا؟

رأينا المفترى: لأن السرقة (نحن نفتري القول) ليست من القصاص، ولكنها من الحدود مادام أنك لا تسرق من سرقك كما تفعل في قتل من ارتكب جريمة القتل أو كما تفعل فيمن فقأ عينك أو قطع أذنك أو جدع أنفك أو كسر سنك أو أحدث فيك جرحا في أي مكان آخر من جسمك. فجريمة السرقة لا ترد بالمثل.

السؤال: وكيف يتم تطبيقها في جميع الحالات السابقة؟

رأينا: أظن أنه مادام أن تطبيق حد السرقة هو من أجل التنكيل بالسارق والسارقة فلا بد من وضع علامة (قطع) بحجم الجريمة المرتكبة (جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا) فقط لتشير إلى أن هذا الشخص قد ارتكب جريمة السرقة، فتكون نكالا به من الله (نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ).

وهذه النتيجة المفتراة من عند أنفسنا تعيدنا على الفور للحديث عن السبب الذي نظن أن من أجله قامت النسوة اللاتي راودن يوسف عن نفسه بتقطيع أيديهن.

عودة على قصة يوسف

لماذا قطّعت النسوة أيديهن: نحن نفتري القول بأن تقطيع تلك النسوة لأيديهن لم يكن ليخدم في نهاية المطاف أكثر من غرض واحد، إلا وهو وضع علامة مميزة لكل واحدة منهن لتدل على أنها قد راودت يوسف عن نفسه، فيحصل التنكيل بها على مرأى ومسمع من كل الناس، وهذا ما حصل بالضبط عندما جمعهن الملك في مجلسه:

- ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٥١﴾ [يوسف: 51]

فلم تستطيع أحد من النسوة أن تنكر مراودتها ليوسف عن نفسه في مجلس الملك. فحصل لهن التنكيل بدليل العلامة التي لازالت بارزة في أيديهن، وهي قطع أيديهن.

لكن بقيت امرأة واحدة تستطيع أن تنكر فعلتها، لأن الدليل المادي لم يكن ليطالها، وهي امرأة العزيز نفسها. فـ يد المرأة لم تقطع، والخطاب لم يوجّه لها في مجلس الملك مادام أنه قد وجّه لمن قطّعن أيديهن بطلب من يوسف نفسه:

- ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ٥٠﴾ [يوسف: 50]

فما كان من الملك إلا أن يتوجه في خطابه ذاك إلى تلك النسوة اللاتي قطعن أيديهن:

- ﴿قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٥١﴾ [يوسف: 51]

نتيجة: لعلي أجزم أن امرأة العزيز لم تكن مشمولة بخطاب الملك كما جاء في طلب يوسف.

السؤال: لماذا لم يكن الخطاب ليشملها؟ ولماذا انبرت المرأة من تلقاء نفسها لتعترف على الملأ بفعلتها تلك؟

- ﴿... قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٥١﴾ [يوسف: 51]

الباب الأول: لماذا لم تقطع امرأة العزيز يدها؟

ولماذا لم يطلب يوسف من الملك أن يتبين خبر ما فعلتْ امرأة العزيز به؟ أليست هي من شغفها يوسف حبا؟ أليست هي أكثر من حاولت مراودته عن نفسه؟ أليست هي من تعهّدت بسجنه إن لم يرضخ لرغبتها فيه؟ فما بال يوسف بعد كل هذا يطلب من الملك أن يتحقق مما فعلته النسوة اللاتي قطعن أيديهن به فقط؟

- ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ٥٠﴾ [يوسف: 50]

رأينا: نحن نظن أن هناك دروسا يمكن أن نخرج بها من هذا الموقف.

أولا، أن يوسف لم يكن يستطيع أن يثبت التهمة على امرأة العزيز، فـ يد المرأة غير مقطوعة

ثانيا، حصلت مراودة امرأة العزيز ليوسف بدافع الرغبة، فتغلفت بالكتمان والتستر على الموقف:

- ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَاۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [يوسف: 29]

ثالثا، بالرغم أن رغبة المرأة بيوسف كانت جامحة، إلا أن يوسف لم يكن يستطع أن يتنصل من مسؤوليته من كل ما حصل بينه وبين امرأة العزيز:

- ﴿۞ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِيۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [يوسف: 53]

فصحيح أن امرأة العزيز هي من راودته عن نفسه، وصحيح أنها هي من كانت قد هيئت له، وصحيح كذلك أنها قد همت به، إلا أن يوسف لم يكن ليكذب، ولم يكن لينكر مسؤوليته في أنه قد همّ هو أيضا بها كما همّت هي به، وما منعه عن مواصلة الهمّ بها إلا ذلك القميص الذي رآه:

- ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: 24]

لذا لم يكن ليوسف (وهو الذي لا ينكر حقوق الآخرين حتى لو كان طالبا حقه) ليتخلى عن مسؤوليته (حتى وإن ظننا أنها كانت مسؤولية لا ترقى في حجمها إلى مسؤولية المرأة نفسها في ذلك)، إلا أن من العدل والإيمان (كما تربى عليه يوسف) أن يعترف بمسؤوليته ليضطلع بها.

نتيجة مفتراة: لمّا كان يوسف يرى أنه يجب أن يتحمل جزء من المسؤولية بسبب ما حصل بينه وبين امرأة العزيز، لم يكن ليضع باللائمة عليها وحدها. وأظن أنه كان يرى في سجنه شيئا من العدل لأنه كان يعلم أنه يجب أن ينال شيئا من العقاب نتيجة فعلته عندما حاول أن يهمّ بالمرأة في يوم من الأيام.

رابعا، لكن الصورة تبدو مختلفة بعض الشيء في حالة النسوة، فبالرغم أن النسوة قد راودن يوسف عن نفسه:

- ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۚ ... ﴿٥١﴾﴾ [يوسف: 51]

إلا أن يوسف لم يراود أحد منهن عن نفسها، ولم يصدر عنه أنه قد همّ بأي واحدة منهن، بدليل أن النسوة اعترفن بملء ألفيه أمام الملك أنهن لم يعلمن على يوسف من سوء:

- ﴿... قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍۚ ... ﴿٥١﴾﴾ [يوسف: 51]

خامسا، كان الدافع الأولي الذي أوقع النسوة أساسا في هذا الشرك هو المكر بامرأة العزيز:

- ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [يوسف: 31]

فامرأة العزيز لم تمكر بالنسوة كما مكرهن بها، ولما كان المكر في تصورنا – كما ذكرنا في الجزء السابق من هذا الكتاب- ينطوي على إيقاع الأذى بالآخرين، فإن النية السيئة هي التي أوقعت بالنسوة، ولكن النيّة الحسنة هي التي أنقذت امرأة العزيز نفسها.

الخ.

السؤال: لماذا تقدمت امرأة العزيز في حضرة الملك لتتحمل مسؤوليتها في ما جرى بالرغم أن الخطاب لم يكن أصلا ليشملها؟

افتراء من عند أنفسنا: لعلي أظن أن هذا نابع من خلق امرأة العزيز الراقي، ومن طيب معدنها، ف في موقفاها هذا ردت المرأة الحقوق إلى أصحابها. ولكن كيف ذلك؟

أولا، لعلي أظن أن امرأة العزيز قد أرادت أن ترد أولا الحق ليوسف نفسه. فلقد وجدت المرأة في خلق يوسف هذا (وهو الذي لم يذكرها للملك بسوء) ما أجبرها أن تتقدم بنفسها لتتحمل مسؤوليتها، ولكن كيف ذلك؟

رأينا: لمّا وجدت امرأة العزيز أن خطاب يوسف قد جاء من السجن على نحو الاستفسار عن ما فعلت النسوة اللاتي قطعن أيديهن:

- ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾ [يوسف: 50]

ولمّا سمعت بأذنيها أن الملك يوجّه الخطاب (ومن ثم اللائمة) في ذلك إلى النسوة اللاتي قطّعن أيديهن، انبرت امرأة العزيز في هذه اللحظة لتتحمل هي الأخرى مسؤوليتها لسببين:

1. لترد معروف يوسف لها في ذلك، فهو لم يشملها في الخطاب، ولم يتنصل من مسؤوليته معها
2. لتدفع بالتهمة عن النسوة اللاتي قطعن أيديهن، فهي من أقامت عليهن الحجة في الأصل بهذه البيّنة الفاضحة لهن وهي تقطيع الأيدي.

افتراء من عند أنفسنا: لمّا كانت امرأة العزيز ذات خلق رفيع، وذات مكانة في قومها، ما كانت لتوقع بالنسوة في ذلك الشرك لتتنصل هي منه، فلقد كان هدفها – كما نفهمه- ليس المكر بهن (كما فعلن هن بها يوم أن تحدثن عنها بسوء في المدينة)، ولكنه الكيد بهن (أي لدفع التهمة عن نفسها فقط). ومادام أن التهمة في بلاط الملك لا تلصق الآن بها وحدها، ومادام أن جميع النسوة قد أصبحن في قفص الاتهام، لم يكن لامرأة

العزيز (بخلقها ومكانتها المعهودتين) أن تهرب من الموقف. ولكنها واجهت الموقف بكل شجاعة، فتحملت قسطا من المسؤولية عن يوسف، فاعترفت بأنها هي من راودته عن نفسه وأنه هو من استعصم:

- ﴿... قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٥١﴾ [يوسف: 51]

وفي الوقت ذاته تحملت (نتيجة اعترافها هذا) جزءا من المسؤولية عن النسوة عندما وضعت نفسها في قفص الاتهام معهن.

السؤال: من هي هذه المرأة؟ ولماذا كانت تحضر في بلاط الملك مع النسوة اللاتي قطعن أيديهن أصلا؟

باب: امرأة العزيز

حاولنا أن نبحث في أقول السلف عن بعض المعلومات التي قد تسعفنا للتعرف على شخصية هذه المرأة التي خلدها الله في كتابه الكريم وربط قصتها مع واحد من أنبياءه المخلصين. وبعد بحث سريع في تلك المؤلفات العظيمة لأهل الدراية الذين لا أشك قيد أنملة في صلاحهم، خلصت – عذرا أيها السادة- إلى نتيجة مفادها أنني لا استطيع أن أقدّر معرفتهم تقديري لصلاحهم، فظننت أن ما جاءت به أقوالهم في تفسير الآية الكريمة التالية التي ورد فيها خبر تلك المرأة لأول مرة في كتاب الله:

- ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾ [يوسف: 23]

لم يكن ليروي ظمأ الباحث عن الحقيقة، والأهم من ذلك أني أزعم القول أن في كلامهم من المخالفات العقائدية ما يجعلني أجزم أن مكانه الصحيح هو __________ .

ومن أراد من القراء الكرام أن يجادلنا في ذلك، فليقرأ أولا ملخص ما جاءنا من عند أهل الدراية كما يورده لنا ابن كثير في تفسيره للقرآن الكريم الذي لا زال ركنا أساسيا في كل مؤلفات أهل العلم الذين لازالوا يتصدون لتوضيح مفردات القرآن العظيم للناس. فانظر عزيزي القارئ – يرحمك الله- فيما قالوا أولا، ثم دعنا نناقش بعض كلامهم لاحقا:

> يخبر تعالى عن امرأة العزيز التي كان يوسف في بيتها بمصر وقد أوصاها زوجها به وبإكرامه فراودته عن نفسه أي حاولته على نفسه ودعته إليها وذلك أنها أحبته حبا شديدا لجماله وحسنه وبهائه فحملها ذلك على أن تجملت له وغلقت عليه الأبواب ودعته إلى نفسها " وقالت هيت لك " فامتنع من ذلك أشد الامتناع و " قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي " وكانوا يطلقون الرب على السيد الكبير أي إن بعلك ربي أحسن مثواي أي منزلي وأحسن إلي فلا أقابله بالفاحشة في أهله " إنه لا يفلح الظالمون " قال ذلك مجاهد والسدي ومحمد بن إسحاق وغيرهم وقد اختلف القراء في قوله " هيت لك " فقرأه كثيرون بفتح الهاء وإسكان الياء وفتح التاء قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد : معناه أنها

تدعوه إلى نفسها وقال علي بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس : هيت لك تقول هلم لك . وكذا قال زر بن حبيش وعكرمة والحسن وقتادة قال عمرو بن عبيد عن الحسن وهي كلمة بالسريانية أي عليك وقال السدي : هيت لك أي هلم لك وهي بالقبطية قال مجاهد : في لغة عربية تدعوه بها وقال البخاري وقال عكرمة : هيت لك أي هلم لك بالحورانية وهكذا ذكره معلقا وقد أسنده الإمام أبو جعفر بن جرير حدثني أحمد بن سهل الواسطي حدثنا قرة بن عيسى حدثنا النضر بن علي الجزري عن عكرمة مولى ابن عباس في قوله " هيت لك " قال هلم لك قال : هي بالحورانية وقال أبو عبيد القاسم بن سلام وكان الكسائي يحب هذه القراءة يعني هيت لك ويقول لغة لأهل حوران وقعت إلى أهل الحجاز ومعناها تعال وقال أبو عبيدة : سألت شيخا عالما من أهل حوران فذكر أنها لغتهم عرفها واستشهد الإمام ابن جرير على هذه القراءة بقول الشاعر لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه : أبلغ أمير المؤمن ين أذى العراق إذا أتينا إن العراق وأهله عنق إليك فهيت هيتا يقول فتعال واقترب وقرأ ذلك آخرون هئت لك بكسر الهاء والهمز وضم التاء بمعنى تهيأت لك من قول القائل هئت بالأمر أهيء هئة وممن روي عنه هذه القراءة ابن عباس وأبو عبد الرحمن السلمي وأبو وائل وعكرمة وقتادة وكلهم يفسرها بمعنى تهيأت لك قال ابن جرير : وكان أبو عمرو والكسائي ينكران هذه القراءة وقرأ عبد الله بن إسحاق هيت بفتح الهاء وكسر التاء وهي غريبة وقرأ آخرون منهم عامة أهل المدينة هيت بفتح الهاء وضم التاء وأنشد قول الشاعر : ليس قومي بالأبعدين إذا ما قال داع من العشيرة هيت قال عبد الرزاق : أنبأنا الثوري عن الأعمش عن أبي وائل قال : قال ابن مسعود وقد سمع القراء متقاربين فاقرءوا كما علمتم وإياكم والتنطع والاختلاف وإنما هو كقول أحدكم هلم وتعال ثم قرأ عبد الله هيت لك فقال يا أبا عبد الرحمن ناسا يقرءونها هيت قال عبد الله : أن أقرأها كما علمت أحب إلي وقال ابن جرير : حدثني ابن وكيع حدثنا ابن عيينة عن منصور عن أبي وائل قال : قال عبد الله هيت لك فقال له مسروق إن ناسا يقرءونها هيت لك فقال دعوني فإني أقرأ كما علمت أحب إلي وقال أيضا : حدثني المثنى حدثنا آدم بن إياس حدثنا شعبة عن شقيق عن ابن مسعود قال : هيت لك بنصب الهاء والتاء ولا تهمز وقال آخرون هيت لك بكسر الهاء وإسكان الياء وضم التاء قال أبو عبيد معمر بن المثنى هيت لا تثنى ولا تجمع ولا تؤنث بل يخاطب الجميع بلفظ واحد فيقال هيت لك وهيت لكم وهيت لكما وهيت لكن وهيت لهن.

انتهى الاقتباس

النقاش

لو حاولنا أن نتفقد أقوال السادة العلماء أهل الدراية كما جاءت في هذا التفسير الكبير (حيث هو مرجع طلاب العلم في رسائلهم الجامعية العظيمة التي يشرف عليها جهابذة من أهل الدراية والرواية في كليات الشريعة المنتشرة في عرض البلاد وطولها من عالمنا الإسلامي الكبير)، لربما خرجنا نحن العامة بالملاحظات البسيطة التالية:

1. كان معظم وقتهم الثمين قد أنفقوه في الكسر والفتح والضم والهمز لمفردة (هَيْتَ)، فلقد أنكر البعض منهم على البعض الآخر شيئا من القراءات، واحتدم النقاش، ولكنه تمخض في النهاية – كالعادة- بصحة جميع رواياتهم (انظر آخر جملة في ذلك التفسير- أليس هذا من باب الرحمة بالأمة؟) من يدري!!!
2. أنفق أهل الدراية قسطا من وقتهم الثمين في التعرف على أصل المفردة (هَيْتَ)، فوجدها بعضهم في السريانية ووجدها بعضهم بالقبطية ولم تعدم بعضهم الحيلة أن يجدها بالحورانية. لكن السؤال الذي ربما يشغل تفكيري عندما أقرأ مثل هذا الكلام في أقوال أهل العلم هو: هل نسي سادتنا العلماء أهل الدراية أن هذا القرآن قد أُنزل عربيا؟

- ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢﴾ [يوسف: 2]
- ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرٗا ۝١١٣﴾ [طه: 113]
- ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ۝٢٧ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ۝٢٨﴾ [الزمر: 27-28]
- ﴿كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣﴾ [فصلت: 3]
- ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ۝٧﴾ [الشورى: 7]
- ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٣﴾ [الزخرف: 3]

(على فكرة ما هي الحورانية؟ فهل هي لغة حواري المسيح عيسى بن مريم مثلا؟ أم هي لغة أهل حوران وأنا –لا شك- واحد منهم حيث أسكن فيها أو ربما قريبا منها؟ على أي حال فأنا لا أعرفها، ولكني لم أعدم الأمل بعد أن يخرج علينا من أهل العلم المحدثين (خصوصا من تخصص في الإعجاز العلمي في القرآن الكريم على شاشات الفضائيات الدينية) ليزف إلينا الخبر المفرح أنه قد وجد المفردة في أحد اللغات الاسكندنافية أو في لهجة من لهجات الهنود الحمر الذين انقرضت لغتهم قبل أن تنقرض سلالتهم) من يدري!!!

3. تصور تفسيرات أهل العلم امرأة العزيز تلك على أنها امرأة شبقة قد فتنها جمال يوسف، فأرادت خيانة زوجها، فأصرت على إشباع رغبتها الجنسية.
4. لم تتطرق تفسيراتهم العظيمة للحديث عن شخصية تلك المرأة أو عن هويتها أو حتى عن عائلتها.
5. تصوّر معظم أراء العلماء (أهل الدراية هؤلاء كما أجاءنا عن طريق أهل الرواية، فنحن لم نسمع منهم مباشرة، فلا نجزم بأن هذا الكلام قد قالوه فعلا) على أن تلك المرأة هي من تربى يوسف في بيتها منذ أن جاءت به السيارة، وما أن كبر يوسف في بيتها حتى راودته عن نفسه، لنخرج بالاستنباط البسيط من منطقهم هذا (كما يمكننا أن نفهمه) بأن تلك المرأة لم تكن أكثر من عجوز شمطاء تبحث عن فتى في العشرين من عمره ليداعبها، وليرفث معها.
6. الخ.

ولكن هلاّ ساعدنا علماؤنا الأجلاء بالتعرف أكثر على هوية المرأة؟ أم أن مثل هذا الكلام (كما تقول بعض مؤلفاتهم) ربما يقع في باب العلم الذي لا ينفع ومن باب الجهل الذي لا يضر؟ من يدري!!!

تصور جديد لشخصية امرأة العزيز بافتراءات من عند أنفسنا

دعنا – عزيزي القارئ- ننفق شيئا من وقتنا (غير الثمين بالطبع) في البحث عن تساؤلات مثل:

⇐ من هي تلك المرأة؟
⇐ من هو زوجها؟
⇐ من هو سيدها؟
⇐ فهل سيدها هو زوجها نفسه؟
⇐ أين كانت تسكن؟
⇐ لماذا نسب البيت إليها (وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ) ؟ ولماذا لم يُنسب لزوجها؟
⇐ ما مكانتها في قومها؟
⇐ كم كان عمرها يوم أن راودت يوسف عن نفسه؟ وكم عاشت بعد ذلك من العمر؟
⇐ لماذا قامت بتغليق الأبواب (وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ) بنفسها؟ وكم كان عدد تلك الأبواب؟ وما شكل تلك الأبواب؟ ومن أي مادة كانت تلك الأبواب مصنوعة؟
⇐ كيف هيئت نفسها له؟ وأين هيئت نفسها له؟
⇐ هل كانت تستخدم مستحضرات التجميل بعد هذا العمر المديد لتقاوم عوامل الشيخوخة (anti-ageing) لتبدو أكثر جمالا حتى يهمّ بها يوسف؟
⇐ من أين اشترت غرفة نومها (bedroom) التي جهزتها ليوسف عندما غلقت عليه الأبواب؟ أم هل كان نفس فراش زوجها العتيق؟
⇐ وكيف كان شكل غرفة الضيافة (dinning room) التي قدّمت للنسوة فيها الأترج العظيم؟ على فكرة ما هو الأترج؟ هل يعرفه أحد من القراء (غير أهل العلم الذين يعرفون كل شيء)؟
⇐ وما هي الماركة التجارية التي كانت مطبوع اسمها على تلك السكاكين التي آتت واحد منهن لكل من حضرت وليمة الأترج العظيم؟
⇐ وما اسم محل الفاكهة الذي اشترت منه الأترج؟ وهل قدّمت مع الأترج العظيم نوعا آخر من الفاكهة؟ شوف ما أبخلها (بس نوع واحد من الفاكهة). ألم يكن التفاح والموز والبرتقال والفواكه المدارية معروفة حينئذ؟ وهل كان الأترج من إنتاج الأرض المصرية أم كان مستوردا؟ فما بال الأرض المصرية لم تعد تترج (أي الفعل الذي اشتققته أنا من الأترج)؟
⇐ كم كان في دولابها من الفساتين والحقائب والأحذية المنسقة مع لون طلاء الأظافر (manicure وpedicure) وكحل العين (eyeliner and eye shadow) وطلاء الخدود (and face powder foundation) وروج الشفاه (rouge) كما تنسقه فتياتي جامعتي العتيدة هذه الأيام؟

⇐ وهل كانت تعمل على حرق جسمها بأشعة الشمس (sun tanning) كما تفعل بنات الأصفر اليوم لتغيير لون البشرة؟ ألم تكن تعيش في قصر لا ترى الشمسُ ما في داخله؟

⇐ ماذا كان لون البرادي (curtains) التي كانت تغطي نوافذ منزلها حتى لا يراها أحد من خارج المنزل وهي تراود يوسف عن نفسه وتتهيأ له؟

⇐ الخ.

دعنا – عزيزي القارئ- نضيّع بعض الوقت في هذه القضايا (شو في ورانا، ما نحنا قاعدات، كما كانت تقول أمي بالعامية الأردنية) لنرى هل يمكن أن يكون العلم بمثل هذه الأمور فائدة قد تذكر، وهل كان الجهل بها على مدار أربعة عشر قرنا ونيف من الزمن غير ضار فعلا. من يدري؟!!!

السؤال: من هي تلك المرأة؟

بداية نحن ننكر جملة وتفصيلا – كما افترينا القول في واحدة من المقالات السابقة- أن تكون تلك المرأة هي من تربى يوسف في بيتها. فلا أخال أن المرأة التي ربت صبيا منذ نعومة أظفاره ستنقلب بين ليلة وضحاها لتراوده عن نفسه. فمادام أن المرأة قد ربته فهي قد خبرته منذ صغره، فيستحيل أن تفتن به بعد كل ما خبرته منه. للأسباب التالية:

⇐ **أولا**، إن التي ربته هي التي كانت بنص القرآن تكرم مثواه كما طلب منها بعلها الذي اشترى يوسف من مصر:

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِى مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢١﴾ [يوسف: 21]

السؤال: هل يجري الله الأقدار لهذا الرجل الذي اشترى يوسف وأكرمه، وكان هدفه في الأصل جلب منفعة له ولأهل بيته أو أن يتخذ يوسف ولدا لهما (**عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا**) هل ستكون عاقبة فعله الكريم هذا أن تقع امرأته في حب الفتى نفسه؟

رأينا: إن سلامة نيّة الرجل الذي اشترى يوسف من مصر لن توصله إلى هذا إطلاقا

⇐ **ثانيا**: نحن نظن أن المرأة وزوجها لم يرزقا بالذرية بدليل كلام الرجل من إكرام مثوى يوسف:

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِى مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢١﴾ [يوسف: 21]

لذا، نحن نظن أن المرأة قد ربت يوسف على أن يكون ولدها، فهل يمكن أن تقدم امرأة كانت تعامل الفتى على أنه ولدها على مراودته عن نفسه بعد هذا كله؟

⇐ **ثالثا**، إذا كانت تلك المرأة قد انحدرت بها الأخلاق إلى درجة أن تراود من ربته على أنه ولده عن نفسه، فكيف ليوسف أن يهم بمن كان ينظر إليها على الدوام على أنها والدة له خاصة إذا ما علمنا أن مراودة المرأة ليوسف عن نفسه قد حصلت بعد أن تحصل ليوسف الحكم والعلم من ربه؟

- ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٢٢ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾ [يوسف: 22-23]

⇐ **رابعا**، أما الدليل الأكبر على أن تلك المرأة التي راودت يوسف عن نفسه لم تكن من ربته – كما نزعم- نجده في الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾ [يوسف: 23]

لاحظ - عزيزي القارئ- إلى من نُسب البيت، ولاحظ كيف كان حضور يوسف في ذلك البيت. ألا تجد أن البيت قد نسب إلى المرأة التي راودته عن نفسه:

- وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ

والآن، ألم يكن للبيت الذي تربى فيه يوسف صاحب وهو الذي اشتراه من مصر؟ فكيف إذا ينسب البيت للمرأة؟

ثم، ألا ترى – عزيزي القارئ- أن يوسف كان في بيتها وكأنه غير مقيم (وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ)؟

والآن ألم يكن بيت تلك المرأة التي ربت يوسف هو مثوى ليوسف؟

- وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ

افتراء من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن بأن المرأة التي ربت يوسف كانت تسكن البيت الذي كان مثوى ليوسف، بينما المرأة التي راودت يوسف عن نفسه كانت تسكن بيتا خاصا بها لم يكن مثوى ليوسف.

السؤال: كيف حصل أن جاء يوسف إلى بيت هذه المرأة؟ وماذا كان يعمل هناك؟ (أسئلة سنضطر أن نتعرض لها لاحقا بحول الله وتوفيق منه).

⇐ **خامسا**، لو راقبنا الآية الكريمة التالية لربما تأكد لنا التفريق بين المرأة التي كانت تربى يوسف في بيتها فاتخذته وبعلها ولدا لهما والمرأة التي تواجد يوسف في بيتها فاتخذته فتى لها:

- ﴿۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٣٠﴾ [يوسف: 30]

نتيجة مفتراة: في حين أن المرأة التي ربت يوسف كانت قد اتخذته ولدا لها، فإن المرأة التي راودت يوسف عن نفسه قد اتخذته فتى لها؟

السؤال: ما معنى أن يكون يوسف فتى لتلك المرأة؟

بداية نحن نفتري القول بأن واحدة من أهم الفروق بين من تتخذه ولدا ومن تتخذه فتى هو النكاح. فما اتخذ المؤمنون من الفتيات المؤمنات يمكن أن ينكحهن إن هو أراد ذلك:

- ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٢٥﴾ [النساء: 25]

نتيجة: مادام أن الفتى يمكن أن ينكح فيستحيل – نحن نفتري القول- أن تكون من راودت يوسف عن نفسه هي من اتخذته ولدا.

ثانيا، لم يكن يوسف هو الفتى الوحيد الذي دخل السجن، فكان هناك بالإضافة ليوسف (فتى تلك المرأة) فتيان آخران دخلا معه السجن:

- ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٣٦﴾ [يوسف: 36]

نتيجة مفتراة سنحتاجها لاحقا: نحن نظن أن تلك المرأة التي راودت يوسف عن نفسه هي من تملك أولئك الفتيان الآخران اللذان دخلا السجن مع يوسف. لذا لم يكن يوسف وحده هو فتى تلك المرأة.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: إن صح ظننا هذا، فإن المرأة التي تربى يوسف في بيتها لم يكن يوسف فتى لها، والأهم من ذلك أنه لم يكن في بيتها من الرجال إلا يوسف وبعلها الذي اشتراه من مصر.

ثالثا، لقد اتخذ يوسف لنفسه فتيان بعد أن أصبح هو عزيز مصر:

- ﴿وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٦٢﴾ [يوسف: 62]

نتيجة مفتراة مهمة جدا جدا: الفتى هو من يعمل عند شخص آخر مقابل الأجر، فأولئك الفتيان الذين كانوا يعملون عند يوسف كانوا يقومون بتلك المهمة كوظيفة يأكلون منها قوتهم.

رابعا، كان الذين أووا إلى الكهف فتية:

- ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا ١٠﴾ [الكهف: 10]

فكانوا أصحاب الكهف والرقيم.

- ﴿أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ٩﴾ [الكهف: 9]

نتيجة مفتراة: نحن نفتري الظن بأن الفتى هو شخص يقوم على تقديم خدمة مقابل أجر وذلك لأنه على علم. فقد كان إبراهيم نفسه فتى:

- ﴿قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ ٦٠﴾ [الأنبياء: 60]

وأظن أن إبراهيم كان يقوم على خدمة المعبد مع أبيه آزر (وهو الذي كان يتخذ وقومه الأصنام آلهة):

- ﴿۞وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٧٤﴾ [الأنعام: 74]

وقد اتخذ موسى لنفسه فتى:

- ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا ٦٠﴾ [الكهف: 60]

فكان ذلك الفتى يقوم بتقديم خدمة لموسى:

- ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا ٦٢﴾ [الكهف: 62]

نتيجة مفتراة: الفتى هو شخص يقوم بتقديم خدمة لشخص آخر ربما مقابل الأجر على ذلك.

السؤال: وماذا عن موسى نفسه؟ ألم يكن يقدّم خدمة لشعيب؟ لماذا لم يكن موسى نفسه فتى لشعيب؟

رأينا: نحن نظن أن موسى لم يكن يقدم خدمة لشعيب، ولكنه كان يرعى الغنم لشعيب مقابل أن أنكحه إحدى ابنتيه:

- ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧﴾ [القصص: 27]

نتيجة مفتراة: لم يكن موسى يعمل كفتى لشعيب لأن عمل موسى كان محدد مسبقا بالإجارة المتفق على شروطها مسبقا، فلم يكن موسى يتلقى الأوامر لحظة بلحظة من شعيب. ولم يكن موسى يرافق شعيب في يومه. ولكنه كان ينفذ التزام مسبق اتفقا الاثنان عليه قبل أن يبدأ موسى بعمله:

- ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ٢٨﴾ [القصص: 28]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا (1): عندما يعمل شخص في تنفيذ مهمة (عمل) لشخص آخر ويتفقان على شروط العمل مسبقا مقابل الأجر، يكون ذلك من باب الإجارة كما حصل لموسى مع شعيب.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا (2): عندما يعمل شخص عند شخص آخر ربما مقابل الأجر ولكن دون تحديد وظيفة محددة بعينها وإنما يقوم بتلقي الأوامر مباشرة من صاحب العمل لحظة بلحظة، يصبح ذلك العامل هو فتى لمن يعمل عنده. كما كان في حالة إبراهيم (الذي كان يعمل لأبيه آزر في المعبد) وفي حالة يوسف (الذي كان يعمل عند المرأة)، وكما كان الحال بالنسبة للفتية أهل الكهف الذين كانوا يتلقون التعاليم لحظة بلحظة من معلمهم المسيح عيسى بن مريم (انظر كيف تم خلق المسيح عيسى بن مريم؟). وكما في حالة فتى موسى الذي كان يتلقى التعاليم أولا بأول من موسى نفسه.

ولو دققنا أكثر في قصة موسى مع فتاه لربما جاز لنا أن نفتري القول بأن الفتى يصاحب من يعمل عنده في ذهابه وإيابه، فلقد كان فتى موسى رفيقا له في دربه، بدليل أنهما بلغا مجمع البحرين معا:

- ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا ٦٠ فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا ٦١﴾ [الكهف: 60-61]

وهكذا (برأينا) كان حواري المسيح عيسى بن مريم (أصحاب الكهف)، وهكذا كان فتية يوسف الذين كانوا يتلقون منه الأوامر مباشرة عندما أصبح عزيز مصر:

- ﴿وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٦٢﴾ [يوسف: 62]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: لقد كان يوسف فتى للمرأة لأنه كان – برأينا- يعمل عندها، فيصاحبها في ذهابها وإيابها، وكان يتلقى منها الأوامر مباشرة، لذا لم تتردد المرأة أن تثبت حقها في أنها هي من تأمره:

- ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [يوسف: 32]

السؤال: ماذا كان يعمل يوسف في بيتها؟

جواب: لقد كان يوسف يعمل فتى لتلك المرأة:

- ﴿۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ [يوسف: 30]

نتيجة مفتراة: نحن نفتري الظن بأنه لو كان يوسف يتواجد في بيت من ربته، وأن من ربته هي من راودته عن نفسه، لربما قالت النسوة حينها أن امرأة العزيز تراود عن نفسها من اتخذته ولدا.

وأخيرا، عندما رأت النسوة ذلك الفتى لم تتردد امرأة العزيز أن تبين للنسوة بأن هذا الفتى غريب عن هذه الديار بدليل أن النسوة لم يخبرن يوسف من ذي قبل:

- ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [يوسف: 32]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن بأن يوسف لم يتربى في بيت تلك النسوة وإلا لكان يوسف مألوف ومعروف ولو لبعض تلك النسوة. ولكن الأمر المفاجئ للنسوة كان رؤية يوسف نفسه، فها هي امرأة العزيز تطلب من يوسف أن يخرج عليهن ليرينه بأم أعينهن، فيتعرفن عليه لأول مرة، فما يكون ذلك إلا كوقع الصاعقة على رؤوسهن:

- ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [يوسف: 31]

السؤال المربك جدا: هل لو كان يوسف يتربى في بيت تلك المرأة منذ أن جاءت به السيارة، فكيف بهؤلاء النسوة لم يخبرنه من قبل حتى تكون رؤيته أكثر شيء فيه مفاجأة لهن؟ ألم يكن يوسف فتاها فيصاحبها

على الدوام؟ ما الجديد الذي ستراه النسوة في يوسف؟ لم لم تكن النسوة على علم (على الأقل) باسم الفتى؟ لم جاء حديثهن عنه بالصفة وليس بالاسم؟

جواب: لو تدبرنا رد امرأة العزيز على "انبهار" النسوة برؤية يوسف لوجدنا أنها تشير إليه بطريقة تبين أن النسوة لم يخبرن هذا الفتى من ذي قبل:

- ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [يوسف: 32]

باب: فَذَٰلِكُنَّ

لقد استوقفنا لفظ فَذَلِكُنَّ في قصة يوسف كما يرد في الآية الكريمة التالية التي جاءت على لسان امرأة العزيز نفسها:

- ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [يوسف: 32]

فتوقفنا لنطرح التساؤل التالي: لماذا جاء اللفظ على نحو " فَذَٰلِكُنَّ "؟ لِم لَم يأتي اللفظ على نحو:

فهذا الذي لمتنني فيه؟

أو على نحو:

فذلك الذي لمتنني فيه؟

جواب مفترى: نحن نظن أن اللفظ جاء على لسان امرأة العزيز باستخدام اسم الإشارة الذي يدل على البعيد (أو لنقل الغائب) فاستخدمت ما يشير إلى الغائب وهو (فَذَٰلِكُنَّ) بدلا من اللفظ الذي يدل على القريب (أو الحاضر) مثل "هذا". ولكن لماذا؟

رأينا: عندما طلبت امرأة العزيز من يوسف الخروج على النسوة، جاء رد النسوة مباشرة في حضرة يوسف نفسه مستخدما لفظ الإشارة الذي يدل على القريب (أو لنقل الحاضر) وهو هَذَا. انظر الآية الكريمة:

- ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [يوسف: 31]

لتكون القصة قد حصلت (كما نحيكها في مخيالنا) على النحو التالي:

تجمع امرأة العزيز النسوة، وتعدّ لهن متكأ واحدا، وتؤتي كل واحدة منهن سكينا، ثم تطلب من يوسف أن يخرج عليهن من ذلك المتكأ (أي غرفة النوم)، فيخرج من هناك لتراه النسوة بأم أعينهن، وما أن ترى النسوة يوسف حتى يعبّرن عن دهشتهن بما رأينه، فيجري حديثهن بحضور يوسف نفسه، فيكون استخدام لفظ الإشارة هَذَا ربما ليدل (كما نفهمه) على أن يوسف لازال حاضرا في مجلسهن حينئذ:

- ﴿... وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۝٣١﴾ [يوسف: 31]

وهنا تطلب امرأة العزيز من يوسف (نحن نتخيل) العودة إلى المكان الذي خرج منه (**أي المتكأ**). وتمضي النسوة معا في الحديث قدما عن الفتى الذي رأينه للتو ولكن دون حضور يوسف بينهن، فما يكون من امرأة العزيز نفسها إلا أن تشير إلى يوسف في غيابه، فتستخدم ما يشير إلى أن يوسف لم يعد حاضرا في مجلس النسوة، فجاء اللفظ على لسانها على نحو (فَذَٰلِكُنَّ)

- ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ۝٣٢﴾ [يوسف: 32]

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن امرأة العزيز قد استخدمت لفظ الإشارة " فَذَٰلِكُنَّ " ليدل – برأينا- على أن يوسف لم يكن حاضرا بينهن في تلك اللحظة. وفي هذه اللحظة حيث يغيب يوسف عن المجلس تنبري امرأة العزيز لتبوح للنسوة بالخبر الخطير الذي حاولت أن تتملص منه في حضور سيدها من ذي قبل عندما ألفياه لدى الباب. فما يكون من امرأة العزيز إلا أن تعترف للنسوة بما حصل فعلا على أرض الواقع:

- ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ۝٣٢﴾ [يوسف: 32]

ولا تتوقف عند ذلك، بل تبوح لهن بما هي عازمة على المضي قدما به بخصوص ذاك الفتى:

- ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ۝٣٢﴾ [يوسف: 32]

لكن يبقى هناك تساؤل مشروع لابد من طرحه وهو: لماذا استخدمت امرأة العزيز اللفظ على نحو " فَذَٰلِكُنَّ "؟ لم لم تستخدم اللفظ على نحو فذلك، مثلا، وكفى؟ ألم يكن يوسف هو من لامت النسوة امرأة العزيز فيه؟ أليس يوسف شخص مذكر تستخدم مفردة ذلك للإشارة إليه كما ترشدنا القواعد اللغوية التي صاغها الآباء والأجداد؟ ألم نتعلم في الصف السابع ب الفرق بين هذا وذاك، وهذه وتلك، وذلك وتلك، الخ.

السؤال: ما قصة فَذَٰلِكُنَّ ؟

نحن نظن أن هذا التساؤل سينقلنا على الفور إلى جزئية خطيرة جدا لطالما عرّجنا عليها في كتاباتنا السابقة، جزئية تخص صلب العقيدة فتتأثر وتؤثر بها، ألا وهي تلك الموروثات القواعدية التي أجاءتنا من عند أهل الدراية السابقون (وليس السابقين) التي نقلها أهل الرواية على مر القرون القدماء منهم والمحدثين (وليس المحدثون) – حر أنا هيك بدي أحكي!!!

وقد حاولنا حينئذ أن نقدّم بعض الافتراءات من عند أنفسنا ظانين أن الفرصة لازالت متاحة لتصحيح بعض الأخطاء الموروثة، والقارئ الكريم مدعو لمراجعة كتاباتنا السابقة ليجد أننا حاولنا في مواطن عديدة منها تقديم بعض الاقتراحات التي ظننا أنها جديدة. ونحن نجد الآن أن الضرورة تستدعي أن نوضح للقارئ الكريم (الذي لديه من الوقت ليضيعه في ملاحقة شطحاتنا غير المنضبطة) بأننا قد تبنينا على مدى السنوات القليلة الماضية موقفين من هذه القضية على وجه التحديد، فكان لنا موقف قديم آثرنا حديثا أن يحل محله موقف جديد لنا.

موقفنا القديم: كانت عقيدتنا الخاصة بهذه القضية (الموروثات اللغوية) التي أشرنا إليها سابقا في أكثر من موضع تتمثل بأننا نلقي بظلال الشك على ما وصلنا من تلك التي يرغب أهل اللغة والشريعة أن يسموها "القواعد اللغوية"، فكان طرحنا (الذي غلّفناه حينئذ بشيء من التصنع الأدبي والذي هو ليس جزءا من طبعنا القروي الجاف) يتمثل بأن نعيد النظر في تلك الموروثات من جديد لتنقيتها وتنقيحها من الشوائب والأخطاء (إن وجدتْ بالطبع).

موقفنا الجديد: ما أن وجدنا في كتاب الله من الأمثلة ما نظن أنه يكفي لدحض تلك الموروثات، أصبح موقفنا العقائدي من كل تلك الموروثات يتمثل بأن لا نعمل على تنقيحها وتنقيتها بل التخلص منها نهائيا، فها نحن نعود إلى طباعنا الأصيلة فينا فنترك التصنع الأدبي لبعض الوقت لنعبر عن رأينا بكل جلافة ووضوح لنقول بأننا قد أصبحنا من أصحاب الرأي الذي مفاده أن المكان الصحيح لما وصلنا من قواعد لغوية صاغها الآباء والأجداد هو سلة المهملات (أوrecycle bin بالمفردات الغربية المهذبة)

الدليل

إن الذي دعاني إلى نبش هذه القضية هنا في خضم حديثنا عن تفاصيل قصة يوسف هو تلك المفردة التي يسميها أهل اللغة باسم الإشارة ولم نجدها يوما (على ما أذكر) في كتب القواعد المدرسية، إنها مفردة فَذَٰلِكُنَّ.

وقد تزامن حديثي عن هذه الجزئية مع رسالة بريدية وصلتني من أحد القراء الذين رغبوا أن يضيعوا جزءا من وقتهم في ملاحقة شطحاتنا التي ما انفككنا أن نفتريها من عند أنفسنا. فكان ما وصلني من الأخ محمد نصر الله هو الرسالة الإلكترونية التالية:

استاذي العزيز د/ رشيد

بعد التحية و صباح الخير و الفل و الانوار

هذه رسالة وصلتني من احد الاصدقاء و ارجو من حضرتكم التكرم بإبداء الرأي فيها

نص الرسالة :

اريد من يفهم في اللغه العربيه وقواعدها ان يحل هذا اللغز الألاهي في القرآن.

القرآن يكرر نفس الأيه في سورتين مختلفتين وهما المائده والبقره فيذكر نفس كلمة الصابئين في الأيتين في صورتين مختلفتي ففي الأولى منصوبه وفي الثانيه مرفوعه ولو فعلها طالب في الأمتحان لنال صفر وبجداره.

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٩﴾ [المائدة: 69]

وكان يجب أن ينصب المعطوف على اسم إن فيقول : والصابئين كما فعل هذا وورد في:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢﴾ [البقرة: 62]
- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ١٧﴾ [الحج: 17]

أذن هناك خطأ ومن المستحيل ان يخطأ الله , فمن الذي أخطأ أما الذي كتب القرآن أو الناس التي تناقلت القرآن بأفواهها وهذا ما قالته عائشه

حتى فطاحلة اللغه العربيه لم يجدوا حل لهذا الخطأ الا بقولهم الله أعلم وعندما سألت عائشه عن هذا الخطأ بأعتبار ان النبي قال للمسلمين ستؤخذون نصف دينكم من عند هذه الحميراء قالت هذا الخطأ سببه افواه الناس التي نقلت الأيه بالخطأ وهذا ينفي القول ان القرآن لم يحرف وأنه في لوح محفوظ وأنه من الله فالله من المفروظ ان لا يخطأ.

مع التحية و التقدير

محمد

انتهت الرسالة الإلكترونية

فحاولت أن أرد على تساؤل السيد محمد برسالة مماثلة، أعبر له فيها عن رأي بمثل هذه القضية. وسأحاول أن أضع بين يدي القارئ هنا القضية نفسها بشيء من التفصيل لما قلته للأخ محمد باختصار حينئذ، محاولا في الوقت ذاته تبيان خطورة مثل هذا الكلام على النص القرآني.

أما بعد،

بداية، نحن نظن أن علماءنا الأجلاء (من أهل اللغة وأهل الشريعة) هم من وضعوا في أيدي من يتربص بهذا الدين الكنز الثمين الذي يمكن أن يهاجموا القرآن من خلاله: إنها تلك الموروثات التي ظنوا أنها أخطاء لغوية وردت في كتاب الله (كما يصورها الكثيرون الذي ما انفكوا يوما عن القدح بمصداقية كتاب الله). فكم من المؤلفات المنشورة تناولت ما يشذ من استخدامات لغوية في القرآن؟ ولو أن شخصا قّلب في ساعة واحدة فقط محطات التلفزة الحديثة خاصة الفضائية منها، المهتمة بالشأن الديني وبنقاش ما يسمونه حوار الأديان، لوجد أن جلّ مهمة الكثير منها التربص بأخطاء وعثرات الآخرين، فهذا ينبش بين السطور، وهذا يقلب في أوراق هذا بحثا عن دليل يدين خصمه مما خطت يمينه، وهكذا.

موقفنا: نحن نظن أن البحث والتنقيب في الملفات ظاهرة إيجابية لأن الله لا شك متم نوره ولو كره الكافرون، ولكن بشرط واحد وهو أن يكون الهدف للباحث هو تقصي الحقيقة وليس الإيقاع بالآخرين. فمن كان بيته من زجاج (كما يقول المثل) فلا يجب أن يرمي بيوت الآخرين بالحجارة. فنحن نظن أن الكل (مسلما كان أو مسيحيا أو يهوديا أو بوذيا بمختلف الملل والمذاهب) قد بنى بيته (عقيدته) من أرخص أنواع الزجاج الذي يمكن أن يتكسر بكل يسر وسهوله. فإذا كنت تظن أنك ستجد العثرات في عقيدتي، فأنا على استعداد أن أقدم لك عشرات الأمثلة (بل المئات والألوف) من مثلها في عقيدتك، وهكذا. فما الحل؟

الجواب: نحن نعتقد جازمين أن الله قد اتخذ على نفسه عهدا بأن يتم نوره ولو كره الكافرون، ولا أشير هنا إلى الكافرين الذين لم يؤمنوا بهذا الدين، لكني أشير إلى الكافرين الذين هم الظالمون كما جاء في الآية الكريمة التالية:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٥٤﴾ [البقرة: 254]

فالقرآن يثبت بصريح اللفظ أن " وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ "، ومادام أن الكافرين هم الظالمون، فإننا نظن أن من حقنا أن نفتري القول بأن الظالم هو من افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام، أي كل من كتب شيئا بيمينه (من مثلي) وادعى بأن هذا من عند الله:

- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝٩﴾ [الصف: 7-9]

فالذين يكتبون شيئا بأيديهم ثم ينسبون ذلك إلى الله، فإنهم ممن افترى على الله كذبا، وهم بلا شك ممن يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم (يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ).

ولا يتوقف الأمر عند من كتبوا بأيديهم وافتروا ذلك كذبا على الله، وإنما يتعدى إلى الذين يشككون بما في كتاب الله لأنه لا يوافق ما كتبه الناس بأيديهم، فيستخدموا ذلك كحجة لهم ليكذبوا بآياته.

- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٢١﴾ [الأنعام: 21]

والجهتان هما من الظالمين الذين لن يفلحوا (ولله الحمد والمنّة).

وحتى يصبح حديثنا أكثر صراحة ووضوحا، فإننا نفتري القول من عند أنفسنا أن الآية الكريمة التالية تتحدث عن فئتين من الظالمين وهم:

1. الذي افترى على الله الكذب (**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا**)، فصاغ بيمينه – مثلا- ما سماه بنفسه قواعد لغوية، وقام بعد ذلك بإلباسها لكتاب الله فطبقها عليه، فثبت أن كتاب الله لا يوافقها، ولكنه بقي متمسكا بما خطت يمينه من تلك القاعدة التي كتبها من عند نفسه، فهو – برأينا- ممن افترى على الله كذبا، وهو من الظالمين الذين لن يفلحوا، انظر الآية الكريمة مرة أخرى:
   - ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٢١﴾ [الأنعام: 21]
2. الذي استخدم تلك القواعد اللغوية التي صاغها أقرانه من البشر (أي إنسان مثله)، ثم وجد أن تلك القواعد لا تتطابق مع ما في كتاب الله، فاستخدمها كسيف مسلط على كتاب الله لغرض أن يكذب بآياته (أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ) فهو أيضاً من الظالمين الذين لن يفلحوا (إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ). انظر الآية الكريمة مرة ثالثة:
   - ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٢١﴾ [الأنعام: 21]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن الذي يعرض عن آيات الله لمجرد أنها لا تتماشى مع ما خط الناس بيمينهم (كتلك المسماة بالقواعد اللغوية) هو من الظالمين الذين ستقع عليهم لعنة الله لأنه نسى أن هذا مما قدمت أيدي الناس (وهو لا شك واحد منهم):

- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾ [الكهف: 57]

كيف ينطبق هذا المنطق على أهل اللغة؟

رأينا المفترى: لقد اختط كثير من أهل اللغة (وأقصد هنا اللغة العربية) بيمينهم قواعد لغوية من بنات أفكارهم، ما أنزل الله بها من سلطان، ثم بدأوا يطبقون ذلك على النص القرآني، ومع مرور الزمن ورسوخ المنهج نسي كثير من الناس (أو لربما تناسوا) أن هذه القواعد التي يتحدثون عنها هي في الأساس صناعة بشرية، خطوها بأيديهم.

وبدأ الخطر يتعاظم مع مرور الوقت عندما بدأ كثير من الناس (خاصة العامة منهم كحالتي) يربطون تلك القواعد بالوحي الإلهي. فأنزلوها منزلة من قد أوحي إليه:

- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ۖ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأنعام: 93]

إن أخشى ما أخشاه أن يكون هؤلاء (وأظن نفسي واحدا منهم) من الذين كذبوا على ربهم:

- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ [هود: 18]

اللهم أبرأ إليك مما كتبت يميني إن كان فيه كذب عليك. وأعوذ بك أن أنسب ما كتبت بيميني إليك. وأشهدك أن كل ما كتبت وما أكتب ما هو إلا افترا من عند نفسي. فقولك الحق. وقولي فيه الحق وفيه الباطل. وأسألك وحدك أن تقذف بالحق على الباطل فتدمغه فإذا هو زاهق، إنك أنت الواسع العليم - آمين

وازداد الخطر اشتدادا عندما استخدم المتربصون بهذا الدين تلك الموروثات (التي خطها أهل العربية والإسلام بأيديهم) ليروجوا لهدف واحد في أنفسهم لا يمكن لأي لبيب أن يفوته وهو القدح بهذا الدين (ولا شيء غير ذلك).

مثال

تخرج علينا برامج الفضائيات المعادية صراحة للقرآن لتنشر بين الناس خبر ما يشذ من ألفاظ في القرآن عن ما يسميّه أهل اللغة بقواعد العربية. فنجد في قولهم الحق الذي أريد به الباطل. فهم يقدمون مئات الأمثلة (وهم لا شك محقون) على وجود ما يشذ من استخدامات قواعدية في كتاب الله. وقد حاولنا في مقالة سابقة لنا تحت عنوان ماذا كتب في الزبور؟ أن نقدم بعض تلك الأمثلة. ولا أظن أني بحاجة إلى إعادة طرح هذه الأمثلة هنا. فمن أراد الاستزادة في ذلك فليفتح ذلك الملف.

ولكن الذي يزيد الطين بلّه هو أن تتصدى فضائيات أخرى ممن يعتبرون أنفسهم أهل القرآن للرد على ما يسمونه بالشبهات. فما يكون منهم إلا أن ينكرون الحق جهارا نهارا، ويكأن لسان حالهم لا يريد أن يقرّ بوجود تلك الأخطاء، وفي الوقت ذاته لا نجد في أجوبتهم ما يرد الحجة بالحجة، وإنما يوكلون الأمر إلى الغيب، فينتهي قولهم في جميع الأحوال بالعبارة الاعتذارية التالية: الله أعلم بمراد ذلك.

السؤال: ما المخرج؟

جواب مفترى: نحن نظن أننا نستطيع أن نرد الحجة بالحجة بطريقة سهلة وبسيطة لا تدعو إلى التعصب الأعمى الذي لا يجلب إلا الضرر على الطرفين. ولكن كيف ذلك؟

رأينا: نحن نظن أن الحوار يجب أن يبنى على الأساس المتين التالي: أن كل ما خطته أيدي الأجداد (مما يسمونه بالقواعد) هو صناعة بشرية خاطئة لا ترقى أن تعبّر عن ما في كتاب الله. فكتاب الله حجة على تلك القواعد، ولا يمكن لتلك القواعد مهما بلغت من الإتقان في الصياغة أن تكون حجة على ما في كتاب الله. فالقرآن صناعة بوحي إلهي والقواعد صناعة بشرية، ولا يجوز لما هو بشري (بأبسط أنواع التفكير) أن يكون حجة على ما هو إلهي، وكفى.

الدليل

مثال 1: الفاعل هو من قام بالفعل

سأحاول أن أقدم الأمثلة التي أظن أنها بسيطة ميسرة أولا، ليتسنى للقارئ العادي (غير المتخصص) أن يتابع النقاش بكل يسر وسهوله بحول الله وتوفيق منه. ومن ثم سننطلق إلى ما هو أكثر تعقيدا وإشكالا للعامة وأهل الاختصاص على حد سواء. وسأبدأ النقاش بالمثال الذي "دوّخنا" به معلم العربية منذ الصف الثالث الابتدائي شعبة ب عن تعريف الفاعل. فكان مما لازلت أتذكر (وأظن أن الكثيرون سيتذكرون) من كلام معلمنا الذي لا تغيب صورته البدنية بسوطه المطاطي عن بالي في تعريفه للفاعل بأنه من قام بالفعل:

القاعدة اللغوية: الفاعل هو من قام بالفعل

كما في الأمثلة التالية:

⇐ نام الطفلُ
⇐ زرع الفلاحُ الحق
⇐ شرح المدرسُ درس القواعد المفيدة
⇐ الخ

فالطفل – قال معلمنا كما استطيع أن أتذكّر فحواه- هو الفاعل لأنه هو من قام بفعل النوم، والمزارع هو الفاعل لأنه هو من قام بفعل الزراعة، والمدرس هو الفاعل لأنه هو من أجهد نفسه في نخر القواعد المفيدة في عقولنا بالمعروف آنذاك (السوط).

تساؤلي: لازلت أتمنى لو كنت على قدر من المعرفة حينئذ ربما لأسأل معلمنا عن الأمثلة التالية التي ما أجاءتني إلا متأخرا جدا:

⇐ مات الرجلُ
⇐ انشق القمرُ
⇐ واقتربت الساعةُ
⇐ الخ

فهل الرجل – كنت سأسأل معلمي حينها- هو من قام بفعل الموت كأن يكون قد قال (يله خلينا نروح نموت)؟ وهل القمر هو من اتخذ قرار الانشقاق أو هو من قام بفعل الانشقاق دون قوة خارجية أثرت عليه؟ وهل الساعة مقتربة إلينا باختيارها؟ من يدري!!!

الخطورة: إن من أخطر ما يمكن أن يصيب كتاب الله من أذى أن تحاول (عزيزي القارئ) أن تُلْزِم كتاب الله بتلك القواعد التي صاغتها عقول بشرية وكتبتها أيدي الناس، ثم تبدأ محاكمة ما جاء في كتاب الله بناء عليها ناسيا (أو ربما متناسيا) أنها من صناعة الناس أنفسهم.

مثال 2: الفعل المضارع والفعل الماضي مرتبطات بالزمن

قال لنا معلم العربية: "الفعل الماضي هو الذي يدل على حدث حصل في الزمن الماضي" "والفعل المضارع يدل على أن الفعل لازال حاضرا كما في الأمثلة التالية:

⇐ قال المعلم الحقيقة
⇐ يقول المعلم الحقيقة
⇐ الخ

ليتني كنت على معرفة كافية لأسأل معلمي حينها أن يميز لي بين فعل القول (قال) في الآيتين الكريمتين التاليتين:

- ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٥٥﴾ [آل عمران: 55]
- ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ١١٦﴾ [المائدة: 116]

أليس الفعل قَالَ هو نفسه ما يظهر في الآيتين؟ فلم إذن تتحدث إحداهما عن ما قاله الله لعيسى في الزمن الماضي بينما تتحدث الأخرى عن ما سيكون القول عليه يوم الدين؟

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: عند محاولتهم التصدي لمثل هذه الأمثلة، لم يخطر ببال علمائنا الأجلاء أن ما كتبته أيديهم من القواعد يقع في باب الكلام المفترى كذبا، ولكنهم أصروا على صحته وما كان منهم إلا أن يطيروا في عالم المجاز لتجويز ما لا يجوز، فانفجرت حناجرهم بتعليلات وتفسيرات لا ترقى في أغلب الأحيان أن ترضي صاحبها.

وإذا كان الكثير من أهل الكلام قد قبلوا بتلك التفسيرات وظنوا أنها صحيحة، يبقى التساؤل قائما بالنسبة لي كطفل حينها: كيف بي سأعرب قَالَ في الحالتين على أنه فعل ماض (كما يريد معلمي) وما يدور في ذهني لا يطابق ما أكتبه على ورقة الامتحان؟ ألا تصور الآية الكريمة التالية بفعلها (قَالَ) وبصيغته الماضية مشهدا من مشاهد يوم القيامة التي لم تقع بعد:

- ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ١١٦﴾ [المائدة: 116]

افتراء من عند أنفسنا: إن الذي ينفطر له الفؤاد حزنا (برأينا) هو أن علماءنا الأجلاء (أهل اللغة وأهل الشريعة) لم يرضوا يوما أن يتنازلوا عن قواعدهم الثمينة التي صاغتها عقول أجدادهم، وخطتها أيدي أبائهم، وتناقلها الأحفاد كتابة ومشافهة، فأحبها بعضهم كما أحب ما في كتاب الله بل أشد حبا.

لمثل هؤلاء، فإننا نوجه التساؤل الطفولي البريء التالي: ألم يتنبّه علماؤنا الأجلاء إلى الاستخدامات الثلاثة التالية للفعل المضارع مثلا:

⇐ لم أعرف الحقيقة
⇐ لا أعرف الحقيقة
⇐ لن أعرف الحقيقة

- أليس الفعل "أعرف" بمضارعته المعهودة هو نفسه ما جاء في الاستخدامات الثلاث؟
- ألا يرتبط الاستخدام الأول (لم أعرف الحقيقة) بالزمن الماضي بالرغم أن الفعل في صيغة المضارعة؟

- ألا يرتبط الاستخدام الثاني (لا أعرف الحقيقة) بالزمن المضارع؟
- ألا يرتبط الاستخدام الثالث (لن أعرف الحقيقة) بمستقبل الزمن بالرغم أن الفعل في صيغة المضارعة نفسها كما في الاستخدامين السابقين؟
- فما بال الفعل (أعرف) يستخدم فيها جميعا فلا يغير شكله بناء على عامل الزمن المرتبط بكل جملة؟
- ألم يخطر ببال علمائنا الأجلاء (أهل اللغة والشريعة) بأنه لا علاقة بين الزمن والفعل، وأن فكرة الزمن مرتبطة بالأداة (لم - لا – لن، للزمن الماضي والمضارع والمستقبل على التوالي).

والآن كيف بك (عزيزي القارئ) تقبل أن تنقل "مثل هذه القواعد الذهبية" إلى كتاب الله، وتطلب مني احترامها والالتزام بها. فانظر يرحمك الله في الآية الكريمة التالية مثلا:

- ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ١﴾ [البينة: 1]

فما بال الفعل المضارع " يَكُنِ " يستخدم للحديث عن ما تم وانقضى (أي الزمن الماضي)؟

جواب: أعرف أن كثيرا من القراء الكرام سيردون على الفور بالقول بأن أهل اللغة قد قدّموا إجابات على هذه التساؤلات، وأن ما تقوله ليس جديدا.

رأينا المفترى: أقول لربما أن هذا صحيحا، لكن يبقى هناك ملاحظتان أساسيتان لا يمكن إنكارهما، وهما:

1. أن معظم إجابات السادة العلماء قد وقعت في باب المجاز (أي الالتفاف على الأمر بأي طريقة طارت إليها أذهانهم لتثبيت القاعدة اللغوية لأنهم لا يريدون التخلص مما كتبت أيديهم)، فبقيت تلك الحلول (برأينا) غير مقنعة حتى لمن قدمها بنفسه.
2. أن إجاباتهم غالبا ما تمحورت حول القضايا البسيطة التي ربما يستطيع حتى العامة من الناس إثارتها كتلك التي قدّمناها في المثالين الأول والثاني، ولكنهم لا شك وقفوا عاجزين أمام الخيارات التي ظنوا أنها فعلا صعبة كتلك التي بعثها لي صديقي محمد نصر الله في رسالته الإلكترونية والتي تطالب بتفسير لغوي لما جاء في آيتين كريمتين بخصوص مفردة الصابئين (منصوبة) والصابئون (مرفوعة) بالرغم أن التركيب القواعدي هو نفسه.

القضية محور النقاش

لقد وردت مفردة (الصابئين أو الصابئون) في سورتي البقرة والحج بالنصب:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢﴾ [البقرة: 62]

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ١٧﴾ [الحج: 17]

ولكنها وردت في سورة المائدة بالرفع (وَالصَّابِئُونَ)

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٩﴾ [المائدة: 69]

ولما كانت القاعدة اللغوية التي صاغها الأجداد تطالب بأن يكون النصب هو من نصيب أسم إنّ المشددة وأخواتها (ولا أعرفهن جميعا)، استل المعادون لهذا الدين سيوفهم لينخروا في أذهان العامة (خاصة في عالم الفضائيات الحديث) كيف أن إله محمد لا يعرف كيف ينصب اسم إنّ المشددة في آية المائدة:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٩﴾ [المائدة: 69]

رأينا المفترى من عند أنفسنا: كان الأولى بمن وضع تلك القاعدة اللغوية الذهبية الخاصة بأنّ المشددة أن يذهب بها بنفسه إلى الجحيم. فنحن نظن أن الذي وضع تلك القاعدة وظن أن إنّ (المشددة) تنصب اسمها وترفع خبرها (على عكس كان الناقصة وأخواتها مثلا) هو ممن افترى على الله كذبا. لقد كان الأولى به أن ينتبه إلى ما في كتاب الله قبل أن يهذي بمثل هذا الكلام الذي يعارض ما في كتاب الله بصريح اللفظ.

وكان الأولى بمن لحق به أن يدقق في تلك القواعد الذهبية في ضوء ما جاء في كتاب الله قبل أن يتقبلها دون تمحيص للغث والسمين (كما يقولون بألسنتهم العربية التي أظن أنها قد اعوجّت).

وكان الأولى بكل لبيب (سواء آمن بهذا الدين أو لم يؤمن به) أن يكون منصفا في خصامه، فلا يستخدم تلك القواعد التي اختطها البشر بأيديهم (والتي لا شك هي خاطئة في جلها) ليهاجم من خلالها كتاب الله نفسه. وإن هو فعل بخلاف ذلك فليعلم أنه هو أيضا من الظالمين لأنه كذّب بآيات الله لمجرد أنه وثق بما قال الذين يفترون على الله كذبا، كأولئك الذين صاغوا القواعد الكاذبة بأيديهم:

- ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢١﴾ [الأنعام: 21]

فالذي صاغ القواعد الخاطئة وصدقها كان ظالما لأنه افترى على الله كذبا عندما ظن أنها تنطبق على ما جاء في كتاب الله. فلو وقف مع نفسه لحظة ليسألها: هل الله هو من قال أن إنّ (المشددة) تنصب أسمها (هذا إن كان لها أصلا شيء ليسمى اسمها)؟ فما بال الإله إذن يتلو علينا قرآنا يكون فيه (ما يسمى باسم إنّ) مرفوعا:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٩﴾ [المائدة: 69]

وأما الثاني فقد كان (برأينا) من الظالمين لأنه استخدم تلك الحجة المكذوبة على الله من عند الذين كتبوا شيئا بأيديهم ونسبوه للإله لا لشيء وإنما ليكذب بآيات الله فقط، فكان الأول والثاني (في عقيدتنا) من الذي لا يفلحون- ولله الحمد.

دعاء: اللهم إني أبرأ إليك مما خط الأول بيمينه وأفهم الناس أن هذا ما اشتقه من كتابك الكريم، وأعوذ بك من شر الذي جعل ما كتب الناس بيمينهم تعمة في كتابك الكريم. فهؤلاء - نحن نفتري الظن - هم شياطين الإنس الذين يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ۝١١٢﴾ [الأنعام: 112]

لذا لا أتردد أن أقدم النصيحة لنفسي وللعامة من مثلي أن يذروا هؤلاء جميعا وما يفترون (فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ). وذلك لأننا نملك خيارين اثنين لا ثالث لهما:

1. أن نصدق قواعد أجدادنا فنعترف بأن ما يشذ عنها هو خطأ سواء كان في القرآن أو في غيره. فلا نكذب جهارا نهارا، ولا ننكر الحق الواضح وضوح الشمس في رابعة النهار
2. أن نفترض أن قواعد أبائنا وأجدادنا ليست صحيحة وعلينا أن نعيد النظر فيها لنفهم ما في كتاب الله

أما أنا، فأكاد أجزم القول بأني قد عرفت طريقي منذ زمن بعيد، فتركت قواعد الآباء والأجداد، بل وألقيت بها في سلة المهملات، وجل ما أحاول أن أفعل في جميع كتاباتي (السابقة منها والجارية) أن أتفكر (بحول الله وتوفيق منه) بما في كتاب الله بمنظور الكتاب نفسه، طارحا أقوال الآخرين أرضا متى ما تعارضت مع منطوق النص من كتاب الله (كما أفهمه).

جواب مفترى من عند أنفسنا: أظن مفتريا القول من عند نفسي أن المخرج من هذه المطبات (التي أوقع أهلُ اللغة أهلَ الشريعة فيها، والذين بدورهم أوقعوا العامة في فخهم) هو التعرض لما في كتاب الله دون التسلح مسبقا بتلك التخريصات التي سمّوها بالقواعد اللغوية.

سؤال: وهل هذا ممكنا؟ وكيف يمكن برهان ذلك بالدليل العملي؟

رأينا: دعنا نعود إلى الآيات التي وردت فيها مفردة "الصابئون والصابئين" بالرفع والنصب، ثم نتدبرها دون ربطها بقواعد آباءنا وأجدادنا:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢﴾ [البقرة: 62]
- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٩﴾ [المائدة: 69]

السؤال: وكيف ذلك؟

جواب مفترى: نحن نرى استحالة أن يتم تخريج اللفظ من ظاهره فقط دون تدبر المعنى المراد. لذا من أراد أن يفهم الفرق بين اللفظين فعليه أن يستنبط الحكمة من اختلاف اللفظ، ولا أظن أن هذا ممكنا دون تدبر النص بشكل جيد. لذا علينا أن نحاول أن نفهم النص أولا قبل أن نحاول الخروج باستنباطات قد لا يكون لها أساس (كما فعل أهل اللغة الذين تطيروا بلغتهم فظنوا أنها إلهية لمجرد أن الله قد أنزل الكتاب بها)، فلقد ظن بعضهم أن الإعجاز مصدره لغة آباءه وأجداده، ونسي (أو ربما تناسى) أن الإعجاز يأتي كله من منزل الكتاب نفسه.

السؤال: ما علاقة هذا الكلام باللفظ الوارد في الآيتين (اللتان تكادان تكونان متطابقتين) بشكلين مختلفين: النصب (وَٱلصَّٰبِـِٔينَ) والرفع (وَٱلصَّٰبِـُٔونَ)؟

رأينا: أظن أن السبب يمكن فهمهم (بإذن الله) إن نحن حاولنا أن نفهم بداية معنى المفردة (الصابئين أو الصابئون) نفسها التي أظن أنها تخص من "يتخذ دينا"، لأنها ببساطة مرتبطة بالذين آمنوا والذين هادوا وبالنصارى بغض النظر عن الترتيب:

- إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ
- إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ

والحمد لله أن مفردة " وَٱلصَّٰبِـُٔونَ " في الآية الثانية لم تأتي في نهاية المجموعات لأن علماؤنا الأجلاء لن يعدموا الحيلة حينها أن يرفعوها على الابتداء كما فعلوا في أكثر من مرة في آيات أخرى.

السؤال: ما معنى الصابئون أو الصابئين؟

رأينا: نحن نظن أنهم مجموعة من الذين اتخذوا دينا غير دين قومهم بالضبط مثل الذين آمنوا من المسلمين والذين هادوا والنصارى (إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ). فعندما نقول أن فلانا قد هاد، فهو قد اتخذ اليهودية دينا، وعندما نقول أن فلانا قد آمن، فهو قد ترك الكفر، وبالمثل فإننا عندما نقول أن فلانا قد صبأ فذاك يعني أنه قد اتخذ دينا جديدا يختلف عن ما كان سائدا حينئذ. فهل هذا منطق صعب على أي منا أن يستوعبه؟

السؤال: وما علاقة هذا كله بالنصب (وَٱلصَّٰبِـِٔينَ) والرفع (وَٱلصَّٰبِـُٔونَ)؟

جواب: ربما يمكن أن نستجلي ذلك بكل يسر لو حاولنا التعرض للتساؤل التالي: هل يؤمن الناس جميعا بنفس الطريقة؟ وهل هاد كل من اتخذ من اليهودية دينا بنفس الطريقة؟ وهل صبأ كل الصابئين بنفس الطريقة؟ وهل تنصر كل من اتخذ النصرانية دينا بنفس الطريقة؟

وبكلمات أكثر دقة نقول: كيف يؤمن البشر عادة؟ وكيف يتخذوا لهم عقيدة سواء كانت يهودية أو نصرانية أو صابئة، الخ؟

وبكلمات أكثر عملية أقول: ما الفرق بين إيماني أنا بالإسلام دينا مقابل إيمان أبي بكر وعمر مثلا؟ وما الفرق بين إيماني أنا مثلا وإيمان شخص أمريكي من عائلة يهودية يتخذ الإسلام دينا بعد أن ترك ديانته اليهودية؟ وما الفرق بين مسيحية جورج بوش ومسيحية طالب عربي (كان مسلما) وما أن ذهب ليدرس في المدارس الأمريكية حتى أحب طريقة حياتهم وتقبل دينهم فتنصر؟ وهكذا.

رأينا: علينا أن نميز بين من يؤمن برغبة وبدافع منه، فيترك دين الآباء والأجداد من تلقاء نفسه ويتبع دينا جديدا لأنه وجد فيه ضالته كما فعل أبو بكر وعمر وعثمان وسلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي، مقابل من وجد نفسه مسلما لأنه ولد في عائلة مسلمة (من مثلي) فلم يكن الإسلام خياره بنفسه؟

فهل يستطيع أحد أن يقنعني بأني اتخذت الإسلام دينا لأني اقتنعت به؟ ألم يكن مولدي في عائلة مسلمة هو سبب تمسكي بهذا الدين قبل كل شيء؟ ومن منا اختار دينه طواعية؟!

السؤال: هل أُوضع أنا وأبو بكر في الخانة نفسها من الإيمان؟ أي هل أنا وهو في نفس المجموعة المؤمنة (مسلمين)؟

السؤال: وهل يقع السحرة الذين آمنوا بموسى عندما لقفت عصاه ما يأفكون في خانة الذين هادوا مع شمعون بيريس وإسحق رابين ونتنياهو اللذين يدافعون عن موروثات آبائهم وأجدادهم؟

السؤال: وهل يقع حواريو المسيح عيسى بن مريم في الخانة نفسها من النصارى مع جورج بوش وتوني بلير وجيسي جاكسون وربما (بارك أوباما إن ثبت أنه مسيحي أصلا)؟

الجواب: كلا وألف كلا، فنحن نميز بين نوعين من المؤمنين ونوعين من اليهود ونوعين من النصارى ونوعين من الصابئين

1. هناك من آمن ومن هاد ومن تنصر ومن صبأ باختيار منه شخصيا، فكان هو المسيطر المتحكم بإيمانه على الدوام فهؤلاء. ونكاد نجزم القول (مفترينه من عند أنفسنا) أن هؤلاء هم الذين يستحقون أن يوضعوا في خانة الرفع. ولما كانت الحركة الإعرابية (كما يحب أهل اللغة أن يسموها) أن تظهر على جميعهم لثقل أو لتعذر، ظهرت فقط في مفردة من صبأ، فكانوا صابئون:
   - إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ
2. وهناك – بالمقابل- من آمن ومن هاد ومن تنصر ومن صبأ لأنه – ببساطة- وجد نفسه في الفئة التي أختارها له غيره ممن حوله (كالأهل)، فقبل بها، واتخذها عقيدة وإن لم يكن عن محض إرادة مطلقة منه. فكان هو فاعل فيها بجزء بسيط يتعلق بقبوله لها، ولكن معظم تعاليم الدين كانت واقعة عليه دون اختيار حر منه، فكان في خانة النصب، فكان من الصابئين:
   - إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ

افتراء من عند أنفسنا (1): نحن نظن أن علينا أن نميّز بين من يأخذ العقيدة عن قناعة منه ويكون هو من اختارها كأولئك الذين تركوا دين آباءهم وأجدادهم ولحقوا بدين محمد أو بدين موسى أو بدين عيسى مقابل من اتخذ الدين كموروث عن آباءه وأجداده كأمثال غالبية الناس الذين وجدوا غيرهم من حولهم قد اعتنقوا عقيدة، فاعتنقوها مثلهم، فأصبحت أنا من المسلمين لأن من حولي هم من المسلمين، ووجد غيري نفسه في عائلة مسيحية فأصبح مسيحي، ووجد ثالث نفسه في بيت يعتنق اليهودية فأصبح يهودي، وهكذا.

افتراء من عند أنفسنا (2): ونحن نفتري الظن بأن وجود إنّ المشددة في هذين السياقين القرآنيين لم يكن لتقرير شكل لغوي بالنصب أو بالرفع، وإنما لتقرير حقيقة مطلقة لا جدال فيها، فالكلام الذي يبتدئ بان المشددة يدل – في السياقات القرآنية- على تأسيس حقيقة لا جدال فيها، كما في قوله تعالى:

- ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٠﴾ [القصص: 30]
- ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢﴾ [طه: 12]
- ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩﴾ [النمل: 9]
- ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٦٩﴾ [يوسف: 69]
- ﴿وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ۝٨٩﴾ [الحجر: 89]
- ﴿إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠﴾ [طه: 10]
- ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧﴾ [النمل: 7]

- ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٧٨﴾ [يوسف: 78]
- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٦﴾ [البقرة: 6]
- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩﴾ [البقرة: 159]
- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٦١﴾ [البقرة: 161]
- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٤﴾ [البقرة: 174]
- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢١٨﴾ [البقرة: 218]
- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٧٧﴾ [البقرة: 277]

السؤال: وما فائدة الاختلاف في اللفظ بين الرفع والنصب في مفردتي (وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ) في الآيات محور النقاش؟

جواب: نحن نظن أن في ذلك عدالة إلهية مطلقة، ولكن كيف ذلك؟

رأينا: هل تظن عزيزي القارئ أن مولدك في عائلة مسلمة كفيل بحد ذاته أن ينجيك؟ وهل للمسيحي المولود في عائلة مسيحية ويظن أنها الدين الحق أن يظن بأن وجودة في تلك العائلة هي كفالة له بأن يشمله المخلص الذي يؤمن به؟ وهل لليهودي المولود في عائلة يهودية أن يفتخر بأن الله قد فضله على العالمين؟

السؤال: هذا وجودك في عائلة تعتنق ديانة ما كفيل بأن ينجيك ويخلصك ويفضلك؟

جواب: كلا وألف كلا، إن وجودك في أي عائلة بغير إرادة منك، ودون اختيارك ليس كفيلا بخلاصك، لأن الشرط المطلوب منك في هذه الحالة (إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ) لا يختلف عن الشرط في حالة الذين اتخذوا الدين بمحض إرادتهم (إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ)، فالشرط هو الأيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢﴾ [البقرة: 62]

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٩﴾ [المائدة: 69]

فإياك أن تركن - عزيزي المؤمن بغض النظر عن عقيدتك- أن إسلامك أو مسيحيتك أو يهوديتك بحد ذاتها كفيل أن تكون عاقبتك من الذين (فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) مادام أن ذلك لم يكن قرارك بنفسك، فإسلامك الذي ليس من اختيارك، ويهوديتك التي لم تكن من اختيارك، ومسيحيتك التي وجدت نفسك فيها بلا حول لك ولا قوة لن تنجيك إلا إذا ما اتخذت أنت القرار في أمرين اثنين:

1. الإيمان بالله واليوم الآخر
2. العمل الصالح

نتيجة مفتراة: نحن نرى أن هناك مجموعتان منفصلتان من الذين آمنوا بالإسلام أو اليهودية أو النصرانية أو الصابئة، وهما:

(1) من اتخذ الإيمان من تلقاء نفسه فصبأ فأصبح من أصحاب القرار فكان من مجموعة (الصَّابِئُونَ) و

(2) من اتخذ الإيمان الذي اختاره له غيره، فأصبح من مجموعة (وَالصَّابِئِينَ)

هذا والله أعلم

وفي نهاية هذا الجزء من الكتاب، لابد أن أذكر القارئ العزيز أن كل هذا الكلام الذي قلته لا يعدو أن يكون أكثر من افتراءات من عند نفسي، وهذا مما خطته يميني، فإياك إياك - عزيزي القارئ- أن تظن أن ما قلت هو الحق بعينه وأنه موجود فعلا في كتاب الله، بل هو من صناعتي بيدي التي ظننت مفتريا القول من عند نفسي أنها موجودة في كتاب الله كما فهمتها أنا بنفسي. فأنا أعلم أن العاقبة خطيرة إن أنا زعمت أن هذا من عند الله وتبين بعد ذلك أنها ليست كذلك:

- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ۝٦٨﴾ [العنكبوت: 68]

ولكن لا تنسى عزيزي القارئ (بغض النظر عن عقيدتك) أن إنكار الحق يمكن ينجح بالمكابرة، فإنكارك الحق هو الظلم بحد ذاته، لأن الانتقام سيكون حينها خطيرا:

- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ۝٢٢﴾ [السجدة: 22]

وسنحاول في بداية الجزء القادم أن نعود إلى تقديم افتراءاتنا الخاصة بمفردة " فَذَٰلِكُنَّ " في قصة يوسف، وهي المفردة التي استدعت جل النقاش السابق وإن لم يطلها النقاش في شيء حتى الآن. فالله أسأله وحده أن يعلمني ما لم أكن أعلم، فيأذن لي الإحاطة بشيء من علمه لا ينبغي لغيري، وأن يعلمني الحق الذي أقول فلا أفتري عليه الكذب، وأساله وحده أن يهديني إلى نوره الذي أبى إلا أن يتمه ولو كره الكافرين، إنه هو الواسع العليم – آمين.

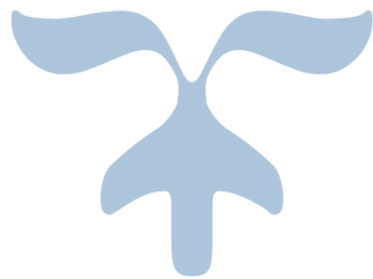
وللحديث بقية.

المدّكرون: رشيد سليم الجراح &علي محمود سالم الشرمان
بقلم: د. رشيد الجراح
10كانون أول 2013



الفصل الحادي عشر

وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ



الجزء الحادي عشر: وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ

نعود مع بداية هذا الجزء من الكتاب للحديث عن مفردة " فَذَٰلِكُنَّ " في قصة يوسف، لنجيب على التساؤل الذي طرحناه في بداية الجزء السابق وهو: ما معنى مفردة " فَذَٰلِكُنَّ "؟ ولماذا استخدمت امرأة العزيز اسم الإشارة " فَذَٰلِكُنَّ " في حديثها هذه المرة عن يوسف بحضور النسوة في مجلسها كما تصور ذلك الآية رقم (32) من سورة يوسف:

- ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [يوسف: 32]

ولا ننسى أن هذا الاستخدام من قبل امرأة العزيز قد جاء مباشرة بعد حديث النسوة عن يوسف باستخدام اسم الإشارة هَٰذَا كما يرد في الآية (31) من السورة نفسها:

- ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [يوسف: 31]

وقد دعانا هذا الطرح أن نتخيل القصة وقد حدثت على النحو التالي:

تجمع امرأة العزيز النسوة، وتعدّ لهن متكأ واحدا، وتؤتي كل واحدة منهن سكينا، ثم تطلب من يوسف أن يخرج عليهن من ذلك المتكأ (أي غرفة النوم)، فيخرج من هناك لتراه النسوة بأم أعينهن، وما أن ترى النسوة يوسف حتى يعبّرن عن دهشتهن بما رأينه، فيجري حديثهن بحضور يوسف نفسه، فيكون استخدام لفظ الإشارة هَٰذَا ربما ليدلّ (كما نفهمه) على أن يوسف لازال حاضرا في مجلسهن حينئذ:

- ﴿... وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [يوسف: 31]

وهنا تطلب امرأة العزيز من يوسف (نحن نتخيل) العودة إلى المكان الذي خرج منه (وهو في ظننا المتكأ نفسه). وتمضي النسوة معا في الحديث قدما عن الفتى الذي رأينه للتو ولكن دون حضور يوسف بينهن، فما يكون من امرأة العزيز نفسها إلا أن تشير إلى يوسف في غيابه، فتستخدم ما يشير إلى أن يوسف لم يعد حاضرا في مجلس النسوة، فجاء اللفظ على لسانها على نحو (فَذَٰلِكُنَّ)

- ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [يوسف: 32]

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن امرأة العزيز قد استخدمت لفظ الإشارة " فَذَٰلِكُنَّ " ليدل – برأينا- على أن يوسف لم يكن حاضرا بين النسوة في تلك اللحظة التي تحدثت بها امرأة العزيز واعترفت للنسوة صراحة بأنها هي من راودته عن نفسه وأنه هو من استعصم.

لكن طرحنا هذا لا يحل الإشكالية برمتها، فيبقى هناك تساؤل مشروع لابد من طرحه وهو: لماذا استخدمت امرأة العزيز اللفظ على نحو " فَذَٰلِكُنَّ "؟ لِم لم تستخدم اللفظ على نحو فذلك، مثلا، وكفى؟

السؤال: ما قصة فَذَٰلِكُنَّ ؟

جواب مفترى: نحن نفتري الظن أن امرأة العزيز قد استخدمت اللفظ على نحو فَذَٰلِكُنَّ ربما لتشير ليس ليوسف كشخص فقط، وإنما لتشير ليوسف مع شيء آخر في الوقت ذاته. فلو كانت الإشارة خاصة بيوسف فقط لجاء اللفظ (نحن نفتري القول) على نحو:

فذلك الذي لمتنني فيه

لذا لابد أن يكون هناك شيء آخر اشترك مع يوسف في إشارة امرأة العزيز. فما هو؟

افتراء من عند أنفسنا: إنه القميص.

نعم، نحن نفتري الظن بأن امرأة العزيز لم تكن تشير إلى يوسف الشخص وإنما كانت تشير إلى يوسف لابسا ذلك القميص. فكان يوسف شيئا وكان القميص شيئا آخر، ولكن لم يكونا منفصلين عن بعضهما البعض لتتم الإشارة إليهما بضمير المثنى "**فَذَانِكَ**" كما يرد في قصة موسى:

- ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [القصص: 32]

فلقد كان سلوك موسى يده في جيبه لتخرج بيضاء من غير سوء برهانا واحد، وكان ضم جناحه إليه من الرهب برهانا آخر، فكانا معا برهانان اثنان، وتمت الإشارة إليهما باسم الإشارة " فَذَٰنِكَ ".

لذا نحن نتخيل بأنه لو كان يوسف خالعا القميص حينئذ لكان يوسف شيئا ولكان القميص شيئا آخر، ولربما تمت الإشارة إليهما باسم الإشارة "**فَذَانِكَ**". ولكن لمّا كان يوسف (نحن نتخيل) لازال لابسا القميص، وأرادت امرأة العزيز أن تشير إليهما (يوسف والقميص معا) كوحدة واحدة هي التي كانت سببا في فتنتها، أشارت إلى تلك الكينونة التي رأتها النسوة بأم أعينهن باللفظ " فَذَٰلِكُنَّ ".

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: إن الذي جعل امرأة العزيز نفسها (بمكانتها المعلومة للجميع) تراود فتاها (غير المعروف للناس حينئذ) عن نفسه هو شيء أكبر من أن يكون بشريا (إنسان)، فلقد أقرت النسوة بملء ألفيه أن الذي رأينه لم يكن بشريا، ولكنه شيء خاص بالملك الكريم.

الدليل

نحن نقرأ الدليل على ذلك من الآية الكريمة نفسها في قوله تعالى فَلَمَّا رَأَيْنَهُ الذي جاء على لسان النسوة:

- ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [يوسف: 31]

السؤال: ما الداعي أن تأتي هذه العبارة في الآية الكريمة؟ سألني صاحبي وابن أخي العزيز السيد مروان الجراح الذي يحاول جاهدا أن يتابع مقالاتنا جميعها كما يحاول أحيانا أن يشارك في بعض أفكارها بالنقاش الذي لا شك يثري الموضوع؟ فكان مراد قوله هو:

⇐ ألا تدل فَلَمَّا رَأَيْنَهُ على أن هناك زيادة غير ضرورية في النص القرآني؟

⇐ أليس من المؤكد أنه ما أن يخرج يوسف على تلك النسوة حتى يرينه؟

⇐ ألا تكون رؤيتك لا محالة حاصلة عندما تخرج على شخص ما؟

⇐ فلم إذا نجد النص القرآني يقول " فَلَمَّا رَأَيْنَهُ "؟

⇐ هل كان هناك احتمال أن لا يرينه وقد خرج عليهن؟ وكيف يمكن أن يكون ذلك؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نعم، نحن نظن أن هناك احتمالية أن يخرج يوسف على النسوة وأن لا يرينه في الوقت ذاته، ولكن كيف يمكن ذلك؟ هل كانت النسوة نائمات؟ أم هل كن مغلقات أعينهن؟ أم هل كنا كفيفات البصر (أو كظيمات بمفردات الكتاب الحكيم كما نفهمه)؟

جواب مفترى من عند أنفسنا إلى السيد مروان الذي أثار هذه التساؤلات الجميلة: كلا، لقد كانت النسوة متيقظات متلهفات لرؤية الفتى، وقد كانت أعينهن في أشد حالات اليقظة والترقب، فكيف يمكن تخريج الأمر إذن؟ ربما سيسأل مروان.

جواب مفترى: نحن نظن أن الضمير في عبارة **فَلَمَّا رَأَيْنَهُ** لا يعود على يوسف وذلك لأن رؤية يوسف لابد أن تقع بمجرد خروجه عليهن، ويصبح الظن عندنا أميل إلى الاعتقاد بأن الضمير في عبارة **فَلَمَّا رَأَيْنَهُ** إنما يعود على القميص الذي كان يوسف يرتديه ولم يكن ظاهرا في لحظة خروج يوسف على النسوة. لذا نحن نتخيل القصة وقد حصلت على النحو المفترى من عند أنفسنا التالي:

تطلب امرأة العزيز من يوسف الخروج على النسوة، وما أن يخرج عليهن حتى ترى النسوة الفتى يوسف، وفي هذه الحالة يكون فعل رؤية يوسف مستنبطا من فعل خروجه عليهن، فما أن يخرج عليهن حتى يرينه (أي يوسف)، ولكن الذي استوقفنا في الآية الكريمة هنا هو عبارة " فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ "، لنطرح عندها التساؤلات التالية:

1. من الذي رأى.......... النسوة
2. ما الذي تمت رؤيته........ القميص (أو ربما يوسف لابسا القميص)
3. متى تمت رؤيته؟........ بعد أن خرج عليهن (وليس بمجرد خروجه عليهن)
4. وكيف تمت رؤيته؟....... لابد أن يوسف قد كشف للنسوة عن ذلك القميص بعد أن خرج عليهن

نعم، لقد كانت تلك حفلة استعراضية، فاستعراض يوسف أمام النسوة كان لغاية واحدة ألا وهي: من أجل أن تنفي امرأة العزيز (للنسوة أولا وللناس أجمعين بعد ذلك) البشرية المطلقة عن الشيء الذي جعلها تفتن ومن ثم تراود فتاها عن نفسه، فتحقق لها ذلك على لسان النسوة أنفسهن:

- ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنْهُنَّ سِكِّينٗا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ ٣١﴾ [يوسف: 31]

السؤال الذي لا شك كان سيثيره مروان في هذه اللحظة هو: لماذا لم يأت قول النسوة بالأسلوب نفسه الذي جاء فيه قول امرأة العزيز؟ أي لماذا لم تشير النسوة إلى يوسف لابسا القميص باسم إشارة يدل على الاثنين معا (يوسف والقميص)؟ فلماذا أشارة النسوة إلى يوسف فقط باستخدام اسم الإشارة "هَذَا"؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن النسوة لم يشرن إلى يوسف فقط في هذه الآية وإنما أشرن إلى يوسف والقميص في الآية الكريمة نفسها؟

سؤال: وأين ذلك؟ سيرد مروان قائلا.

جواب مفترى: دقق - عزيزي مروان- كم مرة استخدمت النسوة اسم الإشارة هَذَا. ألم تستخدم النسوة مفردة هذا **مرتين** مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ ؟ فلماذا؟ أليس ذلك من باب الإطناب والتكرار غير المرغوب فيه؟ ألم يكن ممكنا أن يأتي قول النسوة مثلا على نحو

ما هذا بشرا إنه ملك كريم؟

فلم إذن قالت النسوة مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ ؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نفتري القول (على غير ما ظن سادتنا العلماء أهل الدراية) أن اسم الإشارة هذا يعود في كل مرة على كينونة مختلفة، فنفتري الظن بأن هَذَا الأولى (مَا هَذَا بَشَرًا) تعود على القميص:

- مَا هَٰذَا بَشَرًا

لتنفي النسوة البشرية عن هذا الشيء من اللباس الذي لم يعتاده البشر. ويكأن النسوة يقلن بملء الفيه أن هذا اللباس ليس من صناعة البشر. فكان اللباس فتنة النسوة الأولى (كما كان فتنة امرأة العزيز نفسها).

كما نفتري القول في الوقت ذاته أن اسم الإشارة هذا يعود في المرة الثانية على يوسف:

- إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ

فتمت الإشارة إلى القميص وإلى يوسف على أنهما كينونتان منفصلتان، وحصل كل هذا ويوسف لازال حاضرا مجلس النسوة ذاك:

- ﴿...وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [يوسف: 31]

وما أن غاب يوسف عن مجلس النسوة وعاد إلى المكان الذي خرج على النسوة منه حتى أخذت امرأة العزيز زمام المبادرة بالكلام، فكان أول شيء قالته هو اعترافها للنسوة بأن هي التي راودته وأنه هو الذي استعصم، ولكن نحن نظن أن الرسالة التي كانت امرأة العزيز توصيلها لمن حولها حينئذ هو أن الذي شغفها حبا لم يكن الفتى نفسه، ولم يكن القميص نفسه، ولكنهما الاثنان معا، فجاءت الإشارة – في ظننا- بهذه الصيغة لهذا الغرض:

- ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [يوسف: 32]

وقبل أن نقفل النقاش في هذه الجزئية نود أن نلفت انتباه القارئ الكريم (بما فيهم العزيز مروان) إلى ما جاء في الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأنعام: 8-9]

لنقول بأن ذلك الملك سيكون (لو أنه أنزل) رجلا يلبس عليه ما يلبس الناس الذين كان من الممكن أن ينزل بينهم، ولكن ما أن يخلع ذلك الملك ما ألبس عليه من لباس الناس العاديين حتى يعود على الفور إلى طبيعته الحقيقية بلباسه "الملكي الحقيقي" (وهي هيئة الملك الذي لا تبان فيه عورته). فالملك الكريم يكون إذا يلبس نوعان من اللباس:

1. لباسه الملكي الحقيقي
2. ما ألبس عليه من لباس البشر

السؤال: كيف يمكن تطبيق ذلك في حالة يوسف؟

جواب: نحن نظن أنه بإمكاننا أن نتخيل يوسف على تلك الشاكلة على النحو التالي:

نحن نفتري الظن بأن يوسف كان في هيئة الملك الكريم وهو لابسا ذلك القميص فقط، ولكنه كان في الوقت ذاته يلبس عليه ما يلبس الناس في زمنه، فلم يكن يستطيع أحد أن يميز يوسف "الملك" ما لم يخلع عنه ذلك اللباس البشري الذي كان يلبسه فوق قميصه. لذا نحن نتخيل أن الذي حصل في اجتماع النسوة ذاك كان على نحو أن يوسف كان يلبس القميص وكان يلبس عليه في الوقت ذاته ما يلبس الناس في ذلك الزمن، فخرج على النسوة في تلك الهيئة البشرية، ولم يكن ذلك (نحن نظن) ليثير حفيظة النساء بعد، ولكن ما هي إلا لحظات حتى خلع يوسف (ربما بطلب من امرأة العزيز، أو ربما بفعل منها) عنه ما يلبس من لباس الناس العاديين. وما أن خلع يوسف ذلك اللباس البشري حتى بان للنسوة على الفور ما ليس ببشري وهو يوسف لابسا ذلك القميص، وهنا بالضبط ثارت لدى النسوة الدهشة والاستغراب، فقالت النسوة بملء الفيه بعد أن رأينه (أي يوسف لابسا ذلك القميص فقط) بأن هذا ليس بالبشري ولكنه ملك كريم:

- ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنْهُنَّ سِكِّينٗا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ ٣١﴾ [يوسف: 31]

ولمّا كنت – عزيزي مروان- تدرس الآن في برنامج الدكتوراه في أحد جامعات إنجلترا العريقة لتتخصص في علم التراكيب (Syntax)، فإنك لا شك تعرف معرفة جيدة أن أحد فروع ذلك العلم هو دراسة (indexicality) و (anaphoric expressions). وأنا لا شك أنتظر أن أرى إلى أين يمكن أن تذهب بمثل هذه الافتراءات التي نسوقها من عند أنفسنا بين سطور تلك المؤلفات العظيمة حول هذا الموضوع. من يدري!!!

على أي حال، ربما يرشدنا مثل هذا الطرح الذي نظن أنه غير مسبوق إلى التعرض للتساؤل التالي: كيف صرف الله كيد النسوة عن يوسف؟

رأينا: نحن نظن أن يوسف هو من طلب من ربه أن يصرف عنه كيد النسوة اللاتي راودنه عن نفسه:

- ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ٣٣﴾ [يوسف: 33]

فكانت الاستجابة الإلهية ليوسف بالخيار الأول وهو السجن، فصرف عنه كيدهن:

- ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ٣٤﴾ [يوسف: 34]

السؤال: كيف تمت آلية صرف كيد النسوة عن يوسف؟

جواب: نحن نؤمن بداية أن يوسف كان لازال يسمع ما تدبره النسوة له عندما تعهدت امرأة العزيز بسجنه إن هو لم ينزل عند رغبتها فيه:

- ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [يوسف: 32]

فالفتى لازال موجودا في المتكأ الذي خرج منه لتراه النسوة بأم أعينهن، وعاد إليه بعد أن فرغ من ذلك بطلب من امرأة العزيز نفسها. فسمع أن القرار النهائي للنسوة هو ما تطلبه امرأة العزيز ويتمثل بواحدة من خيارين:

1. النزول عند رغبة المرأة بما تريده منه أو
2. السجن

وهناك في ذلك المتكأ حيث لا زال يوسف يقبع وحيدا (كما نتخيل الأمر) توجه إلى ربه بدعاء المضطر مختارا السجن على المراودة ولكن بشرط واحد وهو أن يصرف الله عنه كيدهن:

- ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [يوسف: 33]

السؤال: كيف صرف الله كيد النسوة عن يوسف؟

جواب مفترى: عندما تفقدنا السياقات القرآنية الخاصة بالصرف، وجدنا أن الصرف ينطوي على تغير المكان، فالله هو من صرف إلى محمد نفر من الجن ليستمعوا القرآن:

- ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأحقاف: 29]

والله هو من صرف عن يوسف كيد النسوة، لتكون النتيجة الأولى هي أن الصرف إلى شيء ما تحوي في ثناياها معنى الذهاب إليه، ولكن الصرف عن الشيء تعني الابتعاد عنه. لذا حصل (كما نتخيل الأمر) أن أبعد الله النسوة عن يوسف، فغادرن المكان في تلك الساعة مقطّعات الأيادي بعد أن فشلن (فشلا ذريعا) في إيقاع الفتى في كيدهن، ولكن الملفت للانتباه هو أن يوسف بقي في المكان نفسه منتظرا ما سيحل به، فكانت النتيجة على النحو التالي:

- ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾ [يوسف: 35]

ولو راقبنا مفردة ثُمَّ في هذا السياق القرآني، لوجدنا أن هناك فارقا زمنيا بين أن صرف الله عنه كيد النسوة وإيداعه السجن من بعد ما رأوا الآيات. فما الذي حصل حينها؟ وأين كان يوسف يتواجد طوال تلك الفترة من الزمن؟

رأينا: إن المنطق البسيط كان يقضي بأن يبتعد يوسف كليا عن مكان تواجد امرأة العزيز منذ اللحظة التي ألفيا فيها سيدها لدى الباب بعد حادثة الهمّ الشهيرة:

- ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: 24]

فما أن رأى يوسف البرهان بأمّ عينه حتى ركض مستبقا المرأة الباب، وهناك ألفيا سيدها:

- ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ [يوسف: 25]

فحاولت المرأة أن تلقي باللائمة على يوسف في أنه قد أراد بها سوءا:

- ﴿... قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ [يوسف: 25]

فدافع يوسف عن نفسه قائلا:

- ﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ... ﴿٢٦﴾﴾ [يوسف: 26]

وتعززت شهادة يوسف في ذلك بشهادة الشاهد الذي شهد من أهلها:

- ﴿...وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [يوسف: 26]

وأظن جازما أن الخبر قد كان يقينيا عند سيدها أن يوسف لم يرد بها سوءا وأنها هي من راودته عن نفسه:

- ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [يوسف: 28]

فجاء طلبه مباشرا ليوسف بأن يعرض عن هذا، وأن تستغفر هي لذنبها، لأنه قد ثبت لديه (أي سيدها) أنها هي من أخطأت:

- ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾ [يوسف: 29]

السؤال المثير: مادام أن الأمر قد تأكد لسيدها بأنها هي من تراود يوسف عن نفسه، فلماذا (نحن نسأل) بقي يوسف في بيت المرأة؟ فلماذا تواجد يوسف معها في المكان الذي جمعت فيه النسوة؟ كيف بسيدها أن يسمح لها أن تجتمع بيوسف ثانية؟ لم لم يتم إبعاد يوسف كليا عن المكان؟ ألم يكن سيدها يستطيع أن يضع العيون على امرأته لمراقبتها؟ الخ.

السؤال المثير هو: لماذا بقي يوسف في بيتها بعد أن تم ضبطهما بـ "الجرم المشهود"؟

جواب مفترى: نحن نظن أن لهذا علاقة بمكانة هذه المرأة في قومها، وله علاقة مباشرة جدا بشخصية سيدها الذي ألفياه لدى الباب. ونحن نتجرأ على تقديم الافتراءين الخطيرين التاليين:

1. أن الذي ألفياه لدى الباب لم يكن زوجها ولكنه كان سيدها، فنحن نفرق بين الزوج والسيد ما دام أن اللفظين قد وردا في كتاب الله
2. أن تلك المرأة (امرأة العزيز) هي ابنة الملك نفسه

باب: وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ

يجد القارئ للنص القرآني الحقيقة الثابتة التي لا يمكن المماطلة فيها والمتمثلة بأن التي راودت يوسف عن نفسه وقد شغفها حبا هي امرأة العزيز، فجاء ذلك في كلام النسوة في المدينة اللاتي مكرن بها:

- ﴿۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ [يوسف: 30]

وجاء ذلك على لسانها يوم أن اعترفت بذلك صراحة في مجلس الملك:

- ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ ۚ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ۚ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾﴾ [يوسف: 51]

وهنا لا نتوقف عن طرح التساؤل التالي: إذا كانت التي راودت يوسف عن نفسه هي امرأة العزيز، فهل الذي ألفياه لدى الباب هو العزيز نفسه (أي زوجها أو بعلها)؟

جواب مفترى: كلا وألف كلا، نحن نفتري الظن بأن ذلك غير ممكن لأن النص القرآني قد استخدم مفردتين لتصوير علاقة الرجل بامرأته، وهما:

1. الزوج

- ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾ [المجادلة: 1]

2. البعل

- ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٢٨﴾ [النساء: 128]
- ﴿قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ٧٢﴾ [هود: 72]

لذا لو أن الذي ألفياه لدى الباب كان زوجها أو بعلها لجاء اللفظ (نحن نفتري القول) على نحو ذلك. لذا نحن نعتقد نتجرأ على الظن بأن الذي ألفياه لدى الباب لم يكن زوجها، ونعتقد جازمين بأنه سيدها فقط بدليل صريح اللفظ القرآني:

- وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ

السؤال: وما الفرق بين الزوج (أو البعل) من جهة والسيد من جهة أخرى؟

جواب: لو راقبنا ردة فعل سيدها الذي ألفياه لدى الباب لوجدنا في ذلك العجب. فالرجل الذي ألفياه لدى الباب لم تتحصل عنده ردة فعل طبيعية كتلك التي يمكن أن تحصل من قبل أي رجل ربما يجد امرأته في موقف كهذا. فبرودة الأعصاب والتأني والحذر كانت صفات ملازمة لردة فعله. ويتأكد ذلك بالمشاهدات التالي:

1. أن سيدها هذا لم يكن هو المبادر بالكلام أو بالفعل، بل على العكس فالمرأة هي من ابتدأته بالكلام:

- ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٥﴾ [يوسف: 25]

ويوسف هو من ثنىّ على كلامها:

- ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٢٦﴾ [يوسف: 26]

2. وعلى الرغم من صمته عن الكلام، بقي أيضا رابط الجأش في فعله، فكان أول شيء قام به هو أنه ذهب ليجلب الدليل، ليتثبّت بنفسه من الأمر ويتخذ بعد ذلك قراراه بمن هو المخطئ: يوسف أم المرأة:

- ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٢٦ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٧ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ٢٨﴾ [يوسف: 26-28]

3. ما أن استقر في ضمير سيدها أن المرأة هي التي أخطأت فعلا حتى كانت ردة فعله أكثر هدوءا، فطلب من يوسف أن يعرض عن هذا، وطلب منها أن تستغفر لذنبها:

- ﴿يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ ٢٩﴾ [يوسف: 29]

السؤال المحرج: ألا ترى – عزيزي القارئ- أن هذا زوج حمش (كما نقول بالأردنية)؟ ألا ترى كم هو غيور على عرضه؟ ألا ترى أنه فعلا رجل ولا كل الرجالة (بالمصري البلدي)؟

ما شاء الله! رجل يجد امرأته بصحبة "عشيقها"، تعترف لبعلها بأن هذا الفتى (أي عشيقها) يريد بها سوءا، فلا يصدر منه أي كلام، يستمع للطرفين بكل رباطة جأش، يبحث عن الدليل ليجد أن امرأته هي من تخونه، فما يكون منه إلا أن يطلب من عشيقها أن يعرض عن هذا، ويطلب منها أن تستغفر لذنبها، وكفى.

السؤال: أي نوع من الأزواج هذا؟ من يدري!!! ربما نجد في جعبة سادتنا العلماء أهل الدراية تفسيرا لتصرفات هذا "الزوج المزعوم" متى وصلت إليهم صرخاتنا هذه.

أما الأكثر إثارة في الموضوع هو بالرغم من تكشف كل هذه الحقائق لهذا الزوج "المزعوم"، إلا أنه لم يتخذ قرارا بأبعاد هذا الفتى عن امرأته أو إبعاد امرأته عن هذا الفتى؟ فها هي تبقي يوسف في بيتها، وتجمع النسوة وتحدثهن بالخبر، وتعترف لهن بملء الفيه أنها لازالت مصممة على ما هي مقدمة عليه، فلا تكف عن مراودة الفتى والتخطيط للإيقاع به، وكل هذا يحصل في بيتها. السؤال مرة أخرى: أي نوع من الأزواج هذا الذي يسمح لزوجته أن تبقى على اتصال "بعشيقها" بعدما ينكشف له الأمر؟

جواب مفترى: نحن نظن أن هذا غير موجود إلا في مخيال علمائنا أهل الدراية كما نقلوه (وهم منكرون) من قصص وتحريفات اليهود. فتخرصات وشطحات يهود واضحة تماما في كل تفسيرات أهل العلم من أبناء المسلمين، والأخطر من هذا كله أنهم قد أخذوا تفسيرات محرفة من الأمم الأخرى ولم يتوقفوا (نحن نفتري القول) عند ذلك بل زادوا الطين بلّة، فحرفوا ما هو أصلا محرف، فانتهينا في بلاد لا نعرف تضاريسها، وربما لا زلنا لا نعرف الخروج منها بعد قرون من هذا التيه العظيم.

اللهم أبرأ إليك من كل ما كتبناه بيميننا وزعمنا أنه موجود في كتابك وهو منه برا. اللهم اهدنا إلى الحق الذي قلته، فقولك الحق،

واقذف به الباطل الذي افتريناه من عند أنفسنا ليدمغه فإذا فهو زاهق - أمين.

أما بعد،

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نؤمن أن الذي ألفياه لدى الباب

1. قد كان سيدها (فقط) ولم يكن سيد يوسف: وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِۚ
2. لو أن ذلك الشخص الذي ألفياه لدى الباب كان سيد يوسف لربما جاء اللفظ بالتثنية على نحو: وألفيا سيدهما لدى الباب

3. وأن سيدها هذا لم يكن هو زوجها أو بعلها، وإلا لربما جاء اللفظ على نحو: وألفيا زوجها لدى الباب أو وألفيا بعلها لدى الباب
4. ولو كان زوجها (بعلها) هو الذي ألفياه لدى الباب لربما كانت ردة فعله مختلفة تماما.

الدليل.

أولا، كانت الأبواب مغلّقة تماما، بدليل أنها هي من غلّقت بنفسها الأبواب لكي تهمّ بيوسف، عندما هيئت نفسها له:

- ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾ [يوسف: 23]

السؤال: كيف ألفياه لدى الباب؟ من الذي فتح له الباب؟

ثانيا، لم يكن سيدها هو من ألفاهما لدى الباب، ولكنهما (يوسف والمرأة) هما من ألفياه هناك:

- ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٥﴾ [يوسف: 25]

لنفتري الظن بسبب ذلك أن سيدها هذا لم يكن قادما باتجاه الأبواب مادام أنها كانت مغلّقة، وبدليل أنهما (يوسف والمرأة) من ألفياه لدى الباب وليس هو من ألفاهما لدى الباب. فالذي يلفي هو الذي يقوم بالفعل بدليل الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٧٠﴾ [البقرة: 170]

فالذين ألفوا آباءهم كانوا هم الذين لحقوا بآبائهم لأن آباءهم كانوا هم المدبرين.

نتيجة مفتراة: نحن نتخيل أن المرأة ويوسف هما اللذان توجها نحو سيدها، ولم يكن سيدها متوجها نحوهما حينئذ.

ثالثا، نحن نظن أن سيدها لم يكن هو زوجها وذلك لأنهما ألفياه لدى الباب، فلو كان ذلك الشخص هو زوجها الذي جاء في تلك اللحظة لكان داخلا عليهما الباب:

- ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣﴾ [المائدة: 23]

فلا أظن أن الزوج بحاجة أن يستأذن ليدخل بيته، ولا أظن أن الزوج لا يعرف كيف يفتح باب بيته.

رابعا، ما هذه الصدفة العجيبة أن يأتي سيدها (إن كان هو زوجها) بالضبط في تلك اللحظة؟ لِم لَم يأت والأبواب لازالت مغلّقة؟ ولِم لَم يدق الباب عليهما مادام أن الأبواب كانت أصلا مغلّقة؟ والأهم من هذا كله هو: مادام أنه قد وجدهما لدى الباب، فما الغريب الذي سيجده الرجل؟ أليس من المفترض أن يتواجد يوسف مع امرأته هناك مادام أنه فتاها؟!

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نتخيل الذي حصل على النحو التالي:

يهرب يوسف من المكان الذي حصل فيه الهمّ، فيتوجه نحو الباب، فتلحق به المرأة طالبة إياه، يفتح يوسف الباب طالبا الهروب والفرار من الموقف كله بعد أن رأى برهان ربه الذي حال بينه وبين الوقع في الفاحشة. تلحق المرأة يوسف عند الباب وهو يحاول فتحه للخروج منه، وهناك تقدّ المرأة قميص يوسف من الدبر لتثنيه عن فتح الباب والخروج منه، فلم تفلح في ذلك، فيستطيع يوسف أن يفك تغليق الباب والخروج منه، ولو كان الباب لا زال مغلقا لما خرجا (يوسف والمرأة) من المكان ولما ألفيا سيدها لدى الباب.

افتراء من عند أنفسنا: أن تغليق الباب يكون في مثل هذه الحادثة من الداخل على الأقل لسببين

1. أن الذي راودته عن نفسه قد قامت في ذلك في بيتها:

- ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾ [يوسف: 23]

2. أن فعل مراودة المرأة للرجل (أو العكس) لا يحصل عادة على مرأى ومسمع من الناس

لذا قامت تلك المرأة بداية بتغليق الأبواب كجزء من مخططها للإيقاع بيوسف:

- ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾ [يوسف: 23]

فهي قد قامت بغلق أكثر من باب (وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ)، ويستحيل أن تكون عملية التغليق هذه قد حصلت دفعة واحدة (إلا إذا كانت تستخدم الريموت كنترول حينئذ- من يدري!!!)، وإنما كان التغليق – برأينا- تدرجي: بابا بعد باب، ونحن نتخيل أن آخر باب قامت المرأة بغلقه هو الباب الذي دخل منه يوسف عليها حينئذ، وما أن دخل يوسف إلى هناك حتى أغلقت المرأة آخر تلك الأبواب، وكانت قد هيئت كل شيء له:

- وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ

فيحاول يوسف أن يمنع نفسه عنها، ولكن ما أن همت به بخلع ملابسها كاملة، حتى استطاعت أن تزعزع ثقة الفتى بنفسه، فما يكون منه إلا أن ينزل عند رغبتها مدفوعا برغبته الطبيعية كشاب في عنفوان شبابه، فيحاول أن يهمّ بها بخلع ملابسه شيئا فشيئا، ولا يوقفه عن متابعة الهمّ بها إلا ذلك البرهان الذي رءاه وهو القميص الذي تحدثنا عنه سابقا.

ما أن يرى يوسف ذلك القميص بأمِّ عينه حتى يتذكر أنه من تلك السلالة الطيبة (إبراهيم – إسحق- يعقوب) فما يكون لمكمّل هذه السلالة الطاهرة أن يقع في هذا الإثم الكبير، فيهرب على الفور من المكان متجها إلى الباب الذي دخل منه. ومستبقا المرأة إليه:

- ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٥﴾ [يوسف: 25]

وهنا يجد يوسف الباب وقد أغلق. فما يكون منه إلا أن يتوقف عنده بعض الوقت ليتمكن من فتحه ليخرج منه. وهناك (نحن نتخيل) استطاعت المرأة أن تلحق به، ونحن نفتري الظن بأنه لو كان ذلك الباب مفتوحا أصلا لما استطاعت المرأة أن تلحق بيوسف وذلك على الأقل لسببين اثنين:

1. أولا لأن يوسف هو من سبقها في الهروب إلى الباب، فلا شك أنه وصل إلى الباب قبل أن تصل هي إليه
2. أن يوسف هو الرجل وأنها هي الأنثى، ونحن نظن أن الوضع الطبيعي يقضي بأن يكون الرجل أسرع من المرأة في الجري مادام أن يوسف في تلك اللحظة الزمنية كان قد بلغ أشده. فهل يعقل أن تسبق امرأة شابا في الجري (خاصة إذا كنا نتحدث عن جري المسافات القصيرة في الأولمبياد)؟ من يدري!!!

إن ما يهمنا في هذا الطرح هو القول المفترى من عند أنفسنا بأن السبب الذي جعل المرأة تلحق بيوسف بالرغم أنه هو من استبقها إلى الباب هو الحقيقة الثابتة بصريح اللفظ القرآني بأن ذلك الباب كان مغلقا. فكان لابد ليوسف أن يتوقف عنده (ولو للحظات) لكي يفتحه ليخرج من المكان كله. وهناك بالضبط استطاعت المرأة أن تلحق به، فتمسك بقميصه من دبره. انظر الآية الكريمة جيدا:

- ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٥﴾ [يوسف: 25]

ولكن هذا لم يكن ليثني يوسف عن فتح الباب من الداخل ليخرج من المكان وقد قدّت قميصه من دبر، فاستطاع أن يفتح ذلك الباب كما في الشكل التالي (لو سمحت دقق في صورة الباب وليس الطفل الذي يحاول فتحه):



خاصة إذا ما علمنا أن الأبواب عادة ما تغلق من الداخل لأغراض السلامة العامة كما في الشكل التالي:



فلقد أعاق ذلك الباب المغلق هروب يوسف من المكان لفترة من الزمن، فكان يوسف مولّيا وجه شطر الباب، وكان دبره من قبل المرأة التي كانت تركض وراءه لتلحق به، فاستطاعت في تلك اللحظة أن تمسك به من الخلف لتقد قميصه من دبره هناك.

ما أن استطاع يوسف أن يخرج من الباب وقد كان قميصه قد قدّ من دبر حتى كان سيد تلك المرأة متواجدا هناك. فكان ألفا يوسف سيد تلك المرأة لدى الباب، وكانت المرأة (نحن نتخيل) لازالت لاحقة بيوسف بعد أن خرج من الباب، فكانت المرأة هي من ألفت سيدها لدى الباب، ويصور القرآن الكريم هذا المشهد بكل دقة لنجد أن يوسف والمرأة معا هما من ألفيا شخصا لدى الباب، وكان ذلك الشخص هو سيد المرأة ولكنه لم يكن سيد يوسف:

- ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٢٥﴾ [يوسف: 25]

لنخرج من هذا التصور المفترى من عند أنفسنا بالافتراءات التالية:

1. لم يكن سيدها متجها نحو باب المكان الذي كانت المرأة تراود فيه يوسف عن نفسه.
2. لم يكن سيدها هناك لغرض الدخول إلى البيت ولكنه كان متواجدا هناك لغرض آخر
3. لم يكن هو من ضبطها مع يوسف متلبسان بالجرم المشهود

وربما يحل مثل هذا الطرح التساؤل التالي: لم كانت المرأة هي من بادرت سيدها بالكلام؟ ولم كان يوسف هو من تحدّث ثانية؟ ولم لم ينطق سيدها بكلمة واحدة في ذلك الموقف مباشرة؟ ولم بحث عن الدليل قبل النطق برأيه بالأمر؟ ولم كانت ردة فعله على نحو أن يكتفي بالقول ليوسف بأن يعرض عن هذا وأن يتوجه إليها بطلب الاستغفار لذنبها؟ ولم بقي يوسف ملازما المرأة في بيتها بالرغم من هذه "الفضيحة" الكبيرة؟

للإجابة على كل هذه التساؤلات فلابد (نحن نظن) من التعرض للسؤال الحتمي التالي وهو: من هو سيدها الذي ألفياه لدى الباب؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نعتقد جازمين بأن الذي ألفياه لدى الباب لم يكن زوجها أو بعلها ولكنه كان سيدها، بدليل اللفظ نفسه:

- وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ

وفي الوقت ذاته فإننا نفتري الظن من عند أنفسنا أن سيدها هو أخوها وليس زوجها (أو بعلها).

ما الذي تقوله يا رجل؟ هل يعقل ذلك؟ وأين الدليل على هذا الهذيان غير المسبوق؟

الدليل

نحن نظن أننا قد وجدنا الدليل على ذلك في الآية الكريمة نفسها في عبارة " بِأَهۡلِكَ " في الآية الكريمة نفسها:

- ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٢٥﴾ [يوسف: 25]

ولكن كيف ذلك؟

جواب مفترى: عندما تفقدنا السياقات القرآنية لهذه المفردة وجدناها في حالتين اثنتين:

1. في حالة موسى الذي سار بأهله بعد أن فرغ من عقده مع شعيب:

- ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ٢٩﴾ [القصص: 29]
- ﴿إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ٧﴾ [النمل: 7]
- ﴿إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ١٠﴾ [طه: 10]

2. في حالة موسى الذي طلب وزيرا من أهله أخاه هارون:

- ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠﴾ [طه: 29-30]

لنخرج من ذلك بالافتراء الكبير الخطير التالي: لا تطلق مفردة الأهل في النص القرآني على الزوج وأهل بيته فقط، ولكنها تطلق على العائلة الكبيرة لتشمل الإخوة كما في حالة موسى الذي تحدّث على أن هارون من أهله. وهذا المنطق ينطبق بكل يسر وسهولة على حالة مريم التي كان لها أهل بالرغم أننا نعلم يقينا أنه لم يكن له زوج أو بعل في يوم من الأيام، فهي التي انتبذت من أهلها مكانا شرقيا:

- ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ١٦﴾ [مريم: 16]

وهي التي أحصنت فرجها فلم تتزوج:

- ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ١٢﴾ [التحريم: 12]

وبالرغم من ذلك، إلا أن القرآن الكريم يثبت أنه كان لمريم أخ، فتحدث بصريخ اللفظ عن أخيها هارون:

- ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ٢٨﴾ [مريم: 28]

لذا، فعندما نتحدث عن أهل مريم فإن أول أهلها الذي يمكن أن نتفكر به هو أخوها هارون، وعندما نتفكر بأهل موسى لا يجب أن يطير ذهننا فقط إلى زوجته وأبناءه على أنهم هم أهله، ولكن يجب أن لا ننسى أخاه هارون (نحن نفتري الظن بأن ليس هناك علاقة بين هارون أخ موسى وهارون أخ مريم، فهذا شخص وهذا شخص آخر، وسنتناول الحديث عنهما بحول الله وتوفيقه في مقالات لاحقة إن أذن الله لنا بشيء من علمه)

نتيجة مفتراة: نحن نظن أن أهل الرجل هم زوجته وأبناءه وبعض أقرباءه كما في الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾ [النساء: 92]

هذا بالنسبة لأهل الرجل. فماذا عن أهل المرأة؟ فهل الزوج من أهل المرأة؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: كلا وألف كلا. فبالرغم أن الزوجة هي من أهل زوجها إلا أن الزوج ليس من أهل زوجته، فأهل المرأة هم بعض أقربائها كما نفهم ذلك من الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَـٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [النساء: 35]

ما علاقة هذا كله بامرأة العزيز؟

افتراء خطير جدا جدا من عند أنفسنا: إن الذي ألفياه (يوسف والمرأة) عند الباب كان من أهلها بدليل أنها قد خاطبته بالصيغة التالية:

- ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ [يوسف: 25]

فالمرأة كانت جزءا من أهل سيدها الذي ألفياه لدى الباب. ولا يعني هذا بالضرورة أن تكون زوجته، وإنما هي بعض أقرباءه. وما أن يدب الخلاف حتى يكون أحد الأهل هو حكم (مذكر) في ذلك الخلاف:

- ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَـٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [النساء: 35]

ولو تدبرنا ما قام به سيدها، لما وجدنا أن دوره كان أكثر مما يمكن أن يقوم به الحكم الذي يقضي بين المتخاصمين. فما كان منه إلا أن يستمع إلى شهادة كل طرف، فاستمع لما قالته المرأة وأنصت لما قاله يوسف. ولم يتوقف عند ذلك، بل بحث عن الدليل، فوجده عند شاهد آخر من أهلها:

- ﴿... وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [يوسف: 26]

وما أن سمع شهادة الاثنين (المرأة ويوسف)، وما أن وجد الدليل القطعي على إدانة المرأة بالتهمة، حتى نطق في نهاية الأمر بالحكم الفصل:

- ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَاۚ وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾ [يوسف: 29]

قصة يوسف المفتراة من عند أنفسنا: تصور جديد

تحاول المرأة الإيقاع بيوسف، فتنفرد بيوسف في بيتها (وسنتحدث لاحقا بحول الله وتوفيق منه عن السبب في أن تكون المراودة في بيتها)، فتغلق الأبواب قبل مجيء يوسف إلى المكان (وسنتحدث لاحقا إن أذن الله لنا بشيء من علمه عن سبب قدوم يوسف إلى هناك)، وما أن يدخل يوسف من باب محدد حتى تغلقه عليه، فتكون بذلك قد غلقت الأبواب كلها (وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ)، وتعرض نفسها عليه بعد أن هيئت كل شيء (وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَۚ).

يحاول يوسف أن يمنع نفسه عنها (قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ)، إلا أن الغريزة كانت أقوى منه عندما شاهدها وقد همت به، أي خلعت كل ملابسها (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦۖ)، فما يكون من يوسف الإنسان والشاب الذي كان قد بلغ أشده حتى يهم بها (وَهَمَّ بِهَا)، فيبدأ بخلع ملابسه شيئا فشيئا، وما أن يصل إلى ذلك القميص حتى يرى برهان ربه (وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦۚ) ، فيحجز ذلك البرهان بينه وبين متابعة الهم بالمرأة.

فيستبق يوسف المرأة إلى الباب طالبا الهروب من المكان كله، فتلحق به المرأة (وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ)، ولا أظن أنها كانت تستطيع اللحاق به لولا ذلك الباب الذي كان مغلقا. فيتوقف يوسف عند الباب لفتحه، فيكون موليا وجهه شطره، فتلحق به المرأة هناك، وتمسك به من الخلف، فتقد قميصه من دبر (وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ). ولكن هذا لم يكن ليمنع يوسف عن فتح الباب والخروج منه. وهناك بالضبط يجد يوسف والمرأة معا شخصا لدى الباب وهو سيدها، فيلفياه هناك (وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِۚ).

ونحن نزعم الظن بأن ذلك الشخص لم يكن زوجها وإنما هو من أهلها، ونظن أنه أخوها لأسباب سنعرض لها لاحقا بحول الله. فتبادره المرأة سيدها بالكلام لتوقع بيوسف وترفع التهمة عن نفسها (قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ). فما يكون من يوسف إلا أن يحاول رد تهمتها بالدفاع عن نفسه (**قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي**)، فيبقى سيدها ذاك صامتا لا ينطق ببنت شفة (على فكرة أنا لا أعرف ما

معنى العبارة سوى أنه بقي صامتا)، فيحاول أن ينظر في الدليل، فيجده عند واحد من أهل المرأة نفسها (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ)، وسنتحدث لاحقا عن هذا الشاهد (إن أذن الله لنا بشيء من علمه). وما أن يتبين سيدها الحقيقة، ويقتنع بالدليل حتى ينطق بالحكم بينهما، فيطلب من يوسف أن يعرض عن هذا ويطلب منها أن تستغفر لذنبها لأنها هي من كانت من الخاطئين.

- ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾ [يوسف: 29]

المعضلة الأكبر: فعلى الرغم من هذا كله، يجد القارئ للنص القرآني أن يوسف لازال متواجدا في بيت المرأة، يعمل لديها على أنه فتاها، فلا يتم إبعاد يوسف عن المكان بدليل أنها بعد أن سمعت بمكر النسوة في المدينة أرسلت لهن وأعتدت لهن متكأ وآتت كل واحدة منهن سكينا، وطلبت من يوسف أن يخرج عليهن:

- ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [يوسف: 31]

السؤال: هل لو كان الذي ألفياه لدى الباب هو زوجها (أو بعلها)، هل كان سيسمح (نحن نسأل) أن يبقى يوسف في بيته مع امرأته بعد تلك الحادثة؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن يوسف لم يكن ليبقى في ذلك المكان لحظة واحدة لو أن الذي ألفياه لدى الباب هو زوجها. ولكن لماذا؟

جواب مفترى: لأن جل الذي طلبه سيدها منهما بعد أن استجلى الحقيقة هو

1. أن يعرض يوسف عن هذا: يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ
2. أن تستغفر هي لذنبها: وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ

ولم يتم اتخاذ أي إجراء تحفظي حتى الساعة على يوسف أو على المرأة التي ثبت أنها قد راودته عن نفسه.

السؤال: لماذا؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: لأن سيدها (ونحن نظن أنه أخوها) كان يريد أن يخفي ما حصل مع المرأة (أخته) وفتاها (يوسف) عن العزيز نفسه (زوج المرأة). فهو لا يريد لزوج المرأة (أو لبعلها) وهو العزيز نفسه أن يعلم بما حصل من المرأة مع فتاها. ولكن لماذا؟

رأينا: لأنه من أهلها. فسيدها هو واحد من أهلها الذي أراد أن تموت الحكاية في مهدها فلا تنتشر، ولا يسبب انتشارها فضيحة للعائلة بأكملها. ونحن نجد الدليل على ذلك في الخطاب الذي وجهه لليوسف ولم يوجهه إليها وهو أن يعرض يوسف عن هذا:

- يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ

فما معنى أن يطلب سيد المرأة من يوسف أن يعرض عن هذا؟ فما معنى الإعراض عن هذا؟ هل يعني ذلك أن يكف يوسف عن مراودة المرأة؟ ألم يثبت لسيدها أنها هي من كانت تراود يوسف عن نفسه؟ لِم لَم يطلب منها أن تعرض هي عن هذا؟ أليست هي من ثبت له أنها قد شغفت بالفتى حبا؟ الخ.

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن "الإعراض عن هذا" يعني السكوت عليه فلا يحدث الناس به. فالرجل (أي سيدها) يعلم تماما أن المرأة ما كانت لتخرج فتحدث الناس بما حصل مادام أن التهمت قد التصقت بها وأنها هي من راودت فتاها عن نفسه، وأنها هي من غلّقت عليه الأبواب، وأنها هي من همّت به وأنها هي من قدّت قميصه من دبر، ولكنه توجه بهذا الطلب إلى يوسف مباشرة (**يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا**) مادام أنه بريء ومادام أنه لم يراود المرأة عن نفسها. فلو انتشر الخبر لكانت الفضيحة لا محالة واقعة على رأس المرأة أولا والعائلة بأكملها ثانية. لذا جاء طلب سيدها من يوسف – نحن نفتري القول- على نحو أن يسكت على الأمر (الإعراض عنه) فلا يحدّث به أحدا من الناس. فيموت الخبر في مهده.

الدليل

لقد كان محمد يعرف المنافقين في لحن القول:

- ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾ [محمد: 30]

ولكن بالرغم من ذلك، طلب الله منه أن يعرض عنهم:

- ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ ۖ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾ [النساء: 81]

السؤال: كيف كان محمد يعرض عنهم؟

ولو تدبرنا الآية الكريمة التالية جيدا، لوجدنا أن من الظلم الشنيع أن يعرض الإنسان عن آيات الله بعد أن يكون قد ذُكِّر بها:

- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾ [الكهف: 57]
- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [السجدة: 22]

السؤال: كيف يمكن أن تعرض عن آيات الله بعد التذكير بها؟

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن في الإعراض عن الشيء سكوت عنه. فقد تعلم أنت شيئا جديدا من آيات الله، فلا يحق لك أن تعرض عنه، أي أن تسكت عنه فلا تخبر الآخرين به، لأن ذلك – نحن نفتري الظن- يصبح من باب الإعراض عن الآيات بعد التذكير بها، فيصبح من يفعل ذلك من الذين ظلموا، ومن الذين أجرموا (خاصة إذا ما علمنا أن البعض يأخذ أفكار الآخرين وينسب العلم بها إلى نفسه، ويكأنه هو صاحبها، وهل هناك إجراما أكبر من ذلك؟ فليعلم كل من يفعل ذلك (بمن فيهم أنا نفسي) أن العاقبة لا محالة كارثية):

- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [السجدة: 22]

والذي يعرض عن ذكر الله – نحن نظن- هو الذي لا يتحدث به:

- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [السجدة: 22]

والله هو من طلب من إبراهيم أن يعرض عن خبر قوم لوط:

- ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾ [هود: 74-76]

وها هو النبي يحدّث ببعض الحديث ويعرض عن بعضه:

- ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾﴾ [التحريم: 3]

نتيجة: لو دققنا جيدا في الآية السابقة لوجدنا – ربما بما لا يترك مجالا للشك- بأن الإعراض عن الشيء يقابله التعريف به (عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ)

عودة على قصة يوسف:

كيف كان ليوسف أن يعرض عن هذا الذي حصل بينه وبين امرأة العزيز؟

رأينا المفترى: نعم، نحن نظن أن سيد المرأة الذي ألفياه (يوسف والمرأة لدى الباب) طلب من يوسف أن يعرض عن ما حصل فلا يعرّف به، لكي لا يطلع على ذلك الخبر الآخرين بمن فيهم (نحن نفتري الظن) زوج المرأة (أو بعلها) - العزيز نفسه. ولكن لماذا؟

رأينا: لأن سيدها الذي ألفياه لدى الباب هو أخوها الذي هو من أهلها

الدليل

لكي نستجلي الدليل على ذلك فلابد من التعرض لمفردة سيدها نفسها، لنتعرف لم كان ذلك الشخص هو سيدها؟ لم لم يكن سيدهما؟ ماذا كان يفعل في المكان عندما ألفياه لدى الباب؟ ولما ابتدأته هي بالكلام؟ ولم سمح لهما بالدفاع عن نفسيهما أمامه؟ الخ.

بداية نحن نود إثارة التساؤل التالي: أين حصلت مراودة المرأة ليوسف؟

جواب: في بيتها:

- ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾ [يوسف: 23]

لو تدبرنا الآية الكريمة التالية لربما خرجنا ببعض الاستنباطات المفتراة من عند أنفسنا:

1. أن المراودة قد حصلت في بيت المرأة
2. أن يوسف لم يكن متواجدا مع المرأة في بيتها الذي هو بيت زوجها (أو بعلها)
3. أن يوسف كان يعمل في البيت: وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ
4. أن المرأة هي التي جاءت ليوسف هناك
5. أن بيت المرأة كان قريبا من بيت سيدها

السؤال: لماذا نسب البيت إلى المرأة؟ لم لم ينسب البيت إلى زوجها (أو بعلها)؟ ماذا كان يعمل يوسف في بيت تلك المرأة؟

رأينا: بداية يجب أن ندرك حقيقة قرآنية وهو أن مفردة البيت ربما تطلق على المكان الذي يضم حجرة واحدة على أقل تقدير. فالبيت العتيق ليس أكثر من حجرة واحدة:

- ﴿ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ٢٩﴾ [الحج: 29]

وللعنكبوت بيت:

- ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٤١﴾ [العنكبوت: 41]

ويتم جمع مفردة بيت في النص القرآني على " بيوت"، فكان للنحل مثلا بيوتا:

- ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ٦٨﴾ [النحل: 68]

وكان الناس ينحتون من الجبال بيوتا:

- ﴿وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ٨٢﴾ [الحجر: 82]

نتيجة: من يسكن البيت الواحد هم أهل:

- ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ٧٣﴾ [هود: 73]

وبالرغم من أن جميع سكان البيت الواحد هم أهل، إلا أنه كان لكل زوجه من أزواج النبي بيتها الذي تسكن فيه فلا تشاركها نساؤه الأخريات بذلك:

- ﴿وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ٣٣﴾ [الأحزاب: 33]
- ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ٣٤﴾ [الأحزاب: 34]

نتيجة: نحن نظن أن المكان بحجراته المختلفة تسمى بيوتا، والحجرة الواحدة التي تضم زوجة واحدة هي بيتا.

لذا نحن نظن أن امرأة العزيز كانت تسكن حجرة (بيتا) خاصا بها من بين مجموعة من الغرف الأخرى التي كانت بيوتا لغيرها. ولو حاولنا أن نربط الآيتين التاليتين معا لوجدنا أن التباين واضح في اللفظ:

- ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾ [يوسف: 23]
- ﴿۞ وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٣٠﴾ [يوسف: 30]

السؤال: لماذا نسب مكان المراودة إلى المرأة نفسها؟ ولماذا تحدثت النسوة في المدينة عن امرأة العزيز؟

افتراء من عند أنفسنا (1): لما كانت المرأة التي راودت يوسف عن نفسه (نحن نزعم القول) هي ابنة الملك نفسه كان لها بيتا في قصر الملك، فنسب ذلك البيت إلى المرأة ولم ينسب إلى زوجها، لأنه ببساطة بيت المرأة نفسها.

افتراء من عند أنفسنا (2): لما كان للملك أكثر من ابنة واحدة جاء خطاب النسوة في المدينة ليبرز المرأة التي راودت يوسف عن نفسه، فلم تقل النسوة شيئا كهذا مثلا:

ابنة الملك تراود فتاها عن نفسه

وذلك لأنه سيحصل حينها لبسا في أي واحدة من بنات الملك كان الخطاب سيشمل (وسنتحدث عن تبعات هذا الظن بحول الله وتوفيقه لاحقا)، عندها سيكون لزاما إبراز ما يدل على أي منهن، ولكن لما قالت النسوة:

- ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ... ﴿٣٠﴾﴾ [يوسف: 30]

يستحيل بذلك أن يحدث لبس في شخصية المرأة التي راودت يوسف عن نفسه.

السؤال: ومن هي امرأة العزيز أصلا؟

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن امرأة العزيز هي واحدة من بنات الملك نفسه، وكانت تسكن في قصر الملك مع بقية إخوانها وأخواتها، المتزوجات منهن وغير المتزوجات، فكان لكل واحدة (كما كان لكل واحد) بيتا في ذلك القصر الكبير، فكان البيت بيتها ولم يكن بيت زوجها أو بعلها؟

وقد كان ذلك البيت على مقربة من بيت آخر هو (نحن نظن) بيت سيدها الذي ألفياه لدى الباب. ونحن نتجرأ على افتراء القول بأن سيدها هذا كان أخوها وريث الحكم وولي عهد الملك.

الدليل

لجلب الدليل على هذا القول المفترى من عند أنفسنا، فلابد من إيجاد جواب على تساؤلنا التالي: من هو السيد في النص القرآني؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن السيد في النص القرآني (كما نفهمه) هو الوريث في الحكم بغض النظر عن عمره.

الدليل

نحن نقرأ الدليل على ذلك في قصة زكريا في الآية التالية:

- ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [آل عمران: 39]

فلقد كان يحيى منذ يومه الأول سيدا. فلماذا؟

نحن نعلم أن زكريا هو من طلب من الله الولي الذي يرثه ويرث من آل يعقوب:

- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾ [مريم: 4-6]

فكانت الاستجابة الربانية على نحو ما طلب الرجل من ربه، فوهب الله له يحيى وليا، فكان وارثه ووارث من آل يعقوب، وقد كان يحيى سيدا منذ يومه الأول:

- ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [آل عمران: 39]

ولما كان يحيى حصورا لم يكن لزكريا ذرية غيره. فكان هو الوارث لوالده منذ اللحظة الأولى لولادته.

وبمثل هذا الفهم المفترى من عند أنفسنا فإننا نتجرأ على الظن بأن سيد المرأة الذي ألفياه لدى الباب قد كان سيدها، لأنه هو الرجل الثاني في الدولة (بغض النظر عن عمره) مادام أنه هو وريث الحكم:

- ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ [يوسف: 25]

ليكون النظام الإداري في مصر في زمن يوسف حينئذ (كما زعمنا في الجزء السابق من هذا الكتاب) على النحو التالي:

⇐ الملك
⇐ السيد (ولي العهد)

⇐ العزيز (الصهر: زوج ابنة الملك)

نحاول أن ننهي هذا الجزء من الكتاب بتقديم إجابات مفتراة من عند أنفسنا للتساؤلات التي أثرناها في بداية هذا الجزء من الكتاب وهي:

⇐ **من هي تلك المرأة؟**

أنها ابنت الملك وامرأة العزيز

⇐ **أين كانت تسكن؟**

في قصر والدها حيث كان لها بيتا فيه

⇐ **من هو زوجها (أو بعلها)؟**

العزيز (الذي لم يكن من العائلة المالكة ولكنه اكتسب ذلك الشرف اكتسابا بالمصاهرة)

⇐ **من هو سيدها؟**

أخوها ولي عهد الملك

وسنحاول في الجزء القادم (إن أذن الله لنا بشيء من علمه) أن نتعرف أكثر على شخصية هذين الرجلين وهما (1) سيد المرأة (ولي عهد الملك) و (2) زوجها أو بعلها (العزيز)، محاولين النبش في دور كل منهما في قصة يوسف منذ بدايتها هناك في أرض مصر وحتى نهايتها.

فالله وحده أسأله أن يعلمني ما لم تكن نعلم، فيأذن لنا الإحاطة بشئ من علمه لا ينبغي لغيرنا، وأن يعلمنا الحق الذي نقوله فلا نفتري عليه الكذب، ونسأله وحده أن يهدينا إلى نوره الذي أبى إلاّ أن يتمه ولو كره الكافرين، إنه هو الواسع العليم - آمين.

وللحديث بقية

المدّكرون :رشيد سليم الجراح &علي محمود سالم الشرمان

بقلم :د. رشيد الجراح

17كانون أول 2013

د. رشيد الجراح، مركز اللغات، جامعة اليرموك



الجــزء الثاني عشر

إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا



الجزء الثاني عشر: إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا

قد افترينا الظن بأن الشخص الذي ألفياه (يوسف والمرأة) لدى الباب لم يكن زوجها العزيز (كما زعم سادتنا العلماء أهل الدراية من قبل)، ولكننا نؤمن يقينا بأنه سيدها بصريح اللفظ القرآني. وقد افترينا بناء على ذلك القول من عند أنفسنا بأن سيدها ذاك هو أخوها وولي عهد الملك نفسه، فلقد كان بصريح اللفظ القرآني من أهلها بدليل ما قالته المرأة نفسها:

- ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢٥﴾ [يوسف: 25]

وظننا أن سيدها ذاك قد حاول أن يتكتم على الخبر حتى لا ينتشر في المدينة فيصبح كارثة على العائلة بأكملها. فلم يتم الفصل بين المرأة ويوسف خوفا من إثارة الشبهات حول الموضوع. فتصرف سيدها كالحكم (الذي هو من أهلها) في النزاع الذي حصل بين المرأة ويوسف، ففي حين أن المرأة حاولت أن تلقي بالتهمة على يوسف:

- ﴿... قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢٥﴾ [يوسف: 25]

حاول يوسف أن يدافع عن نفسه، فما كان من سيدها إلا أن يستمع إلى شهادة الطرفين، فكما استمع إلى شهادة أخته السابقة، أنصت إلى شهادة يوسف:

- ... قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ...

ومن ثم ذهب يبحث عن الدليل الذي وجده عند شخص آخر من أهل المرأة نفسها. انظر الآية الكريمة:

- ﴿... وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٢٦﴾ [يوسف: 26]

ليصبح المشتركين في هذه القضية من أهل المرأة نفسها شخصان وهما:

1. الذي ألفياه لدى الباب واشتكت له المرأة: قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا
2. الذي شهد بخصوص قدّ القميص: وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ

وسنحاول في مطلع هذا الجزء (إن أذن الله لنا بشيء من علمه) التعرف على شخصية هذين الشخصين من أهلها.

وقد أنهينا الجزء السابق من الكتاب بتقديم إجابات مفتراة من عند أنفسنا للتساؤلات التي أثرناها حينئذ وهي:

السؤال	الجواب المفترى
من هي تلك المرأة؟	أنها ابنت الملك وامرأة العزيز
أين كانت تسكن؟	في قصر والدها حيث كان لها بيتا فيه
من هو زوجها (أو بعلها)؟	العزيز (الذي لم يكن من العائلة المالكة ولكنه اكتسب ذلك الشرف اكتسابا بالمصاهرة)
من هو سيدها؟	أخوها ولي عهد الملك

وقد قطعنا الوعد للقارئ الكريم أن نتابع محاولاتنا النبش في تفاصيل تلك القصة العظيمة لنتعرف أكثر على أحداثها وشخصياتها كما نفهمها. فنحن نظن أن معرفة الشخصيات لا شك تسعف في توضيح تفاصيل القصة بالدقة التي نرجوها بحول الله وتوفيقه.

أما بعد.

الشخصيات المثيرة للتدبر

⇐ **الملك:** وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ

⇐ **السيد:** وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ

⇐ **العزيز:** وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ

لكن يبقى هناك شخصية أخرى مثيرة للاهتمام وهي شخصية الشاهد الذي شهد من أهلها والذي فضّ الخلاف معتمدا على كيفية قدِّ القميص، فكان قراره الثاقب الحكيم على النحو الذي تصوره الآيات الكريمة أحسن تصوير:

- ﴿... وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٢٦ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٧﴾ [يوسف: 26-27]

فمن هو ذلك الشاهد؟ نحن نسأل

جواب: إليك أولا عزيزي القارئ ما وجدناه عند ابن كثير حول هذه الجزئية:

... وذلك يكون كما وقع لما هرب منها وتطلبته أمسكت بقميصه من ورائه لترده إليها فقدت قميصه من ورائه. وقد اختلفوا في هذا الشاهد هل هو صغير أو كبير؟ على قولين لعلماء السلف فقال عبد الرزاق أخبرنا إسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس " وشهد شاهد من أهلها " قال ذو لحية وقال الثوري عن جابر عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس : كان من خاصة الملك وكذا قال مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والسدي ومحمد بن إسحاق وغيرهم : إنه كان رجلا وقال زيد بن أسلم والسدي : كان ابن عمها وقال ابن عباس كان من خاصة الملك وقد ذكر ابن إسحاق أن زليخا كانت بنت أخت الملك الريان بن الوليد وقال العوفي عن ابن عباس في قوله " وشهد شاهد من أهلها " قال كان صبيا في المهد وكذا روي عن أبي هريرة وهلال بن يساف والحسن وسعيد بن جبير والضحاك بن مزاحم أنه كان صبيا في الدار واختاره ابن جرير وقد ورد فيه حديث مرفوع فقال ابن جرير : حدثنا الحسن بن محمد حدثنا عفان حدثنا حماد هو ابن سلمة أخبرني عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال تكلم أربعة وهم صغار فذكر فيهم شاهد يوسف ورواه غيره عن حماد بن سلمة عن عطاء عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال : تكلم أربعة وهم صغار ابن ماشطة بنت فرعون وشاهد يوسف وصاحب جريج وعيسى ابن مريم وقال الليث بن أبي سليم عن مجاهد إنه من أمر الله تعالى ولم يكن إنسيا وهذا قول غريب

انتهى الاقتباس

ألا تجد - عزيزي القارئ- أن سادتنا أهل الدراية قد وضعوا كل احتمالات خطرت في بالهم (وربما بلا دليل) حتى وصلوا أخيرا إلى القول بأن الشاهد لم يكن إنسيا (انظر ما وضعنا نحن تحته خط في نهاية الكلام المقتبس من ابن كثير)؟ ألم يأتي بصريح اللفظ القرآني أن الشاهد كان من أهلها (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا)؟ فكيف ببعضهم يجرؤ على افتراء القول كذبا بأنه لم يكن إنسيا؟ أم أن أهلها كانوا أيضا من الجن أو من الشياطين؟ وهل كانت المرأة نفسها من الجن مادام أن الشاهد على رأي الليث بن سليم الذي نقل عن مجاهد (كما في ابن كثير – انظر السطر الأخير الذي وضعنا تحته خطا) لم يكن إنسيا؟ هل يعقل - يا سادة- أن يصدر مثل هذا الكلام عن من يمكن أن ينعتوا بأنهم أهل علم يستحق أن يُكتب ما قالوا (إن صح أصلا) في بطون أمهات كتب المسلمين؟ من يدري!!!

افتراءات من عند أنفسنا نظن أنها غير مسبوقة حول شخصية الشخص الذي ألفياه لدى الباب وشخصية الشاهد الذي شهد من أهلها

افتراء رقم (1): نحن نظن أن الشخص الذي ألفياه (يوسف والمرأة) لدى الباب كان سيدها وهو أخوها وولي عهد الملك حينئذ

افتراء رقم (2): نحن نظن أن الشاهد الذي فض الخلاف بالقضية حينئذ من خلال فكرة قدّ القميص كان الملك نفسه

الدليل

لقد افترينا القول في الأجزاء السابقة من هذا الكتاب أن النظام الإداري في مصر في زمن يوسف حينئذ كان على النحو التالي:

⇐ **الملك (رأس الدولة)**
⇐ **السيد (ابن الملك وولي عهده)**
⇐ **العزيز (صهر الملك: زوج ابنته)**

قصة يوسف: تخيلات من عند أنفسنا

بداية نحن نؤمن يقينا أن الذي ألفياه لدى الباب كان من أهل المرأة (قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا) كما نؤمن يقينا بأن الشاهد الذي شهد كان أيضا من أهلها (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ).

السؤال: مَن مِن أهلها ألفياه لدى الباب؟ ومَن مِن أهلها شهد في القضية؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نفتري القول بأن الذي ألفياه لدى الباب (سيدها) كان أخوها ولي عهد الملك، أما الذي شهد من أهلها فكان أبوها الملك نفسه، لذا نحن نتخيل أن الذي حصل في قصة يوسف في تلك المرحلة كان على النحو التالي:

يخرج يوسف من المكان الذي حصلت فيه مراودته عن نفسه وهو بيت المرأة نفسها (وَرَاوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ) بعد أن استطاع فك تغليق الباب ليخرج منه. ولكنه لم يستطع أن يخرج من هناك إلاّ وكان قميصه قد قُدّ من دبر. ونحن نظن أن القميص الذي قدّ من دبر هو القميص العادي الذي كان يلبسه يوسف أمام الناس العاديين (وهو الذي كان يلبسه على القميص الذي كان يخفي تحته صورة الملك الكريم):

- ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۞ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۞﴾ [الأنعام: 8-9]

نتيجة مفتراة: عندما خرج يوسف من مكان المراودة كان يلبس عليه ما يلبس الناس في ذلك الزمن. فتلحق به المرأة إلى خارج بيتها الذي راودته فيه، وهناك يصادف في تلك اللحظة مرور سيدها ولي عهد الملك، ولم يكن قاصدا الدخول عليها الباب لأنه ببساطة لم يكن زوجها، بل كان أخوها المنشغل حينئذ بقضايا الحكم. فكما ذكرنا سابقا لم يكن سيدها هو من ألفاهما لدى الباب ولكنهما هما من ألفياه لدى الباب:

- وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِۚ

فمادام أنهما ألفياه، كانا (يوسف والمرأة) هما المتجهين نحوه، فلم يلحظ سيدها في تلك اللحظة دبر يوسف وقد قد قميصه من هناك. وما أن ترى امرأة العزيز أخاها (سيدها) هناك حتى خافت (نحن نتخيل) أن يفتضح الأمر، فحاولت أن تكيد بيوسف هناك، فألقت عليه تهمة أنه هو من أرادها بسوء، فبادرت سيدها بالكلام قائلة:

- ﴿... قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢٥﴾ [يوسف: 25]

عندها حاول يوسف أن يدافع على الفور عن نفسه:

- ﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِىۚ ... ۝٢٦﴾ [يوسف: 26]

لأن يوسف يعلم أن هذا الشخص (سيدها) هو صاحب قرار، فهو يستطيع أن يسجنه أو أن يعذبه ليعترف بالتهمة كما جاء على لسان المرأة نفسها:

- ﴿... قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢٥﴾ [يوسف: 25]

ونحن نفتري الظن أن سيدها هذا كان شابا ذا فطنة ورويّة، فهو ولي عهد الملك لا يتهور باتخاذ القرار قبل أن يسمع لشهادة الجميع ويجلب الدليل على القول. فاستمع إلى شهادة المرأة وأنصت إلى شهادة يوسف، ولم ينطق بكلمة واحدة حتى الساعة. فذهب يبحث عن الدليل الذي يؤكد شهادة أحدهما ويدحض شهادة الآخر. فأين يا ترى سيبحث عن الدليل؟ وعند من سيجده؟

جواب: أتدرون - يا سادة- لو كنت أنا مكانه ماذا كنت سأفعل حينها؟

جواب فوري: سأذهب إلى والدي الملك نفسه.

افتراء من عند أنفسنا: نعم لقد ذهب ذلك الشاب (أخ المرأة وسيدها) إلى والده الملك ليخبره بما جرى في بلاطه، ولكن ذاك الشاب (السيد) كان من الذكاء الشديد الذي جعله يلملم القضية بكل حنكة واقتدار (فهو لا شك ولي عهد الملك الذي سيصبح الملك بعد والده). فما الذي فعله في بلاط والده؟

رأينا المفترى: لمّا كان هذا الشاب من أهل السياسة العارف بتدبير الأمور بكل حنكة واقتدار (دون تهور ولا تفلّت) ذهب إلى والده ليطرح عليه الأمر، ولكنه طرح القضية بطريقة ذكية على نحو أنها قضية (من قضايا الشعب) لا تخص بيت الملك، ومطلوب منه في الوقت ذاته البتّ فيها. فجرى الحديث بينه وبين والده (كما نتخيله) على النحو التالي:

⇐ جلالة الملك المعظم ووالدي العزيز – قال الشاب ولي عهد الملك- لقد أشغلتني قضية لم استطع البت فيها.
⇐ هات ما عندك يا ولدي وولي عهدي الأمين، رد الملك.
⇐ هناك امرأة تزعم أن فتاها أراد بها سوءا، ولكن الفتى ينكر هذه التهمة ويصر على أنها هي من كانت تراوده عن نفسه، ولم أستطع أن أحسم القضية بخصوص المذنب منهم والبريء.
⇐ وأين حصلت الجريمة؟ سأل الملك
⇐ في بيت المرأة؟ رد الابن
⇐ وأين تم ضبطهما؟ سأل الملك؟
⇐ لدى الباب؟ قال الابن
⇐ ومن الذي خرج من الباب أولا؟ سأل الملك
⇐ الفتى. أجاب الابن
⇐ وماذا طلبت المرأة؟
⇐ سجن الفتى أو تعذيبه؟ أجاب الابن
⇐ وماذا طلب الفتى؟ سأل الملك
⇐ لا شيء. فقط براءته
⇐ وهل هناك أدلة مادية على الجريمة؟ سأل الملك.
⇐ لا أظن. رد الابن

جواب الملك: سكت الملك قليلا، ثم قال بعد أن نفث شيئا من الغيض الذي يخفي وراءه علما بشيء لا يجب النطق به في هذه الساعة: مادام أنها قضية اغتصاب، فلا بد أنه قد حصل بينهما (المرأة والفتى) عراك، فاذهب يا بني وانظر في قميص الفتى من أين قدّ، قائلا لولده في تلك اللحظة:

- ﴿...إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٢٦ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٧﴾ [يوسف: 26-27]

لماذا لم يدقق الشاهد في لباس المرأة؟ ولماذا تحدث عن لباس الفتى؟

رأينا: لأن المرأة كما افترينا القول في الأجزاء السابقة كانت قد همت بيوسف (أي خلعت ملابسها جميعها)، أما يوسف فقد توقف عن الهم بها (خلع الملابس) بمجرد أنه رأى برهان ربه، لذا خرج يوسف من مكان المراودة مرتديا ملابسه بينما خرجت المرأة خالعة ملابسها تلف نفسها بغطاء الأريكة التي كانت قد هيئاتها للفراش.

يخرج الابن (ولي عهد الملك) على الفور من مجلس والده الملك ليدقق في الدليل، وهو على يقين (نحن نفتري القول) بأن القميص لم يقدّ من قُبُل لأنه كان قد رأى يوسف في مكان الحادثة، فلو كان القميص قد قُدَّ من قبل لما احتاج هذا السيد أن يعود إلى مكان الجريمة مرة أخرى. ولكنه عادا ليتأكد من أن القميص قد قُدَّ فعلا من الدبر، فيعود إلى مكان الحدث على الفور، حيث لازالت المرأة متواجدة مع فتاها هناك، وينظر مباشرة في قميص يوسف من الدبر ليجد أنه قد قُدَّ على النحو التالي:

- ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ٢٨﴾ [يوسف: 28]

لاحظ - عزيزي القارئ- كيف يصوّر القرآن الكريم أحسن تصوير أنه في هذه اللحظة فقط رأى سيد المرأة قميص يوسف وقد قدّ من دبر، لربما ليرشدنا بأن هذا السيد قد قابل يوسف عندما ألفياه لدى الباب وهو مقبل عليه (وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ).

وفي هذه اللحظة، استقر في ضمير ذلك الشاب (السيد) القناعة بأنها هي من كانت تراوده عن نفسه وأنه هو من كان هاربا منها عندما ألفياه لدى الباب، فما يكون منه إلا أن يتخذ قراره الحكيم والنهائي:

- ﴿يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ ٢٩﴾ [يوسف: 29]

ويكون سيدها (أي أخوها وولي عهد الملك) قد أصاب بحكمته وحنكته تلك أكثر من هدف في آن واحد، نذكر منها:

⇐ إخبار والده الملك بما جرى وإن لم يكن قد قالها صراحة بأن تلك المرأة كانت واحدة من بناته وهي امرأة العزيز على وجه التحديد

⇐ اتخاذ القرار الذي لن يغضب والده الملك (لو أنه علم به لاحقا)، لأن الملك نفسه هو من فصل في القضية

⇐ إحقاق الحق، بإنصاف المظلوم حتى لو كان من الفتيان على حساب الظالم ولو كان من أهل بيته

⇐ التستر على الفضيحة وحفظ كرامة العائلة

⇐ عدم إشغال والده الملك بالمشاكل الشخصية للعائلة (فوالده الملك كان كبير السن ضعيف الجسم لا يقوى على سماع أخبار كهذه عن عائلته، فلربما ضربته جلطة قلبية أو دماغية في الساعة لو وصله خبر ما تفعل بعض بناته مع فتيانه – وإن كنت أظن أن الملك العجوز كان يعلم ما يدور حوله وإن لم يكن يستطع السيطرة على مجريات الأمور بكل حزم ربما لكبر سنه – الأمر الذي سنتحدث عنه لاحقا إن أذن الله لنا الإحاطة بشيء من علمه).

⇐ الخ.

نتيجة: أظن أن هذا السيد هو شاب يستحق بكل جدارة أن يكون ولي عهد الملك، ونحن نعتقد جازمين بأن هذا الشاب (سيدها) كان رجلا مؤمنا، فليس أدل على ذلك مما طلب من أخته أن تفعل بعد أن استقر في ضميره أنها هي التي كانت تراود الفتى الغريب عن نفسه، فلقد طلب منها أن تستغفر لذنبها.

- ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [يوسف: 29]

السؤال: فهل يطلب الاستغفار إلا من كان الإيمان من عقيدته؟ ولو دققنا في هذه الآية أكثر لربما حق لنا أن نستنبط بأن هذا الشاهد كان يعرف يوسف من ذي قبل وأن العلاقة بينهما كانت وطيدة بدليل أنه قد خاطبه باسمه الشخصي (يُوسُفُ):

- ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [يوسف: 29]

إن هذا الظن سيقودنا لاحقا إلى تقديم الافتراء الخطير التالي (الذي سنتابعه لاحقا إن أذن الله لنا بشيء من علمه) وهو أن هذا السيد (ولي عهد الملك) هو الذي سيصل إلى الملك في سنين سجن يوسف وهو الذي نظن أنه صاحب الرؤيا العظيمة بعد أن يعتلي عرش مصر، والتي ستكون حبكة عظيمة في قصة يوسف نفسها:

- ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ۖ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [يوسف: 43]

فالله وحده أسأله أن يعلمنى (وصاحبى فى الاد كار على) ما لم نكن نعلم، فيأذن لنا الإحاطة بشى من علمه لا ينبغى لغيرنا، وأن يعلمنا الحق الذي نقوله فلا نفتري عليه الكذب، ونسأله وحده أن يهدينا إلى نوره الذي أبى إلاّ أن يتمه ولو كره الكافرين، ونعوذ به أن نفتري عليه الكذب ونحن نعلم، إنه هو الواسع العليم - آمين.

قصة يوسف تصور جديد

أما بعد

يحاول هذا الشاب (السيد) أن يتكتم على الخبر بعد أن يقضي فيه بالحكم العادل، فيأتي خطابه في الآية (29) على النحو التالي:

- ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ [يوسف: 29]

وفي الآية التي تليها مباشرة (الآية 30) يأتي حديث النسوة في المدينة عن امرأة العزيز:

- ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [يوسف: 30]

السؤال: كيف وصل الخبر إلى النسوة؟

⇐ ألم تحدث المراودة في بيت المرأة؟
⇐ ألم يلفيا سيدها فقط لدى الباب؟
⇐ ألم يطلب سيدها من يوسف أن لا ينشر الخبر؟
⇐ هل يعقل أن تكون المرأة نفسها هي من نشرت الخبر؟
⇐ من الذي عرف بالقصّة حتى علمت نسوة في المدينة بها؟
⇐ الخ.

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن الخبر قد خرج من القصر من خلال بعض حاشية هذا السيد، وهم الذين كانوا برفقته (أو على الأقل هم الذين كانوا متواجدين في ذلك المكان) عندما ألفياه لدى الباب. لذا نحن نتخيل الأمر وقد حصل على الأرض على النحو التالي:

عندما خرج يوسف من مكان المراودة مرتديا ملابسه ولحقت به المرأة إلى خارج بيتها خالعة ملابسها إلا ما استطاعت أن تستر بها عورتها على عجل لتلحق بيوسف قبل أن يخرج من المكان، ألفيا سيدها في هذه اللحظة والهيئة لدى الباب، وكان سيدها هذا هو ولي عهد الملك الذي كان يرافقه بعضا من حاشيته في ذلك الوقت، فالسيد كان مشغولا (نحن نتخيل) بأمور الحكم حينما ألفياه لدى الباب، لذا لم يكن (نحن نتصور) متواجدا هناك لوحده.

السؤال: وأين الدليل أن سيدها كان في رفقته بعضا من حاشيته عندما ألفياه لدى الباب؟ أو ما الدليل أن بعضا من فتيان القصر كانوا متواجدين في ذلك المكان عندما ألفيا يوسف والمرأة سيدها لدى الباب؟

جواب مفترى: نحن نظن أننا نستطيع أن نقرأ الدليل على ذلك من الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ۖ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: 36]

السؤال: لماذا يتحدث النص القرآني عن دخول فتيان مع يوسف السجن؟

ما قصة هذان الفتيان؟ ومن هما؟

جواب: دعنا نستعرض أولا ما جاء عند ابن كثير حول هذه الجزئية:

قال قتادة : كان أحدهما ساقي الملك والآخر خبازه قال محمد بن إسحاق : كان اسم الذي على الشراب نبوا والآخر مجلث قال السدي : كان سبب حبس الملك إياهما أنه توهم أنهما تمالآ على سمه في طعامه وشرابه وكان يوسف عليه السلام قد اشتهر في السجن بالجود والأمانة وصدق الحديث وحسن السمت وكثرة العبادة صلوات الله عليه وسلامه ومعرفة التعبير والإحسان إلى أهل السجن وعيادة مرضاهم والقيام بحقوقهم ولما دخل هذان الفتيان إلى السجن تألفا به وأحباه حبا شديدا وقالا له : والله لقد أحببناك حبا زائدا قال بارك الله فيكما إنه ما أحبني أحد إلا دخل علي من محبته ضرر أحبتني عمتي فدخل علي الضرر بسببها وأحبني أبي فأوذيت بسببه وأحبتني امرأة العزيز فكذلك فقالا والله ما نستطيع إلا ذلك ثم إنهما رأيا مناما فرأى الساقي أنه يعصر خمرا يعني عنبا وكذلك هي في قراءة عبد الله بن مسعود إني أراني أعصر عنبا ورواه ابن أبي حاتم عن أحمد بن سنان عن يزيد بن هارون عن شريك عن الأعمش عن زيد بن وهب عن ابن مسعود أنه قرأها أعصر عنبا وقال الضحاك في قوله " إني أراني أعصر خمرا " يعني عنبا قال وأهل عمان يسمون العنب خمرا وقال عكرمة : قال له إني رأيت فيما يرى النائم أني غرست حبلة من عنب فنبتت فخرج فيها عناقيد فعصرتهن ثم سقيتهن الملك فقال : تمكث في السجن ثلاثة أيام ثم تخرج فتسقيه خمرا وقال الآخر وهو الخباز : " إني أراني أحمل فوق رأسي خبزا تأكل الطير منه نبئنا بتأويله " الآية والمشهور عند الأكثرين ما ذكرناه أنهما رأيا مناما وطلبا تعبيره وقال ابن جرير : حدثنا وكيع وابن حميد قالا : حدثنا جرير عن عمارة بن القعقاع عن إبراهيم عن عبد الله بن مسعود قال : ما رأى صاحبا يوسف شيئا إنما كانا تحالما ليجربا عليه

انتهى الاقتباس

رأينا: نحن نظن أن السؤال الحتمي الذي ربما (عن غير قصد) غفل عنه سادتنا العلماء أهل الدراية هو: لم أصلا ذكر النص القرآني أن هذان الفتيان قد دخلا السجن مع يوسف؟

- ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٦﴾ [يوسف: 36]

ولم أصبحا (هما الاثنان على وجه التحديد) صاحبيه السجن؟

- ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩﴾ [يوسف: 39]

ولم كان يؤول يوسف لهما ما يأتيهما من طعام يرزقانه فقط؟

- ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ٣٧﴾ [يوسف: 37]

لم لم يؤول لغيرهم إذا كان الأمر مجرد تأويل رؤيا وكفى؟

ألم يكن يأتيهما شيء آخر غير الطعام الذي يرزقانه؟ وهل كانا يريان كل ذلك الطعام في المنام في كل مرة؟

ولِم دعاهما إلى التوحيد من بين نزلاء السجن جميعا؟ فأخبرهما بأنه قد ترك ملة القوم الذين لا يؤمنون بالله:

- ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ٣٦﴾ [يوسف: 36]

وأنه اتبع ملة آباءه إبراهيم وإسحق ويعقوب:

- ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ٣٧ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ٣٨﴾ [يوسف: 37-38]

ولِم طلب منهما أن يتركا عبادة ما سموه من عند أنفسهم؟

- ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٤٠﴾ [يوسف: 40]

وما يهمنا هنا على وجه التحديد هو: لِم طلب من الذي ظن أنه ناج منهما أن يذكره عند ربه؟

- ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ٤٢﴾ [يوسف: 42]

السؤال: من هو ربه الذي طلب منه يوسف أن يذكره عنده؟ الخ.

أما بعد

نحن نظن أن هذه تساؤلات لابد من البحث عن إجابات مقنعة لها، وأن لا نكتفي بأحاديث آخر الليل، ويكأن القصة قد حصلت مع إعرابي في وسط الصحراء، فتسامر الناس في حكايته لقضاء ليل الشتاء الطويل، فرددوا الحكاية على نحو ما يجلب لهم التسلية وتضييع الوقت في برد الشتاء القارص أو في حر الصيف الملتهب. فتطرقوا لما أرادوا أن يتطرقوا إليه من تلك الحكاية وتركوا ما لا يريدون الخوض فيه، فأخذوا من قصة ذاك الفتى – مثلا- مجدهم في تأويل الخمر الذي يعصر:

- ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ٣٦﴾ [يوسف: 36]

فجعلوا الخمر عنبا، وقراءه بعضهم على ذاك النحو (انظر التفسير السابق المقتبس من ابن كثير ليكون السؤال الحتمي الذي سننهي هذا الجزء به بحول الله وتوفيقه لاحقا هو: هل يعصر الخمر؟ أليس الخمر سائلا؟ فكيف سيتم عصر ما هو أصلا معصورا؟

السؤال المربك لي: هل قدم لنا سادتنا العلماء أهل الدراية (كما نقل لنا أهل الرواية) شيئا يستحق أن يطلق عليه لفظ العلم؟ وهل ما نُقل إلينا عنهم يساوي ما صرفناه لهم من ألقاب التبجيل والمديح والثناء؟

رأينا: نعم أنا أظن أن أهل الدين يستحقون ما صرفناه لهم من ألقاب على مجهودهم ذاك للرقي بفكر الأمة بنفس الدرجة التي يستحق بها حكامهم (أهل السياسة) الألقاب التي صرفناها لهم على مجهودهم في الرقي بشعوبهم. من يدري؟!!! وأنا مالي!!!

السؤال: ما الذي حصل فعلا؟ لماذا دخل السجن هذان الفتيان مع يوسف؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: لأنهما متورطان في القضية نفسها. لقد كانا طرفاً في قضية مراودة المرأة ليوسف عن نفسه.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن سيد المرأة (أخوها وولي عهد الملك) حاول التستر على القضية، فطلب من يوسف أن يعرض عن هذا:

- يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَاۚ...

وطلب من أخته أن تستغفر لذنبها:

- ﴿... وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ۝٢٩﴾ [يوسف: 29]

فتموت القصة في مهداها فلا يعلم بذلك أحد.

ولمّا كان هذا السيد من الذين يحقون الحق حتى لو كان لصالح غلام من غلمان القصر على حساب أسياد القصر أنفسهم، لم يزج بيوسف في السجن مادام أنه قد ثبت لديه بالدليل القاطع أنه برئ من التهمة التي نسبتها أخته إليه. فاستمر يوسف في عمله في القصر حتى لا يحدث إبعاده بلبلة وتساؤلا عند الآخرين من فتيان القصر، واستمرت المرأة في ملاحقة يوسف لتنفيذ مرادها فيه. وليس أدل على ذلك من وجود يوسف في المكان نفسه الذي جمعت فيه النسوة:

- ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنْهُنَّ سِكِّينٗا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ ۝٣١﴾ [يوسف: 31]

فبقي يوسف يلازم القصر، وبقيت المرأة على صلة بيوسف لا تنفك عن متابعة مرادها فيه، فقطعت على نفسها العهد بذلك أمام النسوة:

- ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ۝٣٢﴾ [يوسف: 32]

ولكن الملفت للانتباه هو أن غالبية الناس يتصورون أن الذين حضروا تلك الحادثة الشهيرة كانوا هم: يوسف والمرأة وسيدها فقط؟

السؤال: إذا صح هذا القول: فكيف انتشر الخبر بين نسوة في المدينة إذن؟

- ﴿۞ وَقَالَ نِسْوَةٞ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٣٠﴾ [يوسف: 30]

ألا يحق لنا أن نسأل عن الذي أوصل لهذه النسوة خبر مراودة امرأة العزيز لفتاها عن نفسه؟

أولا، نحن نستبعد أن يكون يوسف هو من أوصل الخبر لأن يوسف على خلق لا يسمح له أن يشهّر بأعراض الناس أصلا.

ثانيا، نحن نستبعد أن تكون المرأة هي التي نشرت الخبر لأنه من المستحيل أن تفضح نفسها بلسانها مادامت أنها هي من راودته، ومادام أنها جمعت النسوة مباشرة عندما سمعت بمكرهن بها:

- ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ٣١﴾ [يوسف: 31]

وردت لهن الصاع صاعين، فأوقعتهن في الفخ نفسه عندما قطعن أيديهن (انظر الأجزاء السابقة من هذا الكتاب).

ثالثا، نحن نستبعد أن يكون سيدها هو الذي نشر الخبر بدليل أنه هو نفسه من طلب من يوسف أن يعرض عن الأمر:

- ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ٢٩﴾ [يوسف: 29]

السؤال: من الذي نشر الخبر إذن؟

رأينا: للإجابة على هذا التساؤل لابد من طرح التساؤل التالي مباشرة: لم أصلا دخل يوسف السجن؟ ألم تثبت براءته؟ ألم يقتنع سيدها بأنها هي من راودته عن نفسه؟

رأينا: نحن نفتري الظن بأن يوسف لم يدخل السجن بسبب حادثة المراودة نفسها على الرغم من أن المرأة نفسها قد طلبت ذلك قبل أن تنكشف الحقيقة:

- ﴿... قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٢٥﴾ [يوسف: 25]

إلا أن سيد المرأة قد نطق بالحكم الذي لم يكن يتضمن سجن يوسف:

- ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ٢٩﴾ [يوسف: 29]

السؤال الذي لا مفر منه الآن هو: لماذا تم الزج بيوسف في السجن لاحقاً؟

جواب مفترى: نحن نظن أن السبب الذي من أجله تم الزج بيوسف في السجن هو انتشار الخبر في المدينة.

الدليل

لو راقبنا الآيتين التاليتين لوجدنا فارقا زمنيا واضحا بين حادثة المراودة ودخول يوسف السجن:

- ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ٣٤﴾ [يوسف: 34]
- ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ٣٥﴾ [يوسف: 35]

ألا تجد - عزيزي القارئ- أن تحقيقا في القضية قد حصل لاحقا ليس فقط لحادثة المراودة وإنما لحادثة اجتماع النسوة:

- ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ٣٥﴾ [يوسف: 35]

السؤال: ما هي الآيات التي بدت لهم؟ ولم نظروا مجددا في الآيات؟ ومن الذي نظر في تلك الآيات؟ الخ.

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نتخيل أن الذي حصل حينئذ كان على النحو التالي:

تحصل حادثة المراودة، يفصل سيد المرأة في القضية، يستمر وجود يوسف في القصر فتستمر المرأة في ملاحقته، ينتشر الخبر بين نسوة في المدينة، تقوم امرأة العزيز على الفور بجمع النسوة في مجلسها، تعرض يوسف على النسوة، ترى النسوة بأم أعينهن يوسف في لباس ملك كريم (بفضل ذلك القميص – انظر الأجزاء السابقة)، تكسب امرأة العزيز الرهان، تقطّع النسوة أيديهن لمراودة يوسف. تقيم امرأة العزيز الحجة على النسوة اللاتي مكرن بها فلم تعد وحدها الآن في دائرة الاتهام، بل على العكس فهي الوحيدة التي لم تقطع يدها. يتم فتح ملف القضية من جديد لدواعي أمنية بحته، فما هي؟

رأينا: نحن نظن أن أهل القصر قد أعادوا فتح القضية ليس من أجل إثبات التهمة على يوسف ليتم إلقاءه بعد ذلك في السجن، وذلك لأن براءة يوسف قد تأكدت لسيدها بدليل أن قميص يوسف قد قُدّ من دبر، ولكن الذي شغل تفكير القصر في تلك اللحظة (نحن نتخيل) هو تسريب معلومات سرية (classified material باللسان الأعجمي) من داخل قصر الملك نفسه. فقصر الملك أصبح دون أدنى شك مخترق من داخله، وأصبح جليا لأهل القصر (أهل المرأة) أن القائمين على خدمة القصر غير مؤتمنين على أسراره بعد هذه الحادثة. فمنطقهم (كما نفتريه من عند أنفسنا) كان على النحو التالي: مادام أن خبرا كهذا قد تسرب، فلابد أن الذي نقل الخبر هو شخص من داخل بلاط الملك نفسه. فمن هو؟ هذا هو السؤال الذي ربما كان (نحن نتخيل) يلحّ على أهل القصر حينها. وهذا في ظننا هو أحد الأسباب التي ربما جعلت أهل القصر يفتحون ملف القضية من جديد. فما الذي حصل عندما تم فتح ملف قضية يوسف من جديد؟

رأينا المفترى: ما أن فُتح ملف القضية حتى بدأ المحققون يجمعون الأدلة (الآيات) لكشف هوية من سرّب خبرا كهذا من داخل بلاط قصر الملك نفسه، فهذه – بنظر أهل البلاط- خيانة عظمى.

السؤال: ما الذي توصل إليه المحققون (كوجاك ورفاقه) في تلك القضية؟

جواب: تأكد لدى المحققون في القضية أن الذي سرّب الخبر من داخل بلاط قصر الملك لا يمكن أن يتجاوز واحد من بين ثلاث اختيارات، والاحتمالات الثالثة هي:

- يوسف نفسه
- صاحبه (الذي يعصر الخمر)
- صاحبه الذي يحمل الخبز فوق رأسه

فتم إيداع يوسف في السجن على ذمة التحقيق (بمفردات التلفزيون المصري في المسلسلات البوليسية) في هذه القضية:

- ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ٣٥﴾ [يوسف: 35]

ولو راقبنا مفردات هذه الآية العظيمة لوجدنا أن سجن يوسف لم يكن قطعيا وإنما إلى حين يتم الفصل في القضية فصلا نهائيا. وفي القضية نفسها دخل معه السجن فتيان:

- ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٦﴾ [يوسف: 36]

الدليل

نحن نجد أن مفردة "مَعَهُ" في النص القرآني تعني المصاحبة المكانية والفعلية، فهناك عشرات الآيات القرآنية التي تدل على أن من يكون مع الشخص يتواجد معه في المكان وفي الفعل:

- ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ٧﴾ [الفرقان: 7]
- ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦﴾ [آل عمران: 146]
- ﴿وَلَئِنۡ أَصَٰبَكُمۡ فَضۡلٞ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمۡ تَكُنۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ مَوَدَّةٞ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا ٧٣﴾ [النساء: 73]
- ﴿وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓ إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ١٤٠﴾ [النساء: 140]

إن أكثر ما يهمنا قوله هنا هو أن دخول الفتيان مع يوسف السجن كان على ذمة القضية نفسها، وإلا فإن التساؤلات كثيرة:

- ألم يكن السجن مليء بغيرهم من السجناء؟

- هل يعقل أن يكون في ذاك السجن يوسف وهذان الفتيان فقط؟
- وهل يعقل أن لا يكون في السجن نزلاء سابقين؟
- وهل يعقل أن لا يكون قد نزل في ذلك السجن غيرهم من بعد ذلك؟
- فلم تحدث القرآن الكريم عن هذين الفتيان فقط؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: لأنهم كانوا مشتركين مع يوسف في القضية قيد التحقيق: وهي تسريب المعلومات من داخل قصر الملك. وهذا بحد ذاته يشكل خيانة عظمى للملك نفسه.

تبدأ جلسات التحقيق في القضية تتوالى واحدة تلو الأخرى، ينظر المحققون في الآيات، فيتوصلون إلى قرار في ذلك بعد ما بدا لهم من الآيات:

- ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُاْ ٱلْـَٔايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ٣٥﴾ [يوسف: 35]

وما هو إلا وقت قصير حتى كان قرارهم قطعي على نحو أن صاحب يوسف في السجن الذي سيرى أنه يحمل فوق رأسه خبزا هو الذي سرب المعلومة من داخل القصر. فالآية التي تلي ذلك مباشرة (وهي رقم 36) تصور لنا رؤيا الرجلين:

- ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ٣٦﴾ [يوسف: 36]

فيتم تبرئة صاحب يوسف الذي سيرى أنه يعصر خمرا (إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ) من التهمة نهائيا، ويصدر حكم الإعدام بالخيانة العظمى للملك على ذلك الرجل الذي رأى (إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ)، فيأتي تأويل يوسف سابقا لوصول الخبر إلى صاحبيه السجن:

- ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُۥ خَمْرًاۖ وَأَمَّا ٱلْـَٔاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ٤١﴾ [يوسف: 41]

السؤال: لماذا قام ذلك الفتى بتسريب المعلومات من داخل القصر؟ ولمن سرب تلك المعلومات؟ وماذا كان سيجني من وراء ذلك؟

جواب مفترى من عند أنفسنا نرجو أن لا تصدقوه ما لم تجدوا أن الدليل من كتاب الله يدعمه: لأنه كان من المتآمرين للإطاحة بالملك نفسه. ولكن لماذا؟

تخيلات من عند أنفسنا: نحن نظن أن الملك حينئذ كان رجلا قد بلغ من الكبر عتيا، وكان ولي عهده (سيد المرأة الذي ألفياه لدى الباب) لازال شابا يافعا لم يكن في نظر من حوله (من أهل السياسة) ربما يقوى على إدارة شؤون الدولة من بعد والده، وقد أصاب الدولة شيئا من الضعف بسبب ضعف قبضة الملك نفسه، ولم يكن العزيز (زوج المرأة التي راودت يوسف عن نفسه) متواجدا في البلاد عندما حصلت القصة كلها، فقد كان خارج البلاد يدافع عن الدولة (انتظر عزيزي القارئ الجزء القادم للتعليق على هذه الجزئية)، فكان الطامعون في الحكم يحاولون زعزعة الأمور لربما ليصل بعضهم إلى كرسي الحكم. فحاول بعض المتربصين بالملك انتهاز كل فرصة ممكنة لزعزعة هيبة الملك والعائلة الحاكمة. فانتهز بعضهم هذه الفرصة (مراودة امرأة العزيز لفتاها عن نفسه) للنيل من أسرة الملك نفسها. فكان هذا الفتى الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزا تأكل الطير منه من المتآمرين على نظام حكم الملك حينئذ.

وقد كان لتصرف ابنت الملك (امرأت العزيز عندما جمعت النسوة وأوقعت بهن) كما كان لتصرف سيدها (أخوها وولي عهدها) في التكتم على الخبر – في رأينا- الأثر الأكبر في تثبيت هيبة العائلة المالكة حينئذ.

ونحن نفتري الظن بأن تلك الفرصة قد سنحت لهذا الشاب (السيد) أن يتخلص بكل ذكاء ودهاء سياسي من خصومه المنافسين له على الحكم على الفور. ولكن كيف ذلك؟

رأينا المفترى: ما أن سمع بأن خبرا كهذا قد انتشر بين نسوة في المدينة، وما أن استطاعت أخته أن توقع بتلك النسوة في الشرك نفسه حتى أثار على الفور قضية تسريب معلومات كاذبة عن بيت الملك، فطلب من المحكمة الانعقاد للنظر في القضية في الحال، وتم الزج بكل المشتبه بهم في السجن بمن فيهم يوسف نفسه بالرغم أن يوسف لا علاقة له بقضية التآمر على الملك. وليس أدل على ذلك من أن قرار الحكم قد صدر بحق الفتيان اللذين دخلا مع يوسف السجن، ولم يصدر حكما بحق يوسف نفسه، فلبث في السجن كشخص منسي فيه لأن أوراق يوسف لم تكن منظورة أمام تلك المحكمة التي انعقدت بدواعي أمنية. فنحن نقدم بداية الافتراءات التالية من عند أنفسنا عن السبب والكيفية التي تم بها الزج بيوسف في السجن:

افتراء رقم 1: تم النظر في قضية الفتيان اللذان دخلا السجن بأمر من سيد المرأة (ولي العهد) لدواعي أمنية تخص الحكم

افتراء رقم 2: تم الزج بيوسف بمعية هذين الفتيان بأمر من المرأة نفسها ودون علم سيدها. وليس أدل على ذلك في ظننا من طلب يوسف نفسه من صاحبه السجن الذي ظن أنه ناج منهما أن يذكره عند ربه:

- ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ٤٢﴾ [يوسف: 42]

نتيجة مفتراة: لو كان رب ذلك الفتى يعلم ما حل بيوسف لما تركه في السجن يوما واحدا، لذا طلب يوسف من صاحبه الذي ظن أنه ناج أن يذكره عند ربه، ونحن نفتري الظن بأن ربه هذا هو نفسه سيد المرأة (أخوها وولي عهد الملك). هذه تخيلات وافتراءات خطيرة من عند أنفسنا سنحاول أن نجلب عليها الدليل لاحقا سائلين الله وحده أن يهدينا رشدنا فلا نفتري عليه الكذب ونحن نعلم، وأن يأذن لنا الإحاطة بشيء من علمه فلا نقول عليه إلا الحق ونحن نعلم، إنه هو السميع المجيب – آمين.

ونعود الآن إلى صلب النقاش السابق بالحديث عن رؤيا الفتيان اللذين دخلا السجن مع يوسف.

باب الرؤيا في قصة يوسف:

تنقلنا رؤيا صاحبي يوسف السجن للحديث عن الموضوع الأكثر خطورة في قصة يوسف كلها وهو موضوع الرؤيا. ولكن لماذا؟

رأينا: لقد بدأت قصة يوسف برؤيا يوسف نفسه:

- ﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ٤﴾ [يوسف: 4]

ووصلت القصة ذروتها (أو climax بالمفردات الأعجمية) برؤيا صاحبيه السجن:

- ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٦﴾ [يوسف: 36]

وتحلحلت أو تفككت برؤيا الملك:

- ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ٤٣﴾ [يوسف: 43]

فعقدة يوسف (إن صح القول بالمفردات الأدبية) قد بدأت حبكتها الأولى برؤيته الشهيرة التي رءا فيها أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رءاهم له ساجدين، فقصّها على والده الذي طلب منه أن لا يحدّث بها إخوته. ووصلت قمة الذروة (التعقيد) برؤيا صاحبيه السجن حيث كان يقبع فيه وحيدا غريبا لا حول له ولا قوة، وانتهت برؤيا الملك تلك البقرات السمان التي يأكلهن البقرات العجاف والسنبلات الخضر والأخر اليابسات. وكان تأويل تلك الرؤيا جميعها هو ما يحيّر الألباب على الدوام كلما وضعت قصة يوسف على الطاولة وأصبحت مثار بحث ونقاش. فكيف يمكن أن نفهم حديث الرؤيا في قصة يوسف؟

رأينا: نحن نظن أن أول خطوة في فهم حديث الرؤيا هي فهم تفاصيل القصة نفسها كما حصلت على أرض الواقع. فالخلط الذي صاحب قصة يوسف بسبب الاتكال (نحن نفتري القول من عند أنفسنا) على موروثات الأمم السابقة هو ما أدخل الفوضى في الفهم. لذا لابد بداية من إعادة نسج خيوط القصة من جديد علّنا نخرج للعامة (وربما لثلة من أهل الدراية) بأفهام ربما تسمن أو تغني من جوع.

دعاء: فالله وحده هو ولي التوفيق وهو وحده من يأذن متى يقضي مشيئته بأن يتم نوره، فنسأله تعالى أن يستخدمنا فيعلمنا ما لم نكن نعلم وأن يهدينا رشدنا فلا نفتري عليه الكذب - آمين.

أما بعد:

انطلقت رحلة يوسف مبكرا بحثا عن ذلك العلم الذي يستطيع من خلاله تأويل الأحاديث كما جاء على لسان والده يعقوب:

- ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٥ وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦﴾ [يوسف: 5-6]

وكانت محطة تعليمه الأولى قد بدأت في بيت ذلك الرجل الذي اشتراه من مصر وطلب من امرأته إكرام مثواه راجيا أن ينفعهما يوسف أو أن يتخذاه ولدا لهما:

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢١﴾ [يوسف: 21]

نتيجة: لقد بدأ التعليم الرباني ليوسف علم التأويل (وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ) في بيت ذلك الرجل. ونحن نفتري الظن أن ذلك قد حصل على يد ذلك الرجل الصالح الذي اشتراه من مصر.

وقد افترينا في الأجزاء السابقة القول بأن هذا الرجل قد اشترى يوسف لأنه رأى فيه ما كان يبحث عنه، فبالرغم أن الجميع كانوا زاهدين في يوسف:

- ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ٢٠﴾ [يوسف: 20]

إلا أنه هو الوحيد الذي كان راغبا فيه بدليل أنه اشتراه، فطلب من امرأته أن تكرم مثواه لسببين:

⇐ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ

⇐ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ

وما وجدنا أن هذه الحجة نفسها قد استخدمت في كتاب الله مرة أخرى إلا عندما طلبت امرأة فرعون بأن لا يقتلوا موسى:

- ﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٩﴾ [القصص: 9]

لنطرح التساؤل على النحو التالي: من هذا الرجل الذي اشترى يوسف فتعلم يوسف في بيته مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ؟ وما علاقة هذا الرجل بامرأة فرعون لاحقا؟ أو بكلمات أكثر دقة نحن نسأل: ما علاقة امرأة فرعون التي تعهدت موسى بهذا الرجل الذي تعهد يوسف؟ ولماذا استخدم كل منهما الحجة نفسها (عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا)؟ وكيف انتهى الأمر في كل حالة بكفالة واحد من رسل الله؟ ألم يكن يوسف هو من جاءت هذه العبارة بحقه في أرض مصر؟ ألم يكن موسى هو من عادت هذه العبارة لتظهر من جديد في قصته في أرض مصر؟ ألم تبدأ سيرة بني إسرائيل في مصر بهذه العبارة مع يوسف؟ ألم تنتهي رحلتهم في أرض مصر بهذه العبارة في زمن موسى؟ ألم يطلب يوسف من إخوانه أن يأتوه بكل أهلهم إلى أرض مصر بعد أن أصبح عزيزها:

- ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩٣﴾ [يوسف: 93]

ألم تكن مهمة موسى في الذهاب إلى فرعون ليرسل معه بني إسرائيل ليخرجهم من أرض مصر:

- **فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (16) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (17) الشعراء**
- ﴿فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦ أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٧﴾ [الشعراء: 16-17]

النتيجة المفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن الفهم الصحيح سيتحصل لا محالة متى ما تم ربط خيوط تلك القصة العظيمة منذ اليوم الأول الذي حط فيه يوسف في أرض مصر في بيت ذلك الرجل الصالح وحتى اليوم الذي أخذ به موسى بني إسرائيل وخرج بهم من أرض مصر. وأول حبكات هذه القصة العظيمة تبدأ بتعليم يوسف العلم الرباني وهو مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ كما تصور ذلك الآية الكريمة أحسن تصوير:

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢١﴾ [يوسف: 21]

فنحن مطالبون أن نبحث في كيفية حصول يوسف على ذلك العلم الرباني من خلال البحث عن إجابات للتساؤلات التالية:

- ⇐ ما هو علم تأويل الأحاديث؟
- ⇐ متى تعلم يوسف ذلك العلم؟
- ⇐ من الذي أشرف على تعليم يوسف ذاك؟
- ⇐ كيف استخدم يوسف ذلك العلم؟
- ⇐ هل قصة يوسف بأكملها هي حديث الرؤيا؟
- ⇐ لماذا جاء تأويل يوسف لتلك الرؤيا (جمع رؤيا) على تلك الشاكلة في كل مرة؟
- ⇐ هل يمكن فهم آلية الرؤيا من أحداث وتفاصيل قصة يوسف؟
- ⇐ هل سيسعفنا العلم بالرؤيا المختلفة في قصة يوسف في حياتنا اليومية؟
- ⇐ أم هل هذه قصص للتسلية والإثارة وإضاعة الوقت في ليل الشتاء القارص وحر الصيف اللاهب؟
- ⇐ وهل نحن بحاجة مثلا إلى عشرات الفضائيات التي يموّلها ويتغذى منها أصحاب اللحى الطويلة والدشاديش القصيرة؟
- ⇐ وهل نحن بحاجة إلى تلك الفضائيات الدينية (ومن بينها تلك التي تتصدى لتأويل الأحاديث كما يزعمون) التي يملكها أصحاب فضائيات الرقص والخلاعة أنفسهم؟
- ⇐ هل ما يعرضونه على زبونهم (وغالبيتهم من النساء المطلق أو على وشك التطليق والشباب الطائش) صحيح يستحق ثمن المكالمات والرسائل القصيرة التي يتلقونها؟
- ⇐ وهل ثمن الرسالة الباهظ المكتوب بخط صغير في أسفل الشاشة الواسعة (حيث تبث على جوانب كثير منها دعايات تكبير القضيب وشد الصدر) يستحق ما يتلقاه مرسلها من رد من "سيدنا الشيخ"؟

إن أخشى ما أخشاه أن يقع كل ذلك في باب ما فعل من سبقونا من أهل الكتاب كما تصور ذلك الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [آل عمران: 78]

لقد حاولت جهدي أن أحسن الظن بالآخرين أولا، ولكن الواجب يحتم عليّ أن أطرح التساؤل التالي: هل يستحق من لم يستطع أن يفسر للناس كيف بالخمر أن يعصر (إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا)، هل يستحق أن يكون عالما يتم الوثوق بعلمه والأخذ بقوله؟

فلنبدأ النقاش (متوكلين على الله وحده أن يهدينا رشدنا، فنسأله وحده أن يعلمنا الحق الذي نقوله فلا نفتري عليه الكذب، وأن يأذن لنا الإحاطة بشيء من علمه إنه هو السميع العليم) بالآية الكريمة التي جاءت في رؤيا أحد صاحبي يوسف السجن التالية:

- ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٣٦﴾ [يوسف: 36]

لنطرح من خلالها على العامة وعلى (أهل الاختصاص إن أرادوا) التساؤل التالي: كيف رأى الرجل أنه يعصر خمرا؟ وهل يمكن للخمر – يا سادة- أن يعصر؟ وإذا كان الخمر يعصر، فما هي آلية تنفيذ ذلك؟ وما هي الأدوات التي يمكن استخدامها في عصر الخمر؟

جواب: لمّا كنا قد اقتبسنا سابقا ما جاء عند ابن كثير في ذلك، رجعنا للنظر في آراء سادتنا العلماء في مصادر أخرى، فوجدنا اختلافا قليلا عند الطبري كما في الاقتباس التالي:

القول في تأويل قوله تعالى: {ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إني أراني أعصر خمرا وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزا تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين}. يقول تعالى ذكره: ودخل مع يوسف السجن فتيان، فدل بذلك على متروك قد ترك من الكلام وهو: { ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين } فسجنوه وأدخلوه السجن ودخل معه فتيان , فاستغنى بدليل قوله : { ودخل معه السجن فتيان } على إدخالهم يوسف السجن من ذكره . وكان الفتيان فيما ذكر: غلامين من غلمان ملك مصر الأكبر: أحدهما صاحب شرابه، والآخر صاحب طعامه. كما : 14741 - حدثنا ابن حميد , قال : ثنا سلمة , عن ابن إسحاق , قال : فطرح في السجن , يعني يوسف , ودخل معه السجن فتيان , غلامان كانا للملك الأكبر : الريان بن الوليد , كان أحدهما على شرابه , والآخر على بعض أمره , في سخطه سخطها عليهما , اسم أحدهما مجلث والآخر نبو , ونبو الذي كان على الشراب 14742 - حدثنا بشر , قال : ثنا يزيد , قال : ثنا سعيد , عن قتادة : { ودخل معه السجن فتيان } قال : كان أحدهما خبازا للملك على طعامه , وكان الآخر ساقيه على شرابه وكان سبب حبس الملك الفتيين فيما ذكر , ما : 14743 - حدثنا ابن وكيع , قال : ثنا عمرو , عن أسباط , عن السدي , قال : إن الملك غضب على خبازه , بلغه أنه يريد أن يسمه , فحبسه وحبس صاحب شرابه , ظن أنه مالأه على ذلك فحبسهما جميعا ; فذلك قول الله تعالى ودخل معه السجن فتيان وقوله : { قال أحدهما إني أراني أعصر خمرا } ذكر أن يوسف صلوات الله وسلامه عليه لما أدخل السجن , قال لمن فيه من المحبسين , وسألوه عن عمله : إني أعبر الرؤيا , فقال أحد الفتيين اللذين أدخلا معه السجن لصاحبه : تعال فلنجربه . كما: 14744 - حدثنا ابن وكيع، قال: ثنا عمرو بن محمد، عن أسباط، عن السدي، قال: لما دخل يوسف السجن قال: أنا أعبر الأحلام. فقال أحد الفتيين لصاحبه: هلم نجرب هذا العبد العبراني نتراءى له! فسألاه من غير أن يكونا رأيا شيئا. فقال الخباز: إني أراني أحمل فوق رأسي خبزا تأكل الطير منه، وقال

الآخر: إني أراني أعصر خمرا 14745 - حدثنا ابن وكيع وابن حميد، قالا: ثنا جرير، عن عمارة بن القعقاع، عن إبراهيم , عن عبد الله , قال : ما رأى صاحبا يوسف شيئا , وإنما كانا تحالما ليجربا علمه وقال قوم : إنما سأله الفتيان عن رؤيا كانا رأياها على صحة وحقيقة , وعلى تصديق منهما ليوسف لعلمه بتعبيرها . ذكر من قال ذلك: 14746 - حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة , عن ابن إسحاق , قال : لما رأى الفتيان يوسف , قالا : والله يا فتى لقد أحببناك حين رأيناك 14747 - قال : ثنا سلمة , عن ابن إسحاق , عن عبد الله , عن ابن أبي نجيح , عن مجاهد : أن يوسف قال لهم حين قالا له ذلك : أنشدكما الله أن لا تحباني ! فوالله ما أحبني أحد قط إلا دخل علي من حبه بلاء , لقد أحبتني عمتي فدخل علي من حبها بلاء , ثم لقد أحبني أبي فدخل علي بحبه بلاء , ثم لقد أحبتني زوجة صاحبي هذا فدخل علي بحبها إياي بلاء , فلا تحباني بارك الله فيكما ! قال : فأبيا إلا حبه وإلفه حيث كان , وجعلا يعجبهما ما يريان من فهمه وعقله , وقد كانا رأيا حين أدخلا السجن رؤيا , فرأى " مجلث " أنه يحمل فوق رأسه , خبزا تأكل الطير منه , ورأى " نبو " أنه يعصر خمرا , فاستفتياه فيها وقالا له : { نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين } إن فعلت وعنى بقوله : { أعصر خمرا } أي إني أرى في نومي أني أعصر عنبا . وكذلك ذلك في قراءة ابن مسعود فيما ذكر عنه . 14748 - حدثنا ابن وكيع , قال : ثنا أبي , عن أبي سلمة الصائغ , عن إبراهيم بن بشير الأنصاري , عن محمد بن الحنفية قال في قراءة ابن مسعود : " إني أراني أعصر عنبا " وذكر أن ذلك من لغة أهل عمان , وأنهم يسمون العنب خمرا . ذكر من قال ذلك : 14749 - حدثت عن الحسين , قال : سمعت أبا معاذ , يقول : ثنا عبيد , قال : سمعت الضحاك يقول في قوله : { إني أراني أعصر خمرا } يقول : أعصر عنبا , وهو بلغة أهل عمان , يسمون العنب خمرا - حدثنا أبو كريب , قال : ثنا وكيع ; وثنا ابن وكيع , قال : ثنا أبي , عن سلمة بن نبيط , عن الضحاك : { إني أراني أعصر خمرا } قال : عنبا , أرض كذا وكذا يدعون العنب خمرا 14750 - حدثنا القاسم , قال : ثنا الحسين , قال : ثني حجاج , عن ابن جريج , قال : قال ابن عباس : { إني أراني أعصر خمرا } قال : عنبا 14751 - حدثت عن المسيب بن شريك , عن أبي حمزة , عن عكرمة , قال : أتاه فقال : رأيت فيما يرى النائم أني غرست حبلة من عنب , فنبتت , فخرج فيه عناقيد فعصرتهن , ثم سقيتهن الملك , فقال : تمكث في السجن ثلاثة أيام , ثم تخرج فتسقيه خمرا وقوله : { وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزا تأكل الطير منه نبئنا بتأويله } يقول تعالى ذكره : وقال الآخر من الفتيين : إني أراني في منامي أحمل فوق رأسي خبزا ; يقول : أحمل على رأسي , فوضعت " فوق " مكان " على " { تأكل الطير منه } يعني من الخبز . وقوله : { نبئنا بتأويله } يقول : أخبرنا بما يئول إليه ما أخبرناك أنا رأيناه في منامنا ويرجع إليه . كما : 14752 - حدثني الحارث , قال : ثنا القاسم , قال : ثنا يزيد , عن ورقاء , عن ابن أبي نجيح , عن مجاهد : { نبئنا بتأويله } قال : به . قال الحارث , قال أبو عبيد : يعني مجاهد أن تأويل الشيء : هو الشيء . قال : ومنه تأويل الرؤيا , إنما هو الشيء الذي تئول إليه وقوله : { إنا نراك من المحسنين } اختلف أهل التأويل في معنى الإحسان الذي وصف به الفتيان يوسف , فقال بعضهم : هو أنه كان يعود مريضهم , ويعزي حزينهم , وإذا احتاج منهم إنسان جمع له . ذكر من قال ذلك : 14753 - حدثنا الحسن بن محمد , قال : ثنا سعيد بن منصور , قال : ثنا خلف بن خليفة , عن سلمة بن نبيط , عن الضحاك بن مزاحم , قال : كنت جالسا

معه ببلخ , فسئل عن قوله : { نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين } قال : قيل له : ما كان إحسان يوسف ؟ قال : كان إذا مرض إنسان قام عليه , وإذا احتاج جمع له , وإذا ضاق أوسع له - حدثنا إسحاق , عن أبي إسرائيل , قال : ثنا خلف بن خليفة , عن سلمة بن نبيط , عن الضحاك , قال : سأل رجل الضحاك عن قوله : { إنا نراك من المحسنين } ما كان إحسانه ؟ قال : كان إذا مرض إنسان في السجن قام عليه , وإذا احتاج جمع له , وإذا ضاق عليه المكان أوسع له 14754 - حدثنا القاسم , قال : ثنا الحسن , قال : ثني حجاج , عن أبي بكر بن عبد الله , عن قتادة , قوله : { إنا نراك من المحسنين } قال : بلغنا أن إحسانه أنه كان يداوي مريضهم , ويعزي حزينهم , ويجتهد لربه . وقال : لما انتهى يوسف إلى السجن وجد فيه قوما قد انقطع رجاؤهم واشتد بلاؤهم , فطال حزنهم , فجعل يقول : أبشروا واصبروا تؤجروا , إن لهذا أجرا , إن لهذا ثوابا ! فقالوا : يا فتى بارك الله فيك ما أحسن وجهك وأحسن خلقك , لقد بورك لنا في جوارك , ما نحب أنا كنا في غير هذا منذ حبسنا لما تخبرنا من الأجر والكفارة والطهارة , فمن أنت يا فتى ؟ قال : أنا يوسف ابن صفي الله يعقوب ابن ذبيح الله إسحاق بن إبراهيم خليل الله , وكانت عليه محبة , وقال له عامل السجن : يا فتى والله لو استطعت لخليت سبيلك , ولكن سأحسن جوارك وأحسن إسارك , فكن في أي بيوت السجن شئت - حدثنا أبو كريب , قال : ثنا وكيع , عن خلف الأشجعي , عن سلمة بن نبيط , عن الضحاك في : { إنا نراك من المحسنين } قال : كان يوسع للرجل في مجلسه , ويتعاهد المرضى وقال آخرون : معناه : { إنا نراك من المحسنين } إذ نبأتنا بتأويل رؤيانا هذه . ذكر من قال ذلك : 14755 - حدثنا ابن حميد , قال : ثنا سلمة , عن ابن إسحاق , قال : استفتياه في رؤياهما , وقالا له : { نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين } إن فعلت وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب القول الذي ذكرناه عن الضحاك وقتادة . فإن قال قائل : وما وجه الكلام إن كان الأمر إذن كما قلت , وقد علمت أن مسألتهما يوسف أن ينبئهما بتأويل رؤياهما ليست من الخبر عن صفته بأنه يعود المريض ويقوم عليه ويحسن إلى من احتاج في شيء , وإنما يقال للرجل : نبئنا بتأويل هذا فإنك عالم , وهذا من المواضع التي تحسن بالوصف بالعلم لا بغيره ؟ قيل : إن وجه ذلك أنهما قالا له : نبئنا بتأويل رؤيانا محسنا إلينا في إخبارك إيانا بذلك , كما نراك تحسن في سائر أفعالك , إنا نراك من المحسنين

انتهى الاقتباس

لو تدبرت – عزيزي القارئ- ما جاء في هذا "التفسير العظيم" من أقوال أهل العلم أصحاب الدراية لوجدت العجب العجاب: انظر ما تحته خط، لنطرح التساؤلات التالية:

- كيف عرف أهل العلم أسماء هذين السجينين (اسم أحدهما مجلث والآخر نبو)؟
- كيف عرف أهل العم أن اسم الملك هو (الريان بن الوليد)؟ فهل يستقيم هذا الاسم الذي لا يخلو من الصبغة العربية بأسماء غلمانه التي لا تخلو من العجمة؟ وش جاب الشامي على المغربي (يقول مثلنا الأردني الشهير)؟

- كيف تجرأ بعضهم على القول بأن صاحبي يوسف لم يريا شيئا ولكنهما حاولا اختبار يوسف فقط والله هو من أثبت الرؤيا بصريح اللفظ؟
- من أوصل الخبر لسادتنا العلماء أهل الدراية بأن أهل عمان (وأنا قريب من تلك المنطقة) يسمون الخمر عنبا؟ على الأقل أنا لم أسمع ذلك في حياتي وما وجدته في أي مؤلف من مؤلفات أهل العلم غير سادتنا أصحاب الدراية.
- وهل فعلا عرّف يوسف بنفسه لصاحبيه السجن على نحو (أنا يوسف ابن صفي الله يعقوب ابن ذبيح الله إسحاق بن إبراهيم خليل الله)؟ فهل فعلا إسحاق هو الذبيح؟ فما بالهم يعودون في مواطن أخرى من كتاب الله ليردوا دعوى أهل الكتاب هذه بقولهم أن إسماعيل (وليس إسحق) هو الذبيح؟ فلنقرأ ما جاء في الطبري نفسه حول الآية الكريمة التي تتحدث عن الذبيح:

- ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢﴾ [الصافات: 102]

وقوله : { فلما بلغ معه السعي } يقول : فلما بلغ الغلام الذي بشر به إبراهيم مع إبراهيم العمل , وهو السعي , وذلك حين أطاق معونته على عمله . وقد اختلف أهل التأويل في معنى ذلك , فقال بعضهم نحو الذي قلنا فيه . ذكر من قال ذلك : 22603 - حدثني علي , قال : ثنا أبو صالح , قال : ثني معاوية , عن علي , عن ابن عباس , قوله : { فلما بلغ معه السعي } يقول : العمل . 22604 -حدثني محمد بن عمرو , قال : ثنا أبو عاصم , قال : ثنا عيسى ; وحدثني الحارث , قال : ثنا الحسن , قال : ثنا ورقاء , جميعا عن ابن أبي نجيح , عن مجاهد , في قوله : { فلما بلغ معه السعي } قال : لما شب حتى أدرك سعيه سعي إبراهيم في العمل . * حدثني الحارث , قال : ثنا الحسن , قال : ثنا ورقاء , عن ابن أبي نجيح , عن مجاهد , مثله , إلا أنه قال : لما شب حين أدرك سعيه . * حدثنا ابن المثنى , قال : ثنا ابن أبي عدي , عن شعبة , عن الحكم , عن مجاهد { فلما بلغ معه السعي } قال : سعي إبراهيم . * حدثنا ابن المثنى , قال : ثنا سهل بن يوسف , عن شعبة , عن الحكم , عن مجاهد { فلما بلغ معه السعي } : سعي إبراهيم . 22605 - حدثني يونس , قال : أخبرنا ابن وهب , قال : قال ابن زيد , في قوله : { فلما بلغ معه السعي } قال : السعي ها هنا العبادة . وقال آخرون : معنى ذلك : فلما مشى مع إبراهيم. ذكر من قال ذلك : 22606 - حدثنا بشر , قال : ثنا يزيد , قال : ثنا سعيد , عن قتادة { فلما بلغ معه السعي } : أي لما مشى مع أبيه .

قال يا بني إني أرى في المنام أني

وقوله : { قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك } يقول تعالى ذكره : قال إبراهيم خليل الرحمن لابنه : { يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك } وكان فيما ذكر أن إبراهيم نذر حين بشرته الملائكة بإسحاق ولدا أن يجعله إذا ولدته سارة لله ذبيحا ; فلما بلغ إسحاق مع أبيه السعي أري إبراهيم في المنام , فقيل له : أوف لله بنذرك , ورؤيا الأنبياء يقين , فلذلك مضى لما رأى في المنام , وقال له ابنه إسحاق ما قال .

ذكر من قال ذلك : 22607 - حدثنا موسى بن هارون , قال : ثنا عمرو بن حماد , قال : ثنا أسباط , عن السدي , قال : قال جبرائيل لسارة : أبشري بولد اسمه إسحاق , ومن وراء إسحاق يعقوب , فضربت جبهتها عجبا , فذلك قوله : { فصكت وجهها } 51 29 { وقالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا إن هذا لشيء عجيب } 11 72 إلى قوله : { حميد مجيد } قالت سارة لجبريل : ما آية ذلك ؟ فأخذ بيده عودا يابسا , فلواه بين أصابعه , فاهتز أخضر , فقال إبراهيم : هو لله إذن ذبيح ; فلما كبر إسحاق أتي إبراهيم في النوم , فقيل له : أوف بنذرك الذي نذرت , إن الله رزقك غلاما من سارة أن تذبحه , فقال لإسحاق : انطلق نقرب قربانا إلى الله , وأخذ سكينا وحبلا , ثم انطلق معه حتى إذا ذهب به بين الجبال قال له الغلام : يا أبت أين قربانك ؟ { قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين } فقال له إسحاق : يا أبت اشدد رباطي حتى لا أضطرب , واكفف عني ثيابك حتى لا ينتضح عليها من دمي شيء , فتراه سارة فتحزن , وأسرع مر السكين على حلقي ليكون أهون للموت علي , فإذا أتيت سارة فاقرأ عليها مني السلام ; فأقبل عليه إبراهيم يقبله وقد ربطه وهو يبكي وإسحاق يبكي , حتى استنقع الدموع تحت خد إسحاق , ثم إنه جر السكين على حلقه , فلم تحك السكين , وضرب الله صفيحة من نحاس على حلق إسحاق ; فلما رأى ذلك ضرب به على جبينه , وحز من قفاه , فذلك قوله : { فلما أسلما } يقول : سلما لله الأمر { وتله للجبين } فنودي يا إبراهيم { قد صدقت الرؤيا } بالحق فالتفت فإذا بكبش , فأخذه وخلى عن ابنه , فأكب على ابنه يقبله , وهو يقول : اليوم يا بني وهبت لي ; فلذلك يقول الله : { وفديناه بذبح عظيم } فرجع إلى سارة فأخبرها الخبر , فجزعت سارة وقالت : يا إبراهيم أردت أن تذبح ابني ولا تعلمني ! . 22608 - حدثنا بشر , قال : ثنا يزيد , قال : ثنا سعيد , عن قتادة , قوله : { يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك } قال : رؤيا الأنبياء حق إذا رأوا في المنام شيئا فعلوه. 22609 - حدثنا مجاهد بن موسى , قال : ثنا يزيد , قال : ثنا سفيان بن عيينة , عن عمرو بن دينار , عن عبيد بن عمير , قال : رؤيا الأنبياء وحي , ثم تلا هذه الآية : { إني أرى في المنام أني أذبحك }

أذبحك فانظر ماذا

قوله : { فانظر ماذا ترى } : اختلفت القراء في قراءة قوله : { ماذا ترى } , فقرأته عامة قراء أهل المدينة والبصرة , وبعض قراء أهل الكوفة : { فانظر ماذا ترى ؟ } بفتح التاء , بمعنى : أي شيء تأمر , أو فانظر ما الذي تأمر , وقرأ ذلك عامة قراء الكوفة : " ماذا ترى " بضم التاء , بمعنى : ماذا تشير , وماذا ترى من صبرك أو جزعك من الذبح ؟ . والذي هو أولى القراءتين في ذلك عندي بالصواب قراءة من قرأه : { ماذا ترى } بفتح التاء , بمعنى : ماذا ترى من الرأي. فإن قال قائل : أوكان إبراهيم يؤامر ابنه في المضي لأمر الله , والانتهاء إلى طاعته ؟ قيل : لم يكن ذلك منه مشاورة لابنه في طاعة الله , ولكنه كان منه ليعلم ما عند ابنه من العزم : هل هو من الصبر على أمر الله على مثل الذي هو عليه , فيسر بذلك أم لا , وهو في الأحوال كلها ماض لأمر الله .

ترى قال يا أبت افعل

وقوله : { قال يا أبت افعل ما تؤمر } يقول تعالى ذكره : قال إسحاق لأبيه : يا أبت افعل ما يأمرك به ربك من ذبحي

ما تؤمر ستجدني إن شاء الله

{ ستجدني إن شاء الله من الصابرين } يقول : ستجدني إن شاء الله صابرا من الصابرين لما يأمرنا به ربنا , وقال : افعل ما تؤمر , ولم يقل : ما تؤمر به , لأن المعنى : افعل الأمر الذي تؤمره , وذكر أن ذلك في قراءة عبد الله : " إني أرى في المنام : افعل ما أمرت به " .

ثم لنتبع هذا بقراءة ما جاء عند أبن كثير حول الآية الكريمة نفسها:

وقوله تعالى " فلما بلغ معه السعي " أي كبر وترعرع وصار يذهب مع أبيه ويمشي معه وقد كان إبراهيم عليه الصلاة والسلام يذهب في كل وقت يتفقد ولده وأم ولده ببلاد فاران وينظر في أمرهما وقد ذكر أنه كان يركب على البراق سريعا إلى هناك والله أعلم وعن ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وعطاء الخراساني وزيد بن أسلم وغيرهم " فلما بلغ معه السعي " بمعنى شب وارتحل وأطاق ما يفعله أبوه من السعي والعمل " فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى " قال عبيد بن عمير رؤيا الأنبياء وحي ثم تلا هذه الآية " قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى " وقد قال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين بن الجنيد حدثنا أبو عبد الملك الكرندي حدثنا سفيان بن عيينة عن إسرائيل بن يونس عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " رؤيا الأنبياء في المنام وحي " ليس هو في شيء من الكتب الستة من هذا الوجه وإنما أعلم ابنه بذلك ليكون أهون عليه وليختبر صبره وجلده وعزمه في صغره على طاعة الله تعالى وطاعة أبيه " قال يا أبت افعل ما تؤمر " أي امض لما أمرك الله من ذبحي " ستجدني إن شاء الله من الصابرين " أي سأصبر وأحتسب ذلك عند الله عز وجل وصدق صلوات الله وسلامه عليه فيما وعد ولهذا قال الله تعالى " واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا.

السؤال: من الذبيح يا أهل العلم: إسحق أم إسماعيل؟ أنصدق ما جاء عند الطبري قولا واحدا بأنه إسحق (انظر تفسير الطبري)؟ أم نصدق ما جاء عند ابن كثير على استحياء في آخر التفسير أنه إسماعيل (انظر تفسير ابن كثير)؟

رأينا: إذا كنا نستطيع أن نلتمس لأحبار اليهود المدفوعين بعنصريتهم وتحزبهم لعقيدتهم ولفكرهم بأن إسحق هو الذبيح، فكيف يمكن أن نلتمس عذرا لمن ادعى بأن الإسلام عقيدته وهو يقرأ ليل نهار ما جاء في كتاب الله في الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١﴾ [هود: 71]

لنطرح على كل من اتخذ من هذه الآية عقيدة التساؤل التالي: كيف بالله سيأمر إبراهيم أن يذبح إسحق بمجرد أنه قد بلغ معه السعي:

- ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات: 102]

فإذا كان إسحق هو والد يعقوب، وإذا كان يعقوب هو ولد إسحق، فكيف سيأتي يعقوب من وراء إسحق مادام أن الله قد أمره بذبحه؟ ألم يستطع علماؤنا الأجلاء (الذين لا نشكك بعقيدتهم) أن يميّزوا بين الغلام الحليم والغلام العليم اللذين جاءت لإبراهيم البشرى بهما:

- ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الصافات: 101]
- ﴿قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾﴾ [الحجر: 53]
- ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾ [الذاريات: 28]

للتفصيل انظر مقالتنا تحت عنوان: لماذا قدم لوط بناته بدلا من ضيوفه؟

النتيجة المفتراة من عند أنفسنا موجهة للعامة من مثلي فقط: ألا ترى - عزيزي القارئ وأنت لم تفتح يوما مؤلفات أهل الاختصاص- أن كل شطحات وافتراءات يهود الكاذبة قد تم الزج بها في بطون أمهات كتب التفسير التي وثقت بها غيبا فما قلبت يوما صفحاتها!!! لعلي أجزم (وأظن أني مخطئا) لو أن العامة من الناس أعطوا لأنفسهم الفرصة لتقليب صفحات تلك الكتب لما تردد الكثير منهم (من مثلي) أن يلقوا بها جميعا في ....

إن الموضوع الذي جلب كل هذا الاستطراد هو شخصية صاحبي يوسف السجن، وخاصة ذلك الذي رأى أنه يعصر خمرا (إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ)، والهدف هو محاولتنا تبيان أن من أخفق في فهم كيفية عصر الخمر ربما لا يستحق أن يفتي بأمر الرؤيا. فمن عجز عن البسيط ربما لن يتيسر له ما هو أكبر من ذلك بكثير. فالثقة بالعقول يجب (نحن نظن) أن تكون على قدر ما نتج عنها من معارف. فكيف السبيل إلى ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الوسيلة السليمة ستوصلنا بلا شك إلى الغاية السليمة، فوسيلتنا هي كتاب الله، وغايتنا هي فهم قصص الكتاب العظيم، ودعوتنا هي: اللهم يا من تعلم علمنا فإنا لا نعلم، ونعوذ بك أن نحاجج فيما ليس لنا به علم:

- ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٦٦﴾ [آل عمران: 66]

باب عصر الخمر

أما بعد،

السؤال الأول: من هو صاحب يوسف السجن الذي رأى أنه يعصر خمرا؟ وما هي مهنته؟

جواب مفترى: نحن نظن أن الفتى هو من فتيان القصر الذين كانوا يستطيعون القيام بعملية تخزين خمر.

الدليل

نحن نظن أننا نجد الدليل على افتراءنا هذا من عبارة (أَعْصِرُ خَمْرًا) التي جاءت في كتاب الله على لسان ذلك الفتى نفسه:

- ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ ... ٣٦﴾ [يوسف: 36]

لنطرح من خلالها تساؤلنا المعهود التالي: ما معنى قول الفتى هذا (أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ)؟

رأينا المفترى: نحن نستبعد بكل الوجوه الممكنة أن تكون عملية العصر تعني ما يدور في ذهن العامة عند الحديث عنها، فالناس في يومنا يعصرون التفاح والجزر والليمون والطماطم (أو البندورة بلغة أهل الشام)، وكل أنواع الثمار، أليس كذلك؟ فكيف إذن يمكن أن يعصر الخمر؟ أليس الخمر سائلا؟ فهل يحتاج ما هو معصور (بمفهومنا الدارج) أن يعصر؟

للخروج من هذا المطب دون اللجوء إلى الاستعارات (بتبديل مفردة الخمر إلى عنب كما جاء في أراء أهل العلم – انظر التفسيرات المقتبسة سابقا) التي ربما لا تسمن ولا تغني من جوع فلابد من الوقوف عند المعاني الحقيقية لمفردة العصر ومفردة الخمر، ولكن كيف ذلك؟

بداية، نحن نؤكد بأن الخمر يقينا ليس عنبا، لأن العنب محصول حقلي ليس محرما أكله، يسقى بما المطر، فيشق الأرض كبقية المحاصيل التي تصورها الآية الكريمة التالية:

- ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ٢٤ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ٢٥ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ٢٦ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ٢٧ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ٢٨ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ٣٠ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ٣١ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ٣٢﴾ [عبس: 24-32]

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٩٩﴾ [الأنعام: 99]
- ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١١﴾ [النحل: 10-11]
- ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ ٣٣ وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ ٣٤ لِيَأۡكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡۚ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ ٣٥﴾ [يس: 33-35]
- ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ١٨ فَأَنشَأۡنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ لَّكُمۡ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ١٩﴾ [المؤمنون: 18-19]

ويتواجد كذلك في الجنات التي يمكن أن تسقى بماء الأنهار:

- ﴿أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ٩١﴾ [الإسراء: 91]
- ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَابٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٞ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٞ فِيهِ نَارٞ فَٱحۡتَرَقَتۡۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ٢٦٦﴾ [البقرة: 266]
- ﴿۞وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ٣٢﴾ [الكهف: 32]

وهي لا شك من الطعام الذي لا حرج في أكله:

- ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٤﴾ [الرعد: 4]

والأعناب لا شك من موجودات الجنّة بدليل صريح اللفظ القرآني:

- ﴿إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ مَفَازًا ٣١ حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبٗا ٣٢﴾ [النبأ: 31-32]

ويمكن لنا أن نتخذ من ثمار تلك الجنات شيئين اثنين:

⇐ سكرا
⇐ رزقا حسنا

- ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [النحل: 67]

وهذه أيضا من موجودات الجنة:

- ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ [محمد: 15]

وهنا تبدأ الحلقة الذهنية الأولى (ربما المربكة للجميع والخاصة بقصة الخمر في القرآن الكريم) بالتساؤل التالي: كيف يمكن أن يكون في الجنة ما كان محرما علينا في الدنيا كالخمر مثلا؟ ألم يثبت الله أن الخمر رجس من عمل الشيطان، فدعانا إلى اجتنابه:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [المائدة: 90]

ألم يرشدنا إلى أن الشيطان أراد أن يوقع بيننا العداوة والبغضاء في الخمر والميسر؟

- ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة: 91]

فما بالنا (بعد هذا كله) نجد أن هناك في الجنة التي وُعِدنا بها أنهارا من خمر لذة للشاربين؟

- ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ [محمد: 15]

فهل خمر الدنيا يختلف عن خمر الجنة؟ فهل خمر الجنة ليس برجس من عمل الشيطان؟ وكيف بنا سنفرق بين الخمر الذي هو رجس من عمل الشيطان وما هو من خمر ليس من عمل الشيطان؟ هل علينا أن ننتظر حتى ندخل الجنة لنتعرف عليها هناك؟ فلم إذا يحدّثنا الله عنها في الدنيا؟ والأهم من هذا هو: كيف سنستطيع أن نوفّق بين ما جاء في الآيات السابقة عن ذم الخمر وما جاء عنه في الآية الكريمة التالية:

- ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾ [البقرة: 219]

أليس في الخمر بعض المنافع؟ صحيح أن أثمهما أكبر من نفعهما، لكن يبقى السؤال قائما: ما هي بعض منافع الخمر مادام أن الله قد أثبتها في كتابه؟

افتراء من عند أنفسنا رقم 1: نحن نظن أن المفردات المشتقة من الجذر "خ م ر" ليست مادة واحدة، وإنما هي أصناف وأنواع، منها المحرم قطعا بدليل أن الله طلب منا أن نجتنبه وهو المصاحب على الدوام في النص القرآني للميسر:

- ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ٢١٩﴾ [البقرة: 219]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ٩١﴾ [المائدة: 90-91]

وقد جاء كل ذلك في معرض الحديث عن المحرمات من الطعام:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ٨٧ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ٨٨ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٨٩ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ٩١﴾ [المائدة: 87-91]

افتراء رقم 2: وهناك من الخمر ما أثبت الله أن فيه بعض المنافع للناس وإن كان إثمه أكبر من نفعه وهو الخمر نفسه المصاحب للميسر:

- ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ٢١٩﴾ [البقرة: 219]

افتراء رقم 3: هناك نوع غير محرّم وهو ما سنجده في الجنّة، وهو ما جاء في اللفظ القرآني غير معرف:

- ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ١٥﴾ [محمد: 15]

افتراء رقم 4: هناك نوع غير محرم وهو الذي رءاه صاحب يوسف السجن، وقام يوسف بتأويل الرؤيا له، فاستخدم اللفظة نفسها خَمْرًا (غير معرفة):

- ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ٣٦﴾ [يوسف: 36]
- ﴿يَٰصَىٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُۥ خَمْرًاۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ٤١﴾ [يوسف: 41]

ونتوقف هنا لنطرح على أنفسنا السؤال الذي من الممكن أن يطرحه أي قارئ لهذه السطور على الفور وهو: ما الدليل أن هذا النوع "خَمْرًا" الذي تحدث عنه يوسف كان غير محرما؟

رأينا المفترى: هل تعتقد عزيزي القارئ أن يوسف كان يمكن أن يتحدث عن هذا الخمر بكل هذه البساطة ودون أن يذكر لصاحبه أن هذا شيء محرما؟ ألم يبتدئ يوسف تأويل رؤياه تلك بخطبة عظيمة تدل على العقيدة التي يؤمن بها. انظر - عزيزي القارئ- إلى ما قاله يوسف قبل أن يؤول لصاحبيه السجن تلك الرؤيا:

- ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ٣٦ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ٣٧ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ٣٨ يَٰصَىٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ٣٩ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٤٠ يَٰصَىٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُۥ خَمْرًاۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ٤١﴾ [يوسف: 36-41]

لِم لم يذكر يوسف لصاحبه هذا (الذي ظن أنه ناج منهما) أن ما يقوم عليه من حرفة (عصر خمرا) هي حرفة محرمة شرعا؟ أم أن الخمر في زمن يوسف لم يكن رجسا من عمل الشيطان؟ من يدري؟!!!

والأهم من هذا كله، كيف بيوسف أن يطلب من صاحبه السجن هذا (وهو من كان سيسقي ربه خمرا) أن يذكره عند ربه ذاك (الذي لا شك سيشرب خمرا الذي سيقدمه له هذا الفتى)؟ فما بال يوسف يطلب العون من عند شارب خمر مدمن عليه؟

رأينا: كلا وألف كلا، نحن نظن أن يوسف ما كان سيفتح ملف الخمر (الذي يحرم) دون أن يذكّر صاحبه بحرمته، وما كان يوسف (نحن نفتري القول) سيطلب المعونة من عند سكير مدمن لخمر يحرم شربه؟

السؤال: ماذا كان ذاك الذي يعصره الرجل؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: إنه خمرا (دون أداة تعريف).

السؤال: وما فائدة أن تكون هذه المفردة معرفة بأداة التعريف (الْخَمْرِ) أو أن تكون غير معرفة بأداة التعريف (خَمْرًا أو خَمْرٍ)؟

جواب مفترى من عند أنفسنا نطلب من القارئ الكريم أن لا يصدقه لأن هذه ليست فتوى وهي ليست أكثر من قول مفترى موضوع للنقاش وقابل للرد متى ما ثبت الدليل على بطلانه، ألا وهو: أن الفرق بين الْخَمْرِ (المعرف بأداة تعريف) وذاك غير المعرف بأداة التعريف (خَمْر و خَمْرًا) هو الفرق بين التحريم والتحليل.

السؤال وكيف ذلك؟

جواب: نحن نفتري القول (ربما كذبا من عند أنفسنا) بأن هذه المفردة تحرم عندما تأتي في السياق القرآني معرفة بأداة التعريف (الْخَمْرِ) وهي المصاحبة على الدوام للميسر:

- ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾ [البقرة: 219]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة: 90-91]

ولا تحرم (نحن نفتري القول من عند أنفسنا) تلك التي جاءت في السياقات القرآنية غير معرفة كـ (خَمْرٍ وخَمْرًا):

- ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ [محمد: 15]
- ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [يوسف: 36]

- ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ٤١﴾ [يوسف: 41]

السؤال: وأين الدليل على ذلك؟

جواب مفترى: نحن نظن أن الدليل يمكن أن يثبت إذا ما نظرنا إلى تلك المادة بطريقة جديدة، والتي مفادها أساسا أن مفردة "خمر" تشمل كل أنواع العصائر (بمفردات لغتنا الدارجة)، فكل ما يمكن أن يعصر يسمى (نحن نفتري القول من عند أنفسنا) خمرا. وهذا في ظننا غير محرم إطلاقا، ولا يصبح حراما إلا إذا مضى عليه العهد (الزمن) فأصبح عملا من عمل الشيطان.

افتراء خطير جدا جدا من عند أنفسنا: نحن نفتري القول أن العصير (خمرا) يصبح محرما (الخمر) إذا دخلته الشياطين (أو الجراثيم بلغة أهل العلم الغربي) فعاثت به فسادا (وهي جراثيم التخمير). انظر مقالتنا تحت عنوان: لماذا يدفن الناس موتاهم؟

السؤال: وأين الدليل على ذلك؟

رأينا: نحن نظن أن الدليل الأول يأتي من اللغة نفسها، فالشيء لا يمكن أن يعرّف (أن يلتصق به أداة التعريف) إلا إذا مضى عليه عهدا (أي زمنا)، وهو ما يفضل أهل الاختصاص في اللغة أن يسمونها بأل العهدية. فأنت عندما تقول اشتريت سيارة، فهذا يعني أن السامع لم يعهد تلك السيارة من قبل، ولكنك إن أخبرته أنك قد اشتريت السيارة فإنه لا شك على عهد بها من قبل. وهذا بالضبط يحصل لكل ما يمكن أن يعصر. فحتى العنب لا يمكن أن يكون محرما متى ما تم عصره، ولا يصبح محرما إلا إذا ما مضى على عصره مدة من الزمن. وهنا لا أعني بأي حالة من الأحوال انقضاء الزمن وكفى لأن ذلك يجعل العصائر كلها محرمة، ولكني أعني أنه قد أنقضى على عصرها زمنا وأصبح سكرا بفعل الشياطين:

- ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٦٧﴾ [النحل: 67]

وهذا هو الذي يمكن أن يصدنا عن الصلاة:

- ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ٩١﴾ [المائدة: 91]

لذا جاء الطلب الإلهي مباشرا بأن لا نقرب الصلاة ونحن على تلك الحالة:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾ [النساء: 43]

ولكن ما معنى أن يعصر الخمر؟

جواب: إن هذا ينقلنا على الفور إلى التطرق للموضوع قيد البحث وهو العصر كما جاء على لسان الفتى صاحب يوسف السجن:

- ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [يوسف: 36]

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن العصر هو عبارة عن عملية تجميع المادة السائلة في وعاء

الدليل

أولا، نحن نجد بعض الدليل في قصة يوسف نفسها في قوله تعالى:

- ﴿ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يوسف: 49]

فإذا كان الناس سيغاثون في ذاك العام فينبت نتيجة ذلك الزرع (السنابل)، فما بال العصر إذن؟ فكيف يمكن أن يعصر الناس في ذلك العام؟

رأينا: نحن نظن أن في ذلك العام سيتم جمع المحاصيل الحقلية وسيتم تخزينها، وكذلك ستثمر المحاصيل الأخرى وسيتم تجميع السائل منها (كالعنب مثلا).

ثانيا، نحن نجد بعض الدليل في الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾﴾ [النبأ: 14]

فالمعصرات هي (في ظننا) تلك الغيوم التي تعمل كوعاء لحمل الماء ليتم إنزاله بأمر ربها. فالمعصرات لا تقوم بعملية (squeezing) وإنما هي حاملة لذاك السائل الذي سينزل بأمر ربه من تلك الأوعية الحاملة له.

ثالثا، نحن نجد بعض الدليل في سورة العصر نفسها:

- ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣﴾ [العصر: 1-3]

فالعصر هو - في ظننا - الوقت الذي يتم فيه تجميع الأعمال كلها ليتم بعد ذلك النظر فيها جميعا.

النتيجة المفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن فعل العصر هو عملية تجميع، فعصر العنب هو تجميع سائله في أوعية ليتم تخزينه لأغراض متعددة، والمعصرات هي الأوعية التي يتم تخزين ذلك السائل به، وأسم الصفة من ذلك (العصر) هو الوقت الذي يتم فيه تجميع الأعمال جميعها.

رابعا، نحن نظن أن بقايا هذه الاستخدامات لازالت دارجة على ألسنة العامة من مثلي في هذا الجزء من الوطن العربي الكبير، فمثلا عندما يتحدث الناس في الأردن عن عصّارة (أو معصرة أو juicer باللسان الأعجمي) الليمون فهم لا يتحدثون عن عملية (squeezing باللسان الأعجمي) وإنما يتحدثون عن الوعاء بأكمله كما في الشكل التوضيحي التالي حيث نعرض تلك الأداة ببعض أشكالها المتعددة:



ولا زلنا نستخدم حتى الساعة هذا المعنى للحديث عن معصرة الزيتون القديمة والحديثة مثلا، حيث لا تقوم المعدات الموجودة فيها بعملية إخراج المادة السائلة من حبات الزيتون ولكنها تقوم بتجميع ذلك

السائل، وإلا لأصبح الفعل كله غير مفيد إطلاقا. فما فائدة أن نخرج الزيت من حبات الزيتون إذا لم نقم بتجميعه.

ولا زلت أذكر كذلك أننا كنا نجد بعد نزول المطر بعض الأماكن الصخرية ذات التجويف الطبيعي التي يتجمع فيها بعض ماء المطر لفترة من الزمن بعد فصل الشتاء الطويل، فكنا نشرب منها إذا ما أخذ منا العطش في البرية مأخذا، وكنا نسمي ذلك الوعاء الطبيعي الذي تجمّع فيه ماء الشتاء بالمعصرة. ولا أعرف إذا كان مثل هذا الاستخدام شائعا (أو معروفا) في أماكن أخرى من الوطن العربي الكبير بلسانه الفصيح العظيم!!!

دعاء: فالله وحده أسأله أن يأذن لي الإحاطة ما لم يأذن لغيري الإحاطة به، وأسأله أن يعلمني ما لم أكن أعلم، وأعوذ به أن أفتري عليه الكذب عن علم، إنه هو السميع المجيب - آمين.

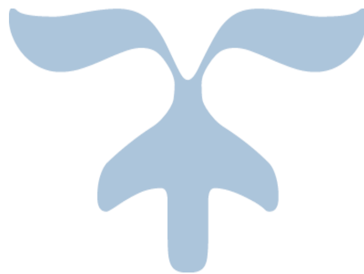
المدّكرون: رشيد سليم الجراح & علي محمود سالم الشرمان
بقلم: د. رشيد الجراح
24 كانون أول 2013
د. رشيد الجراح، مركز اللغات، جامعة اليرموك



الجــزء الثالث عشر

قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّي أَرَانِي ...

وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي ...



الجزء الثالث عشر: قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّي أَرَانِي ... وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي ...

السؤال: من هو أَحَدُهُمَآ؟ ومن هو الآخَرُ؟

كان حديثنا في الجزء السابق من هذا الكتاب موجّها نحو موضوع الرؤيا في قصة يوسف، ظانين يقينا أن في قصة يوسف من العلم (متى ما تم فهمه كما يجب) ما يكفل تصحيح العقائد والتطبيقات التي انحرفت عن جادة الصواب قرونا طويلة من الزمن، وهو العلم الذي لا شك سيغنينا عن اللهاث وراء من يبيعون الدجل والشعوذة والمجهول للناس بأسعار خيالية، لا يتكسّب منها إلا من افترى على الله كذبا وأوهم العامة من الناس بأن ما يقوله هو من عند الله:

- ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [آل عمران: 78]

وهو في الحقيقة ليس إلا جزءا من الأسماء التي سماها هو آباؤه الأولون ما أنزل الله بها من سلطان:

- ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأعراف: 71]

فنحن نبرأ إلى الله من كل ما كتبناه بأيدينا إن كان يقع في باب افتراء الكذب على الله عن علم.

وقد أشعلت فتيل حديثنا هذا في الجزء السابق تلك الفكرة البسيطة التي افتريناها من عند أنفسنا والتي مفادها أن الذي لا يستطيع أن يفسّر للناس كيف يمكن للخمر أن يعصر (إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ) كما جاء في سورة يوسف على لسان أحد صاحبيه السجن:

- ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [يوسف: 36]

فإنه ليس (في ظننا) جديرا بأن يؤول للناس أحاديث الرؤيا والتي (لا شك عندنا) تحتاج إلى مجهود خارق يقوم به الشخص متى ما أذن الله له بشيء من ذلك العلم.

فالله وحده أدعوه أن ينفذ مشيئته لي الإحاطة بشيء من علم الرؤيا الحق الذي هو من عنده، وألا نكون ممن يجادلون في أسماء سميناها نحن وآباؤنا ما أنزل الله بها من سلطان، إنه هو السميع البصير- آمين.

وقد حاولنا في الجزء السابق أن نبيّن لأنفسنا ولغيرنا بأن فهم هذه المواضيع العظيمة ربما يستحيل الوصول إليه مادامت أحداث القصة نفسها غير مفهومة يكسوها طابع شعبي قد لوّث بخرافاته ما هو أصلا ملوّث من تخاريف الأمم التي سبقتنا. فأحداث القصة كما صوّرها لنا أهل الدراية ونقلها لنا أهل الرواية لا تعدو (في ظننا) أن تكون أكثر من تشويه آخر أضيف على التشوهات التي أسقطها بنو إسرائيل على تلك القصة العظيمة منذ قرون كثيرة خلت، فضاعت تفاصيل القصة الحقيقية كما ضاعت شخصيتها في سجلات التاريخ التي زورتها الأيدي البشرية عن غير قصد في بعض الأحيان وعن قصد وسبق ترصد في أحيان كثيرة. والغرض هو:

- ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨﴾ [الصف: 8]

ولكن هيهات هيهات أن يتحقق لهم ما أرادوا ما دامت سنن الله الكونية نافذة، فالله الذي لا محالة متم نوره قد أنزل هذا القرآن العظيم ليكون الوسيلة التي من خلاله يتم نوره ولو كره الكافرون، وجاء في سطوره بأنه يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه مختلفون:

- ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝٧٦﴾ [النمل: 76]

ف لله وحده الفضل والمنّة:

- ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ۝٧٣﴾ [النمل: 73]

لأنه لم يتركنا ألعوبة في أيدي اللذين اشتروا بآيات الله ثمن قليلا، فهؤلاء هم أنفسهم الذين لا يرقبوا في مؤمن إلا ولا ذمة:

- ﴿ٱشْتَرَوْاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٩ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ۝١٠﴾ [التوبة: 9-10]

(دعاء: اللهم أسألك أن تتقبّل الشكر مني كما تقبلته من نوح وأن ترشدني أن أعمل شكراً كما كان يعمل آل داوود شكراً، وأعوذ بك أن نكون ممن يشترون بآياتك ثمناً قليلاً - آمين)

ولعلي أكاد أجزم القول بأن تفاصيل قصة يوسف (في أرض مصر) ورحلة بني إسرائيل في تلك البلاد قرونا من الزمن حتى انتهت بخروجهم منها على يد موسى كانت ولازالت من أعظم القصص المختلف فيها. ونحن نحمل العقيدة التي مفادها أن الفهم الحقيقي لكتاب الله هو الوسيلة الوحيدة الآمنة لتصحيح تلك الأخطاء المتراكبة من حقبات التاريخ المظلم.

(دعاء: فالله وحده أسأله أن يعلّمني (وأخي عصام درويش من أرض مصر الخالدة) أن نعيد نسج خيوط تلك القصة العظيمة، وتصحيح الموروثات التاريخية التي شوّهتها أيدي الناس وأطفأت نورَها أفواهُهم بإرادة مسبقة منهم. وأسأله وحده أن يعلّمنا الحق الذي نقوله فلا نفتري عليه الكذب. وأن يأذن لنا بعلم لم تنفذ مشيئته لغيرنا به، إنه هو السميع العليم - آمين)

أما بعد،

شخصية صاحبي يوسف في السجن

بدأنا النبش في الجزء السابق في أحداث قصة يوسف من جديد للتعرف على شخصية أحد صاحبي يوسف في السجن وهو الذي رأى أنه يعصر خمراء، فظننا مفترين القول من عند أنفسنا أن ذلك الرجل كان من فتيان القصر الملكي، وقد كان متواجدا مع سيد المرأة عندما ألفياه (يوسف والمرأة) لدى الباب. كما افترينا الظن بأنه كان يتواجد في المكان ذاته في تلك اللحظة فتى آخر هو صاحب يوسف الآخر في السجن الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزا. وافترينا القول من عند أنفسنا بأن الزج بهما في السجن مع يوسف كان بسبب القضية نفسها ولكن لدواعي أمنية بحتة.

وقد تخيلنا القصة وقد حصلت على نحو أن سيد المرأة قد طلب من يوسف أن يعرض عن هذا فلا يحدّث به الناس (يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا). ولكنه لم يطلب ذلك من الفتيان اللذين تواجدا في المكان نفسه في تلك اللحظة وذلك لأنهم من فتيانه الذين من المفترض أنهم مؤتمنين على أسرار القصر الملكي. فلم يقع في خاطر سيد المرأة (نحن نتخيل) أن يقوم أحد منهما بنشر مثل هذه المعلومة الخطيرة التي كانت تمس هيبة العائلة المالكة، فلا يمكن أن يصدر فعل كهذا (نحن نتخيل سيد المرأة يقول في نفسه) إلا من قبل المتآمرين

على القصر وعلى العائلة المالكة، ولم يكن يظن أن من بين فتيانه من هو متآمر على الملك وعلى العائلة المالكة. ولكن لما لم يكن يوسف فتاه وكان فتى المرأة التي راودته عن نفسه، لم يكن سيدها هذا يخبر يوسف جيدا كما كان يخبر فتيانه (صاحبي يوسف السجن)، فطلب من يوسف ألا يتحدث بالأمر إطلاقا، وطلب من أخته أن تستغفر لذنبها

ولكن عندما تأكد للقصر الملكي (خاصة لسيد المرأة هذا) بأن الخبر قد انتشر فعلا بين نسوة في المدينة، أصبح لزاما على أهل القصر الملكي أن يأخذوا حذرهم مادام أن معلومات سرية كهذه قد أخذت تتسرب من داخل البلاط الملكي. عندها – نحن نفترض- تم فتح ملف القضية للتحقيق فيها من هذه الزاوية. وما أن بدأ التحقيق يأخذ مجراه حتى تم الزج على الفور بكل من كان حاضرا حينئذ بمن فيهم يوسف وصاحبيه السجن كما تصور ذلك الآية الكريمة التالية كما نفهمها بالطبع:

- ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٦﴾ [يوسف: 36]

فدخول هذان الفتيان مع يوسف السجن (وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ) لم يكن – نحن نفتري القول- محض مصادفة عجيبة، وصحبتهما له في السجن (يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ) لم يكن من باب الاختيار. ولكن هذا كله حصل على تلك الشاكلة لأنهم كانوا – في ظننا- مشتركين جميعا في الجريمة نفسها.

كما افترينا القول بأن هذان الفتيان كانا يعملان مع سيد المرأة (ولي عهد الملك) في القصر. ليكون السؤال الذي سنطرحه على الفور هنا هو: من هما هذان الفتيان؟

افتراء خطير جدا جدا من عند أنفسنا: دعنا نبدأ شطحاتنا في هذا الجزء الجديد من الكتاب بالخبر المفترى من عند أنفسنا التالي الذي نطلب من القارئ الكريم أن لا يثق به بداية ما لم يجد أن الدليل من كتاب الله يدعمه والخبر هو أن الفتيان كانا وزيرا بلاط الملك

وهما على وجه التحديد وزيرا الزراعة (أو جباية الضرائب) والخزانة (أو المالية) بمفرداتنا الدارجة التي أعرفها من كثرة تشكيل الوزارات في المملكة الأردنية الهاشمية العظيمة حيث باتت تتشكل الوزارات عندنا في السنة الواحدة أكثر من مرة حتى غدا ربع سكان عمّان – وأقصد عمّان الغربية- من هذه الفئة من الناس أو ممن ينتظرون دورهم ليكونوا من هذه الفئة قريبا – الله يوفقهم كانت أمي تقول لكل من أراد شيئا ولم يحصل عليه بعد).

سؤال: ما علاقة تشكيل الوزارات الكثيرة في الأردن بقصة يوسف؟

جواب: ولا إشي. ما لهاش دخل – حر أنا. بس يجب أن يعلم من لا يعرف كيفية تشكيل الوزارات الحكيمة في الأردن أن عندنا وزيرا للمياه ووزيرا للزراعة ووزيرا للثروات الطبيعية ووزيرا ... و ... الخ. ولكني لا أعرف كيف يتم تحديد صلاحيات كل منهم، ويا ليت أحدا يخبرني أين تبدأ صلاحيات أحدهما وأين تنتهي صلاحيات الآخر. وأظن أن الوزارات في زمن يوسف ربما كانت أقل بعض الشيء مما هو عندنا اليوم، فلربما أن ذلك الملك كان يكتفي بعدد قليل من الوزراء مادام أنه لم يكن يحتاج أن يخطب ود الكثيرين).

المهم بالنسبة للقارئ (سواء كان أردنيا أو غير أردني) هنا هو ما نفتريه من القول بأن الفتيان اللذان دخلا السجن مع يوسف كانا وزيرين في بلاط الملك حينئذ: الزراعة والخزانة.

ولمّا كانا متواجدين في القصر الملكي عندما حصلت حادثة همّ امرأة العزيز بيوسف كانا من المشتبه بهم في تسريب المعلومات من داخل القصر الملكي، فتم الزج بهما على الفور مع يوسف في السجن. كما افترينا القول بأن سيد المرأة (ولي العهد) قد انتهز الفرصة للتخلص من المتآمرين به مادام أنه (كما سنرى لاحقا بحول الله توفيقه) سيعتلي عرش مصر وهو لازال شابا صغيرا. فثبّت بذلك هيبته وأركان دولته بعد موت والده الملك العجوز (ألا تذكرون – يا سادة- كيف ثبت بشار الأسد عرشه بعد موت والده حافظ عندما ذبح محمود الزعبي رئيس وزراء والده لعقود طويلة من الزمن بتهمة الخيانة).

السؤال: هل هناك علاقة بين بشار الأسد وقصة يوسف؟

جواب: لا ما فيش علاقة. بس فلسفة كلام زايدة.

أما ما يهم القارئ (سواء كان سوريا أو غير سوري) هو ما نفتريه هنا من ظن بأن العلاقة بين هذين الفتيان (اللذان دخلا السجن مع يوسف) لم تكن علاقة طيبة إطلاقا (كما يمكن أن يتصورها الفكر الشعبي)، فنحن نتخيل أن العلاقة بينهما لم تكن تخل من عنصر التناحر والتنافس كحال وزرائنا الأكارم اللذين يظهروا على شاشات التلفاز ويكأنهم أصدقاء تزاملوا في بلاد الغربة على مقاعد الدراسة، وهم في الحقيقة يكيدون ببعضهم كيد أمي بضرائرها (لتخطب ود أبي بالتأكيد). ونحن نجد الدليل على هذه العلاقة التنافسية بينهما في اللفظ القرآني (كما نفهمه) من الآية نفسها عندما جاء ذكر الأول بلفظ **أَحَدُهُمَآ** والثاني بلفظ **الآخَرُ**:

- ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرٗاۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزٗا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ٣٦﴾ [يوسف: 36]

فالشحناء بين أحدهما والآخر واضحة في قصة ابني آدم:

- ﴿۞وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ٢٧﴾ [المائدة: 27]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: عندما يتلازم في النص القرآني لفظ أَحَدِهِمَا مع لفظ الآخر الآخَرِ عادة ما يكون من عبّر القرآن عنه بأنه أحدهما هو الشخص الطيب صاحب الحق، وأما الآخر فهو الشخص السيئ الذي على ضلالة. لاحظ عزيزي القارئ أن القرآن الكريم لم يعبر عن الوالدين بلفظ أحدهما أو الآخر ولكنه عبر عن ذلك بلفظ أحدهما أو كلاهما كما في الآية الكريمة التالية:

- ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ٢٣﴾ [الإسراء: 23]

لذا سنفتري القول لاحقا أن هذا الآخر هو من كان يحاول أن يوقع بصاحبه، وهو الذي سيصبح من النادمين. ولنبدأ الحكاية من أولها (مادام ما وراناش شغل).

قصة صاحبي يوسف السجن 1 (أَحَدِهِمَا): تصور جديد مفترى من عند أنفسنا

تم نقل قضية تسريب خبر مراودة امرأة العزيز لفتاها للمحكمة للبت فيها لدواعي أمنية تخص تسريب معلومات سرية (وربما كاذبة) من داخل قصر الملك، وما أن بدأ المحققون في القضية يبحثون عن الآيات (الأدلة) التي ترشدهم إلى الحقيقة حتى بدا لهم من بعد رؤيتهم لتلك الآيات أن الذي سرب المعلومات من داخل القصر الملكي هو وزير الخزانة (الذي رأى أنه يحمل الخبز فوق رأسه). فصدر عليه حكم الإعدام بالخيانة العظمى للملك. وتم تبرئة الآخر من التهمة والعودة إلى سابق عهده. انتهت القصة.

الدليل

لو دققنا في النص القرآني لوجدنا أن "مهنة" هذا الفتى الذي تمت تبرئته وخروجه من السجن هي أنه كان من اللذين يعصرون خمرا:

- ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٦﴾ [يوسف: 36]

ولو بحثنا في قصة يوسف نفسها، لوجدنا على الفور أن هذه المهنة لم تكن حكرا على هذا الرجل وحده ولكنها ربما كانت حرفة الناس في أرض مصر حينئذ، فلنقرأ الآية الكريمة التالية:

- ﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ٤٩﴾ [يوسف: 49]

ألا ترى - عزيزي القارئ- أن هذه الآية الكريمة تصوّر لنا ما كان سيفعله الناس بعد سنين القحط التي حلّت بمصر في زمن يوسف، فلنقرأ الآية الكريمة نفسها في سياقها القرآني الأوسع:

- ﴿قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ٤٧ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ٤٨ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ٤٩﴾ [يوسف: 47-49]

ألا تجد – عزيزي القارئ- أن الناس في ذلك العام سيكونون جميعا مشتغلين بعملية العصر (عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ)؟ للتفصيل حول هذه الجزئية انظر مقالتنا تحت عنوان: كم لبث نوح في قومه؟

فما الذي سيعصره الناس؟ هل سيكون الناس منشغلين بعصر الخمر الذي يسكر؟ هل سيكون شغل الناس بعد كل سنين الجدب والقحط أن يسكروا؟ وإذا كان هذا ديدن الناس، فكيف سيفعل يوسف؟ ألم يكن هو عزيز مصر في ذلك العام الذي سيعصر فيه الناس؟ فهل كان يوسف سيعصر معهم؟ أم هل كان سيقدم له الخمر جاهزا؟ وإن كنت تظن أن هذا مستحيل في حالة يوسف الصديق، فكيف بيوسف نفسه سيطلب من الملك لاحقا أن يجعله على خزائن الأرض لهؤلاء الناس السكارى؟ من يدري!!!

أما أنا فأقول: كلا وألف كلا، إننا نظن أن الناس سيكونون منشغلين بعملية العصر (أي جمع الثمار وتخزينها فقط) بعدما حل بهم القحط سنين طوال. وهذه – برأينا- هي مهنة من يشتغل الزراعة.

خروج عن النص في استراحة قصيرة

لقد كانت مصر حضارة الدنيا في زمن يوسف الصديق هي الأرض التي تزرع فتطعم العالم بأسره. وها هي مصر اليوم (مصر السيد الرئيس) تستجدي العالم لقمة العيش. ألا تجد - عزيزي القارئ – (سواء كنت مصريا أو غير مصري) أنّ الفارق واضح ولو قليلا بين مصر الأمس ومصر اليوم؟

رأينا: والله لا أعدم الأمل أن تعود مصر اليوم كما كانت مصر الأمس، بلاد الزراعة والعلم، حاضرة العلم والعطاء، يتعلم الناس فيها، وتتصدق هي على الآخرين فلا تستجدي اللقمة من الغير، فحتى أبناء الأنبياء دخلوا مصر طالبين المعونة:

- ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ٨٨﴾ [يوسف: 88]

فمتى - يا ترى- ستأتي السيارة من كل بقاع الأرض إلى أرض مصر ومتى ستقبل العير من كل اتجاه على عزيزها ليطلبوا منه الصدقات؟

رأينا الذي لم يطلبه أحد: أظن أن هذا ممكنا متى ما استطاعت أرض الكنانة والتاريخ أن تحرر نفسها من سيطرة اثنين من الناس الفاسدين والمفسدين وهما:

⇐ الفاسدين المفسدين من أهل السياسة
⇐ الفاسدين المفسدين من أهل الدين

وهم بشقيهم من نظن أنهم سرقوا البلاد والعباد، فلقد أفسد أهل السياسة دنيا الناس كما أفسد أهل الدين آخرتهم، فهؤلاء يقدمون الوعود للناس بالفردوس على الأرض وهؤلاء يقنعونهم بأن فردوسهم في الآخرة. ويقع العامة (من مثلي) في صراع نفسي يؤدي به إلى انفصام شخصيته، فيعيش يومه مطاردا لقمة عيشه مصدقا وعد أهل السياسة، وما أن يفشل بالحصول على شيء حتى يعود في ليلته ليراجع نفسه فينام يحلم بالفردوس الذي وعده إياه أهل الدين. ويبقى يتقلب بين يومه وليلته على تلك الشاكلة حتى يدرك في نهاية المطاف (وأرجو أن أكون مخطئا) أنه قد خسر الاثنتين، فلا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى (ولو إني مش فاهم شو معناها بس أعتقد أنه كلام كبير).

ولعلي أظن أن عقاب الفئتين (أهل السياسة وأهل الدين الذين أفسدوا دنيا الناس كما أفسدوا آخرتهم) يجب أن يكون على نحو ما كان عقاب صاحب يوسف السجن الذي كان يحمل فوق رأسه الخبز (أن يصلبوا فتأكل الطير من رؤوسهم جميعا):

- ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ٤١﴾ [يوسف: 41]

فالصراع في مصر اليوم سيبقى مشتعلا بين هاتين الفئتين الفاسدتين المفسدتين. ولو سألت قياداتهم الحكيمة (بلا شك) عن السبب في تطاحنهم في فريقين يكيدون العداء لبعضهم البعض لربما ما حصلت من أحد منهم على جملة مفيدة واحدة، ولو سألتهم عن المخرج من هذه الأزمة الطاحنة فيهم لما وجدت عند أحد منهم شيئا يقوله لك. فهم يتقاتلون ولا يعلمون لم يتقاتلون، وهم يتقاتلون ولا يعلمون إلى أين هم ذاهبون بمصر التاريخ والحضارة.

ولعلي أجزم أن الخروج من هذه الأزمة هو أن يدرك العامة من الناس أن المتناحرين منهم في صفين كلاهما فاسدون مفسدون، وأن خروج مصر من أزمتها يجب أن يكون بالتخلي عن الطرفين (السيسي ومن التف حوله بفريقه السياسي الفاسد) و(مرسي ومن التف حوله بفريقه الديني المفسد).

ملاحظة مهمة جدا: أرجو أن تصل للقارئ الكريم الفكرة البسيطة التي مفادها أننا لا نتحدث هنا عن هؤلاء كأشخاص بعينهم وإنما نتحدث عن فكر هؤلاء الأشخاص، فأنا على العقيدة التي مفادها أن مثل هؤلاء الناس هم أكثر إيمانا وأحسن خلق وأكرم أصلا مني شخصيا، لكن على الرغم كل ما يتمتعون به من ميزات شخصية يتفوقون بها عليّ، إلا إنني أعتقد أنهم أصحاب فكر منحرف، وهذا هو محط انتقادنا لهم. فأنا وأخي (ابن أمي) على طرفي نقيض في الفكر وإن كنا نحب بعضنا البعض حبا جما. فالاختلاف في الرأي – وهو ما نختلف فيه- لا يجب أن يفسد الود بين الناس – وهو الذي لا يجب أن نختلف فيه.

السؤال: وما دخلك أنت بما يجري بأرض مصر؟ يقول صاحبنا المصري.

السؤال: وهل طلب أحد من أهل مصر رأيك؟ يضيف صاحبنا المصري وغير المصري

جواب: لا لم يطلب أحد مني شيئا وهذه ليست أكثر من فلسفة كلام زائدة أقضي بها بعض أوقات فراغي، ولا أظن أن الناس سيلقون لها بالا، ولا أظن أن الكثيرين من أهل مصر يلقي بالا بما يقوله رشيد الجراح – فهم لا يعرفون من هو رشيد الجراح هذا أصلا. لذلك لننسى هذا النقاش (اللي لا يودي ولا يجيب) ونعود إلى بحثنا عن صاحبي يوسف السجن.

عودة على بدء

دعنا نعود إلى افتراءاتنا عن هذين الفتيان بما حاولنا أن نستنبطه من الآيات السابقة التي نعيدها مرة أخرى بعد هذا الاستطراد (ربما غير المرغوب فيه):

- ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يوسف: 47-49]

فنحن نزعم أن هذا الفتى (صاحب يوسف الأول في السجن) كان يقوم على العصر خمرا، الأمر الذي يحفزنا لافتراء القول بأنه كان من المشتغلين بالزراعة. ولكنه لم يكن – نحن نظن- يشتغل لحسابه الخاص وإنما كان يشتغل لحساب ربه، لذا جاء في تأويل يوسف لرؤيا هذا الرجل أنه سيسقي ربه خمرا:

- ﴿يَٰصَىٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾ [يوسف: 41]

الأمر الذي يجعل لزاما علينا أن نطرح التساؤل التالي على الفور: كيف سيسقي هذا الرجل ربه خمرا؟ فهل كان يقوم هذا الرجل بفعل إعداد الخمر ومن ثم مناولته لسيّده ليشربه؟!

جواب: كلا، وذلك لأننا نعتقد أن الفعل "سقى" لا يتم على تلك الشاكلة، ولكن لماذا؟

رأينا: لأن الله هو الذي أنزل من السماء ماء طهورا:

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾﴾ [الفرقان: 48]

وهو الذي أسقانا ذلك الماء:

- ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الحجر: 22]

- ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ۝١٦﴾ [الجن: 16]
- ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ۝٢٧﴾ [المرسلات: 27]

السؤال: كيف يسقينا الله ذلك الماء الذي ينزله من السماء؟ هل الله هو من "ناولنا بيده" و"فتح أفواهنا" و"سكب فيها الماء"؟

جواب: كلا، لأن ذلك مستحيل بنص الآية الكريمة التالية كما نفهمها:

- ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ۝١٤﴾ [الرعد: 14]

فهل نستطيع أن نبسط كفنا إلى الماء النازل من السماء ليبلغ أفواهنا فنشربه؟

جواب: كلا.

السؤال: فكيف يتم فعل "سقى" إذن؟

جواب: بطريقة السقاية؟

سؤال: وما هي تلك الطريقة؟

رأينا: تجميع (أو توفير) الماء في وعاء ومن ثم تناوله من ذلك الوعاء (ربما باستخدام أداة).

الدليل

لو تدبّرنا الآيتين الكريمتين التاليتين لوجدنا أن الله قد أسقانا مما في بطون الأنعام:

- ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ۝٦٦﴾ [النحل: 66]
- ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٢١﴾ [المؤمنون: 21]

فكيف يسقينا الله ذلك؟

جواب: نحن لا نقوم بتناول ذلك اللبن مباشرة من ضرع الأنعام، لأن ذلك ربما يقع في باب الرضاعة (وليس السقاية) كما في حالة الطفل الذي يرضع من ثدي مرضعته:

- ﴿۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ

مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٖ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَاۗ وَإِنۡ أَرَدتُّمۡ أَن تَسۡتَرۡضِعُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا سَلَّمۡتُم مَّآ ءَاتَيۡتُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٢٣٣﴾ [البقرة: 233]

ولكن الفعل يتم باستخراج ذلك اللبن من بطون الأنعام أولا، فيتم تجميعه (أو توفيره) في وعاء بعد ذلك، ثم نقوم نحن بتناوله بمحض إرادتنا، وهذه العملية بجميع مراحلها هي ما نظن أنه يقع في باب الفعل "سقى".

نتيجة: السقاية تتم بتجميع (أو توفير) المادة ليقوم الذي يريدها بتناولها بنفسه، وهذا لا ينطبق فقط على الأناسي فقط ولكن ينطبق أيضا على الأنعام بنص صريح اللفظ في الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ﴿٤٨﴾ لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا ﴿٤٩﴾﴾ [الفرقان: 48-49]

ويحصل كذلك في حالة الزروع، فالماء الذي ينزله الله من السماء يسقي به الزرع فينبت به:

- ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الرعد: 4]
- ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾ [النحل: 10-11]

النتيجة: الأناسي والأنعام والزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ تستطيع أن تقوم بفعل "سقى"

ولو تدبرنا الآية الكريمة التالية لوجدنا أن هناك الساقي وهناك المسقي وهناك الفعل "سقى" كما في حالة موسى الذي سقى للمرأتين على ماء مدين:

- ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ﴿٢٣﴾﴾ [القصص: 23]

فيقوم الساقي بتوفير المادة للمسقي ليقوم هو بتناولها بنفسه.

ولا يتم الفعل "سقى" قصرا (أي عنوة) إلا إذا كان هناك من يجبرك عليه رغما عنك:

- ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡۖ كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ ١٥﴾ [محمد: 15]

وأخيرا نحن نظن أن فعل السقاية "سقى" يقابله فعل الإطعام "طعم":

- ﴿وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ٧٩﴾ [الشعراء: 79]

نتيجة: نحن نفتري الظن بأن هناك فرقا جوهريا بين الفعل "سقى" (الذي يقابله الفعل طعم) والفعل "شرب" الذي يقابله الفعل أكل

- ﴿۞وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٦٠﴾ [البقرة: 60]
- ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٢٤٩﴾ [البقرة: 249]
- ﴿۞يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١﴾ [الأعراف: 31]

طعم يُطۡعِمُنِي	سقى وَيَسۡقِينِ
أكل وَكُلُواْ	شرب وَٱشۡرَبُواْ

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا نظن أنها مهمة: لمّا كان صاحب يوسف السجن هذا سيقوم بسقاية ربه خمرا، فهو لم يكن يقدّم للملك الشراب ولكنه كان يقوم بفعل السقاية، وهذا واضح بصريح اللفظ القرآني من تأويل يوسف لرؤيا الرجل

- ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ٤١﴾ [يوسف: 41]

السؤال: كيف كان يقوم هذا الفتى بذاك الفعل بذلك؟

رأينا المفترى: هو الذي كان مسئولا عن توفير السقاية لربه. فهو الذي كان مسئولا عن تجميع المحاصيل ليسقي ربه، فتعود ملكيتها كلها في نهاية المطاف إلى ربه. فكل ما كان يعصره هذا الفتى من خمر لم يكن ملكا له ولم يكن يستطيع التصرف فيه لأن ذلك يعود إلى ربه الذي يستطيع هو أن يتصرف به.

- ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ٤١﴾ [يوسف: 41]

فكان هذا الفتى – كما نسميه نحن- هو صاحب السقاية، وسنرى بحول الله وتوفيق منه تبعات ذلك في قصة يوسف (إن أذن الله لنا بشيء من علمه) عندما وضع يوسف السقاية في رحل أخيه:

- ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ٧٠﴾ [يوسف: 70]

وكيف استخرجها من وعاء أخيه:

- ﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ٧٦﴾ [يوسف: 76]

عندها سنرى كيف تعاون صاحب يوسف السجن هذا مع يوسف نفسه بعد أن أصبح عزيز مصر في تدبير الكيد بإخوة يوسف لكي يتمكن من أخذ أخيه في دين الملك بمشيئة الله. فالله وحده أسأل أن يأذن بمشيئته لي الإحاطة بشيء من علمه لا ينبغي لغيري إنه هو السميع العليم.

نتيجة مفتراة مهمة: لعلي أظن أن صاحب يوسف هذا كان يقوم بجمع ضرائب المحاصيل من الناس ليودعها في خزانة الملك، وبكلمات أكثر تفصيلا نقول أنه هو من كان يقوم على جباية (أي عصر) كل ثمار الأرض (خمرا) التي كان يدفعها من زادت ثرواته (محاصيله) كضرائب للدولة. إنه جابي ضرائب الدولة.

قصة صاحبي يوسف السجن 2 (الآخَرِ): تصور جديد مفترى من عند أنفسنا

السؤال: من هو صاحب يوسف السجن الآخر الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزا تأكل الطير منه؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: إنه وزير الخزانة (أو المالية) في بلاط الملك.

الدليل

نحن نقرأ الدليل على افتراءنا هذا من تفسير يوسف لرؤيا هذا الرجل والتي جاءت على النحو التالي:

- ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾ [يوسف: 41]

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا: لو تدبرنا ما قاله يوسف لهذا الفتى لوجدنا أن عقوبته ستكون على مرحلتين وهما:

⇐ الصلب: وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ

⇐ أكل الطير من رأسه: فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ

ولو راقبنا النص أكثر لما وجدنا أن يوسف يبدي اعتراضه على تلك العقوبة، ولا توجد إشارة أن هذا الحكم الذي صدر بحق الرجل قد كان حكما جائرا أو غير عادل، فالرجل قد أخذ العقوبة التي يستحق، لذا لابد أن نبحث من خلال تلك العقوبة عن الذنب الذي اقترفه حتى استحق مثل هذه العقوبة.

لذا سيكون السؤال على الفور هو: ما الذي فعله الرجل لكي يصلب ولكي تأكل الطير من رأسه؟

جواب: لو حاولنا أن نبحث عن عقوبة الصلب في كتاب الله لوجدناها في السياقات القرآنية التالية:

- **وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (157) النساء**
- ﴿وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ﴿١٥٧﴾﴾ [النساء: 157]
- **مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاء تْهُمْ رُسُلُنَا بِالبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (32) إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (33) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (34) المائدة**
- ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ

فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٤﴾ [المائدة: 32-34]

- ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٢٤ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ١٢٥ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ١٢٦ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ١٢٧﴾ [الأعراف: 124-127]
- ﴿قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ ٧١﴾ [طه: 71]
- ﴿قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ فَلَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ٤٩﴾ [الشعراء: 49]

لنخلص من خلال هذه السياقات القرآنية بالافتراء الأول الذي هو لا شك من عند أنفسنا والذي مفاده أن الصلب يقع على من يفسد في الأرض. ولكن كيف ذلك؟

بداية، لابد من الإشارة إلى عيسى بن مريم الذي ظنّ القوم أنهم قد صلبوه، فجاء التكذيب الإلهي لهم صريحا بنص القرآن:

- وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ

ولكن هذا الموقف يثير التساؤل التالي على الفور: لماذا اختار الذين تآمروا على المسيح عيسى بن مريم مثل هذه العقوبة؟ لِم لَم يكتفوا بقتله؟ لم لم يختاروا عقوبة أخرى كالرجم مثلا؟ فلم الصلب على وجه التحديد؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن القوم قد اختاروا مثل هذه العقوبة بحق المسيح عيسى بن مريم وظنوا أنهم قادرون على تنفيذها لأنهم كانوا يعتقدوا أن ما فعله المسيح بهم يقع في باب الفساد في الأرض.

فهم كانوا – برأينا- يظنون أن المسيح إنما كان يفسد في الأرض من خلال تلك التعاليم الجديدة التي يبثها بين الناس.

وأظن أن علينا أن نقرأ مثل هذا الكلام في ضوء الحقيقة التي لا يمكن المجادلة فيها وهي أن الذين أقدموا على محاولة إيقاع هذه العقوبة (الصلب) بحق المسيح عيسى بن مريم هم من بني إسرائيل الذين كانت شريعتهم على الدوام هو ما تصوره الآية الكريمة التالية أحسن تصوير:

- ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [المائدة: 32-34]

فلقد ظن المتآمرون بالمسيح عيسى بن مريم أن في تعاليم المسيح الجديدة محاربة لله كما كانوا يعتقدون جازمين – نحن نظن غير جازمين- بأن في نشر تلك التعاليم في الأرض سعي للفساد في الأرض، فكانت العقوبة الملائمة في نظرهم لمن يقوم بمثل تلك الأفعال (كما تخيلوها) هي:

- إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ

وأظن أن القوم قد أقدموا على محاولة قتل المسيح وصلبه لكي يدافعوا عن ربهم الذي يعرفونه ولكي يحموا مجتمعهم الذي يعيشون به من الخطر الداهم عليهم على يد هذا الشخص (المسيح عيسى بن مريم).

ولا أظن أنهم يختلفون في عقليتهم هذه عن عقلية صاحبهم القديم فرعون نفسه الذي ظن أن موسى والسحرة قد فعلوا بالناس مثل ذلك، فكان قراره الذي لم يستطع أن ينفذه هو على النحو التالي:

- ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [الشعراء: 49]

نتيجة مفتراة: نحن نظن أن صاحب يوسف الآخر هذا قد تلقى عقوبة التصليب لأنه ببساطة قد أفسد في الأرض.

ليكون السؤال على النحو التالي: ما الذي فعله هذا الفتى حتى وقع تحت بند الإفساد في الأرض وبالتالي استحق عقوبة الصلب؟

جواب: نحن نظن أن استنباط ذلك ممكنا من الآية الكريمة التي تتحدث عن الرؤيا التي رءاها:

- ﴿...وَقَالَ ٱلْآخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾
[يوسف: 36]

لنطرح على القارئ الكريم التساؤلات التالية:

- ⇐ كيف رأى ذلك الفتى نفسه؟ فما هي الهيئة التي رأى فيها نفسه؟
- ⇐ لماذا رأى أنه يحمل الخبز؟ لم لم ير أنه يحمل موزا أو تفاحا أو كمكوا (بالرغم إني ما بعرفوش)؟
- ⇐ لماذا كان يحمل ذلك فوق رأسه؟ لم لم يكن يحمله على رأسه مباشرة؟ ولماذا لم يكن يحمله على كتفه؟ أو بين يديه؟ ولم لم يكن يحمله على دابة كالحمير أو البغال أو الخيل؟
- ⇐ كيف كان الطير يأكل؟ وهل كان يأكل الطير من الخبز أم من رأسه مباشرة؟ ولم لم يأكل الطير من بقية جسده؟ فهل كان طيرا مدربا على الأكل فقط من الرأس؟ وما الذي كان يمكن للطير أن يأكله من الرأس؟ فهل كان سيأكل شعره أو عظام رأسه مثلا؟
- ⇐ وما هي الطير التي كانت تأكل منه أصلا؟
- ⇐ الخ.

أظن أن هذه تساؤلات تتطلب إجابات ممكنة ومنطقية لكي نتمكن من العودة إلى التساؤل الرئيس الخاص بالذنب الذي اقترفه هذا الفتى ليستحق مثل هذه العقوبة. فنحن على العقيدة التي مفادها أن هذا الفتى كان يعيش في بلاد يسودها القانون الذي يطبق بعدالة على الجميع، وليس أدل على ذلك مما حل بيوسف قبل أن يزج به في السجن وبعد خروجه من هناك ليصبح عزيز مصر كلها (وسنتحدث عن هذه الجزئية في الأجزاء القادمة إن أذن الله لنا بعلم من لدنه).

السؤال الأول: كيف رأى ذلك الفتى نفسه؟

جواب: أنه يحمل فوق رأسه خبزا: إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا

السؤال: كيف يمكن أن نتصور ذلك؟

جواب: غالبا ما صوّر الفكر المسيحي مشهد صلب السيد المسيح (أو crucifixion بالمفردات الأعجمية) بمثل هذه الصورة الافتراضية:



فترسخت فكرة الصلب في أذهان العامة (المسيحيون وغير المسيحيين) بأن الصلب يحدث على تلك الشاكلة. وهنا نستميح أعزائنا أصحاب هذه العقيدة العذر لنخالفهم الرأي مفترين القول من عند أنفسنا أن عملية الصلب لا تتم بهذه الطريقة، وإنما تتم بطريقة هي أقرب إلى الصورة الافتراضية التالية:



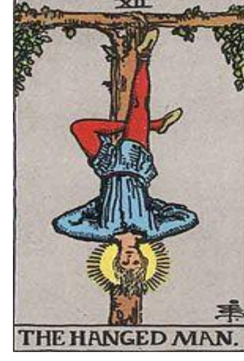
والفرق الرئيس بين الصورتين يكمن في وضعية الأيدي، حيث تكون الأيدي في حالة الصلب (برأينا) مرفوعة عن مستوى الرأس، وبكأن الشخص المصلوب قد رفع يديه حاملا شيئا فوق رأسه (انظر الصورتين السابقتين).

فها هو فرعون يتوعد السحرة بأن يصلبهم وقد قطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف:

- ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [الشعراء: 49]

فكيف سيتم صلب شخص في جذوع النخل وقد قطعت يده ورجله من خلال؟

جواب: سيكون في هيئة تدلي حيث ترتفع أحد يديه (أو كلاهما) فوق مستوى رأسه كما في الأشكال التوضيحية التالية:







نتيجة مفتراة: نحن نتخيل أن عملية صلب الفتى الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزا قد كانت على مثل تلك الهيئة المتمثلة بأن ترتفع كلتا يداه فوق مستوى رأسه بالضبط كمن يحمل فوق رأسه شيئا. وقد كان هذه الفتى يحمل الخبز فوق رأسه.

لننتقل من خلال ذلك إلى التساؤل التالي: لماذا كان يحمل خبزا على وجه التحديد؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الخبز (كما نفهمه) لا يصبح خبزا إلا بعد معالجة المادة الأولية (وهي الحبوب) بطرق تقليدية محددة ليتم بعد ذلك تحويلها إلى المادة التي تصبح جاهزة للأكل. فالقمح (أو الحنطة) لا تصبح خبزا إلا بعد طحنها ومعالجتها بالماء والنار. فتطحن الحنطة ويضاف إليها الماء، وما أن تصبح مادة جديدة (لنقل "عجينا" بلغتنا الدارجة) حتى يتم خبزها في الفرن (النار) فتتحول إلى مادة قابلة للأكل مباشرة.

السؤال: لماذا رأى هذا الرجل أنه يحمل فوق رأسه الخبز؟ لم لم ير أنه يحمل فوق رأسه بعض الحبوب كالقمح والحنطة مثلا؟ ألا نعلم يقينا أن الطير يمكن أن تأكل الحبوب كالحنطة؟

السؤال الذي جلب الحيرة لي: لم لم يرى هذا الفتى أنه يحمل فوق رأسه الحبوب كالحنطة لتأكل الطير منها؟ لم كان خبزا على وجه التحديد؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن بأن هذا الفتى لم يكن يستطيع الوصول إلى الحنطة ولكنه كان يستطيع الوصول إلى الخبز؟

السؤال: لماذا لم يكن يستطيع الوصل إلى الحبوب (كالحنطة) ولكنه كان يستطيع الوصول إلى الخبز؟

افتراءات وتخيلات وتخاريف من عند أنفسنا: لأنه لم يكن مسئولا عن الحنطة ولكنه كان مسئولا عن الخبز.

سؤال: وكيف ذلك؟

جواب مفترى: لأنه لم يكن وزير الزراعة ولكنه كان وزير الخزانة (المالية).

افتراءات وتخيلات وتخاريف من عند أنفسنا عن شخصية الفتيان صاحبي يوسف السجن: تصور جديد

نحن نفتري الظن بأن صاحب يوسف الأول الذي رأى أنه يعصر خمرا كان مسئولا عن جمع المحاصيل وتخزينها في بيت مال ربه كالحبوب والثمار ونحوها، فهو الذي كان يجمع (يعصر) خمرا، فيقوم بجمع ضرائب الدولة من المقتدرين على دفعها وهم من فاض المحصول عن حاجتهم (اي الأغنياء). فكان بذلك هو المسؤول عن جباية ضرائب الدولة.

وما أن يتم جمع المواد وتخزينها حتى تأتي مسألة إنفاقها وتوزيعها على عهدة الفتى الآخر الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزا. فبعد أن تعب الأول وجدّ في جمعها، يتولاها الآخر جاهزة (خبزا) لأن مهمة توزيعها على الناس بالعدالة المفترضة تقع على عاتقه. فكان أحدهما (أَمَّا أَحَدُكُمَا) ممسكا بحسابات الوارد (بلغة الملفات في أيامنا هذه) وكان الآخر (وَأَمَّا الآخَرُ) ممسكا بحسابات الصادر (بلغة الملفات في أيامنا هذه).

وقد كان الأول (عاصر خمر) أمينا في تجميع تلك الثروة، ولكن الآخر لم يكن أمينا في توزيعها، فكان يسرق من تلك الأموال، ولا يتوقف عند مسألة السرقة الشخصية ولكنه كان يسعى في الأرض فسادا، فلا يوزع أموال الدولة بعدالة على من يستحقها، وكان يستخدمها – نحن نتخيل- في دفع الرشى (الرشوة) ربما ليكسب ود علية القوم على حساب أموال الدولة التي من المفترض أنها توزع بعدالة. وربما يمكننا تشبيه هذه الموظف غير النزيه ببعض أهل السياسة، أصحاب النفوذ في زمننا الذين يخونون الأمانة، فيتكسبوا من مناصبهم بالسرقة الشخصية وبتقديم الرشوة للأحباب والأقارب من أموال البلد، فيشيدون القصور الفخمة، ويشترون المزارع (بلغة أهل الأردن) أو العزب (بلغة المصريين) أو الضيعات (بلغة أهل الشام)، وما أن تكتمل قصورهم في البناء حتى تشيد على أحدث الطرازات المعمارية والهندسية، وتؤثث بأحدث الماركات المسجلة العالمية، ويكتمل ذلك كله عندما يذهبون بأنفسهم إلى أهل العمارة ورسامي الحجارة الثمينة ليشتروا الحجر الأخير الذي يضعونه على واجهة القصر ليكون أول ما يجلب انتباه الزائر العبارة التالية مكتوبة على ذلك الحجر:



السؤال: هل تجد عزيزي القارئ أن هذا فعلا من فضل ربه؟

جواب: نعم إذا كان ربه الذي يقصده هو مثل رب صاحب يوسف الذي طلب يوسف منه أن يذكره عنده:

- ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [يوسف: 42]

نتيجة مفتراة: لقد كان صاحب يوسف (حامل الخبز فوق رأسه) في السجن من الذين يتولون خزانة مال ربه، وكانت تلك الخزانة هي الخبز الذي يأكل منه الناس فلم يكن أمينا عليها، ولم يتوقف عند ذلك الحد، بل عاث في الأرض فسادا، وما تم اكتشاف فساده إلا عندما سرّب المعلومة من داخل القصر عن مراودة امرأة العزيز (ابنت الملك) لفتاها عن نفسه، ربما ظانا في نفسه أن الفرصة قد حانت ليضرب ضربته الأخيرة والقاضية على العائلة المالكة بأسرها. عندها تكشفت كل الحقائق أمام المحكمة التي أنزلت به العقوبة التي استحقها.

الدليل

نكاد نقتنع بما نفتري من قول بسبب ملاحظتين ظننا أن لهما علاقة مباشرة بالموضوع وهما:

⇐ تأكل الطير منه: خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ
⇐ طلب يوسف من الملك لاحقا أن يكون على خزائن الأرض: قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ

الملاحظة الأولى: موقع الجار والمجرور (مِنْهُ) في رؤيا الفتى

لقد قص هذا الفتى على يوسف رؤياه على النحو التالي:

- وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ

لماذا قال الرجل بأنه كان يحمل فوق رأسه خبزا تأكل الطير منه؟ ولم لم يقل بأنه كان يحمل فوق رأسه خبزا تأكل منه الطير؟ لماذا جاء الجار والمجرور مِنْهُ بعد الفاعل؟

- أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ

ولم لم تأتي بعد الفعل، كأن تكون الآية على النحو التالي:

أحمل فوق رأسي خبزا تأكل منه الطير

جواب مفترى: لأن الحديث لم يكن يخص الطير كل الطير وأن الخبز لم يكن مقصود به الخبز كل الخبز، ولكن الرجل قد رأى خبزا معينا تأكل منه طير محددة.

الدليل

قارن عزيزي القارئ الكريم ما جاء في هذه الآية التي تتحدث عن رؤيا الرجل:

- وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۚ

مع ما جاء في موطن آخر من كتاب الله:

- ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلۡمَآءَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡجُرُزِ فَنُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا تَأۡكُلُ مِنۡهُ أَنۡعَٰمُهُمۡ وَأَنفُسُهُمۡۚ أَفَلَا يُبۡصِرُونَ ٢٧﴾ [السجدة: 27]

فحاول أن تتدبر الفرق بين الحالتين فيما يخص موقع الجار والمجرور مِنْهُ. فهل توافقنا الرأي بأن الحديث في الآية الثانية يخص الأنعام كل الأنعام والزرع يعود على كل الزرع، لتكون هذه حقيقة عامة تنطبق على كل الأنعام وكل الزرع بغض النظر عن الزمان والمكان؟

ألا يعني ذلك أن الزرع لا يخص زرع بلاد بذاتها وأن الأنعام لا تعود على أنعام قوم بعينهم، وأن هذا ينطبق كل الزرع والأنعام في كل حين (**زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ**)؟ فماذا يمكن أن يكون المعنى لو أن الآية الكريمة جاءت على هذا النحو مثلا:

زرعا تأكل أنعامهم وأنفسهم منه

رأينا المفترى: لو جاءت الآية على هذا النحو لربما حق لنا أن نستنبط أن ذلك يقصد به زرعا محددا وأنعاما معينه وقوما بأنفسهم لا يخص غيرهم. وهذا بالضبط ما نفهمه من موقع مِنْهُ في رؤيا الفتى صاحب يوسف السجن:

- وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۚ

نتيجة: نحن نفتري القول بأن هذا الفتى قد رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزا تأكل الطير منه لأنه كان خبز قومهم حينئذ الذي كان الناس يأكلون منه حينئذ. فالرجل كان يسرق قوت قومه ليفسد من خلال ذلك في الأرض.

الملاحظة الثانية: يوسف يطلب من الملك أن يجعله على خزائن الأرض

لو دققنا في الآية الكريمة التالية لوجدنا أن يوسف يطلب من الملك شخصيا أن يجعله على خزائن الأرض:

- ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ۝٥٥﴾ [يوسف: 55]

التساؤلات

⇐ لماذا طلب يوسف من الملك تلك الوظيفة على وجه التحديد (ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ)؟

⇐ لماذا علّل يوسف طلبه ذلك على نحو أنه حفيظ عليم (إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ)؟

⇐ ألم يقتنع الملك أن يوسف فعلا حفيظ عليم؟ فما الداعي أن يقول يوسف ذلك بنفسه؟

⇐ الخ.

افتراءات من عند أنفسنا: نحن نحسن الظن بني الله ورسوله يوسف عليه السلام، لذا فإن عقيدتنا الراسخة هي على نحو أن يوسف ما كان ليأخذ ما كان لغيره، فمن المستحيل عندنا أن يقدم يوسف على طلب تلك الوظيفة من الملك شخصيا لو أن أحدا آخر كان يشغلها، وما طلبها يوسف من الملك إلا لأنها كانت لازالت شاغرة (أي لا يوجد من يتولها). وبكلمات أكثر بساطة نقول: لو كان في بلاط الملك حينئذ شخص يشغل ذلك المنصب لما أقدم يوسف على إزاحته من منصبه ليتولاه بنفسه. فهذه ليست من أخلاق الناس العاديين اللذين ربما تبقى عندهم شيء من المبادئ الإنسانية ناهيك أن تكون من أخلاق النبوة. فيوسف أجل وأرفع مكانة أن ينافس الآخرين على منصب دنيوي كان من نصيب غيره.

السؤال: لماذا طلب يوسف هذا المنصب (ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ) من الملك شخصيا إذن؟

جواب مفترى: لأن هذا المنصب بقي شاغرا بعد أن نال صاحب يوسف السجن الآخر عقابه بالصلب لأنه كان هو من يشغله سابقا.

قصة صاحبي يوسف السجن: تصور جديد

نحن نتخيل أن صاحبي يوسف السجن كانا وزيرا البلاط حينئذ، فكان أحدهما يقوم على العصر (تجميع المحاصيل كضرائب) ليوردها في خزائن ربه. وكان هذا شخصا أمينا لا يعيث في الأرض فسادا. وما أن يتم إيراد تلك المحاصيل (الغلة من الضرائب) في خزائن الأرض حتى يتولى الآخر مهمة توزيعها على الناس.

ولكن هذا الشخص الآخر قد خان الأمانة وعاث في الأرض فسادا، ولم ينكشف أمره إلا بعد أن يقوم بتسريب المعلومات السرية عن مراودة امرأة العزيز لفتاها بين نسوة في المدينة. لذا لم يكن هذا الشخص ممن يحفظون الأمانة، فانكشف أمره، واتخذت المحكمة بحقه الحكم العادل بالصلب. وما أن خرج يوسف من

السجن وقربه الملك إليه حتى طلب يوسف بنفسه من الملك أن يجعله على خزائن الأرض لأن أحد أهم السمات لم سيولى تلك المسؤولية أن يتصف بالحفظ. فجاء تأكيد يوسف للملك بأنه حفيظ:

- ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ۝٥٥﴾ [يوسف: 55]

ولم تكن سجلات صاحبنا القديم مبنية على علم، لأنه كان من المفسدين في الأرض، فلم يكن (نحن نتخيل) يقوم بتوثيق ما ينفق من خزائن الأرض لأنه كان يستخدم ما فيها ليعيث فيها فسادا، فكانت سجلاته مزورة وتالفة (كما يعمل بعض .... في أيامنا عندما تأتي دائرة الرقابة والتفتيش)، فما كان من يوسف إلا أن يؤكد للملك بأنه يتمتع بالعلم الذي يمكنه من تسجيل المعلومات بكل دقة، فجاء في تبرير يوسف لاستلامه ذلك المنصب على نحو أنه حفيظ عليم:

- ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ۝٥٥﴾ [يوسف: 55]

فأصبح يوسف على خزائن الأرض، وكان صاحبه السجن الأول الذي كان يعصر خمرا لازال يستلم منصبه في تجميع وتوفير الغلة (العصير)، أي جمع الضرائب وإيرادها إلى خزينة الدولة، وأصبح يوسف يتولى مسؤولية تصريفها بالطريقة الصحيحة التي لا تضيع على الناس أموالهم. وسنرى تبعات هذا الظن على مجريات بقية أحداث القصة.

سائلين الله وحده أن يؤتينا رشدنا وأن يهدينا إلى نوره الذي أبى إلا أن يتمه ولو كره الكافرون – آمين.

والله أعلم

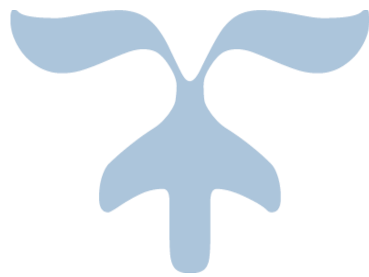
دعاء: رب أسألك أن تأذن لي الإحاطة بما لم تأذن لغيري الإحاطة به، وأسألك أن تعلمني ما لم أكن أعلم، وأعوذ بك أن أفتري عليك الكذب عن علم، إنك أنت السميع المجيب – آمين.

المدّكرون: رشيد سليم الجراح & علي محمود سالم الشرمان
بقلم: د. رشيد الجراح
31 كانون أول 2013
د. رشيد الجراح، مركز اللغات



الجزء الرابع عشر

مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ...



الجزء الرابع عشر: مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ...

السؤال: لماذا أخذ يوسف أخاه في دين الملك؟

- ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ٧٦﴾ [يوسف: 76]

حاولنا في الجزء السابق من هذا الكتاب التعرّف على شخصية صاحبي يوسف اللذين دخلا معه السجن كما جاء بصريح اللفظ القرآني في الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ٣٦﴾ [يوسف: 36]

وأصبحا يعرفان بصاحبي يوسف السجن كما جاء في الآية الكريمة التالية:

- ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُۥ خَمْرًاۖ وَأَمَّا ٱلْـَٔاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ٤١﴾ [يوسف: 41]

فتجرأنا على تقديم الافتراءات التالية التي هي بلا شك من عند أنفسنا:

⇐ دخل صاحبا يوسف معه السجن لأنهما كان مشتركين في حادثة مراودة المرأة لفتاها عن نفسه
⇐ كان أحدهما (أَمَّآ أَحَدُكُمَا) فتى أمينا وكان الآخر (وَأَمَّا ٱلْـَٔاخَرُ) فتى متآمرا خائنا للأمانة
⇐ كان السبب بالزج بهما في السجن مع يوسف يتعلق بتسريب المعلومة عن مراودة امرأة العزيز لفتاها من داخل القصر إلى نسوة في المدينة ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ٣٠﴾ [يوسف: 30]
⇐ كان هذا الآخر (وَأَمَّا الآخَرُ) هو من سرّب المعلومة السريّة ربما ليمسّ بهيبة العائلة المالكة.
⇐ كان الملك حينها شخصا طاعنا في السن لم يكن يقوى على إدارة شؤون الدولة بحزم، فعمّت بعض الفوضى في مملكته حتى وصلت إلى قصره، وليس أدل على ذلك مما فعلت ابنته امرأة العزيز مع فتاها
⇐ كان ولي عهد الملك لازال شابا يافعا، لم يكن يظن من حوله من أهل السياسة أنه قادر على إدارة شؤون الدولة بعد وفاة والده

- ⇐ حاول بعض أهل السياسة وخاصة هذا الفتى (ٱلْأٓخَرُ) الذي سرب المعلومة أن يستغل الوضع القائم، فأصبحت تلك الفترة فترة حرجة في ملك مصر
- ⇐ لما كان سيّد المرأة و(ولي عهد الملك) شابا متأنيا حذرا، صاحب حنكة سياسية (انظر الأجزاء السابقة)، استغلّ هذه الحادثة ليثبّت هيبته وأركان دولته.
- ⇐ قامت أخته بالإيقاع بالنسوة اللاتي مكرن بها في الفخ، فقطّعن أيديهن بأنفسهن، فأصبح الأمر لا يتعلق بامرأة العزيز وحدها، وإنما بكل النسوة اللاتي مكرن بها.
- ⇐ قام سيد المرأة (أخوها وولي عهد الملك) على الفور بطلب انعقاد المحكمة للنظر في تسريب المعلومات من بلاط الملك والخوض في أعراض نسوة المدينة بشكل عام ونساء القصر بشكل خاص
- ⇐ تم الزج على الفور بكل من كان حاضرا حينئذ
- ⇐ كان الفتيان اللذان دخلا السجن مع يوسف من الحاضرين هناك، فدخلا معه السجن لتنظر المحكمة في حيثيات القضية من جديد
- ⇐ نظرت المحكمة في الآيات، فتبين للمحققين أن المجرم هو صاحب يوسف هذا الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه الخبز، فصدر الحكم العادل بحقه، فكان الصلب من نصيبه.
- ⇐ تمت تبرئة الأول (وهو صاحب يوسف الذي كان يعصر خمرا) من التهمة، فخرج من السجن وطلب منه يوسف أن يذكره عند ربه ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [يوسف: 42]
- ⇐ كان هذا الفتى يعمل في عصر (أي جمع) خمرا (أي الضرائب) لإيرادها إلى خزائن الملك (انظر الجزء السابق)
- ⇐ كان الفتى الآخر الذي ثبت تورطه بالجريمة يعمل كوزير للخزانة، فكان هو المسئول عن توزيع تلك الثروة المعصورة (المجموعة) من خمر الأرض (ضرائبها).
- ⇐ ما أن تم إيقاع عقوبة الصلب بحقه، حتى ظلّ هذا المنصب شاغرا يتولاه الملك بنفسه
- ⇐ ما أن خرج يوسف من السجن حتى طلب بنفسه من الملك أن يجعله على خزائن الأرض لأنه حفيظ عليم ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ [يوسف: 55]
- ⇐ الخ

وسنتابع في هذا الجزء من الكتاب تصوراتنا المفتراة عن ما حصل من أحداث في تلك القصة العظيمة،

سائلين الله وحده أن يؤتينا رشدنا وأن يهدينا إلى نوره فلا نفتري عليه الكذب، إنه هو السميع المجيب - آمين.

أما بعد،

لمّا كان ذلك الفتى الذي أدين بالتهمة مسئولا في المحافظة على أموال خزينة الدولة التي كانت تجمع من أغنياء الناس لتوزع على فقرائهم (أي الضرائب) لقاء الخدمات التي تقدمها الدولة بالمحافظة على الأمن الداخلي والدفاع عن الدولة من التهديد الخارجي (فكانت خزينة الدولة مثلا تدفع معاشات الجند والموظفين من تلك الأموال، وتسد حاجة الفقراء منها أيضا)، جاءت عقوبته على نحو أن يصلب لتأكل الطير من رأسه. ولكن لماذا؟

رأينا: نحن نظن أنه في إيقاع تلك العقوبة ربما تحققت على الأقل غايتان هما:

⇐ إنزال العقوبة المناسبة بالجرم المرتكب
⇐ التشهير بالذي فعل هذه الفعلة ليكون عبرة لغيره.

الباب الأول: إنزال العقوبة المناسبة

نحن نظن أن فعل ذلك الفتى قد جاء من باب الإفساد بالأرض الذي كانت عقوبته على نحو أن يصلب:

- ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣﴾ [المائدة: 33]

فالفتى قد تلقى العقوبة التي يستحقها لأنه كان يعيث في الأرض فسادا، ونحن نظن أن فساده قد ظهر في وجهين على الأقل:

⇐ عندما لم يكن أمينا على خزائن الملك
⇐ عندما حاول أن يخون الملك بتسريب المعلومات التي تمس هيبته.

فهو الذي – برأينا- نشر بين نسوة المدينة خبر أن ابنت الملك (امرأة العزيز) هي من تراود فتاها عن نفسه

منطقنا المفترى من عند أنفسنا: لمّا كان صاحب يوسف هذا الآخر هو – حسب ظننا- من عاث في الأرض فسادا في سرقة أموال خزينة الدولة كان الصلب من حقه، ولما كان هو من حاول أن يمس برأس الدولة (أي الملك) من خلال تشريب المعلومات التي تمس هيبة الملك تم اتخاذ القرار بأن تأكل الطير من رأسه.

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: لنقرأ بداية الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ٣٨﴾ [الأنعام: 38]

لنجد أوجه التشابه بين الرؤيا (المثل) والحقيقة (بنا)

الرؤيا	الحقيقة
الفتى يرى رؤيا	الفتى يلقى عقابا
الفتى يرى أنه يحمل فوق رأسه	الفتى يصلب على تلك الهيئة
الفتى يرى أنه يحمل فوق رأسه خبزا	الفتى يصلب لأنه - برأينا- سرق ذلك الخبز
الفتى يرى أن الطير يأكل من ذلك الخبز	الفتى يصلب لتأكل الطير من رأسه

لذا نحن نتجرأ أن نعيد نسج خيوط تلك القصة من مخيالنا على النحو التالي:

لمّا كانت الطير أمم أمثالنا، كانت تلك الطير التي رءاها في الرؤيا تعبر عن الناس في الحقيقة، وهم الذين كان هذا الرجل من المفترض أن يحافظ لهم على قوتهم. ولمّا كان الله هو ربنا الذي يرزقنا كما يرزق الطير:

- ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦﴾ [هود: 6]

كان الملك (ولله المثل الأعلى) هو المسئول عن توفير أرزاق الناس من تلك المتوافرة في خزائنه. لذا نحن نتجرأ على تقديم الافتراءات التالية:

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا (1): لما كان هذا الفتى قد سرق تلك الأموال كانت عقوبته على نحو أن يصلب لتأكل الطير (في الرؤيا) من رأسه لأنه هو من سرق أقوات تلك الطير (في الرؤيا) وهم الناس (في الواقع).

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا (2): لما كان هذا الفتى يحاول أن يمس برأس الدولة (الملك) لينال من هيبته تم قطع رأسه لتأكل الطير منه، فيرى الناس بأم أعينهم أن الذي يمس بهيبة الملك سيكون رأسه هو من يأكل الطير منه.

ولكن كيف تم ذلك؟

للإجابة على هذا السؤال نحن نجد الضرورة تستدعي أن نطرح تساؤلات أخرى ذات صلة بالموضوع نفسه، نذكر منها:

⇐ لِم أكلت الطير من رأسه فقط؟ لِم لَم تأكل من باقي جسده؟
⇐ كيف تمت عملية صلبه؟
⇐ أين تم صلب الفتى؟
⇐ كم استمر صلبه؟
⇐ الخ.

نحن نظن باستحالة أن تأكل الطير من رأس هذا الفتى إلا بعد أن يتم قتله، لأن في تعريض جسده كاملا للطير فرصة بأن تأكل الطير من كل أعضاء جسده وليس فقط من رأسه، ولكن النص القرآني أثبت أن الطير لم تكن لتأكل إلا من رأسه (**وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ**). لذا نحن نتصور مفترين القول من عند أنفسنا أنه ما أن تمّ صلب ذلك الرجل بعد قتله حتى تم فصل رأسه عن بقية جسده، فتم دفن الجثة في التراب، ثم أخذ رأسه المبتور عن جسده ليوضع على منصة مرتفعة لتأكل الطير منه، وليرى العامة من الناس بأم أعينهم ما حل بالرجل، ربما ليكون عبرة لكل من تسوّل له نفسه بأن يمس برأس الدولة (الملك)، لأن رأس كل من يمس برأس الدولة سيكون - لا محالة- طعاما للطير إن هو حاول أن يضع الملك في أفواه الناس ليتحدثوا عنه بالسوء.

افتراءات من عند أنفسنا:

⇐ نحن نظن أن الطير لم تكن لتأكل من جسده ربما لأن الجسد كان قد دفن في التراب، وأن ما تم وضعه للطير هو الرأس فقط

⇐ ونحن نؤمن يقينا أن الطير لم تأكل رأس الفتى كله وإنما كانت تأكل من رأسه (**وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ**). لذا نحن نفتري القول بأن الطير قد أكلت شيئا من رأسه ولم تأكل رأسه كله، لأنه لو أكلت الطير رأسه كله لربما جاء النص القرآني على نحو: **وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير رأسه**

⇐ فلقد اتهم إخوة يوسف الذئب بأنه قد أكل يوسف (**وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ**)، فلم يضطروا أن يبحثوا عن شيء من بقاياه، ولم يطلب أبوهم يعقوب منهم أن يأخذوه إلى المكان الذي حصلت فيه الحادثة لينظر ما تبقى من عظام ولده مثلا. وهذا آدم وزوجه يأكلان من الشجرة ولكنهما بالتأكيد لم يأكلا الشجرة كلها:

- ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾ [طه: 120-121]

فلو أن آدم وزوجه قد أكلا الشجرة لما تبقى منها شيئا، لذا علينا أن نميز بين أكل الشيء (أي كله) والأكل من الشيء (أي جزء منه).

⇐ ونحن نفتري القول أيضا بأن الطير لم تأكل شيئا من وجهه لأن الوجه ليس جزءا من الرأس (انظر مقالتنا لماذا نصلي خمسة مرات في اليوم والليلة؟ للتفريق بين الرأس والوجه)

لذا نحن نتخيل أنه قد تم بتر رأس الفتى ودفن جثته، وتم أخذ رأسه ليوضع على منصة للطير لتأكل من رأسه، فكان ذلك على نحو مكبا على وجهه كما في الشكل التالي:



فما كانت الطير تستطيع الوصول إلى وجهه لتأكل منه ولكنها تأكل فقط من رأسه (من الأعلى).

⇐ وُضِع ذلك الرأس على منصة ليرى الناس (في الحقيقة) ما حلّ بمن حاول خيانة الملك، عندما جعل سيرته بالسوء على لسان الناس بتسريب معلومات مهينة عن عائلة الملك (امرأة العزيز)، لذا تمت إهانته بوضع رأسه في أفواه الطير.

⇐ الخ.

السؤال: كيف استطاع يوسف أن يؤول الرؤيا لصاحبيه السجن؟ من أين جاء يوسف بذلك العلم حتى وصل إلى درجة اليقين بما يقول (قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ):

- ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ٤١﴾ [يوسف: 41]

رأينا: نحن نظن أن ذلك كان من علم يوسف الخاص باستباق الأحداث؟ ولكن كيف ذلك؟

رأينا: نحن نظن أنه عندما قال يوسف لصاحبيه السجن عبارة (قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ)، فهو في ظننا يشير إلى أن الحكم القطعي بحقهم جميعا قد صدر من المحكمة وإن لم يكن تبليغهم بالحكم قد وصل بعد.

لذا نحن نتخيل أن الأمر قد حصل على النحو التالي: تنعقد المحكمة في جلستها الأخيرة في غياب المتهمين (يوسف وصاحبيه السجن)، فتتخذ قراراتها على النحو التالي:

⇐ تبرئة صاحب يوسف الأول من التهمة المنسوبة إليه

⇐ صلب صاحبه الآخر حتى تأكل الطير من رأسه لأنه هو من ثبتت إدانته

⇐ إبقاء يوسف في السجن على ذمة التحقيق

ولم يتم (نحن نتخيل) تبليغ المتهمين بالقضية بتلك الأحكام الصادرة بحقهم في ذلك اليوم (أو ربما في الأيام القليلة اللاحقة). فينام صاحبيه السجن، وما يكون منهما إلا أن يروا تلك الرؤيا الشهيرة:

- ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرٗاۖ وَقَالَ ٱلْأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزٗا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ ... ٣٦﴾ [يوسف: 36]

وعندما يستيقظان من نومهما يقومان بإخبار يوسف بما رءاوه في منامهما طالبين نبأ ذلك على شكل تأويل:

- ﴿... نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ٣٦﴾ [يوسف: 36]

فما يكون من يوسف إلا أن ينبئهما بما حصل بالضبط في المحكمة:

- ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُۥ خَمْرٗاۖ وَأَمَّا ٱلْأٓخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦۚ ... ٤١﴾ [يوسف: 41]

ولا يتوقف عند ذلك بل يضيف لهم قائلا بأن القرار (أي قرار المحكمة) قد جاء قرارا قطعيا لا رجعة فيه، فكانت تمت الآية الكريمة السابقة على النحو التالي:

- ﴿... قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ٤١﴾ [يوسف: 41]

الدليل

لو راجعنا قصة يوسف مع صاحبيه السجن كما جاءت في كتاب الله، لربما وجدنا الدليل على ذلك واضحا في قوله لهما:

- ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٞ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٖ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ٣٧﴾ [يوسف: 37]

نتيجة: لقد كان عند يوسف من العلم ما يؤهله استباق الأحداث، فهو كان ينبئهم بكل طعام يرزقانه قبل أن يأتيهما (لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا)، وهو بالمنطق نفسه ينبئهم بتأويل الحكم الذي صدر من المحكمة قبل أن يأتيهما، وبكلمات أكثر دقة نقول بأنه ما أن يحصل الحدث على أرض الواقع حتى يكون نبأه (العلم به كخبر) عند يوسف قبل أن يصل صاحبه، فهو ينبئهم بتأويل الطعام الذي كانا يرزقانه قبل أن يأتيهما. وها هو الآن ينبئ صاحبيه السجن بقرار المحكمة التي انعقدت لهما قبل أن يصلهما خبر ما جرى فيها. وهذا ما نسميه بمفرداتنا علم التأويل: إنه العلم باستباق الأحداث بمجرد أن تحصل.

السؤال: من أين حصل يوسف على العلم؟

جواب خطير جدا جدا مفترى من عند أنفسنا: إنه العلم بالآيات المحكمات

- ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾ [آل عمران: 7]

لاحظ - عزيزي القارئ- أن هذه الآية العظيمة تثبت وجود نوعين من الآيات في الكتاب:

⇐ الآيات المحكمات (مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ)

⇐ والأخر المتشابهات (وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ)

كما تثبت الآية الكريمة نفسها أنه في حين أن الذين في قلوبهم زيغ يتبعون ما تشابه منه (فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ)، إلا أن الراسخون في العلم يتبعون الآيات المحكمات للعلم بتأويله، فالله قد حصر علم التأويل الحقيقي بنفسه والراسخون في العلم:

- ... وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ...

(دعاء: اللهم أسألك أن أكون أكثر أهل الأرض رسوخا في العلم، إنك أنت السميع البصير- آمين).

ونحن نظن (مفترين القول من عند أنفسنا) بأن يوسف كان من الراسخين في العلم، فهو من شهد بنفسه لنفسه بأنه عليم:

- ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ [يوسف: 55]

ونحن نظن بأن يوسف كان – كما ذكرنا في أكثر من مقالة سابقة لنا- يفوق والده يعقوب في العلم، لأن يعقوب كان ذا علم فقط:

- ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [يوسف: 68]

ولكن يوسف كان "عليم":

- ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ٥٥﴾ [يوسف: 55]

ولو طبّقنا السنة الإلهية التي جاءت في الآية الكريمة التي جاءت في سورة يوسف نفسها التالية:

- ﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ٧٦﴾ [يوسف: 76]

لما ترددنا لحظة واحدة أن نخرج بالاستنباط أن يوسف العليم لا شك يتفوق على والده يعقوب ذي العلم.

استراحة قصيرة

السؤال: لماذا جاءت السنة الإلهية هذه (وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ) في قصة يوسف بالتحديد وفي هذه الآية الكريمة على وجه الخصوص؟ انظر – عزيزي القارئ- الآية الكريمة جيدا:

- ﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ٧٦﴾ [يوسف: 76]

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن بأن أحد الأسباب التي ربما جاءت هذه السنة الإلهية في هذه السورة العظيمة وفي هذه الآية الكريمة التي تتحدث عن بعض مجريات قصة يوسف يتعلق بموقف يوسف مقابل موقف والده يعقوب من بعض أحداثها. فلنطرح التساؤل على النحو التالي: هل كان يعقوب (وهو ذو علم) سيقبل بنفس الرأي (الذي ورد في هذه الآية) كما ارتضاه يوسف (وهو العليم) فعلا؟ وبكلمات أكثر دقة نحن نسأل: هل كان يعقوب سيرضى أن يؤخذ أبنه في دين الملك كما رضي يوسف أن يأخذ أخاه في دين الملك؟

- ﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ٧٦﴾ [يوسف: 76]

رأينا: نحن لا نظن أن وجهة نظر كليهما ستكون متطابقة فيما يتعلق بالحكم الوارد في الآية الكريمة نفسها (الخاص بأخذ شخص يتبع ملة إبراهيم في دين الملك الذي لم يكن يتبع دين إبراهيم)، فقد يتخذ يعقوب – نحن نفتري القول- رأيا يختلف تماما عن الموقف الذي اتخذه يوسف. ولكن كيف ذلك؟

جواب: دعنا نقرأ الآية الكريمة نفسها مرة أخرى من هذا المنظور في سياقها القرآني الأوسع:

- ﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ۝٧٤ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧٥ فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ۝٧٦ ۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ۝٧٧﴾ [يوسف: 74-77]

لا شك أن الآيات الكريمة تتحدث عن وقوع حادثة السرقة (قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ)، أليس كذلك؟ والآيات الكريمة تتحدث عن جزاء من اقترف هذه الجريمة (قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ). ليكون السؤال الآن على النحو التالي: لِم لَم يعمد يوسف (وهو المسئول الآن في أرض مصر) إلى قطع يد السارق؟ أليس من سرق جزاءه قطع اليد؟

- ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ۝٣٨﴾ [المائدة: 38]

رأي من سبقونا من أهل الدرية: نحن نظن أن موقف سادتنا العلماء من أهل الدراية للخروج من هذه الأزمة الفكرية كان على الدوام يتمثل بالظن بأن هذا الحد (أي حد قطع يد السارق والسارقة) لم يكن موجودا في شريعة يعقوب وولده يوسف من بعده وأبيهم إبراهيم من قبلهم. انظر ما جاء عند أهل الدراية في تفسير الآية الكريمة التالية:

- ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧٥﴾ [يوسف: 75]

فهذا ما جاء في تفسير ابن كثير:

وهكذا كانت شريعة إبراهيم عليه السلام أن السارق يدفع إلى المسروق منه.

وهذا ما جاء عند الطبري:

قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه } . يقول جل ثناؤه : وقال إخوة يوسف : ثواب السرق من وجد في متاعه السرق فهو جزاؤه , يقول : فالذي وجد ذلك في رحله ثوابه بأن يسلم بسرقته إلى من سرق منه حتى يسترقه . { كذلك نجزي الظالمين } يقول : كذلك نفعل بمن ظلم ففعل ما ليس له فعله من أخذه مال غيره سرقا . وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل . ذكر من قال ذلك : 14942 - حدثنا ابن حميد , قال : ثنا سلمة , عن ابن إسحاق : { فهو جزاؤه } أي سلم به , { كذلك نجزي الظالمين } : أي كذلك نصنع بمن سرق منا 14943 - حدثني المثنى , قال : ثنا إسحاق , قال : ثنا عبد الرزاق , عن معمر , قال : بلغنا في قوله : { قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين } أخبروا يوسف بما يحكم في بلادهم

أنه من سرق أخذ عبدا , فقالوا : { جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه } 14944 - حدثنا ابن وكيع , قال: ثنا عمرو , عن أسباط , عن السدي : { قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه } تأخذونه فهو لكم ومعنى الكلام : قالوا : ثواب السرق الموجود في رحله , كأنه قيل : ثوابه استرقاق الموجود في رحله , ثم حذف " استرقاق " , إذ كان معروفا معناه , ثم ابتدئ الكلام فقيل : هو جزاؤه ; { كذلك نجزي الظالمين } . وقد يحتمل وجها آخر : أن يكون معناه : قالوا ثواب السرق الذي يوجد السرق في رحله , فالسارق جزاؤه . فيكون " جزاؤه " الأول مرفوعا بجملة الخبر بعده , ويكون مرفوعا بالعائد من ذكره في " هو " , و " هو " رافع " جزاؤه " . ويحتمل وجها ثالثا : وهو أن تكون " من " جزائية , وتكون مرفوعة بالعائد من ذكره في الهاء التي في " رحله " , والجزاء الأول مرفوعا بالعائد من ذكره في " وجد " , ويكون جواب الجزاء الفاء في " فهو " . والجزاء الثاني مرفوع ب " هو " , فيكون معنى الكلام حينئذ : قالوا : جزاء السرق من وجد السرق في رحله , فهو ثوابه يسترق ويستعبد

فسادتنا العلماء أهل الدراية يظنون (وهم ربما يكونون محقين في ذلك) أن حدّ قطع يد السارق (الذي هو لا شك من شريعة محمد) لم يكن من شريعة إبراهيم وذريته من بني إسرائيل.

رأينا المفترى: إذا كان الأمر كذلك، فما بال النص القرآني يؤكد في السياق نفسه بأن يوسف قد أخذ أخاه في دين الملك؟

- ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [يوسف: 76]

ألا تؤكد الآية الكريمة أن يوسف قد أخذ أخاه فعلا في دين الملك؟ ألا يدل ذلك أن دين الملك هو النافذ تطبيقه بحق السارق حينئذ؟ فكيف كان يختلف دين الملك عن دين يوسف؟ أم هل كان يوسف حينها على دين الملك؟

رأينا المفترى: كلا، لقد كان دين يوسف يختلف عن دين الملك وإلا لما استوجب الفصل بينهما في الآية الكريمة التي تتحدث عن جزاء السارق في تلك البلاد. وسنرى لاحقا تبعات هذا الظن عند الوصول إلى أحداث قصة يوسف بعد خروجه من السجن.

دعاء: فالله أسأل أن يعلمني ما لم أكن أعلم إنه هو الحكيم الخبير- آمين.

ثانيا، إذا كان حد السرقة بقطع اليد من شريعة محمد فقط (ولم يكن من شريعة إبراهيم وولده من بعده كما جاء في أمهات كتب التفاسير من عند أهل الدراية)، فما الذي سنفعله بالآية الكريمة التالية إذن؟

- ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٦٨﴾ [آل عمران: 68]

السؤال: ألم يكن يوسف على ملة آبائه إبراهيم وإسحق ويعقوب، ألم يقل بملء فيه؟

- ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ۝٣٨﴾ [يوسف: 38]

السؤال: هل ملة محمد تختلف عن ملة إبراهيم وهو من كان أولى الناس بإبراهيم؟

جواب: كلا، نحن نظن أن دين إبراهيم هو الإسلام:

- ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٦٧﴾ [آل عمران: 67]

وأن دين محمد هو الإسلام كذلك، وأن تطبيق الحدود هي من سنن الله التي يجب أن تنفذ في دينه، وأن حدّ السرقة هو واحد منها، فقطع يد السارق هو الحدّ الذي يجب أن يطبق عند كل من اتخذ من الإسلام دينا. لكن هذا يعيدنا على الفور إلى التساؤل التالي: لِم لَم يعمد يوسف إلى قطع يد أخيه الذي سرق؟ ولِم لَم يطلب أبناء يعقوب (إخوة يوسف) بتطبيق ذلك التشريع؟ ألا يمكن حينها أن تقطع يد من اتهم بالسرقة (بعد أن جاءت الأدلة لتثبت ذلك: ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ)، ويعود مع إخوته إلى دياره بعد أن يكون قد تلقى جزاء ما فعل؟ ألم يكونوا متلهفين جميعا للعودة بأخيهم إلى أبيهم حتى لو كان على حساب أن يأخذ عزيز مصر واحدا منهم بدلا منه؟

- ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٧٨﴾ [يوسف: 78]

فلم أخذ يوسف أخاه إذن في دين الملك؟

- ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ۝٧٦﴾ [يوسف: 76]

نتيجة: لقد أخذ يوسف أخاه في دين الملك ولم يطبق عليه حد قطع اليد مادام أن تهمة السرقة قد ألصقت به.

لكن مثل هذا القول يلزمنا طرح السؤال التالي: كيف أخذ يوسف أخاه في دين الملك؟

جواب: لقد طبق عليه القانون المدني الذي ينصص عليه دين الملك، ولم يطبق عليه القانوني التشريعي الذي ينصص عليه دينه ودين أخيه (وهو ملة أبيهم إبراهيم وإسحق ويعقوب).

السؤال: لماذا؟ لماذا رضي يوسف بأن يأخذ أخاه في دين الملك؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أنه لو كان يعقوب هو من يقوم على تطبيق الحدود حينها لربما (نحن نظن) نفّذ حد قطع اليد بحق ولده مادام أنه ثبت له بالدليل (ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ) أنه قد سرق (للخوض في الكيفية، انظر الأجزاء السابقة من هذا الكتاب الخاص بتقطيع النسوة أيديهن). ولكن لما كان يوسف هو من يقوم على تطبيق الحدود لم يفعل بذلك، واكتفى بأن يأخذ أخاه في دين الملك، فعمد إلى استرقاق أخيه ولم يعمد إلى قطع يده.

السؤال: لماذا لم يعمد يوسف إلى قطع يد أخيه الذي سرق وعمد إلى أخذ أخيه في دين الملك؟

جواب: نحن نظن أن السبب ربما يعود في ذلك لأن يوسف كان عليما ولم يكن فقط ذا علم كأبيه يعقوب. فما الفرق؟

جواب: نحن نظن أن ذا العلم يتلقى المعلومة فيتصرف بها بما يجب (وهذا هو حال يعقوب لأنه ذو علم، فلابد أن يطبق حد السرقة كما يعلمه)، ولكن العليم – بالمقابل- هو الذي يفقه العلم ومقاصده، فيتصرف بالمقصد الذي من أجله جاءت المعلومة. فهو يعلم مقصد العلم ذاته.

السؤال: وكيف يمكن تطبيق ذلك في حق يوسف وأخيه في حادثة السرقة؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن في قصة يوسف من الأحكام التشريعية ما يمس جوهر العقيدة ذاتها ويبين كثير من مقاصد أحكامها، ونقصد هنا على وجه التحديد الأحكام الخاصة بالمغتربين (أي من يعيش في أرض غير الإسلام). فقصة يوسف هي قصة ذلك الشاب الذي خرج من بلاده، وحطت به الرحال طلبا للعلم في بلاد لا يعرفها، فعاش فيها غريبا، وواجه من المشاكل ما يمكن أن يواجهه كل من اغترب عن دياره كتلك الخاصة بالنساء (العلاقات الجنسية)، والعمل، والمواطنة، وتطبيق الأحكام التشريعية في تلك البلاد التي هو فيها غريب. وعمل هناك فنجح في تحقيق ذاته. وبدل أن يقفل عائدا إلى بلاده الأصلية، اختار أن يطلب مجيء أهله جميعا إليه، فعاشوا جميعا في بلاد ليست في الأصل بلادهم وبين قوم ليسوا هم قومهم. فكيف يجب أن تكون الأحكام التشريعية الخاصة بهؤلاء الناس؟

لنتحدث بداية عن بعض تلك الأحكام كما نراها في قصة يوسف. ولنبدأ بالجانب التالي وهو باب العيش في بلاد الإلحاد مقابل العيش في بلاد الشرك:

جاء في كتاب الله في قصة يوسف على لسان يوسف نفسه بأنه قد ترك ملة قوم ملحدين:

- ﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٧ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٣٨﴾ [يوسف: 37-38]

السؤال: من هم القوم الذين ترك يوسف ملتهم؟ ألم يكن يوسف يعيش في أرض مصر؟ ألم يكن أهل مصر حينئذ متخذين أرباب متفرقون من دون الله كما جاء في كتاب الله في قصة يوسف وعلى لسان يوسف نفسه؟

- ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٠﴾ [يوسف: 39-40]

ألم يطلب يوسف من صاحبه السجن أن يذكره عند ربه؟

- ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ٤٢﴾ [يوسف: 42]

السؤال مرة أخرى: من هم القوم الذين ترك يوسف ملتهم وقد كانوا لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون (إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ)؟

جواب: إنهم القوم الذين تربى فيهم بعد أن اشتراه ذلك الرجل من مصر:

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢١﴾ [يوسف: 21]

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن يوسف قد نشأ في بيت ذلك الرجل في أرض غير أرض مصر، وهناك حصل له التمكين الأول في الأرض، وهناك تلقى علم تأويل الأحاديث. ولكن ما أن بلغ أشده واستوى حتى آتاه الله حكما وعلما:

- ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٢٢﴾ [يوسف: 22]

وما أن وجد يوسف نفسه يعيش في بلاد لا يؤمن أهلها بالله ولا باليوم الآخر (أي على عقيدة الإلحاد) حتى آثار أن يترك تلك الأرض ليرحل إلى أرض مصر حيث الناس هناك يتخذون أربابا من دون الله ويؤمنون

باليوم الآخر (أي على عقيدة الشرك)، ونحن نفتري القول من عند أنفسنا أنه لو بقي يوسف في تلك الأرض التي تربى فيها لما حصل أن سجن فيها، لأن التمكين الإلهي له فيها قد حصل:

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يوسف: 21]

افتراء من عند أنفسنا: لما كان يوسف عليما وجد أن عليه أن يترك ملّة هؤلاء القوم الملحدين فلا يعيش بينهم (إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ)، فآثر أن ينتقل إلى أرض مصر ليعيش هناك لأن الناس في مصر وإن كانت عقيدتهم ليست عقيدة التوحيد إلا أنهم يؤمنون بالله وباليوم الآخر، ولكن مشكلتهم تكمن في أنهم يتخذون من دونه أربابا متفرقون:

- ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يوسف: 39-40]

فالمدقّق في هذه الآيات الكريمة يجد أن أهل مصر حينئذ كانوا يعبدون من دون الله أرباب متفرقون بالضبط كما فعل قوم الفتية الذين خرجوا ليأووا إلى الكهف:

- ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾ [الكهف: 15]

(للتفصيل انظر سلسلة مقالاتنا تحت عنوان: كيف تم خلق عيسى بن مريم؟)

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: لقد عاش يوسف بين قومين:

قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون: إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (37) يوسف

قوم يعبدون من دون الله أرباب متفرقون: مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ

السؤال: أين موطن كل منهما؟

جواب مفترى: لا شك أن النوع الثاني (وهم المشركون الذين يتخذون من دون الله أرباب) هم أهل مصر في زمن يوسف. ليبقى السؤال على النحو التالي: من هم القوم الذين كانوا لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم منكرون والذين ترك يوسف ملتهم (إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ)؟ وأين هي ديارهم؟

جواب خطير جدا جدا مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أنهم القوم الذين كانوا يعيشون في أرض الطائف حينئذ.

لذا نحن نتخيل قصة يوسف من هذا الجانب وقد حصلت على النحو التالي:

قصة يوسف بتصور جديد: تخيلات مفتراة من عند أنفسنا

يجعل إخوة يوسف أخاهم في غيابة الجب، فيلتقطه بعض السيارة ويذهبوا به إلى أرض مصر، وهناك يتواجد في سوقها ذاك الرجل الصالح الذي اشترى يوسف بثمن بخس دراهم معدودة، ويعود بيوسف من أرض مصر إلى بيته في الطائف (**وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ**)، يمكث يوسف في ذلك البيت في صغره بين أولئك القوم الذين لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون، فيمكن الله له في تلك الأرض، وما أن يبلغ أشده حتى يؤتيه الله حكما وعلما (**وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا**). ولكن ما أن وجد أن أهل تلك البلاد لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر حتى يتخذ قراره بالخروج من تلك الديار قاصدا أرض مصر حيث عقيدة الشرك هي السائدة بدلاً من عقيدة الإلحاد. فيشتغل يوسف في أرض مصر ولا يحصل له تمكين فيها، فتراوده المرأة التي هو في بيتها عن نفسه، فيمتنع، وتحاول نسوة المدينة أن يمكرن به، فيفضل يوسف أن يسجن على الوقوع في الفاحشة، فيمكث في سجن مصر بضع سنين، وما يحصل له التمكين في أرض مصر إلا بعد رؤيا الملك ومكالمته:

- ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [يوسف: 54-56]

نتيجة: لقد حصل ليوسف تمكينان في الأرض، ونحن نفتري الظن بأن التمكين الأول له كان في الطائف بينما كان التمكين الآخر في أرض مصر.

نتيجة خطيرة جدا: ربما سنجد لاحقا بأن رحلة يوسف كانت هي الرحلة المعاكسة في خط سيرها لرحلة موسى في الأرض.

ففي حين -فنحن نفتري الظن من عن أنفسنا- أن رحلة يوسف قد بدأت من الأرض المقدسة وانتهت في أرض مصر.

سنجد ان خط سير رحلة موسى قد كان على العكس تماما، فهو الذي قد تربى في أرض مصر وانتهت رحلته عند الأرض المقدسة.

ونحن على العقيدة التي مفادها أن آل يعقوب أيام يوسف كانوا لازالوا يعيشون حياة البداوة:

- ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّاۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ١٠٠﴾ [يوسف: 100]

وما تحققت إرادة الله للمستضعفين من بني إسرائيل بالتمكين ووراثة الأرض التي كتبها الله لهم إلا زمن موسى عندما جاء ليخرجهم من أرض مصر:

- ﴿طسٓمٓ ١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ٢ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ٦﴾ [القصص: 1-6]
- ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ٢٠ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ٢١ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ٢٢﴾ [المائدة: 20-22]

السؤال: من هم القوم الذين كانوا يسكنون الأرض المقدسة زمن يوسف حتى مجيء موسى إليها مع بني إسرائيل من أرض مصر؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أنه لو قرأنا السياق القرآني السابق بشيء من التدبر لربما خلصنا إلى النتيجة الخطيرة المفتراة من عند أنفسنا التالية: إنهم القوم الجبارين. أنظر الآيات السابقة مرة أخرى:

- ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ٢٠ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ٢١ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ٢٢﴾ [المائدة: 20-22]

خلاصة: لقد عاش يوسف في صباه في بيت ذلك الرجل الذي اشتراه من مصر، وقد كان القوم الذين يسكنون تلك الأرض قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون، وهم الذين آثر يوسف أن يتركهم عندما بلغ أشده بعد أن آتاه الله حكما وعلما هناك:

- ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ٢٢﴾ [يوسف: 22]
- ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ٣٧ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ٣٨﴾ [يوسف: 37-38]

وربما يرشدنا مثل تصرف يوسف هذا إلى استخلاص الأحكام الخاصة بالعيش في بلاد لا دين لأهلها، بلاد لا يؤمن أهلها بالله وهم بالآخرة هم منكرون.

كما قد يرشدنا قرار يوسف في الذهاب إلى بلاد يدين أهلا بدين الشرك، بلاد يعبد أهلها آلهة من دون الله ويؤمنون بالآخرة إلى استنباط الأحكام الخاصة بالعيش فيهم والعمل عندهم، الخ.

ونحن نترك لسادتنا العلماء أهل الدراية مهمة استنباط الأحكام التشريعية مادامت تلك صنعتهم، أما نحن فلا نخرج للناس بفتاوى لأن هذه ليست صنعتنا وجل ما نفعل هنا هو أننا نفكر فقط بصوت مرتفع. هذا والله أعلم

(دعاء: أعوذ بالله مما افتريت من قول من عند نفسي، وأسأل الله أن يتم نوره الذي أبى إلا أن يتمه ولو كره الكافرون، وأسأله وحده

أن يؤتينا رشدنا، فلا نفتري عليه الكذب ولا نقول عليه ما ليس لنا بحق، إنه هو الواسع العليم - آمين).

ثانيا، تطبيق حد السرقة (بقطع اليد كما بنص الشرع) في بلاد غير بلاد الإسلام.

الوضع السائد: لو حصلت السرقة في بلاد الاغتراب من قبل من يعتنق من الإسلام دينا، لربما عمد بعض سادتنا العلماء إلى اتخاذ الموقف العقائدي الذي يلزم بقطع يد السارق (أو جلد الزاني أو رجمه كما يحبون

أن يطبقونه) أليس كذلك؟ فكثيرا ما ظن بعض أهل العلم بأن السارق يجب أن تقطع يده بغض النظر عن القانون الوضعي الخاص بالدولة التي يعيش فيها ذلك الشخص، فنشأ نتيجة ذلك الخلاف بين أهل الدين (كما يرغبون أن يسمّون أنفسهم) والعلمانيين (كما يحب أهل الدين أن يسمونهم). فأهل الدين يتهمون العلمانيين بالتخلي عن الشرع والركون إلى القوانين الوضعية، ويعدون ذلك منقصة في حقهم.

رأينا: لكننا نتوجه إلى أهل الدين الحريصين على تطبيق شرائعه في كل زمان ومكان بالتساؤل التالي: هل تظنون – يا ساده- أنكم أكثر حرصا على تطبيق شرع الله في الأرض من يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم الذي أخذ أخاه في دين الملك؟ ألم يكن الأولى بيوسف أن يتخلى عن قانون دين الملك ليتبع القانون التشريعي الإلهي فيقطع يد أخاه الذي سرق؟ وهل كان يوسف سيكيد بإخوته على تلك الشاكلة لو أن النتيجة ستكون على نحو قطع يد أخيه وهو (أي يوسف) من دبّر مؤامرة السرقة له بنفسه؟ وهل كان أخوه هذا سيرضى بأن يطبّق عليه حد السرقة بقطع اليد ليوافق يوسف على الكيد بإخوته الآخرين على تلك الشاكلة؟ هل كان سيرضى أن يكون هو ضحية كيد يوسف بإخوته الآخرين؟ ألم يكن يجدر بيوسف أن يكيد بإخوته بطريقة أخرى غير "تلفيق" السرقة لأخيه ليأخذه بعد ذلك في دين الملك؟ والأهم من هذا كله، لم يشرك الله نفسه في هذا الكيد مادام أن شرعه لن يطبق؟

- ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [يوسف: 76]

فلم حصلت المشيئة الإلهية بأن يكيد ليوسف على تلك الشاكلة؟

الجواب: لأنّ يوسف لم يكن ذا علم فقط ولكنه كان عليما. لذا نحن نظن أن يوسف لم يكن ذا علم بحد السرقة فقط ولكنه كان يدرك المقاصد من التطبيق، فيكون علمه على نحو أن يأخذ أخاه في دين الملك (فيبقيه في بلاده من باب الرق كما يظن إخوته)، وهو في الواقع من كيد الله ليوسف ليكيد يوسف بإخوته:

- ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [يوسف: 76]

(وسنتحدث عن بعض الأحكام الأخرى بالتفصيل عندما نصل إلى قصة طلب يوسف العمل في بلاط الملك نفسه)

فالله أسأله وحده أن يعلمني ما لم أكن أعلم إنه هو الواسع العليم - آمين

وسنترك لسادتنا العلماء أهل الدراية مهمة استنباط الأحكام التشريعية الخاصة بأهل الاغتراب مادامت تلك صنعتهم، أما نحن فلا نخرج للناس بفتاوى لأن هذه ليست صنعتنا وجل ما نفعل هنا هو أننا نفكر فقط بصوت مرتفع. هذا والله أعلم

(دعاء: أعوذ بالله مما افتريت من قول من عند نفسي، وأسأل الله أن يتم نوره الذي أبى إلا أن يتمه ولو كره الكافرون، وأسأله وحده أن يؤتينا رشدنا فلا نفتري عليه الكذب ولا نقول عليه ما ليس لنا بحق، إنه هو الواسع العليم - آمين).

السؤال: كيف حصل يوسف على هذا العلم؟

جواب: لقد كان يوسف من الراسخين بالعلم، من العالمين بالتأويل، فهذا بالضبط ما طلبه صاحبيه السجن منه أساسا:

- ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٦﴾ [يوسف: 36]

السؤال: كيف عرف صاحبي يوسف السجن بقدرة يوسف على علم التأويل؟

جواب: نحن نظن أن السبب في ذلك من وجه نظر صاحبيه السجن لأن يوسف كان – كما رءاوه بأم أعينهم- من المحسنين:

- ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٦﴾ [يوسف: 36]

ولكن السبب كان من وجه نظر يوسف نفسه لأنه من باب العلم الذي علمه إياه ربه:

- ﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٧﴾ [يوسف: 37]

السؤال: وأين حصل ليوسف هذا التعليم؟

جواب: في بيت الذي اشتراه من مصر:

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يوسف: 21]

ولكن هذا يقودنا إلى طرح السؤال نفسه بالصيغة التالية: لِم علمه ربه ذلك العلم؟

جواب: لأنه كان من المحسنين، فانظر – عزيزي القارئ- الآية التالية التي جاءت بحق علم يوسف الذي علمه إياه ربه:

- ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يوسف: 22]

فلقد كان الإحسان هو السبب الذي من أجله استحق يوسف أن يختصه الله بعلم من لدنه، ولو تدبرنا سيرة يوسف كلها لوجدنا بما لا يدع مجالا للشك بأن الإحسان كان واضحا في يوسف في جميع مراحل حياته.

فالله هو من شهد ليوسف بالإحسان:

- ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يوسف: 22]
- ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [يوسف: 56]

وقد كان إحسان يوسف جليا للعيان حتى استطاعا صاحبيه السجن أن ينعتاه بتلك الصفة حتى وهو في أقسى مراحل حياته (السجن):

- ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [يوسف: 36]

كما كان الإحسان واضحا في سلوكه في أكثر مراحل حياته رخاء عندما أصبح عزيز مصر، فجاء وصف يوسف بأنه من المحسنين على لسان إخوته اللذين لازالوا حتى الساعة له منكرون:

- ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [يوسف: 78]

وتثبتت تلك الصفة بحق يوسف على لسان يوسف نفسه، فهو من أكد على إحسانه كما جاء بصريح الآية الكريمة التالية:

- ﴿قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِىۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يوسف: 90]

السؤال: ما هو الإحسان؟ وكيف كان يوسف من المحسنين؟ وما الذي كان يفعله يوسف حتى أصبح من المحسنين؟ الخ.

بداية، يجب أن نلفت انتباه القارئ إلى ملحوظة مهمة في هذا السياق وهي أنه لم يكن يوسف وحده من بين جميع رسل الله من اتصف بتلك الصفة، فلقد اتصف بها رسل جاءوا من قبله ومن بعده. فلقد كان نوح من المحسنين:

- ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الصافات: 75-80]

وكان إبراهيم من المحسنين:

- ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الصافات: 101-105]

وكذلك كان إلياس:

- ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الصافات: 123-132]

وكان موسى من المحسنين:

- ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [القصص: 14]

وكذلك كانا موسى وأخوه هارون معا من المحسنين:

- ﴿وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الصافات: 115-122]

ولكن الملحوظة الأخرى التي يجب التنبيه إليها أيضا في السياق ذاته تكمن في أن مفردة الإحسان لم تصاحب نبيا ولا رسولا في النص القرآني كما صاحبت يوسف، فلقد جاءت المفردة بحق يوسف في مواضع كثيرة من كتاب الله ومن مصادر مختلفة. (انظر الآيات السابقة).

السؤال: لماذا جاء وصف الإحسان مصاحبا ليوسف في كتاب الله أكثر من أي رسول آخر؟

جواب: إن هذا السؤال يدعونا للخوض في معنى مفردة الإحسان ذاتها. فما معنى أن يكون الشخص (أي شخص) محسنا؟

جواب: لا شك عندنا أن الإحسان يختلف عن الإيمان، فبالرغم أن إبراهيم كان من المؤمنين فلقد كان أيضا من المحسنين:

- ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ١٠٩ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١١٠ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١١﴾ [الصافات: 109-111]

السؤال: من هو المحسن إذن؟

أولا، نحن نظن أن المحسن هو من جاهد في الله:

- ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوًى لِّلۡكَٰفِرِينَ ٦٨ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ [العنكبوت: 68-69]

ثانيا، والمحسن لا شك قد عمل الكثير من الحسنات، ولكن بعضها أميز من بعضها الآخر، حتى جاء الجزاء له بأحسن ما كان يعمل:

- ﴿۞ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ إِذۡ جَآءَهُۥٓۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوًى لِّلۡكَٰفِرِينَ ٣٢ وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ٣٣ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٤ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٣٥﴾ [الزمر: 32-35]

ثالثا، والمحسن قد يكون محسنا بالقول:

- ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٣٣ وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤﴾ [فصلت: 33-34]
- ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦۖ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ٦٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ

وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾ [النساء: 60-63]

رابعا، وقد يكون الإحسان بالفعل كالإحسان للوالدين مثلا:

- ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [البقرة: 83]
- ﴿۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء: 36]
- ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأنعام: 151]

ونحن نظن أن الآية الكريمة يجب أن تقرأ بالوقف على النحو التالي:

- ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأنعام: 151]

لتكون الأقسام على النحو التالي حيث تشترك مفردة عَلَيْكُمْ فيها جميعا: فنبدأ بالقول عَلَيْكُمْ

- أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ
- وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا
- وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ
- وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ
- وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ

فتكون تلك من باب ما الوصايا (ما وصانا الله به):

- ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ

وسنتحدث عن ذلك بشيء من التفصيل بحول الله وتوفيقه عندما نتعرض لمعنى التحريم في مقالات قادمة.

فالله أسأل أن يأذن الإحاطة بشيء من علمه إنه هو السميع المجيب

أو كتسريح المرأة بإحسان:

- ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمْسَاكُۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُۢ بِإِحْسَٰنٍۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٢٩﴾ [البقرة: 229]

خامسا، والإحسان هو ما يقابل المنكر

- ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾ [النحل: 90]

إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ	وَيَنْهَىٰ عَنِ
بِٱلْعَدْلِ	ٱلْفَحْشَآءِ
وَٱلْإِحْسَٰنِ	وَٱلْمُنكَرِ
وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ	وَٱلْبَغْيِ

سادسا، ونجد أن الإحسان كما نفهمه من الآية الكريمة التالية:

- ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ١٣٤﴾ [آل عمران: 134]

يتحقق في ثلاثة أمور مجتمعة وهي:

⇐ الإنفاق في السراء والضراء ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾

⇐ كظم الغيظ ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾

⇐ العفو عن الناس ﴿وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾

ويتأكد مبدأ العفو والصفح عند المحسنين في الآية الكريمة التالية:

- ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣﴾ [المائدة: 13]

سابعا، لا شك عندنا أن من يقوم بهذه الأعمال جميعها لا يمكن أن يكون من الذين يفسدون في الأرض:

- ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦﴾ [الأعراف: 56]

ثامنا، ونحن لا نشك أن يوسف كان من المحسنين لأنه كان يقيم الصلاة، وينهى عن الفساد في الأرض:

- ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ١١٤ وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١١٥ فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ ١١٦﴾ [هود: 114-116]

نتيجة: إنها سنة من سنن الله الكونية أنه لا يضيع أجر المحسنين، فكيف لم يضيع الله أجر يوسف مادام أنه كان من المحسنين؟

جواب: انظر الآية الكريمة التالية

- ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ٦٠﴾ [الرحمن: 60]

السؤال: هل قابل الناس من حول يوسف إحسانه لهم بالإحسان؟

جواب: نعم، بكل تأكيد. لقد قابل كل من أحسن إليهم يوسف إحسانه لهم بالإحسان له، فما كان الله ليضيع أجر المحسنين وعلى رأسهم جميعا يوسف الصديق، فكيف حصل ذلك؟

جواب: لقد رد كل من أحسن إليه يوسف بإحسان مثله حتى اللذين ألحقوا به الأذى عن قصد:

⇐ فلقد أساء إليه إخوته، فما كان منهم إلا أن يعترفوا في النهاية بفضله عليهم لأن الله ما كان ليضيع إحسان يوسف لهم:

- ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ۝٩١﴾ [يوسف: 91]
- ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ۝٧٨﴾ [يوسف: 78]

⇐ وقد أساءت إليه امرأة العزيز، فلم تصدر من يوسف إساءة بحقها، فما كان منها إلا أن ترد الإحسان بالإحسان ولو بعد حين، فشهدت له بأنه من الصادقين مكذبة بنفسها شهادتها السابقة:

- ﴿... قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ۝٥١﴾ [يوسف: 51]

⇐ وقد أساءت له النسوة اللاتي راودنه عن نفسه، فبرأنه من التهمة وشهدن له بالبراءة من السوء:

- ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ... ۝٥١﴾ [يوسف: 51]

⇐ وقد أساء له صاحبه السجن الذي سرب خبر مراودة امرأة العزيز له فشهد له بالإحسان في السجن:

- ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ۝٣٦﴾ [يوسف: 36]

⇐ ولم تصدر إساءة ليوسف من صاحبه الأول في السجن (الذي رأى أنه يعصر خمرا)، فما كان مضطرا أن يعتذر ليوسف، ولكن لمّا كان يوسف هو من أحسن إليه في السجن لم يكن منه إلا أن يتذكر يوسف عندما انتشر خبر رؤيا الملك، فهو من دلهم على يوسف.

نتيجة: إن الإساءة للمحسن لابد أن تنقلب إلى إحسان له مهما طالت المدة ومهما تغيرت الظروف لأن الله ما كان ليضيع أجر المحسنين.

(دعاء: اللهم أسألك أن أكون من المحسنين، وأعوذ بك أن أكون من الذين يريدون فسادا في الأرض بعد إصلاحها – آمين)

السؤال: ما علاقة الإحسان بالرؤيا؟

جواب: نحن نجد بداية أن الإحسان مرتبط بالحكم والعلم. فجاء ذلك بحق يوسف:

- ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝٢٢﴾ [يوسف: 22]

وتكررت الصورة نفسها بحق موسى:

- ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٤﴾ [القصص: 14]

السؤال: مادام أن الله قد آتى موسى حكما وعلما جزاء على إحسانه، ومادام أنه قد آتى يوسف حكما وعلما جزاء على إحسانه، فهل كان علم موسى وحكمه كعلم يوسف وحكمه؟

جواب: لا بكل تأكيد، فبالرغم أن الله قد آتاهما حكما وعلما، إلا أن ذلك كان على التنكر (آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا)، لأن علم كل واحد منهما يختلف عن علم الآخر، فصحيح أن الله قد آتى موسى علما إلا أنه علم من نوع خاص. وصحيح أن الله قد آتى يوسف علما، إلا أنه كان علما من نوع خاص. فما هو علم يوسف الذي نحن بصدد الحديث عنه؟ وكيف يختلف عن علم غيره ممن آتاهم الله حكما وعلما؟

جواب: إنه علم تأويل الأحاديث، فلقد جاء ذلك على لسان والده يعقوب منذ رؤيا يوسف الأولى في صغره:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦﴾ [يوسف: 6]

وجاء التأكيد الرباني لذلك يوم أن كان يوسف في بيت الذي اشتراه من مصر:

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢١﴾ [يوسف: 21]

قصة يوسف: عودة على بدء

لقد افترينا القول في أحد الأجزاء السابقة من مقالتنا عن قصة يوسف بأن واحدة من أهم الأسباب التي دعت يوسف أن يترك والده يعقوب هو البحث عن علم تأويل الأحاديث الذي لم يكن متوافرا عند أبيه يعقوب نفسه، فيوسف ترك والده يعقوب الذي كان ذا علم (واحد):

- ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٦٨﴾ [يوسف: 68]

فهداه الله إلى ذلك الرجل الذي اشتراه من مصر ليجد في بيته ذلك العلم العظيم، وحصل ذلك رغما عن يوسف نفسه:

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢١﴾ [يوسف: 21]

(دعاء: اللهم يا من غلبت يوسف على أمره فعلمته من تأويل الأحاديث أسألك أن تغلبني على أمري فتنفذ مشيئتك لي بالإحاطة بعلم من لدنك لا ينبغي لأحد غيري إنك أنت السميع المجيب - آمين).

فكان ذلك من باب وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ:

- ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾ [البقرة: 216]

(دعاء: أدعوك باسمك الله وباسمك الرحمن وبأسمائك الحسنى كلها أن تجعل الخير لي في كل ما أحببت وفي كل ما كرهت - إنك أنت العليم الحكيم - آمين).

ويكأن يوسف قد ذهب في رحلة علمية (ولنقل في بعثة دراسية) إلى خارج البلاد (البدو) إلى المكان الذي سيجد فيه نفسه يتلقى العلم بتأويل الأحاديث. لذا نحن نتخيل أن يوسف كان في مهمة تعليمية خارج بلاده الأصلية (البدو) حيث كان يسكن أهله:

- ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ١٠٠﴾ [يوسف: 100]

ففي حين أن يعقوب (وأهله جميعا) كانوا يسكنون البدو، ترك يوسف حياة البداوة وذهب إلى الحظر لتلقى تعليمه العالي هناك، فوجد العلم في بيت ذاك الذي اشتراه من مصر. فتحقق ليوسف علما من خلال أبيه يعقوب كما تحقق له علما آخر من خلال أبيه هذا الذي تبناه:

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢١﴾ [يوسف: 21]

فتحصل ليوسف أكثر من علم واحد، فانتقل من مرحلة أن يكون ذا علم إلى مرحلة أن يكون عليما (أي ذو علم + ذو علم = عليم)، فشهد لنفسه بذلك:

- ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ٥٥﴾ [يوسف: 55]

السؤال: ما هو العلم الذي تلقاه من والده يعقوب؟ وما هو العلم الذي تلقاه في بيت الذي اشتراه من مصر؟

جواب: هذا ما سنحاول النبش فيه في الجزء القادم.

دعاء: سائلين الله وحده أن يعلمنا ما لم نكن نعلم، وأن يؤتينا رشدنا، وأن يهدينا إلى نوره الذي أبى إلا أن يتمه ولو كره الكافرون، فلا نفتري عليه الكذب ولا نقول عليه ما ليس لنا بحق، إنه هو العليم الحكيم - آمين.

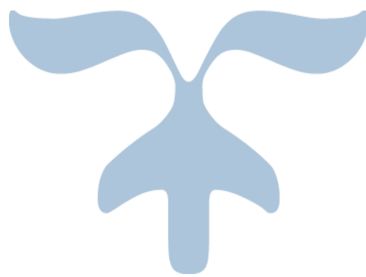
المدّكرون: رشيد سليم الجراح & علي محمود سالم الشرمان
بقلم: د. رشيد الجراح
12 كانون أول 2014
د. رشيد الجراح، مركز اللغات، جامعة اليرموك



الجزء الخامس عشر

وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ

وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا



الجـزء الخامس عشر: وَرفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا

لقد افترينا القول في الجزء السابق من هذا الكتاب بأن رحلة يوسف كانت عبارة عن رحلة لتلقي العلم بتأويل الأحاديث لأن والده يعقوب لم يكن يملك مثل هذا العلم، فترك حياة البداوة التي كان يعيشها بنو إسرائيل حينئذ

- ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّاۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ١٠٠﴾ [يوسف: 100]

لاحظ الربط في الآية الكريمة بين حياة السجن (حياة يوسف) والبداوة (حياة أهله). وأظن أن الربط يكمن في الانقطاع عن العالم الخارجي، وسنتحدث عن ذلك عندما نحاول أن نحدد المنطقة الجغرافية التي جاء منها إخوة يوسف بأهليهم أجمعين.

فنسأل الله أن يأذن لنا الإحاطة بشئ من علمه إنه هو السميع العليم.

ليحط به الترحال الأول في بيت الذي اشتراه من مصر، وزعمنا القول بأن الرجل قد اشتراه من سوق مصر إلا أنه قفل به عائدا إلى بيته في الطائف:

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٢١﴾ [يوسف: 21]

فوجد العلم من تأويل الأحاديث في بيت ذاك الرجل الذي اشتراه من مصر. فتحقق ليوسف نوعان من العلم:

⇐ علما من خلال أبيه يعقوب، فكان يوسف ذا علم من هذا الجانب
⇐ علما آخر من خلال أبيه هذا الذي أراد أن يتخذه ولدا بعد أن اشتراه من مصر، فكان يوسف ذا علم آخر من هذا الجانب الآخر

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٢١﴾ [يوسف: 21]

فتحصل ليوسف أكثر من علم واحد، فانتقل من مرحلة أن يكون ذا علم إلى مرحلة أن يكون عليما (أي ذو علم + ذو علم = عليم)، فشهد لنفسه بذلك:

- ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ۝٥٥﴾ [يوسف: 55]

وقد افترينا الظن في أكثر من مقالة سابقة لنا بأن هذان هما أبواه اللذان رفعهما على العرش في نهاية القصة:

- ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١٠٠﴾ [يوسف: 100]

(للتفصيل انظر لماذا قدم لوط بناته بدلا من ضيوفه 5؟)

وبعد أن حاولنا تدبر ما جاء في الآية الكريمة التالية:

- ﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ۝٣٧ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ۝٣٨ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ۝٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٤٠﴾ [يوسف: 37-40]

خرجنا بالافتراءات التالية التي هي بلا شك من عند أنفسنا:

⇐ يوسف يترك ملة قوم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر (عقيدة الإلحاد):

- إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ

ليكون السؤال الأول هو: من هؤلاء القوم اللذين ترك يوسف ملتهم؟

⇐ يوسف يتبع ملة آباءه إبراهيم وإسحق ويعقوب

- وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ

ليكون السؤال هو: متى ترك يوسف ملة آباءه إبراهيم وإسحق ويعقوب ليعود إلى اتباعها من جديد؟

⇐ كانت ملة آباءه تقضي بعدم الإشراك بالله شيئا:

- مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ

⇐ كان صاحبيه السجن في أرض مصر على ملة الشرك لأنهم كانوا يتخذون من دون الله أربابا متفرقون

- يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ

⇐ كانت تلك الأرباب هي أسماء سموها هم وآباؤهم ما أنزل الله بها من سلطان

- مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ

⇐ يطلب يوسف من صاحبيه السجن أن يتبعوا الدِّين القيِّم (عقيدة التوحيد)

- إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ

⇐ الخ.

ونحن نظن أن جانبا من هذا التصور المفترى من عند أنفسنا قد يحل إشكالية عدم محاولة يوسف البحث عن أهله الذين ولد فيهم بعد أن استوى وبلغ أشده في بيت أهله الذين تربى فيهم، والسبب ربما يعود إلى أن أهله أولئك كانوا من البدو حيث التنقل والترحال. فلم يكن يستطيع أن يعلم أين سيكون خبرهم بعد هذه الأعوام الطويلة.

- ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [يوسف: 100]

كما ربما يفسر جانبا آخر من هذا التصور المفترى السبب الذي من أجله انتقل يوسف إلى أرض مصر للعمل فيها، فلربما كان الدافع للانتقال هو أنه انتقل من بلاد لا دين لأهلها (إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ) إلى بلاد كان أهلها على عقيدة الشرك (يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ)، فكانت مهمة يوسف تكمن في إيصال ملة آبائه إبراهيم وإسحق ويعقوب إلى تلك الديار.

فكانت عقيدة أهل مصر تقضي بأن الناس أرباب فوق بعضهم البعض، فالترتيب الطبقي (الهرمي) كان يقضي بأن يكون الملك على قمة ذاك الهرم فهو الرب للجميع في الأرض بالإضافة إلى الإله الذي في السماء، ولكن هذا لا يتوقف عند الملك فقط، فكل فتى له ربه الذي يشتغل عنده، وليس أدل على ذلك – في ظننا- مما قاله يوسف نفسه للذي ظن أنه ناج من صاحبيه السجن:

- ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [يوسف: 42]

ونحن نعتقد جازمين بأنه كان في مصر حينئذ شخص واحد (على الأقل) لا يعمل عند رب له من أرباب الأرض وهو يوسف نفسه، فقد كان يعمل في بيت تلك المرأة:

- ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾ [يوسف: 23]

فكان فتاها ولكنها لم تكن ربا له:

- ﴿۞وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٣٠﴾ [يوسف: 30]

ولما تكشّفت الحقيقة في نهاية القصة، وطلب الملك يوسف ليستخلصه لنفسه لم يكن الملك ربا ليوسف:

- ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ٥٤﴾ [يوسف: 54]

وعلى الرغم أن يوسف قد اعترف بربوبية الملك للآخرين بمن فيهم رسول الملك الذي جاءه السجن ليخرجه منه:

- ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ٥٠﴾ [يوسف: 50]

ولو تدبرنا هذه الآية جيدا لربما استنبطنا أن رب ذلك الرسول كان الملك (قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ)، ولكن الملك لم يكن ربا ليوسف لأن رب يوسف هو العليم بكيد النسوة دون الحاجة أن يتحقق من ذلك (إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ).

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن الصورة في أرض مصر كانت على نحو وجود الأرباب المتفرقون، حيث يملك كل رب منهم من الصلاحيات بحجم موقعه في طبقات المجتمع الهرمي الذي يعتلي سدته الملك على رأس ذلك الهرم.

ونحن نفتري الظن بأن الناس في الطبقة الواحدة ليسوا أربابا لبعضهم البعض حتى وإن ساد بعضهم على بعض، فالمرأة التي راودت يوسف عن نفسه – مثلا- قد ألفت سيدها لدى الباب:

- ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٥﴾ [يوسف: 25]

والسبب في ذلك ربما يعود لأنهما كانا – كما افترينا سابقا- من نفس الطبقة الاجتماعية، فهي وهو (من الناحية العقدية) ليسوا أرباب لبعضهم البعض مادام أنه من أهلها (مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا). ولكن الرجل كان هو سيدها لأن مكانته الاجتماعية تقضي بأن يكون هو مسئولا عنها.

ولو راقبنا النص القرآني لربما وجدنا أن يوسف لم يكن ليتقبل الوضع الديني السائد في تلك البلاد، فما اتخذ لنفسه ربا في أرض مصر لأن ربه هو الله الواحد الأحد. ولكن هذا لا ينفي أن يكون يوسف قد تقبل الترتيب الاجتماعي في أرض مصر، فعمل عندهم بالأجر، فكان فتى للمرأة التي راودته عن نفسه.

- ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾ [يوسف: 23]
- ﴿۞ وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٣٠﴾ [يوسف: 30]

وقبل أن يعمل عند الملك الذي طلب أن يستخلصه لنفسه:

- **الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ (54) يوسف**

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ٥٤﴾ [يوسف: 54]

السؤال: كيف حصل كل ذلك؟

جواب: دعنا نبدأ قصة يوسف منذ أن أنبأ صاحبيه السجن بتأويل رؤياهما.

أما بعد،

ما أن وصل يوسف من خلال العلم الذي تحصل له من عند أبيه الثاني بأن المحكمة قد قضت ببراءة صاحبه الأول وإثبات التهمة على صاحبه الآخر، وأن الخروج من السجن هو مصير الأول بينما الصلب وأكل الطير من الرأس هو مصير الآخر حتى جاء قوله لهما على نحو (قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ):

- ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ٤١﴾ [يوسف: 41]

فلقد وصل خبر ذلك إلى يوسف وهو في السجن قبل أن يتم تبليغ الحكم لصاحبيه السجن رسميا. ولكن السؤال الذي لا مفر منه هو: كيف علم يوسف بذلك؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: إنه العرش، وذاك هو – برأينا- العلم الذي لم يكن موجودا عند أبيه يعقوب وتحصل له في بيت أبيه الثاني وهو الذي اشتراه من مصر، لذا نحن نفتري القول بأن العلم بتأويل الأحاديث الذي تحصل ليوسف في بيت هذا الرجل كما يدل على ذلك صريح اللفظ في الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يوسف: 21]

وهو العلم الذي لم يكن موجودا عند يعقوب نفسه، الذي تنبأ ليوسف بذلك بعد حادثة الرؤيا الأولى:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾ [يوسف: 6]

فكانت تلك تمام نعمة الله على يوسف والتي لم تكن ليعقوب وإن كانت لمن جاء قبله وهما إبراهيم وإسحق.

نتيجة مفتراة: لقد كانت هناك نعمة من نعم الله اختص الله بها إبراهيم وإسحق، ولم يختص بها يعقوب، ثم عادت ليتم الله بها نعمته على يوسف وعلى آل يعقوب من بعد يعقوب نفسه. وتلك النعمة هي العرش.

الدليل:

ما أن دخل يعقوب أرض مصر مع أبناءه وأهلهم جميعا:

- ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يوسف: 99]

حتى عمد يوسف إلى أن يؤوي إليه أبويه (ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ)، وهما في ظننا:

⇐ والده يعقوب
⇐ وأبوه الذي اشتراه من مصر

وكان أول عمل قام به يوسف بعد أن دخلوا مصر آمنين وهو أنه رفع أبويه على العرش:

- ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّاۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [يوسف: 100]

ولكن الملاحظة التي لا يجب أن يغفل عنها أي قارئ لكتاب الله هي أن يوسف قد توجه بالخطاب إلى أحدهما (وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّاۖ)، ليكون السؤال الذي يجب أن يطرح على الفور هو: لم لم يوجه الخطاب إلى كليهما؟ ومن هو أبيه الذي توجه بالخطاب إليه؟ ولماذا؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نفتري القول بأن أبيه الذي توجه بالخطاب إليه هذه المرة هو والده (أي الذي ولده وهو يعقوب) ولم يتوجه يوسف بالخطاب لأبيه الذي تربى يوسف عنده، وربما يعود السبب في ذلك – في رأينا- إلى أن أبيه هذا لم يكن بحاجة أن يخبره يوسف بهذه المعلومة لأنها معلومة موجودة عنده من ذي قبل. فأباه هذا الذي رباه كان على علم بهذا الأمر من ذي قبل، ولكن والده يعقوب هو الذي لم يكن على علم بذلك، فجاء خطاب يوسف من باب أن يخبر والده يعقوب بما تحصل له من علم في غيابه عنه: إنه العرش الذي رفع أبويه عليه. ولكن كيف ذلك؟

جواب: إن هذا السؤال يعيدنا على الفور إلى ما كنا قد افتريناه في مقالة سابقة لنا حول معنى مفردة العرش في النص القرآني. فأفردنا لذلك جزءا في مقالتنا تحت عنوان "مادلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته: باب العرش" ضمن حديثنا حينئذ عن قصة سليمان ووالده داوود. ولعلنا نجد أن الضرورة تستدعي إعادة طرح الخطوط العريضة لتصورنا عن معنى مفردة العرش هنا، ليتم الربط لاحقا بين القصتين بحول الله وتوفيق منه.

باب العرش في قصة يوسف: وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا

يثبت القرآن الكريم أن مفردة الْعَرْشِ لم تذكر في النص القرآني إلا في حالات ثلاثة فقط وهي:

⇐ مع الله الذي هو رب العرش العظيم:

- ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة: 129]
- ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [المؤمنون: 86-87]
- ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء: 22]
- ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: 116]

⇐ مع المرأة التي كانت في سبأ:

- ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ۝٢٣ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ۝٢٤ أَلَّا يَسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ۝٢٥ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ۩ ۝٢٦﴾ [النمل: 23-26]

⇐ مع يوسف الصديق

- ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١٠٠﴾ [يوسف: 100]

ليكون السؤال التالي الذي يجب أن يطرح على الفور هو: لماذا؟ لماذا لم ترد مفردة العرش إلا مصاحبة للذات الإلهية ومع هذه المرأة في سبأ ومع يوسف الصديق في أرض مصر؟

جواب: من أجل محاولتنا الإجابة على هذا السؤال، وجدنا الضرورة تستدعي أولا النبش في معنى مفردة ٱلۡعَرۡشِ نفسها، لنطرح السؤال التالي على الفور: ما **هو** ٱلۡعَرۡشِ ؟

أولا، نحن نظن أن لا علاقة بين العرش والملك (أن تكون ملكا) ولكن هناك علاقة بين العرش والتملك؟ فيجب التمييز بين الملك الذي يحكم والمالك الذي يتحكم؟ ولكن كيف ذلك؟

غالباً ما ظن الناس أن لكل مَلِك عرش، فيربطون العرش بالمَلك على الدوام، وهذا ما نظن أنه افتراء كاذب لا أساس له من الصحة، لأننا لم نجد في كتاب الله أن للمَلِك عرش. فسليمان نفسه لم يكن له عرش بالرغم من أن الملك قد تحصل له ولوالده داوود من قبله:

- ﴿وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ ۝٢٠﴾ [ص: 20]
- ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ۝٣٥﴾ [ص: 35]

ولا يذكر القرآن الكريم أن ملك مصر (زمن نبي الله يوسف) قد كان له عرش:

- ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ۝٤٣﴾ [يوسف: 43]
- ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ۝٥٠﴾ [يوسف: 50]
- ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ۝٥٤﴾ [يوسف: 54]
- ﴿قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ۝٧٢﴾ [يوسف: 72]

- ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [يوسف: 76]

ولكن بالمقابل يثبت القرآن الكريم أن يوسف نفسه كان له عرش بالرغم أنه لم يكن هو مَلِك مصر:

- ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [يوسف: 100]

كما يثبت أن المرأة التي كانت تملك قومها كان لها عرش عظيم بالرغم من أن النص القرآني لم يصفها على أنها مَلِكة لهم، فجاء الوصف القرآني لها على أنها مالكة لهم:

- ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾ [النمل: 23-26]

نتيجة مفتراة: نحن نظن أنه ليس من باب الضرورة أن يكون صاحب العرش ملكا ولكن لابد أن يكون مالكا (إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ).

لكن هذا الطرح يدعون أن نثير النقاش حول فرعون نفسه طارحين التساؤل التالي: لِم لَم يرد ذكر الْعَرْشِ عند الحديث عن فرعون مثلاً؟ ألم يكن لفرعون مُلك مصر؟ ألم يكن هو حاكم مصر وسيدها والرب المطاع فيها؟ فلم لا يكون له عرش؟

رأينا: على الرغم أن قصة فرعون قد تكررت عشرات المرات في القرآن الكريم، إلا أن هناك حقيقة ثابتة لا يمكن المجادلة فيها ألا وهي غياب مفردة الْعَرْشِ تماما عند الحديث عن فرعون. فما الذي نستفيده من ذلك؟

رأينا المفترى: ربما يصدق ظننا أن العرش من صفات من يملك (كتلك المرأة التي كانت تملك قومها) ولكن ذلك لا يعني بالضرورة أن كل من يملك يكون صاحب عرش (كفرعون مثلا)، ولكن لماذا؟

جواب: لأن فرعون كان – نحن نظن- يملك أرضا:

- **وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51)**

- ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الزخرف: 51]

نتيجة: كان فرعون يملك أرض مصر ولكنه لم يكن يملك كل شعبها (أي من فيها من البشر).

بينما كانت تلك المرأة – بالمقابل- تملك قومها:

- ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [النمل: 23]

وهذا المنطق ينطبق – في ظننا- على سليمان نفسه الذي كان له ملكا ولم يكن صاحب عرش قبل أن يحضر له الذي عنده علم من الكتاب عرش تلك المرأة قبل مجيئها وقومها إليه:

- ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِي ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾ [ص: 35]

فملك سليمان لم يكن – نحن نفتري القول- ملك قوم وإنما كان ملك سلطان (أرض). وليس أدل على ذلك من أن الهدهد قد غاب عنه فترة من الزمن فلم يكن يدري أين هو:

- ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [النمل: 20]

السؤال: ما الفرق بين من يملك أرضا (كفرعون وسليمان مثلا) ومن يملك شعبا (كتلك المرأة)

جواب مفترى: نحن نظن أن من يملك شعبا يكون مراقبا لجميع تحركاتهم فلا يغيبون عن ناظريه. ولكن يبقى السؤال الأهم هو: كيف يستطيع فعل ذلك؟

رأينا المفترى: من خلال الْعَرْشِ. ولكن لماذا؟

جواب مفترى مهم جدا جدا سنحتاج له لاحقا: نحن نظن أن صاحب العرش يستطيع أن ينظر في العرش فيرى بأم عينه ما يقوم الناس به من حوله (ضمن نطاق عرشه بالطبع).

ثانيا، إن الرحمن قد استوى على عرشه استواءً، فلقد وردت فكرة استوى الرحمن على العرش سبع مرات في كتابه الكريم، فجاءت تلك العبارة في ستة مواضع من كتاب الله متلازمة مع حرف الانتقال "ثم":

- ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: 54]

- ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾ [يونس: 3]
- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝٢﴾ [الرعد: 2]
- ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ۝٥٩﴾ [الفرقان: 59]
- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٤﴾ [السجدة: 4]
- ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤﴾ [الحديد: 4]

وجاءت في الموطن السابع خالية من حرف الجر "ثم" كما في الآية الكريمة التالية:

- ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: 5]

(**للتفصيل انظر مقالاتنا**: معنى حرف الجر على في العربية، ومادلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته: باب العرش)

ثالثا، إن ما قام به يوسف هو أنه رفع أبويه على العرش:

- ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٠٠﴾ [يوسف: 100]

رابعا: نحن نجد أن هناك تلازما بين العرش والقضاء بين الناس بالحق:

- ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٥﴾ [الزمر: 75]

خامسا: نحن نجد تلازما بين العرش والمراقبة التي لا تدع شيئا يخفى عن من يقوم بها:

- ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۝١٦ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ۝١٧ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ۝١٨ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ۝١٩﴾ [الحاقة: 16-19]

السؤال: لماذا لا تخفى منهم خافية؟

جواب: نحن نظن أن السبب في ذلك يعود إلى وجود العرش.

سادسا، نحن نجد أن للعرش مالك واحد فقط، فالله هو رب العرش العظيم، وقد كان لتلك المرأة عرش عظيم، ويوسف هو من رفع أبويه على العرش، لأنه ببساطه عرشه لوحده.

سابعا، نحن نجد أن وجود العرش يؤدي بالضرورة إلى انعدام الفساد:

- ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء: 22]

فلو تدبّرنا قصة ملكة سبأ لوجدنا أنها كانت تملكهم وما خرج أحد منهم عن أمرها، فكان شعبها شعباً موحداً، فشاورتهم بالأمر:

- ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾﴾ [النمل: 32]

وعلى الرغم من تقديمهم المشورة إليها إلا أنهم لم يترددوا أن يرجعوا الأمر بكليته لها:

- ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [النمل: 33]

وكذلك أصبحت مصر في زمن يوسف الصديق، فكان من يدخلها من الآمنين:

- ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يوسف: 99]

وعلى النقيض من ذلك كانت أرض مصر في زمن فرعون الذي لم يكن صاحب عرش وإن كان صاحب ملك، فلم يكن فرعون على علم بكثير مما يدور حوله حتى داخل بلاطه:

- ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [القصص: 20]

نتيجة مفتراة مهمة جدا جدا: عندما يكون هناك عرش تتوافر لصاحبه السيطرة المطلقة فلا يخفى عليه شيء، ولا يحدث شيء دون أن يعلم به، فينتفي بذلك فساد من حوله (أي ملئه) وذلك لأنهم لا يستطيعون التفلت من سيطرة صاحب العرش عليهم.

السؤال: ما هو العرش إذن؟

جواب مفترى: إنه شاشة المراقبة التي لا تدع شيئا يخفى على صاحبها:

- ﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحاقة: 17-18]

نحن نظن أن هذا افتراء خطير جدا من عند أنفسنا قد يساعدنا في فهم ماهية العرش، وخاصة كيفية تحكم (أو لنقل مراقبة) الإله الواحد الأحد، رب العرش العظيم، بالكون كله. فنحن نظن أن العرش هو الذي ينظر الإله فيه ليرى كل ما يدور في الكون فلا يفوته العلم بشيء من ذلك.

- ﴿۞ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: 59]
- ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: 47]
- ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾ [لقمان: 16]

وربما يفسر مثل هذا الفهم كيفية نزول العرش يوم الحساب، والملائكة تحمله:

- ﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحاقة: 17]

فعرش الرحمن هو بناء رباني مرفوع على ثمانية قواعد يمكن تشبيه صورته بصورة جنات الأعناب المعروشة (أي المرفوعة على القواعد)، وهنا يتبادر للذهن سؤال مفاده: لم ثمانية؟

جواب: لأن هناك سبع سموات بعرش واحد فقط. فكيف تكون الصورة إذن؟

جواب: بداية نحن نؤمن أن الله قد خلق سبع سماوات طباقا:

- ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ۖ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾﴾ [الملك: 3]
- ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾﴾ [نوح: 15]

ونفهم ذلك على نحو أن تلك السماوات السبع هي سماوات متطابقة متجاورة وليست متراكبة فوق بعضها البعض (كما يتخيل ذلك الفكر الشعبي). لذا سيصار في نهاية المطاف إلى طي تلك السموات كطي السجل للكتب:

- ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء: 104]

السؤال: ما علاقة ذلك بالعرش الذي سيحمله فوقنا في ذلك اليوم ثمانية:

- ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَاۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ۝١٧﴾ [الحاقة: 17]

افتراء من عند أنفسنا: لو كان هناك سماء واحدة وعرش واحد لكان العرش يحمله اثنان، فلنتخيل - ولله المثل الأعلى - العرش على شكل طاولة (ولنقل شاشة مراقبة) محمولة على رجلين أو قاعدتين اثنتين.

ولكن عندما يكون هناك سماء أخرى (ثانية) متواجدة إلى جانب السماء الأولى يصبح من يحمل العرش ثلاثة: اثنان للسماء الأولى وواحد جديد في نهاية السماء الثانية (فلا ننسى أنه عرش واحد، لسماءين اثنتين).

ولو زدنا سماء ثالثة لاحتجنا لرابع ليحمل القاعدة الجديدة للعرش الذي سيمتد إلى نهاية السماء الثالثة، لتكون الصورة على نحو كلما زادت سماء جديدة زادت قاعدة جديدة للعرش حتى يبقى عرش واحد وإن تعددت السموات، وهكذا.

وعندما نصل السماء السابعة يكون عدد من يحمل العرش 8 (أي عدد السموات+1، وذلك لأننا احتجنا إلى قاعدتين ليحمل العرش عليهما في السماء الأولى واحتجنا بعد ذلك إلى قاعدة جديدة واحدة مع كل سماء جديدة ليبقى العرش واحدا وإن كثر عدد السموات)، فهي في نهاية المطاف سبع سموات بعرش واحد (وهو بلا شك العرش العظيم). لكن كيف يمكن لنا أن نتصوره.

للتفصيل انظر: مادلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته: باب العرش).

عودة على عرش يوسف

السؤال: ما علاقة ذلك بعرش يوسف؟

- ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًاۖ ... ۝١٠٠﴾ [يوسف: 100]

بداية لابد من التأكيد على أن يوسف نفسه لم يكن هو ملك مصر ولكنه كان عزيزها. فالله لم يؤتيه ملك مصر ولكنه آتاه من الملك:

- ﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠١﴾ [يوسف: 101]

ولكن بالرغم من ذلك، كان صاحب عرش مادام أنه قد رفع أبويه عليه:

- ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ١٠٠﴾ [يوسف: 100]

السؤال: ما الذي تحصل ليوسف من وجود العرش عنده؟

رأينا المفترى: ما دام أن الله قد آتاه من الملك ومادام أنه كان صاحب عرش، لم يكن – نحن نفتري الظن- ليخفى عن يوسف شيئا من ذلك الملك الذي آتاه الله إياه، بدليل أن من له الملك لا يخفى عليه شيء من ملكه:

- ﴿يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ١٦﴾ [غافر: 16]

وكذلك كان عرش يوسف يمكّنه من أن لا يخفى عليه شيء مما يدور في ملكه (نطاق عرشه).

وربما يفسر لنا مثل هذا الظن كيف كان يستطيع يوسف أن ينبئ صاحبيه السجن بكل طعام يرزقانه قبل أن يأتيهما:

- ﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٧﴾ [يوسف: 37]

تصورات من خيالنا: نحن نظن أن يوسف كان يقوم بالنظر في عرشه، فيرى القادم من الناس بذلك الطعام إلى صاحبيه السجن. فيستطيع بذلك أن ينبئهما بذلك الرزق قبل أن يأتيهما.

وها هو يشير إلى تأويل رؤياه لأبيه بعد أن رفعه على العرش:

- ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ١٠٠﴾ [يوسف: 100]

السؤال: إلى ماذا كان يشير يوسف لوالده يعقوب وهو مرفوع على العرش عندما استخدم اسم الإشارة هذا (وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ ؟)

افتراء من عند أنفسنا: لقد أشار يوسف إلى مكان محدد على تلك الطاولة (العرش - الشاشة) الذي رفع أبويه عليها ليري أباه يعقوب على وجه التحديد تأويل الرؤيا كما تظهر على عرش يوسف). ولو تفكرنا في الآية

أكثر لوجدنا أن يوسف قد رفع أبويه الاثنين على العرش (وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ)، ولكن بالرغم من ذلك فقد وجه الخطاب مباشرة إلى واحد منهما وهو يعقوب (وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ).

السؤال: لماذا؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: لأن هذا هو علّم يوسف الذي تعلّمه في بيت أبيه الثاني الذي اشتراه من مصر. فذاك الرجل كان صاحب علم بعرش يوسف فلا يحتاج أن ينظر فيه، ولكن يعقوب هو الذي يحتاج أن يرى ما تحصل لولده يوسف من إتمام نعمة ربه عليه كما أتمها على أبويه من قبل إبراهيم وإسحق، وكما سيكون في ذلك تمام النعمة الإلهية على آل يعقوب من بعده:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦﴾ [يوسف: 6]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: ذلك هو علم تأويل الأحاديث الذي تعلمه يوسف بعيدا عن والده يعقوب في بيت ذلك الرجل الذي اشتراه من مصر.

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢١﴾ [يوسف: 21]

فذلك هو علم يوسف الجديد، فذلك هو علم يوسف الجديد – إنه علم تأويل الأحاديث.

السؤال: ما هو علم تأويل الأحاديث إذن؟

جواب: هو العلم بالأمور بمجرد حصولها وإن كانت غائبة عن الناظرين

السؤال: ومن يستطيع القيام بذلك؟

جواب: من كان له عرش

السؤال: وكيف يقوم بذلك؟

جواب: أن ينظر في العرش فيرى ما يحصل وإن كان بعيدا جدا عن مجال رؤيته البصرية.

السؤال: إذا كان هذا هو العلم الذي تلقاه يوسف في بيت الذي اشتراه من مصر، فما العلم الذي ورثه من والده يعقوب؟

جواب: إنه علم الفتوى بالرؤيا:

- ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [يوسف: 43]

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن أول ما تعلمه يوسف من والده يعقوب هو كيفية الفتوى (أو لنقل تجاوزا تفسير) الرؤيا. فيوسف هو أول من رأى شيئا، فقصصه مباشرة على والده يعقوب:

- ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [يوسف: 4]

ولا أظن بأن يعقوب لم يكن على دراية بالفتوى في الرؤيا، وذلك على أقدر تقدير لسببين اثنين:

⇐ أن يوسف لم يتردد أن يقصص رؤياه على والده، فلو لم يكن يعقوب على دراية بذلك لما لجأ إليه يوسف من باب من يريد معرفة الفتوى بها

⇐ والأهم من ذلك بأن رد يعقوب يشير بما لا يدع مجالا للشك بمعرفته بالفتوى فيها، فهو من حذّر ولده بأن يقصص رؤياه هذه على إخوته لأن العاقبة ستكون وخيمة:

- ﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾﴾ [يوسف: 5]

السؤال: لماذا نهى يعقوب ولده يوسف أن يقصص رؤياه على إخوته؟

جواب: لأن إخوته كانوا يستطيعون الفتوى في الرؤيا، فهم يستطيعون الفتوى بها ومعرفة خبرها. ولو أن يوسف قصص رؤياه على إخوته لاستطاع إخوته أن يئولوا تلك الرؤيا.

سؤال: لماذا؟

جواب: لأن ذلك العلم كان متوافرا في بيت يعقوب. فهو علم قد ورثه من أبويه إبراهيم وإسحق وعلمه لأبنائه ليستمر في بيت النبوة.

السؤال: وأين الدليل على ذلك؟

جواب: لو تفقدنا الآية الكريمة التالية لوجدنا أن أول خبر بالرؤيا قد جاء ذكره في كتاب الله على لسان إبراهيم:

- ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات: 102]

فهذا علم قد ابتداءه إبراهيم نفسه. ولو تفقدنا القرآن كله لما وجدنا خبر ذلك سابقا لإبراهيم في حادثة ذبحه ولده هذه. ولكن لماذا؟

جواب: هذا ما سنحاول النبش فيه في الجزء القادم من هذا الكتاب، والله أعلم

سائلين الله وحده أن يعلمنا ما لم نكن نعلم، وأن يهدينا رشدنا، وأن يهدينا إلى نوره الذي أبى إلاّ أن يتمّه ولو كره الكافرون، فلا نفتري عليه الكذب ولا نقول عليه ما ليس لنا بحق، إنه هو العليم الحكيم - آمين.

دعاء: رب أسألك أن تأذن لي الإحاطة بما لم تأذن لغيري الإحاطة به، وأسألك أن تعلّمني ما لم أكن أعلم، وأعوذ بك أن أفتري عليك الكذب عن علم، إنك أنت السميع المجيب - آمين.

المدّكرون: رشيد سليم الجراح & علي محمود سالم الشرمان
بقلم: د. رشيد الجراح
31 كانون أول 2013
د. رشيد الجراح مركز اللغات، جامعة اليرموك



الجزء السادس عشر

وَسَبْعَ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ



الجزء السادس عشر: وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ

انتهينا في الجزء السابق من هذا الكتاب إلى افتراء القول من عند أنفسنا أنه قد توافر ليوسف نوعان من العلم وهما:

⇐ العلم الذي تحصل له من أبيه يعقوب وهو علم الفتوى في الرؤيا
⇐ العلم الذي تحصل له من أبيه الذي تربى في بيته وهو علم تأويل الأحاديث

وكانا هذان هما أبويه اللذين رفعهما على العرش معا:

- وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا...

ولكن واحد منهم فقط هو من وجه إليه يوسف الخطاب بعد أن رفع كليهما على العرش، انظر تتمة الآية السابقة:

- ﴿... وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [يوسف: 100]

وزعمنا الظن بأن اسم الإشارة هَذَا في قوله (**وَقَالَ يَا أَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ**) هو – نحن نفتري القول- إشارة من يوسف بيده إلى مكان محدد وهو ذلك العرش (أي الشاشة) التي يبين من خلالها أمر ما هو كائن. فلقد رفع يوسف أبويه عليها ليرى أبوه يعقوب على وجه التحديد تأويل الرؤيا كما تظهر على عرش يوسف.

كما افترينا القول بأن العرش هو العلّم الذي تعلّمه يوسف في بيت أبيه الثاني الذي اشتراه من مصر. فذاك الرجل كان صاحب علم بالعرش، فلم يكن يحتاج يوسف أن يريه إياه. ولكن يعقوب هو الذي يحتاج أن يرى ما تحصل لولده يوسف من إتمام نعمة ربه عليه كما أتمها على أبويه من قبل إبراهيم وإسحق، وكما سيكون في ذلك تمام النعمة الإلهية على آل يعقوب من بعده:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾ [يوسف: 6]

فكان ذلك – في رأينا- هو علم تأويل الأحاديث الذي تعلمه يوسف بعيدا عن والده يعقوب في بيت ذلك الرجل الذي اشتراه من مصر:

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يوسف: 21]

كما افترينا القول بأن العلم الذي تلقاه يوسف في بيت أبيه الأول يعقوب كان هو علم الفتوى بالرؤيا:

- ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [يوسف: 43]

وقد سقنا الدليل على ذلك من مشاهدة مفادها بأن ذلك العلم كان متوافرا في بيت يعقوب من ذي قبل. فيوسف هو أول من رأى شيئا، فقصصه مباشرة على والده يعقوب:

- ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [يوسف: 4]

ونحن نعتقد جازمين بأن يعقوب كان على دراية بالفتوى في الرؤيا، وذلك على أقل تقدير لسببين اثنين:

⇐ أن يوسف لم يتردد أن يقصص رؤياه على والده طالبا خبرها، فلو لم يكن يعقوب على دراية بذلك لما لجأ إليه يوسف من باب من يريد معرفة الفتوى بها

⇐ والأهم من ذلك بأن رد يعقوب يشير بما لا يدع مجالا للشك بمعرفته (وأبناءه جميعا) بالفتوى فيها، فيعقوب هو من حذّر ولده من أن يقصص رؤياه هذه على إخوته لأن العاقبة ستكون وخيمة:

- ﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾﴾ [يوسف: 5]

فلو لم يكن يعقوب على يقين بأن إخوة يوسف قادرين على الفتوى بتلك الرؤيا لما اضطر أن ينبّهه إلى خطر قصّها على إخوته. إن تحذير يعقوب ليوسف يؤكد – ربما بما لا يدع مجالا للشك- بأن إخوة يوسف كانوا قادرين على الفتوى في الرؤيا.

نتيجة: لقد كان علم الفتوى بالرؤيا متواجدا في آل يعقوب جميعا. فكان يعقوب على دراية بهذا العلم كما كان أبناؤه جميعا على دراية به.

وقد كان أخطر ما افتريناه من قول في نهاية ذلك الجزء من الكتاب هو أن ذلك العلم (الفتوى بالرؤيا) قد كان متوافرا في بيت يعقوب لأنه علم قد ورثه من أبويه إبراهيم وإسحق وقام بتعليمه لأبنائه من بعده ليستمر ذلك العلم في بيت النبوة. وقد كان الدليل الذي سقناه على هذا الافتراء الخطير مستنبطا (وربما نكون مخطئين) من فهمنا لما جاء في الآية الكريمة التالية التي تبيّن – كما نفهمها- أن أول خبر بالرؤيا جاء ذكره في كتاب الله قد جاء على لسان إبراهيم نفسه:

- ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات: 102]

ولو تفقدنا القرآن كلّه لما وجدنا خبر ذلك سابقا لإبراهيم في حادثة ذبحه ولده هذه.

وقد دعانا هذا الظن إلى طرح التساؤل التالي: لماذا ابتدأ الحديث عن الرؤيا في كتاب الله عند إبراهيم نفسه؟ وما الذي رءاه إبراهيم فعلا؟ وكيف أقدم نبي الله وخليله إبراهيم على ذبح ولده لمجرد أنه قد رأى ذلك في المنام؟ الخ.

هذا ما سنحاول النبش فيه سائلين الله وحده أن يهدينا إلى الحق الذي نقول فلا نفتري عليه الكذب، وندعوه وحده أن ينفذ قوله بمشيئته وإرادته لنا الإحاطة بشيء من علمه لا ينبغي لغيرنا إنه هو الواسع العليم.

أما بعد

السؤال الأول: ما الفرق بين ما رءاه إبراهيم وما رءاه غيره؟

جواب: لقد حصلت رؤيا إبراهيم في المنام:

- ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات: 102]

وما تكررت الرؤيا في المنام إلا في حادثة واحدة أخرى في كتاب الله وهي ما رأى محمد في منامه بخصوص المعركة التي كان مقدما عليها:

- ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنفال: 43]

السؤال: لماذا كانتا رؤيا منام؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: لو دققنا في الآية الكريمة التالية:

- ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزمر: 42]

لربما جاز لنا أن نفتري القول بأن نفس إبراهيم ونفس محمد كانتا متوفيتان عندما رءا ما رءاه في المنام بدليل أن الله يتوفي الأنفس في منامها (ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ).

نتيجة: عندما تكون النفس متوفاة في منامها، يكون الله هو من توفاها (ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ).

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: عندما يتوفى الله الأنفس في منامها، تكون تلك النفس المتوفاة لازالت عند ربها، الأمر الذي يشجعنا على افتراء الظن بأن ما تراه الأنفس وهي متوفاة عند ربها يكون حقيقيا، فينفذ على أرض الواقع كما هو في المنام، فلا يحتاج إلى فتوى. فهذا إبراهيم يرى في المنام أنه يذبح ابنه فلا يحتاج أن يفتي في ذلك، فيعمد إلى إخبار ولده بالأمر على الحرفية التي رءاها في منامه

- ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢﴾ [الصافات: 102]

والله هو من أرى محمدا في منامه جيش الأعداء قليلا ليقضي أمرا كان مفعولا:

- ﴿إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖ وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٤٣﴾ [الأنفال: 43]

فحصل ذلك على أرض الواقع بحرفيته عندما التقى الجمعان:

- ﴿وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗاۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٤٤﴾ [الأنفال: 44]

فلم يكن محمد ليفتي في ذلك لأن تلك الرؤيا كانت رؤيا في المنام، عندما كان الله هو متوفي تلك النفس.

ولكن – بالمقابل- لو تدبرنا حديث الرؤيا في كل القرآن الكريم غير هاتين الحادثتين، لما وجدنا أن ذلك يحصل في المنام. فهذا يوسف يخبر والده يعقوب بما رءاه حيث لا نجد أن ذلك قد حصل في المنام:

- ﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ٤﴾ [يوسف: 4]

نتيجة: لقد كانت رؤيا يوسف رؤيا عادية ولم تكن رؤيا في المنام

وها هو صاحبيه السجن يرون رؤيتيهما ولكن ذلك لم يكن في المنام:

- ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ٣٦﴾ [يوسف: 36]

وهذا الملك يرى رؤيته الشهيرة ولكنها لم تكن في المنام:

- ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ٤٣﴾ [يوسف: 43]

وفي هذه الحالات جميعا لم تكن الأمور تحصل على أرض الواقع بالحرفية التي تمت فيها الرؤيا، فكانت بحاجة في هذه الحالات جميعا إلى فتوى أو إلى تأويل.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن أنه إذا كانت الرؤيا تحصل في المنام فلا تحتاج إلى أن يفتى فيها. ولكن إن حصلت الرؤيا في غير المنام فهي بحاجة أن يفتى فيها.

وهنا يأتي دور العارف بالفتوى ليستطيع أن يسقط تلك الرؤيا التي لم تكن في المنام على أرض الواقع. فلم يستطع من هم حول الملك حينئذ مثلا أن يفتوه في رؤياه، فجعلوا ذلك من باب أضغاث الأحلام التي لا يعلمونها:

- ﴿قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ٤٤﴾ [يوسف: 44]

ولكن لم يتردد يوسف (وهو عليم بالفتوى) بأن يحدثهم بخبرها، فلم تكن فتواه إلاّ صادقة الحدوث كما أخبرهم بها:

- ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ٤٧ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ٤٨﴾ [يوسف: 47-48]

وهذا بالفعل ما حصل على أرض الواقع.

السؤال: كيف استطاع يوسف القيام بذلك؟ ولِم لَم يستطع غيره القيام بذلك؟

جواب مفترى: نحن نظن أن السبب في ذلك يعود إلى أن يوسف يستطيع (بما آتاه الله من علم بذلك) أن يزيل ما كان يشوب تلك الرؤيا من الأضغاث، فعادت واضحة كما لو كانت قد تمت رؤيتها في المنام كما كان الحال في قصة ذبح إبراهيم لابنه أو في قصة رؤية محمد لجيش الأعداء في منامه.

السؤال: وما الفرق؟

جواب مفترى: نحن نظن أن الرؤيا التي يراها الإنسان تنقسم إلى نوعين:

⇐ الرؤيا التي يراها الإنسان في منامه كما في ذبح إبراهيم لأبنه أو في رؤيا محمد جيش الأعداء. وفي هذه الحالة تأتي مفردة الرؤيا مصاحبة لمفردة المنام:

- ﴿... يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ ... ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات: 102]
- ﴿إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ ... ﴿٤٣﴾﴾ [الأنفال: 43]

⇐ الرؤيا التي يراها الإنسان في غير منامه كما في رؤيا يوسف نفسه أو في رؤيا صاحبيه السجن أو في رؤيا الملك، وهنا تغيب مفردة المنام تماما من الخطاب:

- ﴿... يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [يوسف: 4]
- ﴿...قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ ... ﴿٣٦﴾﴾ [يوسف: 36]
- ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ ... ﴿٤٣﴾﴾ [يوسف: 43]

السؤال: وكيف يمكن أن يرى الإنسان رؤيا في غير منامه؟ وهل يمكن أن يكون هناك رؤيا أصلا في غير المنام؟ يسأل صاحبنا.

جواب مفترى: نعم يمكن أن تحدث الرؤيا في غير المنام؟

السؤال: وكيف يكون ذلك؟

جواب: إن هذا السؤال ينقلنا على الفور للحديث عن قصة النوم نفسها في كتاب الله، مبتدئين النقاش بطرح **السؤال التالي**: كيف ينام الإنسان؟ ومتى يمكن أن يعتبر الإنسان في حالة نوم؟

جواب مفترى: نحن نظن أن للنوم آلية محددة لابد من فهمها قبل التسرع إلى تقديم استنباطات خطيرة كتلك التي ننوي أن نقحم أنفسنا فيها. لكن الذي يمكن أن يبرر فعلتنا هذه هو أننا نحاول أن نتفكر بالأمر دون أن نجزم بحقيقته. فما ستخطه أيدينا من قول لا يعدو أن يكون أكثر من كلام مفترى من عند أنفسنا لا نطلب من القارئ الكريم أن يصدّقه ما لم يجد أن الدليل من كتاب الله يثبته. لذا يجب التريث قبل الاقتناع، وعلى كل من يقرأ هذه السطور أن يأخذها بحذر شديد وأن ينظر إليها بعين الناقد المتفحص وليس بعين القارئ المقلد.

ونحن لا نعدم الأمل أن ندعو الله وحده أن يهدينا رشدنا وأن ينفذ مشيئته لنا الإحاطة بشيء من علمه لا ينبغي لغيرنا إنه هو

السميع المجيب - آمين.

أما بعد

تعرضنا في مقالة سابقة لنا تحت عنوان "وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه" إلى تقديم جملة من الافتراءات الخاصة بآلية النوم، ولا نجد ضيرا أن نعيد خطوطها العريضة هنا لما لها – في ظننا- من ترابط مباشر مع قصة رؤيا المنام في كتاب الله كما نظن أننا نفهمه.

لقد كان الحديث حينئذ منصبا على الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ١٣﴾ [الإسراء: 13]

وقد كانت التساؤلات التي أثرناها حينئذ هي:

⇐ ما هو الطائر الذي ألزمنا الله إياه في أعناقنا؟ و
⇐ لماذا ألزمنا الله إياه؟ أو ما هي الوظيفة التي يقوم بها هذا الطائر؟

وقد حاولنا تسويق افتراء من عند أنفسنا مفاده أن ذلك الطائر هو الموكّل بحمل نفس الإنسان من عنقه ليذهب بها عند الله والعودة بالنفس من هناك إلى الإنسان مرة أخرى في كل مرة يخلد فيها الإنسان إلى النوم. فالله هو من يتوفى الأنفس في منامها في عملية تشبه وفاة النفس بالموت. ولكن الفرق بين الحالتين هو أن الله يمسك النفس التي توفيت بالموت ولكنه يرسل التي توفيت بالمنام إلى أجل مسمى كما نفهم ذلك من الآية الكريمة التالية:

- ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٤٢﴾ [الزمر: 42]

وهذا يدعونا إلى الاعتقاد الجازم بأن نفس الإنسان تخرج منه لتذهب عند ربها كلما خلد صاحبها إلى النوم وتعود إليه كلما استيقظ من نومه.

كما افترينا القول بأن هناك من وكّله الله من خلقه ليتواجد على الدوام في عنق الإنسان لينقل نفسه من وإلى جسد الإنسان وهو ذلك الطائر الذي ألزمنا الله إياه في أعناقنا كما نفهم ذلك من الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ١٣﴾ [الإسراء: 13]

نتيجة مفتراة: نفس الإنسان موكل بها طائر يروح بها ويرجع مادام أن الموت لم يقضي على الإنسان بعد.

(للتفصيل في هذا الموضوع انظر مقالتنا: وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه)

تخيلات من عند أنفسنا: نحن نتخيل أن هناك طائرا ألزمه الله في أعناقنا يقوم بمهمة أوكله الله بها وهي حمل نفس الإنسان ليذهب بها إلى ربها في كل وفاة للإنسان سواء بالموت أو بالنوم، ولكن في حين أن الوفاة بالموت تنهي مهمة ذلك الطائر وللأبد، تبقى مهمة ذلك الطائر مستمرة عندما تكون الوفاة بالنوم، فعندما يخلد الإنسان إلى النوم يقوم ذلك الطائر بحمل نفس الإنسان الذي أخلد بها إلى النوم ويطير بها ليضعها عند ربها، وحتى يستيقظ الإنسان من نومه فلا بد أن يعود ذلك الطائر بتلك النفس إلى صاحبها، ويبقى ذلك الطائر ملازما لعنق الإنسان لا يتزحزح من هناك حتى يعود إلى الإنسان إلى نومه مرة أخرى، وهكذا.

تبعات هذا الظن المفترى من عند أنفسنا: ربما يفسر مثل طرحنا هذا قضية ما يراه الإنسان في نومه (أي الأحلام التي تحصل في المنام، والتي غالباً ما أعيت علماء النفس الذين وضعوا النظريات العلمية لتفسيرها). فسنحاول هنا أن نسقط فهمنا للنص القرآني على هذه الظاهرة، ولكن قبل القيام بذلك نجد لزاماً التأكيد – كما فعلنا على الدوام- بأن ما نقوله لا يعدو أن يكون أكثر من افتراءات من عند أنفسنا، فهي بلا شك ليست موجودة في كتاب الله، بل هي ما نظن نحن أن الدليل القرآني يصدقها. لذا فالباب مفتوح على مصراعيه للتحقق مما نقول سواء بالإثبات أو النفي، ونحن على استعداد للتخلي عن أفكارنا وطرحها كلها في سلة المهملات إن بان الدليل العقائدي الذي يدحضها.

أما بعد،

قصة الأحلام؟

- ⇐ لماذا يحلم الإنسان في نومه؟
- ⇐ لماذا يرى الإنسان في نومه ما يراه في حقيقته وما لا يراه في حقيقته؟
- ⇐ لماذا لا تكون الأحلام مركزة واضحة؟ لماذا تتداخل الصور والأحداث في الأحلام؟
- ⇐ كيف ينام الإنسان أصلاً؟
- ⇐ لماذا يقلق الإنسان فلا يستطيع النوم أحياناً؟
- ⇐ لماذا يغط النائم أحيانا في سبات عميق فترقد حركته في سريره تماما فيشعر من حوله أنه مرتاح في نومه؟
- ⇐ لماذا يبقى أحيانا أخرى يتقلب في فراشه حتى يشعر من حوله بأنه غير مرتاح في نومه؟
- ⇐ لماذا تحدث مع الإنسان سقطات النوم؟
- ⇐ الخ

افتراءات من عند أنفسنا

نحن نتخيل أن كل ذلك يحدث بسبب رحلة الطائر عندما يحمل نفس الإنسان ذهاباً وإياباً في وفاة الإنسان في نومه، ولكن كيف؟

جواب مفترى: عندما يحمل ذلك الطائر نفس الإنسان المتوفى بالنوم فإنه يطير بها مباشرة ليودعها عند بارئها، وفي خلال تلك الرحلة الطويلة جداً بمسافتها، القصيرة جداً بزمنها، تكون نفس الإنسان حاضرة يقظة، فترى من المناظر والمشاهد ما هو مألوف لها وما هو غير مألوف، ولما كانت رحلة ذلك الطائر لا تذهب بنفس الإنسان وتعود بها في طريق واحد في كل مرة ، وإنما تذهب في اتجاهات مختلفة وتسلك مسارات متعددة (ربما بسبب الازدحام المروري)، يرى الإنسان من خلال نفسه المحلقة في جو السماء وهو نائم أشياء مختلفة ويستطلع أحداث متعددة في آن واحد. ولما كانت الرحلة سريعة جداً (محكومة لا شك بسرعة ذلك الطائر)، ولما كان التحليق عالياً (بسبب الارتفاع بالنفس)، لا تستطيع نفس الإنسان أن تركز على حدث واحد في كل مرة أو أن ترى جميع تفاصيله بوضوح تام، فتتداخل الصور والأحداث، ويصعب أحياناً على الإنسان أن يجمعها معاً أو أن يجد بينها رابط واضح متى أفاق من نومه بعد عودة نفسه إلى عنقه.

ولو راقبت طريقة نوم الإنسان لوجدنا أن فعل الذهاب في النوم يحدث بسرعة فائقة جداً، صحيح أنك ربما تأخذ وقت طويل لتنام ولكن فعل الذهاب بالنوم لا يحدث تدريجياً، وإنما يحدث مرة واحدة، فإما أن تنام أو أن لا تنام، وذلك لأن الطائر – في رأينا- سريع جداً في نقله لتلك النفس إلى بارئها، وهذا ما يحدث أيضاً عند اليقظة من النوم، فالطائر يعود في سرعة فائقة حتى لا تكاد تشعر بها.

وترى النائم أحيانا يغط في سبات عميق يكاد لا يفيق منه إلا رغما عنه، وتراه أحيانا أخرى دائم التقلب في فراشه، ونحن نفتري الظن بأن ذلك يحدث لمجرد أن يتحرك ذلك الطائر بالنفس، فمادام أن الطائر لم يضع النفس في مستودعها عند بارئها يبقى يتحرك يمينا وشمالا، ويبقى الإنسان النائم يتقلب تبعا لحركة ذلك الطائر بتلك النفس، وما أن يحط ذلك الطائر تلك النفس في منتهاها وترقد حركته حتى يرقد الإنسان في سريره تماما وكأنه قد توفي بالموت. فغالب ما يغط بعض الأطفال في سبات عميق حتى يسبب ذلك في بعض الأحيان قلقل عند الأم التي تحاول أن توقظ طفلها لتتأكد بأنه لازال حيا وليس ميتا. إن مراد القول هو أن حركة الإنسان في سريره أو سكونه فيه تعتمد تماما – نحن نفتري القول- على حركة ذلك الطائر الذي حمل نفسه ليودعها عند بارئها.

ثم، ألم يحصل لك – عزيزي القارئ- ولو مرة واحدة أن حاولت النوم وما أن غفوت حتى شعرت أنك تهوي في مكان سحيق؟ أو أنك تسقط من مكان مرتفع؟ ألم تستيقظ على الفور فزعا مرعوبا؟ فلماذا؟

رأينا: ربما يحدث هذا لأن حركة إقلاع ذلك الطائر بالنفس التي حملها لم تكن موفقة. فعندما حمل ذلك الطائر تلك النفس الموكّل بها وطار بها ليأخذها عند ربها، لم يفلح أن يقلع بها إقلاعا طبيعيا كما يحدث في الغالب، لذا حصل ويكأنه يسقط من أعلى فعاد بنفس الإنسان إليه ولكن بطريقة فيها شيء من الجهد هذه المرة، وهو ما أظن أنه يسبب للإنسان الشعور بالضيق في تلك الحالة، فيصحو الإنسان ويكأنه مخنوقة نفسه.

(للتفصيل انظر مقالتنا وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه)

أما ما يهمنا أكثر من هذا الطرح هنا هو التمييز بين نوعين من النوم وهما:

⇐ عندما تكون نفس الإنسان متوفاة عند ربها، أي عندما يصل ذلك الطائر الحامل لتلك النفس إلى المحطة الأخيرة التي يستودعها فيها عند ربها.

⇐ عندما تكون نفس الإنسان لازالت محلقة يحملها ذلك الطائر في جو السماء في رحلة الذهاب والعودة ونحن نكاد نجزم القول (ربما مخطئين) أن النوم الحقيقي هو عندما تكون تلك النفس قد وصلت إلى ربها فتوفها الله بنفسه:

- ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزمر: 42]

ولكن عندما تكون نفس الإنسان لازالت محمولة من قبل ذلك الطائر في رحلة الذهاب والعودة فإن الإنسان لا يكون في حالة نوم لأن الله لم يتوفى تلك الأنفس بعد، فالله يتوفى الأنفس عندما يصل بها الطائر إلى محطتها النهائية. ويمكن تشبيه ذلك (ولله المثل الأعلى) بالقطار الذي يحمل بضاعة ليوصلها إلى نهاية الطريق ليستلمها صاحبها (أي يتوفاها) بنفسه، فمادامت البضاعة لازالت في القطار فإنها لا تكون قد توفيت، ولا يمكن أن يحدث لها وفاة إلا عندما يتسلمها صاحبها ويتأكد بأنها قد وصلت كاملة وسليمة.

وهنا يجب أن نميز بين ما يراه النائم في الحالة الأولى (عندما تكون نفسه مستقرة عند ربها الذي توفاها) وما يراه عندما تكون نفسه لازالت محلقة في جو السماء سواء في رحلة الذهاب أو العودة. فما الفرق؟

رأينا المفترى: عندما يرى النائم شيئا في منامه (أي عندما تكون نفسه عند ربها الذي توفاها) فإن كل ما يراه يكون على الحقيقة، وهذه ما يمكن أن نطلق عليها مفهوم رؤيا المنام بالمفردات القرآنية (أو الرؤيا الحق بمفرداتنا) كما حصل في حالة إبراهيم الذي رأى في المنام أنه يذبح ولده، فعمد إلى تطبيقها على أرض الواقع كما رءاها في منامه:

- ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات: 102]

وكما حصل في رؤيا محمد جيش الأعداء قليلا في منامه:

- ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنفال: 43]

فحصل ذلك على أرض الواقع بحرفيته عندما التقى الجمعان:

- ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنفال: 44]

ولكن عندما يرى النائم أشياء متداخلة في منامه يصعب عليه إسقاطها على أرض الواقع كما رءاها، فإن ذلك يحصل – نحن نفتري الظن- عندما تكون النفس لازالت محلقة في جو السماء يحملها ذلك الطائر في رحلة الذهاب والعودة، وهنا تتداخل الصور والمناظر والأحاديث، فيصعب على الشخص أن يميز الغث فيها من السمين فلا تكون أكثر من أضغاث أحلام، وهذا بالضبط ما أراد ملأ الملك – نحن نفتري القول- أن يقولوه للملك عندما طلب منهم الفتوى برؤياه:

- ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ٤٣﴾ [يوسف: 43]
- ﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ٤٤﴾ [يوسف: 44]

فنحن نفتري القول بأن الأضغاث (مفرد ضغث) هي المتشابهات المتداخلات التي ربما يصعب فصلها عن بعضها البعض. فلقد اتهم كثير من الناس ما جاءتهم به رسلهم على أنه من باب أضغاث الأحلام:

- ﴿بَلۡ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ بَلۡ هُوَ شَاعِرٞ فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ ٥﴾ [الأنبياء: 5]

ونحن نظن أن السبب في ذلك ربما يعود إلى عدم قدرتهم على تمييز (وبالتالي عدم قدرتهم على فهم) ما جاءت رسل الله أقوامهم به من الخطاب. فكان جل ما يطلبون هو آية يرونها بأم أعينهم (فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ). فالذي لا يستطيع أن يفهم الآية المتلوة (أي المسموعة) فهو بحاجة إلى آية مرئية (أي آية مبصرة).

فهم يسمعون ما يتلى عليهم ويكأنه أضغاث أحلام تشابكت خيوط بعضها ببعض فأصبح من المتعذر عليهم تفكيكها لفهم ماهيتها.

وهذا بالضبط – نحن نظن- ما كانت عليه حالة ملأ الملك الذين لم يستطيعوا أن يفتوه فيما قصه عليهم من خبر رؤياه:

- ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ٤٣﴾ [يوسف: 43]

فجاء جوابهم على النحو التالي:

- ﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ٤٤﴾ [يوسف: 44]

فالصورة التي نقلت إليهم على لسان الملك الذي قص عليهم رؤياه تحوي في ثناياها كثير من المفردات المتداخلة والمتشابهة، فهناك البقرات السمان والبقرات العجاف (إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ) حيث فعل الأكل. وهناك – بالمقابل- السنبلات الخضر والأخر اليابسات يخلو من فعل الأكل (وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ)، فكيف بهم سيسقطوا كل ذلك على أرض الواقع؟

رأينا: بالرغم أن ما رءاه الملك كان رؤيا إلا أنها لم تكن رؤيا منام لأنها لو كانت رؤيا في المنام لقال الملك حينها شيئاً كهذا:

- وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ **(في المنام) ....**

وعندها لن يكون مضطرا للبحث عن من يؤول له تلك الرؤيا، وذلك لأنها ستكون رؤيا حق تنطبق على أرض الواقع كما شاهدها في منامه. لذا فإن تلك الرؤيا لم تحصل عندما كانت نفس الملك نائمة متوفاة عند الله، ولكن الذي رءاه حصل – برأينا- في خلال رحلة الطائر الذي كان لازال محلقا بنفس الملك في جو السماء في رحلة الذهاب والعودة. ولو دققنا أكثر في الصورة التي رسمها الملك لوجدنا أن فيها مشهدين مختلفين وهما:

⇐ مشهد سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف (إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ)

⇐ مشهد سبع سنبلات أخر وأخر يابسات (وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ)

السؤال: كيف رءا الملك هذا المشهدان؟ هل رءاها معا في الوقت نفسه؟ أم هل رءا أحدهما ثم رءا الآخر؟

جواب مفترى: نحن نعتقد أن الملك لم يراهما معا في الوقت ذاته ولكنه رءا أحدهما يحصل قبل الآخر بدليل التتابع في الآية الكريمة نفسها. فالملك يرى أولا مشهد البقرات السمان اللاتي يأكلهن السبع العجاف ثم يرى بعد ذلك مشهد السنبلات الخضر والأخر اليابسات. فما استطاع أن يركب المشهد الثاني (السنبلات) على المشهد الأول (البقرات). فتداخلات المشاهد بعضها ببعض حتى أصبحت من باب الأضغاث التي وصفها له الملأ من حوله:

- ﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ٤٤﴾ [يوسف: 44]

السؤال: ما الذي فعله يوسف؟ وكيف استطاع يوسف أن يفتيه في تلك الرؤيا؟

جواب: لقد كان يوسف قادرا على فصل المشاهد عن بعضها البعض، ومن ثم تركيبها مع بعضها البعض من جديد. فكيف فعل يوسف ذلك؟

رأينا المفترى

أولا، كانت الزراعة هي الموضوع الرئيس فيما رءاه الملك بدليل أن يوسف قد بدأ فتواه لتلك الرؤيا على النحو التالي:

- قَالَ تَزْرَعُونَ

ثانيا، كانت الفترة الزمنية هي سَبْعَ سِنِينَ وكان ذلك مستنبطا – برأينا- من وجود البقر، فجاءت فتواه على النحو التالي:

- سَبْعَ سِنِينَ

ثالثا، كانت العملية ستكون دَأَبًا لوجود السنبلات:

- دَأَبًا

رابعا، كانت الوفرة موجودة في البقرات السمان:

- ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [يوسف: 47]

خامسا، كانت عملية أكل ما تركوه في سنبله واضحة من أكل البقرات (السنين) بعضها البعض:

- ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [يوسف: 48]

الدليل

تحليل المفردات: الفرق بين السنابل والسنبلات

لو دققنا في رؤيا الملك لوجدناه يتحدث عن سبع سُنۢبُلَٰتٍ:

- ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [يوسف: 43]

السؤال: لماذا لم يقل الملك أنه قد رءا سبع سَنَابِلَ كما جاء في الآية الكريمة التالية مثلا:

- ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة: 261]

فما الفرق بين السنابل والسنبلات؟ نحن نسأل

رأينا المفترى: عندما تنبت حبة واحدة سبع سنابل (كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ) فإن ذلك يشير بكل تأكيد إلى الكمية وليس إلى النوع وذلك لأن ما تنبته الحبة الواحدة سيكون نوعا واحدا، فحبة القمح ستنبت سبع سنابل من القمح، وحبة الشعير ستنبت سبع سنابل جميعها سنابل شعير، وهكذا. فتتضاعف الكمية أضعافا كثيرة ولا يختلف النوع.

لكن بالمقابل عندما تحدث الملك عن ما رءاه لم يكن يشير – نحن نظن- إلى نوع واحد من السنابل وإلا لجاء قوله على نحو:

- وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ **(وسبع سنابل خضر وأخر يابسات)**

ولكن لما جاء اللفظ على نحو أن الذي رءاه الملك كان سُنۢبُلَٰتٍ (وليس سنابل) فإن ذلك يعود - في ظننا- على النوع وليس على الكمية. فالكمية محددة بمفردة سبع، ولكن النوع يأتي من مفردة سُنۢبُلَٰتٍ:

- ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [يوسف: 43]

نتيجة: مفتراة: لقد كان الذي رءاه الملك هو سبع أنواع من المحاصيل (سُنبُلاَتٍ).

ولو أن الجفاف سيصيب نوعا واحدا من السنبلات لما شكل ذلك مشكلة كبيرة لأهل مصر حينئذ. ولكن المشكلة كانت – بكل تأكيد- تطال كل أنواع المحاصيل الزراعية في أرض مصر (أي السنبلات). فما الذي فهمه يوسف من ذلك؟

رأينا المفترى: ما كان من يوسف إلا أن يفتيهم بأن المشكلة التي ستنشأ ستطال جميع أنواع المحاصيل التي تنبت في أرض مصر والتي عددها سبعة محاصيل (سُنۢبُلَٰتٍ)، لذا نحن نتجرأ على القول بأن عبارة وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ تشير إلى مجموع المحاصيل الحقلية التي سيطالها الجفاف في كل سنة (أي بقرة) ولا علاقة لها بالفترة الزمنية لتصبح الصورة على النحو التالي: سيصيب الجفاف سبع محاصيل حقلية في كل سنة، وهي المحاصيل نفسها التي ستتأثر بذلك، ونحن نظن أنها جميع المحاصيل التي تنبت في أرض مصر حينئذ.

السؤال: أين تنبت تلك المحاصيل السبعة؟ هل تنبت في أرض واحدة؟ هل يمكن أن تنبت جميعها في الأرض نفسها؟

رأينا: كلا، فلابد أن لكل محصول من هذه المحاصيل مكانه من الأرض لينبت فيه، فبعضها يحتاج إلى أرض غزيرة الأمطار وبعضها يحتاج إلى أرض أقل غزارة، وبعضها يعتمد على الري من مياه الأنهار، وهكذا. لذا فإن تلك المحاصيل السبعة تتوزع جغرافيا في عرض البلاد وطولها، فالملك يكون بذلك قد رءا أرض مصر كلها وقد طالها الجفاف ومن ثم القحط: إنها الأرض التي تزرع بها هذه المحاصيل السبعة (سُنۢبُلَٰتٍ) جميعها.

السؤال: ما هي تلك المحاصيل السبعة؟ أو بكلمات أكثر دقة نسأل: ما هي السنبلات السبعة التي رءاها الملك؟

جواب مفترى: إنها ما يمكن أن نستنبطه من الآية الكريمة التالية:

- ﴿۞ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ٣٢ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ٣٣﴾ [الكهف: 32-33]

نتيجة مفتراة: لو تفقدنا هذه الآية الكريمة جيدا لوجدنا أن هناك (1) جنات من الأعناب و(2) النخل و(3) الزرع بينهما. فنحن نتخيل أن جنات الأعناب (جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ) هي التي يتفجر خلالهما النهر ليسقيها من ماءه (وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا)، وعلى أطرافها يكون النخل حيث تبدأ الصحراء (وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ)، وبين ذاك النخل على أطراف الصحراء وجنات الأعناب حيث وفرة مياه النهر يكون الزرع (وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا).

ونحن نفتري الظن بأن الزرع على وجه التحديد هو الذي يسقى بماء المطر، وعندما يخرج نأكل منه وتأكل منه أنعامنا:

- ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلۡمَآءَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡجُرُزِ فَنُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا تَأۡكُلُ مِنۡهُ أَنۡعَٰمُهُمۡ وَأَنفُسُهُمۡۚ أَفَلَا يُبۡصِرُونَ ٢٧﴾ [السجدة: 27]

السؤال: ما هو ذلك الزرع الذي يسقى بماء المطر فيخرج من الأرض لنأكل منه وتأكل منه أنعامنا؟

جواب: لا شك أنه الزرع الذي يكون مختلفا ألوانه، وهو الذي يهيج حتى يصبح مصفرا بلونه ويصبح حطاما في النهاية:

- ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢١﴾ [الزمر: 21]

سؤال: وما هو ذلك الزرع في أرض مصر؟

جواب: إنها ما كانت تزرع مصر حينئذ من المحاصيل وهي مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ ، والتي طلبها بنو إسرائيل عندما كانوا في الأرض المقدسة بعدما ضجروا من الطعام الواحد:

- ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٦١﴾ [البقرة: 61]

السؤال: لكن هذه خمسة فقط (بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ)؟ فأين الاثنتين الأخريين؟ يسأل صاحبنا مستغربا.

جواب: دعنا نعود مرة أخرى إلى الآية الكريمة التي ذكرناها آنفا لنعيد تدبرها من خلال هذا السؤال:

- ﴿۞وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ٣٢ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ٣٣﴾ [الكهف: 32-33]

لاحظ عزيزي القارئ أن الآية الكريمة تتحدث عن ثلاثة أشياء وهي:

⇐ جنات من أعناب جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ

⇐ النخيل جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ

⇐ الزرع وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا

لذا نحن نفتري القول بأن الزرع الذي يكون مختلفا ألوانه، وهو الذي يهيج حتى يصبح مصفرا بلونه ويصبح حطاما في النهاية يشمل تلك المحاصيل الخمسة وهي (بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ)

السؤال: وأين السنبلات الأخريات؟

جواب: نحن نجدهما في الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٦٧﴾ [النحل: 67]

السؤال: وأين الدليل على أن النخيل والأعناب كانت من ضمن السنبلات التي رءاها الملك؟

جواب: نحن نجد الدليل على ذلك في فتوى يوسف للملك:

- ﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ٤٩﴾ [يوسف: 49]

فلو دققنا في هذا السياق القرآني لوجدنا أن يوسف يتحدث عن العصر (وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ)، وهي – في ظننا- عملية تجميع المحاصيل لتخزينها. فبعض المحاصيل تخزن جافة وبعضها يخزن بعد معالجته بطرق كثيرة ومتنوعة، وهكذا. لنطرح عندها السؤال التالي: كيف سيتم عصر المحاصيل التي جاء ذكرها على أنها من محاصيل مصر (بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ):

- ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٦١﴾ [البقرة: 61]

جواب: لا شك أن واحدة من نتائج العصر هو الحصول على الخمر كما جاء على لسان صاحب يوسف السجن:

- ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٦﴾ [يوسف: 36]

السؤال: من أين كان سيعصر صاحب يوسف الخمر؟ هل كان سيعصره من بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ ؟

رأينا: نحن لا نستبعد ذلك، ولكن لا يمكن لنا أن نستبعد أن تكون ثمرات النخيل والأعناب من المحاصيل التي ستعصر:

- ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٦٧﴾ [النحل: 67]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: هناك – نحن نظن- سبعة محاصيل (سبع سنبلات) سيصيبها الجفاف في أرض مصر التاريخية التي كانت تحت حكم الملك صاحب الرؤيا

وهي:

⇐ثمرات النخيل
⇐وثمرات الأعناب
⇐البقل
⇐القثاء
⇐الفوم
⇐العدس
⇐البصل

تخيلات من عند أنفسنا: عندما حدّث الملك من حوله بأنه قد رءا سبع سنبلات خضر وأخر يابسات، فهو قد أشار بذلك – في ظننا- إلى جميع المحاصيل الزراعية التي ستتأثر بالجفاف الذي سيصيب بلاده كلها. فما كان ذلك ليخفى على شخص قد آتاه الله من العلم ما يكفي لأن يكون عليما كيوسف الصديق.

تخيلات من عند أنفسنا:

يوسف يقرأ من خلال رؤيا الملك أن الجفاف سيصيب جميع المحاصيل الزراعية المتوافرة في أرض مصر وهي سبعة، فيقوم على الفور بالتبرع بأن يقدم لهم الحل الأمثل للخروج من تلك الأزمة بأقل التكاليف وأنجعها، فجاء جوابه على النحو التالي:

- ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [يوسف: 47]

فهو إذن يطلب منهم أن يذروا كل ما يحصدوه في سنبله إلا ما يأكلوه منه في كل عام، أي أن يحاولوا أن يدّخروا إلى وقت حاجتهم قدر ما يستطيعون مما يحصدوه (فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ) وأن يقللوا من استهلاكهم منه قدر المستطاع.

السؤال: كيف سيذرون ما يحصدوه منه في سنبله؟

جواب: نحن نظن أن الحصيد هو المقابل للقائم:

- ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾﴾ [هود: 100]

فالقرى القائمة هي التي لازالت مرفوعة بنيانها أما القرى الحصيد هي التي تمت إزالة بنيانها فلم تعد قائمة. ويمكن أن تكون خامدة:

- ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأنبياء: 13-15]

ويصبح الشيء (أي شيء) حصيدا عندما تكون الزينة قد ذهبت منه:

- ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس: 24]

والحصيد من الزرع يحتوي على الحب:

- ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾﴾ [ق: 9-10]

نتيجة مفتراة: لقد طلب يوسف من القوم أن يذروا ما حصدوا في سنبله فلا يعمدوا إلى استخراج الحب منه إلا تلك الكمية القليلة التي يحتاجونها ليأكلوا منها في عامهم (فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ).

السؤال: لماذا قدّم يوسف الحل للقوم؟ وهل كان ذلك جزء من رؤيا الملك؟ والأهم من هذا هنا هو من أين جاء يوسف بخبر العام الذي سيأتي بعد سنين الجدب والقحط حيث سيغاث الناس وسيعصرون؟

- ﴿ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يوسف: 48-49]

السؤال: هل كان ذلك العام جزءا من رؤيا الملك؟

جواب مفترى: كلا، لم يأت ذكر لذاك العام في رؤيا الملك نفسه، فلنقرأ الرؤيا مرة أخرى لنبحث فيها عن ذلك العام الذي سيغاث فيه الناس وسيعصرون:

- ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [يوسف: 43]

لاحظ – عزيزي القارئ- أن رؤيا الملك تتحدث عن سبع بقرات (أي سبع سنين) كما جاء في تأويل يوسف:

- ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [يوسف: 47]

السؤال مرة أخرى: من أين جاء يوسف بخبر العام الذي سيغاث فيه الناس وفيه سيعصرون؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن خبر العام لم يأت من رؤيا الملك ولكن من عند يوسف نفسه؟

سؤال: ومن أين جاء يوسف بذلك؟

جواب: من العرش.

نتيجة مفتراة: لقد استخدم يوسف العلم الذي ورثه من عند أبيه يعقوب فأفتى الناس برؤيا الملك:

- ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [يوسف: 47]

ثم استفاد من العلم الذي تعلمه من أبيه الذي اشتراه من مصر (تأويل الأحاديث) فأنبأ الناس بما ستئول إليه الأمور بعد ذلك:

- ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يوسف: 49]

السؤال: كيف حصل ذلك؟

تخيلات من عند أنفسنا: ما أن وصل ليوسف خبر رؤيا الملك حتى استطاع أن يفتي للناس خبر تلك الرؤيا، فأزال منها الأضغاث وأسقطها على أرض الواقع كما حصلت فعلا، ولم يتوقف عند ذلك بل ذهب إلى عرشه لينظر فيه ما ستؤول إليه الأمور بعد تلك السنين من القحط، وما أن وجد خبر تلك السنين في ذلك العرش حتى نظر ليرى ما سيحصل بعد ذلك من أحداث، فكان الخبر على النحو التالي:

- ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يوسف: 49]

فرأى يوسف الناس وقد أغيثوا، لأن الله هو من ينزل الغيث بعد أن يقنط الناس:

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾ [الشورى: 28]
- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌۢ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان: 34]
- ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد: 20]

كما رءا الناس وهم يعصرون:

- ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ۝٤٩﴾ [يوسف: 49]

ونحن نظن مفترين القول من عند أنفسنا أن هذا ما شاهده يوسف بأم عينه عندما نظر في العرش الذي كان عنده.

السؤال: لماذا تبرع يوسف للناس بهذه المعلومة التي لم تكن – كما نظن- جزءا من رؤيا الملك؟

جواب: لأن يوسف كان يريد أن يساعد الناس على الخروج من تلك الأزمة دون الحاجة أن يذهب بنفسه إلى الملك ليخبره بآلية الخروج منها. فيوسف – في ظننا- كان يحاول أن لا يذهب إلى الملك بنفسه، فلقد كان زاهدا في أن يصل إلى الملك؟

سؤال: إن صح ما تقول، لم إذن طلب يوسف من صاحبه السجن أن يذكره عند ربه سابقا؟

- ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ۝٤٢﴾ [يوسف: 42]

جواب: إن هذا السؤال يدعونا على الفور إلى إعادة النبش في تفاصيل قصة يوسف نفسها من هذا المنظور، طارحين التساؤلات التالية:

⇐ من هو رب صاحبه السجن الذي طلب يوسف أن يذكر عنده؟
⇐ من هو الملك؟
⇐ لماذا آثر يوسف أساسا السجن؟ لم لم يطلب من ربه أن ينجيه من كيد النسوة بطريقة أخرى؟
⇐ ماذا كان يفعل يوسف في داخل السجن؟
⇐ كيف علم يوسف بخبر رؤيا الملك؟
⇐ من هو الشخص الذي جاء يوسف في سجنه يحمل رؤيا الملك ويطلب الفتوى فيها؟
⇐ من هو رسول الملك الذي جاء ليخرج يوسف من السجن؟
⇐ لماذا طلب الملك أن يستخلص يوسف لنفسه؟ وكيف سيتم ذلك؟
⇐ الخ.

هذا ما سنحاول النبش فيه في الجزء القادم من هذا الكتاب. والله أعلم

دعاء: سائلين الله وحده أن يعلمنا ما لم نكن نعلم، وأن يهدينا رشدنا، وأن يهدينا إلى نوره الذي أبى إلاّ أن يتمّه ولو كره الكافرون، فلا نفتري عليه الكذب ولا نقول عليه ما ليس لنا بحق، إنه هو العليم الحكيم - آمين.

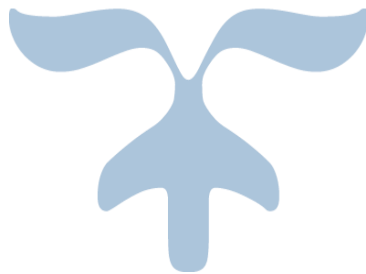
دعاء: رب أسألك أن تأذن لي الإحاطة بما لم تأذن لغيري الإحاطة به من علمك، فأسألك أن تعلّمني ما لم أكن أعلم، وأعوذ بك أن أفتري عليك الكذب عن علم، إنك أنت السميع المجيب - آمين.

المدّكرون: رشيد سليم الجراح و علي محمود سالم الشرمان
بقلم: د. رشيد الجراح
27 كانون ثاني 2014
د. رشيد الجراح مركز اللغات، جامعة اليرموك



الجزء السابع عشر

اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ



الجزء السابع عشر: اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ

حاولنا في الجزء السابق من هذا الكتاب تمرير ظننا بأن ما جاء في الآية الكريمة التالية على لسان يوسف:

- ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يوسف: 49]

لم تكن جزءا من رؤيا الملك، وإنما كانت معلومة "مجانية" تبرع بها يوسف من عنده للناس. وأظن أن هدفه في ذلك كان ثنائيا:

⇐ لكي لا يضطر أن يقابل الملك
⇐ لكي يساعد الناس على الخروج من تلك الأزمة دون الحاجة أن يضطروا للعودة إليه مرة أخرى لسؤاله

فالمدقق في السياق القرآني الكلي يجد أن الملك كان قد طلب من ملئه الفتوى بالرؤيا فقط:

- ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [يوسف: 43]

وبمثل هذه الرسالة (وهي تأويل الرؤيا) جاءه صاحبه السجن طالبا من يوسف:

- ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [يوسف: 46]

السؤال: لماذا لم يكتف يوسف بتأويل الرؤيا؟ ولماذا تبرع لهم بالحل الذي يخرجهم من المأزق القادم عليهم؟

- ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [يوسف: 47-48]

جواب: كان هذا من أخلاق النبوة. فبالرغم أنهم جاءوا يوسف طالبين الفتوى بالرؤيا فقط، إلا أن يوسف تبرع لهم بالحل الذي يخرجهم من المأزق بالرغم أن القوم قد أودعوه السجن (ربما ظلما) عدد سنين، والسبب في ذلك يعود إلى أن يوسف لم يكن ناقما على الملك أو على الناس من حوله بسبب الزج به في السجن بضع سنين. فتلك هي أخلاق نبي كريم، وقد ظهرت أخلاقه الكريمة على الأقل في أمرين اثنين:

⇐ استعداده لتأويل الرؤيا دون شرط مسبق
⇐ تقديم الحل المجاني دون أن يطلبوه منه

فعلى الرغم من أن يوسف كان سجينا حتى الساعة، إلا أنه لم يحاول أن يستغل الموقف كأن يلجأ (كما قد يفعل كثير من الناس) إلى مبدأ المقايضة، كأن يطلب مثلا حريته مقابل تأويله للرؤيا، أو أن يطلب مالاً مقابل تبرعه بالحل الذي سيخرجهم من الأزمة. ولعلي أجزم أن هذا السلوك النبيل النابع من شخصية كريمة هي ما جعلت الملك يتمسك بأن يأتوه به إلى بلاطه.

ولو تدبرنا قصة طلب الملك مقابلة يوسف لوجدنا فيها العجب. فهذا الملك بداية يطلب ما تنص عليه الآية الكريمة التالية:

- وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ...

ولكن على الرغم من أن هذا الطلب قد صدر من الملك نفسه، إلا أن يوسف رفض الإذعان له:

- ﴿... فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ٥٠﴾ [يوسف: 50]

والأهم من ذلك أن رسول الملك نفسه لم يجبر يوسف على تلبية طلب الملك، فترك يوسف في السجن وقفل عائدا إلى الملك ليخبره برفض يوسف القدوم إليه إلا بعد أن يستطلع الملك بنفسه خبر النسوة اللاتي قطعن أيديهن.

ولو دققنا في ردة فعل الملك لوجدنا فيها العجب، فالملك لم يستشيط غضبا (كما يفعل ولاة الأمر عادة) لأن سجينا قد رفض الإذعان لأمره، ولكنه نزل عند رغبة السجين، فأخذ يتحقق من الأمر عندما جمع النسوة اللاتي قطعن أيديهن مستفسرا عن ما فعلنه بيوسف:

- ﴿قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٥١﴾ [يوسف: 51]

وما أن توصل الملك إلى هذه الحقيقة التي تظهر براءة يوسف الكاملة من التهمة المنسوبة إليه والتي أودعته السجن حتى طلب مرة أخرى أن يحضروه إليه. ونحن نظن أن طلب الملك هذه المرة قد جاء فيه شيء من الرجاء:

- ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ٥٤﴾ [يوسف: 54]

فالملك هذه المرة يطلب يوسف ليستخلصه لنفسه (ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ)، ويكأن الملك (نحن نظن) يطلب ممن أرسلهم لإحضار يوسف أن يوصلوا له رسالة بأن هذا طلب شخصي من الملك وليس طلبا

وظيفي، فالملك يطلب لقاء يوسف بصفته الشخصية (التحببية) وليس بصفته الوظيفية (الأميرية). عندها فقط نزل يوسف عند رغبة الملك بالحضور إليه وتكليمه شخصيا:

- ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾ [يوسف: 54]

وهذا النقاش يدعونا على الفور أن نضع التساؤلات التالية على طاولة البحث:

⇐ من هو رب صاحبه السجن الذي طلب يوسف أن يذكره عنده؟
⇐ لماذا أنسى الشيطان صاحبه هذا أن يذكره عند ربه؟

- ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [يوسف: 42]

⇐ من هو الشخص الذي جاء يوسف في سجنه يحمل رؤيا الملك ويطلب الفتوى فيها؟
⇐ من هو رسول الملك الذي جاء ليخرج يوسف من السجن؟

- ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾ [يوسف: 50]

⇐ الخ.

باب صاحب يوسف الذي نجا

تعرضنا في أحد الأجزاء السابقة من هذا الكتاب إلى افتراء القول بأن صاحب يوسف الذي نجا من السجن هو من كان يعمل في بلاط الملك كوزير لجمع الضرائب، فهو الذي كان يقوم على عصر (أي جمع الخمر (أي الضرائب) من الأغنياء كأحد مداخيل الدولة الرئيسة، وقد كان هذا الشخص أمينا على أموال الدولة، وهو الذي ظننا أنه قد نجا من العقوبة لأنه لم يكن من المتآمرين على الملك، فلم يقم بتسريب المعلومة الخاصة بمراودة امرأة العزيز (وهي ابنت الملك نفسه) لفتاها عن نفسه لنسوة في المدينة (كما فعل صاحبه الآخر) حتى أصبح ذلك الخبر محط النميمة بينهن:

- ﴿۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ [يوسف: 30]

فما أن بدأت المحكمة تجمع البينات حتى كان قرارها ينصص على سجن يوسف إلى حين:

- ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾ [يوسف: 35]

واستمرت المحكمة بالانعقاد بحق صاحبيه السجن، فقضت المحكمة التي انعقدت بحق الثلاثة (يوسف وصاحبيه السجن) في نهاية التحقيقات إلى إثبات براءة الأول (أحدهما) وتثبيت التهمة بحق الآخر (صاحب يوسف الآخر في السجن)، وتعليق القرار بحق يوسف نفسه إلى أجل.

ولكن الملفت للانتباه أن يوسف قد طلب من صاحبه هذا الذي ثبتت براءته من التهمة المنسوبة إليه أن يذكره عند ربه متى ما خرج من السجن:

- ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [يوسف: 42]

ولكن الأمور جرت على نحو غير ما طلب يوسف، فما كان من صاحبه السجن هذا إلا أن ينسيه الشيطان أمر يوسف (فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ)، ومن هنا ننطلق لطرح التساؤلات الأولية التالية:

⇐ كيف بصاحب يوسف لا يذكر يوسف عند ربه؟
⇐ وكيف استطاع الشيطان أن ينسيه ذلك؟
⇐ وهل فعلا نسي صاحب يوسف ذكر يوسف عند ربه؟
⇐ ومن هو ربه هذا الذي طلب يوسف من صاحبه السجن أن يذكره عنده؟
⇐ لماذا طلب يوسف من صاحبه هذا الطلب أصلا؟
⇐ الخ.

افتراء من عند أنفسنا: من أجل محاولتنا الإجابة على هذه التساؤلات وجدنا أننا سنقحم أنفسنا بالافتراء الخطير التالي: كان رب صاحب يوسف الذي طلب يوسف منه أن يذكره عنده هو الملك نفسه. ولكن كيف حصل ذلك؟

تخيلات من عند أنفسنا

أولا، لقد افترينا سابقا أن صاحبي يوسف السجن كانا وزيري البلاط حينئذ (الوزير المشرف على جمع أموال الدولة والوزير المشرف على إنفاق أموال الدولة)، وكانا برفقة سيد المرأة التي راودت يوسف عن نفسه في بيتها، فظننا (مفترين القول من عند أنفسنا) بأن سيد المرأة الذي ألفياه لدى الباب كان أخوها ولي عهد الملك حينئذ وليس زوجها العزيز كما صورت ذلك معظم التفسيرات السابقة. فتخيلنا بأنهما كانا برفقته في تلك اللحظة، فكانا الاثنان فقط من علما بخبر مراودة امرأة العزيز لفتاها عن نفسه في بيتها، وكان ذلك بسبب تواجدهما في البلاط الملكي حينئذ.

ثانيا، وقد افترينا الظن أيضا بأن الملك (الأب) حينئذ كان رجلا طاعنا في السن (ربما راقدا على فراش الموت). فكان ولي عهده (سيد المرأة وهو ولد الملك لا زال شابا يافعا) هو من أخذ يتولى زمام الحكم في الدولة في نهاية فترة حكم والده. فكان هو السيد.

ثالثا، كما افترينا الظن بأن أحد الوزيرين كان يحاول التآمر على الملك للإطاحة به، وكانت واحدة من أوجه المؤامرة هو تسريب المعلومات السرية من داخل بلاط الملك كحادثة مراودة امرأة العزيز لفتاها عن نفسه وذلك بهدف المس بهيبة الملك والعائلة الحاكمة حينئذ. ولكن ولي عهد الملك (سيد المرأة) استطاع بحنكته وهدوءه ورباطة جأشه إفشال المؤامرة التي كانت تحاك ضد والده الملك. فعمد مع أخته (امرأة العزيز) إلى إيقاع تلك النسوة (اللواتي تحدثن بالخبر في المدينة) في الفخ عندما أخذن يراودن يوسف عن نفسه، فقطعن أيديهن كبيّنة واضحة على تورطهن في الأمر. عندها عمد هذا السيد (ولي عهد الملك) على الفور إلى الزج بكل من كان في القصر في السجن بمن فيهم يوسف نفسه ووزيري الملك. وكان هذا في (رأينا) سبب دخول الفتيان السجن مع يوسف

- ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٦﴾ [يوسف: 36]

وحصل ذلك كله (في ظننا) تحت قضية تسمى "المس بهيبة الملك والعائلة المالكة" على خلفية انتشار خبر مراودة امرأة العزيز لفتاها بين نسوة في المدينة. فطلب هذا السيد (ولي عهد الملك) من المحكمة الانعقاد على الفور للنظر في التهمة المنسوبة لهم جميعا، وما أن تبيّن للمحكمة أن الآخر هو من ثبتت بحقه جريمة التآمر على الملك حتى كان القرار القطعي للمحكمة هو أن يصلب ذاك الرجل فتأكل الطير من رأسه:

- ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ٤١﴾ [يوسف: 41]

وتبرئة الأول من التهمة المنسوبة إليه، وتعليق الحكم بحق يوسف إلى إشعار غير مسمى.

نتيجة: يتم تنفيذ حكم المحكمة ببراءة الأول وصلب الآخر.

يخرج هذا الرجل (صاحب يوسف الأول) من السجن، ويلبث يوسف في السجن بضع سنين.

لكن الذي يهمنا الآن هو ما كان يوسف قد طلبه من صاحبه هذا قبل خروجه من السجن وهو أن يذكره عند ربه:

- وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ ...

فما يكون منه إلا أن ينسيه الشيطان ما كان يوسف قد طلبه منه كما تنص على ذلك تكملة الآية الكريمة السابقة:

- ﴿... فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ۝٤٢﴾ [يوسف: 42]

السؤال مدار البحث في هذا الجزء من الكتاب هو: كيف استطاع الشيطان أن ينسي هذا الرجل ما طلبه منه يوسف قبل خروجه من السجن؟ فما الذي حصل فعلا على أرض الواقع؟

أما بعد،

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أنه في تلك الأثناء حدث انتقال في السلطة من الملك الأب (والد امرأة العزيز التي راودت يوسف عن نفسه في بيتها) إلى الملك الابن (الذي كان سيد امرأة العزيز عندما راودت يوسف عن نفسه في بيتها)، فانتقل نظام الحكم (نحن نتخيل) من الأب (الملك العجوز الذي توفته الملائكة بالموت) إلى الملك الشاب. وكان هذا الملك الجديد هو رب صاحب يوسف السجن عندما كان لازال سيدا (أي وليّا للعهد) والذي طلب يوسف من صاحبه أن يذكره عنده.

لذا نحن نتخيل أن يوسف قد طلب من صاحبه السجن أن يذكره عند ربه الذي كان حتى تلك الساعة وليّا للعهد (سيدا)، ولكن ما أن خرج صاحب يوسف من السجن حتى أصبح رب هذا الرجل هو الملك الفعلي للدولة، وهنا تبدأ الأمور تختلف بعض الشيء، وهذا (نحن نفتري الظن) السبب الرئيس الذي من خلاله استطاع الشيطان أن ينسي صاحب يوسف هذا أن يذكر يوسف عند ربه، ولكن كيف حصل ذلك؟

رأينا: لمّا كان رب هذا الرجل لازال وليّا للعهد، كان هناك ملك فعلي للدولة هو صاحب الكلمة الأولى والأخيرة في تسيير شؤون الدولة. وكان الحديث مع ولي العهد أمرا ممكنا ربما بسبب طبيعة العلاقة بينهما، فولي العهد هو ربه بصريح اللفظ على لسان يوسف:

- ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ۝٤٢﴾ [يوسف: 42]

ولكن الذي لا يمكن الشك فيه هو أنه في هذه الأثناء كان هناك في أرض مصر أربابٌ متفرقون كما جاء أيضا على لسان يوسف في حديثه مع صاحبيه السجن:

- ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٣٩﴾ [يوسف: 39]

ونحن نعتقد أن أولئك الأرباب كانوا أصحاب سلطة متفاوتة، فالملك هو ربٌ وهو صاحب السلطة الأعلى في الدولة، وولي العهد هو ربٌ (وصاحب السلطة الثانية)، وهكذا.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نعتقد أنه ما أن ارتقى هذا السيد إلى سدة الحكم وأصبح هو الملك الذي تأتمر البلاد كلها بأمره حتى أصبح هو ربهم الأول، فأصبح أمر مخاطبته والحديث معه أمرا مختلفا بعض الشيء.

وذلك على الأقل لسببين:

⇐ لن يكون هذا الرب الأول متوافرا في كثير من الأوقات، مادام أنه أصبح مسئولا عن الدولة بأكملها

⇐ أن الخطاب معه يتطلب الحذر الشديد، فهو الملك صاحب الأمر النافذ الآن، ومن هذه الزاوية (نحن نتخيل) بدأ الشيطان ينجح في مهمته بأن ينسي صاحب يوسف أن يذكر يوسف عن ربه الذي أصبح ملك البلاد. فكيف تم ذلك؟

يري الأخ المهندس محمد السيسي بعد قراءته لهذا الجزء من الكتاب قبل نشره أن النسيان هنا قد حصل من قبل يوسف نفسه، فيصور المشهد على النحو التالي:

"يوسف طلب من صاحب السجن الذي ظن انه ناج بأن يذكر مشكلته عند ربه (السيد الذي لم يكن الملك بعد) و ذلك لان هذا السيد كان شاهد عيان و محقق في حادثة امرأة العزيز ، و لما كان يوسف من قبل قد طلب هو من الله ان يدخله السجن (قال رب السجن احب الي) فقد خجل (استحى) من الله ان يطلب منه ان يخرجه من السجن بعد فترة قصيرة جدا ، و بهذا يكون قد وقع فعل (النسيان من يوسف نفسه) (فأنساه الشيطان ذكر ربه) اي ان الشيطان كان له سبيل على يوسف في انساءه ذكر ربه ، و هذا غير مستبعد ، فالشيطان وسوس لادم ، و ايضا يوسف قد هم بامرأة العزيز لولا البرهان ، فليس مستبعدا ان يكون الشيطان انساه ذكر ربه و هنا تعود العبارة (انساه الشيطان ذكر ربه) تعود على يوسف نفسه ، و لما استمر استحياء يوسف من ربه ان يطلب منه اخراجه من السجن بعد ان طلب منه ادخاله فيه و ايضا انساء الشيطان لذكره له ، لبث في السجن بضع سنين حتى جاء امر الله بسوق الرؤيا للملك التي كانت سببا في تبرأة يوسف و ايضا تمكينه في الارض" منقول

رأينا: بداية لابد من التأكيد بأن النسيان لا يعني ما يخطر على بال العامة من معاني للمفردة، فنحن نظن أن النسيان لا يعني بأي حال من الأحوال غياب المعلومة عن الذهن تماما، وذلك لأن الله نفسه ينسى. انظر – عزيزي القارئ الكريم- الآية الكريمة التالية قبل أن تستشيط غضبا:

- ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [التوبة: 67]

ولا شك عندنا أن القرآن الكريم يثبت إمكانية أن ينسى الإنسان نفسه:

- ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الحشر: 19]

السؤال: هل يمكن أن تغيب المعلومة عن الإله الذي نسيهم عندما نسوه (نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ)؟ وهل يمكن أن ينسى الإنسان نفسه (فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ) إذا كان معنى النسيان هو غياب المعلومة التام من الذاكرة؟

جواب: كلا وألف كلا، لأن النسيان (نحن نظن) هو فعل مقصود لذاته، فالإنسان ينسى لأنه يريد أن ينسى، والله نفسه ينسى لأن ذلك كان قراره:

- ﴿ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [التوبة: 67]

السؤال: ما هو النسيان إذن؟

جواب: نحن نفتري الظن بأن النسيان هو "تجاهل الأمر أو الموقف عن قصد" (أو هو "التطنيش" بلغتنا الأردنية الدارجة). فأنا قد أنساك إذا أردت ذلك ويكون ذلك بأن "أطنشك". فيكون النسيان عندها قرار نابع من تلقاء نفسي ولا يعني ذلك أنك غير حاضر في بالي (أي في الذاكرة) تماما. فأنا أنساك عندما تكون موجودا في ذاكرتي، وهذا ما سيحصل يوم القيامة مع من أراد الله نسيانهم:

- ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الجاثية: 34]

فهؤلاء النفر من الناس لم ينسوا اليوم الآخر بمعنى أنه كان يغيب تماما من ذاكرتهم، ولكنهم نسوه (نحن نظن) لأنهم اختاروا أن يتجاهلوه "تطنيشه" عن قصد كلما ورد خبره في ذاكرتهم، فكان فعل النسيان عندهم مقصودا لذاته، وكذلك كان القرار الإلهي بحقهم وهو نسيانهم (ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ).

السؤال المعكوس: ما معنى غياب المعلومة تماما من الذاكرة؟ أو كيف جاء اللفظ القرآني بخصوص من غابت المعلومة تماما من باله (فلم تعد موجودة في ذاكرته)؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: إنها الغفلة:

- ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [مريم: 39]
- ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَـٰخِصَةٌ أَبْصَـٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا بَلْ كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأنبياء: 97]
- ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ [ق: 22]

- ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ١٧٢﴾ [الأعراف: 172]
- ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ٢٠٥﴾ [الأعراف: 205]
- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ١٧﴾ [المؤمنون: 17]

نتيجة مفتراة: نحن نظن أن صاحب يوسف السجن لم يغفل عن يوسف، ولكنه نسي يوسف بتحريض من الشيطان. لذا فإننا نعتقد أن صورة يوسف في السجن لم تفارق مخيلته يوما منذ أن خرج من السجن حتى لحظة إدكاره بعد أمة يوم أن طلب الملك تأويل رؤياه.

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ٤٥﴾ [يوسف: 45]

نتيجة مهمة سنحتاج إليها لاحقا: لاحظ أن صاحب يوسف قد ادكر (ولكنه لم يتذكر). فنحن نظن أنه لو كان صاحب يوسف في غفلة عن يوسف لكانت حادثة رؤية الملك سببا لأن يتذكر (بالذال)، ولكن لما كان صاحب يوسف ناسيا (مطنش) كانت حادثة رؤية الملك سببا له لأن يدكر (بالدال).

كما في الشكل التالي:

نسيان	غفلة
إدكار (إدكر)	تذكر (تذكر)

هنا يجب التنبيه على عدم الخلط بين التذكر والذكر، فيوسف طلب من صاحبه السجن أن يذكره (أي يقص خبره) فما كان من صحبه إلا أن ينسى (فلم يقص خبره)، ولكن هذا لا يعني أن صاحب يوسف لم يكن يتذكر يوسف.

السؤال مرة أخرى: كيف استطاع الشيطان أن ينسي صاحب يوسف أن يذكر يوسف عند ربه؟ فكيف حصل ذلك مادام أن خبر يوسف لم يغيب عن باله كما نزعم؟

جواب مفترى: نحن نظن أن صاحب يوسف قد تذكر يوسف على الدوام ولكنه اختار (بتحريض من الشيطان) أن لا يذكر يوسف عند ربه. السؤال لماذا؟

جواب: نحن نظن أن السبب في ذلك يكمن على الأقل في أمرين اثنين:

⇐ لم تتح لهذا الرجل الفرصة المناسبة أن يذكر يوسف عند ربه
⇐ خاف هذا الرجل (بتحريض من الشيطان) أن يذكر يوسف عند ربه

- ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران: 175]

نتيجة مفتراة: نحن نظن أن الشيطان كان يخوِّف صاحب يوسف من أن يذكره عند ربه.

فكيف حصل ذلك؟

تخيلات من عند أنفسنا: ما أن خرج صاحب يوسف من السجن حتى وجد نفسه في موقف لا يحسد عليه، وهو أن المحكمة قد أجلّت النظر في قضية يوسف بالتحديد، وأن ربه الذي كان وليا للعهد (سيدا) قد أصبح الآن ملكا. لذا أصبحت الفرصة متاحة له بشكل أقل أن يتحدث مع من كان ربه (الملك الجديد) بهذا الشأن، فالملك الآن منشغل بأمور الدولة الكبرى، ومن غير المنطقي أن يعمد إلى أن يشغله بمثل هذه القضايا الجانبية هذا إن سنحت الفرصة بذلك أصلا، وأظن أن صاحب يوسف لم يرق إلى أن يكون الملك الجديد هو ربه، وسنرى لاحقا (بحول الله وتوفيق منه) بأنه لم يكن ضمن ملأ الملك الجديد، فبقي يقبع في الدائرة الثانية من الحكم ولم يرتقي إلى الدائرة الأولى من الحكم (وهي ملأ الملك نفسه).

كما نظن مفترين القول من عند أنفسنا أن السبب الأكبر هو أن هذا الرجل كان يخشى (بتحريض من الشيطان) أن يفعل ذلك، ربما (نحن نظن) خوفا من أن يظن الملك الجديد أن في تصرفه هذا نوع من أنواع الفساد في الدولة. فيوسف في السجن بقرار من المحكمة، والتشفع له ربما يفهم على أنه تدخل في استقلالية القضاء. وكان خوفه (نحن نعتقد) نابعا بأن يرتبط اسمه باسم يوسف السجين. فسكت الرجل عن فعل ذلك بالرغم أنه كان متذكرا لقضية يوسف على الدوام، فجاء تخويف الشيطان له من هذا الباب. وما أتيحت له الفرصة إلا عندما طلب الملك بنفسه المساعدة في تأويل رؤياه، عندها حصل أمر غريب جدا وهو أن هذا الرجل قد ادّكر:

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾ [يوسف: 45]

فالادّكار هو – كما افترينا القول في مقالات سابقة لنا- الوصول إلى المعلومة بطريقة سريعة بسبب حادث ما، وانتهاز الفرصة فيها.

- ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر: 17]

فأنت تصل إلى معلومة ما في كتاب الله بسبب أن معلومة أخرى قد أدت إلى تذكيرك بالمعلومة السابقة لتستفيد منها. فالحديث هنا مثلا عن نسيان صاحب يوسف في الآية قيد البحث هنا:

- ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [يوسف: 42]

هي التي جلبت معها الادكار بأن الله نفسه ينسى:

- ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [التوبة: 67]

إن مراد القول هو أن الرجل (صاحب يوسف) قد ادّكر لأنه كان ناسيا ولم يكن غافلا، ولو أنه كان غافلا لتذكر تذكرا. والسبب في أن الرجل قد ادكر (ولم يتذكر) هو لأن الفرصة الآن أصبحت مواتية لأن يذكر يوسف عند ربه مادام أن الملك قد طلب تأويل رؤياه بنفسه، وهو الآن يعلم أن الشخص الوحيد القادر على ذلك هو صاحبه القديم في السجن: يوسف.

أما الدليل الأكبر الذي نظن أنه ربما يسوّغ افتراءاتنا هذه هو المشاهدة التالية من الآية الكريمة نفسها:

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾ [يوسف: 45]

المشاهدة: لاحظ - عزيزي القارئ- أن صاحب يوسف هنا يخاطب من حوله بصيغة الجمع (أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ)، أليس كذلك؟

السؤال: إلى من كان يوجه صاحب يوسف خطابه هذا في تلك اللحظة؟

رأينا: إلى من حوله؟

السؤال: ومن هم؟

جواب مفترى: نحن نظن أنه من الاستحالة بمكان أن يحصل ذلك بحضور الملك؟ فلو كان الملك موجودا لما تم توجيه الخطاب لمجموع من حوله.

الرأي المعاكس: قد يرد البعض على الفور بالقول بأن خطابه كان موجها إلى الملك بصيغة الجمع ليدل على الاحترام (أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ).

رأينا: نحن ننكر – كما فعلنا في أكثر من مقالة سابقة- هذه القضية جملة وتفصيلا، فالخطاب بصيغة الجمع للمفرد من أجل التعظيم هذه – برأينا- غير واردة في النص القرآني، ولينظر من أراد المجادلة – كما ذكرني المهندس محمد السيسي- في حوارات إبراهيم مع الملك وموسى مع فرعون وغيرهم حيث يخلو الخطاب من صيغة الجمع المزعومة. وذلك لأن الأحق بالتعظيم هو الله، ولو كان هذا مقبولا لكان الأحق بنا أن نعظم الله نفسه كأن نقول مثلا:

أنتم يا الله

أسألكم يا الله

رب أنتم...

الخ.

(للتفصيل انظر مقالاتنا تحت عنوان: جدلية المجاز والحقيقة، ومصادر التشريع في الإسلام)

وربما يؤكد ظننا بأن صاحب يوسف هذا لم يكن يخاطب الملك بصيغة الجمع وأنه لم يكن أصلا حاضرا المجلس عندما طلب الملك من الملأ حوله تأويل رؤياه هو ما قاله الرجل بنفسه ليوسف يوم أن جاءه السجن:

- ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٞ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٤٦﴾ [يوسف: 46]

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أنه لو كان صاحب يوسف حاضرا المجلس، ولو أن الملك هو من أرسله شخصيا ليأتيه بتأويل رؤياه من عند يوسف لربما قال الرجل حينها شيئا كهذا:

لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى الملك

تساؤلات:

⇐ كيف يمكن لهذا الرجل أن يتحدث لمن حوله أنه قادر على أن ينبئهم بتأويل رؤيا الملك والملك موجود (أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم)؟!

⇐ وكيف يطلب منهم (بصيغة الجمع) أن يرسلوه (فَأَرْسِلُونِ)؟

⇐ وكيف يطلب من يوسف تأويل الرؤيا لعل الناس يعلمون (لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ)؟

⇐ فكيف به إذن لا يذكر الملك إطلاقا على لسانه؟

⇐ فهل يعقل أن يكون الملك هو من بعثه ليأتيه بالتأويل فيشير في خطابه إلى الناس ولا يأتي على ذكر الملك إطلاقا؟

⇐ وهل من المنطقي أن يكون ذلك الرجل حاضرا مجلس الملك حينها وأن الملك هو من بعثه ليأتيه بالتأويل ولا يأتي على ذكر ذلك ليوسف؟ من يدري؟!!!

⇐ الخ.

رأينا المفترى: نحن نظن أننا نتجرأ على تقديم الافتراءات التالية التي هي من عند أنفسنا:

⇐ صاحب يوسف لم يكن حاضرا مجلس الملك حينها
⇐ الملك لم يكن هو من بعث هذا الرجل إلى يوسف ليأتيه من عنده بتأويل رؤياه
⇐ صاحب يوسف لم يرجع إلى الملك بالخبر مباشرة من عند يوسف ولكنه رجع إلى من أرسله فكيف حصل كل ذلك؟

تخيلات من عند أنفسنا: نحن نتخيل أن الذي حصل كان على النحو التالي: يرى الملك تلك الرؤيا الشهيرة:

- وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ...

فيطلب من الملأ من حوله أن يفتوه في رؤياه:

- ﴿... يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [يوسف: 43]

فلم يجد بينهم من يستطيع ذلك، لا بل وينعتوا رؤيا الملك على أنها من باب أضغاث الأحلام:

- ﴿قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [يوسف: 44]

نتيجة: لقد أجمع الملأ من حول الملك على أن ما رءاه يقع في باب أضغاث الأحلام بعد أن عجزوا عن القيام بذلك. لذا نحن نتجرأ على القول بأن صاحب يوسف هذا لم يكن من بين الملأ الذين أخبرهم الملك برؤياه وإلا فكيف به سيجمع الأمر مع الملأ على أن هذا من باب أضغاث الأحلام ثم به يعود من ساعته ليتبرع بأن يأتيهم بتأويله؟ من يدري؟!!!

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾ [يوسف: 45]

رأينا: نحن نظن أنه من الاستحالة بمكان أن يكون صاحب يوسف من بين ملأ الملك الذين سمعوا خبر الرؤيا مباشرة من الملك، وإلا لما نعت ذلك (كما فعل ملأ الملك) على أنه من باب أضغاث الأحلام ولما عاد ليتبرع بأن يأتيهم بتأويل الرؤيا.

الدليل: بَعْدَ أُمَّةٍ

نحن نجد الدليل على ذلك في الآية الكريمة نفسها في عبارة (بَعْدَ أُمَّةٍ):

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾ [يوسف: 45]

الرأي السائد: غالبا ما سوق أهل العلم للناس الفكرة هذه العبارة (بَعْدَ أُمَّةٍ) على أنها تدل على فترة زمنية، أي بمعنى بعد فترة من الزمن. انظر ما جاء في الطبري أولا:

القول في تأويل قوله تعالى: { وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون } . يقول تعالى ذكره : وقال الذي نجا من القتل من صاحبي السجن اللذين استعبرا يوسف الرؤيا { وادكر } يقول : وتذكر ما كان نسي من أمر يوسف , وذكر حاجته للملك التي كان سأله عند تعبيره رؤياه أن يذكرها له بقوله : { اذكرني عند ربك } { بعد أمة } يعني بعد حين . كالذي : 14796 - حدثنا محمد بن بشار , قال : ثنا عبد الرحمن , قال : ثنا سفيان , عن عاصم , عن أبي رزين , عن ابن عباس : { وادكر بعد أمة } قال : بعد حين - حدثنا أبو كريب , قال : ثنا وكيع ; وحدثنا ابن وكيع , قال : ثنا أبي , عن سفيان , عن عاصم , عن أبي رزين , عن ابن عباس , مثله . - حدثنا الحسن بن يحيى , قال : أخبرنا عبد الرزاق , قال : أخبرنا الثوري , عن عاصم , عن أبي رزين , عن ابن عباس , مثله . 14797 - حدثنا أبو كريب , قال : ثنا أبو بكر بن عياش : { وادكر بعد أمة } : بعد حين 14798 - حدثنا الحسن بن محمد , قال : ثنا عمرو بن محمد , قال : أخبرنا سفيان , عن عاصم , عن أبي رزين قال : { وادكر بعد أمة } قال : بعد حين - حدثني المثنى , قال : ثنا أبو نعيم , قال : ثنا سفيان , عن عاصم , عن أبي رزين , عن ابن عباس مثله . - قال : ثنا عبد الله بن صالح , قال : ثني معاوية , عن علي , عن ابن عباس , قوله : { وادكر بعد أمة } يقول : بعد حين - حدثني محمد بن سعد , قال : ثني أبي , قال : ثني عمي , قال : ثني أبي , عن أبيه , عن ابن عباس : { وادكر بعد أمة } قال : ذكر بعد حين 14799 - حدثنا بشر , قال : ثنا يزيد , قال : ثنا سعيد , عن قتادة , عن الحسن : { وادكر بعد أمة } بعد حين - حدثنا محمد بن عبد الأعلى , قال : ثنا محمد بن ثور , عن معمر , عن قتادة , عن الحسن , مثله . - حدثنا الحسن بن محمد , قال : ثنا عفان , قال : ثنا يزيد بن زريع , قال : ثنا سعيد بن أبي عروبة , عن قتادة , عن الحسن , مثله . 14800 - حدثني المثنى , قال : ثنا أبو حذيفة , قال : ثنا شبل , عن ابن أبي نجيح , عن مجاهد : { وادكر بعد أمة } : بعد حين 14801 - حدثنا الحسن بن محمد , قال : ثنا حجاج , عن ابن جريج , قال : قال ابن كثير { بعد أمة } : بعد حين . قال ابن جريج , وقال ابن عباس : { بعد أمة } قال : بعد سنين 14802 - حدثنا ابن وكيع , قال : ثنا عمرو بن محمد , عن أسباط , عن السدي : { وادكر بعد أمة } قال : بعد حين 14803 - حدثني المثنى , قال : ثنا الحماني , قال : ثنا شريك , عن سماك , عن عكرمة : { وادكر بعد أمة } أي بعد حقبة من الدهر وهذا التأويل على قراءة من قرأ : { بعد أمة } بضم الألف وتشديد الميم , وهي قراءة القراء في أمصار الإسلام . وقد روي عن جماعة من المتقدمين أنهم قرءوا ذلك : " بعد أمه " بفتح الألف وتخفيف الميم وفتحها بمعنى بعد نسيان . وذكر بعضهم أن العرب تقول من ذلك : أمه الرجل يأمه أمها : إذا نسي , وكذلك تأوله من قرأ ذلك كذلك . ذكر من قال ذلك : 14804 - حدثنا الحسن بن محمد , قال : ثنا عفان , قال : ثنا همام , عن قتادة , عن عكرمة , عن ابن عباس , أنه كان يقرأ : " بعد

أمه " ويفسرها : بعد نسيان - حدثنا ابن حميد , قال : ثنا بهز بن أسد , عن همام , عن قتادة , عن عكرمة , عن ابن عباس أنه قرأ : " بعد أمه " يقول : بعد نسيان 14805 - حدثني أبو غسان مالك بن الخليل اليحمدي , قال : ثنا ابن أبي عدي , عن أبي هارون الغنوي , عن عكرمة أنه قرأ : " بعد أمه " والأمه : النسيان - حدثني يعقوب وابن وكيع , قالا : ثنا ابن علية , قال : ثنا أبو هارون الغنوي , عن عكرمة , مثله . - حدثنا الحسن بن محمد , قال : ثنا عبد الوهاب , قال : قال هارون , وثني أبو هارون الغنوي , عن عكرمة : " بعد أمه " : بعد نسيان - قال : ثنا عبد الوهاب , عن سعيد , عن قتادة , عن عكرمة : " وادكر بعد أمة " : بعد نسيان - حدثنا بشر , قال : ثنا يزيد , قال : ثنا سعيد , عن قتادة , عن ابن عباس : أي بعد نسيان 14806 - حدثنا محمد بن عبد الأعلى , قال : ثنا محمد بن ثور , عن معمر , عن قتادة : " وادكر بعد أمة " قال : من بعد نسيانه 14807 - حدثني المثنى , قال : ثنا أبو النعمان عارم , قال : ثنا حماد بن زيد , عن عبد الكريم أبي أمية المعلم , عن مجاهد , أنه قرأ : " وادكر بعد أمة " 14808 - حدثنا ابن وكيع , قال : ثنا عمرو بن محمد , عن أبي مرزوق , عن جويبر , عن الضحاك : { وادكر بعد أمة } قال : بعد نسيان - حدثت عن الحسين بن الفرج , قال : سمعت أبا معاذ يقول : ثنا عبيد بن سليمان , قال : سمعت الضحاك يقول في قوله : " وادكر بعد أمة " يقول : بعد نسيان وقد ذكر فيها قراءة ثالثة , وهي ما : 14809 - حدثني به المثنى , قال : أخبرنا إسحاق , قال : ثنا عبد الله بن الزبير , عن سفيان , عن حميد , قال : قرأ مجاهد : " وادكر بعد أمه " مجزومة الميم مخففة وكأن قارئ ذلك كذلك أراد به المصدر من قولهم : أمه يأمه أمها , وتأويل هذه القراءة , نظير تأويل من فتح الألف والميم . وقوله : { أنا أنبئكم بتأويله } يقول : أنا أخبركم بتأويله . { فأرسلون } يقول : فأطلقوني أمضي لآتيكم بتأويله من عند العالم به . وفي الكلام محذوف قد ترك ذكره استغناء بما ظهر عما ترك وذلك : فأرسلوه فأتى يوسف , فقال له : يا يوسف يا أيها الصديق . كما : 14810 - حدثنا ابن حميد , قال : ثنا سلمة , عن ابن إسحاق قال : { قال الملك } للملإ حوله : { إني أرى سبع بقرات سمان } الآية , وقالوا له ما قال , وسمع " نبو " من ذلك ما سمع ومسألته عن تأويلها ; ذكر يوسف وما كان عبر له ولصاحبه وما جاء من ذلك على ما قال من قوله , قال : { أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون } يقول الله تعالى : { وادكر بعد أمة } : أي حقبة من الدهر , فأتاه فقال : يا يوسف إن الملك قد رأى كذا وكذا ! فقص عليه الرؤيا , فقال فيها يوسف ما ذكر الله تعالى لنا في الكتاب فجاءهم مثل فلق الصبح تأويلها , فخرج نبو من عند يوسف بما أفتاهم به من تأويل رؤيا الملك , وأخبره بما قال وقيل : إن الذي نجا منهما إنما قال : أرسلوني ; لأن السجن لم يكن في المدينة . ذكر من قال ذلك : 14811 - حدثنا ابن وكيع , قال : ثنا عمرو بن محمد , عن أسباط , عن السدي : { وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون } قال ابن عباس : لم يكن السجن في المدينة , فانطلق الساقي إلى يوسف , فقال : { أفتنا في سبع بقرات سمان

لو تدبرت عزيز القارئ أقوال سادتنا العلماء أهل الدراية الذين جاء ذكرهم في هذا التفسير العظيم لوجدت أنهم انقسموا حول عبارة (وادكر بعد أمة) إلى رأيين:

⇐ قال بعضهم أنها تعني بعد فترة أو حقبة من الزمن (أي بعد حين)
⇐ وقال الآخرون أنها تعني بعد نسيان

وإذ لا نريد الدخول في الأدلة التي قد تفند ما قاله سادتنا العلماء إلا أننا نريد أن نقدم رأيا مخالفا لهم جميعا ونترك للقارئ الكريم الحكم بنفسه

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن بأن عبارة (وادكر بعد أمة) التي جاءت في الآية الكريمة في قصة يوسف هذه تعني أن صاحب يوسف لم يتقدم ليبدي براية إلا بعد أن فعل هذا الكثيرون قبله. فالرجل لم يتبرع بتقديم الحل إلا بعد أن حاول الكثيرون من قبله لأن عبارة الأمة في النص القرآني تعني مجموعة من الناس (بمعناها الدقيق):

- ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨﴾ [البقرة: 128]
- ﴿تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٣٤﴾ [البقرة: 134]
- ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٤٣﴾ [البقرة: 143]
- ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ٢١٣﴾ [البقرة: 213]
- ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٤﴾ [آل عمران: 104]
- ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١١٠﴾ [آل عمران: 110]
- ﴿۞ لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ١١٣﴾ [آل عمران: 113]
- ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ٤١﴾ [النساء: 41]
- ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ مِّنۡهُمۡ أُمَّةٞ مُّقۡتَصِدَةٞۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ سَآءَ مَا يَعۡمَلُونَ ٦٦﴾ [المائدة: 66]
- ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٠٨﴾ [الأنعام: 108]
- ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٣٤﴾ [الأعراف: 34]

- ﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٞ لَّعَنَتْ أُخْتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابٗا ضِعْفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعْفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ٣٨﴾ [الأعراف: 38]
- ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ١٥٩﴾ [الأعراف: 159]
- ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٞ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ١٦٤﴾ [الأعراف: 164]
- ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٞ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ١٨١﴾ [الأعراف: 181]
- ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَٱخْتَلَفُواْۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ١٩﴾ [يونس: 19]
- ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ٤٧﴾ [يوسف: 47]
- ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ١١٨﴾ [هود: 118]
- ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ٣٠﴾ [الرعد: 30]
- ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٖ مَّعْدُودَةٖ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ٨﴾ [هود: 8]
- ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ٥﴾ [الحجر: 5]
- ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٣٦﴾ [النحل: 36]
- ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ٨٤﴾ [النحل: 84]
- ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيْءٖ وَهُدٗى وَرَحْمَةٗ وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ٨٩﴾ [النحل: 89]
- ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلَۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ٩٢﴾ [النحل: 92]
- ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٩٣﴾ [النحل: 93]
- ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٢٠﴾ [النحل: 120]
- ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ٩٢﴾ [الأنبياء: 92]

- ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الحج: 34]
- ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ ۚ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾ [الحج: 67]
- ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [المؤمنون: 43]
- ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَىٰ ۖ كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المؤمنون: 44]
- ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ [المؤمنون: 52]
- ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [النمل: 83]
- ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القصص: 23]
- ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [القصص: 75]
- ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر: 24]
- ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾﴾ [غافر: 5]
- ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ۚ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾﴾ [الشورى: 8]
- ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الزخرف: 22]
- ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف: 23]
- ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الزخرف: 33]
- ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الجاثية: 28]

السؤال: كم مرة إذن وردت مفردة الأمة في كتاب الله؟ هل جاءت بمعنى الفترة الزمنية أم بمعنى مجموعة من الناس؟

رأينا: نحن نظن أن مفردة الأمة لا تعني إلا المجموعة من الناس الذين يجتمعون معا على أمر ما.

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن صاحب يوسف قد ادكر بعد أمة لأنه لم يكن أول من تبرع بإيجاد التأويل لرؤيا الملك، فقد فعل قبله الكثيرون وفشلوا في التوصل إلى الحل الأمثل لتأويل تلك الرؤيا. وما جاء إدكار هذا الرجل إلا بعد أن فعل ذلك قبله أمة من الناس.

السؤال: كيف حصل الأمر إذن؟

تخيلات من عند أنفسنا: نحن نظن أن الملك قام بإخبار ملئه بالرؤيا، ولم يكن صاحب يوسف هذا (طليق السجن) من بين الملأ حينئذ. فانفضّ مجلس الملك بما قاله الملأ لهم:

- ﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ٤٤﴾ [يوسف: 44]

ولكن الخبر لم يتوقف عند انتهاء اجتماع الملك بملئه في ساعته، فقد أخذ الملأ (وهم الدائرة الأولى من حول الملك) رؤيا الملك (الرب الأول) وخرجوا بها من عنده، ولم يكف البعض منهم عن البحث عن إجابة لها علّ ذلك يجلب له بعض الخير عند الملك. فمن سيستطيع أن يحل مشكلة تؤرق الملك نفسه؟ ألن يكون ذا شأن عنده؟ لعلي أظن أن هذا ما كان يدور في ذهن الكثير منهم وهو يخرجون من مجلس الملك.

ولما كان الملأ من حول الملك هم أرباب متفرقون على من هم تحتهم، وهكذا. يأخذ هؤلاء بالبحث عن حل لمشكلة الملك في دوائرهم، وهنا تأتي المفاجأة الكبرى في الحلقة الثانية من دوائر الحكم (الأرباب المتفرقون)، فهنا (نحن نفتري الظن) كان صاحب يوسف السجن متواجدا. فيخبر من حوله بأنه قادر على أن ينبئهم بتأويله (الضمير الغائب الذي يعود على رؤيا الملك)، وما عليهم إلا أن يرسلوه.

السؤال: إلى أين سيرسلونه؟

جواب: إلى السجن حيث يقبع يوسف.

السؤال: لماذا يطلب منهم أن يرسلوه؟ لِم لم يذهب لوحده؟

جواب: إنه يحتاج إلى الإذن لكي يستطيع الدخول عند يوسف في السجن وسؤاله.

افتراء من عند أنفسنا: نحن نتخيل أنه لو كان صاحب يوسف ذا سلطة حينها تمكنه من دخول السجن وسؤال يوسف لما طلب (نحن نظن) ممن حوله أن يرسلوه ولربما ذهب لوحده، ولكن لمّا لم يكن هذا الرجل (نحن نتخيل) ذا سلطة تمكنه حينها من دخول السجن والحديث مع يوسف طلب ممن حوله أن يرسلوه لكي يأتيهم بتأويل الرؤيا:

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ٤٥﴾ [يوسف: 45]

السؤال: لماذا حصلت الأمور على هذه الشاكلة؟

جواب مفترى: ليحتفظ يوسف بحقوق الملكية الفكرية في التأويل، فلا يستطيع أحد أن ينسب لنفسه الفضل في تأويل رؤيا الملك، ولكن كيف ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن أنه لو أن أحدا من الملأ قام بذلك مباشرة لربما جاء بالخبر من عند يوسف ونسب ذلك الفضل بعد ذلك إلى نفسه، ولربما استطاع أن يتكتم على يوسف وإلى الأبد لكي ينسب الفضل في ذلك لنفسه كما يفعل ملأ السلطان في العادة. فعندما يحصل بعضهم على معلومة بطريقة ما غالبا ما يتكتم على مصدرها إن هو استطاع إلى ذلك سبيلا، فلا يتردد بأن ينسبها لنفسه مادام أن أحدا لا يستطيع إثبات ملكيتها الفكرية. ولكن لمّا أصبح الخبر يشترك فيه كثير من الناس، لم يعد ممكنا سلب صاحب الفكرة (وهو يوسف) حقوقه الملكية الفكرية، وذلك لأنه أصبح لزاما أن يشيع بين الناس من هو صاحب الفضل الحقيقي في ذلك. فلو قام أحدهم فنسب الفكرة إلى نفسه، لقام الآخرون بالتصدي له. فملأ الملك مثلا لا يعلمون أن هناك شخص في السجن يستطيع تأويل الرؤيا، وصاحب يوسف نفسه لا يستطيع الدخول إلى السجن والتحدث معه إلا بإذن منهم، عندها أصبح إرجاع حق الملكية الفكرية إلى صاحبه الحقيقي أمرا لا مفر منه.

نتيجة: لا يستطيع أحد من الملأ أن ينسب الفضل في تفسير رؤيا الملك لنفسه، ولا صاحب يوسف أن يدعي ذلك دون الدخول إلى السجن بأمر من الملأ، فما استطاع أحد أن يسرق حق الملكية الفكرية الحصرية ليوسف صاحب التأويل.

خروج عن النص في استراحة قصيرة:

ألم يعمد الكثيرون من "ملأ السلطان" إلى سرقة "عقول" الآخرين مادام أن محطات التلفزة ومنصات الإعلام المختلفة لا تُسْمِع الناسَ إلا صوتَهم. فكم ممن جلسوا على كرسي الإدارة (ربما دون وجه حق) قد سرق الأفكار ممن هم حوله من المستضعفين في الأرض ليخرج على الناس متغنيا بأن هذا نتاج جهده الذهني الخارق!!! ألم يفعل ذلك حتى صغار القوم الذين يجدون المعلومة في مصدر ما ثم ما يترددون أن ينقلوها للناس على أنها من بنات أفكارهم؟ فأبحث عزيزي القارئ في الشبكة العنكبوتية وخاصة عند أهل الدين في منتديات التواصل الاجتماعي وانظر في الأفكار التي أصبحت مثار بحث والأسئلة التي غدت تطرح ثم انظر هل تجد أحد ينسب هذه الأفكار وهذه الأسئلة إلى أصحابها الحقيقيين؟ من يدري!!!

إن أبسط ما يمكن أن نقوله لكل هؤلاء "اللصوص" هو أنكم إن استطعتم أن تخدعوا العباد في ذلك فلن تستطيعوا أن تخدعوا رب العباد لأنه هو من يعرف الدافع الحقيقي لثمن الأضحية التي ذبحتموها على الملأ باسمكم الموقر وأنتم الذين لم تدفعوا فلسا واحدا من ثمنها. فإن كنتم أخذتم الأجر من الناس، فإن المالك الحقيقي هو من ينتظر ليأخذ الأجر من رب الناس. وأنا مالي، هو في حدا سرق مني إشي، من يدري!!!

إن ما يهمنا قوله هنا بخصوص قصة يوسف هو أن صاحب يوسف السجن لم يكن من ضمن الدائرة الأولى حول الملك، فهو لم يكن من ملأ الملك، فلم يكن الملك هو ربه المباشر. ولكنه كان من ضمن الدوائر

الأخرى التي تأتي بعد الملك، فكان ربه الآن من بين الأرباب المتفرقون (الملأ) كما ذكرهم يوسف بنفسه عندما كانوا لازالوا يقبعون في السجن جميعا:

- ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩﴾ [يوسف: 39]

فالرجل (نحن نظن) لم يكن يستطيع الوصول إلى يوسف في السجن إلا بعد أن يُعطى الإذن بذلك ممن هم من حوله. ولما أُذن له، ذهب بالفعل إلى يوسف وقصّ عليه خبر رؤيا الملك ليعود بالخبر اليقين من عنده، لينتهي ذلك إلى علم الناس جميعا حينئذ:

- ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٤٦﴾ [يوسف: 46]

وبالفعل رجع صاحب يوسف إلى الناس (وليس إلى الملك)، فعلم الناس التأويل الحقيقي لخبر الرؤيا التي اجتاحت المملكة بأسرها وعجز عن تأويلها ملأ الملك جميعا. ولعلي أجزم أن السؤال الذي كان يتردد حينها على لسان الناس جميعا (بمن فيهم الملك والملأ أنفسهم) هو: من صاحب هذا التأويل؟ أي من الذي استطاع القيام بذلك؟

جواب مفترى: نحن نظن أنه لم يكن ليجرؤ أحدٌ من "لصوص الأفكار" (بغض النظر عن منصبه ومكانته) أن ينسب الفضل في ذلك لنفسه أو لمن يريد. فلهجت ألسن الناس جميعا باسم شخص واحد هو صاحب حق "الملكية الفكرية" في التأويل وهو ذاك السجين الذي يقبع في السجن منذ سنين:

- ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ٤٢﴾ [يوسف: 42]

فكانت ردة فعل الملك حينها على النحو التالي:

- وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ...

نعم، لقد طلب الملك بنفسه أن يؤتوه به على الفور، فبعث رسوله (وليس صاحب يوسف نفسه) ليحضر يوسف إلى بلاط الملك:

- ... فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ...

فما كان من يوسف إلا أن يتمنّع عن الحضور، راهنا حضوره مجلس الملك بتبرئته من التهمة المنسوبة إليه والتي كلفته بضع سنين في السجن بالإضافة إلى سمعته التي لوّثتها أكاذيب المتربصين به:

- ﴿... قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ۝٥٠﴾ [يوسف: 50]

ولو دققنا في النص جيدا لوجدنا أن هناك دليلا ربما يصدق ظننا هذا وهو أن الذي بعثه الملك لإحضار يوسف إلى بلاطه لم يكن صاحبه السجن الذي جاء يوسف يطلب منه تأويل الرؤيا ورجع إلى الناس بها. انظر الآية الكريمة مرة أخرى:

- ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ۝٥٠﴾ [يوسف: 50]

نحن نظن أن صاحب يوسف هذا لم يعد من المقربين من الملك بعد خروجه من السجن وذلك لأنه عاد بتأويل الرؤيا من عند يوسف إلى الناس وليس إلى ربه:

- ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ۝٤٦﴾ [يوسف: 46]

فلو كان هذا الرجل (نحن نظن) مقربا من الملك حينها لعاد بها مباشرة إلى الملك.

فالذي جاء يوسف ليحضره إلى بلاط الملك هو "الرسول"، فطلب منه يوسف أن يرجع إلى ربه وهو الملك نفسه (قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ) ليسأله عن النسوة اللاتي قطّعن أيديهن (فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ)، محملا رسول الملك رسالة واضحة جدا للملك نفسه وهي (إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ).

السؤال المهم جدا جدا: لماذا طلب يوسف من الملك تحري أمر النسوة اللاتي قطعن أيدهن مخبرا إياه في الوقت ذاته بأن ذلك كان من باب كيدهن (إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ)، انظر عزيزي القارئ الآية الكريمة جيدا:

- ﴿... قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ۝٥٠﴾ [يوسف: 50]

السؤال: كيف بيوسف أن يخبر الملك بأن ذاك كان من باب كيد النسوة والملك لم يبدأ التحقيق بالأمر بعد؟ لم لم يترك الأمر للملك ليتوصل إلى هذه النتيجة بنفسه؟ ولم استخدم هذه العبارة (إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ) على وجه التحديد؟

جواب مفترى مهم جدا جدا: دعنا نسترجع شريط المعلومات إلى الوراء لننظر من قال هذه العبارة في السابق. أليس سيد المرأة الذي ألفياه لدى الباب هو من قال هذه العبارة قديما؟

- ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ٢٨﴾ [يوسف: 28]

السؤال: ألم يكن سيد المرأة هو من قال هذه العبارة بعد أن تبين له أن يوسف بريء من التهمة التي كانت المرأة التي راودته عن نفسه إلصاقها به، ألم يتوصل سيدها بعد أن رءا قميصه قَد قُدّ من دبر أنها هي (أي امرأة العزيز) المذنبة التي راودت يوسف عن نفسه؟

السؤال: ما الذي فعله يوسف عندما قال لرسول الملك (إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ)؟ ما هي الرسالة التي أوصلها يوسف للملك إذن؟

جواب: لقد ذكر يوسف الملك بكلامه هو عندما كان لازال سيدا (ولي للعهد)، ليستذكر الحادثة بأكملها. وأن هذا السجين صاحب التأويل هو نفسه ذاك الفتى الذي تحقق الملك (يوم كان سيد) بنفسه بأنه بريء من التهمة التي نسبت إليه.

نتيجة مفتراة: لقد أعاد يوسف إلى ذهن الملك الجديد شريط الأحداث التي حصلت قبل بضع سنين إلى ذاكرته كاملة.

السؤال: كيف كانت ردة الفعل عند الملك؟

لقد أمر الملك على الفور حضور النسوة اللاتي قطعن أيديهن جميعا إلى مجلسه، ليتحقق بنفسه مما حصل:

- ﴿قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٥١﴾ [يوسف: 51]

السؤال: لماذا لم تستطع أحد من النسوة أن تنكر علاقتها بقصة يوسف؟

جواب: لأنّ أيديهن كانت مقطّعة، فالعلامة بارزة في يد كل من اشتركت في مراودة يوسف عن نفسه

السؤال: لماذا تبرعت امرأة العزيز بالاعتراف بالرغم أن الخطاب لم يوجه لها وبالرغم أن يدها لم تكن مقطوعة؟

جواب: لأن الحق في تلك اللحظة قد حصحص:

- ﴿... قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٥١﴾ [يوسف: 51]

وهنا نتوقف عند جزئية غاية في الأهمية وهي قول امرأة العزيز في خطابها هذا عبارة " وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ "، فما الرسالة التي كانت تنوي أن توصلها إلى الملك؟

جواب: لنعيد شريط الأحداث مرة أخرى ونستذكر متى جاءت هذه العبارة أول مرة في قصة يوسف:

- ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٢٦ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٧﴾ [يوسف: 26-27]

السؤال: من الذي جاء بهذه الرسالة؟ أليس هو سيدها نفسه عندما ذهب يبحث عن الدليل ليفض الخلاف بين امرأة العزيز (أخته) وفتاها في تلك الحادثة الشهيرة؟

السؤال: ما الذي حصل للملك في تلك اللحظة؟ وما الرسالة التي أوصلتها امرأة العزيز للملك حينئذ؟

جواب مفترى: في تلك اللحظة انتزع الملك اعترافا شفهيا من أخته بأنها هي من راودت الفتى عن نفسه وأنه هو من كان صادقا وهي من كانت كاذبة. فالمرأة ذكرت الملك بذاك الموقف الذي كان يبحث فيه عن الصادق في القول وعن الكاذب في القول (أهو يوسف أم أخته)، وها هي المرأة الآن تعترف بملء فيها أنه هو من كان من الصادقين (وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ):

- ﴿... قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٥١﴾ [يوسف: 51]

فقد حصص الحق رغما عنها.

السؤال: ماذا أدرك الملك على الفور؟

جواب: لقد أدرك الملك أن ذاك الشخص هو يوسف نفسه الذي كان قد طلب منه عندما كان لازال سيدا أن يعرض عن هذا. انظر السياق القرآني الأوسع:

- ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٢٦ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٧ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ٢٨ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ ٢٩﴾ [يوسف: 26-29]

السؤال: ماذا فعل الملك بعد ذلك؟

جواب: لم يكن الملك إلاّ أن يطلب من يوسف الحضور إليه ليستخلصه لنفسه:

- ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ٥٤﴾ [يوسف: 54]

فالملك يطلب من يوسف القدوم إليه ليستخلصه لنفسه. فكيف حصل ذلك؟

جواب مفترى: حضر يوسف إلى مجلس الملك، فخرج كل الحاضرين، وحصل خطاب بينهما على انفراد.

السؤال: وأين الدليل على ذلك؟

جواب مفترى: نحن نظن أن الجواب متوافر في الآية الكريمة التالية (كما نفهمها بالطبع):

- ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ٥٤﴾ [يوسف: 54]

بداية نحن نظن أن حصول الكلام كان عن قرب، فمن كلم غيره فلا شك أنه قد حصل بينهما قرب، كما حصل مثلا في حالة موسى عندما كلمه ربه:

- ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣﴾ [الأعراف: 143]

ونحن نظن أنه بسبب ذلك التكليم حصل تقريب لموسى إلى ربه:

- ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ٥٢﴾ [مريم: 52]

ولكن المفارقة في حالة موسى أنه الكلام كان تكليما:

- ﴿وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾ [النساء: 164]

فجرى الخطاب في حالة موسى مع ربه بطريق القول:

- ﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ١٧﴾ [طه: 17]

ورد القول:

- ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ ١٨﴾ [طه: 18]

وكان القرار الإلهي هو أن يصطنع موسى لنفسه:

- ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ۝٤١﴾ [طه: 41]

ولكن قرار الملك هنا كان على نحو أن يستخلص يوسف لنفسه:

- ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ ... ۝٥٤﴾ [يوسف: 54]

تخيلات من عند أنفسنا: عندما جيئ بيوسف إلى الملك، تم إخلاء المجلس تماما من كل من كان حاضرا، فحصل كلام من يوسف مع الملك، فكان الملك هو من يستمع وكان يوسف هو من يتحدث، فاستطاع يوسف أن يخبر الملك بكل تفاصيل حياته منذ ولادته في بلاد البدو حتى يومه هذا، وأخبره بكل الأحداث التي مرّ بها، كما نظن جازمين أنه قد أخبره بعقيدته التي يؤمن بها وخاصة أنه لا يتخذ ربا من دون الله حتى وإن كان الملك نفسه، فلا أظن أن يوسف سيتردد بأن يعيد على مسامع الملك ما قاله لصاحبيه السجن سابقا:

- ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ۝٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٤٠﴾ [يوسف: 39-40]

فإن وافق الملك (نحن نتخيل) على هذه الشروط يقبل يوسف بأن يستخلصه لنفسه وإلاّ ذهب كل واحد منه في طريق غير طريق الآخر. فمن غير المتوقع أن يقبل يوسف بالعمل عند الملك ومن غير المتوقع أن يطلب يوسف من الملك بنفسه أن يجعله على خزائن الأرض إذا اشترط عليه الملك أن يكون ربه:

- ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ۝٥٥﴾ [يوسف: 55]

عندها وافق الملك على شروط يوسف فاستخلصه لنفسه.

السؤال: كيف استخلص الملك يوسف لنفسه؟

جواب: أن جعله عزيزا كما يرشدنا إلى ذلك ما قاله إخوته يوم أن جاءوه طالبين المعونة:

- ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٧٨﴾ [يوسف: 78]
- ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ۝٨٨﴾ [يوسف: 88]

تضارب واضح: لو دققنا في ما حصل مع يوسف بخصوص عمله عند الملك لوجدنا أنه قد طلب بنفسه أن يكون على خزائن الأرض، أليس كذلك؟

- ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ۝٥٥﴾ [يوسف: 55]

ولو دققنا فيما قاله إخوته لوجدنا أن يوسف قد أصبح العزيز:

- ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٧٨﴾ [يوسف: 78]

السؤال: ماذا كانت وظيفة يوسف عند الملك؟ هل كان قائما على خزائن الأرض أم كان عزيزا؟

الرأي السائد: غالبا ما سوق أهل العلم الأمر للناس على أنها هي الوظيفة نفسها، فمن كان قائما على خزائن الأرض فهو (هم يظنون) عزيز مصر.

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نرفض هذا الفهم جملة وتفصيلا، فالعزيز هو عزيز والقائم على خزائن الأرض هو قائم على خزائنها ولا يجب الخلط بين الاثنين.

السؤال: وما الفرق؟

جواب: نحن نظن أن العزيز هي وظيفة اجتماعية مكتسبة ولكن القيام على خزائن الأرض هي وظيفة إدارية متحصلة.

السؤال: وكيف ذلك؟

جواب: دعنا نطرح الفكرة على النحو التالي: ماذا كانت وظيفة يوسف الرسمية في الدولة؟

جواب: لقد كان متوليا أمر خزائن الأرض، فهو الذي طلب ذلك من الملك شخصيا:

- ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ۝٥٥﴾ [يوسف: 55]

السؤال: لماذا كان عزيزا إذن إن صح ما تقوله؟

جواب: لأن الملك استخلصه لنفسه؟

سؤال: وكيف ذلك؟

جواب: لأن الملك قد قرب يوسف إليه عن طريق المصاهرة.

نتيجة: لقد كان في أرض مصر حينئذ عزيزان.

وهما:

⇐ زوج المرأة التي راودت يوسف عن نفسه عندما كان في بيتها
⇐ يوسف نفسه

السؤال: من هو العزيز إذن؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: لقد تحدثنا في مقالة سابقة لنا في قصة يوسف عن المسميات الثلاثة التي وردت في قصة يوسف وهي:

⇐ الملك
⇐ السيد
⇐ العزيز

وزعمنا أن الملك هو رأس الدولة، وأن السيد هو ولي العهد، وأن العزيز هو من تقرب من الملك بالمصاهرة أي بزواج أحد بناته أو أخواته، فاكتسب المكانة الاجتماعية اكتسابا.

السؤال: وكيف تزوج يوسف من فتيات الملك؟

جواب مفترى: نحن نرفض جملة وتفصيلا تخاريف يهود التي دخلت إلى عقيدتنا على ألسنة أهل الدراية من أبناء الإسلام الذين غالبا ما روجوا للفكرة الشعبية أن امرأة العزيز التي راودت يوسف عن نفسه قد عادت إلى جمالها السابق بعد خروج يوسف من السجن، وتزوجت به أن أصبح مقربا من الملك كما راج ذلك في المخيال الشعبي. وقد حاول بعض سادتنا العلماء أهل الدراية ليّ عنق النص التالي ليتلاءم مع تصوراتهم:

- ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [يوسف: 52]

السؤال: كيف بامرأة العزيز تنفي عن نفسها خيانة؟ ومن هو الذي لم تخنه بالغيب؟ وهل كانت هي امرأة يوسف حتى تتحدث عن خيانته؟ وأين كان يوسف في ذلك الوقت؟ ألم يكن قابعا في السجن؟ ثم ألم تكن هي على ذمة رجل آخر وهو زوجها العزيز؟ أم هل كان زوجها (كما ظنوا) في عداد الأموات؟

السؤال المحوري: كيف بسادتنا العلماء أهل الدراية ينسبون الضمير في قولها (**لَمْ أَخُنْهُ**) إلى يوسف. أنظر ما جاء في الطبري أولا:

القول في تأويل قوله تعالى: {ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين} يعني بقوله : { ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب } هذا الفعل الذي فعلته من ردي رسول الملك إليه , وتركي إجابته والخروج إليه , ومسألتي إياه أن يسأل النسوة اللاتي قطعن أيديهن , عن شأنهن إذ قطعن أيديهن , إنما فعلته ليعلم أني لم أخنه في زوجته بالغيب : يقول : لم أركب منها فاحشة في حال غيبته عني . وإذا لم يركب ذلك بمغيبه , فهو في حال مشهده إياه أحرى أن يكون بعيدا عن ركوبه . كما : 14846 - حدثنا ابن حميد , قال : ثنا سلمة , عن ابن إسحاق , قال : يقول يوسف : { ذلك ليعلم }

إطفير سيده , { أني لم أخنه بالغيب } أني لم أكن لأخالفه إلى أهله من حيث لا يعلمه 14847 - حدثني محمد بن عمرو , قال : ثنا أبو عاصم , قال : ثنا عيسى , عن ابن أبي نجيح , عن مجاهد : { ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب } يوسف يقوله - حدثني المثنى , قال : ثنا أبو حذيفة , قال : ثنا شبل , عن ابن أبي نجيح , عن مجاهد : { ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب } يوسف يقوله : لم أخن سيدي - قال : ثنا إسحاق , قال : ثنا عبد الله , عن ورقاء , عن ابن أبي نجيح , عن مجاهد : { ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب } قال يوسف يقوله 14848 - حدثنا محمد بن عبد الأعلى , قال : ثنا محمد بن ثور , عن معمر , عن قتادة : { ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب } قال : هذا قول يوسف 14849 - حدثني المثنى , قال : ثنا عمرو بن عون , قال : ثنا هشيم , عن إسماعيل بن سالم , عن أبي صالح , في قوله : { ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب } هو يوسف يقول : لم أخن الملك بالغيب وقوله : { وأن الله لا يهدي كيد الخائنين } يقول : فعلت ذلك ليعلم سيدي أني لم أخنه بالغيب , وأن الله لا يهدي كيد الخائنين : يقول : وأن الله لا يسدد صنيع من خان الأمانات , ولا يرشد فعالهم في خيانتهموها . واتصل قوله : { ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب } بقول امرأة العزيز : { أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين } لمعرفة السامعين لمعناه , كاتصال قول الله تعالى : { وكذلك يفعلون } بقول المرأة : { وجعلوا أعزة أهلها أذلة } , وذلك أن قوله : { وكذلك يفعلون } خبر مبتدإ , وكذلك قول فرعون لأصحابه في سورة الأعراف : { فماذا تأمرون } وهو متصل بقول الملأ : { يريد أن يخرجكم من أرضكم }

إن أغرب ما في هذا التفسير هو أن البعض من أهل الدراية قد جعل ذلك من قول يوسف، فهم يظنون أن هذه العبارة قد جاءت على لسان يوسف؟ ونحن نستغرب ذلك أشد الاستغراب وذلك لأن هذا الحديث قد جرى في مجلس الملك عندما كان يوسف لازال قابعا في السجن. فالسياق القرآني يتحدث عن ما دار في بلاط الملك بعد أن جمع النسوة وقبل أن يأتي يوسف، انظر الآية الكريمة في سياقها الأوسع

- ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِىۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾ [يوسف: 51-54]

السؤال: إذا كان هذا ما قيل في بلاط الملك قبل أن يأمر الملك بأن يأتوه بيوسف ليستخلصه لنفسه، فكيف بسادتنا العلماء أهل الدراية ينسبون هذا القول إلى يوسف؟ من يدري؟!!!

وكيف ببعضهم الآخر ينسب هذا القول إلى امرأة العزيز نفسها ولكنه يظن أنها تتحدث هنا عن عدم خيانتها ليوسف؟ فهل كانت المرأة تحت يوسف (كزوج لها) لتتحدث عن خيانته كما حصل في حالة نوح ولوط؟

- ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ۝١٠﴾ [التحريم: 10]

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن من قال هذه العبارة هي امرأة العزيز نفسها وهي تنفي هنا خيانتها لزوجها الحقيقي وليس ليوسف

الدليل

السؤال: من الذي قال هذه العبارة (أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ) في الآية الكريمة:

- ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ۝٥٢﴾ [يوسف: 52]

جواب: امرأة العزيز؟

السؤال: وعلى من يعود الضمير في قولها (لَمْ أَخُنْهُ)؟

جواب: على زوجها العزيز نفسه وليس على فتاها يوسف

السؤال: وأين الدليل على ذلك؟

جواب مفترى: نحن نفتري الظن بأننا نجد الدليل في الآية العبارة نفسها:

- لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ

السؤال: وكيف ذلك؟

جواب" مفترى: أظن أن الدليل موجود في مفردة " بِٱلْغَيْبِ " على وجه التحديد.

السؤال: وكيف ذلك؟

جواب مفترى: نحن نفتري القول بأنه حينما راودت امرأة العزيز فتاها عن نفسه لم يكن زوجها (العزيز نفسه) لم يكن موجودا في البلاد، وإنه كان خارج البلاد حينئذ، فكان غائبا، فلم تحدث خيانة من قبل امرأة العزيز لزوجها في الغيب (أي عندما كان يغيب عن البيت)، لذا نحن نطرح تصورنا المفترى للقصة وقد حصلت على أرض الواقع على النحو التالي:

نحن نتخيل أن امرأة العزيز كانت متزوجة من رجل أصبح يسمى بالعزيز الذي اكتسب هذه المكانة الاجتماعية بسبب مصاهرته للملك. ونحن نتخيل أن هذا الرجل لم يكن موجودا في المملكة عندما حصلت

مراودة امرأته لفتاها عن نفسه، وذلك لأن زوجها (الذي كان عزيزا بالمصاهرة) كانت له وظيفة رسمية في الدولة. وكانت وظيفته (نحن نتخيل) تتطلب منه الخروج من المملكة لبعض الوقت، فكان يغيب عن زوجته فترة من الزمن بين الحين والآخر، وأظن (أقول أظن) أن الرجل كان يلبس الزي العسكري الذي كان يتطلب منه أن يخرج ليدافع عن حدود الدولة، فكانت وظيفته الإدارية أنه قائد جند ولكن وظيفته الاجتماعية أنه عزيز. فكان يتطلب منه الذهاب في حملات عسكرية تستمر فترة من الزمن خارج المكان الذي تتواجد فيه امرأته، فكان يغيب عنها فترة من الزمن:

- ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [يوسف: 52]

وما أن عاد الرجل إلى البلاد (نحن نتخيل) بعد واحدة من حملاته العسكرية حتى وجد أن الكلام (القيل والقال) قد كثر في البلاد حول خبر مراودة امرأته لفتاها عن نفسه، ولكنه لم يكن يستطيع التثبت من الأمر لأن الكلام لم يكن يخص امرأته فقط وإنما نسوة في المدينة كثيرات. والأهم من ذلك هو أنه في حين أن امرأة العزيز لم تكن مقطوعة اليد، كانت النسوة الأخريات مقطعات الأيدي، فلم يتمكن الرجل من الوصول إلى الدليل المادي على تورط امرأته مع فتاها في خيانة فعلية وإن كان شعوره الداخلي لا يستطيع أن ينكره، فبقي الرجل (زوج المرأة) محتارا في أمر زوجته لا يستطيع أن يقطع شكه باليقين خصوصا أن إنكار المرأة نفسها كان الحاجز الأكبر الذي صرفه عن الوصول إلى الحقيقة، وما حصص الحق إلا في ذلك اللقاء الشهير يوم أن جمع الملك النسوة بنفسه ليتحقق من الأمر. ولما لم يعد بمقدور امرأة العزيز أن تتكتم على الحقيقة بعد ذلك اليوم، خرج الحق رغما عنها، فكان خروجه حصحصة:

- ﴿... قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [يوسف: 51-53]

فلو كانت المرأة تستطيع كتمانه أكثر من ذلك لربما فعلت، ولكن لم يعد بمقدورها فعل ذلك، فاعترفت رغما عنها بذنبها، وصدّقت رواية يوسف الأولى بأنها هي من راودته عن نفسه وأنه هو من الصادقين. وأردفت ذلك بالقول:

- ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [يوسف: 52-53]

ويكأن لسان حالها يقول (كما نفهمه بالطبع) أنني قد راودته فعلا عن نفسي، ولكن الخيانة الفعلية لزوجي (وهو العزيز) لم تحصل إطلاقا في غيابه، وهي تعترف بذلك بملء فيها وتضيف قائلة بأن هذا الكلام لا يخرجني من المسؤولية الكاملة:

- ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣﴾ [يوسف: 53]

فهي لا تطلب البراءة لنفسها وذلك لأن النفس أمارة بالسوء باستثناء من رحم ربي ولم تكن هي واحدة من أولئك (كيوسف مثلا).

نتيجة: كان زوج المرأة التي راودت يوسف عن نفسه هو عزيزا لأنه كان مصاهرا للملك، ولكن الرجل كان له وظيفة رسمية بالدولة تتطلب منه الغياب فترة من الزمن عن بيته وعن امرأته، وأظن مفتريا القول من عند نفسي أنه كان قائدا للجيش الذي يخرج للدفاع عن البلاد من الأخطار التي كانت تتهدده من الخارج.

السؤال: وماذا كانت وظيفة يوسف في بلاط الملك إذا كان يوسف نفسه قد أصبح أيضا عزيزا بمصاهرته للملك في واحدة من بناته أو أخواته الأخريات؟

جواب: لقد كان وزيرا للخزانة، وذلك بطلب منه:

- ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ٥٥﴾ [يوسف: 55]

السؤال: لماذا طلب يوسف ذلك من الملك؟ هل بحث يوسف لنفسه عن منصب في تلك البلاد؟ هل كان يوسف يطمح بالوصول إلى السلطة؟

للإجابة على هذه التساؤلات نجد لزاما في البداية أن نطرح التساؤل التالي: لماذا طلب يوسف بنفسه تلك الوظيفة؟ لماذا طلب يوسف بنفسه أن يكون على خزائن الأرض على وجه التحديد؟

جواب: لأنه حفيظ عليم

رأينا: لقد برر يوسف طلبه من الملك بأن يجعله على خزائن الأرض لسببين، وهما:

⇐ أنه حفيظ
⇐ أنه عليم

السؤال: لماذا شهد يوسف لنفسه بالحفظ حتى يسند إليه ذلك المنصب؟ ولماذا شهد لنفسه بالعلم حتى يسند إليه ذلك المنصب؟

جواب: لأن ذلك المنصب يتطلب أن يكون من يتولاه حفيظا وعليما

السؤال: ولماذا طلب يوسف أن يتولاه بنفسه. وكيف بيوسف يشهد لنفسه بالحفظ والعلم؟ ألم يسمع يوسف بمقولة شيخنا الجليل (وأظن أنه يسمى ابن المبارك) أن من شهد لنفسه بالعلم فقد جهل؟ فما

بالك يا يوسف تشهد لنفسك بالعلم؟ وما بال رشيد الجراح (هذا الجاهل) مثلا يكرر في مقالاته أنه أكثر الناس علما؟ ألا يكفي ذلك دليلا على جهله؟!

رأينا: أبرأ إلى الله مما كذبوه عليه، وأشهد أن يوسف كان عليما، وأسأل الله وحده أن يعلمني من لدنّه علما، فأكون ممن يشهدون لأنفسهم بأنه عليما – آمين.

جواب مفترى: نحن نعتقد أن يوسف قد طلب من الملك أن يجعله على خزائن الأرض لأن ذلك المنصب كان **شاغرا**، فلم يكن أحد يشغله في تلك اللحظة.

الدليل

نحن نظن أنه ليس من أخلاق يوسف أن يطلب من الملك أن يشغل وظيفة ما في الدولة لو أن ذلك المنصب كان يشغله غيره، فيوسف ليس من الذين يتصيّدون في الماء العكر، ليطيحوا بغيرهم في كل فرصة تتاح لهم ليجلسوا على الكرسي حيث كان يجلس "خصمهم"، أو لنقل تجاوزا "منافسهم" كما يفعل أصحاب المناصب الإدارية والسياسية في بلاد الإسلام والمسلمين.

نحن نظن أن يوسف كان يعلم يقينا أن ذلك الكرسي (خزائن الأرض) لم يكن يجلس عليه أحد في ذلك الوقت حتى يعمل على إزاحته عن.

السؤال: لماذا كان هذا المنصب شاغرا؟

جواب: نحن نفتري الظن أن هذا المنصب كان شاغرا لأن هذا المنصب هو الذي كان يشغله صاحبه الآخر في السجن الذي قضت المحكمة عليه بالصلب حتى تأكل الطير من رأسه:

- ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ٤١﴾ [يوسف: 41]

تخيلات من عند أنفسنا: لما كان صاحب يوسف السجن ذاك غير أمين على أموال الدولة، ولما كان هو من تآمر على الملك، اتخذت المحكمة القرار الذي يستحق. فتم صلبه حتى أكلت الطير من رأسه. وعندما وصل الملك الجديد إلى سدة الحكم ربط ذلك المنصب به شخصيا، حتى يحافظ على أموال الناس، وبقي الأمر كذلك حتى خرج يوسف من السجن وكلّم الملك. ولما كان يوسف يعلم حجم الأعباء التي تراكمت على الملك من جراء توليه ذلك الشأن بالإضافة إلى مسؤولياته الأخرى، اختار يوسف أن يساعد الملك (العادل) على تحمل أعباء الدولة. فطلب من الملك أن يسند إليه هذا المنصب، وعلّل ذلك بأنه حفيظ (على عكس صاحبه السجن الذي خان الأمانة) وزاد على ذلك بالعلم:

- ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ٥٥﴾ [يوسف: 55]

لذا نحن نتجرأ على افتراء القول بأنه من أُوكلت إليه هذه المهمة سابقا (وهو صاحبه الآخر في السجن) لم يكن حفيظا، فقد فرّط في أموال الدولة، ولم يكن عليما لأن سجلاته المالية لم تكن موثّقة تماما (وسنرى ما فعله يوسف بهذا الصدد في سنين القحط وتصريف أمور الدولة لاحقا إن أذن الله لنا بشيء من علمه). فطلب يوسف من الملك أن يسند إليه تلك المهمة مادام أنه سيحافظ عليها، ومادام أن لديه العلم في تصريف أمورها بالطريقة التي تكفل للناس حقوقها وللدولة تسيير شؤونها بأحسن حال. فكان نجاحه باهرا في زمن الأزمة التي حلّت بالبلاد يوم أصابها القحط.

والله أعلم

هذه افتراءات كثيرة هي بلا شك من عند أنفسنا، فما صدق منها فذاك لأنها الحق من عند ربنا، وما كذب منها فتلك من عند أنفسنا نبرأ إلى الله منها، ونعوذ به أن نفتري عليه الكذب عن علم، وبها نصل إلى نهاية الشطر الأول من قصة يوسف عندما حصل له التمكين في أرض مصر:

- ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ۝٥٥ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٦ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٥٧﴾ [يوسف: 55-57]

لنكمل الحديث في الأجزاء القادمة من هذا الكتاب (بحول الله وتوفيق منه) عن الشطر الثاني من القصة حيث تعود قصته مع أهله الذين فرطوا به يوم أن قدموا أرض مصر طالبين المعونة:

- ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٨﴾ [يوسف: 58]

فالله وحده أسأل أن يعلمنا ما لم نكن نعلم، وأن يهدينا رشدنا، وأن يهدينا إلى نوره الذي أبى إلاّ أن يتمّه ولو كره الكافرون، فلا نفتري عليه الكذب ولا نقول عليه ما ليس لنا بحق، إنه هو العليم الحكيم- آمين.

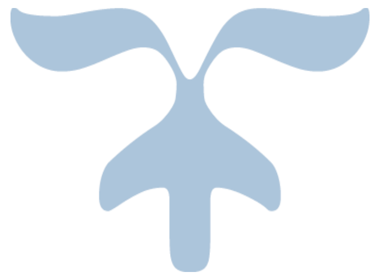
دعاء: رب أسألك أن تأذن لي الإحاطة بما لم تأذن لغيري الإحاطة به من علمك، فأسألك أن تعلّمني ما لم أكن أعلم، وأعوذ بك أن أفتري عليك الكذب عن علم، إنك أنت السميع المجيب- آمين.

المدّكرون: رشيد سليم الجراح & علي محمود سالم الشرمان
بقلم: د. رشيد الجراح
3 أذار 2014
د. رشيد الجراح مركز اللغات، جامعة اليرموك



الجزء الثامن عشر

وَجَاء إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ



الجزء الثامن عشر: وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ

خلص حديثنا في الجزء السابق من هذا الكتاب عند الآية الكريمة التي تصور طلب يوسف الشخصي من الملك أن يجعله على خزائن الأرض، قال تعالى:

- ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ۝٥٥﴾ [يوسف: 55]

فأصبح يوسف منذ تلك اللحظة هو المسئول عن تصريف أموال الدولة وذلك لتمتعه بصفتين اثنتين وهما أنه حفيظ وعليم (إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ).

وفي هذه النقطة تنتهي معاناة يوسف في بلاد الغربة، لتعود قصته مع إخوته تظهر من جديد لتتوالى فصولها حتى النهاية. لذا سنحاول أن نتعرض فيما تبقى من أجزاء هذا الكتاب لما حصل مع يوسف وإخوته بعدما أصبح هو المسئول عن تصريف أموال الدولة في سنين الخير الوافر التي تبعتها سنين القحط الشديد.

دعاء: فاللّه نسأل أن يعلمنا ما لم نكن نعلم وأن لا نفتري عليه الكذب عن علم إنه هو الواسع العليم

أما بعد،

بداية، نحن نعلم من صريح اللفظ القرآني أن يوسف هو من اقترح خطة الخلاص في سنين القحط عندما كان لازال قابعا في السجن، وكان ذلك كجزء من تفسيره لرؤيا الملك:

- ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ۝٤٧ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ۝٤٨﴾ [يوسف: 47-48]

فعمد يوسف في سنين الرخاء (نحن نتخيل) إلى توفير كل ما يقدر عليه من الحصاد في سنبله ليكون هو مخزون الدولة الاستراتيجي في سنين الجفاف القادمة. ونحن نتخيل أن ذلك قد حصل على النحو التالي:

⇐ اولا: يعمد يوسف إلى إنشاء سبع صوامع يجمع في كل واحدة منها مخزون سنة بأكملها، كما في الشكل التوضيحي التالي:



كما نتخيل أنه قد جعل في كل واحدة من هذه الصوامع سبعة مخازن كبيرة ليتم جمع كل محصول (سنبلة) في مخزن خاص به، فتم تجميع محصول القمح في مخزن والشعير في مخزن آخر، وهكذا.

⇐ ثانيا، ما أن بدأت سنين الجفاف تحل بالبلاد حتى أخذ يوسف يستخدم ما تم تخزينه في مخازن الصومعة الأولى، فكفتهم سنة القحط الأولى. وفي السنة الثانية أخذ يستخدم ما تم تجميعه في مخازن الصومعة الثانية، وهكذا. حتى استطاع أن يخرج بالبلاد من هذه المحنة التي كادت أن تهلكها. فكان ذلك – في ظننا- من الأسباب التي عززت التمكين الإلهي ليوسف في الأرض:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٥٧﴾ [يوسف: 56-57]

فأصبح يوسف يتبوأ منها حيث يشاء. فأصابه الله برحمته لأن الله ما كان ليضيع أجر يوسف الذي لا نشك قيد أنملة أنه كان من المحسنين.

دعاء: أسألك ربي أن أكون من المحسنين الذين تصيبهم برحمة منك، إنك أنت السميع العليم

وفي هذه الأثناء تبدأ قصته مع إخوته تعود لتتوالى فصولها من جديد. فيصيب الجفاف أرضهم، ولا يجدون بدّا من الهبوط إلى مصر للاستعانة بعزيزها على هذه الظروف القاسية.

- ﴿وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ٥٨﴾ [يوسف: 58]

وهنا نتوقف على الفور لنطرح التساؤلات التالية الخاصة بالمفردة الأولى في هذه الآية الكريمة وهي مفردة "**وَجَاء**":

⇐ لماذا جاء أخوة يوسف إلى أرض مصر؟

⇐ كم كان عدد الذين جاءوا منهم؟
⇐ لماذا لم يطلبوا المعونة من مكان آخر؟
⇐ كيف علموا بخبر عزيز مصر؟
⇐ أين كانت تقع ديارهم؟
⇐ كم استغرقت رحلتهم للوصول إلى يوسف والعودة من عنده؟
⇐ الخ.

حاولنا في مقالات سابقة لنا التعرض لمعنى فعل المجيء (جَاء)، فعقدنا مقارنة بينه وبين فعل آخر له علاقة مباشرةبالفعل "جاء" هو الفعل "أتى"، فزعمنا القول أن هناك فروقا جوهرية - هي في نظرنا - مهمة للتمييز بين الفعلين، أما أكثر ما يهمنا هنا هو القول بأن أحد الفروق بين الفعلين يتمثل في أن فعل المجيء يحمل في ثناياه معنى المفاجأة.

انظر التناوب بين الفعلين في قصة مريم:

- ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾ [مريم: 27]

ففي حين أن مريم قد أتت قومها فلم يكن قدومها بنفسها سيشكل (نحن نظن) مفاجأة لهم، إلا أن مجيئها بشيء تحمله هو الذي سبب المفاجأة عندهم (لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا).

وعلى عكس الفعل "أتى" فإن الفعل "جاء" يحمل - نحن نزعم - في ثناياه أيضا معنى السرعة:

- ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا ... ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف: 143]
- ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنبياء: 44]

ففي حين أننا نعلم أن مجيء موسى لميقات ربه كان على عجل، فإن نقصان الأرض من أطرافها يحدث بطريقة تدرجية بطيئة (للتفصيل انظر مقالاتنا تحت عنوان: لماذا نصلي خمس مرات في اليوم والليلة؟).

وليس أدل على أن الفعل "أتى" يدل على البطء في الحركة –في ظننا- مما جاء في قوله تعالى:

- ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾﴾ [النحل: 1]

نتيجة مفتراة: مادام أن إخوة يوسف قد جاءوا (وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ)، فقد كانوا (نحن نتخيل) في عجلة من أمرهم، كما أننا نتخيل بأن مجيئهم قد أحدث مفاجأة عند يوسف. فلم يكن يوسف – نحن نفتري القول- يظن أنه من خلال هذا التدبير الله سيرى إخوته من جديد.

السؤال: كيف استطاع يوسف أن يعرفهم عندما دخلوا عليه؟

رأينا: تعرضنا في مقالات سابقة لنا للتمييز بين المعرفة (ومشتقاتها) والعلم (ومشتقاته) وزعمنا القول بأن المعرفة غير نقلية، تحتاج إلى بذل شيء من الجهد من قبل من أراد الحصول عليها، كما تتطلب توافر قرينة تدعم ظنه، وهي تدرجية (للتفصيل انظر مقالاتنا تحت عنوان: هل لعلم الله حدود؟). فخبر إخوة يوسف (نحن نظن) لم ينقل إليه نقلا، فلم يأتي أحد من حوله ليخبره بأن هؤلاء الغرباء القادمين من بعيد هم إخوته، وإلا لكان ذلك علما، فيوسف هو من عرف إخوته بنفسه، كما أنه - لا شك- قد بذل جهدا للتعرف عليهم، فالأمر لم يحصل على الفور، وأن معرفته بهم قد سندها الدليل (القرينة). فكيف استطاع يوسف أن يعرف بأن هؤلاء الداخلين عليه هم إخوته؟

رأينا: نحن نظن أنه قد عرفهم من قرينتين اثنتين على الأقل:

1. بسيماهم

- ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ٢٩﴾ [الفتح: 29]
- ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ٢٧٣﴾ [البقرة: 273]
- ﴿وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ٤٦﴾ [الأعراف: 46]
- ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ٤٨﴾ [الأعراف: 48]
- ﴿يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ ٤١﴾ [الرحمن: 41]

2. في لحن القول

- ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ ٣٠﴾ [محمد: 30]

السؤال: وكيف تم ذلك؟

رأينا المفترى: لا شك عندنا أن دخول إخوة يوسف على أخيهم قد سبب له الدهشة والحيرة عندما رءاهم واقفين في حضرته. فتلك الوجوه ليست بالغريبة تماما عن ذاكرته، فهو يعرفهم بسيماهم. صحيح أن الزمن قد غيّر في أشكالهم، لكن تقدمهم بالعمر لم يكن ليشكل حاجزا كاملا له عن معرفتهم، فلازالت ملامحم (سيماهم) تُظهِر شيئا من صورتهم المخزنة في ذاكرته عندما جعلوه في غيابة الجب. فالعديد منهم كان يكبره في السن، ولازالت ملامحه تظهر شيئا من شخصيته القديمة التي لا يمكن أن تخفى على شخص بفطنة وذكاء يوسف.

كما أن عددهم كان لا شك سيؤكد ليوسف ظنه بهم، فهؤلاء القادمون من بعيد هم لا شك إخوته الذين تآمروا عليه وأخرجوه من الديار عندما أجمعوا أمرهم على أن يطرحوه أرضا:

- ﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ۝٩ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ۝١٠﴾ [يوسف: 9-10]

لكننا نكاد نجزم القول بأن أكثر ما لفت انتباه يوسف فيهم هو – في ظننا- "لحن القول" (**وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ**)، فهؤلاء القوم لا شك قادمون من بعيد، لذا فإن "لهجتهم" تختلف عن لهجة أهل البلد، ولا شك أن يوسف يستطيع أن يميز جيدا "لهجة" إخوته الّذين تربى فيهم قسطا من الزمن.

الدليل: نحن نعلم من صريح اللفظ القرآني أن إخوة يوسف كانوا يسكنون البدو، فهذا ما ذكره يوسف بملء فيه عندما جاءه أبوه مع إخوته وأهليهم جميعا:

- ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١٠٠﴾ [يوسف: 100]

افتراء من عند أنفسنا: مادام أن إخوة يوسف قد جاءوا من البدو، فإننا نعتقد بأن لغتهم (أو لنقل لهجتهم الدارجة على لسانهم حينئذ) كان فيها من الخصائص ما يجعلها مميزة عن غيرها. ولمّا كان يوسف يعلم تماما لهجة أهله الّذين نشأ فيهم ما كان ليخطئ الفهم بأن هؤلاء القادمين من بعيد هم من أهل تلك الديار التي تركها يوم أن كاد له إخوته وطرحوه أرضا. وهنا يبرز السؤال الحتمي التالي: أين كانت ديارهم؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نفتري الظن بأن الديار التي جاء منها إخوة يوسف إلى أرض مصر هي قريبة من الأرض المقدسة، فلقد كانت هجرة جدهم الأول إبراهيم إليها:

- ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ۝٧٠ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ۝٧١ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ ۝٧٢﴾ [الأنبياء: 69-72]

ولكن يعقوب وأبناءه جميعا قد جاءوا من البدو:

- ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٠٠﴾ [يوسف: 100]

السؤال: لماذا نعت يوسف البلاد التي جاء منها أبوه وإخوته وأهليهم جميعا بأنها أرض بدو. وأين هي تلك الديار؟

جواب مفترى: نحن نظن أنها أرض البداوة المحاذية للأرض المقدسة ((أو على أقل تقدير الواقعة في أطراف الأرض المقدسة).

السؤال: وأين هي إذن؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نفتري القول بأنها الأرض التي تقع فيها مدينة بئر السبع الحالية في صحراء النقب من أرض سيناء التاريخية كما تظهر في الخريطة التالية:



نعم، نحن نظن أن منطقة البداوة التي قدم منها إخوة يوسف هي نفسها مدينة بئر السبع في صحراء النقب الواقعة في أطراف الأرض المقدسة.

الدليل: لو أمعنا التفكر في قصة يوسف بشيء من الخيال العلمي وحاولنا ربط الأحداث مع بعضها البعض، لوجدنا أن قصة يوسف تتحدث عن منطقة فيها **غَيَابَةِ الْجُبِّ**، وهو ذاك المصدر المائي الذي جعله إخوته فيه عندما اجمعوا أمرهم أن يطرحوه أرضا:

- ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٥﴾ [يوسف: 15]

ونحن نكاد نجزم القول بأن "غيابة الجب" ذاك هو ما يشبه "بئر الماء" الذي يتواجد على طريق القوافل التجارية، بدليل وجود السيارة الّذين أرسلوا واردهم إليه:

- ﴿وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ ... ١٩﴾ [يوسف: 19]

كما زعمنا الظن في الأجزاء الأولى من هذا الكتاب أن ذلك البئر كان يقع في منطقة جبليه لأن السيارة قد أرسلوا واردهم إليه إرسالا، ولو كان يقع على قارعة طريق السيارة لربما وردوه جميعا مع خيلهم وإبلهم وجميع دوابهم. ولكن ذلك البئر – نحن نتخيل- كان يقع في منطقة يصعب على السيارة بمجموعهم أن يردوه، فما كان منهم إلا أن أرسلوا إليه أحدهم، فكان هو واردهم الذي زفّ لهم خبر وجود غلام في ذلك البئر:

- ﴿وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ١٩﴾ [يوسف: 19]

ثانيا، نحن نعلم أيضا من مجمل قصة يوسف أن المنطقة كان يتواجد بها الذئاب بدليل أن والدهم قد حذرهم من أن يقع يوسف فريسة لها:

- ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ١٣﴾ [يوسف: 13]

نتيجة: نحن نتحدث عن منطقة فيها (غيابة الجب) وفيها (الذئب). ليكون السؤال الآن ما هي تلك المنطقة؟

جواب مفترى: إنها بئر السبع

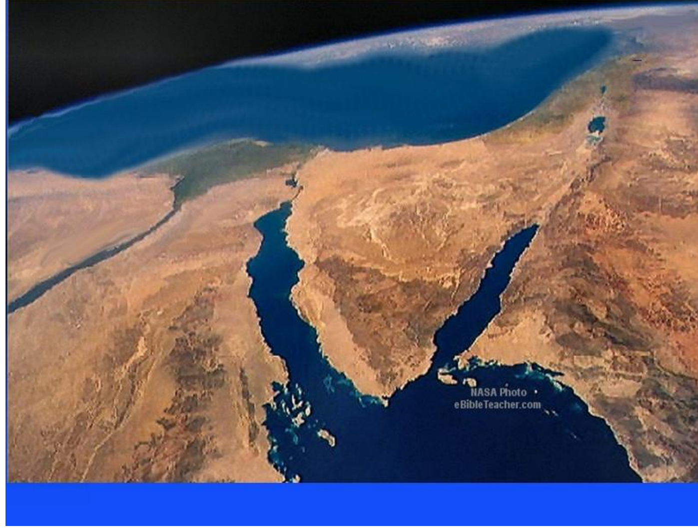
السؤال: وكيف يكون ذلك؟

رأينا: هذه هي صنعة أهل التحريف على مر الزمان. فنحن نفتري القول أن تلك المنطقة كانت تقع على طريق القوافل التجارية بين الأرض المقدسة من الشمال والشرق ومصر من الجنوب والغرب، وكان أهم ما يميزها ذلك المكان الذي يرده السيّارة وهو "غيابة الجب" حيث يتزودون منه بالماء. وقد كانت قوافل التجارة (السيّارة)- نحن نظن- تسلك طريقا محددة بذاتها لأن المكان تكثر فيه الذئاب. وما هي إلا فترة وجيزة حتى كان أهل التحريف قادرون على أن يخفوا الحقيقة عن الناس، فاختلفوا في الأمر كعادتهم من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم:

- ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة: 213]
- ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾ [آل عمران: 19]
- ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾ [الشورى: 14]
- ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الجاثية: 17]

دعاء: اللهم أعوذ بك أن نكون ممن يختلفون من بعد ما جاءنا العلم بغيا بيننا. اللهم اهدنا لما اختلف فيه الناس من الحق بإذنك

ولما كان البغي هو محرك الاختلاف بينهم، فقد حرّفوا "غيابة الجب" – نحن نظن- عندما جعلوه بئرا. وحرفوا "الذئب" عندما جعلوه سبع. فأصبحت المنطقة تعرف منذ وقت طويل بـ "بئر السبع" وكان الأولى بها أن تعرف بـ "غيابة جب الذئب".



ولو تدبرنا الخريطة الجغرافية التالية، لوجدنا أنه من هناك يمكن الوصول إلى المنفذ البري الوحيد إلى أرض مصر من جهة الأرض المقدسة:

ثانيا، لو تدبرنا قصة يوسف جيدا لوجدنا أن الرحلة من وإلى أرض مصر كانت رحلة بريه بدليل:

⇐ الرحال
⇐ العير
⇐ القرية
⇐ البعير

- ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٦٢﴾ [يوسف: 62]
- ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ۝٦٥﴾ [يوسف: 65]
- ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ۝٨٢﴾ [يوسف: 82]

رأينا: بعيدا عن التقسيمات السياسية الحديثة، فإننا نظن بأن أرض صحراء سيناء بأكملها كانت هي أرض البداوة في ذلك الزمان، لأن منطقة فلسطين التاريخية هي في ظننا ما كانت تسمى بسيناء:

- ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْـَٔاكِلِينَ ۝٢٠﴾ [المؤمنون: 20]

وما تبقى من ذلك الأثر إلا ما نعرفه في يومنا بصحراء سيناء، فلا شك أن صحراء سيناء هي جزء من سيناء. ولا شك أن طور سيناء يقع في منطقة سيناء.

نتيجة مفتراة: سيناء هي فلسطين التاريخية أو بكلمات أكثر دقة هي الأرض المباركة. وقد كانت صحراء سيناء هي منطقة البداوة، وكانت الحضارة (المدنيّة) تقع إلى الشمال والشرق (الأرض المقدسة) وإلى الجنوب والغرب (مصر). وهناك في منطقة تقاطع السيارة كانت – نحن نفتري القول- أرض البداوة التي كان يسكنها يعقوب مع بنيه.

افتراء خطير جدا: نحن نفتري الظن أيضا بأن تلك هي المنطقة التي سكنها إبراهيم بعد أن جاء من الشرق متجها إلى الغرب، والتي ظلت من بعده أرض أحفاده من سلالة إسحق. ومن هناك هبط إبراهيم أرض مصر وحصلت قصته مع ذاك الذي آتاه الله الملك:

- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة: 258]

السؤال: من هو ذاك الذي حاج إبراهيم في ربه؟

جواب: إنه من آتاه الله الملك؟

السؤال: ومن هو؟

رأينا: نحن نظن أن ذاك الرجل لم يكن مَلِكا بالوراثة، لأنه لو وصل إليه الحكم (أي المُلك) عن طريق الوراثة لكان ملكا، لكن النص القرآني يتحدث عنه بصفة أن الله قد آتاه الملك (**أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ**). لنطرح التساؤل التالي: لماذا نعته القرآن الكريم بتلك الصفة؟ ولماذا لم يُشِر إليه على أنه ملكا؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن السبب في ذلك يعود إلى أن ذاك الرجل كان هو أول سلالة تلك العائلة المالكة. فالله هو من آتاه الملك ولم يتحصل على الملك من والده، وبكلمات أكثر دقة نقول: لقد أنشأ ذلك الرجل (الذي آتاه الله الملك) مملكة جديدة، فكان هو أول ملوكها، وكان فضل الله عليه أن آتاه الملك، لكن ذلك الرجل أنكر ذاك الفضل الإلهي عندما ظن أنه قادر على أن يحيي ويميت:

- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة: 258]

السؤال: من هو ذاك الذي آتاه الله الملك إذن؟

رأينا المفترى: إنه أول ملوك مصر الذي أسس "الدولة المصرية" في زمن إبراهيم، وانتهى الملك إلى أحفاده من بعده، فكان أحد الملوك من أحفاده هو من عمل عنده يوسف كوزير للمالية (على خزائن الأرض)، فحفيده هو الملك صاحب الرؤيا الشهيرة.

تخيلاتنا: نحن نتخيل أن تلك المملكة في أرض مصر قد بدأت مع إبراهيم، فسار خط الملك في أرض مصر موازيا لخط النبوة والعلم في سلالة إبراهيم على النحو التالي:

سلالة إبراهيم	سلالة الملك في أرض مصر
إبراهيم	الملك الأول (الذي حاج إبراهيم في ربه بعد أن آتاه الله الملك)
إسحق	الملك الثاني
يعقوب	الملك الثالث
يوسف	الملك الرابع

الدليل: نحن نظن أننا نستشعر الدليل على افترائنا هذا مما حصل بين يوسف والملك عندما جاءه وكلمه:

- ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ٥٤﴾ [يوسف: 54]

لو تدبرنا هذه الآية الكريمة جيدا لربما وجدنا- كما افترينا القول في جزء سابق من هذا الكتاب- أن الحديث بين يوسف من جهة والملك من جهة أخرى كان حديثا على إنفراد. فيوسف لم يتحدث مع الملك على مسمع الجميع، فكلّمه لوحده (فَلَمَّا كَلَّمَهُ)، وذلك لأنّ يوسف كان يريد أن يوصل رسالة إلى هذا الملك يصعب أن تبث على مسمع الناس من حول الملك، وأعتقد أن فحوى الرسالة تتعلق بعقيدة يوسف، فلا أظن أن يوسف كان سيقبل بأن يستخلصه ذلك الملك لنفسه ما لم يخبره بالعقيدة التي يؤمن بها، ولا أظن أن يوسف سيطلب من ذلك الملك أن يجعله على خزائن الأرض ما لم يوافق الملك على حرية يوسف في عقيدته، فالالتزام بعقيدة الآباء والأجداد (إبراهيم وإسحق ويعقوب) كما صورها يوسف نفسه لصاحبيه السجن:

- ﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٧﴾ [يوسف: 37]

أكثر أهمية بالنسبة له من أن يخرج من السجن أو أن يجد لنفسه وظيفة في بلاط الملك. فلا شك – عندنا- أن الحديث بينهما قد وصل إلى أدق التفاصيل، ولا شك عندنا أن الملك قد قَبِل بشروط يوسف حتى طلب يوسف بنفسه من الملك أن يجعله على خزائن الأرض:

- ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ۝٥٥﴾ [يوسف: 55]

السؤال: ما الذي دار بينهما في ذاك الاجتماع الذي نظن أنه كان مغلقا؟

تخيلات من عند أنفسنا: نحن نتخيل يوسف يتحدث للملك عن كامل تفاصيل قصته منذ ولادته وحتى وصوله إلى بلاط الملك في هذه الساعة، ولا أظن أن يوسف سيغفل عن الحديث عن أصله وسلالته التي انحدر منها، والعقيدة التي يؤمن بها، لذا نحن نتخيل يوسف يذكر للملك ذاك التاريخ العريق منذ الجد الأول إبراهيم، الذي نحن نظن أنه كان أول من هبط مصر ودخل على ملكها الأول، ذاك الذي آتاه الله الملك، فحاج إبراهيم في ربه:

- ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٢٥٨﴾ [البقرة: 258]

فربط يوسف (نحن نتخيل) قصة النبوة في سلالته الطاهرة (إبراهيم- إسحق- يعقوب- يوسف) بقصة نشأت الدولة الملكية في أرض مصر (الملك الأول- الملك الثاني- الملك الثالث- الملك الرابع). عندها وجد هذا الملك (نحن لازلنا نتخيل) أن الرابط بين هاتين العائلتين لا يمكن إنكاره، فما كان منه إلا أن وافق على شروط يوسف، وجعل منه عزيزا لمصر (بالإضافة لمنصبه كوزير للخزانة).

السؤال: وكيف حصل ذلك؟

جواب: استخلصه لنفسه.

السؤال: وكيف ذلك؟

جواب: بالمصاهرة.

تخيلات من عند أنفسنا: بعدما لم ينجح إبراهيم في ثني الملك الأول عن كفره، عاد من أرض مصر متوجها إلى الأرض المقدسة، وفي منتصف الطريق توقف إبراهيم في منطقة بئر السبع، القريبة من "غيابة الجب"، وأنشأ فيها (نحن لازلنا نتخيل) مستوطنته الجديدة التي ستكون لأبنائه من بعده.

لمّا تحصلت لإبراهيم الذرية على الكبر بإسماعيل (الحليم) وإسحق (العليم):

- ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۝٣٩﴾ [إبراهيم: 39]

نقل إبراهيمُ ولدَه إسماعيل (الحليم) وأمه إلى الواد غير ذي الزرع ليقيموا الصلاة هناك عند بيت الله الحرام:

- ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم: 37]

ومكث إسحق (العليم) مع أمه في منطقة بئر السبع، وكان يتنقل إبراهيم بينهما بما آتاه الله به من الوسيلة التي تحدثنا عنها في بعض أجزاء مقالتنا تحت عنوان: لماذا قدم نبيّ الله لوط بناته بدلا من ضيوفه؟

ثالثا، في المنطقة المقابلة إلى الشرق كانت تقع قرية لوط التي نزل بها العقاب الإلهي بما كانوا يفسقون:

- ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ٣٤﴾ [العنكبوت: 34]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: جاء إخوة يوسف قادمين من منطقة بئر السبع التي تقع إلى الغرب من قرية لوط على طريق السيارة بين الأرض المقدسة ومصر.

رابعا، لو تدبرنا قصة القحط في الأرض لوجدنا أن أرض البداوة التي جاء منها إخوة يوسف قد أصابها القحط كذلك، لذا نحن نفتري الظن بأن أرضهم تلك لم تكن بعيدة جدا عن أرض مصر، فمادام أن الضّر قد مسهم فإن منطقتهم قد أصابها ما أصاب أرض مصر:

- ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ٨٨﴾ [يوسف: 88]

باب الكيل

دخل إخوة يوسف على أخيهم طالبين الكيل والمعونة بعد أن حلّ القحط بأرضهم كما حلّ بأرض مصر.

السؤال: لماذا دخلوا على يوسف عندما قدموا إلى أرض مصر؟

- ﴿وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ٥٨﴾ [يوسف: 58]

بداية، نحن نفتري الظن بأن دخول إخوة يوسف على أخيهم كان مفاجئا له، فلو أن يوسف كان يعلم قدومهم لما انتظر حتى يدخلوا عليه بأنفسهم، لأن الفضول ربما كان سيدفعه للنظر إليهم ولو من بعيد. فهو

قد تركهم منذ زمن، وكانوا هم حينها أصحاب الأمر الفصل، وها هم اليوم يقدمون إليه طالبين المعونة، فلم يعودوا في أحسن حال لهم.

السؤال الذي نظن أنه محوري في فهم قصة يوسف مع إخوته منذ هذه النقطة هو: لماذا دخلوا على يوسف؟

رأينا: غالبا ما صوّر أهل العلم دخول إخوة يوسف على أخيهم على أنه أمر ضروري لأنهم كانوا قادمين ليكتالوا من عنده، لكننا نطرح على أهل العلم والعامة على حد سواء التساؤل التالي: هل كان يدخل على يوسف كل من جاء ليكتال؟ هل كان يوسف يحضر بنفسه الكيل لكل من جاءه؟

رأينا: ذاك غير ممكن إطلاقا، لأن يوسف كان عنده من يقوم بهذه المهمة وهم فتيانه:

- ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ٦٢﴾ [يوسف: 62]

فالذين كانوا يقومون بمهمة الكيل للناس هم فتيانه وليس يوسف نفسه، فمن غير المنطقي أن يتواجد يوسف بنفسه عند كل كيل. فلا شك أن يوسف كان لديه مهام كثيرة يقوم بها لتصريف أمر الدولة.

السؤال: وأين كان يتواجد يوسف عندما دخل عليه إخوته؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن يوسف كان يتواجد في مكان حكمه، وهو المكان نفسه الذي دخلوا عليه فيه عندما جاءوا إليه بأخيهم الذي طلبه منهم:

- ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ٩٩﴾ [يوسف: 99]

وهو المكان نفسه الذي رجعوا ليدخلوا عليه فيه عندما أرسلهم إليه أبوهم ليتحسسوا من يوسف وأخيه

- ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ٨٧ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِي ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ٨٨﴾ [يوسف: 87-88]

وهو المكان نفسه الذي دخل عليه جميع أهله فيه بمن فيهم والده يعقوب حيث خروا لهم جميعا سجدا بعد أن رفع أبويه على العرش:

- ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ۝٩٩ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١٠٠﴾ [يوسف: 99-100]

السؤال: أين إذن كان يتواجد يوسف؟

رأينا: في المكان الذي يتواجد فيه عرشه.

السؤال المحوري هنا هو: لماذا دخل إخوة يوسف على يوسف هناك إذن؟ لِم لَم يتم الكيل لهم من قبل فتيان يوسف دون الحاجة أن يدخلوا على يوسف إلى مكان عرشه؟

رأينا المفترى: نحن نفتري القول أن الدخول على يوسف نفسه لم يكن ممكنا في تلك الظروف إلا للحاجة القصوى، فطلب الكيل بحد ذاته (نحن نظن) لا يستدعي حضور يوسف أو الدخول عليه، وما كان دخول من يكتل على يوسف ممكنا إلا إذا كان الأمر يستدعي ذلك.

السؤال: متى كان الدخول على يوسف ممكنا من قبل من جاء يطلب الكيل؟

جواب مفترى: نحن نظن أن دخول من جاء يطلب الكيل على يوسف يصبح لازما متى ما حصلت مشكلة ما لا يستطيع أن يبت فيها القول إلا يوسف نفسه. فكيف حصل ذلك؟

تخيلات: نحن نتخيل أن إخوة يوسف قد جاءوا مسرعين طالبين الكيل، فتوجهوا إلى المكان الذي سيكتالون فيه، فوجدوا فتيان العزيز هم من يقومون بهذه المهمة، وهنا نشبت مشكلة ما بحق هؤلاء الغرباء لا يستطيع حلها إلا العزيز نفسه، فتم إحالتهم إلى يوسف ليعرضوا عليه تلك المشكلة، ليكون قوله هو القول الفصل فيها.

السؤال: إن صح ما تزعم (يقول صاحبنا): فماذا كانت تلك المشكلة؟

رأينا: للإجابة على هذا التساؤل لابد من إثارة تساؤل آخر وهو: هل تظنون – يا سادة- أن ذلك الكيل الذي يتوافر عند يوسف هو من حق كل من حضر طالبا له؟ هل تظنون أن يوسف كان يعطي الكيل لكل من طلبه؟ ألم يكن هناك شروط "محددة" يجب توافرها فيمن جاء يطلب الكيل؟

جواب مفرى: لا شك عندنا أن "عملية الكيل" للناس في تلك الظروف العصيبة لم تكن بالسهولة التي يتخيلها من يقرأ كتاب الله على عجل، فيوسف (قبل كل شيء) حفيظ عليم، يقوم بتوزيع تلك المحاصيل المتوفّرة عنده بالدقة المطلوبة، فيعطيها لمستحقيها، أليس كذلك؟

السؤال: هل كان إخوة يوسف ممن يستحقون تلك المعونة؟

جواب: كلا.

السؤال: لماذا؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: لأنهم ليسوا من أهل البلاد (مصر). فإخوة يوسف لم يكونوا من أفراد الدولة المصرية حينئذ. فهم قادمون من البدو، وهم غرباء عن أرض مصر، فلا يحق لهم (نحن نفتري القول) الحصول على المعونة مما تم تخزينه في سنين القحط ليسد حاجة أهل البلاد الأصليين (المصريين).

تخيلات: عندما حضر إخوة يوسف إلى المكان الذي يتم فيه الكيل، طلبوا من فتيان العزيز (الذين لا يعرفونه بعد) أن يكتالوا لهم، ولما كان فتيان يوسف يقومون بإعطاء الكيل ضمن قيود وسجلات رسمية، كان لابد من أن يأخذوا من هؤلاء القادمين من بعيد المعلومات الشخصية الضرورية كالاسم والعائلة والمسكن والمهنة، الخ. وعندما تبين لفتيان العزيز (نحن لازلنا نتخيل) أن هؤلاء الإخوة ليسوا من أهل البلاد المصرية، ما كان فتيان يوسف يستطيعون أن يكتالوا لهم، لأن الكيل هو من حق أهل البلاد فقط، عندها تم إحالتهم على الفور إلى صاحب القرار القطعي في ذلك وهو يوسف نفسه، ولهذا السبب – نحن نفتري القول- كان دخول إخوة يوسف على أخيهم مبررا:

- ﴿وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٨﴾ [يوسف: 58]

تخيلات: نحن نتخيل أن إخوة يوسف قد دخلوا على يوسف ليعرضوا عليه قضيتهم المتمثلة بأن فتيانه قد منعوهم الكيل لأنهم غرباء عن هذه البلاد، وهذا ما نجده في قولهم عندما رجعوا إلى أبيهم لا كيل معهم:

- ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٦٣﴾ [يوسف: 63]

السؤال: لماذا مُنع منهم الكيل؟

الفكر الشعبي السائد: غالبا ما ظن من يقرأ قصة يوسف بما أفهمهم إياه سادتنا العلماء أهل الدراية أن إخوة يوسف قد عادوا يحملون من عند يوسف كل ما لذّ وطاب في رحلتهم الأولى هذه، أليس كذلك؟

رأينا: نحن نظن أن إخوة يوسف قد رجعوا في رحلتهم الأولى وقد منعوا الكيل، فلم يكتل لهم يوسف، وجل ما جاءوا به من عند يوسف هذه المرة هو بعض المتاع:

- ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ٦٥﴾ [يوسف: 65]

لذا نحن نجد الضرورة تستدعي التفريق بين الكيل الذي منعهم إياه يوسف:

- ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٦٣﴾ [يوسف: 63]

والمتاع الذي عادوا به من عند يوسف، وهو الذي فتحوه عندما عادوا إلى أبيهم:

- ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ٦٥﴾ [يوسف: 65]

السؤال: ما الفرق بين الكيل (الذي منعوه) والمتاع (الذي فتحوه)؟

رأينا المفترى: بداية نحن نظن أن المتاع هو ما يكفي المسافر في رحلته كما كان حال إخوة يوسف عندما ذهبوا به ليرتع ويلعب في رحلتهم خارج الديار عندما كان صغيرا:

- ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧﴾ [يوسف: 17]

كما نعتقد جازمين أن المتاع يشمل جميع حاجات المسافر ولا يقتصر على الطعام، (وسنتعرض لهذا بالتفصيل في الجزء القادم بحول الله وتوفيق منه).

لذا، نحن نظن أن ما عاد به إخوة يوسف من عند أخيهم في رحلتهم الأولى لم يكن سوى متاعهم الذي يكفيهم عناء السفر، ولكنهم في القوت ذاته قد منعوا الكيل كما جاء على لسانهم لأبيهم:

- ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٦٣﴾ [يوسف: 63]

السؤال مرة أخرى: لماذا مُنع منهم الكيل؟

جواب مفترى: لأن الكيل من حق أهل البلد الأصليين فقط، أي من كان ينتمي إلى شعب "ملك مصر" حينئذ.

السؤال: لماذا؟

رأينا: نحن نعتقد أن يوسف كان يدير شؤون الدولة المصرية حينئذ، وكان حفيظا على أرزاق الشعب، عليما بكيفية تصريفها بالطريقة الصحيحة، فيوسف يعلم أن تلك الأقوات هي حق للشعب المصري لا يحق له أن يعطي منها أحدا حتى لو كان من يطلبها هم إخوته، وحتى لو كان يعلم أنهم سيذهبون بها إلى أبيه ليأكل منها.

السؤال: لماذا؟

رأينا: لا شك عندنا أن الدولة المصرية حينئذ كان لها حدودها المعروفة جغرافيا، وأن الملك مسئول عن شعبه داخل حدود دولته، ولا شك أن لأفراد الدولة الحق في أن تساعدهم دولتهم في أيام الشدائد، ولكن للدولة أيضا حق على أفرادها بأن يدافعوا عنها في أوقات الحرب مثلا. لذا كان لزاما على كل من يطلب من الدولة المساعدة في أوقات الحاجة أن يكون مسجلا في قيودها ليتم استدعاءه "للخدمة العسكرية" في أوقات الحرب للدفاع عن الدولة من الأخطار التي قد تحدق بها.

نتيجة مفتراة: كان للدولة سجلات وقيود رسمية تبين بالتفصيل من هم المنطوين تحت لوائها ويعتبرون أنفسهم جزءً من تلك الدولة.

السؤال: لماذا منع إخوة يوسف الكيل؟

جواب: لأنهم لم يكونوا من "أفراد الدولة المصرية" الذين يستحقون أن تدفع لهم الدولة في هذا الوقت العصيب.

تخيلات: عندما جاء إخوة يوسف إلى المكان الذي يتم فيه الكيل، تم البحث في قيود الدولة عن أسمائهم، فلم يتم العثور عليها، عندها لم يستطع فتيان يوسف أن يكتالوا لهم لأنهم لاشك سيحاسبون على ذلك. فالأمر في عهد يوسف يختلف (ربما بعض الشيء) عن ما نراه في دولنا العربية الإسلامية العتيدة، الغنية بالثروات، "المعاقة" في توزيعها. ف لعلي أجزم القول بأن فتيان يوسف كانوا على قدر من النزاهة (كعزيز مصر وملكها) تمنعهم من سرقة ونهب أموال البلاد والعباد. فالبلاد بثرواتها ليست مزرعة "للخلفوهم" يعيثون فيها فسادا كما يفعل أهل السياسة في وطننا العربي الإسلامي من المحيط إلى الخليج. وأنا مالي؟ شو دخلني بهالكلام؟!!!

المهم بالنسبة لنا هنا أن فتيان يوسف لم يكونوا ليكتالوا لإخوة يوسف مادام أن أسماء هؤلاء الغرباء لا تظهر في سجلات الدولة المصرية حينئذ. فتم إحالتهم إلى صاحب القرار القطعي في هذه القضية، فدخلوا على يوسف طالبين منه أن يحل لهم مشكلتهم هذه.

وما أن دخل إخوة يوسف على أخيهم حتى عرفهم وإن كانوا هم لازالوا له منكرين، فعرضوا عليه قضيتهم، ولكن يوسف (الحفيظ) لم يكن يستطيع أن يخرق القوانين، فهو يعلم أن هذه أموال للدولة، وأنها من حق أفراد الدولة فقط، توزع بالعدل والقانون، فلا يستطيع أن يخرقها لمجرد أن هؤلاء الطالبين للكيل هم إخوته، لذا كان رده عليهم على النحو التالي:

- ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾﴾ [يوسف: 59-60]

ولو تدبرنا هذه الآية الكريمة لما وجدنا أن يوسف ما قدّم لهم أكثر من جهازهم (**وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ**)، مؤكدا لهم بأن الكيل لهم مشروط بأن يأتوه بأخ لهم من أبيهم.

تساؤلات

⇐ لماذا وضع يوسف هذا الشرط؟
⇐ كيف عرف يوسف أن لهم أخا آخر من أبيهم؟
⇐ لماذا لم يدخل هذا الطلب الريبة في نفوسهم؟
⇐ لماذا لم يتردد الأبناء من طلب أخيهم للذهاب معهم في المرة القادمة؟
⇐ لماذا لم يسأل يعقوب عن السبب الذي من أجله طلب عزيز مصر من أبناءه أن يأتوه بأخيهم من أبيهم؟ لماذا لم يستنكر يعقوب النبي طلب عزيز مصر هذا؟
⇐ الخ

رأينا: نحن نظن أن الإجابة على جميع هذه التساؤلات تكمن في عبارة واحدة قالها الأبناء لأبيهم عندما عادوا أليه وقد منعوا الكيل.

السؤال: ما هي تلك العبارة؟

رأينا: إنها عبارة " وَنَمِيرُ أَهْلَنَا":

- ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾﴾ [يوسف: 65]

السؤال: ما معنى " وَنَمِيرُ أَهْلَنَا"؟ وما هي الرسالة التي أوصلها الأبناء لأبيهم عندما ذكروا له ذلك؟

جواب: نحن نظن أن الأبناء قد أوصلوا رسالة لأبيهم مفادها أنه يستحيل عليهم الحصول على الكيل من عند عزيز مصر ما لم يتم "تنمير الأهل"، أي تسجيل أسمائهم جميعا في قيود وسجلات عزيز مصر ليكونوا جزء من الدولة المصرية، ف "تنمير الأهل" يعني إعطائهم "نمرة"، أي سجلا مدنيا في قيود الدولة. وهذا في ظننا هو السبب الذي من أجله طلب يوسف أن يحضروا إليه أخاهم الذي من أبيهم، ولكن كيف ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نتخيل أن الذين قدموا من البدو كانوا إخوة يوسف جميعا باستثناء واحد "وهو الأخ الشقيق ليوسف" الذي جاء خبره في الآية الكريمة التالية في بداية قصة يوسف:

- ﴿إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٨﴾ [يوسف: 8]

ولما كان هؤلاء الإخوة يسكنون على أطراف أرض مصر، لم يكونوا منطوين تحت لواء الدولة المصرية حينئذ، وما أن وصل الإخوة إلى مكان الكيل حتى طلب منهم فتيان يوسف المعلومات الشخصية وعدد البعير الذي سيحمل كيلهم، فما كان من إخوة يوسف إلا أن قدّموا معلومات صحيحة تماما عنهم تتمثل بأن عددهم أحد عشر شخصا، لذا فهم يطلبون أحد عشر كيلا، وأنهم قادمون من البدو، وأنهم...الخ. ولكن هذا لا شك أدخل الريبة في نفوس فتيان يوسف مادام أن الحاضرين منهم هم عشرة فقط، فكيف سيصدقون بأنهم يستحقون أحد عشر كيلا؟

رأينا: لقد كان ظن إخوة يوسف أن لكل شخص يكتب اسمه في سجلات الدولة الحق في كيل واحد، لذا عمدوا إلى تسجيل جميع اسمائهم بمن فيهم أخيهم الذي مكث عند أبيه، ولكن هذا الأمر لم يكن ليرضي فتيان يوسف لأن من أراد الكيل فلابد أن يكون حاضرا، فتم إحالة الملف بجميع تفاصيله إلى يوسف قبل أن يسمح للإخوة جميعا بالدخول عليه، وما أن بدأ يوسف ينظر بالملف حتى أصابته الحيرة في أمرهم لأن هذا العدد وهذا الوصف ينطبق على أهله في البدو، فوقف يوسف (نحن نتخيل) ليتساءل بينه وبين نفسه: هل فعلا هؤلاء هم إخوتي؟

رأينا: عندما نظر يوسف في ذلك الملف المربك الذي يحتوي جميع المعلومات عن هؤلاء الغرباء والتي جمعها فتيانه منهم قبل أن يسمحوا لهم بالدخول عليه، لم يستطع يوسف أن يتمالك نفسه، فأمر على الفور بأن يدخلوهم عليه، وما أن دخلوا عليه حتى كانت النتيجة كما تصورها الآية الكريمة التي بدأنا النقاش فيها في بداية هذا الجزء:

- ﴿وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ٥٨﴾ [يوسف: 58]

وللحديث بقية

دعاء: فالله وحده أسأل أن يعلمنا ما لم نكن نعلم، وأن يهدينا رشدنا، وأن يهدينا إلى نوره الذي أبى إلاّ أن يتمّه ولو كره الكافرون، فلا نفتري عليه الكذب ولا نقول عليه ما ليس لنا بحق، إنه هو العليم الحكيم .

المدّكرون: رشيد سليم الجراح و علي محمود سالم الشرمان

بقلم: د. رشيد الجراح

6نيسان 2014

د. رشيد الجراح مركز اللغات، جامعة اليرموك



الجزء التاسع عشر

مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ
أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ
ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ



الجزء التاسع عشر: مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ

حاولنا في الجزء السابق من هذا الكتاب تمرير زعمنا بأن دخول إخوة يوسف على أخيهم كان بسبب مشكلة نشبت بينهم وبين فتيانه، فهؤلاء الغرباء عن البلاد (كان ظننا) لم يكونوا منطوين تحت لواء الدولة المصرية حينئذ. فمادام أنهم كانوا قادمين من البدو، لم يكن لهم (نحن نزعم) سجلات في قيود الدولة المصرية. لذا افترينا القول من عند أنفسنا بأن هذا كان أحد الأسباب الرئيسة التي دفعت بإخوة يوسف للعودة إلى مصر مرة ثانية، وقرأنا ذلك في عبارة "وَنَمِيرُ أَهْلَنَا" في الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَاۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ٦٥﴾ [يوسف: 65]

فإخوة يوسف كانوا – في ظننا- يخبرون أباهم بعد أن انقلبوا إليه من مصر بأنه "لا نمير" لأهلهم جميعا في قيود وسجلات الدولة المصرية، أي لم تكن لهم "نمرة" (كما نقول بالعامية)، أو أرقام وطنية كما ظهر في الآونة الأخيرة في معظم الدول العصرية، فكانت الحاجة ملحّة أن يتم "تنميرهم" (أي تسجيلهم في سجلات الدولة الرسمية)، وبخلاف ذلك لا حق لهم في الكيل من عند عزيزها، فهم قد مُنعوا الكيل:

- ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٦٣﴾ [يوسف: 63]

وقد كان إحضار أخ لهم من أبيهم هو ما سيدفع بالعزيز أن يكتل لهم:

- ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ٥٩ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ٦٠﴾ [يوسف: 59-60]

فرجعوا إلى أبيهم ليخبروه بشرط العزيز هذا:

- ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٦٣﴾ [يوسف: 63]

وذلك لأنهم (نحن نظن) سيصبحون جميعا حينئذ جزءا من الدولة المصرية، ربما ليتم استدعاءهم للخدمة العسكرية مثلا في حالات الضرورة. فمن أراد أن يستفيد من خدمات الدولة، فعليه (نحن نفتري القول) أن يقوم بالواجبات التي توكلها الدولة إليه عند الحاجة. فمن غير المنطقي أن تقوم الدولة بإطعام الناس في سنين القحط، ثم إذا ما انتهت حاجتهم إليها تركوها ورحلوا عنها (كما يفعل البدو في بلاد الأعراب).

ولمّا كان يوسف (نحن نفتري القول) يعلم كيف يصرف شؤون البلاد، كان اشتراطه عليهم أن يأتي إليه الإخوة جميعا بمن فيهم أخ لهم من أبيهم ليس حاضرا معهم الآن، فالدولة العصرية لا تقبل (نحن نظن) بأن يتم جلب بعض الأبناء للخدمة العسكرية في أوقات الضرورة والسكوت عن آخرين، فسجلات الدولة يجب أن تكون كاملة غير ناقصة أو لا تكون، فلا أظن أن يوسف سيرضى أن يفتح ملفا ليعقوب وجزءا من أبنائه. فلابد للملف (إن فتح) أن يتم تسجيل الجميع فيه وإلا سيبقى مغلقا وللأبد:

- ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ۝٦٠﴾ [يوسف: 60]

لذا زعمنا الظن بأن إخوة يوسف قد منعوا الكيل حينئذ لأنه لا حق لهم في أموال الدولة المصرية ما لم يتم "تنميرهم" فيها. لذا جاء طلب الإخوة من أبيهم أن يبعث معهم أخاهم (نحن نزعم) ليصار إلى تنمير أهلهم جميعا في مصر (وَنَمِيرُ أَهْلَنَا)، فتصبح لهم قيود "نمرة" في سجلات تلك الدولة. وعندها يصبحوا مؤهلين جميعا للحصول على الكيل من عند عزيزها.

ولعلي أجزم القول أن يوسف قد استغل هذه الوفرة الاقتصادية التي تحققت لمصر حينها ليزيد من قوتها العسكرية. فأصبحت مصر في زمن يوسف هي حاضرة الدنيا (أم الدنيا كما يرغب إخواننا المصريين أن يسمونها). فتوالت عليها القوافل (السيارة) من كل حدب وصوب.

دعاء: فالله وحده أسأل أن يهيئ لمصر صدّيقا حفيظا عليما، ليعود بها لتكون حاضرة الدنيا، فيأتيها السيارة من كل مكان يطلبون قوتهم منها كما كانت في أيام يوسف الصديق

نتيجة: نحن نظن أن عودة الإخوة إلى أرض مصر كانت مدفوعة بالحاجة إلى تنمير أهليهم (وَنَمِيرُ أَهْلَنَا) كما جاء في الآية الكريمة قيد البحث:

- ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ۝٦٥﴾ [يوسف: 65]

السؤال: هل هذا هو السبب الوحيد الذي دفع بالإخوة للعودة إلى مصر مجددا؟

رأينا: نحن نظن أنه كان هناك سبب آخر دفع بإخوة يوسف للعودة إلى مصر. فما هو؟

جواب: ليعيدوا البضاعة التي جعلها فتيان يوسف في رحالهم بأمر من يوسف نفسه:

- ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٦٢﴾ [يوسف: 62]

دقق - عزيزي القارئ- في هذه الآية الكريمة جيدا لتجد أن يوسف قد رسم الخطة جيدا، وكان هدفه منها هو أن يعيد الإخوة إلى أرض مصر مرة أخرى رغما عنهم (لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ). ولكن كيف ذلك؟

تخيلات: عندما دخل الإخوة على أخيهم من أجل أن يكتل لهم، لم يستجيب يوسف لطلبهم مادام أنهم ليسوا من أفراد الدولة المصرية، فمنعهم الكيل:

- ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٦٣﴾ [يوسف: 63]

ولو دققنا في صيغة الفعل "**مُنِعَ**" في هذه الآية الكريمة لوجدنا أنه جاء على صيغة المبني للمجهول (كما يحب أهل العربية أن يسمونه)، والسبب في ذلك أن يوسف (نحن نظن) لم يمنعهم الكيل من عنده، وأن فتيانه لم يمنعوهم الكيل من عندهم، ولكنهم في الحقيقة منعوا الكيل في نهاية المطاف، فكيف تم ذلك؟

رأينا: لأن منعهم الكيل لم يكن من يوسف أو من فتيانه ولكنه كان منعا بالقانون، فالقانون في الدولة المصرية حينئذ هو الذي لم يكن يسمح لهم أن يكتالوا، وما كان يوسف أو فتيانه يستطيعون أن يخرقوا القانون، فهم في نهاية المطاف ليسوا أكثر من مؤتمنين على تنفيذ القانون. فكان رد يوسف عليهم (نحن نتخيل) على النحو التالي: أنا أشعر تماما بحاجتكم إلى الكيل، لكن القوانين المعمول فيها في بلاط ملك مصر (قال يوسف لهم) لا تسمح لنا بأن نكتل لكم. فأنا أقدم لكم شديد الاعتذار عن عدم استطاعتنا أن نساعدكم بهذه الطريقة، لكننا نستطيع أن نساعدكم (أضاف يوسف قائلا) بطريقة أخرى وهي أن نجهزكم بجهاز لتعودوا إلى بلادكم.

فما كان من يوسف إلا أن جهزهم بنفسه، انظر صيغة الفعل هذه المرة:

- ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ۝٥٩﴾ [يوسف: 59]

نتيجة: لم يستطع إخوة يوسف الحصول على الكيل (مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ)، ولكن يوسف قام بتجهيزهم (وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ)، فما الفرق؟ أي ما الفرق بين أن يكتل لهم يوسف أو أن يجهزهم بجهازهم؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن الكيل كان يعطى للناس بالمجان بينما كان الجهاز مدفوعا الثمن.

الدليل: لو تدبرنا ما طلبه يوسف من فتيانه بعد أن جهز إخوته بجهازه، لوجدنا أنه قد طلب من فتيانه أن يقوموا بفعل آخر وهو أن يجعلوا بضاعتهم (أي بضاعة إخوته) في رحالهم:

- ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ٦٢﴾ [يوسف: 62]

السؤال: ما هي بضاعتهم التي طلب من فتيانه أن يجعلوها في رحال إخوته؟

رأينا: إنها ما دفعه إخوة يوسف ثمنا لذاك الجهاز.

الدليل: نحن نظن أن جلب الدليل على ما نفتري من قول من عند أنفسنا في هذه الجزئية يحتاج إلى إثارة عدة تساؤلات خاصة بمفردة البضاعة نذكر منها:

⇐ ما هي البضاعة التي طلب من فتيانه أن يجعلوها في رحالهم؟
⇐ لماذا طلب يوسف من فتيانه أن يجعلوا بضاعة إخوته في رحالهم؟
⇐ وما هي الرحال؟
⇐ وكيف وضع فتيانه تلك البضاعة في رحال إخوة يوسف؟
⇐ ولماذا لم يتنبّه إخوة يوسف إلا أن بضاعتهم قد جعلت في رحالهم إلا بعد أن انقلبوا إلى أهلهم (لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ)؟ فلماذا لم يعرفوها في طريق عودتهم مثلا؟
⇐ وكيف كان ذلك سببا في رجوعهم (لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)؟
⇐ الخ

بداية، نحن نظن أن البضاعة هي "كل مادة" تستخدم في التبادلات التجارية، فهي ما كان يستخدمه الناس من أجل شراء احتياجاتهم، فلقد كان يوسف نفسه بضاعة عندما وجده السيارة "في غيابة الجب":

- ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ١٩﴾ [يوسف: 19]

وما أن وصلوا به إلى سوق مصر حتى تم شراءه:

- ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ٢٠﴾ [يوسف: 20]

ولا شك عندنا أن البضاعة "مادة التبادل التجاري" تختلف من بلد إلى بلد، ولا شك أن القيمة السوقية لبعضها أفضل من القيمة السوقية للأخرى، فبعض البضاعة قد يتم تصريفها بسرعة، وبعضها قد يصعب تصريفها، فيوسف كان بضاعة، ولكن الذي اشتراه دفع فيه ثمن بخس، ومن شراه كان فيه من الزاهدين، وهكذا، وبمثل هذا المنطق المفترى من عند أنفسنا نحن نتخيل أن البضاعة التي جاء بها إخوة يوسف في رحلتهم الأخيرة إلى أرض مصر لم تكن بضاعة ذات قيمة سوقية عالية بدليل أنها كانت "بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ"، أي لقد كان تصريفها صعب بعض الشيء، لذا طلب إخوة يوسف الكيل (المجان) والتصدق عليهم:

- ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [يوسف: 88]

نتيجة مفتراة: كان الناس في زمن يوسف يستخدمون البضاعة في التبادلات التجارية التي تجري في أسواقهم، فقد تعطيني أنت زيتا وأعطيك أنا فاكهة، وقد تعطيني البقر وأعطيك الإبل، وقد تعطيني الضأن وأعطيك المعز، وهكذا. لذا نحن نتخيل أن إخوة يوسف قد هبطوا مصرا في رحلتهم الأولى ومعهم بضاعة ليتم إجراء التبادل التجاري مع أهل البلاد المصرية بها، فماذا كانت تلك البضاعة؟

رأينا: لما كانت البضاعة يمكن أن تكون أي شيء يستخدم في التعاملات التجارية، فنحن لا نستثني من ذلك بعض "المعادن النقدية الثمينة" كالذهب والفضة مثلا، ولعلي أجزم أن إخوة يوسف قد هبطوا مصر في رحلتهم الأولى يحملون معهم معادن ثمينة من الذهب والفضة ليشتروا بها من محاصيل مصر الزراعية فتسدهم الحاجة في سنين القحط الشديد.

الدليل: نحن نظن أنه مادام أن يوسف قد طلب من فتيانه أن يجعلوا بضاعة إخوته في رحالهم، ومادام أن الإخوة لم يدركوا أن يوسف قد رد عليهم بضاعتهم إلا بعد أن انقلبوا إلى أهليهم عندما فتحوا جميع متاعهم:

- ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾﴾ [يوسف: 65]

فنحن نفتري القول أن تلك البضاعة كانت صغيرة الحجم يمكن إخفاؤها بسهولة عن أعين الناظرين.

تخيلات: نحن نتخيل أنه لمّا طلب يوسف من فتيانه أن يجعلوا بضاعة إخوته في رحالهم، عمد الفتيان إلى وضع تلك البضاعة بطريقة لا يمكن الوصول إليها إلا بعد أن يفتحوا رحالهم كلها متى ما انقلبوا إلى أهليهم وقاموا بفتح كامل متاعهم، ولننظر إلى ما حصل من أمر الإخوة بعد أن رجعوا إلى أبيهم، فالنص القرآني يبين أنه ما أن رجعوا إلى أبيهم حتى حصل بداية حوار طويل مع والدهم، وفيه راودوه عن أخيهم:

- ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يوسف: 63]

إلا أن الوالد رفض طلبهم هذا رفضا قاطعا:

- ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [يوسف: 64]

فسكت الأبناء بعض الشيء، ربما خجلين في أنفسهم من فعلتهم القديمة في الزمان، الحاضرة في الذاكرة والمكان، وما عادوا إلى فتح الملف من جديد مع والدهم إلا بعد أن استراحوا في ديارهم، وقاموا بفتح رحالهم جميعا، وذلك لأن المفاجأة كانت كبيرة لهم ولوالدهم يعقوب، ألا وهي وجود بضاعتهم وقد ردت إليهم في رحالهم:

- ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ۝٦٥﴾ [يوسف: 65]

وفي هذه اللحظة بالذات أدرك يعقوب (نحن نتخيل) بأنه لا مفرّ من الرضوخ لطلبهم، وإرسالهم مرة أخرى إلى أرض مصر، ولكن لماذا؟ أي لماذا رضي يعقوب أن يرسل معهم أخاهم بعد أن وجدوا البضاعة وقد ردت إليهم في الرحال؟

رأينا: نحن نجد الإجابة على هذا السؤال متوافرة في العبارة التي قالها الأبناء لأبيهم في الآية نفسها وهي عبارة "مَا نَبْغِى". ولكن كيف ذلك؟

رأينا: نحن نظن أن البغاء هو اعتداء طرف على طرف آخر:

- ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝٢٠﴾ [الرحمن: 19-20]
- ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩﴾ [الحجرات: 9]
- ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣٣﴾ [النور: 33]
- ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝١٩﴾ [آل عمران: 19]
- ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۝٢٠﴾ [مريم: 20]

للتفصيل حول مفهومنا للبغاء الذي جاء في هذه الآيات الكريمة، انظر مقالتنا تحت عنوان: كيف تم خلق عيسى بن مريم؟ الجزء التاسع.

رأينا المفترى: مادام أن هؤلاء هم أبناء الأنبياء، ومادام أن والدهم يعقوب هو نبي الله من تلك السلالة الطاهرة (إبراهيم- إسحق- يعقوب)، فإن "البغي" هو آخر شيء يمكن أن يفكر فيه هؤلاء القوم، فهم بكل

بساطة لن يبغوا (أي لن يعتدوا ظلما وجورا) على أحد حتى وإن كان غريبا أو حتى إن كان غائبا، فهم لا شك ممن يدفعون للناس حقوقهم ولا يبخسوا منها شيئا، لذا كان لابد أن يكفوا البغي بأنفسهم، ولكن كيف ذلك؟

رأينا: لقد ذكرنا آنفا أن يوسف قد منعهم الكيل لأن قوانين البلاد (في ظننا) لم تكن تسمح له بأن يكتل لمن لم يكن من أفراد الدولة المصرية، ولكنه في الوقت ذاته لم يمنعهم الجهاز، فقام بنفسه بتجهيزهم بجهازهم:

- ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾﴾ [يوسف: 59]

ونبههم إلى أن الكيل لهم مشروط بأن يأتوه بأخ لهم من أبيهم:

- ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾﴾ [يوسف: 60]

فرجع الأبناء يراودن أباهم لكي يتحصّلوا على الكيل:

- ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يوسف: 63]

ولن يتحصل لهم ذلك إلا بعد أن يتم "تنميرهم" في سجلات الدولة المصرية:

- ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَـٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَـٰذِهِۦ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾﴾ [يوسف: 65]

السؤال: لماذا جهزهم بجهازهم مادام أنه قد منعهم الكيل؟

جواب مفترى مهم جدا: نحن نظن أن إخوة يوسف قد مُنعوا الكيل لأن الكيل (كما افترينا القول آنفا) كان يعطى لأفراد الدولة المصرية فقط وبالمجان (أي بدون ثمن)، فكان ذاك حق لأفراد الدولة المصرية على حكومتهم في زمن الشدة. ولم تكن هذه هي الطريقة الوحيدة التي يتم بها توزيع الخيرات التي خزّنها يوسف استعدادا لمواجهة سنين الشدة. فلقد كان هناك (نحن نتخيل) طريقة أخرى لمساعدة الناس تكمن في إعطاء الناس من خيرات البلاد المخزّنة مقابل الثمن (أي البدل). فكيف ذلك؟

تخيلات: نحن نظن أن يوسف قد قام بالإعداد الكامل لسنين القحط الشديد، فأخذ يخزّن ما يكفي أفراد الدولة جميعا من المئونة لمواجهة تلك السنين. وكانت تعطى هذه المؤن للناس بالمجان (أي دون ثمن). ولكن يوسف لم يكن (نحن نتخيل) ليمنع من أراد الزيادة من أن يأخذها من باب التجارة مثلا. ولكن تلك لا تعطى إلا بثمنها. وعندما جاء إخوة يوسف ليكتالوا منعهم الكيل مادام أن الكيل مجاني وهو حق حينئذ لأفراد

الدولة المصرية فقط. ولكنه كان مستعدا أن يعطي من أراد أن يدفع البدل (الثمن) من تلك الخيرات. ومن هذا الباب قام إخوة يوسف بشراء بعض الحاجيات بما كان لديهم من "بضاعة". فاستلمها فتيانه منهم، وقام يوسف بتجهيزهم بجهازهم الذي اشتروه منه بنفسه، وما أن انتهى من جهازهم حتى أصدر الأوامر على انفراد لفتيانه أن يجعلوا ما أخذوه من إخوته "البضاعة" في رحالهم:

- ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٦٢﴾ [يوسف: 62]

ونحن نتخيل ذلك على نحو أن يوسف هو من أشرف بنفسه على عملية التبادل التجاري بينه وبين إخوته، فأخذ منهم بضاعتهم (الذهب والفضة) وقدم لهم بضاعة من عنده (من خيرات البلاد). وقام بإصدار أوامره لفتيانه أن يضعوا ذاك الجهاز في الرحال، وأن يجعلوا بضاعة إخوته فيه، ولا شك عندنا أن فتيانه قد قاموا بالمهمة على أكمل وجه، فوضعوها بطريقة لا يمكن الوصول إليها إلا بعد أن يعود الإخوة إلى بلادهم ويفتحوا رحالهم كاملة ليجدوها قد ردت إليهم:

- ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِي ۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ۝٦٥﴾ [يوسف: 65]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا 1: لم يكن يوسف يستطيع أن يكتل لإخوته مادام أن الكيل كان بالمجان لأفراد الدولة المصرية فقط، ولكنه جهز إخوته بجهازهم مقابل البضاعة التي كانت معهم.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا 2: قام فتيان يوسف بوضع الجهاز الذي جهزه يوسف لإخوته في رحالهم، وهناك عمدوا أن يجعلوا البضاعة في الرحال بطريقة لا تجلب انتباه الإخوة إليها.

السؤال: لقد قلت سابقا بأن يوسف كان حفيظا على أموال الدولة المصرية فلم يكن ليفرط فيها حتى لإخوته، فلماذا إذن عمد إلى رد البضاعة لهم بعد أن بادلهم إياها بجهازهم؟ ألم يكن الأجدر به أن يضعها في خزينة الدولة؟ أليس في ذلك تحايل على القوانين؟

رأينا المفترى: لقد كانت تلك خطة محكمة من يوسف لأنه يعلم أن هذه البضاعة لا شك ستعود إلى خزينة الدولة قريبا، وأنه هو الضامن لها.

السؤال: وكيف ذلك؟

جواب مفترى: لأنه يعلم أن هذا التدبير هو الذي سيجبر والده يعقوب على النزول عند رغبة أبنائه بأن يرسل معهم أخاهم إلى أرض مصر، ولكن كيف ذلك؟

رأينا: لا شك أن يوسف يعلم أن والده يعقوب لا يمكن أن يقبل "البغاء" (أي الاعتداء على الآخرين)، فنبي الله يعقوب لا يمكن أن يبغي على أحد، فيستحيل أن يأخذ شيئا ليس له في حق، فهو رجل يعرف كيف يدفع للناس حقوقهم. لذا كان يوسف يعلم يقينا بأنه ما أن يرى والده يعقوب البضاعة (أي الأموال) التي دفعها أولاده لعزيز مصر ثمنا لما جهّزهم به من جهاز قد ردت إليهم حتى يظن على الفور بأن هذا قد حصل بالخطأ من قبل فتيان العزيز الّذين أعدوا لهم متاع رحالهم، وأن هؤلاء الفتيان سيواجهون المتاعب بسبب ذلك، لأنهم سيكونون مسئولين أمام العزيز نفسه على التفريط بها، ولا شك أن عزيز مصر سيطلب منهم أن يردوا ما فرطوا به من البضاعة إلى خزينة الدولة من أموالهم الخاصة ربما بعد أن تُنسب إليهم تهمة سرقة أموال الدولة. لذا كان لابد ليعقوب (الذي لا يبغي) من رد تلك البضاعة (الأموال) إلى أصحابها على الفور وذلك لسببين اثنين على الأقل:

⇐ **السبب العقائدي**: لأن يعقوب وبنيه ليسوا بسارقين (وسنرى تبعات هذا لاحقا بحول الله وتوفيقه)، فالسرقة بشريعتهم جريمة كبيرة تستحق قطع اليد
⇐ **السبب الإنساني**: لأن يعقوب وبنيه ما كانوا ليكونوا سببا في شقاء الآخرين خاصة من أخطأوا في وضع تلك البضاعة في متاع أبنائه.

تخيلات من عند أنفسنا: ما أن رأى يعقوب أن البضاعة (وهي ما دفعه أبناؤه ثمنا لما أحضروه من هناك) قد ردّت في متاع أبنائه حتى أدرك بأن هذه الأموال لابد أن تعود إلى أصحابها على الفور، ولتبسيط الفكرة دعنا نضرب المثال التالي: تخيل - عزيزي القارئ- لو أنك أرسلت واحدا من أبنائك إلى محل تجاري ليحضر لك بعض "مستلزمات البيت"، وما أن عاد إليك ولدك يحمل تلك "الأغراض" التي اشتراها من ذلك المحل حتى تبين لك عندما قمت بفتحها أن الأموال التي أرسلتها مع ولدك ليدفعها ثمنا لتلك الأغراض متواجدة في "الأكياس" التي جاء يحملها الولد من هناك، فما الذي يجب عليك أن تفعله على الفور (ربما قبل أن تستهلك ما اشتريته بها)؟ ألا تبعث بولدك نفسه على الفور مرة أخرى إلى المحل التجاري ليرد الأموال إلى صاحب أو عامل المتجر الذي اشترى منه تلك الحاجيات؟ أليس هذا ما يجب أن يفعله من كان في قلبه مثقال ذرة من "ضمير"؟ فما بالك برجل مثل يعقوب النبي؟ هل تراه يسكت على ذلك؟

جواب مفترى: نحن نتخيل أن هذا بالضبط ما حصل عندما رأى يعقوب أن البضاعة قد وجدت في متاع أبناءه، لقد ظن يعقوب (نحن نتخيل) أنها ربما وضعت هناك من باب الخطأ. فلابد من إرجاعها إلى أصحابها. لذا يجد من أراد أن يتدبر النص القرآني أن نبرة خطاب يعقوب مع أبناءه بخصوص العودة إلى أرض مصر مصطحبين أخاهم قد انخفضت إلى أدنى مستوياتها:

- ﴿قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ٦٦﴾ [يوسف: 66]

ولو راقبنا هذه الآية الكريمة جيدا لما وجدنا يعقوب الآن يعارض عودة أبناءه إلى مصر لأن هذا أمر لا مفر منه وذلك من أجل (نحن نظن) رد البضاعة التي وجدوها في متاعهم إلى أصحابها قبل كل شيء، ولكنه في الوقت ذاته يحاول الآن أن ينتزع من أبناءه "موثقا" للحفاظ على أخيهم بعد أن قدم بعض التنازلات عن موقفه المتشدد السابق:

- ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٦٤﴾ [يوسف: 64]

نتيجة: نحن نعتقد أنه سيكون لهذه الجزئية على وجه التحديد تداعياتها الهائلة في بقية أحداث قصة يوسف مع إخوته، ولكن كيف ذلك؟

رأينا: ما أن يعود إخوة يوسف ومعهم البضاعة التي وجدوها في متاعهم، وما أن يقوموا بتسليمها لأصحابها (أي لعزيز مصر وفتيانه) حتى يكونوا قد قدموا بذلك الدليل العملي الذي ربما يصعب إنكاره على أنهم قوم لا يسرقون. فلو كانت السرقة من طباعهم لما كانوا (نحن نعتقد) مضطرين إلى أن يعيدوا البضاعة التي وجدوها في رحالهم بعدما انقلبوا إلى أهلهم، فمن - يا ترى- سيحاسبهم عليها؟ ومن سيستطيع أن يثبت أنهم قد سرقوها؟ الخ.

إن ما يهمنا الخروج به هنا هو أن إخوة يوسف قد اثبتوا بالبرهان العملي أنهم ليسوا بسارقين. ولو تدبرنا بقية أحداث قصة يوسف لوجدنا أن هذه هي الحجة نفسها التي استخدموها لاحقا لمحاولة تبرئة أنفسهم من تهمة السرقة التي وُجِّهت إليهم عندما فُقِد صواع الملك:

- ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ٧٠﴾ [يوسف: 70]

فها هو لسانهم جميعا ينطلق بكل قوة ليؤكدوا للعزيز ومن حوله بأنهم قوم لا يسرقون:

- ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ٧٣﴾ [يوسف: 73]

السؤال: كيف يقول إخوة يوسف للعزيز ومن حوله بأنهم أصبحوا يعلمون أنهم ماجاءوا ليفسدوا في الأرض وما كان سارقين؟ فكيف علم عزيز مصر أن هؤلاء العير ما كانوا سارقين؟ هل اختبر أمانتهم من ذي قبل؟

رأينا: نحن نظن أن الرسالة التي يريد أن يوجهها هؤلاء الإخوة (أبناء الأنبياء) لعزيز مصر هي على النحو التالي: لقد علمتم جميعا (يا أهل مصر) بأننا قد أعدنا البضاعة (الأموال) التي وجدناه في رحالنا عندما عدنا إلى ديارنا في الرحلة الأولى، ولو كانت السرقة من طباعنا (أظنهم كانوا يقولون) لما اضطررنا أن نرجع من تلك البلاد البعيدة لنعيد تلك البضاعة إليكم. فنحن (أبناء الأنبياء) مَا نَبْغِي، أي لا نأكل مما ليس لنا فيه حق:

- ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ٦٥﴾ [يوسف: 65]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن رسالة الإخوة الموجّه لمن اتهمهم بالسرقة كانت (في ظننا) على النحو التالي: إنكم الآن تعلمون جميعا أن أحد أسباب عودتنا بهذه السرعة إلى أرض مصر هو أن نعيد تلك البضاعة التي وجدناها في متاعنا، وأن هذا السلوك لا يقوم به من كانت السرقة من طبائعه.

ثانيا، لعلي أجزم الظن أيضا بأن هذا التدبير المحكم من يوسف كان الهدف منه ليس فقط أن يجبر إخوته على العودة إلى أرض مصر ليردّ البضاعة متى ما وجدوها في رحالهم:

- ﴿وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٦٢﴾ [يوسف: 62]

ولكن الهدف الآخر هو أن يعيدهم إليه بأقصى سرعة ممكنة، فلا أظن أن يوسف كان سينتظر حولا كاملا حتى يرجع الإخوة إليه في العام التالي، فكيف حصل ذلك؟

رأينا: نحن نظن أن يوسف يعلم أن والده يعقوب وإخوته "لا يبغون"، فهو يعلم تماما بأنه ما أن يرى والده وإخوته بضاعتهم وقد ردت إليهم في رحالهم حتى يكون القرار (كما خطط له يوسف بنفسه) هو العودة إلى أرض مصر بالسرعة القصوى، ربما لهدفين اثنين وهما:

1. لا نبغي (عندما يردوا البضاعة التي وجدوها في متاعهم إلى أصحابها)
2. نمير أهلنا (عندما يقومون بتسجيل أهلهم في قيود الدولة المصرية ليتسنى لهم الحصول على الكيل)

ثالثا، لو راقبنا النص القرآني جيدا لوجدنا أن إخوة يوسف لم يكونوا ميسورين جدا من الناحية المادية، فهم لم يكونوا يستطيعون شراء جميع حاجياتهم خلال سنين القحط كلها بدليل أنهم عندما قدموا في المرة التالية جاءوا ببضاعة مزجاه، وطلبوا من عزيز مصر أن يتصدق عليهم:

- ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ٨٨﴾ [يوسف: 88]

فحالتهم الاقتصادية (نحن نظن) لم تكن تدل على وجود الوفرة المالية عندهم، لذا كان لزاما عليهم أن يأتوا عزيز مصر بأخيهم الذي هو من أبيهم، وأن يقوموا "بتنمير أهلهم" ليحصلوا على الكيل (المجاني)، انظر تسلسل الأحداث كما تجليها الآية الكريمة نفسها التي جاءت على لسان الإخوة أنفسهم:

- ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾﴾ [يوسف: 65]

ولو حاولنا أن نتدبر النص أكثر لوجدنا أن ما كان يطلبه إخوة يوسف من أرض مصر هو الكيل، أليس كذلك؟

لكن لو حاولنا أن نربط ذلك بكامل السياقات القرآنية التي ترد فيها مفردة الكيل، لوجدنا الضرورة تستدعي التمييز بين الكيل من جهة والميزان من جهة أخرى:

- ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الأنعام: 152]
- ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأعراف: 85]

ولو دققنا أكثر لوجدنا أن عملية الوزن تكون باستخدام القسطاس المستقيم:

- ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾ [الإسراء: 35]
- ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾﴾ [الشعراء: 181-183]

ولو راقبنا جميع السياقات القرآنية التي تتحدث عن قصة يوسف مع إخوته لوجدناها تفرد الكيل ولا تأتي على ذكر الميزان أو القسطاس المستقيم:

- ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٩﴾﴾ [يوسف: 59]
- ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يوسف: 63]
- ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [يوسف: 88]

السؤال: لماذا؟ لماذا كان يوسف يستخدم الكيل في توزيع ما ادخره من الخيرات على الناس؟ ولِم لَم يكن يستخدم الميزان (القسطاس المستقيم) كما نزعم؟

رأينا: نحن نظن أن ما كان متوافرا عند يوسف هو ما كان يقوم بتخزينه من الحصاد:

- ﴿قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ٤٧﴾ [يوسف: 47]

ولو دققنا في السياق أكثر لوجدنا أن تلك المحاصيل قابلة للتخزين:

- ﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ٤٨﴾ [يوسف: 48]

لذا نحن نفتري الظن بأن تلك المحاصيل لم تكن تقدر بالميزان (القسطاس المستقيم) وإنما بالكيل.

السؤال: لماذا؟

رأينا: لأن الكيل يحتاج أن يوفّى:

- ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ٣٥﴾ [الإسراء: 35]

السؤال: كيف يمكن أن يوفّى الكيل؟ وما الفرق بين الكيل من جهة والوزن بالقسطاس المستقيم من جهة أخرى؟

رأينا: الدقة (أي التقدير)

السؤال: وكيف ذلك؟

جواب مفترى: نحن نظن أن يوسف لم يكن يقوم بتقديم المساعدة للناس باستخدام القسطاس المستقيم لأن ذلك كان سيتطلب إعطاء الجميع القدر ذاته، وبكلمات أكثر دقة نحن نفتري القول بأنه لو كان يوسف يقوم بتوزيع الخيرات المتوافرة عنده باستخدام الميزان، لحصل كل قادم إليه على الكمية نفسها التي سيحصل عليها الآخرون، وهذا ما نظن أن يوسف لم يكن يفعله، بل على العكس فنحن نظن أن يوسف لم يكن يعطي الجميع الحصة نفسها، فقد كان يعطي بعض الناس حصة أكثر من حصة الآخرين، فلو ذهبت أنا وأنت إلى يوسف ليكتال لنا معا، فلربما (نحن نظن) أعطاني حصة أكبر من تلك التي كان سيعطيك إياها.

السؤال: لماذا؟

رأينا: نحن نظن أن عملية توزيع "المؤونة" (أو rations باللسان الأعجمي) في زمن يوسف كانت مبنية على أساس الحاجة، وليس على أساس "القسط" بين الناس، وذلك لسبب بسيط جدا وهو أن حاجة كل شخص تختلف عن حاجة الآخر. فنحن نظن أن إخوة يوسف أنفسهم لم يأخذوا جميعا الكيل نفسه لو أن يوسف قد

اكتال لهم أصلا، فقد يأخذ بعضهم كيلا أكثر من كيل الآخر، والسبب في ذلك يعود إلى حاجة كل واحد منهم، ولكن كيف ذلك؟

رأينا: تخيل معي – عزيزي القارئ- أن أحد إخوة يوسف كان رجلا يقوم على عائلة مكونة من عشرة أشخاص بينما شقيقة الآخر يقوم على عائلة مكونة من خمسة أفراد، فهل كان يوسف سيعطيهما الكمية نفسها؟

جواب: كلا وألف كلا، فنحن نظن أن يوسف كان يوزع بالكيل وليس بالوزن (باستخدام القسطاس المستقيم)، لذا كان عليه أن يوفّي الكيل كل حسب حاجته منه (To each according to his needs).

الدليل: نحن نقرأ الدليل على هذا الافتراء الذي هو من عند أنفسنا في الآية التي جاءت على لسان إخوة يوسف أنفسهم عندما كانوا يراودون أباهم عن أخيهم في عبارة " ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ":

- ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ٦٥﴾ [يوسف: 65]

السؤال: لماذا كان ذلك الكيل على وجه التحديد "كيلا يسيرا"؟ ألم يكن كيلا عاديا ككيلهم مثلا؟ وهل هناك كيل يسير وكيل غير يسير؟

رأينا: نحن نظن أن كيل أخيهم الذي هو من أبيهم سيكون كيلا يسيرا وذلك لأنه لم يكن (نحن نظن) يقوم على عائلة كبيرة تستحق أن تحصل على كيل كبير. فهذا الأخ (على وجه التحديد) لم يكن (نحن نظن) قد تزوج بعد، لذا فهو لا يحتاج إلى الكيل الذي يجلب المشقة، فلو كان كيل أخيهم هذا كيلا غير يسير لربما جلب له مشقة الطريق:

- ﴿فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ ٩ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ ١٠﴾ [المدثر: 9-10]

ولكن الكيل اليسير هو الكيل الذي لن يجلب المشقة:

- ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ٧ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ٨﴾ [الانشقاق: 7-8]

نتيجة: نحن نظن أن واحدة من الرسائل التي كان الإخوة يريدون أن يوصلوها إلى أبيهم كنوع من أنواع المراودة له عن أخيهم هذا الذي طلبه عزيز مصر هو تأكيدهم له بأنهم سيحاولون الحفاظ عليهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، وأنه في الوقت ذاته لن يلقى أخوهم هذا من أعباء السفر والرحلة كثير عناء لأن كيله على وجه التحديد سيكون كيلا يسير:

- ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَاۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ٦٥﴾ [يوسف: 65]

السؤال: كم كان كيل ذلك الأخ إذن؟

جواب: ما يحمله بعير واحد، انظر الآية مرة أخرى:

- ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَاۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ٦٥﴾ [يوسف: 65]

نتيجة مفتراة: مادام أن هذا الأخ سيحصل على كيل بعير واحد فقط وأن ذلك كيل يسير، فإننا نتخيل أن كيل إخوته الآخرين لم يكن كيلا يسيرا، ولكن لماذا؟

رأينا: لأن بعضهم كان سيحصل على أكثر من كيل بعير واحد.

تخيلات: نحن نظن أنه لمّا كان توزيع الكيل من عند يوسف مبنيا على الحاجة، كان كل واحد منهم سيحصل على كمية من المئونة تختلف عن الآخر، لذا كان بعضهم مضطرا أن يجلب معه أكثر من كيل بعير واحد، فقد يكون كيل أحدهم ما يحمله بعيران، وقد يكون كيل أخ لهم آخر ما يحمله ثلاثة من البعير، وهكذا. لذا كان كيل بعضهم غير يسير لأنه يحتاج أن يتحمل أعباء السفر وهو يسوق أمامه وخلفه أكثر من بعير واحد. لكن هذا الأخ على وجه التحديد لم يكن سيضطر لذلك مادام أن كيله سيكون بعيرا واحدا فقط، لذا ستكون أعباء سفره أقل من غيره من إخوته.

نتيجة مفتراة: لعلنا نجزم الظن بأن هذا الأخ على وجه التحديد كان أصغر إخوته سنا على الإطلاق. فهو لم يكن يحتاج أن يعيل الكثير ممن حوله، وربما (نحن نظن) لم يكن قد تزوج بعد، فلم تكن له أهل (زوجة وأبناء) يقوم على إعالتهم.

الدليل: لعلنا نستطيع أن نجلب الدليل على ذلك بطرح التساؤل التالي: لماذا أرسل يعقوب أبناءه الآخرين جميعا؟ ولماذا لم يرسل ابنه هذا في رحلتهم الأولى؟

جواب: ربما يظن الكثيرون بأن السبب في ذلك يعود إلى أن يعقوب كان يخشى عليه من كيد إخوته به.

رأينا: لا شك أن هذا صحيح، لكن يبقى التساؤل نفسه قائما: كيف سيرضى الإخوة أن يحضروا الكيل لأخيهم الذي لم يبذل جهدا في الحصول عليه؟ وكيف يقبل هذا الأخ أن يحصل على ما جهد الإخوة في

الحصول عليه؟ ألا يدل ذلك على أن هؤلاء الإخوة لازالوا يعملون "بالسخرة" عند أخيهم؟ ألا تدل على أن يعقوب النبي لازال يحب هذا الولد من أبناءه أكثر من غيره؟ ألا يدل ذلك على أن يعقوب لازال في ظلاله القديم؟ لِم لَم يثير ذلك الغيرة في نفوس الإخوة؟ لم لم يذكروا بأن أباهم لازال يفضله عليهم كما كان يفضل يوسف من ذي قبل؟ ألم يقل الإخوة أن يوسف وأخاه هذا أحب إلى أبيهم منهم:

- ﴿إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٨﴾ [يوسف: 8]

لِم لَم يلجأ الأبناء إلى هذه الحجة في مراودتهم أباهم عنه؟ لِم لَم يقولوا له بأنك لازلت تفضله علينا؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن تفضيل يعقوب لأحد من أبناءه على غيره قد انتهى عندما تم طرح يوسف أرضا:

- ﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ٩﴾ [يوسف: 9]

فما أن تم طرح يوسف أرضا حتى خلا لهم جميعا وجه أبيهم، وما عاد يعقوب يفضل أحد أبناءه على الآخرين، وما عاد الإخوة يثيرون هذه القضية من جديد مادام أنها لم تعد تشكل لهم معضلة (للتفصيل انظر الأجزاء الأولى من هذا الكتاب).

السؤال: لماذا إذن لم يبعث يعقوب ولده هذا للحصول على الكيل من أرض مصر مع إخوته في المرة الأولى؟

رأينا: لعلي أجزم الظن بأن أحد تلك الأسباب يعود إلى أن هذا الأخ لم يكن مضطرا للحصول على المئونة مادام أنه لا يقوم على إعالة غيره، فهذا الولد لازال شابا يافعا، يستطيع الحصول على رزقه بنفسه، ويستطيع تحمل مشقة الجوع إن اضطر إلى ذلك، فلا زالت المحنة (سنين القحط) في بداياتها، لذا لم يكن مضطرا أن يهبط مصرا في المرة الأولى. ولو كان هذا الولد (نحن نتخيل) يقوم على إعالة غيره، كأن يكون رب أسرة تحتاج إلى المئونة لما تردد في الهبوط مصر، أو البحث له عن طريقة لسد حاجاتهم، أو ربما هبط إلى أرض مصر مع قافلة أخرى غير قافلة إخوته، انظر ما قاله يعقوب:

- ﴿قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ٦٦﴾ [يوسف: 66]

فقرار يعقوب كما نقرأه هو"أن لا يرسله معهم" (قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ)، لذا نحن نفهم من ذلك أن يعقوب كان على استعداد أن يرسله مع غيرهم (انظر مفردة معكم في الآية الكريمة) لو أن المسألة كانت متوقفة فقط على الكيد به. لكن السبب الآخر الذي لم يكن يجبر يعقوب على أن يرسل ولده هذا مع إخوته إلى أرض مصر هو – في ظننا- أن كيل هذا الولد هو كيل يسير:

- ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَاۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيْلٞ يَسِيرٞ ٦٥﴾ [يوسف: 65]

فما كان ذهاب هذا الولد (أو عدم ذهابه) سيزيد في الكيل أو سينقص منه الكثير، فهم يستطيعون أن يتدبروا أمرهم حتى دون الحاجة إلى كيله لأنه (كَيْلٞ يَسِيرٞ).

وربما يظن البعض بأن يعقوب قد اختار هذا الولد من دون إخوته ليبقى يقوم على خدمته (انظر أمهات كتب التفاسير)، لكننا نرفض هذا المنطق جملة وتفصيلا، لأن ذلك يعني أن يعقوب لازال يفضل أحد أبنائه عليهم جميعا، ولربما شعر الأبناء أن وجه أبيهم لم يخل لهم بعد، ولربما حاولوا الإطاحة به كما فعلوا بيوسف:

- ﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضٗا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمٗا صَٰلِحِينَ ٩﴾ [يوسف: 9]

رأينا: نحن نتخيل أن السبب الذي دفع بكل من هبط من أبناء يعقوب أرض مصر هو الحصول على المئونة التي تكفي عائلته الخاصة، أي أهله. فلقد كان لإخوة يوسف أهل (أبناء وزوجات) وكان كل واحد منهم مسئولا عن توفير أقواتهم:

- ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزْجَىٰةٖ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِي ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ٨٨﴾ [يوسف: 88]

ثانيا، لو تدبرنا ما قاله الإخوة لعزيز مصر من أجل أن يقبل بمبدأ الفداء بعد "حادثة السرقة المدبرة" هو أنهم ذكروا بأن هذا الأخ على وجه التحديد له أبا شيخا كبيرا:

- ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيْخٗا كَبِيرٗا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ٧٨﴾ [يوسف: 78]

ولو كان لأخيهم هذا أهل مثلهم (زوجة وأولاد)، لما تردد الإخوة (نحن نتخيل) أن يسوقوا هذا الأمر كمبرر للفداء.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن إخوة يوسف كانوا يعلمون أن كل واحد منهم مسئول عن توفير قوت أهله (زوجاته وأبناءه)، لذا عليه أن يهبط بنفسه مصرا للحصول على الكيل. ومادام أنه كان يقوم على إعالة غيره، فإن كيله (نحن نظن) لن يكون كيلا يسيرا، فكان لابد أن يقوم به بنفسه، ولا أظن أن أحدا منهم كان يستطيع أن يسند المهمة إلى غيره. ولكن قصة أخيهم هذا كانت مختلفة بعض الشيء، فهو لازال يعيش "عازبا"، لا همّ له سوى والده الشيخ الكبير، لذا كان بقاءه بجانب والده هو ما أملته الضرورة وليس تفضيلا

له على غيره من إخوته، لأنه لو كان الأمر تفضيلا لتسابق الأبناء في ذلك لأن المخدوم هو نبي الله يعقوب، فذاك شرف يحرص كل منهم على أن يكون له منه نصيبا مفروضا.

دعنا نعود فنربط هذا الأمر بالتساؤل الذي طرحناه سابقا وهو: لماذا طلب يوسف من فتيانه أن يجعلوا بضاعة إخوته في رحالهم؟ ألم يكن يوسف مؤتمنا على أموال الدولة؟ فإذا كان يوسف قد منعهم الكيل لأنهم ليسوا من رعايا الدولة المصرية حينئذ، وإذا كان يوسف قد حافظ على أموال الدولة بهذا التصرف (كما زعمنا)، فكيف به يجعل البضاعة (ثمن الجهاز الذي جهزهم به) في رحالهم؟ أليس ذلك تحايلا على القانون؟

رأينا: كلا وألف كلا، نحن نظن أن ذلك لا يقدح بأمانة يوسف على الإطلاق ربما للأسباب التالية:

1. يوسف يعلم أن هؤلاء الإخوة "لا يبغون"، وأنهم - لا شك- سيرجعون بتلك الأموال متى ما وجدوها في رحالهم بعد أن ينقلبوا إلى أهلهم. فعودتهم بتلك الأموال إلى أرض مصر لا محالة حاصلة.
2. لقد فعل يوسف ذلك على مرأى ومسمع من الحاضرين:

- ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٦٢﴾ [يوسف: 62]

فيوسف لم يحاول أن يقوم بذلك بالسر، فلو كانت فعلة يوسف تلك فيها شبهة السرقة لما تجرأ على العلن بها على مرأى ومسمع الموظفين من حوله. أليست هذه هي الشفافية التي يتحدثون عنها في "المزارع العربية" (على غرار George Orwell's Animal Farm)؟ هل يستطيع رئيس الجامعة التي أعمل فيها مثلا أن يستفيد من التكنولوجيا الحديثة وينشر ما يحصل عليه من أموال كرواتب وعلاوات ومكافئات مثلا في نهاية كل شهر على الشبكة العنكبوتية ليراه من حوله فيكون قدوة لهم، فما باله يتيح لنفسه أن يطلع على ما أحصل عليه أنا كموظف في تلك المؤسسة ولا يسمح لي بأن أطلع على ما يحصل عليه هو؟ هل هناك ما يخجل منه متى ما رءاه من حوله؟ أليست تلك أموال الناس نتقاضى منها جميعا بالقانون؟ فما بال القانون يتيح له أن يطلع على خصوصيات الآخرين ولا يسمح للآخرين الإطلاع على خصوصياته؟ ولم يكن الحصول على الراتب من الخصوصيات التي لا يحق للآخرين الإطلاع عليها؟

رأيي المفترى: لو أن صاحب السلطان (بغض النظر عن حجم سلطانه) لا يرى أن فيما يحصل عليه من أموال الناس التي يعمل عليها شبهة قد تجر عليه ما قد لا يحمد عقباه لما تردد أن يؤذن مؤذن في العير رافعا كتابه بيمينه ليقول:

- ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ۝١٩﴾ [الحاقة: 19]

ولكن لما كانت الشبهات تحف به من كل حدب وصوب، خط القانون بيمينه الذي يمنع غيره من الإطلاع على الخبايا والالتفافات التي من خلالها يأكل أموال الناس بالباطل بعد أن يشرعه بقوانين وأنظمة وتشريعات تحل له ما حرم الله عليه:

- ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ۝٧٩﴾ [البقرة: 79]

السؤال: وأنا شو دخلني بهالكلام؟ ما أنا حالي ألعن من حالهم، هل تظنون - يا سادة- بأنه لو صارت الأمور إليّ، ألن أكون أكثر دهاء وحيلة منهم؟ من يدري!!! لنعد إلى قصة يوسف أحسن.

3. مادام أنها بضاعة فهي معروفة القيمة، لذا يسهل ردها لو أن الإخوة لم يعودوا بها، فسجلات الدولة المصرية مسجل فيها مقدار البضاعة التي أمر يوسف فتيانه أن يجعلوها في رحال إخوته.

4. وأظن أن يوسف هو من سيتحمل دفعها من جيبه (حسابه الخاص) لو أن البضاعة لم ترد. فلعلي أجزم القول بأن يوسف قد كان هو شخصيا من تكفّل رد تلك البضاعة لو أن إخوته لم يردوها، فهذا الموقف قد حصل من يوسف في موطن آخر عندما فُقِد صواع الملك، حينها أذن مؤذن بالعير أنهم لسارقون:

- ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ۝٧٠﴾ [يوسف: 70]

فحتى يظهر يوسف على أنه هو من ينقذهم من هذه الورطة التي أوقعوا فيها أنفسهم فقد تكفل بأن يقدم لمن يجيئ بذاك الصواع حمل بعير قبل أن يعمد إلى تفتيشهم، مؤكدا أنه يكفل السداد بشخصيته الاعتبارية، وانظر – إن شئت- عبارة "وَأَنَا۠ بِهِ زَعِيمٌ" في الآية الكريمة التالية:

- ﴿قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ۝٧٢﴾ [يوسف: 72]

5. الخ.

تخيلات من عند أنفسنا: لقد دبر يوسف الخطة المحكمة بنفسه، ونفذها بالتعاون مع فتيانه، وبعلم من حوله جميعا، فكان بذلك يحفظ للجميع حقوقهم، فلا يفرط بأموال الدولة، وفي الوقت ذاته يستخدم شخصيته الاعتبارية كعامل على خزائن الأرض وكعزيز مصر ليتكفل السداد في حالة تخلف إخوته عن رد الأموال إلى خزينة الدولة بأقصى سرعة ممكنة. لكن لمّا كان يوسف يعلم أمانتهم وأنهم قوم "لا يبغون"، فهو على يقين تام بأن الخطة ستنفذ بالطريقة التي رسمها، فإخوته سيجدون بضاعتهم متى ما انقلبوا إلى أهلهم، وسيعرفونها، وسيردونها بأقصى سرعة ممكنة.

الدليل: لو تدبرنا القصة كاملة كما تجليها السياقات القرآنية لوجدنا أن إخوة يوسف قد عادوا في رحلتهم الثالثة إلى أرض مصر وقد نفدت منهم "البضاعة غير المزجاة"، وما عادوا أرض مصر هذه المرة إلا ببضاعة مزجاة، فطلبوا من عزيزها أن يوفِ لهم الكيل وأن يتصدق عليهم:

- ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [يوسف: 88]

السؤال: لماذا جاءوا هذه المرة ببضاعة مزجاة؟ ولم كانت بضاعتهم هذه المرة مزجاة؟ وما هي البضاعة المزجاة أصلا؟ وأين ذهبت بضاعتهم غير المزجاة التي كانت بحوزتهم في الرحلة الأولى والثانية إلى أرض مصر؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن البضاعة "غير المزجاة" هي البضاعة التي يسهل التعامل بها في السوق، ولكن البضاعة المزجاة (نحن نفتري القول) هي البضاعة التي يصعب تصريفها. فالمتعاملون في السوق لا يكونون راغبين فيها كثيرا.

الدليل: لو عدنا إلى واحدة من أحداث قصة يوسف السابقة لوجدنا السياق القرآني التالي الذي يصور لنا حركة التجارة في سوق مصر حينئذ:

- ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يوسف: 20-21]

ولو تدبرنا هذا السياق القرآني لوجدنا أن أركان التجارة متوافرة جميعها هناك، وهي:

1. السوق، وهي السوق المصرية (﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ)
2. الذي باع يوسف في السوق، وهم الذين (وَشَرَوْهُ)
3. الذي اشترى يوسف من السوق، وهو الذي (ٱشْتَرَىٰهُ)
4. العملة المستخدمة في هذا التبادل التجاري، وهي الدراهم (وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ)

السؤال: لماذا استخدمت الدراهم في شراء يوسف؟ ولماذا لم يستخدم إخوة يوسف الدراهم في شراء حاجياتهم من السوق عندما جاءوا من البدو؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن "الدراهم" هي العملة التي يستخدمها أهل البلاد الواحدة في تعاملاتهم التجارية في سوقهم، فأهل مصر مثلا يستخدمون الدراهم الخاصة بهم في تعاملاتهم في سوقهم، وأهل الشام يستخدمون الدراهم في التعاملات فيما بينهم، فلهؤلاء دراهمهم الخاصة بهم، ولهؤلاء دراهمهم الخاصة بهم.

ولكن يبقى التساؤل التالي قائما: ماذا لو أراد أهل الشام أن يتعاملوا مع أهل مصر؟ فأي الدراهم سيستخدمون؟ هل يستخدمون الدراهم الدارجة في السوق المصرية أم تلك الدارجة في السوق الشامية؟

رأينا: لن يقبل أهل مصر بدراهم أهل الشام، ولن يقبل أهل الشام بدراهم أهل مصر، لأن الدراهم هي (في ظننا) العملية المحلية (أي المستخدمة في السوق المحلي)، لذا لابد من وجود "عملة" يقبل الطرفان أن يتعاملا بها فيما بين بعضهم البعض.

مثال: لو أحضرت أنا شخصيا "دراهم أردنية" مثلا، وذهبت بها إلى أسواق أخرى، فهل أستطيع أن أتعامل بها في السوق المصرية أو السوق الجزائرية أو المغربية أو العراقية أو اليمنية، الخ؟

جواب: كلا، لأن "الدينار الأردني" هو دراهم أردنية مقبولة في السوق الأردني فقط، وهكذا هو الدينار التونسي أو الجنيه المصري أو السوداني. لذا لابد لي أن استخدم "دراهم" مقبولة في ذلك السوق الذي أتواجد فيه.

تخيلات: نحن نتخيل أن إخوة يوسف قد جاءوا قادمين من البدو، لذا لم تكن لديهم دراهم مصرية ليتعاملوا بها في السوق المصرية، فكان لزاما عليهم أن يأخذوا "بضاعة" وليس "دراهمهم المتداولة" فيما بينهم للهبوط إلى أرض مصر وإجراء التعاملات التجارية في أسواقها.

السؤال: ماذا كانت تلك البضاعة؟

رأينا المفترى: لعلي أجزم الظن بأنهم هبطوا مصرا وفي جيوبهم "العملة" العالمية حينئذ، وهي في ظننا الذهب والفضة، والسبب في ذلك أن الذهب والفضة لم تكن "دراهم محلية" وإنما "عملة عالمية" يمكن التعامل فيها في جميع الأسواق. فكل أهل سوق لا يترددون بأن يأخذوا الذهب والفضة كبضاعة مقابل أي بضاعة يطلبها صاحب الذهب والفضة.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن "البضاعة" هي كل مادة قابلة للمقايضة في التعاملات التجارية، ولا ننسى أن يوسف نفسه كان في يوم ما بضاعة:

- ﴿وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ١٩﴾
[يوسف: 19]

تخيلات: مادام أن إخوة يوسف لم يكونوا مصريي الجنسية، فهم لا يملكون دراهم السوق المصرية المحلية، لذا نحن نتخيل أنهم هبطوا في رحلتهم الأولى والثانية إلى أرض مصر يحملون في جيوبهم بضاعة (ذهبا وفضة) لإجراء التبادلات التجارية في السوق المصرية ، فتمت المبادلات التجارية بتلك البضاعة. وهي البضاعة نفسها التي طلب يوسف من فتيانه أن يجعلوها في رحالهم لعلهم يرجعون:

- ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يوسف: 62]

ولما كانت تلك البضاعة صغيرة في حجمها، استطاع فتيان يوسف أن يجعلوها في رحال الإخوة فما استطاع الإخوة أن يدركوا ذلك إلا بعد أن فتحوا متاعهم عندما انقلبوا إلى أهليهم:

- ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَاۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍۖ ذَٰلِكَ كَيْلٞ يَسِيرٞ ﴿٦٥﴾﴾ [يوسف: 65]

الدليل: لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ

لو تدبرنا الآية الكريمة التالية لوجدنا أن يوسف يقول بأن معرفة إخوته لبضاعتهم ضرورة لكي تنفذ خطته التي رسمها:

- **وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُواْ بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (62) يوسف**

السؤال: كيف سيعرف الإخوة بضاعتهم؟ وهل كان من الممكن أن لا يعرفونها؟

جواب مفترى: نعم، لو كانت تلك البضاعة التي وجدوها في رحالهم هي بضاعة غير بضاعتهم التي ذهبوا بها إلى أرض مصر لما استطاعوا أن يعرفونها، وذلك لأن البضاعة (نحن نظن) تختلف من موطن إلى آخر، فالمسكوكات الذهبية والفضية مميزة في كل بلد من البلدان. صحيح أن المادة الخام هي الذهب والفضة نفسها، إلا أن طريقة صكّها تختلف من بلد إلى آخر. لذا نحن نتخيل إخوة يوسف وقد هبطوا مصرا يحملون في جيوبهم مسكوكات ذهبية وفضية تميّز بلادهم التي جاءوا قادمين منها. وما أن فتح الإخوة متاعهم بعدما انقلبوا إلى أهليهم حتى وجدوا بضاعتهم نفسها (من الذهب والفضة) وقد ردت إليهم، وهنا لم يكونوا يستطيعون أن ينكروا بأن هذه البضاعة على وجه التحديد هي بضاعتهم التي هبطوا بها مصر وأنها يجب أن ترد إلى أصحابها الحقيقيين مادام أنهم قد حصلوا مقابلها على بضاعة أخرى جلبوها من هناك.

نتيجة: ما نفدت من إخوة يوسف تلك البضاعة (الذهب والفضة) حتى هبطوا مصر في رحلتهم الثالثة وهم يحملون بضاعة مزجاة، وهنا أصبحت مهمتهم أكثر صعوبة في الحصول على ما يبغونه من السوق المصرية.

السؤال: لماذا؟

رأينا: لأن البضاعة المزجاة هي البضاعة التي يصعب تصريفها في التبادلات التجارية في الأسواق، ومن هنا جاء طلبهم من يوسف أن يوفِ لهم الكيل وأن يتصدق عليهم:

- ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ٨٨﴾ [يوسف: 88]

نتيجة: وهنا فقط لم يستطع يوسف أن يسكت على كتمان أمره أكثر من ذلك، فما كان منه إلا أن سألهم عن ما فعلوا به وبأخيه من قبل:

- ﴿قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ٨٩﴾ [يوسف: 89]

السؤال: لماذا عمد يوسف على إظهار شخصيته لهم في هذه اللحظة على وجه التحديد؟ ولم لم يفعل ذلك من ذي قبل؟

هذا ما سنحاول النبش فيه في الجزء القادم بحول الله وتوفيق منه.

دعاء: فالله وحده أسأله أن يعلمني وصاحبي عليا ما لم نكن نعلم، وأن يجعل فضله علينا عظيما، وأن يهدينا إلى نوره الذي أبى إلاّ أن يتمّه ولو كره الكافرون، ونعوذ به أن نفتري عليه الكذب أو أن نقول عليه ما ليس لنا بحق، إنه هو العليم الحكيم.

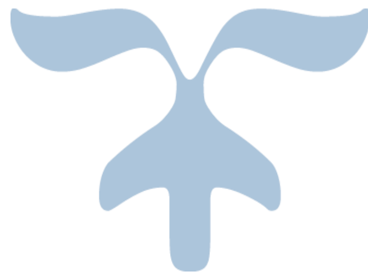
وأساله وحده أن ينفذ قوله بمشيئته وإرادته لى الإحاطة بشئ من علمه لا ينبغي لأحد غيري، إنه هو الواسع العليم.

المدّكرون: رشيد سليم الجراح &علي محمود سالم الشرمان
بقلم: د. رشيد الجراح
13 نيسان 2014
د. رشيد الجراح مركز اللغات، جامعة اليرموك



الجزء العشرون

وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ
وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ



الجزء العشرون : وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ

من أجل بحثنا عن تفاصيل قصة يوسف الحقيقية (كما نفهمها من السياقات القرآنية)، سنحاول في هذا الجزء من الكتاب أن نتعرض لبعض مدلولات الآيات الكريمة التالية التي تصور ما حصل في رحلة الإخوة الثانية إلى أرض مصر:

- ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٦٧ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٦٨﴾ [يوسف: 67-68]

طارحين التساؤلات المثيرة التالية:

⇐ لماذا طلب يعقوب من أبناءه أن يدخلوا من أبواب متفرقة هذه المرة (وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ)؟

⇐ وكيف دخل الإخوة من أبواب متفرقة (وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم)؟

⇐ وما هي الحاجة التي كانت في نفس يعقوب (مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ)؟ وكيف قضيت تلك الحاجة بمجرد دخول الأبناء من أبواب متفرقة؟

⇐ وما علاقة هذا بعلم يعقوب (وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ) كما جاء نهاية الآية الكريمة؟

⇐ ومادام أن أكثر الناس لا يعلمون (وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ) بصريح الفظ في الآية الكريمة نفسها، فهل هناك قليل من الناس ممن يعلمون؟

دعاء: اللهم رب أسألك وحدك أن أكون من القليل من الناس الذين يعلمون

دعنا نبدأ النقاش أولا برفض كل ما جاءنا من عند سادتنا العلماء أهل الدراية كما أوصله لنا أهل الرواية في بطون أمهات كتب التفسير حول هذه الجزئية، ولنبدأ بما جاء في واحدة منها، وهو تفسير القرآن الكريم للطبري:

القول في تأويل قوله تعالى : { وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة } يقول تعالى ذكره : قال يعقوب لبنيه لما أرادوا الخروج من عنده إلى مصر ليمتاروا الطعام : يا بني لا تدخلوا مصر من طريق واحد , وادخلوا من أبواب متفرقة ! وذكر أنه قال ذلك لهم ; لأنهم كانوا رجالا لهم جمال وهيبة , فخاف عليهم العين إذا دخلوا جماعة من طريق واحد وهم ولد رجل واحد , فأمرهم أن يفترقوا في الدخول إليها . كما : 14895 - حدثنا الحسن بن محمد , قال : ثنا يزيد الواسطي , عن جويبر , عن الضحاك : { لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة } قال : خاف عليهم العين . 14896 - حدثنا بشر , قال : ثنا يزيد , قال : ثنا سعيد , عن قتادة , قوله : { يا بني لا تدخلوا من باب واحد } خشي نبي الله صلى الله عليه وسلم العين على بنيه ; كانوا ذوي صورة وجمال - حدثنا محمد بن عبد الأعلى , قال : ثنا محمد بن ثور , عن معمر , عن قتادة : { وادخلوا من أبواب متفرقة } قال : كانوا قد أوتوا صورة وجمالا , فخشي عليهم أنفس الناس 14897 - حدثني محمد بن سعد , قال : ثني أبي , قال : ثني عمي قال : ثني أبي , عن أبيه , عن ابن عباس , قوله : { وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة } قال : رهب يعقوب عليه السلام عليهم العين - حدثنا عن الحسين بن الفرج , قال : سمعت أبا معاذ , قال : أخبرنا عبيد بن سليمان , قال : سمعت الضحاك يقول في قوله : { لا تدخلوا من باب واحد } خشي يعقوب على ولده العين 14898 - حدثنا ابن وكيع , قال : ثنا زيد بن الحباب , عن أبي معشر , عن محمد بن كعب : { لا تدخلوا من باب واحد } قال : خشي عليهم العين 14899 - قال : ثنا عمرو , عن أسباط , عن السدي , قال : خاف يعقوب صلى الله عليه وسلم على بنيه العين , فقال : { يا بني لا تدخلوا من باب واحد } فيقال : هؤلاء لرجل واحد , ولكن ادخلوا من أبواب متفرقة 14900 - حدثنا ابن حميد , قال : ثنا سلمة , عن ابن إسحاق , قال : لما أجمعوا الخروج , يعني ولد يعقوب , قال يعقوب : { يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة } خشي عليهم أعين الناس لهيبتهم , وأنهم لرجل واحد.

متفرقة وما أغني عنكم من الله من شيء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل

وقوله : { وما أغني عنكم من الله من شيء } يقول : وما أقدر أن أدفع عنكم من قضاء الله الذي قد قضاه عليكم من شيء صغير ولا كبير ; لأن قضاءه نافذ في خلقه . { إن الحكم إلا لله } يقول : ما القضاء والحكم إلا لله دون ما سواه من الأشياء , فإنه يحكم في خلقه بما يشاء , فينفذ فيهم حكمه , ويقضي فيهم ولا يرد قضاؤه . { عليه توكلت } يقول : على الله توكلت , فوثقت به فيكم , وفي حفظكم علي حتى يردكم إلي وأنتم سالمون معافون , لا على دخولكم مصر إذا دخلتموها من أبواب متفرقة . { وعليه فليتوكل المتوكلون } يقول : وإلى الله فليفوض أمورهم المفوضون

(انتهى الاقتباس من الطبري)

لعلي أجد من السهولة البالغة دحض هذا "الموروث البالي" الذي ارتكز على فكرة أن أبناء يعقوب "كانوا رجالا لهم جمال وهيبة , فخاف عليهم العين إذا دخلوا جماعة من طريق واحد وهم ولد رجل واحد".

(انظر ما وضعنا تحته خط في الاقتباس السابق من الطبري). فدحض هذا الموروث ربما يسهل بالمشاهدات التالية:

- ⇐ لو أن هذا الكلام صحيحا، لكان الأولى بيعقوب (نحن نفتري القول) أن ينبّه أبناءه إلى هذا الأمر في رحلتهم الأولى، فقد هبط الإخوة مصرا ودخلوها من باب واحد في المرة السابقة، فما بال "العين" (نحن فقط نسأل) لم تصيبهم بسوء؟ ألم يكونوا "رجالا لهم هيبة وجمال" حينئذ؟ أم هل وجود أخوهم هذا معهم هو ما سيجر عليهم بلاء "العين" هذه المرة؟ ألا تكفي "العين" عشرة من الرجال أصحاب "الهيبة والجمال"؟ أم ترى "العين" لا تفعل فعلها إلا بعد العدد عشرة، أي عندما أصبحوا أحد عشر؟ من يدري؟!!!
- ⇐ ثانيا، لو كان ما قاله سادتنا العلماء صحيحا، لِم ينتظر الأبناء أن يتفرقوا عندما يصلون مصر ليدخلوا من أبوابها؟ أم ترى "العين" من صفات أهل مصر فقط؟ ألم يمروا على أناس آخرين في الطريق؟ هل كان الأبناء في كل مرة يمرون بـ أناسي آخرين على الطرق يتفرقون حتى لا تصيبهم "أعين" المارة بسوء؟ أم هل كانت طريقهم خالية تماما من الناس حتى وصلوا أرض مصر؟ من يدري؟!!!

رأينا المفترى: كلا وألف كلا، نحن نظن أن هذا التفسير موسوم بالتخريف من جانبين على الأقل:

- ⇐ أنه أسقط الطابع الشعبي على القصة، ففكرة "عين الحسد" (أو Evil Eye باللسان الأعجمي) هي في مجملها فكرة مسيطرة على الخيال الشعبي الذي لم يستطع أن يجد تفسيرا واضحا لبعض الظواهر الغريبة، وعندما فشل "أهل العلم" أن يبينوها للعامة من أمثالنا، فسروا عدم فهمهم لتلك الغيبيات بغيبيات أكثر إبهاما، وهذه هي اللعبة "..." التي سلكها كثير ممن كانوا يأكلون أموال الناس بالباطل عندما لا يستطيعون تجلية الأمور لمن رضوا بأن يكونوا من العامة عندما نصّبوا فوق رؤوسهم أكثرهم جهلا وجشعا لظنهم أنهم أهل علم وصلاح.
- ⇐ أن هذا التخريف (ومثله الكثير) لا يسلم من تخريفات الأمم التي سبقتنا، فغالبا ما مشى علماؤنا الأجلاء على خطى يهود وإن كانوا يصيحون على المنابر أنهم منهم براء، ومن أراد أن يجادل فليقلّب صفحات أمهات كتب التفسير للقرآن الكريم كتفسير الطبري هذا والقرطبي وابن كثير، الخ. ثم ليرجع إلى صفحات الكتاب المقدس وشروحاته في التلمود، ولينظر بأم عينه كمية الاقتباس "غير الدقيق" من هذه المصادر التي تسربت إلى بطون كتب التفسير، ثم ليرجع البصر كرتين إن هو أراد أن يتأكد، ولينظر كيف سينقلب إليه بصره بعد ذلك.

إن ما يهمني إيصاله للعامة من مثلي (ولا تشمل دعوتي هذه من لا يشاء ذلك) هو التالي: لقد دوخونا سادتنا العلماء أهل الدراية على لسان أهل الرواية من على منابر المساجد ودور الخطابة بالقدح بموروثات

الأمم التي سبقتنا، ولكن في الوقت ذاته امتلأت مؤلفاتهم بما جادت به قرائح غيرهم، وغالبا ما نسبوهم (ظننا من عند أنفسهم) أنها من بنات أفكارهم، ومما جادت به قرائحهم الفذة. فأنت تجد خطيبهم يصعد المنبر ليقص عليك ما يظن أنه الفهم الصحيح لبعض آيات الكتاب العظيم، ولا يذكر مصدر المعلومة التي جاء بها، حتى يظن أكثر الحاضرين أن هذه من عنده ومن عند سادته العلماء أهل الدراية، الموثوقين بعلمهم وبصلاحهم. ولكن ما أن يبدأ شخص من مثلي بالنبش في بطون الكتب عن مصدر تلك المعلومة حتى يحط به الترحال في كل مرة بين صفحات العهد القديم بتوراته وتلموده. ولو حاولت أن توصل مثل هذه الرسالة للناس لصعد خطباؤهم على المنابر يدافعون وينافحون عن موروثاتهم التي لا يعرفون مصدرها، وفي الوقت ذاته ينعتون من ينبههم إلى ما هم فيه من "البلاء" بأشد عبارات الشم والقدح، فلهؤلاء جميعا نقول بأننا لا نرضى أن يكون بيننا وبينكم حكما إلا قول الحق في الآيات الكريمة التالية:

- ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۢ بَعِيدٖ ٣﴾ [إبراهيم: 3]
- ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٨ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ١٩﴾ [هود: 18-19]

دعاء: اللهم أعوذ بك أن أكون من الظالمين الذين يكذبون عليك، وأعوذ بك أن أكون ممن يصدون عن سبيلك، وأعوذ بك أن أكون ممن يبغونها عوجا

على أية حال، دعنا نعود إلى صلب الموضوع الذي نحاول النبش فيه بالتساؤل التالي: بعيدا عن الفكر التوراتي المحرف والتلمودي المفترى على الله الكذب، كيف يمكن أن نفهم الحاجة التي كانت في نفس يعقوب عندما أمر أبناءه بعدم الدخول من باب واحد والدخول من أبواب متفرقة؟

- وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ...

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نفتري القول بأن ذلك كان تدبيرا من يعقوب لفضّ عصبة أبناءه، ولكن كيف ذلك؟

جواب مفترى: نحن نعلم أن أبناء يعقوب الذين تآمروا على يوسف كانوا عصبة:

- ﴿إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٨﴾ [يوسف: 8]

وهم أنفسهم الذين خرجوا بيوسف وجعلوه في غيابة الجب:

- ﴿قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ١٤﴾ [يوسف: 14]

وقد زعمنا القول في جزء سابق من هذا الكتاب بأن العصبة تعني العشرة من الرجال، فإخوة يوسف الذين تآمروا عليه هم عشرة (لأن آخوهم رقم 11 لم يكن طرفا في المؤامرة). وقد جلبنا ما ظننا أنه دليل على ذلك من الآية التي تتحدث عن حجم كنوز قارون:

- ﴿۞إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ٧٦﴾ [القصص: 76]

الدليل: بداية، نحن نفهم من مجمل السياقات القرآنية الخاصة بقصة يوسف أن يوسف كان الأخ غير الشقيق لمن تآمر عليه من إخوته، فنحن نظن أن نبي الله يعقوب كان قد تزوج بأكثر من امرأة وأنجب من أكثر واحدة من النساء، فكان يوسف وأخوه (في ظننا) أبناء أم واحدة، بينما كان إخوته الآخرون (وهم الذين تآمروا عليه وعددهم عشرة) إخوة له من أبيه وليس من أمه، وربما يؤكد ظننا هذا ما جاء على لسان يوسف عند حديثه عن ذلك الأخ الآخر في أرض مصر:

- ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ٥٩﴾ [يوسف: 59]

فذاك الأخ هو أخ لهم من أبيهم (ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ) وليس من أمهم، ليكون يوسف وأخوه من جهة ويكون باقي إخوته من جهة مفترقين في الأم وإن اشتركوا جميعا في الأب يعقوب النبي. فهم جميعا أبناء أب واحد (وهو يعقوب) ولكنهم من أمهات متفرقات.

ثانيا، ربما يصدق ظننا هذا أيضاً ما جاء في الآية الكريمة التالية على لسان الأخوة المتآمرون أنفسهم:

- ﴿إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٨﴾ [يوسف: 8]

فالآية تشير إلى الفصل الواضح بين يوسف وأخيه من جهة وبقية الأخوة العشرة الآخرين (أي العصبة) من جهة أخرى، فانقسم الأخوة في صفين: يوسف وأخوه في صف (**لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ**) يقابله إخوته العشرة الآخرون في صف آخر (**مِنَّا وَنَحْنُ**). فكانوا هؤلاء بنص القرآن عصبة:

- ﴿إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٨﴾ [يوسف: 8]

السؤال: كيف كان الإخوة العشرة عصبة (دون وجود يوسف وأخوه بينهم)؟

رأينا الذي افتريناه من قبل: لقد ظننا مفترينا القول من عند أنفسنا أن العصبة من الرجال هم عشرة في العدد، يتكاتفون معا على تدبير أمر بينهم (كيد) لا يطّلع عليه الآخرون، ويكون تلاحمهم وتماسكهم كمثل أصابع اليدين الاثنتين العشرة إذا ما تشابكت مع بعضها البعض كما في الشكل:



فلا يستطيع أحد منهم أن يفلت عن المجموعة، لأن المجموعة ككل (العصبة) ضامنة عدم انفلاته. لذا نحن نفتري الظن أنه بالرغم من طول الفترة الزمنية التي انقضت على غياب يوسف وبالرغم من حزن يعقوب الطويل على فراق يوسف طوال تلك الفترة، لم ينبر من بين الأخوة من يسكت حزن والده، كأن يبوح له بالسر على نحو ما فعلوه حقاً بيوسف. والسبب في ذلك - في رأينا- هو أن جميعهم كانوا مشتركين في المؤامرة فكانوا يمسكّون بعضهم البعض، فلا يستطيع أن ينفلت أي منهم من المجموعة (للتفصيل انظر الجزء الثالث من قصة يوسف هذه). وقد وعدنا القارئ الكريم في ذاك الجزء من الكتاب أن نحاول أن نبين تبعات هذا الظن في مجريات بقية أحداث القصة.

افتراء جديد من عند أنفسنا: نحن نعتقد أن ما طلبه يعقوب من أبناءه في كيفية دخولهم أرض مصر من أبواب متفرقة كان هدفه فك تلاحمهم ذاك (فلا يعودوا عصبة كما كانوا). ولكن كيف ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن العصبة هم مجموعة من الرجال محددة بالعدد (عشرة بلا زيادة ولا نقصان)، وبخلاف ذلك تصبح عملية حمل مفاتيح كنوز قارون (الذي يتحدث عنها النص القرآني في موطن آخر) أمرا غير مستساغ:

- ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ٧٦﴾ [القصص: 76]

فنحن نظن أن عشرة من (أُوْلِي ٱلْقُوَّةِ) من الرجال لا يستطيعون حمل تلك المفاتيح، ولكن لو زاد العدد عن ذلك ولو بواحد كأن يكونوا أحد عشر رجلا من (أُوْلِي ٱلْقُوَّةِ) لأصبح الأمر ممكنا.

نتيجة: لقد تآمر العشرة جميعا من أخوة يوسف (وهم عصبة) ضد أخيهم يوسف، ولم يشترك الأخ الشقيق (الحادي عشر) في تلك المؤامرة:

- ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩﴾ [يوسف: 8-9]

فبالرغم أن إخوة يوسف هم أحد عشر إلا أن الذي اشتركوا في المؤامرة هم عشرة فقط، فكانوا عصبة، لو كانوا تسعة في العدد لأصبحوا رهطا وليس عصبة:

- ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ۝٤٨﴾ [النمل: 48]

وذلك لأن الأخ الشقيق ليوسف لم يكن طرفا في المؤامرة، فما كان جزءا من تلك العصبة، فالمؤامرة ابتدأت تدبر ضد يوسف وأخيه

- ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨﴾ [يوسف: 8]

وانتهت بالقرار القطعي بالتخلص من يوسف فقط:

- ﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩﴾ [يوسف: 9]

السؤال: لماذا كانوا عصبة؟ وكيف شكل العشرة من أبناء يعقوب عصبة (من دون يوسف وأخيه)؟

رأينا المفترى الخطير جدا: نحن نفتري القول من عند أنفسنا أن يعقوب النبي قد أنجب أبناءه الاثني عشر جميعا من ثلاثة من النساء على النحو التالي:

1. المرأة الأولى: أنجبت خمسة من الأبناء
2. المرأة الثانية أنجبت خمسة من الأبناء
3. المرأة الثالثة: أنجبت اثنين من الأبناء (يوسف وأخيه)

ربما يدعم ظننا هذا التفكر بالفارق العمري بين الإخوة، فلو كان الإخوة جميعا من أم واحدة، لكان الفارق العمري بين أكبرهم سنا وأصغرهم سنا (نحن نتخيل) فارقا شاسعا جدا، وعندها ربما لا يستساغ أن يكيد شخص بسن الرشد مثلا بغلام صغير لم يبلغ الحلم بعد بمثل هذه المكيدة، ولكان وصولهم إلى أرض مصر يبين هذا الفارق الشاسع بين كبيرهم:

- ﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٨٠﴾ [يوسف: 80]

وأصغرهم سنا واضحا للعيان. لكننا نفهم من مجمل السياقات القرآنية الخاصة بالقصة بأن الفارق العمري بينهم لم يكن شاسعا، الأمر الذي ربما يدعم زعمنا بأنهم قد ولدتهم أكثر من أم واحدة وإن تشاركوا جميعا في الأب.

تخيلات: نحن نظن بأنه لم يحصل تآمر من الإخوة ضد اثنين من إخوتهم (يوسف وأخيه) بداية إلا بسبب ظلال والدهم عندما أظهر حبه لاثنين من أبناءه على بقية أبناءه:

- ﴿إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٨﴾ [يوسف: 8]

وقد افترينا الظن في جزء سابق من هذا الكتاب بأن حب يعقوب لأبنائه كان بسبب علمه بأن واحدا من هؤلاء الاثنين سيكون هو محل الاجتباء الإلهي، وما أن قصّ يوسف رؤياه على أبيه حتى تجلى الأمر ليعقوب، فعلم يقينا أن يوسف هو محل ذلك الاجتباء:

- ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٥ وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦﴾ [يوسف: 5-6]

فانحصر حب يعقوب بيوسف منذ تلك الرؤيا الشهيرة، وأصبح واضحا للجميع بأن حب يعقوب (أو لنقل ظلال يعقوب) قد انفرد به يوسف دون أخيه الآخر، فجاء قرار الإخوة واضحا بالتخلص من يوسف فقط:

- ﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ٩﴾ [يوسف: 9]

فما عاد الإخوة يكيدون بهذا الأخ غير الشقيق لهم، وانحصر كيدهم بيوسف فقط. (للتفصيل انظر الجزء الثالث) بعد أن خلا لهم جميعا وجه أبيهم.

ما أن رأى الأبناء بأم عينهم أن حب والدهم قد توجه نحو يوسف وأخيه حتى (نحن لا زلنا نتخيل) كان قرارهم الأولي هو الكيد بالاثنين معا لأنهم (هؤلاء العشرة مجتمعين معا) عصبة:

- ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ٨﴾ [يوسف: 8]

فتآمر الأخوة الخمسة (أبناء زوجة يعقوب الأولى) مع إخوتهم الخمسة الآخرين (أبناء زوجة يعقوب الثانية)، فشكلوا عصبة في تكاتفهم كما تتكاتف أصابع اليد اليمنى مع أصابع اليد اليسرى فلا يستطيع أحد من الأصابع أن ينفلت منها كما في الشكل التوضيحي السابق الذي نعيده هنا لتبسيط الفكرة:



وكان تكاتفهم هذا موجها ضد من تبقى من إخوتهم، وهم الاثنان المتبقيان من أبناء يعقوب (أبناء زوجة يعقوب الثالثة- يوسف وأخوه) الذين لم يكونوا جزء من تلك العصبة.

الدليل: لو حاولنا أن نتدبر حال تلك العصبة منذ أن تشكلت لوجدنا أن الاختلاف في الرأي كان واضحا بين أفرادها منذ اللحظة الأولى، فقد اقترح بعضهم قتل يوسف، واقترح بعضهم الآخر طرحه أرضا:

- ﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ٩﴾ [يوسف: 9]

نتيجة: لم تكن كل أفراد تلك العصبة مجتمعة على رأي واحد.

ولم يتوقف الاختلاف في الرأي عند هذا الحد، فهذا قائل منهم لا يقبل بقتل يوسف، فيقترح طريقة للتخلص منه تكمن في إلقاءه في غيابة الجب، وإن كان (نحن نشعر من نبرة خطابه) أنه غير راض عما هم فاعلين بيوسف:

- ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ١٠﴾ [يوسف: 10]

فالمدقق في السياق القرآني ربما يجد جليا أن هذا المتكلم من بينهم ربما لم يسرّه كثيرا فكرة التخلص من يوسف، فهو ينأى بنفسه عن هذا الفعل فيوجه الخطاب للمجموعة قائلا ﴿إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾. لكن هذا الطرح يُبقى التساؤل الكبير التالي قائما: لماذا لم يخرج عليهم ويعارض فكرة التخلص من يوسف على العلن؟ ولماذا لم يخبر والده يعقوب بما دبره الإخوة ضد أخيهم ما دام أنه غير راض عن ذلك (كما تزعم)؟ يسأل صاحبنا.

جواب مفترى من عند أنفسنا: لأنهم عصبة، فالعصبة (نحن نظن) تتفق على الاختلاف بالرأي، فلكل واحد الحق أن يبد رأيه الخاص به.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن من سمات العصبة أنها تسمح بالاختلاف بالرأي

لكن هذا الاختلاف في الرأي الفردي لا يعني الخروج على الرأي الجماعي، فيجب في نهاية المطاف أن يلتزم كل أفراد العصبة برأي الأغلبية حتى وإن كان هذا الرأي الجماعي يتعارض ما يذهب إليه هو من رأي شخصي. فصحيح أن أحد الإخوة لم يكن راض عن ما يخطط له الإخوة ضد أخيهم (يوسف) إلا أنه التزم بقرار الجماعة (الأغلبية).

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن من سمات العصبة هو الالتزام بالرأي الجماعي

وهذا هو - في رأينا- مبدأ الديمقراطية في الفكر الغربي المسيحي اليهودي (أو ما يسمى بـ Judeo-Christian tradition باللسان الأعجمي)، إنه مبدأ مبني على فكرة العصبة: أي الالتزام بمقررات الجماعة على حساب الرأي الشخصي حتى وإن كان مخالفا.

الدليل :نحن نظن أن بإمكاننا جلب الدليل على افتراءنا هذا بطرح التساؤلات التالية:

- ⇐ لماذا لم تنشق عصبة الإخوة طوال سنين غياب يوسف؟
- ⇐ لماذا لم ينبر من بينهم من يسكت حزن أبيه طوال هذه السنين؟
- ⇐ ألم يكن هؤلاء الأبناء يتسابقون في خطب ود أبيهم؟
- ⇐ ألم يطرحوا يوسف أرضا ليخلوا لهم وجه أبيهم؟
- ⇐ فما بال بعضهم لا يحاول أن يسكت حزن أبيه بأن يبوح له بالحقيقة أو حتى بجزء منها؟
- ⇐ لِم لم يذكر أحدهم لأبيه (ولو في خلوة بعد حين) بأن يوسف لم يأكله الذئب؟
- ⇐ ألم يكن هذا سيجلب له الخير عند أبيه بهذه البشرى؟
- ⇐ الخ.

رأينا: نحن نظن أن هذا لم يكن ليحدث لأن الإخوة كانوا "عصبة"، ولكن كيف ذلك؟

رأينا: لو تدبرنا قصة يوسف من بدايتها لوجدنا أن الكيد كان مبنيا أساس على علاقة الدم بينهم، ولكن كيف ذلك؟

تخيلات: نحن نظن أن الكيد كان موجها نحو رابط الأم، فالأبناء – لا شك- يجتمعون جميعا عند أب واحد وهو يعقوب، فهم جميعا شركاء في الأب، ولكنهم مختلفون في الأم، بدليل الفصل الواضح بينهم في الآية الكريمة التالية

- ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨﴾ [يوسف: 8]

وها هو يوسف يطلب منهم (كعصبة) أن يأتوه بأخ لهم من أبيهم، أليس كذلك؟

- ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ۝٥٩﴾ [يوسف: 59]

وها هو يجتمع في نهاية القصة مع أخيه هذا، فيئويه إليه، ويخبره بأنه هو أخوه، ويطلب منه أن لا يبتئس بما كانت تعمله تلك العصبة (بقية الإخوة):

- ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٦٩﴾ [يوسف: 69]

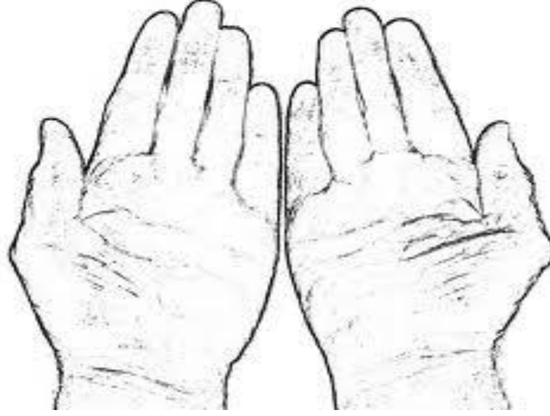
نتيجة مفتراة: لقد كان الفصل بين الإخوة مبني على رابط الأم.

دعنا نصدقك الظن هنا- يقول صاحبنا- لكن ألا يبقى التساؤل نفسه قائما: لم اتفق أبناء الأم الأولى (الخمسة) مع أبناء الأم الثانية (الخمسة الآخرين) ضد أبناء الأم الثالثة (يوسف وأخيه)؟

رأينا: لأنهم عصبة. ولكن كيف ذلك؟

جواب مفترى: إنها توازن القوى.

تخيلات: نحن نتخيل أن يعقوب النبي قد تزوج بالمرأة الأولى ولم تنجب له أولاد، فعمد إلى الزواج من المرأة الثانية، وما أن تزوج يعقوب بهذه المرأة الثانية حتى كان حصلت له الذرية من كلا زوجاته، فأنجبت الأولى ولدا وأنجبت الثانية ولدا، فكانت المنافسة بينهما شديدة، فكلما أنجبت إحداهن ولدا أنجبت الأخرى ولدا، فكانت النتيجة أن أنجبت كل منهما خمسة من الأبناء متقاربين في الفئة العمرية، فشكلوا ما يشبه أصابع اليد اليمنى مقابل أصابع اليد اليسرى كما في الشكل التوضيحي التالي:



ولم يتوقف يعقوب عند ذلك الحد، فقام بالزواج بامرأة ثالثة، فأنجبت له ولدان (يوسف وأخاه)

تخيلات من عندنا فقط: لما كان أبناء الزوجة الأولى يشكلون قوة ضاربة مكونة من خمسة أفراد (في ذلك البرلمان اليعقوبي)، كان أبناء الزوجة الثانية يشكلون أيضا قوة موازية تماما لهم (خمسة أصوات) في البرلمان نفسه. فلا يستطيع الحزب الجمهوري (أبناء الأم الأولى) الإطاحة بالحزب الديمقراطي (أبناء الأم الثانية)، والعكس صحيحا، فحصل توازن قوى بينهم. ولكن كان الحزب الأضعف في ذلك البرلمان هو حزب أبناء الزوجة الثالثة وذلك لأنه مكون من صوتين فقط (يوسف وأخيه).

ولا شك عندنا أن كل حزب منهم كان يحرص على أفراده، ويحافظ على مصالحهم، فأبناء الأم الواحدة يحرصون على أن لا يصاب أحد منهم بأذى، ولو حصل ذلك، لخرجوا (نحن نتخيل) جميعا يدافعون عنه صفا واحدا. لذا نحن نتخيل أنه لم يكن يستطيع أحد منهم أن يتهم أحدا آخر بأنه هو من دبر المؤامرة ضد يوسف، فلو خرج أحد من أبناء الزوجة الأولى واتهم أحد أفراد الزوجة الثانية بذلك، لوقف جميع إخوة المتهم من أمه صفا واحدا ليدافعوا عنه ويردوا عنه التهمة، والعكس صحيح، فلا يستطيع طرف منهم الإطاحة بالطرف الثاني، فبقي ميزان القوى متماسكا حتى النهاية بينهم.

نتيجة: لقد أدرك يعقوب أن أبناءه من زوجته الأولى والثانية قد شكلوا عصبة متماسكة قوية ضد أبناءه من زوجته الثالثة.

السؤال: كيف يمكن أن تفض عصبتهم هذه؟ كيف يمكن أن يخرج بعض أفراد العصبة على العصبة بأكملها؟ كيف يمكن أن تفض شراكتهم؟ هذه تساؤلات – أظن مفتريا القول من عند نفسي- أن يعقوب كان يحيكها في نفسه.

جواب: لو تدبرنا السياقات القرآنية الخاصة بقصة يوسف لما وجدنا أن هذا قد حصل فعلا إلا بعد أن بعث يعقوب بأبنائه جميعا إلى أرض مصر في رحلتهم الثانية وطلب منهم أن لا يدخلوا من باب واحد وأن يدخلوا من أبواب متفرقة:

- ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٦٧﴾ [يوسف: 67]

وما أن فعل الإخوة ما أمرهم به أبوهم، حتى أخذ يوسف أخاه من بينهم فآواه إليه:

- ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٦٩﴾ [يوسف: 69]

وما أن واجهتهم أول مشكلة في أرض مصر بعد ذلك (وهي أخذ أخيهم في دين الملك) حتى دب الخلاف بينهم (وليس اختلاف في الرأي فقط)، فحاولوا بداية الحفاظ على عصبتهم عندما اتهموا أخاهم هذا بالسرقة التي اتهموا بها أخاهم يوسف من قبل:

- ﴿۞قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧﴾ [يوسف: 77]

وحاولوا كعصبة أن يستعطفوا العزيز على حالهم ليقبل بمبدأ الفداء:

- ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٧٨﴾ [يوسف: 78]

وما أن باءت جهودهم (كعصبة) بالفشل حتى انبرى من بينهم من لا يلتزم بقرار العصبة:

- ﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٨٠﴾ [يوسف: 80]

وفي هذه اللحظ بالذات انتهت تلك العصبة، فما عادوا فريقا واحدا متماسكا. وما عادوا يستطيعون (نحن نظن) أن يدبروا المكيدة بغيرهم.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن (ربما مخطئين) أن هذه هي الحاجة التي كانت في نفس يعقوب عندما طلب من أبناءه أن لا يدخلوا من باب واحد وأن يدخلوا من أبواب متفرقة:

- ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٦٧﴾ [يوسف: 67]

فلقد كان هدف يعقوب (كما نتخيله) هو أن يفض تلك الشراكة التي لازالت متينة بين أبناءه حتى لا يبقوا يشكلون عصبة واحدة، فلكي يتأكد يعقوب من عدم قدرتهم على الكيد بأخيهم هذا الذي بعثه معهم كما فعلوا مع يوسف (وهو يعلم ما في نفوسهم من الميل ضده) فلابد من فضّ عصبتهم تلك. فكيف حصل له ذلك؟

رأينا: لقد طلب منهم أن لا يدخلوا من باب واحد. لذا نحن نتخيل بأنه لو بقي الإخوة يدخلون من باب واحد لبقيت عصبتهم قائمة، ولظلوا (نحن نتخيل) فريقا واحدا متماسكا ضد غيرهم، ولأصبح هذا الابن الذي بعثه معهم في خطر من كيدهم.

تخيلات: عندما وصل الإخوة إلى أرض مصر، كان لزاما أن يثبتوا لعزيزها أن لهم أخا من أبيهم، وأنهم قد نجحوا في مراودة أبيه عنه، وها هم يأتوه به كما طلب، لذا يصبحوا مؤهلين لأن يكتالوا، لأن العزيز كان قد اشترط الكيل لهم بإحضار هذا الأخ لهم إليه:

- ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ٥٩ فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ ٦٠﴾ [يوسف: 59-60]

لذا، كان المحافظة على هذا الأخ حتى وصوله إلى أرض مصر أمرا تكفله الضرورة، فهم لا يستطيعون التفريط بهذا الأخ ما لم يصل إلى بلاط عزيز مصر ليراه بأم عينه، فيكتال لهم. وأظن أن يعقوب النبي كان يدرك ذلك، لذا لم يكن يقلق يعقوب على سلامة ولده هذا في رحلة الهبوط إلى أرض مصر مادام أن الكيل مشروط بوصول هذا الأخ سالما إلى عند عزيز مصر، لكن الذي كان يجول في خاطر يعقوب (نحن نتخيل) هو سلامة الولد في رحلة العودة من أرض مصر؟ فماذا لو فعلا حصل الأبناء على الكيل؟ ماذا لو فعلا أثبتوا لعزيز مصر أن لهم أخ من أبيهم؟ فما الحاجة لهذا الأخ بعد ذلك؟ ألن تصبح مهمة الشيطان بأن ينزغ بينهم غاية في السهولة؟ ألم ينزغ بينهم من ذي قبل:

- ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ١٠٠﴾ [يوسف: 100]

ألن تسول لبعضهم نفسه التخلص من هذا الأخ حتى لا يبقى حجر عثرة أمام حضورهم إلى أرض مصر في كل عام؟ لم يضطرون أن يصطحبوه معهم في المرات القادمة؟ أليس فيما بينهم من خصوصية الحديث والتدبير ما لا يجب أن يسمعه هذا الأخ أو أن يطّلع عليه؟

السؤال الذي نتخيل أنه كان يدور في ذهن يعقوب حينئذ: ماذا لو بقي الإخوة بعد ذلك عصبة واحدة؟

جواب مفترى: لأصبح هذا الأخ في خطر شديد لا يقل عن الخطر الذي تعرض له يوسف يوم أن انفرد به إخوته كعصبة.

السؤال: كيف سيستطيع يعقوب أن يضمن سلامة هذا الولد في رحلة العودة من أرض مصر؟ والأهم من ذلك كله هو: ألم يصبح يعقوب شيخا كبيرا:

- ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٧٨﴾ [يوسف: 78]

فلو فارق يعقوب الحياة في هذه الظروف، فكيف سيستطيع هذا الأخ أن يعيش بين ظهرانيهم وهم عصبة على من سواهم؟

جواب: لعلي أظن أن تدبير يعقوب كان منصبا على قضية واحدة ألا وهي: فض تلك العصبة، حتى تتفرق كلمة أبناءه فلا يستطيعون اتخاذ قرار جماعي يلتزم به كلهم أجمعون حتى وإن كان بعضهم لا يوافقه ذلك. وبكلمات أكثر خيالا نقول: لقد كان همُّ يعقوب هو أن يحل ذلك "البرلمان" (إن صح القول) الذي شكّله أبناءه واتفقوا فيه على مبدأ الديمقراطية، أي الالتزام بقرار الأغلبية حتى على حساب الرأي الفردي.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: لقد أصدر يعقوب قراره بفض برلمان أبناءه، فما عادوا عصبة واحدة، فتفرقت كلمتهم وضعفت شوكتهم، فسلم الآخرون من شرورهم:

- ﴿۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ۝٧٧﴾ [يوسف: 77]

وتحصل له ذلك عندما طلب منهم (عن علم عنده) أن لا يدخلوا من باب واحد وأن يدخلوا من أبواب متفرقة:

- ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ۝٦٧﴾ [يوسف: 67]

باب: وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ

لعلي أجزم القول بأن القارئ لقصة يوسف في النص القرآني يجب أن يدخل على ذلك النص وفي ذهنه مسبقا أن شخصيات القصة هم شخصيات مميزة، فيعقوب هو ذو علم بشهادة ربه الذي علمه:

- ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [يوسف: 68]

ويوسف شخص عليم بشهادته لنفسه، وإقرار الإله له بذلك:

- ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ [يوسف: 55]

لذا، وجب التنبّه إلا أن هؤلاء الأشخاص (بما آتاهم الله من علم) لم يكونوا غافلين عما يجري من حولهم، فتسلسل الأحداث بهذه الطريقة لا يمكن أن تكون قد مرت على يعقوب دون تأمل أو تدبر، فلعلي أجزم الظن بأن يعقوب قد أشغل تفكيره في كل صغيرة وكبيرة حصلت في حياته، فما بالك إن تعلق الأمر بسلامة أبناءه (أو أحد منه). لذا نحن نفترض ما يلي:

1. ما اقتنع يعقوب بأن يوسف قد مات.
2. ما كان يعقوب ليثق تماما بكل ما يقوله له أبناءه.
3. لم يكن يعقوب ليسكت عن طلب عزيز مصر أن يحضروا إليه أخاهم هذا دون أن يتفكر بالسبب من وراء ذلك.
4. لم يكن يعقوب ليسكت عن سبب أن تكون البضاعة قد ردت في رحال أبناءه.
5. لم يكن يعقوب ليسكت عن ما أخبره إياه أبناءه فيما يخص عزيز مصر الذي كان يوف الكيل وينعت نفسه بأنه خير المنزلين:

- ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾﴾ [يوسف: 59]

6. لم يكن يعقوب ليسكت على إصرار أبناءه بأن يصطحبوا معهم أخاهم:

- ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يوسف: 63]

ألم يطلب هؤلاء الإخوة الطلب نفسه (إرسال أخيهم يوسف معهم) من ذي قبل؟

- ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ١٢﴾ [يوسف: 12]

فماذا كانت النتيجة؟ ألم يكيد الإخوة بأخيهم؟

فهل سيتخلى الإخوة عن فكرة الكيد بأخيهم الآخر هذه المرة؟

7. الخ.

رأينا: نحن نظن أنه لما كان يعقوب شخص ذو علم، لم يكن ليترك هذه الأحداث تمر في ذهنه وكأنها غير مترابطة، فلابد من التفكر فيها جيدا، ومحاولة ربطها معا ليعلم ما يجري من حوله مادام أن ثقته بما يقوله أبناءه له بلسانهم لم تكن ثقة مطلقة:

- ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٦٤﴾ [يوسف: 64]

السؤال: كيف ربط يعقوب الأحداث مع بعضها البعض؟

رأينا المفترى والخطير جدا: نحن نظن أن شكوك يعقوب بوجود أصابع يوسف في تحريك أحداث القصة قد تنامت منذ تلك اللحظة، فيعقوب يعلم يقينا أن يوسف لم يمت مادام أن الله لا محالة مجتبيه:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٦﴾ [يوسف: 6]

وما دام أن ما فعله الإخوة بأخيهم يوسف لم يكن أكثر مما سولت لهم أنفسهم:

- ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ٨٣﴾ [يوسف: 83]

(للتفصيل انظر الأجزاء الأولى من هذا الكتاب)

لذا، كان شك يعقوب بأن "هذا الشخص" الذي يطلب إحضار هذا الولد إليه لا يمكن أن يكون شخصا عاديا، ولم يستطع يعقوب أن يخفي ظنه بأن هذا الرجل (عزيز مصر) له علاقة مباشرة بيوسف، فجاء طلبه من أبناءه في نهاية المطاف على النحو التالي:

- ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧﴾ [يوسف: 87]

الدليل: إن أكثر ما أدهشني في هذا السياق القرآني على وجه التحديد هو ردة فعل الأبناء على طلب والدهم هذا، فما تردد الأبناء في الهبوط إلى أرض مصر ليتحسسوا من يوسف وأخيه.

تساؤلات محيرة

⇐ لماذا لم يرد أحد منهم على طلب والده هذا بشيء من التذمر أو عدم الرضا؟
⇐ كيف بهم يذهبوا ليتحسسوا من يوسف وأخيه وهم من قالوا لأبيهم منذ سنين كثيرة خلت بأن الذئب قد أكله:

- ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧﴾ [يوسف: 17]

⇐ كيف رضي الأبناء النزول عند طلب أبيهم هذا وهم الذين جهدوا في إقناعه بموت يوسف؟
⇐ وكيف تحسسوا من يوسف وأخيه؟
⇐ أين تحسسوا من يوسف وأخيه؟
⇐ وماذا كانت آلية "التحسس" من يوسف وأخيه؟
⇐ الخ

هذا ما سنحاول النبش فيه في الجزء القادم بحول الله وتوفيق منه، فالله وحده أسأله أن يعلمني وصاحبي عليا ما لم نكن نعلم، وأن يجعل فضله علينا عظيما، وأن يهدينا إلى نوره الذي أبى إلاّ أن يتمّه ولو كره الكافرون، ونعوذ به أن نكون ممن يفترون عليه الكذب أو ممن يقولون عليه ما ليس لهم بحق، ونعوذ به أن نكون ممن يصدون عن سبيله أو ممن يبغونها عوجا - إنه هو العليم الحكيم.

دعاء: وأسأله وحده أن ينفذ قوله بمشيئته وإرادته لى الإحاطة بشئ من علمه لا ينبغى لأحد غيري، إنه هو الواسع العليم

المدّكرون: رشيد سليم الجراح & علي محمود سالم الشرمان
بقلم: د. رشيد الجراح
16 نيسان 2014
د. رشيد الجراح مركز اللغات، جامعة اليرموك



الجزء الحادي والعشرون

يا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ
وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ



الجزء الحادي والعشرون: يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ

ظننا في نهاية الجزء السابق أن طريقة حصول الأحداث على تلك الشاكلة قد بدأت تبعث في نفس يعقوب الشك بأن "هذا الشخص" من مصر الذي اشترط إحضار هذا الابن غير الشقيق لإخوته إليه من أجل أن يكتل لهم جميعا لا يمكن أن يكون شخصا عاديا، ولم يستطع يعقوب أن يخفي ظنه بأن هذا الرجل (عزيز مصر) له علاقة "بطريقة ما" بيوسف، فجاء طلبه من أبناءه في نهاية المطاف على النحو التالي:

- ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧﴾ [يوسف: 87]

وقد حاولنا جاهدين أن نبيّن أن هذا السياق القرآني بحد ذاته يثر الدهشة لمن أراد أن يتدبر مجريات الأحداث، خاصة ما يتعلق منه بردة فعل الأبناء على طلب والدهم هذا، ولكن كيف ذلك؟

رأينا: نحن نستغرب بأنه على الرغم من أن الأبناء قد حاولوا جاهدين منذ زمن بعيد أن يقنعوا والدهم بموت يوسف لأن الذئب قد أكله:

- ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧﴾ [يوسف: 17]

وبالرغم من أنهم جاءوه بالدليل الذي ظنوا أنه ربما يقنعه:

- ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨﴾ [يوسف: 18]

وبالرغم أنهم سكتوا على ذلك سنوات طوال وهم يشاهدون بأم أعينهم أن حزن أبيهم على فراق يوسف لم يسكت:

- ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ٨٤﴾ [يوسف: 84]

نقول: بالرغم من هذا كله، إلا أنهم لم يترددوا أن يهبطوا مصر ليتحسسوا من يوسف وأخيه كما طلب منهم والدهم.

إن هذا الأمر يجلب في ثناياه (كما ذكرنا في نهاية الجزء السابق من هذا الكتاب) تساؤلات محيّرة، نذكر منها:

⇐ لماذا أسرع الأبناء على تنفيذ طلب والدهم هذا (أي أن يتحسسوا من يوسف وأخيه)؟
⇐ لماذا لم يرد أحد منهم على طلب والده هذا بشيء من التذمر أو عدم الرضا؟
⇐ كيف بهم يذهبوا ليتحسسوا من يوسف وأخيه وهم من قالوا لأبيهم منذ سنين كثيرة خلت بأن الذئب قد أكله؟ أي كيف رضي الأبناء النزول عند طلب أبيهم هذا وهم الذين جهدوا في إقناعه بموت يوسف؟

- ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧﴾ [يوسف: 17]

⇐ وكيف تحسسوا من يوسف وأخيه؟
⇐ وأين تحسسوا من يوسف وأخيه؟
⇐ وماذا كانت آلية "التحسس" من يوسف وأخيه؟
⇐ الخ

أما بعد،

لعلنا وصلنا الآن إلى الاستنباط البسيط الذي مفاده أن هبوطهم مصر هذه المرة ليتحسسوا من يوسف وأخيه كان الهبوط الثالث، فهم قد هبطوا مصر أول مرة عندما ذهبوا يطلبون الكيل، فمُنِعوه حتى يأتوا عزيز مصر بأخ لهم من أبيهم:

- ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ٥٩ فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ ٦٠﴾ [يوسف: 59-60]

وكان هبوطهم الثاني عندما اصطحبوا أخاهم هذا ورجعوا إلى عزيز مصر ليكتالوا، "وليمّروا" أهلهم:

- ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ٦٥﴾ [يوسف: 65]

فأخذ منهم والدهم موثقا من الله على سلامة هذا الأخ في رحلتهم ذهابا وإيابا:

- ﴿قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ٦٦﴾ [يوسف: 66]

فاصطحبوا أخاهم هذا وهبطوا إلى أرض مصر، فكان ما كان من أمر "السرقة التي افتعلها يوسف بنفسه"، وكان نتيجتها أن أخذ يوسف أخاه هذا بدين الملك بعد:

- ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [يوسف: 76]

فعاد الإخوة يجرون أذيال الخيبة لأنهم لم يستطيعوا أن يحافظوا على الموثق الذي ءاتوه لأبيهم.

وها هو يعقوب الآن يطلب منهم أن يهبطوا مصرا للمرة الثالثة، ولكن من أجل هدف غريب جدا وهو أن يتحسسوا من يوسف وأخيه غير يئسيين من روح الله:

- ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف: 87]

السؤال: لماذا طلب يعقوب من أبناءه أن يذهبوا ليتحسسوا من يوسف وأخيه؟ هل جاءت هذه الفكرة ليعقوب بالصدفة؟ كيف أقحم يعقوب يوسف بالقصة بهذه الطريقة التي قد تبدو للوهلة الأولى وكأنها مفاجئة؟

رأينا المفترى: نحن نعتقد أن الأبناء كان يظنون بأن في عدم قدرتهم على المحافظة على العهد الذي قطعوه لأبيهم أذى كبيرا لهم، ولكنهم (ربما لعدم وصولهم إلى درجة من العلم كوالدهم يعقوب) لم يكونوا يدركون بأن في ذلك خير كثير قد جلبوه ليعقوب، ولكن كيف ذلك؟

رأينا المفترى: عندما وصل الخبر ليعقوب بأن عزيز مصر قد أخذ ابنه هذا الذي بعثه مع إخوته في دين الملك، انتقلت شكوك يعقوب السابقة بوجود أصابع خفية تدير هذه الأحداث بكل دقة ومهارة إلى يقين تام. والأهم من ذلك هو شعوره بأن "حرفية" هذه الأصابع في حياكة الأحداث لا يمكن أن تخفى على شخص مثل يعقوب. لقد علم يعقوب (نحن نكاد نجزم القول) أن هناك أصابع هو يعرفها تماما تدير دفة الأحداث التي لا يستطع أبناءه أن يفهموها بعد – إنها أصابع من جاءه التأييد من السماء. أنها أصابع تدبر كيدا:

- ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [يوسف: 76]

نتيجة خطيرة جدا جدا: نحن نفتري الظن بأن يعقوب قد أدرك بأن في هذا "كيد" لا تقل مهارة أصابع من دبره عن مهارة أصابع من دبر كيدا هو يعرفه تماما من ذي قبل – أنه يشبه تماما الكيد الذي دبره جده إبراهيم من ذي قبل بأصنام القوم:

- ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ۝٥٧﴾ [الأنبياء: 57]

تخيلات: نحن نظن أن يعقوب قد أدرك حينها أن هناك كيد يدبّر، وأن من دبّر هذا الكيد قد دبّره من أجل هدف محدد بذاته، وأنه قد نفذه ببراعة فائقة لكي لا يخطئ هدفه. فمن هو مدبر هذا الكيد؟

جواب: إنه شخص مؤيد من السماء:

- ... كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ...

السؤال: من أين تعلم تدبير الكيد؟

جواب: مما فعل جده إبراهيم عندما كاد أصنام القوم .

- ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ۝٥٧﴾ [الأنبياء: 57]

نتيجة خطيرة جدا جدا: نحن نظن أن يعقوب الآن يدرك أن في الأمر "كيد" يعمل على تدبيره شخص مؤيد بتأييد السماء، وهو شخص يعلم كيف يدبر الكيد لأن عنده علم بتجربة قد سبقت.

تخيلات: لقد أصبح واضحا ليعقوب بأن أصابع يوسف (المؤيد من السماء) تدبر هذا الكيد بحرفية فائقة لأنه يعلم كيف يكون ذلك لما عنده من علم بكيفية تدبير الكيد الذي دبره جده إبراهيم:

- ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ۝٣٨﴾ [يوسف: 38]

الدليل: لجلب الدليل على هذا القول المفترى من عند أنفسنا فلابد من طرح التساؤل التالي: ما هو الكيد؟

رأينا: نحن نظن أن الكيد هو أمر فيه "ريبة" يصعب على الآخرين اكتشافه بسهولة، يدّبر من أجل هدف محدد بذاته وينفذ ببراعة فائقة.

ما هو الهدف من الكيد؟

جواب: الخروج من مأزق يكاد الخروج منه يكون مستحيلا بغير ذلك.

السؤال: ما هو المأزق الذي خرج منه يوسف عندما دبر الكيد بإخوته؟

جواب: إنه المأزق نفسه الذي خرج منه إبراهيم من ذي قبل.

السؤال: وماذا كان المأزق الذي خرج منه إبراهيم عندما كاد أصنام القوم؟

افتراء خطير جدا جدا من عند أنفسنا: إنه عدم الكذب.

رأينا المفترى، نعم لقد دبر يوسف الكيد بإخوته حتى لا يقع في الكذب، وكان هذا درس تعلمه يوسف من جده إبراهيم الذي كاد أصنام القوم حتى لا يقع في الكذب. ولكن كيف حصل ذلك؟

جواب: دعنا نطرح التساؤل التالي الذي نظن أنه سيقودنا إلى تقديم الدليل على زعمنا هذا، والسؤال هو: كيف عرف يعقوب أن هناك كيد يجري تدبيره من قبل من عنده علم؟

رأينا المفترى الخطير جدا جدا: نحن نظن أن يعقوب قد أدرك هذا التدبير الخفي من دقة الأحداث خاصة كيفية "تلفيق" السرقة المزعومة بولده، ولكن كيف ذلك؟

رأينا: لقد أدرك يعقوب أن هناك مؤامرة تحاك (أي كيد) من خلال ما زعم القوم أنه قد سرق منهم ومن خلال ما تم استخراجه من وعاء ولده.

سؤال: لم أفهم شيئا، يقول صاحبنا- ما الذي تريد قوله باختصار شديد؟

جواب: ربما لا أستطيع أن أختصر كثيرا، لكني أظن أن السياقين التاليين يفسران أحسن تفسير ما أود توصيله من فكرة عجزت قدرتي اللغوية أن تبينها للقاري الكريم، فقرأ – رحمك الله- السياقين بعين الناقد:

السياق الأول

- ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾﴾ [يوسف: 70-71]

السياق الثاني:

- ﴿قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ۝٧٢ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ۝٧٣ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ۝٧٤ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧٥﴾ [يوسف: 72-75]

السؤال: ألا ترى - عزيزي القارئ- شيئا عجبا في هذين السياقين؟ ألم يجعل يوسف السقاية (مؤنث) في رحل أخيه (جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ)؟ فكيف بالمؤذن يؤذن بالعير بأنهم قد فقدوا صواع (مذكر) الملك (قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ)؟

السؤال المحيّر لي: ما الذي تم استخراجه من وعاء أخيه: السقاية (مؤنث) أم الصواع (مذكر)؟

جواب: انظر السياق القرآني التالي:

- ﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ۝٧٦﴾ [يوسف: 76]

نتيجة: لقد تم استخراجها (اسْتَخْرَجَهَا)، لذا فهي – في ظننا- السقاية التي جعلها في رحل أخيه وليس الصواع (مذكر) الذي أذن المؤذن بفقدانه في العير (قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاء بِهِ).

تخيلات: هل تظن عزيزي القارئ أن أبناء يعقوب لم يحدثوا أباهم بكل التفاصيل التي حصلت هناك؟ وهل تظن أن مثل هذه الخيوط في حبك القصة ستفلت من بين أيدي خياط ماهر كيعقوب؟

تخيلات: نحن نتخيل أن أبناء يعقوب قد قصوا على والدهم ما حصل في أرض مصر، فأخبروه (نحن نتخيل المشهد) أنه ما أن اتجهت العير خارجة من أرض مصر حتى سمعنا صوت مؤذن ينادي فينا ليتهمنا بالسرقة، فرجعنا باتجاه ذلك المؤذن ومن ومعه نستفسر عن ما سرق منهم، فأخبرونا بأنهم يفقدون صواع الملك (قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ)، فأنكرنا ذلك وقلنا لهم بأننا نحن أبناء الأنبياء لا نسرق، وأخبرناهم بأنهم على علم بذلك لأننا قدمنا لهم الدليل القاطع على حفظنا للأمانة عندما أعدنا لهم ما وجدناه من بضاعتنا في رحالنا في رحلتنا الأولى، ولو كنا قوم سارقين (قلنا لهم) لما اضطررنا إلى فعل ذلك، فأنتم الآن تعلمون أمانتنا (لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ). ولكن يا أبينا – قال الأبناء - أصر العزيز على التفتيش، فبدأ بأوعيتنا الواحدة تلو الآخر حتى وصل إلى وعاء أخينا كآخر وعاء يُفتش، ومن هناك استخرج السقاية (فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ).

السؤال: ما الذي استوقف يعقوب في هذه اللحظة من سرد القصة على مسمعه؟ نحن نسأل.

رأينا: لعلي أظن أن السؤال الذي كان يخالج يعقوب حينها هو: كيف بهم يؤذنون بفقدان صواع الملك وها هم يستخرجون السقاية؟ لماذا فعلوا هذا؟

جواب: أظن – يا سادة- أن يعقوب أدرك على الفور أن في هذا "كيد" قد دبر لتجنب الوقوع في الكذب. ولكن كيف تم ذلك؟ ولماذا حصل على تلك الشاكلة؟ من يدري؟!!!

ثانيا، أظن أن هناك أمرا آخر (ربما يكون أكثر خطورة من سابقه) هو ما أكد ليعقوب (نحن نظن) أن ما دبر بحق ولده هو كيد، فلعلي أجزم القول بأن يعقوب أخذ يظن أن هذه مؤامرة محبوكة جيدا (أي كيد) لا يقدر عليه إلا ما كان الله نفسه هو من يكيد له، فما هي؟

جواب: إنها استخراج السقاية من وعاء أخ يوسف وليس من رحله

السؤال: وما علاقة ذلك بما تزعم من قول هنا؟

جواب: لو حاولنا أن نتدبر الأحداث جيدا لوجدنا أن يوسف قد وضع السقاية بنفسه في رحل أخيه، أليس كذلك؟ وانظر – إن شئت- في هذه الآية الكريمة

- ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ٧٠﴾ [يوسف: 70]

ثم ها هو يستخرجها من وعاء أخيه، أليس كذلك؟

- ﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ٧٦﴾ [يوسف: 76]

السؤال: ما الذي تظنه كان يدور – عزيزي القارئ- في ذهن يعقوب عندما أخبره أبناؤه بأن السقاية قد استخرجت من الوعاء؟

رأينا: لعلي أظن أن السؤال الذي كان يخالج يعقوب حينها هو: كيف استخرجت السقاية من وعاء ابنه؟ كيف وصلت السقاية أصلا إلى وعاءه؟ لِم لَم تستخرج السقاية في رحل ابنه وكفى؟ ألم يستخرجوا بضاعتهم من رحالهم في المرة الأولى؟

- ﴿وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٦٢﴾ [يوسف: 62]

السؤال: لو كان ابنه فعلا سارقا، فلِم لم يسرق السقاية ويضعها في رحله؟ فلم جعلها في وعاءه؟

بداية، لو أن السقاية قد استخرجت من الرحل لما تجرأ يوسف على أن يوجه لهم تهمة السرقة لأن تجهيز الرحال كان يقوم عليه يوسف:

- ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [يوسف: 70]

وفتيانه:

- ﴿وَقَالَ لِفِتْيَـٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَـٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يوسف: 62]

نتيجة: لو تم استخراج السقاية من الرحل لما تردد الإخوة (نحن نظن) بأن ينسبوا ذلك إلى فعل قام به يوسف نفسه أو بعض فتيانه إما عن قصد أو بدون قصد (أي بالخطأ) كما حصل في الرحلة الأولى عندما كانت البضاعة في متاع الإخوة الموجود في رحالهم.

السؤال: كيف انتقلت السقاية من الرحل إلى الوعاء؟

رأينا: نحن نظن أن ما كان يخالج يعقوب في تلك اللحظة هو التدبّر التالي: أنا أعرف (يقول يعقوب في نفسه) بأن ابني لا يسرق، فهذا عمل يستحيل أن يقدم عليه أبناء الأنبياء، فالذي ربى أبناءه على عدم البغاء:

- ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَـٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَـٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَـٰذِهِۦ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾﴾ [يوسف: 65]

والذي وافق على المخاطرة بحياة ابنه هذا من أجل رد البضاعة التي وجدت في رحالهم عندما انقلبوا إلى أهلهم وفتحوها هناك فردوها لأصحابها، يستحيل أن يرضي بأن يحضر له ولده شيئا مسروقا من هناك فيسكت عليه، لأنه لا محالة سيرده إلى المكان الذي أحضره منه ليعيده إلى أصحابه. فيعقوب يعلم أن ولده يعلم يقينا بأنه لو أحضر شيئا مسروقا من هناك لكان من المستحيل أن يقبل والده يعقوب بذلك، ولبعثه بشخصه ليرده إلى المكان الذي أحضره منه. لذا كان السؤال الذي حيّر يعقوب وقتها: لماذا استخرجت السقاية من وعاء ابنه؟ وكيف بابنه يضع شيئا في وعاءه ليس له به حق؟

جواب: أظن أنه الكيد، فتلك مكيدة (أظن أن يعقوب قد قال في نفسه) مدبرة لا يقدر عليها إلا من يعلم كيف يخرج من مأزق الوقوع في الكذب.

السؤال: كيف حصل ذلك؟ لا زلت لم أفهم شيئا، يرد صاحبنا.

جواب: نحن نظن أن الإجابة على هذا التساؤل ربما تكون ميسّرة بحول الله متى ما استطعنا أن نفهم ما هو الوعاء؟ وكيف يختلف الوعاء عن الرحل؟ وكيف يختلفان الاثنان عن المتاع والجهاز؟

باب الرحل (جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ) والوعاء (ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاء أَخِيهِ)

الافتراء الذي نقدمه مسبقا هو: نحن نظن أن الوعاء هو ما يشبه الصندوق الشخصي (أو container باللسان الأعجمي) لا يمكن لأحد غير صاحبه أن يصل إليه. فيستحيل على أحد أن يضع شيئا في وعائك دون علم منك، وذلك لأن الوعاء هو شيء

⇐ خاص بشخص واحد
⇐ صغير الحجم
⇐ يحمله الشخص معه على الدوام، فيكون ملازما له
⇐ الخ

وانظر ما يقدم لنا أحد معاجم اللغة الإنجليزية من مفردات يمكن أن نختار من بينها

basket *noun* [C] CONTAINER

a light container, often with a handle, which is made of thin strips of wood, metal or plastic woven together and is used for carrying or storing things

a shopping/picnic basket

a wicker basket

a laundry/clothes basket

bin *noun* [C] STORAGE

a large storage container

a bread bin

box *noun* CONTAINER

[C] a square or rectangular container with stiff sides and sometimes a lid

a cardboard box

a cigar box

a matchbox

carton *noun* [C]

a box made from thick cardboard, for storing goods, or a container made from cardboard or plastic, in which milk or fruit juice, etc. is sold

a carton of orange juice

case *noun* CONTAINER

12. [C] a container or box for storing things in

casing *noun*

[C or U] a covering that protects something

casket *noun* [C]

1. a small decorative box, especially one used to keep jewellery in

chest *noun* [C] BOX

2. a large strong box, usually made of wood, which is used for storing valuable goods or possessions or for moving possessions from one place to another

Her books and clothes were packed into chests and shipped across to Canada.

coffer *noun*

1. [C] a large strong box in which money or valuable objects are kept

container *noun* [C]

1. a hollow object, such as a box or a bottle, which can be used for holding something, especially to carry or store it

an airtight container

a plastic drinks container

crate *noun* [C]

a box made of wood, plastic or metal, especially one divided into parts to hold bottles

a milk crate

a crate of empty bottles

a packing crate

ˈ deed ˌ box *noun* [C usually singular]

a metal box that can be locked, in which important documents are kept

diplo ˈ matic ˌ bag *noun* [C usually singular]

a container in which letters are sent between countries' representatives in other countries, and which is not examined by customs officials

hamper *noun* [C]

1. a large rectangular container with a lid

a picnic hamper

hod *noun* [C]

a container for carrying bricks made of an open box on a pole which is held against the shoulder

holder *noun* [C] **CONTAINER**

1. a device for putting objects in or for keeping them in place

a toothbrush holder

a cigarette holder

ˈjewelleryˌ box *noun* [C]

a special box for keeping jewellery, often decorated and containing several sections

moneybox *noun* [C] mainly UK

a closed container in which money is kept, especially one with a hole in the top through which coins can be pushed

ˈ packing ˌ case *noun* [C] UK (US **packing crate)**

a large strong box for transporting things

I don't think we've got enough packing cases for all the kitchen equipment.

ˈ piggy ˌ bank *noun* [C]

a small container, sometimes in the shape of a pig, which is used by children for saving money

planter *noun* [C]

2. a large container in which plants are grown for decoration

portfolio *noun* [C] *plural* **portfolios** **CASE**

1. a large thin case used for carrying drawings, documents, etc.

quiver *noun* [C] **CONTAINER**

1. a long thin container for carrying arrows

receptacle *noun* [C] formal

a container used for storing or putting objects in

Householders are given four separate receptacles for their rubbish.

safe *noun* [C]

a strong box or cupboard with special locks where valuable things, especially money or jewels (= precious stones), are kept

Thieves broke into/cracked (= opened by force) the safe and stole everything in it.

ˈ tool ˌ box *noun* [C usually singular]

a container in which you keep and carry small tools, especially those used in the house or for repairing a car

trunk *noun* **CASE**

4. [C] a large strong case that is used for storing clothes and personal possessions, often when travelling or going to live in a new place

workbasket *noun* [C] (mainly UK **workbox**)

a small container in which things used for sewing, such as needles, pins and thread are kept

workbox *noun* [C] mainly UK

a workbasket

ولكن بالرغم من غزارة تلك اللغة بالمفردات التي تتحدث عن فكرة "الوعاء"، فهناك أكثر من خمسين مفردة، إلا أنني لا أظن أني استطعت أن أجد الكلمة الحقيقية المرادفة لمفردة وعاء القرآنية في قاموس تلك اللغة. فما هو الوعاء إذن؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الوعاء هو أداة صغيرة الحجم، يستخدمها المسافر لحزم أمتعة شخصية جدا، خاصة به، يكون ملازما لصاحبه على الدوام فلا يستطيع الآخرون الوصول إليه دون علم صاحبه، أو إدعاء ملكيته.

الدليل:

⇐ لو أن الوعاء لم يكن أداة صغيرة الحجم، لربما ما كان صاحبه يستطيع حمله على الدوام.
⇐ لو أن الوعاء لم يكن أداة خاصة بصاحبها لربما حق لمن استخرجت السقاية من وعائه أن ينكر ملكيته، كأن يقول بأنه ليس له
⇐ لو أن الوعاء لم يكن ملازما لصاحبه، لربما حق لمن استخرجت السقاية من وعائه أن يدعي بأن ذلك تم دون علم منه

السؤال: ماذا عن الرحل؟

رأينا: نحن نظن أن الرحل هو أداة كبيرة الحجم يستخدمها المسافر لنقل متاعه كله فيه، وهو غير ملازم لصاحبه على الدوام، لذا يستطيع الآخرون الوصول إليه، ووضع شيء فيه دون علم صاحبه، فهذا يوسف وهؤلاء فتيانه يصلون بأنفسهم إلى رحال الإخوة:

- ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٦٢﴾ [يوسف: 62]
- ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ۝٧٠﴾ [يوسف: 70]

نتيجة: ما دام أنه يمكن للغير (كيوسف وفتيانه مثلا) أن يصل إلى رحال هؤلاء العير، فلا يمكن أن توجه لهم تهمة السرقة لو تم استخراج السقاية من رحل أحدهم.

السؤال: كيف يمكن التمييز بين المتاع من جهة والوعاء من جهة أخرى؟

نحن نعتقد أن المتاع هو ما يمكن أن يوضع داخل الرحل، فهذا يوسف يطلب من فتيانه أن يجعلوا بضاعة إخوته في رحالهم:

- ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٦٢﴾ [يوسف: 62]

وها هم الإخوة يستخرجونها من متاعهم بعد فتح متاعهم الموجود داخل رحالهم:

- ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ٦٥﴾ [يوسف: 65]

فالمتاع (نحن نظن) هو أصغر حجما من الرحل، فهو عبارة عن شيء (أو عدة أشياء) توضع داخل الرحل

نتيجة: هناك الرحل وهناك المتاع وهناك الوعاء

السؤال الذي كان محيرا لي على الدوام هو: ألم يجعل يوسف السقاية في رحل أخيه؟ فلم إذن استخرجها من وعاء أخيه؟ لِم لَم يستخرجها من رحل أخيه حيث وضعها هناك بنفسه؟ ولماذا أذن المؤذن بفقدان الصواع؟

جواب غريب جدا جدا مفترى من عند أنفسنا: نحن نتخيل بأنه لابد من أن هناك يد قد تدخلت لنقل السقاية من الرحل حيث جعلها يوسف فيه إلى الوعاء حيث استخرجها منه.

السؤال المحوري إذن: من الذي نقل السقاية من الرحل إلى الوعاء؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: إنه أخ يوسف نفسه

السؤال: متى نقلها هذا الأخ من الرحل وجعلها بنفسه في الوعاء؟

جواب: بعد أن وضعها يوسف فيه

تخيلات: يعمد يوسف إلى تجهيز إخوته بنفسه (فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ)، فيجعل السقاية في رحل أخيه هذا (**جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ**). فيعمد هذا الأخ على الفور إلى نقل السقاية من الرحل ليجعلها بنفسه في وعاءه.

السؤال: لماذا؟ لماذا عمد هذا الأخ إلى نقل السقاية من الرحل إلى الوعاء؟

جواب مفترى خطير جدا: ليكون سارقا. انظر السياق القرآني كاملا، لتجد أنه يتحدث عن كيد قام به يوسف بتأييد من ربه:

- ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ۝٧٠ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ۝٧١ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ۝٧٢ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ۝٧٣ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ۝٧٤ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧٥ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ۝٧٦ ۞ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ۝٧٧﴾ [يوسف: 70-77]

نتيجة مفتراة: نحن نظن (مفترين الظن من عند أنفسنا طبعا) بأن هذا هو الكيد الذي كان ليوسف.

السؤال: هل تهذي يا رجل؟ أيعقل أن أخ يوسف كان فعلا سارقا؟ لِم يريد أن يكون سارقا؟

جواب: تخيل معي - عزيزي القارئ- لو أن أخ يوسف هذا لم يقم بنقل السقاية من رحله (حيث جعلها يوسف فيه) إلى وعاءه (حيث استخرجها يوسف منه)؟ ماذا لو بقيت السقاية فعلا في الرحل حيث وضعها يوسف؟ وماذا لو استخرجها يوسف من المكان نفسه الذي وضعها فيه (أي الرحل)؟ ما الذي كان يمكن أن يحصل؟ هل يستطيع يوسف أن يأخذ أخاه بدين الملك بتهمة السرقة؟

جواب خطير جدا جدا جدا لا تصدقوه: نحن نظن أنه لو حصل ذلك لكان هناك نتيجتان حتميتان لا مفر منهما:

1. لكان يوسف كاذبا (لأن أخاه المتهم بالسرقة لن يكون حينها سارقا)
2. لما استطاع يوسف أن يأخذ أخاه في دين الملك (مادام أن أخاه لم يسرق شيئا).

السؤال: لماذا؟

جواب: لأن الأخ لن يكون قد سرق شيئا، ولكانت القصة بأكملها "تلفيق بتلفيق" (أي كذب)، ولما حق ليوسف أن يأخذ أخاه في دين الملك، ولكان ما فعله (لو حصل على تلك الشاكلة) يقع في باب الكذب.

السؤال: كيف الخروج من ذلك؟

جواب: لابد من الكيد. قال تعالى:

- كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ

باب إبراهيم يكذب ثلاث كذبات

روى مسلم من حديث أبي هريرة التالي المرفوع إلى النبي محمد:

لم يكذبْ إبراهيمُ النبيُّ ، عليه السلامُ ، قط إلا ثلاثَ كذْباتٍ ، ثنتين في ذاتِ اللهِ . قوله : إني سقيمٌ، وقولُه بل فعله كبيرُهم هذا . وواحدةٌ في شأنِ سارَّةَ .

فإنه قدم أرضَ جبَّارٍ ومعه سارَّةُ، وكانت أحسنَ الناسِ، فقال لها : إن هذا الجبارَ، إن لا يعلمُ أنك امرأتي، يغلبني عليك، فإن سأل فأخبريه أنك أختي، فإنك أختي في الإسلامِ، فإني لا أعلمُ في الأرضِ مسلمًا غيري وغيرِك.

فلما دخل أرضَه رآها بعضُ أهلِ الجبَّارِ، أتاه فقال له: لقد قدم أرضَك امرأةٌ لا ينبغي لها أن تكونَ إلا لك فأرسل إليها فأتى بها.

قام إبراهيمُ عليه السلام إلى الصلاةِ ، فلما دخلت عليه لم يتمالكْ أن بسط يدَه إليها، فقُبِضَتْ يدُه قبضةً شديدةً فقال لها : ادعي اللهَ أن يُطْلِقَ يَدي ولا أضرُّك، فَفَعَلَتْ ، فعادَ ، فَقُبِضَتْ أشدَّ من القبضةِ الأولى ، فقال لها مثلَ ذلك، ففعلتْ ، فعاد، فقُبِضتْ أشدَّ من القبضتين الأُوليين، فقال : ادعي اللهَ أن يطلقَ يدي، فلك اللهُ أن لا أضرَّكِ، ففعلتْ، وأطلقتْ يدَه، ودعا الذي جاء بها فقال له : إنك إنما أتيتني بشيطانٍ ولم تأتني بإنسانٍ فأخرجْها من أرضي ، وأعطها هاجرَ، قال فأقْبَلَت تمشي، فلما رآها إبراهيمُ عليه السلام انصرف،فقال لها: مهيمْ؟ قالت: خيرًا كفَّ اللهُ يدَ الفاجرِ وأخدم خادِمًا، قال أبو هريرة : فتلك أمُّكم يا بني ماءِ السماءِ

السؤال: هل يكذب إبراهيم؟

جواب: عادة ما سوّق أهل العلم للعامة من الناس من مثلي هذا الظن بإبراهيم فيما يعرف عندهم بحديث الشفاعة، فقد روى البخاري ومسلم حديث الشفاعة وطلب الناس من إبراهيم عليه السلام أن يشفع لهم فامتنع وقال "إني كَذَبت ثلاث كذبات" وهي قوله عندما سألوه عمن كسر الأصنام (بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا) وقوله عندما نظر في النجوم (إِنِّي سَقِيمٌ) وقوله عن زوجته سارة إنها أخته.

السؤال: ألا ترى - عزيزي القارئ- أن إبراهيم قد كذب في المرة الأخيرة خوفا من بطش ذلك الجبار؟ فما بال إبراهيم إذن (نحن نسأل فقط) يواجهه من تجبر على الله مواجهة لا يخشى فيها إبراهيم شيئا، واقرأ – إن شئت- قوله تعالى:

- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة: 258]

فمال هذا الذي آتاه الله الملك يُبهَت من حجة إبراهيم ولا يخشى إبراهيم منه شيئا؟ أم ترى إبراهيم قد "جبن" (يا أهل العلم) عندما تعلق الأمر فقط بزوجته؟ من يدري؟!!!

الفكر السائد: غالبا ما استنبط أهل العلم من مثل هذا الحديث جواز الكذب من أجل دفع الظالم، فقد اتفق سادتنا العلماء أهل الدراية (كما نقل لنا عنهم أهل الرواية) أنه لو جاء ظالم يبحث عن شخص متخفي ليقتله أو ليوقع عليه ظلما، لوجب على من علم ذلك إنكار العلم به، فهذا (هم يظنون) يقع في باب الكذب الجائز وربما الكذب الواجب ما دام أن الهدف هو دفع الظلم.

سبحان الله!!! ما أعظم هذه الفتاوى!!! وما أغزر علم هؤلاء العلماء!!! حقيقة أن منبهر جدا جدا جدا.

لكن – يا سادة- دعني أوجه سؤالا بسيطا جدا قبل ذلك لكي يسهل عليّ تقبل علمكم العظيم هذا، وأرجو أن لا تأخذوا سؤالي على محمل الجد، فأنا فقط أسأل لا أكثر، والسؤال هو: هل يمكن أن يكون محمد كاذبا؟ هل يمكن أن يكون محمد قد كذب ولو مرة واحدة فقط؟

⇐ ما الذي تقوله يا رجل؟ اتق الله؟ أيكذب محمد؟ لقد جاز قطع رقبتك! لقد افتريت بهتانا عظيما! لابد أن تنزل بك هذه الكلمة سبعين خريفا في نار جهنم!؟ فلتستغفر ربك على هذا الذنب العظيم

⇐ استغفر الله، استغفر الله، استغفر الله، عدد ما كان وعدد ما هو كائن، رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنب إلا أنت.

لكن -يا سادة - أنا فقط أسأل. فما بالكم استشطتم غضبا إن وقع في خاطر أحدنا أن محمدا يمكن أن يقع في الكذب؟ ولِم (نحن نستهجن) لا تستشيطوا غضبا عندما يُتّهم إبراهيم بالكذب؟ أيعقل -يا سادة- أن يكذب إبراهيم وهو الذي اتخذه ربه خليلا؟

- ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء: 125]

أم تراكم تظنون أن إبراهيم "ابن خالتكو"؟

ألا تخجلون من أنفسكم عندما تتهمون نبيا ورسولا كريما من أولي العزم من الرسل بالكذب؟ لم تنكرون علينا أن نستشيط غضبا عندما نسمع من يلقي تهمة الكذب على من قال الله في حقه:

- ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ [النحل: 120-122]

ثم، ألا تتوسلون أنتم بأنفسكم إلى الله في كل صلاة تقيمونها أن يصلي الله وملائكته على محمد كما صلى على إبراهيم؟ ألا تتضرعون إلى الله في كل صلاة تقيمونها أن يبارك الله على محمد وعلى آل محمد كما بارك على إبراهيم وعلى آل إبراهيم؟ أم تراكم تطلبون من الله (نحن نستغرب) أن يصلي الله ويسلم ويبارك على محمد كما بارك على من كان يكذب (كإبراهيم الذي نجده في مؤلفاتكم العظيمة)؟

سيرد الجميع غاضبين بالقول: لكن هذا حديث مرفوع إلى النبي محمد، هل تكذب أحاديث المصطفى؟

رأيي: إن كانت هذه حجتكم، فدعني إذن أذكركم بحديث آخر مرفوع إلى النبي كذلك، أوجعتم رؤوسنا بتكراره على مسامعنا في خطبكم على المنابر، وجل ما أطلب من القارئ الكريم هو أن يضع هذا الحديث جنبا إلى جنب من الأحاديث التي زعمتم أنها تظهر إبراهيم وقد كذب.

الحديث: روى مالك في الموطأ عن صفوان بن سليم مرسلا أو معضلا: قيل: يا رسول الله، المؤمن يكون جبانا؟ قال: نعم، قيل: يكون بخيلاً؟ قال: نعم، قيل: يكون كذابا؟ قال: لا.

السؤال: ألم يكن إبراهيم إذن مؤمنا عندما كذب؟ ألم تقولوا لنا بحديث مرفوع على النبي بأن المؤمن لا يكذب؟ فكيف بنا سننظر إلى إبراهيم بعد ذلك؟

سيرد أهل الاختصاص بالقول القاطع: انتظر يا رجل إن هذا الحديث الثاني هو حديث ضعيف لا يعتد به كثيرا، فلابد أن تكون عالما بصحة الأحاديث حتى تستشهد بها.

رأيي: آه، أشكرك أخي صاحب العلم أنك ذكرتنا الآن أن هذا حديث ضعيف لا يعتد به، لكني أمضت عقودا من حياتي أظن أنه حديث صحيح لأن خطبائكم ما ذكروا لنا يوما بأن هذا الحديث ضعيف لا يعتد به عندما كان يستشهدون به على المنابر. لكن لن أدخل معكم – يا سادة- في هذه الجدلية، ويكفيني أن أسألكم عن الأمر الذي أربكني جدا، ألا وهو: ماذا نفعل بآيات الله الكثيرة في كتابه الكريم التي تنفي الإيمان عن كل من يفتري الكذب؟

- ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [النحل: 105]

إذا كان إبراهيم قد افترى كذبا، ألا ينفي ذلك عنه أن يكون مؤمنا؟ من يدري؟!!!

سيرد آخرون (خاصة من وجد في كلامنا هذا بعض الحيرة) بالقول: من أين إذن جاء هذا الحديث الذي اتهم إبراهيم بالوقوع في الكذب ثلاث مرات؟ أليس هذا ما قاله النبي محمد بنفسه؟ يسأل كثير من أصحابنا.

رأيي: دعني -عزيزي القارئ- أقل لك (إن شئت) من أين جاء هذا الحديث، وما عليك إلا أن تتحقق مما أقول بالرجوع بنفسك إلى بطون أمهات الكتب حتى لا تظن بأني أفتري الكذب.

المصدر الذي جاء منه: لنقرأ معا – عزيزي القارئ-ما جاء في الإصحاح الثاني عشر من سفر التكوين من العهد القديم (أي التوراة):

10وَحَدَثَ جُوعٌ فِي الأَرْضِ، فَانْحَدَرَ أَبْرَامُ إِلَى مِصْرَ لِيَتَغَرَّبَ هُنَاكَ، لأَنَّ الْجُوعَ فِي الأَرْضِ كَانَ
شَدِيدًا. 11وَحَدَثَ لَمَّا قَرُبَ أَنْ يَدْخُلَ مِصْرَ أَنَّهُ قَالَ لِسَارَايَ امْرَأَتِهِ: «إِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّكِ امْرَأَةٌ حَسَنَةُ
الْمَنْظَرِ. 12فَيَكُونُ إِذَا رَآكِ الْمِصْرِيُّونَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: هذِهِ امْرَأَتُهُ. فَيَقْتُلُونَنِي وَيَسْتَبْقُونَكِ. 13قُولِي إِنَّكِ
أُخْتِي، لِيَكُونَ لِي خَيْرٌ بِسَبَبِكِ وَتَحْيَا نَفْسِي مِنْ أَجْلِكِ».

نلاحظ إبرام هو نفسه إبراهيم بعد أن سماه الله بنفسه (على عهدة ما جاء في العهد القديم). وانظر –إن شئت- ما جاء في الإصحاح السابع عشر من سفر التكوين:

وَلَمَّا كَانَ أَبْرَامُ ابْنَ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ سَنَةً ظَهَرَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ وَقَالَ لَهُ: «أَنَا اللهُ الْقَدِيرُ. سِرْ أَمَامِي وَكُنْ
كَامِلاً، 2فَأَجْعَلَ عَهْدِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَأُكَثِّرَكَ كَثِيرًا جِدًّا». 3فَسَقَطَ أَبْرَامُ عَلَى وَجْهِهِ. وَتَكَلَّمَ اللهُ مَعَهُ
قَائِلاً: 4«أَمَّا أَنَا فَهُوَذَا عَهْدِي مَعَكَ، وَتَكُونُ أَبًا لِجُمْهُورٍ مِنَ الأُمَمِ، 5فَلاَ يُدْعَى اسْمُكَ بَعْدُ أَبْرَامَ بَلْ يَكُونُ
اسْمُكَ إِبْرَاهِيمَ، لأَنِّي أَجْعَلُكَ أَبًا لِجُمْهُورٍ مِنَ الأُمَمِ. 6وَأُثْمِرُكَ كَثِيرًا جِدًّا، وَأَجْعَلُكَ أُمَمًا

انتهى غضبنا هنا ولابد من تهدئة نبرة الخطاب ثانية. لكن هناك ملاحظة لابد لنا من الإشارة إليها قبل العودة بأعصاب أكثر هدوءا لنربط موضوع "الكذب المفترى" على الأنبياء بقصة يوسف لأنها تلخص عقيدتنا التي نؤمن بها: أخي المؤمن (يا من تبحث عن دين الله الحق) لا تسلك طريق من سبقونا من أهل الكتاب الذين أذوا موسى فبرأه الله مما قالوا:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ٦٩﴾ [الأحزاب: 69]

إن في اتهامك إبراهيم بالكذب هي (في ظننا) أذيّة ليس بعدها أذى أكبر، فنحن نظن أن الكذب هو صفة مذمومة لا يتصف به صاحب الأخلاق الحميدة ناهيك أن يكون صفة لمن كان مكلّفا بالتبليغ كالرسل المصطفين الأخيار. فنحن ننفي جملة وتفصيلا صفة الكذب عن رسل الله جميعا. ألم يهدد الله نبيه بأن لا يتقول عليه بعض الأقاويل لأن النتيجة ستكون كارثية:

- ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ٤٥ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ٤٧﴾ [الحاقة: 44-47]

دلني – عزيزي القارئ- كيف يمكن أن يطمئن قلبي أن أتلقى عقيدة عن محمد (أو عن غيره من رسل الله) لو أن خبرا كالذي وصف به إبراهيم (الكذب) قد ثبت عنه ولو لمرة واحدة لا قدّر الله؟ ألم يكن إبراهيم

أمة؟ ألم يكن مكلفا بأن يبلغ الناس عن ربه؟ كيف يمكن أن تطمئن قلوب المبلَّغين لو أن المبلِّغ قد اتصف بالكذب؟!!!

رأينا: أبرأ إلى الله وحده أن أكون ممن يتهمون أحدا من رسله بالكذب.

دعاء: أللهم أعوذ بك أن أكون ممن يتهمون أحدا من رسلك بالكذب، وأعوذ بك رب أن أكون بنفسى ممن يفترون عليك الكذب أو يقول عليك ما ليس لهم بحق

سؤال: إن لم يكن ذلك من باب الكذب، فكيف يمكن أن تفسر لنا ما قاله إبراهيم بنص القرآن:

- ﴿قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ٦٣﴾ [الأنبياء: 63]

أو قوله بنص القرآن الكريم:

- ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٞ ٨٩﴾ [الصافات: 89]

جواب: هذا موضوع يحتاج إلى صفحات كثيرة لتبيانه، لكني أظن أن بإمكانك الحصول على إجابتنا المفتراة من عند أنفسنا لهذه التساؤلات في سلسلة مقالتنا تحت عنوان: لماذا قدّم نبي الله لوط بناته بدلا من ضيوفه؟

وسنكتفي بعد قليل بمحاولة ربط هذا الأمر بقصة يوسف تحت عنوان كيد إبراهيم وكيد يوسف.

دعاء: فالله وحده أسأل أن يعلمنى من لدنه ما لم أكن أعلم، فلا أفتري عليه الكذب، إنه هو الواسع العليم.

عقيدة ثابتة: لابد بداية من الإنطلاق من العقيدة الثابتة التي مفادها نفي الكذب عن أحد من رسل الله. فنحن نؤمن باستحالة أن يقع رسول من رسل الله في الكذب.

السؤال: لم أفهم شيئا، ما الذي تريد أن تقوله بكلمات بسيطة ومباشرة؟

جواب مفترى: نحن نظن أن يوسف قد لجأ إلى "الكيد" وجاءه التأييد من ربه بذلك من أجل غاية سامية ألا وهي: لكي لا يقع في "الكذب".

تخيلات: نحن نتخيل الذي حصل على النحو التالي: لقد كان هدف يوسف الأول والأخير في هذه المرة هو أن يحجز أخاه عنده فلا يرده من إخوته إلى بلاده، أليس كذلك؟ فلم يكن يريد أن يسجن أخاه مثلا أو أن يرجمه أو ينصّبه (أي يجعل له منصبا) في الدولة المصرية، فجل ما كان يريده (نحن نظن) هو أن يبقيه عنده، وكفى. لذا كان تخطيطه للكيد قد بدا (نحن نتخيل فقط) بالتساؤل التالي: كيف أستطيع أن احتفظ بأخي عندي فلا أرده مع إخوته، وفي الوقت ذاته لا أفعل ذلك بطريقة تنافي القوانين المعمول بها في الدولة المصرية حينئذ، حتى تمس هيبة الملك، ولا تحصل إساءة في استغلال السلطة في الدولة المصرية، فكيف يمكن أن أفعل ذلك؟ أظن أن هذه التساؤلات قد خلجت يوسف حينها.

جواب مفترى: نحن نظن أنه بعد أن نظر يوسف في القوانين المعمول بها في الدولة المصرية، وجد أن الطريقة الوحيدة التي يمكن له أن يحجز أخاه في بلاطه فلا يعيده مع إخوته هو أن يتورط أخوه في جرم السرقة، فمن ارتكب جرم السرقة يصبح واجب أخذه في دين الملك، وهذا واضح تماما من السياق القرآني التالي:

- ﴿قَالُواْ فَمَا جَزَآؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ۝٧٤ قَالُواْ جَزَآؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَآؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧٥﴾ [يوسف: 74-75]

فالسياق القرآني يدل على أن يوسف والعير الموّجه لهم جميعا تهمة السرقة قد أقروا جميعا بجزاء السارق على نحو ما يسمح به القانون المصري المعمول به حينئذ (قَالُواْ جَزَآؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَآؤُهُۥۚ).

وقد ذكرنا في مقالة سابقة لنا أن يوسف كان يطبق القانون المعمول به في الدولة المصرية حينئذ ولم يكن يطبق شريعة آباءه إبراهيم وإسحق ويعقوب، لأن دين هؤلاء هو دين الله (أي الإسلام)، وأن قطع اليد هو جزاء السارق في تلك الشريعة:

- ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ۝٣٨﴾ [المائدة: 38]

فلو كان يوسف يطبق شريعة الإسلام في أرض مصر، لوجب عليه (نحن نظن) أن يقطع يد أخيه في حالة أنه أثبت عليه وقوعه في جرم السرقة، ولأصبح ذلك مستحيلا لأن أخاه لن يرضى بذلك. فلن يرضى الأخ (نحن نتخيل) أن تقطع يده مقابل أن ينفذ يوسف خطته في إبقائه عنده.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: لقد كان القانون المعمول به في الدولة المصرية زمن يوسف هو أن يؤخذ كل ثبت بحقه جرم السرقة "في دين الملك"، ومن هذا الباب أخذ يوسف أخاه في دين الملك:

- ﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ۝٧٦﴾ [يوسف: 76]

نتيجة: لقد أخذ يوسف أخاه في دين الملك ولم يأخذه في دين آباءه إبراهيم وإسحق ويعقوب

لكن هذا الطرح يبرز على الفور التساؤل التالي: كيف سيأخذ يوسف أخاه في دين الملك مادام أن ذلك مستحيلا إلا أن يقع فعل السرقة؟ فكيف حصل فعل السرقة "وإن كان أخوه ليس بسارق"؟ ألا يعلم يوسف أن أخاه لا يمكن أن يسرق؟ فكيف سينفذ الخطة (إن صحّ القول)؟

نتيجة مفتراة خطيرة جدا جدا: لكي ينفذ يوسف خطته، فلابد أن يفعل ذلك بطريقة الكيد، ولكن كيف ذلك؟

جواب: حتى يأخذ يوسف أخاه في دين الملك، فلابد أن يقع فعل السرقة، ولابد أن تثبت التهمة على أخيه، ولابد في الوقت ذاته أن لا يقع يوسف في فعل الكذب. فكيف ستجتمع هذه المتناقضات جميعا؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن هذا حصل بتأييد إلهي بطريقة الكيد:

- ﴿... كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [يوسف: 76]

تخيلات: نحن نتخيل أن حادثة السرقة كانت مفبركة (إن صح القول)، فأشكلت على الحاضرين، واستطاع يوسف أن ينفذ مراده بذلك، لأنه رجل عليم، فاق علمه من كان ذي علم كوالده يعقوب (وإخوته جميعا):

- ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ۚ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [يوسف: 68]

فلقد كان يوسف يتفوق على يعقوب لأن يعقوب "ذو علم" بينما كان يوسف عليم:

- ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ [يوسف: 55]

السؤال: من أين تعلم يوسف هذا الكيد الذي لم يكن (نحن نفتري القول) ليقدر عليه والده يعقوب؟

جواب: من شخص أكثر علما من يعقوب؟

السؤال: ومن هذا الشخص؟

جواب: إنه جدهم الأكبر إبراهيم الذي كاد أصنام القوم؟

- ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ۝٥٧﴾ [الأنبياء: 57]

باب كيد إبراهيم وكيد يوسف

السؤال: لماذا كاد إبراهيم؟ ولماذا كاد يوسف؟ لم لم يقم بذلك موسى أو عيسى أو حتى يعقوب نفسه؟

جواب مفترى: نحن نظن أن الضرورة هي التي دفعت بإبراهيم ويوسف أن يكيدوا، فإبراهيم ويوسف وجدا أنفسهم (نحن نفتري القول) في "موقف ما كان لابد للخروج منه سالمين أن يقوموا بتدبر كيد، والغاية هي تنفيذ مرادهم، أي غاية في أنفسهم. لكن كان تنفيذ تلك الغاية لا يمكن أن تتم (نحن نظن) إلا بطريقة الكيد وإلاّ لوقعا في فخ الكذب. فكيف خرجا من هذا "المأزق" (إن صح القول) سالمين بتأييد إلهي؟

باب إبراهيم يكيد أصنام القوم: وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ

لو تدبرنا السياقات الخاصة بكيد إبراهيم، لوجدنا أن غاية إبراهيم من تكسير أصنام القوم هي أن يقيم الحجة على قومه:

- ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ۝٨٣﴾ [الأنعام: 83]

ليثبت لهم بأن هذه التماثيل التي هم لها عابدون هي عدو له إلا رب العالمين:

- ﴿قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ۝٧٦ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٧٧﴾ [الشعراء: 75-77]

لانها لا تستطيع أن تقدم لهم نفعا لأن الله هو وحده الذي ينفع:

- ﴿فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٧٧ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ۝٨٠ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ۝٨١ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ۝٨٢﴾ [الشعراء: 77-82]

وهي في الوقت ذاته لا تستطيع أن تدفع عن نفسها ضرا. لذا كان لابد من إثبات ذلك لهم، فكيف سينفذ إبراهيم الخطة؟

جواب: كان لابد له من أن يجذذ تلك التماثيل

السؤال: وكيف سيفعل ذلك؟

جواب: بطريقة الكيد:

- ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ۝٥٧﴾ [الأنبياء: 57]

السؤال: كيف نفّذ إبراهيم كيده بآلهتهم إذن؟

رأينا: لقد افترينا القول في مقالة سابقة أن التجذيذ لا يعني التكسير أو التحطيم الكلي، وإنما يعني إحداث العيب الظاهر في الشيء فقط، فيكفي إبراهيم أن يثبت لهم بأن هذه التماثيل لم تستطع أن تدافع عن نفسها لو أنه فقأ عين أحدها مثلا أو كسر يد الآخر أو جدع أنف الثالث، وهكذا. لذا لم يعمد إبراهيم إلى تكسير التماثيل تماما (كما ربما يتصور العامة من الناس من مثلي مما التصق في أذهانهم من كتاب التربية الإسلامية في الصف الثالث ج الذي رسم لنا صورة المعبد الذي جذذ فيه إبراهيم تماثيل القوم وهي مفتتة تماما على الأرض) بدليل أنه قد طلب من القوم أن يسألوهم بعد أن جذّذهم:

- ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۝٥٨ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٩ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ۝٦٠ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ۝٦١ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝٦٢ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ۝٦٣ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٦٤ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ۝٦٥ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۝٦٦ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٦٧﴾ [الأنبياء: 58-67]

فلو دققنا في طلب إبراهيم من قومه (فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ) لوجدنا أن إبراهيم لم يحطم تلك التماثيل تماما لأنه لو فعل ذلك، لربما جاء رد القوم على طلبه هذا على النحو التالي: كيف تريدنا أن نسألهم – يا إبراهيم- وأنت لم تبقي منهم شيئا؟ لكن رد القوم كان يشير بكل وضوح إلا أن تلك التماثيل لازالت حاضرة وإن كانت مجذّذة، وانظر عن شئت في قولهم هذا (لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ).

تخيلات: نحن نتخيل أن إبراهيم كان يريد فقط أن يحدث التجذيذ في تلك الأصنام، فكيف سيفعل ذلك؟

رأينا: لا شك أن إبراهيم قد أخذ وقته في التدبير للأمر، ولعلي أظن أنه لم يستطع أن يقنع أحدا من الناس من حوله بأن يقوم بالمهمة نيابة عنه، فلم يسلم معه (نحن نعلم من صريح اللفظ القرآني) إلا شخص واحد وهو لوط، وأظنه قد هاجر من عند القوم بعد أن آمن مباشرة، فلم يكن حاضرا في هذه الحادثة:

- ﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢٦﴾ [العنكبوت: 26]

السؤال الذي يخالج إبراهيم هو: كيف استطيع أن أنفذ ذلك؟

جواب: لابد أن أقوم بهذا العمل بنفسي، أي لا بد أن أنفذ أنا تلك الخطة أنا شخصيا – أظن أن هذا ما توصل له إبراهيم.

لكن كان هناك أمر آخر (نحن نتخيل) يخالج ذهن إبراهيم حينها ألا وهو: حتى أقيم الحجة على القوم فلابد أن أقوم بذلك بنفسي ثم أنسب الفعل كله إلى كبيرهم:

- ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ۝٦٣﴾ [الأنبياء: 63]

ليكون المشهد على النحو التالي: لابد أن أقوم أنا بتجذيذ الأصنام (ربما كان يقول إبراهيم في نفسه)، لكن لابد أن تقع التهمة على كاهل كبيرهم، فكيف سأفعل ذلك؟

جواب: لابد أن يقوم كبيرهم هذا (أي الصنم الأكبر) هو بالفعل نيابة عني إذن.

السؤال: لماذا؟

جواب: لأني سأنسب الفعل كله له وفي الوقت ذاته لا أكون كاذبا حتى وإن كنت أنا من دبر الفعل برمته، فكيف سيتم لي ذلك؟

جواب: لابد من الكيد، أي لابد من تنفيذ الخطة بطريقة الكيد:

- ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ۝٥٧﴾ [الأنبياء: 57]

نتيجة: لقد حصلت القصة كلها إذن على شكل كيد، ونحن نظن أن حاجة إبراهيم من ذلك هو أن تنفذ الخطة بطريقة محكمة، حتى لا يقع إبراهيم من خلالها في الكذب، فكان هذا (نحن نظن) الدافع الرئيس الذي جعله يخططها على شكل كيد.

السؤال: كيف نفذ إبراهيم كيده الأصنام؟

رأينا: نحن نتخيل الموقف على النحو التالي: يدخل إبراهيم إلى معبد القوم عندما تولوا جميعا:

- ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ۝٥٧﴾ [الأنبياء: 57]

وهناك يجد مجموعة من التماثيل يتوسطها كبيرهم، فالمشهد غالبا ما نستطيع تخيله على نحو أن كبير التماثيل (الآلهة) -ككبير القوم- يكون متواجدا في العادة في وسط المجموعة، ليلتف من حوله من هم أقل منه منزلة بترتيب ما يبيّن درجة أهمية كل واحد منهم، فنحن نتخيل المعبد (أي معبد فيه تماثيل) على نحو أن كبير تلك التماثيل يتوسطها، ويكون إلى يمينه وإلى شماله من هم أقل درجة منه بترتيب الأهمية، فكلما ازدادت قيمة التمثال كلما كان أقرب إلى الكبير، كما في الأشكال التوضيحية التالية:



وانظر إن شئت – أسفل هذا الشكل التوضيحي. وهناك يجد إبراهيم تلك التماثيل (كما خبرها من قبل) كل في مكانه بترتيب أنيق وحذر، يعكس أهمية كل تمثال مقارنة بالتمثال الأكبر الذي يتوسطهم.

ثانيا، لا شك عندنا أن التمثال الأكبر عادة ما يكون مصنوعا من مادة ذات قيمة، وبطريقة مميزة ربما ليصعب تحطيمه أو حتى تجذيذه بسهوله، فهو في نهاية المطاف أكبر الآلهة. لذا لا بد أن كبير تماثيل قوم إبراهيم كان مصنوعا بطريقة تبين أهميته ومكانته ورمزيته.

ثالثا، نحن نفتري القول بأن هدف إبراهيم لم يكن تكسير أو تجذيذ هذا التمثال الأكبر على وجه الخصوص وذلك لسبب بسيط وهو: لأنه سينسب إليه تهمة أنه هو من فعل هذا كله ببقية آلهتهم:

- ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ۝٦٣﴾ [الأنبياء: 63]

السؤال: كيف سيستطيع إبراهيم أن يجذذ التماثيل الأخرى ويبقي على التمثال الكبير سالما ليلقي باللائمة على كاهله متى ما تم توجيه التهمة إليه؟

رأينا المفترى: نحن نتخيل أن ما فعله إبراهيم كان على النحو التالي: يدخل إبراهيم معبد القوم بعد أن تولى القوم مدبرين، فيعمد إلى كبير التماثيل، فيحركه بطريقة ما، فيتسبب تحريكه لذاك التمثال بتلك الطريقة التي قام بها إبراهيم في تساقط التماثيل القابعة حوله على الأرض الواحد تلو الآخر. فيسبب تساقطها من فوق على الأرض في إحداث تجذيذ لتلك التماثيل المتساقطة، فتنكسر يد بعضها، ويفقئ عين آخر، ويجدع أنف ثالث، وتنكسر رجل رابع، وهكذا، ولكن يبقى التمثال الأكبر واقفا لا يصيبه أذى.

يترك إبراهيم تماثيل القوم على تلك الشاكلة ويخرج من المعبد وقد كاد بهم جميعا بتلك الطريقة.

وعندما حضر القوم إلى معبدهم، وجدوا التمثال الأكبر واقفا غير مجذوذ بينما جميع التماثيل الأخرى قد جذّذت، فانطلق لسانهم بالسؤال عن الفاعل الذي قام بهذا الفعل المشين (بالنسبة لهم):

- ﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٩﴾ [الأنبياء: 59]

فجاء الجواب على لسان من كان يعلم أن إبراهيم قد توعدهم بالكيد:

- ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ٥٧﴾ [الأنبياء: 57]
- ﴿قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتًى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ ٦٠﴾ [الأنبياء: 60]

فما كان طلبهم إلا على أن يحضروه على الفور على أعين الناس ليشهدوا كيف سيجعلونه عبرة لهم جميعا:

- ﴿قَالُواْ فَأۡتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ ٦١﴾ [الأنبياء: 61]

فكان أول سؤال تم توجيهه إلى إبراهيم هو:

- ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ٦٢﴾ [الأنبياء: 62]

وهنا تحدث الحبكة: نعم إبراهيم هو الذي كاد بهم، لكنه لم يكن هو من فعل ذلك لان كبيرهم هو من فعل:

- ﴿قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ٦٣﴾ [الأنبياء: 63]

وطلب منهم أن يتحققوا من ذلك بسؤال المجني عليهم (أي المجذذين من آلهتهم) وليس بسؤال (المجذّذ منهم- أي الفاعل). فأنت عندما تجد أن أحد الصبيان قد اعتدى على زملائه بالضرب مثلا كما كان يحصل معنا في الصف الثاني الابتدائي، فإن معلم الصف لم يكن يسأل الضارب عندما يحضر إلى الصف لأن الذي كان يضربنا (ولن أبوح باسمه لأنه يعرف نفسه) كان ينكر ذلك على الفور. لذا كان المعلم يتوجه بالسؤال لنا نحن الضحية، فإذا ما الصق الضحية التهمة بأحد زملائه كأن يقول أن فلانا هو من ضربه، فإنه ينتقل لسؤال الضحية الثانية والثالثة، وهكذا، وإذا ما وجد أن كل "المضروبين" قد أجمعوا على جان واحد، فإن التهمة لا شك ستلتصق به، ويقوم المعلم بمعاقبته على فعلته. ومن هنا (نحن نظن) جاء طلب إبراهيم التحقق مما يقول بسؤال المجني عليهم وهم الآلهة المجذذين وليس الجاني وهو كبيرهم، فإبراهيم لم يطلب من القوم أن يسألوا كبيرهم ولكنه طلب منه أن يسألوهم (أي الآلهة المجذذة):

- ﴿قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ٦٣﴾ [الأنبياء: 63]

السؤال: ما الذي استفاده إبراهيم من ذلك كله؟

جواب: لقد أقام إبراهيم الحجة على قومه، فقام بتنفيذ مراده بتجذيذ الأصنام من خلال خطة جعلته لا يقع في الكذب، ولكن كيف ذلك؟

جواب: لأنه اشترك في تجذيذ تلك الأصنام فاعلان، وهما:

⇐ فاعل مباشر (وهو التمثال الأكبر الذي أسقط بحركته ما كان حوله من التماثيل الأخرى)
⇐ وفاعل غير مباشر (وهو الذي حرك التمثال الأكبر حتى جعله يتسبب في سقوط ما حوله من التماثيل الأخرى)

وعندما وجهة التهمة إلى إبراهيم بطريقة الاستفسار عن ما إذا كان هو من فعل ذلك بآلهة القوم:

- ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ۝٦٢﴾ [الأنبياء: 62]

لم يكذب إبراهيم عندما نسب الفعل إلى الفاعل المباشر وهو كبيرهم هذا (مشيرا بيده إلى التمثال الأكبر الذي لازال واقفا لم يصب بأذى):

- ﴿قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ۝٦٣﴾ [الأنبياء: 63]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: فما كذب إبراهيم فيما قال، وما كان ذلك إلا كيد من إبراهم لئلا يقع في فعل مشين كفعل الكذب، الذي لا يمكن (نحن نؤمن يقينا) لنبي كريم ولرسول مكلف أن يقع فيه. والله أعلم

السؤال: إذا كان هذا هو كيد إبراهيم، فكيف نفذ يوسف كيده؟

جواب: هذا ما سنحاول النبش فيه في الجزء القادم بحول الله وتوفيق منه.

فالله وحده أسأله أن يعلمني وصاحبي عليا ما لم نكن نعلم، وأن يجعل فضله علينا عظيما، وأن يهدينا إلى نوره الذي أبى إلاّ أن يتمّه ولوكره الكافرون، ونعوذ به أن نكون ممن يفترون عليه الكذب أو ممن يقولون عليه ما ليس لهم بحق، ونعوذ به أن نكون ممن يصدون عن سبيله أو ممن يبغونها عوجا – إنه هو العليم الحكيم.

المدّكرون: رشيد سليم الجراح & علي محمود سالم الشرمان
بقلم: د. رشيد الجراح
17 نيسان 2014
د. رشيد الجراح مركز اللغات، جامعة اليرموك.



الجزء الثاني والعشرون

وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ



الجزء الثاني والعشرون : وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ

عقدنا في الجزء السابق من هذا الكتاب مقارنة بين إبراهيم من جهة ويوسف من جهة أخرى، وكان وجه التشابه بين الاثنين الذي حاولنا التعليق عليه حينئذ هو قضية تدبير الكيد، فلقد عمد إبراهيم إلى الكيد:

- ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَـٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ۝٥٧﴾ [الأنبياء: 57]

وكذلك فعل يوسف بتأييد إلهي:

- ﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ۝٧٦﴾ [يوسف: 76]

وقد افترينا الظن من عند أنفسنا أن الكيد الذي دبراه لم يكن أكثر من "حيلة" (إن صح القول) لكي لا يقع أي منهما في الكذب، فافترينا القول بأن إبراهيم قد عمد إلى كيد أصنام القوم لكي (نحن نظن) لا يقع في الكذب عندما يوجّه إليه السؤال عن من فعل هذا بآلهة القوم:

- ﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٥٩﴾ [الأنبياء: 59]

وكان تصورنا الذي افتريناه حينها على النحو التالي: يدخل إبراهيم معبد القوم بعد أن تولوا عنه مدبرين، فيعمد إلى كبير التماثيل، فيحركه بطريقة ما، فتتسبب حركته له بتلك الطريقة (التي افتعلها إبراهيم) في تساقط التماثيل القابعة حوله (أي كبيرهم) على الأرض الواحد تلو الآخر. فيكون قد اشترك في ذلك الفعل فاعلان: إبراهيم وكبير التماثيل نفسه. فيسبب تساقط التماثيل المجاورة من فوق في تجذيذها: فتنكسر يدُ بعضها، وتفقئ عين آخر، ويجدع أنف ثالث، وتنكسر رجل رابع، وهكذا، ولكن يبقى التمثال الأكبر واقفا لا يصيبه أذى. فيكون إبراهيم هو الفاعل غير المباشر عندما كاد أصنام القوم وحرك التمثال الأكبر الذي لم يصبه أذى، ويكون التمثال الأكبر (كبيرهم هذا) هو الفاعل المباشر الذي أشار إليه إبراهيم عندما سئل:

- ﴿قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ۝٦٣﴾ [الأنبياء: 63]

فأقام إبراهيم بكيده هذا (نحن نؤمن) الحجة على قومه، عندما أثبت لجميع الحاضرين بأن هؤلاء التماثيل التي هم لها عابدون لا تستطيع أن تدفع الضر عن نفسها، فكيف بها ستجلب لهم الخير؟ فكانت تلك من الحجة التي أتيت لإبراهيم:

- ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ۝٨٣﴾ [الأنعام: 83]

وفي الوقت الذي استطاع إبراهيم أن يقيم الحجة على القوم لم يقع في الكذب عندما أشار إلى التمثال الأكبر على أنه هو الفاعل الذي قام بالفعل:

- ﴿قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ۝٦٣﴾ [الأنبياء: 63]

وذلك لأن إبراهيم قد أشرك في تجذيذ تلك الأصنام (نحن نرى) فاعلا آخر وهو كبيرهم (أي كبير التماثيل)، فأصبحت الصورة على النحو التالي:

⇐ فاعل مباشر (وهو التمثال الأكبر الذي أسقط بحركته ما كان حوله من التماثيل الأخرى، فأصبحت جذاذا)

⇐ وفاعل غير مباشر (وهو الذي حرك التمثال الأكبر حتى جعله يتسبب في سقوط ما حوله من التماثيل الأخرى)

السؤال: وهل يمكن أن يكون التمثال الأكبر فاعلا؟ كيف يمكن أن يكون الفاعل شيء لا يقوى عليه؟

رأينا: نحن نظن أن التمثال الأكبر كان فاعلا بنفس المنطق الذي نقبل أن تكون الساعةُ فاعلا أو أن يكون القمرُ فاعلا في الآية الكريمة التالية:

- ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١﴾ [القمر: 1]

فكيف يمكن أن تكون الساعة فاعلا؟ فهل هي التي قامت بفعل الاقتراب من تلقاء نفسها؟ وكيف يمكن أن يكون القمر فاعلا؟ فهل هو الذي انشق بإرادته؟

رأينا: نحن نظن (على غير ما تعلمنا في مدارسنا العتيدة من حصص قواعد اللغة العربية) بأنه لا يجب تعريف الفاعل أو النظر إليه على أنه من قام بالفعل، لأنه لو كان الفاعل هو الذي يجب أن يقوم بالفعل بنفسه لأصبح من المتعذر أن تصح الجملة التالية:

مات الرجلُ

فبالمفردات القواعدية، نحن نشأنا على القول بأن الفاعل في هذه الجملة هو الرجل، أليس كذلك؟ لكن يبقى السؤال قائما: هل فعلا قام الرجل بفعل الموت بنفسه؟ هل هو من نفّذ فعل الموت كما في المثال التالي:

انتحر الرجل

فعندما يقوم الرجل بفعل الانتحار فهو بلا شك من خططه ونفذه، ولكن هل هذا المنطق ينطبق في حالة الرجل الذي مات؟ فهل الرجل الذي مات هو من خطط فعل الموت ونفّذه بنفسه؟ من يدري؟!!!

جواب: كلا وألف كلا، لكن بالرغم من ذلك يبقى الرجل هو فاعلا في الحالتين: في حالة الموت وفي حالة الانتحار، ليكون السؤال الآن هو: لماذا؟ لم يكون الرجلُ فاعلا في كلا الحالتين؟

جواب مفترى: لأننا نظن أن تعريف الفاعل يجب أن لا يكون على نحو ما عُلِمنا في مدارسنا على أنه هو من قام بالفعل.

السؤال: فما تعريف الفاعل إذن؟ ربما يريد البعض أن يسأل.

جواب: نحن نظن أن الفاعل هو كل من شارك بالفعل بأي طريقة، أي من كان له دخل في إحداث الفعل على أرض الواقع سواء بالتخطيط أو بالتنفيذ، الخ.

السؤال: ما علاقة هذا الافتراء بما فعله إبراهيم وكبير التماثيل في تجذيذ أصنام القوم؟

نتيجة مفتراة: كان كبيرهم (أي كبير التماثيل) فاعلا لأنه (نحن نظن) قد اشترك في فعل تجذيذ الأصنام التي كانت قائمة من حوله، فإبراهيم هو فاعل وكبير التماثيل هو فاعل أيضا لأنهما اشتركا في تنفيذ المهمة، فكان أحدهم فاعلا غير مباشر وهو إبراهيم الذي اشترك في التخطيط وفي التنفيذ الأولى للفعل، وكان الآخر وهو كبير التماثيل فاعلا لأنه اشترك في تنفيذ الفعل في مراحله الأخيرة، والذي بدونه ما كان الفعل سيحصل على تلك الشاكلة التي جرت على أرض الواقع.

السؤال: إذا كان هذا ما فعله إبراهيم (كما تزعم)، فلماذا دبر يوسف (بتأييد إلهي) الكيد بإخوته؟ وكيف فعل ذلك؟

باب كيد يوسف

- ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [يوسف: 76]

بداية، نحن نفتري الظن بأن ما فعله يوسف من كيد (بتأييد إلهي) كان من أجل غاية واحدة تعلّمها من جدّه إبراهيم وهي أن ينفّذ مراده دون أن يقع في فعل الكذب. فكيف حصل ذلك؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: كانت غاية يوسف (نحن نظن) تكمن في أن يأخذ أخاه في دين الملك بمشيئة الله:

- ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [يوسف: 76]

ولكن كيف سيستطيع أن يفعل ذلك؟

رأينا: عندما فتّش يوسف في قوانين الدولة المصرية المعمول بها حينئذ وجد أنه لا يستطيع أن يأخذ أخاه في دين الملك إلا من خلال ارتكاب أخيه جريمة السرقة، فالسرقة هي وحدها ما يمكنّه من تنفيذ مراده، وبكلمات أكثر دقة نقول، لابد أن يرتكب أخوه جرم السرقة ليكون جزاءه (كما هو معمول به في الدولة المصرية حينئذ) أن يُؤخذ في دين الملك. وهنا كان لابد ليوسف من أن يدبر الأمر على شكل "كيد"، أي على نحو أن يقع أخوه في فعل السرقة، فتنسب له التهمة وتلصق به، ويكون جزاؤه نتيجة ذلك أن يؤخذ في دين الملك، وفي الوقت ذاته لا يقع يوسف في فعل الكذب عندما يتم التحقيق في مجريات أحداث القضية، فكيف سيتم له كل ذلك؟

تخيلات: عمد يوسف (نحن نتخيل) إلى الكيد، فقام بتجهيز إخوته بنفسه، وهناك عمد إلى جعل السقاية في رحل أخيه:

- ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ٧٠﴾ [يوسف: 70]

وما أن ابتعد عن الرحل (نحن نتخيل) حتى قام أخوه (متآمرا مع يوسف في تدبير الكيد) على الفور باستخراج السقاية من الرحل حيث وضعها يوسف ليجعلها في وعائه، أي الوعاء الشخصي الخاص به الذي لا يمكن أن يصل إليه أحد غيره دون علمه. وهنا أصبح هذا الأخ بفعلته هذه (وهي نقل السقاية من الرحل إلى الوعاء) سارقا.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا: نحن نظن بأنه لو بقيت السقاية في الرحل حيث وضعها يوسف لما حُقّ ليوسف أن يوجّه تهمة السرقة لمن وجدت في رحله، لأن صاحب الرحل لن يكون حينها مسئولا عن وجود السقاية في رحله، لأن تجهيز الرحال (كما ذكرنا آنفا) هي من مسئولية يوسف وفتيانه (فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ)، فلو تم استخراج السقاية من هناك (أي من الرحل) لحق لمن وجدت في رحله (نحن نظن) أن ينكر علاقته بها. ولكن لما استخرجت السقاية من وعاء هذا الأخ على وجه التحديد، لم يكن ليستطع أن ينكر أنه هو من وضعها في وعائه بنفسه، لأنه من الاستحالة بمكان (نحن نتخيل) أن تصل إلى هناك دون علمه، فيكون هناك واحد من سيناريوهين مفترضين، ألا وهما:

1. أن يكون أحدٌ ما قد وضع السقاية في وعاءه بعلم منه، فسكت عليه، وهنا لا يستطيع أن ينكر مسئوليته لأنه ما كان يجب عليه أن يقبل بذلك، ولربما وجب عليه الإخبار عنها على الفور، فالذي يسكت عن الجريمة هو (حسب القانون المصري الذي نتخيله حينها) شريك فيها

2. أن يكون صاحب الوعاء هو من وضع السقاية بنفسه في وعائه، وهنا لابد أن يتحمل المسؤولية كاملة.

رأينا: نحن نظن أنه لمّا سكت هذا الأخ (الذي وجدت السقاية في وعائه) عن الرد على التهمة الموجهة إليه، بدليل أن النص القرآني يخلو تماما من وجود أدنى ردة فعل له على التهمة الموجهة إليه يظن العزيز مروان (ربما محقا) أن سكوت هذا الأخ عن الكلام في كل أحداث القصة ربما يشير إلى أنه كان صاحب إعاقة (ربما لفظية)، فالأحداث كلها تجري دون أن يتحدث بكلمة واحدة.

نستطيع أن نخلص إلى النتيجة المفتراة من عند أنفسنا والتي مفادها أن الذي حصل على أرض الواقع هو السيناريو الثاني، فهذا الأخ هو المسئول الأول والأخير عن ما هو موجود في وعائه، فهو من وضع السقاية بنفسه في وعائه، فاستحق بذلك أن يكون جزاؤه على نحو ما كان:

- ﴿قَالُواْ فَمَا جَزَآؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ۝٧٤ قَالُواْ جَزَآؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَآؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧٥﴾ [يوسف: 74-75]

فأخذ يوسف بذلك الكيد أخاه في دين الملك بمشيئة الله:

- ﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ۝٧٦﴾ [يوسف: 76]

السؤال: ما علاقة هذا كله بموضوع الوقوع في الكذب؟

رأينا المفترى: نحن نتخيل بأنه لو تم التحقيق مع يوسف نفسه ولو بالسؤال والجواب من قبل إخوته حينها أو حتى بعد أن انكشف الأمر كله، لما أنكر أنه هو من جعل السقاية في الرحل (فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ)، فنحن نؤمن استحالة أن يكذب يوسف في ذلك. ولكنه سيرد بأنه قد وضعها هناك ربما خطأ، أو ربما (وهذا ما نرجحه أكثر) عن عمد منه، كأن يكون قد جعلها هناك مثلا اختبارا لهذا الأخ ليتحقق من أمانته، ولكانت حجة يوسف (كما نتخيله يقولها) على النحو التالي:

صحيح أني جعلت السقاية في الرحل، لكن السقاية لم تستخرج من الرحل، ولكنها استخرجت من الوعاء، لذا وجب على من وضعت في رحله أن لا يعمد إلى تحريكها من هناك، ولربما كان عليه أن يخبر عنها أو أن يتركها في مكانها على أقل تقدير، فنحن قد فعلنا ذلك (ربما كان يوسف سيقول للمحقق كوجاك ورفاقه حينها) من ذي قبل عندما جعلنا بضاعة إخوته في رحالهم في المرة الأولى:

- ﴿وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ۝٦٢﴾ [يوسف: 62]

فكان ذلك من باب الاختبار لهم لنعرف مقدار حفظهم للأمانة، فعاد بها الإخوة إلى ديارهم، فوجدوا بضاعتهم قد ردت إليهم، فأعادوها (نحن نتخيل يوسف يتابع شهادته أما المحققين) إلينا، فتأكدت عندنا أمانتهم، فنحن نصدق ما قالوا بلسانهم لنا:

- ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ٧٣﴾ [يوسف: 73]

فما وجهنا إليهم تهمة السرقة إطلاقا، وذلك لأن السرقة فعل يقوم به الشخص عن وعي وإدراك منه لما يفعل. فقد علمنا من خلال الفعل الذي قمنا به بأن أولئك الإخوة الذين حضروا في المرة الأولى كانوا على قدر عال من الأمانة، ولكنهم الآن قد جاءوا إلينا ومعهم أخ لهم من أبيهم (وهو هذا الذي وجدنا السقاية في رحله)، فأردنا أن نتأكد من أمانته كما فعلنا مع إخوته سابقا، فوضعنا السقاية في رحله، فتبين لنا أن هذا الأخ ليس على درجة من الأمانة كإخوته السابقين، وهذا ما شهد به الإخوة أنفسهم:

- ﴿۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ ... ٧٧﴾ [يوسف: 77]

لقد كان الأولى بهذا الأخ الجديد (عندما أدرك وجود السقاية في رحله) القيام بواحدة من اثنتين حتى لا توجّه له تهمة السرقة:

1. أن يعيد ما وجده في رحله فورا إلى أصاحبها (كما فعل إخوته من قبل)

2. أو أن يدعها (على الأقل) في مكانها ويكأنه لم يرها. وهنا لا نستطيع أن نوجه له تهمة السرقة (وإن وجدت في القضية شبهة السرقة – ربما أضاف يوسف قائلا)، لأن تهمة السرقة لا تثبت إلا بوجود الدليل المادي)

ولكن الذي فعله هذا الأخ الجديد – ربما سيضيف يوسف قائلا- كان على نحو مغاير تماما، فقد أخذ تلك السقاية من الرحل، وعمد إلى جعلها في وعائه، فيكون بذلك قد ارتكب جريمة السرقة لا محالة، فثبتت عليه الحجة بالدليل المادي عندما استخرجت من وعائه:

- ﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ٧٦﴾ [يوسف: 76]

فما استطاع هذا الأخ الجديد أن ينبت ببنت شفه ليدفع عن نفسه (أو لينكر) التهمة الموجّهة إليه، وما استطاع الإخوة إلاّ أن يقروا بارتكاب أخوهم هذا لجريمة السرقة المنسوبة إليه، فكانت ردة فعلهم تؤكد قناعتهم بوقوع أخوهم هذا في الجرم المشهود، فانطلقت ألسنتهم بما استقر في ضمائرهم:

- ﴿۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ ... ٧٧﴾ [يوسف: 77]

نتيجة مفتراة: لقد ثبت بالدليل المادي القطعي للجميع بأن هذا الأخ قد ارتكب جريمة السرقة.

السؤال: ولعلي أتخيل المحققون يردون على يوسف بالقول: لِم لَم تدع هذا الأخ يعود بما أخذه إلى دياره كما فعلت مع الإخوة السابقين عندما وضعت متاعهم في رحالهم؟ لم لم تتركه يأخذ ذلك ويرجع به إلى أهله لننظر ردة فعل والده على ذلك عندما يعود إليه وقد حمل معه تلك السقاية؟ لم خرجت تؤذن بهم على أنهم سارقون في الحال قبل أن يغادروا أرض مصر؟

- ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ٧٠﴾ [يوسف: 70]

لو كان ما فعلت مع هذا الأخ يساو ما فعلته مع إخوته لصبرت عليه حتى يعود بما أخذ معه إلى أهله كما فعلت في المرة الأولى؟ ربما سأل المحققون يوسف حينها.

جواب مفترى: لعلي أظن يوسف سيقول لهم: بلى لقد تركته ليعود بها إلى هناك، فلقد كنت أعمد إلى تركه يخرج بالسقاية إلى هناك.

السؤال: وكيف ذلك؟ ألم تؤذن بهم أنهم سارقون؟

جواب يوسف كما نتخيله: نعم، ولكن المؤذن خرج ليبحث عن صواع الملك وليس عن السقاية:

- ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ٧٠ قَالُواْ وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم مَّاذَا تَفۡقِدُونَ ٧١ قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ٧٢﴾ [يوسف: 70-72]

نتيجة: لقد خرج يوسف وفتيانه (وربما بمرافقة جنده) يبحثون عن الصواع وليس عن السقاية.

ثم إني (سيردف يوسف قائلا) لم أفتش الرحل إطلاقا مادام أني أعلم أني قد وضعت السقاية في الرحل بنفسي، فأنا عمدت إلى تفتيش الأوعية:

- ﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ٧٦﴾ [يوسف: 76]

تلخيص ما تخيّلناه: نحن نظن أن يوسف قد دبر الكيد، ومادام أنه كان كيدا، فقد عرف يوسف كيف ينفذه بكل براعة وإتقان، فهو الذي وضع السقاية في رحل أخيه، لذا لم يعمد إلى تفتيش الرحل بعد أن أذن مؤذن بالعير أنهم سارقون صواع الملك، وعمد إلى تفتيش الأوعية، فما كان من المفترض أن تكون السقاية

موجودة في الأوعية، ولكن مادام أنه قد وجد السقاية في الأوعية وليس في الرحل حيث وضعها، لذا يكون من نقل السقاية من الرحل إلى وعاءه هو سارق بالقانون، وجب أن يطبق عليه القانون المصري المعمول به حينئذ على نحو أن يؤخذ في دين الملك، فكان ذلك كيد دبره يوسف (بتأييد إلهي) ليأخذ أخاه من بين إخوته فلا يرجعه معهم إلى أبيهم. وبذلك يكون يوسف قد أرسل (نحن نتخيل) رسالة قوية جدا إلى والده يعقوب يستطيع أن يفهمها بما آتاه الله من علم.

السؤال: كيف فهم يعقوب الأحداث بتفاصيلها هذه؟ وكيف استطاع يعقوب أن يربط تفاصيل الأحداث بعضها ببعض؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأنه لم تكن مثل هذه الأحداث بحبكتها هذه لتخال على يعقوب من بعيد، فالأمر الآن يتضح ليعقوب بأنه ليس إلا كيدّ (أي حيلة دبرت لهدف ما). لكن هذه التفاصيل التي لا شك أربكت يعقوب بعض الشيء قد سببت له في الوقت ذاته حيرة كان لابد من فهمها.

عقدة يعقوب: نحن نتخيل أن عقدة الأحداث التي كان يعقوب يحاول أن يتدبرها قد سببها الإرباك التالي: لا يستطيع يعقوب أن ينكر ارتكاب ابنه لجريمة السرقة وذلك لأن السقاية قد استخرجت من وعائه، وها هم أبناءه يطلبون منه أن يتحقق من الخبر بالدليل القاطع:

- ﴿ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ٨١ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ٨٢﴾ [يوسف: 81-82]

ولكن وفي الوقت ذاته يعتقد يعقوب جازما باستحالة أن يكون ابنه سارقا، فجاء تشككه من زاوية أخرى:

- ﴿قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٨٣﴾ [يوسف: 83]

فما الذي يجري؟ ربما سأل يعقوب نفسه حينها.

رأينا: لقد أدرك يعقوب على الفور أن جريمة السرقة قد تمت "كمؤامرة" مدبرة بعلم من ولده "السارق" نفسه وبموافقة مسبقة منه على ذلك. فيعقوب الآن (نحن نتخيل) على يقين أن ولده هذا قد اشترك في تدبير هذا "الكيد" مع عزيز مصر، ولا شك أن ولده هذا قد رضي بأن تنسب إليه تهمة السرقة، وأن يؤخذ في دين الملك ليبقى هناك.

نتيجة مفتراة: إنْ صحّ هذا الاستنباط، فإن التساؤلات التي (نظن) ربما كانت تدور في ذهن يعقوب حينها هي:

⇐ لماذا يشترك ولدي هذا في كيد كهذا؟!
⇐ ولماذا يقبل أن توجه إليه تهمة السرقة؟!
⇐ أيعقل أن يكون أبناء الأنبياء سارقين أو أن يرضوا بأن يكونوا سارقين؟!
⇐ ألم ير هذا الولد بأم عينه أمانة إخوته الذين ردوا البضاعة التي وجدوها في متاعهم إلى أصحابهم؟
⇐ كيف يقبل أن يكون إخوته من الذين لا يبغون (وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا) بينما يكون هو من الذين يبغون؟!
⇐ ألم يتعلم هذا الولد الدرس؟!
⇐ هل كان يظن بأني سأقبل بأن يأتيني من أرض مصر وقد سرق من عند عزيزها سقاية كهذه؟
⇐ هل تستحق سرقة سقاية (بغض النظر عن قيمتها) كل هذا الذي فعله بنفسه وبشرف هذه العائلة الطاهرة: إبراهيم – إسحق- يعقوب)؟!!!
⇐ ولماذا يرضى أن يؤخذ في دين الملك؟!
⇐ أتراه وجد من عزيز مصر أفضل مما كان يجد عندي؟!
⇐ أتراه يقبل بعزيز مصر أكثر من قبوله بي؟!!!
⇐ كيف تطاوعه نفسه أن يرضى بأن يكون سارقا فيمكث في بيت عزيز مصر ويتركني؟!

السؤال الكبير الذي كان يدور في ذهن يعقوب حينها هو: كيف بولدي هذا يفضّل البقاء في بيت عزيز مصر على الرجوع إلي؟!!!

رأينا المفترى: نحن نظن أن الإجابة التي توصل إليها يعقوب حينها ربما كانت على النحو التالي: لابد أن ولدي هذا قد وجد في بيت عزيز مصر "شيئا ما" أفضل مما هو عندي. ولابد أنه قد وجد ما يجبره على البقاء هناك بدل الرجوع إلي، فما هو؟ ربما سأل يعقوب نفسه بصوت منخفض.

جواب يعقوب على هذا السؤال المفترى من عندنا: لا شك ما وجده ولدي هذا في بيت عزيز مصر هو شيء مميز دفعه على البقاء هناك: فما هو؟

جواب: لابد أنه وجد من هو أفضل من والده يعقوب نفسه، فمن هو؟

جواب: لا أظن أن الأشياء المادية ربما تغري ولدي على البقاء هناك وتركي هنا وحيدا، لذا مادام أنه اختار عزيز مصر على والده يعقوب، فلابد أن يكون عزيز مصر هذا (نحن نتخيل يعقوب يقول في نفسه بعيدا عن مجلس أبناءه الذين جاءوه بالخبر) أفضل مني شخصيا. فمن يا ترى هو الذي يمكن أن يكون أفضل من نبي الله يعقوب على وجه الأرض حينها؟

جواب مفترى: لابد أنه يوسف العليم والحفيظ والصدّيق، ولو تدبرنا السياق القرآني الخاص بهذه الجزئية كاملا لوجدنا أن يعقوب يقحم يوسف في الموضوع على الفور، ويضم إليه (بصيغة الجمع) كل الغائبين من أولاده:

- ﴿ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ٨١ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ٨٢ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٨٣ وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ٨٤﴾ [يوسف: 81-84]

ويؤكد لكل من حوله أنه يعلم من الله ما لا يعلمون بعد أن سئموا من ذكره ليوسف وهم لا يعلمون السر من وراء ذلك:

- ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ٨٥ قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨٦﴾ [يوسف: 85-86]

وما أن يسكت الحزن قليلا عن يعقوب بعد أن ينفرد بنفسه بعض الوقت، حتى خرج من جديد ليحدثهم بما وجد من أمره، فجاء طلبه منهم جميعا أن يذهبوا ليتحسسوا من يوسف وأخيه، فتم إقحام فكرة وجود يوسف حيا في أرض مصر في تفاصيل الأحداث (على لسان يعقوب) بطريقة مفاجئة للجميع:

- ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧﴾ [يوسف: 87]

فما تردد الإخوة على تنفيذ أمر والدهم على الفور، فهبطوا مصر هذه المرة (المرة الثالثة) ليتحسسوا من يوسف وأخيه غير يئسيين من روح الله.

السؤال: لماذا فعلوا ذلك على الفور؟ لماذا لم يحاولوا التشكيك باستنباط والدهم هذا؟

جواب: نحن نتخيل يعقوب قد طلب من أبناءه الهبوط إلى أرض مصر ليتحسسوا من يوسف وأخيه بعد أن ناقش كامل تفاصيل الأحداث معهم، وربط لهم المقدمات بالنتائج، وطرح على مسامعهم فهمه للأحداث التي مروا بها، فدار نقاش مطوّل (نحن نتخيل) بينهم جميعا، كما نتخيل أن يعقوب كان يسد الثغرات في قصهّم للأحداث بطريقته الخاصة التي أدهشتهم ويكأنه حاضر معهم هناك. لذا لم يتفاجأ الأبناء بطلب والدهم هذا منهم، فنحن نتخيل الأبناء ينظرون في وجوه بعضهم البعض بعد كل جملة يقولها والدهم لهم، فالرجل (نحن لازلنا نتخيل) يذكرهم بأهل المصر، وكيف كان حالهم، وكيف أصبحت بعد أن تولى هذا "الغريب عنهم" خزائنها، وكيف كان هذا "الغريب عنهم" وحده القادر على تأويل رؤيا لمن كان معه في السجن وللملك

نفسه، فذاك علم لا يقدر عليه إلا من علمه ربه. وكيف كانت أمانته في الحفاظ على عهده مع ربه، فما خان الأمانة في بيت عزيزها السابق، وكيف كلّفه التزامه بمبدئه سنين من عمره في السجن هناك. فتلك مشقة لا يستطيع تحملها إلا عباد الله الصالحين. وكيف يطبق هذا العزيز الآن العدل بين الناس، فلا يظلم أحد عنده، فهو الذي رفض أن يأخذ أحدا بجرم آخر لينفي عنه وعن السلطة الحاكمة في مصر حينها الظلم:

- ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٧٨ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ٧٩﴾ [يوسف: 78-79]

وكيف أنه يوفي الكيل ويتصدق، وأنه خير المنزلين:

- ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ٥٩﴾ [يوسف: 59]

وكيف أن هذا "الغريب السجين" لم يحاول أن ينتقم ممن مكروا به وأودعوه في السجن ظلما، فهو الذي عفا عن النسوة اللاتي راودنه عن نفسه، فتلك من الصفات التي لا يقوى عليها إلا المتقون المحسنون:

- ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ١٢٦ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ١٢٧ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾ [النحل: 126-128]

وكيف... وكيف... الخ.

السؤال الذي نظن أن يعقوب قد أنهى حواره مع أولاده به هو: أتدرون يا أبنائي من هو هذا العزيز "الغريب عن المصريين" الذي يجمع كل هذه الصفات؟ إنه أخوكم يوسف، فاذهبوا يا بني فتحسسوا منه ومن أخيه هناك:

- ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧﴾ [يوسف: 87]

الدليل: عندما عاد أولاده بالخبر الذي مفاده أن عزيز مصر قد أخذ ولده هذا في دين ملك مصر، كانت ردة فعل يعقوب الأولى على النحو التالي:

- ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ٨٤﴾ [يوسف: 84]

فها هو يفقد ولده هذا ليعاود الأسف على ولده السابق (يوسف). السؤال: لماذا؟ لماذا سبب فقدان هذا الولد عند يعقوب الأسف على ولده الآخر (يوسف)؟ ألم تكن ردة فعل الحاضرين ممن حوله على النحو التالي؟

- ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ٨٥﴾ [يوسف: 85]

السؤال: ما بالهم ينكرون عليه ذكر يوسف ولا يترددون بعد ذلك بالإذعان لطلب والدهم للهبوط إلى أرض مصر ليتحسسوا من يوسف وأخيه؟

- ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧﴾ [يوسف: 87]

رأينا المفترى: نحن نظن أن يعقوب قد هيأ كامل عائلته على تقبل فكرة وجود يوسف، فربط تفاصيل ومجريات الأحداث (كما حاولنا تخيلها سابقا) على مسامعهم جميعا، فبدأ بالمقدمات الصحيحة التي أفضت إلى النتيجة التي لا مفر منها وهي وجود يوسف على قيد الحياة، وذكرهم بأن هذا جزء من العلم الذي اختصه الله به:

- ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨٦﴾ [يوسف: 86]

وكان هو من نبّههم مرة أخرى إلى وجود يوسف عندما فصلت العير:

- ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ٩٤﴾ [يوسف: 94]

ولكن هذا لم يكن ليقتنع البعض منهم تماما بفهم والدهم للأحداث التي تدور حولهم، فجاء تشكيكهم بما قال صريحا في كتاب الله:

- ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ٩٥﴾ [يوسف: 95]

ولكن ما أن جاءه البشير حتى ذكّرهم بما لديه من علم لا يمتلكونه هم، فأقروا لوالدهم بما كان يرى ولا يرون، وطلبوا منه أن يستغفر لهم لأنهم كانوا خاطئين:

- ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ٩٥ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٩٦ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ٩٧﴾ [يوسف: 95-97]

دعاء: أسألك ربي أن تعلمني ما لم أكن أعلم، وأسألك أن تعلمني ما لم يعلمه غيري، وأستغفرك لنفسي ذنبي إن كنت من الخاطئين

لكن هذا الطرح يثير على الفور التساؤل التالي: كيف تحسس إخوة يوسف منه ومن أخيه في أرض مصر؟ وكيف نقّذوا هناك في أرض مصر ما طلبه والدهم منهم كما جاء في الآية الكريمة نفسها؟

- ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف: 87]

باب التحسس: فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ

عندما بحثنا عن مفردة " فَتَحَسَّسُواْ " على مساحة النص القرآني لم نجد أنها قد وردت في موضع آخر غير الآية الكريمة السابقة، وكانت أقرب المفردات إليها (نحن نظن) ما وجدناه في الآيتين الكريمتين التاليتين:

- ﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [آل عمران: 52]
- ﴿وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرۡكُضُواْ وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الأنبياء: 11-13]

فحاولنا الخروج بالاستنباط المفترى التالي: نحن نظن أن المفردة تحمل في ثناياها معنى الإدراك بما يدور حولك. فالذي يحس بشي أو الذي يتحسس من شيء ما، فهو يحاول (نحن نفتري الظن من عند أنفسنا) أن يدرك وجوده من حوله.

ثانيا، ظننا مفترين القول من عند أنفسنا أيضا أن مفردة "**تَحَسَّسُواْ**" لها علاقة بمفردة "تَجَسَّسُوا" الواردة في الآية الكريمة التالية:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢﴾﴾ [الحجرات: 12]

فحاولنا الخروج بالاستنباط المفترى التالي: نحن نظن أن الاختلاف بين التحسس والتجسس ربما يكمن في معرفة الآخرين بما تفعل أنت، فإن أنت قمت بالبحث عن المعلومة بطريقة سرية (دون علم الآخرين

من حولك) فأنت تقوم بفعل التجسس كما يفعل رجال المخابرات في بلادنا الإسلامية العتيدة التي تنهي شريعتها عن فعل التجسس (وَلَا تَجَسَّسُوا) كما تنص عليه الآية الكريمة السابقة. فكم ممن يصطفون عن أيماننا وعن شمائلنا في الصلاة ويزاحمون "إخوانهم المسلمين" على الصف الأول (ليظفروا بالأجر الذي تحث عليه السنة النبوية) وهم يلبسون الدشداش الأبيض (تطبيقا للسنة النبوية) وقد اغتسلوا من الجنابة في يوم الجمعة (تطبيقا للسنة النبوية) وفي يمينهم السواك الذي ينظفون به أسنانهم (تطبيقا للسنة النبوية) هم ممن يتخذون التجسس مهنة للحفاظ على "أنظمتهم السياسية العتيدة"؟ فهل تستطيع أن تشعر بما يفعلون؟

جواب: كلا، لأنهم يقومون بهذه المهمة عن طريق التجسس

ولكن ما الذي فعله إخوة يوسف في مصر؟ هل حاولوا البحث عن المعلومة الخاصة بيوسف وأخيه عن طريق التجسس؟

جواب مفترى: كلا وألف كلا، لقد حاولوا البحث عن المعلومة الخاصة بيوسف عن طريق التحسس، أي البحث عن المعلومة على رؤوس الأشهاد.

تخيلات: نحن نظن أنه ما أن هبط الإخوة إلى أرض مصر حتى بدءوا سؤال الناس في أرض مصر عن يوسف، فبدءوا يسالون الناس (نحن نتخيل) أسئلة ترشدهم إلى مكان وجود يوسف، فلربما سألوهم عن طفل جاء هذه الديار عن طريق سيارة كانوا قادمين من الشرق قبل مدة محددة من الزمن، فهم لا شك يعلمون السنة التي جعلوا أخاهم فيها في غيابة الجب لتلتقطه بعض السيارة، ولربما كانوا يعرفون بعض شخصيات تلك السيارة التي أسرّت يوسف بضاعة عندما وجدوه في غيابة الجب، ولربما سألوا عن الفترة الزمنية التي نزل بها يوسف إلى هناك، ولربما سألوا عن شخصية من راودته امرأة العزيز عن نفسها، ولربما سألوا عن السبب الذي منع فتاها من النزول عند رغبتها، ولربما سألوا عن عقيدة ذاك الفتى، ولربما سألوا عن صاحبيه السجن، وقد يكونوا زاروا بعض أهليهم لمخاطبتهم حول شخصية ذلك السجين الذي أوّل لهم الرؤيا، ولربما سألوا عن كيفية تأويل ذاك السجين لرؤيا الملك، ولربما سألوا عن سبب قبول الملك أن يجعله على خزائن الأرض، الخ.

الدليل الذي نظن أنه كان حاسما في العثور على يوسف

بغض النظر عن نوع وعدد الأسئلة التي كان يحاول إخوة يوسف أن يجدوا لها إجابات في أرض مصر، فإن الهدف الرئيس الذي كان يطارده إخوة يوسف هناك – برأينا- هو: أن لا ييأسوا من روح الله كما أمرهم أبوهم:

- ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧﴾ [يوسف: 87]

السؤال: ما معنى أن لا ييأس الإخوة في أرض مصر من رَوح الله؟ ولماذا طلب منهم أبوهم ذلك عندما أرسلهم إلى هناك ليتحسسوا من يوسف وأخيه؟ وكيف يمكن أن يساعد ذلك في الوصول إلى يوسف؟

رأينا: لنبدأ القصة هنا بما جادت به قرائح سادتنا العلماء أهل الدرية كما جاء في بطون أمهات كتب التفسير كالطبري مثلا:

يقول تعالى ذكره : حين طمع يعقوب في يوسف , قال لبنيه : يا بني اذهبوا إلى الموضع الذي جئتم منه , وخلفتم أخويكم به { فتحسسوا من يوسف } يقول : التمسوا يوسف وتعرفوا من خبره . وأصل التحسس : التفعل من الحس . { وأخيه } يعني بنيامين , { ولا تيأسوا من روح الله } يقول : ولا تقنطوا من أن يروح الله عنا ما نحن فيه من الحزن على يوسف وأخيه بفرح من عنده فيرينيهما . { إنه لا ييأس من روح الله } يقول : لا يقنط من فرجه ورحمته ويقطع رجاءه منه , { إلا القوم الكافرون } يعني : القوم الذين يجحدون قدرته على ما شاء تكوينه . وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل . ذكر من قال ذلك : 15063 - حدثنا ابن وكيع , قال : ثنا عمرو , عن أسباط , عن السدي : { يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه } بمصر . { ولا تيأسوا من روح الله } قال : من فرج الله أن يرد يوسف 15064 - حدثنا بشر , قال : ثنا يزيد , قال : ثنا سعيد , عن قتادة , في قوله : { ولا تيأسوا من روح الله } : أي من رحمة الله - حدثنا محمد بن عبد الأعلى , قال : ثنا محمد بن ثور , عن معمر , عن قتادة نحوه . 15065 - حدثنا ابن حميد , قال : ثنا سلمة , عن ابن إسحاق , قال : ثم إن يعقوب قال لبنيه , وهو على حسن ظنه بربه مع الذي هو فيه من الحزن : { يا بني اذهبوا } إلى البلاد التي منها جئتم { فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله } : أي من فرجه , { إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون } 15066 - حدثت عن الحسين بن الفرج , قال : سمعت أبا معاذ يقول : أخبرنا عبيد بن سليمان , قال : سمعت الضحاك يقول في قوله : { ولا تيأسوا من روح الله } يقول : من رحمة الله 15067 - حدثني يونس , قال : أخبرنا ابن وهب , قال : قال ابن زيد , في قوله : { ولا تيأسوا من روح الله } قال : من فرج الله , يفرج عنكم الغم الذي أنتم فيه

إن التدبر السريع لهذا التفسير "العظيم" يفضي بما لا يدع مجالا للشك إلى نتيجة واحدة وهي أن سادتنا أهل العلم قد أجمعوا أمرهم على أن "رَوح الله" التي وردت في هذه الآية الكريمة على لسان يعقوب تعني "رحمة الله أو فرج الله" (انظر ما وضعنا تحته خط). ويكأن يعقوب (هم يظنون) يطلب من أولاده أن لا يقنطوا من رحمة الله في الوصول إلى يوسف وأخيه، أليس كذلك؟

رأينا: نحن ندحض هذا الظن على الأقل لسببين اثنين وهما:

1. لقد طلب يعقوب من أولاده أن لا ييأسوا ولم يطلب منهم أن لا يقنطوا
2. لقد طلب يعقوب من أولاده أن لا ييأسوا من روح الله ولم يطلب منهم أن لا يقنطوا من رحمة الله كما جاء في حالة جدهم إبراهيم مثلا عندما جاءته الملائكة بالبشرى، وانظر – إن شئت- في الآية الكريمة التالية:

- ﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝٥٢ قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ۝٥٣ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۝٥٤ قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ۝٥٥ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ۝٥٦﴾ [الحجر: 52-56]

لو راقبنا هذا السياق القرآني لوجدنا أنه يتحدث بصريح اللفظ عن القنوط من رحمة الله، لذا لو كان يعقوب يريد أن يوصل مثل هذا المعنى لأبنائه الهابطين أرض مصر باحثين عن أخيهم لطلب منهم أن لا يقنطوا من رحمة الله، ولكن يعقوب طلب منهم بصريح اللفظ القرآني أن **لا ييأسوا من روح الله (وَلَا تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللَّهِ)**، ليكون السؤال على النحو التالي: ما معنى قول يعقوب لأبنائه "**وَلَا تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللَّهِ**"؟ ثم إذا كان هذا يحمل في ثناياه معنى محدد بذاته فكيف يختلف عن ما قاله إبراهيم في حضور رسل ربه عندما جاءوه بالبشرى بالولد (قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ)؟

السؤال: ما الفرق بين "لا تيأس من روح الله" و "لا تقنط من رحمة الله"؟

بداية، نحن نظن أن الأمل بوجود رحمة الله يقابله القنوط منها، وهذا ما لا يمكن أن يقع فيه إلا القوم الضالون مصداقا لقوله تعالى:

- ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ۝٥٦﴾ [الحجر: 56]

والناظر في السياقات القرآنية الخاصة بالقنوط لوجدها ملازمة لوجود الرحمة:

- ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣﴾ [الزمر: 53]
- ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ۝٣٦﴾ [الروم: 36]
- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ ۝٢٨﴾ [الشورى: 28]

لذا، لا أظن (ربما مخطئا) أن إخوة يوسف قد كانوا ضالين بأنفسهم، لأنهم ببساطة كانوا يبحثون عن إخوة لهم، وهم قد قدموا أرض مصر ليتحسسوا من يوسف وأخيه، فلم يكن هناك رحمة لكي يساق القنوط في وجودها أو في غيابها.

ثانيا، لو تدبرنا الآيات الخاصة بإبراهيم لوجدنا أن القنوط يأتي بعد الوصول إلى الحق:

- ﴿قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ۝٥٥﴾ [الحجر: 55]

فيكون القنوط (كما نفهمه) على النحو التالي: يأتي الحق، يقنط منه نفر من الناس، فيكونوا من الضالين:

- ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [يونس: 32]

نتيجة: القنوط يكون لاحقا لمجيء الحق

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: لو أن الحق كان قد جاء إخوة يوسف، فقنطوا منه، لكانوا من الضالين

السؤال: كيف نفهم إذا ما حصل من إخوة يوسف؟

جواب: نحن نظن أن إخوة يوسف قد هبطوا مصرا يبحثون عن يوسف وأخيه، ولا أظن أنه قد جاءهم الحق بعد، لذا يستحيل أن ننعتهم بالقنوط في هذه المرحلة، فماذا كان مطلوب منهم أن يفعلوه؟

جواب: أن لا ييأسوا من روح الله".

سؤال: وكيف يكون ذلك؟

جواب: نحن نظن أن تلك كانت واحدة من الخيوط المهمة جدا التي أوصلتهم إلى يوسف وأخيه، ولكن كيف ذلك؟

باب الروح

نحن نظن أن مفردة " رَّوْحِ " التي وردت في الآية الكريمة التالية

- ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف: 87]

والتي نحاول جهدنا أن نتدبرها (سائلين الله وحده أن يأذن لنا الإحاطة بشيء من علمه فيها) لها علاقة بمفردة "الروح" الخاصة بالتنزيل (أي الوحي):

- ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾ [النحل: 2]
- ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾﴾ [غافر: 15]

- ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة: 22]

نتيجة: هناك ترابط بين الروح (بضم الراء) والتنزيل. فعندما ينزل الله الملائكة فإن ذلك يتم بالروح من أمره، والله وحده هو من يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده ليكون نذيرا، والله هو نفسه من يؤيد قوما بروح منه، أليس كذلك؟

الدليل: حاول عزيزي القارئ أن تربط السياقين التاليين معا مركزين على نهايتهما:

- ﴿يَـٰبَنِىَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف: 87]
- ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الحجر: 56]

نتيجة مهمة جدا جدا: الذي ييأس من روح الله هم القوم الكافرون بينما الذي يقنط من رحمة ربه هم الضالون

السؤال: لماذا؟

رأينا: نحن نظن أن يعقوب يطلب من أبناءه عدم اليأس روح الله لأن ذلك لا يفعله لا الكافرون، ولكن لماذا؟

الجواب: لأن الكافر هو الذي ينكر الوحي الإلهي.

دعنا نبدأ النقاش هنا بطرح التساؤل التالي: إذا أيد الله بعض عباده بالروح من أمره أو إذا ألقى الله بالروح من أمره على من يشاء من عباده، فما الذي يحصل؟

جواب: يصبح ذلك الشخص الذي ألقى الله الروح من أمره عليه نذيرا:

- ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾ [النحل: 2]
- ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾﴾ [غافر: 15]

جواب مفترى: تكون تلك المنطقة التي ألقي فيها الله الروح من أمره على بعض عباده قد أصابتها روح الله ويتواجد بها نذيرا

نتيجة: لقد هبط إخوة يوسف أرض مصر غير يئسين من روح الله لأنهم ذهبوا يبحثون عن من ألق الله عليه روح من أمرة ليكون نذيرا بأنه لا إله إلا الله وينذر الناس يوم التلاق

السؤال: وكيف يمكن أن يجدوا ذلك؟

جواب مفترى: لأنهم يعلمون بنتيجة وحتمية إلقاء الروح من أمر الله في مكان ما.

سؤال: وما هي نتيجة إلقاء الروح في أي مكان؟

جواب مفترى: بقاء أثر تلك الروح التي ألقيت من أمر الله؟

سؤال: وما هو أثر إلقاء الرُّوح (بضم الراء) فيها؟

جواب: بقية من أثرها وهي الرَّوح (بفتح الراء).

تخيلات: ما يتم إلقاء الرُّوح (بضم الراء) من أمر الله على بعض عباده في مكان ما حتى تكون تلك المنطقة قد شرفت بهذا الخير العظيم، ولكن لا ترتفع تلك الرُّوح (بضم الراء) التي ألقيت بأمر الله حتى تترك الأثر الطيب وراءها ليدل على أنها قد ألقيت هناك، ويكون هذا الأثر هو الرَّوح (بفتح الراء) التي غطت المنطقة بأكملها.

السؤال: ما علاقة هذا بطلب يعقوب من بنيه بأن لا ييأسوا من روح الله؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: إنها الرسالة

سؤال: وما معنى ذلك؟ ما الذي تريد أن تقوله؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: لو تدبرنا قصة يوسف من بدايتها لوجدنا أن يعقوب لم يكن رسولا ولكنه كان نبيا، فهو وريث تلك السلالة الطاهرة (إبراهيم – إسحق- يعقوب) وها هو يعقوب نفسه قد أصبح شيخا كبيرا ولم تتم نعمة الله عليه بالاصطفاء بالرسالة، فبقي نبيا ولم يصبح رسولا، ولم يتشرف أحد من أبنائه الحاضرين عنده بهذا الحظ العظيم، لذا أوشك آل يعقوب على أن ييأسوا من أن يحدث الإلقاء الإلهي بالروح من أمره (بالرسالة) في أحد منهم.

لكن يعقوب كان على علم بأن هذا الاصطفاء لا محالة حاصل، فيستحيل أن ييأس يعقوب من روح الله، وما أن جاءته الأخبار من أرض مصر تحمل (نحن نتخيل) في ثناياها بعض البشرى بوجود يوسف حتى أدرك يعقوب على الفور بأن الاجتباء الإلهي سيكون في يوسف كما أخبره منذ زمن بعيد بعد أن قص عليه يوسف تلك الرؤيا الشهيرة:

- ﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ٤ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٥ وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦﴾ [يوسف: 4-6]

فعلم يعقوب أن الرسالة حق مكتسب ليوسف، فأصبح يوسف رسولا بنزول الوحي عليه في أرض مصر:

- ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ٣٤﴾ [غافر: 34]

لذا، فإن القصة قد حيكت في ذهن يعقوب – كما نفتريها من عند أنفسنا- على النحو التالي: يعود يعقوب في ذاكرته إلى اليوم الذي فارقه فيه يوسف، فيعلم أنه كان لازال غلاما يافعا، وها هي السنين تمر به بعد طول غياب، وها هي بعض أشارات البشارة تعود إليه اليوم بوجود يوسف في أرض مصر، فيقوم يعقوب بحساب عمر يوسف في هذه اللحظة، فيتأكد له بأنه قد بلغ سن التكليف بالرسالة، لذا لابد أن يكون الرُوح (بضم الراء) قد ألقي عليه من ربه ليكون نذيرا، لذا جاء طلب يعقوب من أولاده على النحو التالي:

- ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧﴾ [يوسف: 87]

ويكأنه يقول لهم – نحن نتخيل- اذهبوا يا بني، فتحسسوا من يوسف، فابحثوا عنه في المكان الذي تجود فيه اثر من "روح الله"، أي أثر إلقاء الروح من أمر الله على يوسف في تلك الأرض، وبكلمات أكثر دقة نقول: يطلب يعقوب من بنيه أن يهبطوا أرض مصر ليبحثوا فيها عن شخص يدعي أنه رسول من رب العالمين. فمن سيجدون رسولا هناك غير يوسف؟

سؤال: وكيف سينفذ الأبناء طلب والدهم هذا؟

جواب: بداية، لابد من الإشارة إلى العقيدة التي مفادها أن هؤلاء الأبناء الهابطين أرض مصر هم ورثة سلالة النبوة والرسالة (إبراهيم- إسماعيل- إسحق- يعقوب)، فهم أبناء الأنبياء والرسل، لذا فهم يعرفون تماما أين يجدون وكيف يجدون روح الله، فهم قد تربوا في بيت كانت علاقته بالسماء غير منقطعة منذ جدهم الأول إبراهيم، لذا فإن الخبرة المكتسبة عندهم تمكنهم من البحث عن تلك الروح والوصول إليها.

السؤال: وكيف سيجدونها؟

جواب: هذا ما سنحاول النبش فيه في الجزء القادم بحول الله وتوفيق منه.

فالله وحده أسأله أن يعلمني وصاحبي علما ما لم نكن نعلم، وأن يجعل فضله علينا عظيما، وأن يهدينا إلى نوره الذي أبى إلاّ أن يتمّه ولو كره الكافرون، ونعوذ به أن نكون ممن يفترون عليه الكذب أو ممن يقولون عليه ما ليس لهم بحق، ونعوذ به أن نكون ممن يصدون عن سبيله أو ممن يبغونها عوجا – إنه هو العليم الحكيم.

المدّكرون: رشيد سليم الجراح & علي محمود سالم الشرمان
بقلم: د. رشيد الجراح
23نيسان 2014
د. رشيد الجراح مركز اللغات، جامعة اليرموك



قصة يوسف – الجزء الثالث والعشرون

" قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ."





الجزء الثالث والعشرون: قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ

تمهيد:

يوسف في مصر لايزال حيا، بين استنباط يعقوب وسلوك الإخوة

حاولنا في الجزء السابق تمرير زعمنا بأن يعقوب استطاع أن يربط الأحداث بعضها ببعض لينتهي إلى أن يوسف موجود في أرض مصر، فطلب من أبنائه أن يذهبوا ليتحسسوا من يوسف وأخيه هناك غير يائسين من روح الله:

- ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ٨٧﴾ [يوسف: 87]

وظننا أن يعقوب قد أوصل بذلك رسالة قوية لأبنائه بأن يبحثوا عن يوسف وأخيه في المكان الذي توجد فيه رسالة التوحيد:

- ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ٣٧ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ٣٨﴾ [يوسف: 37-38]

فما رفض الأبناء طلب والدهم بالرغم من محاولاتهم المستميتة طوال السنين الماضية لإقناعه بانتهاء خبر يوسف بين أنياب الذئب:

- ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٖ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧﴾ [يوسف: 17]

وهم الذين قدموا له الدليل المادي على صحة ما زعموا:

- ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرٗاۖ فَصَبْرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨﴾ [يوسف: 18]

وبالرغم من هذا كله، ها هم يذهبون اليوم مسرعين إلى هناك ليتحسسوا من يوسف وأخيه بالطريقة التي أمرهم بها أبوهم يعقوب .

السؤال: كيف أخرج الأبناء أنفسهم من هذا المأزق؟ أي كيف بهم يقبلون أن يذهبوا ليتحسسوا من يوسف وأخيه (كما طلب والدهم) وهم الذين جاءوه ذات مرة عشاءً يبكون، وهم الذين جلبوا معهم الدليل على نهاية يوسف بين أنياب الذئب؟

الخ.

جواب مفترى: لو دققنا في القضية من بدايتها لوجدنا أن أبناء يعقوب قد قدّموا لوالدهم الدليل على موت يوسف بين أنياب الذئب عندما أحضروا له قميصه وعليه دم كذب:

- ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨﴾ [يوسف: 17-18]

ولكن المدقق في النص القرآني-يلمح على الفور أن الأبناء لم يؤكدوا لوالدهم أنهم قد شهدوا ذلك بأم أعينهم، فهم لم يحضروا عملية افتراس الذئب ليوسف، ولم يتمكنوا من العثور على شيء من بقايا يوسف، لذا لم يكن ما قالوه لوالدهم بخصوص نهاية يوسف بين أنياب الذئب إلا استنباط من عند أنفسهم بناء على الشواهد التي استطاعوا أن يجلبوها حينها، لذا فهم يستطيعون الآن (نحن نفتري القول) أن يتخلصوا من هذا المأزق الذي وضعوا به أنفسهم سابقا بالمنطق المفترى من عند أنفسنا التالي:

لعلي أجزم القول بأن الأبناء سيقولون لوالدهم الآن بأن ما قلناه لك بخصوص نهاية يوسف بين أنياب الذئب لم يكن أكثر من استنتاج توصلنا إليه من البيانات التي توافرت بين أيدينا حينئذ: فيوسف غير موجود، ولم يتبقى منه إلا قميصه الملطخ بالدم، والمنطقة محفوفة بمخاطر الذئب، ولما كنّا قد بحثنا عن يوسف في كل مكان فما وجدنا غير قميصه ذاك، ظننا أن الذئب قد أكله .

نتيجة مفتراة: لعلي أظن أن إخوة يوسف سيحاولون إذن تسويق الفكرة التي مفادها أنهم لم يشاهدوا نهاية يوسف بين أنياب الذئب بأم أعينهم، فكان ذلك ظنهم الذي توصلوا إليه من الشواهد التي كانت حاضرة حينئذ.

فما الذي سيقولونه اليوم لوالدهم؟

رأينا: نحن نظن أن الأبناء سيدافعون عن أنفسهم اليوم بعد أن أصبح الظن أميل عندهم جميعا أن يوسف لازال حيا بالمنطق التالي: ربما كنا خاطئين يا أبتي – أظنهم سيقولون – في استنباطنا بأن الذئب قد أكل يوسف، فلعل يوسف قد استطاع حينما هاجمه الذئب أن يفلت منه، وينقذ نفسه من بين أنيابه إما بقدراته الذاتية أو بمساعدة من غيره، لذا نحن الآن لا نستبعد أن نكون مخطئين في استنتاجنا السابق. لذا لا ضير أن نذهب لنتأكد من روايتك الجديدة (أي أن نتحسس من يوسف وأخيه في أرض مصر).

فهبط الأبناء أرض مصر يتحسسون من يوسف وأخيه هناك ربما ليجدوا دليلا على وجود يوسف (أو عدم وجوده) ربما ليردوا التهمة عن أنفسهم أمام والدهم الذي لازال مُصّرا على أن يوسف لم يمت. ولكن لمّا كان الأبناء يعلمون يقينا أن يوسف لم يقع فريسة أنياب الذئب لأنهم هم من جعلوه في غيابة الجب ليلتقطه بعض السيارة:

- ﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ١٠﴾ [يوسف: 10]

فهم على يقين الآن أن يوسف موجود في مكان ما. لكن التساؤل المثير الذي كان لابد من مطاردته بأنفسهم هو: هل فعلا يوسف موجود في أرض مصر؟ فهل هبطت به السيارة التي التقطته من غيابة الجب إلى أرض مصر وعاش هناك؟ وهل ليوسف علاقة بكل هذه الأحداث الغريبة التي أخذت تحصل معنا منذ اليوم الأول لهبوطنا مصر؟ هذه – في ظني– بعض التساؤلات التي ربما كانت تناقش فيما بينهم في تلك اللحظة.

رأينا المفترى: لعلي أكاد أجزم الظن بأن أكثر الذي جعل الأبناء جميعا في حيرة من أمرهم هو ذلك الكيد الذي حصل لهم. فهم يحاولون الآن أن يربطوا الأحداث بعضها مع بعض، فكثير منها تصدق ظن والدهم يعقوب واستنباطاته، لكني أريد هنا أن أطرح جزئية واحدة لعلها كانت (في ظني) هي الأكثر إرباكا للإخوة جميعا، ألا وهي قضية الصواع والسقاية. ولكن كيف ذلك؟

جواب: لا شك أن الأبناء يدركون أن من خرج مؤذنا في العير كان مدفوعا بالبحث عن صواع الملك الذي زعموا أنهم قد فقدوه:

- ﴿قَالُواْ وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم مَّاذَا تَفۡقِدُونَ ٧١ قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ٧٢﴾ [يوسف: 71-72]

ولكن الغريب بالأمر أن الذي وجد في رحل أخيهم كانت السقاية:

- ﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ٧٦﴾ [يوسف: 76]

لغز الصواع والسقاية: التساؤلات المحيرة

ليكون السؤال الذي ربما كان يدور في أذهانهم حينها هو: أين هو صواع الملك المفقود مادام أن ما تم استخراجه من الرحل هي السقاية؟ ولعل السؤال الأكبر الذي خالهم في تلك الساعة هو: لماذا أقدم أخونا على سرقة الصواع على وجه التحديد؟

رأينا: في محاولتنا الإجابة على هذا التساؤل، كان لابد من طرح تساؤلات أخرى ذات صله بالموضوع نذكر منها:

⇐ ما هو الصواع؟
⇐ ما هي السقاية؟
⇐ كيف يختلف الصواع عن السقاية؟
⇐ كيف فُقد صواع الملك؟
⇐ لماذا يكون للملك صواع أصلا؟ فما حاجة الملك بالصواع؟
⇐ ومن الذي أخذ ذلك الصواع؟
⇐ وكيف كان العثور على السقاية سببا كافيا للكف عن البحث عن الصواع؟
⇐ فلماذا لم يستمر يوسف في البحث عن الصواع بعد أن وجد السقاية في رحل أخيه؟
⇐ أليس هو الصواع نفسه الذي أخرجهم للبحث في أوعية العير؟
⇐ الخ.

باب صواع الملك

لنبدأ بالتساؤل التالي: لماذا نُسِب الصواع للملك (صُوَاعَ الْمَلِكِ)؟ ولماذا لم تُنسب السقاية للملك؟ وهل يحتاج الملك أن يكون له صواع؟ وماذا كان يفعل الملك بذاك الصواع؟

الفكر السائد: الصواع هو المكيال أو الوعاء الذي يشرب في الملك -تفاسير

لنبدأ البحث عن إجابة على هذا التساؤل في بطون أمهات كتب التفسير علّنا نجد فيها شيئا من العلم الغزير الذي أتحفنا به سادتنا العلماء أهل الدراية على مدار أربعة عشر قرنا من الزمن (ونيّف).

فهذا ما جاء في تفسير ابن كثير:

لما جهزهم وحمل معهم أبعرتهم طعاماً أمر بعض فتيانه أن يضع {السقاية} وهي إناء من فضة في قول الأكثرين، وقيل: من ذهب، ويكيل للناس به من عزة الطعام إذ ذاك، قاله ابن عباس ومجاهد، وعن ابن عباس: {صواع الملك} قال: كان من فضة يشربون فيه، وكان للعباس مثله في الجاهلية، فوضعها في متاع بنيامين من حيث لا يشعر أحد، ثم نادى مناد بينهم: {أيتها العير إنكم لسارقون} ، فالتفتوا إلى المنادي، وقالوا: {ماذا تفقدون قالوا نفقد صواع الملك} أي صاعه الذي يكيل به، {ولمن جاء به حمل بعير} وهذا من باب الجعالة، {وأنا به زعيم} وهذا من باب الضمان والكفالة

وهذا بعض ما جاء في الطبري:

يَقُول تَعَالَى ذِكْره : قَالَ بَنُو يَعْقُوب لَمَّا نُودُوا : {أَيَّتهَا الْعِير إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ } وَأَقْبَلُوا عَلَى الْمُنَادِي وَمَنْ بِحَضْرَتِهِمْ يَقُولُونَ لَهُمْ : {مَاذَا تَفْقِدُونَ } مَا الَّذِي تَفْقِدُونَ ؟ {قَالُوا نَفْقِد صُوَاع الْمَلِك }

يَقُول : فَقَالَ لَهُمْ الْقَوْم : نَفْقِد مَشْرَبَة الْمَلِك . وَاخْتَلَفَتِ الْقُرَّاء فِي قِرَاءَة ذَلِكَ , فَذُكِرَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَة أَنَّهُ قَرَأَ : " صَاع الْمَلِك " بِغَيْرِ وَاو , كَأَنَّهُ وَجَّهَهُ إِلَى الصَّاع الَّذِي يُكَال بِهِ الطَّعَام وَرُوِيَ عَنْ أَبِي رَجَاء أَنَّهُ قَرَأَهُ : " صَوْع الْمَلِك " . وَرُوِيَ عَنْ يَحْيَى بْن يَعْمُر أَنَّهُ قَرَأَهُ : " صَوْغ الْمَلِك " بِالْغَيْنِ , كَأَنَّهُ وَجَّهَهُ إِلَى أَنَّهُ مَصْدَر , مِنْ قَوْلهمْ صَاغَ يَصُوغ صَوْغًا . وَأَمَّا الَّذِي عَلَيْهِ قُرَّاء الْأَمْصَار : فَصُوَاع الْمَلِك , وَهِيَ الْقِرَاءَة الَّتِي لَا أَسْتَجِيزُ الْقِرَاءَة بِخِلَافِهَا لِإِجْمَاعِ الْحُجَّة عَلَيْهَا . وَالصُّوَاع : هُوَ الْإِنَاء الَّذِي كَانَ يُوسُف يَكِيل بِهِ الطَّعَام , وَكَذَلِكَ قَالَ أَهْل التَّأْوِيل . ذِكْر مَنْ قَالَ ذَلِكَ : 14923 - حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن بَشَّار , قَالَ : ثنا مُحَمَّد بْن جَعْفَر , قَالَ : ثنا شُعْبَة , عَنْ أَبِي بِشْر , عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر , عَنِ ابْن عَبَّاس فِي هَذَا الْحَرْف : {صُوَاع الْمَلِك } قَالَ : كَهَيْئَةِ الْمَكُّوك . قَالَ : وَكَانَ لِلْعَبَّاسِ مِثْله فِي الْجَاهِلِيَّة يَشْرَب فِيهِ - حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْب , قَالَ : ثنا وَكِيع , وَحَدَّثَنَا ابْن وَكِيع , قَالَ : ثنا أَبِي , عَنْ شُعْبَة , عَنْ أَبِي بِشْر , عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر , عَنِ ابْن عَبَّاس , فِي قَوْله : {صُوَاع الْمَلِك } قَالَ : كَانَ مِنْ فِضَّة مِثْل الْمَكُّوك . وَكَانَ لِلْعَبَّاسِ مِنْهَا وَاحِد فِي الْجَاهِلِيَّة 14924 - حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْب , قَالَ : ثنا وَكِيع , وَحَدَّثَنَا ابْن وَكِيع . قَالَ : ثنا أَبِي . عَنْ شَرِيك , عَنْ سِمَاك , عَنْ عِكْرِمَة , فِي قَوْله : {قَالُوا نَفْقِد صُوَاع الْمَلِك } قَالَ : كَانَ مِنْ فِضَّة 14925 - حَدَّثَنِي يَعْقُوب , قَالَ : ثنا هُشَيْم , عَنْ أَبِي بِشْر , عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر , أَنَّهُ قَرَأَ : {صُوَاع الْمَلِك } قَالَ وَكَانَ إِنَاءَهُ الَّذِي يَشْرَب فِيهِ ...

ولمن أراد المزيد من هذا العلم الغزير، فله أن يرى ما جاء في كتب التفاسير الأخرى.

رأينا: ما هو صواع الملك؟

رأينا: نحن نرى أنه لابد من التخلي عن هذه "---------" مادام أن أحدا من سادتنا العلماء أهل الدراية لم يقدم الدليل الذي ربما يثبت ظنه، ونحن (على ركاكة منطقنا وقلة حيلتنا) ربما نستطيع أن نلقي بظلال الشك على هذه التفسيرات كلها بطرح التساؤلات البسيطة التالية:

كيف استطاع هذا الأخ أن يصل إلى صواع الملك؟ فهل اجتمع الإخوة أصلا بالملك؟

وهل اجتمعت العير كلها بالملك مادام أن المؤذن كان يؤذن في العير كلهم أجمعين:

- ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ٧٠﴾ [يوسف: 70]

⇐ ولو كان هذا الأخ هو وحده من سنحت له الفرصة أن يجتمع بالملك، ألا يكفي أن يكون هذا دليلا حاسما على أنه هو من سرقه؟ فلم يحتاج أن يؤذن المؤذن بالعير كلهم أجمعين؟

⇐ ولو استطعنا أن نتخيل وصول هذا الأخ إلى صواع الملك، فكيف استطاع أن يخرج من عند الملك يحمل ذلك الصواع دون أن يلحظ ذلك حراس بلاط القصر؟ ألم يكن في بلاط الملك من يحرس مقتنيات القصر؟

⇐ وإذا استطاع هذا الأخ إخفاء ذلك عن حراس القصر، فكيف استطاع أن يخفيه عن أعين إخوته وبقية العير التي جاء فيها؟

⇐ وماذا سيصنع هذا الأخ بصواع الملك بعد أن يرجع إلى بلاده؟ أم تراه يطمع في المادة المصنوع منها هذا الصواع وهو الذهب أو الفضة (الأمر الذي أشغل فكر سادتنا العلماء حول قضية الصواع)؟

⇐ وهل تظن أن إخوة يوسف سيقتنعون بأن شيئا من المال (ذهبا كان أم فضة) سيدفع بأخيهم هذا الذي تربى في بيت والده يعقوب النبي أن يسرق؟

⇐ وهل يظن هذا الأخ بأن والده يعقوب سيرضى بذلك متى ما اطلع على الأمر؟

⇐ وإذا كان هذا الأخ لا يريد أن يخبر والده بأمر الصواع، فأين – يا ترى – سيستطيع أن يخبئ الصواع عنه؟

⇐ وإذا استطاع ألا يُطّلع والده يعقوب على ذلك، فكيف سيستطيع أن يخبئ ذلك عن كل إخوته؟

⇐ الخ

نتيجة مفتراة: نحن نظن أن الأمر قد دُبِّر على نحو محكم حتى يصبح من الممكن أن يقنع إخوة يوسف أنفسهم بأن أخاهم هذا قد سرق الصواع فعلا، فلا شك أن هذا الأخ لن يقع في السرقة (في ظن إخوته) من أجل شيء من حطام الدنيا الزائل (ذهبا كان أم فضة)، لذا لابد أن يكون هذا الشيء المسروق (أي الصواع) شيئا ثمينا جدا يستحق أن يُسرق، أي لابد أن يكون ذا قيمة عالية جدا لأجلها يمكن أن تسول لنفس هذا الأخ أن يسرقه.

السؤال: ما هو الذي يمكن أن يدفع بهذا الأخ (من أبناء بيت النبوة) أن يقع في السرقة من أجله؟

جواب: لابد أنه شيء ذو قيمة عالية جدا.

السؤال: ما هو ذلك الشيء إذن؟

جواب: من يدري؟!!!

السقاية مقابل الصواع

لكن – لنتمهل قليلا – لابد أن لهذا الصواع (نحن نفتري الظن) علاقة مباشرة ووطيدة بالسقاية، وذلك لأنه ما أن تم استخراج السقاية من وعاء هذا الأخ حتى توقف البحث عن الصواع، أليس كذلك؟

سؤال: لماذا لم يحتج الإخوة على أن المفقود هو الصواع؟ فما دخل السقاية التي استخرجت من الوعاء بالصواع؟ لِمَ لم يخرج من بين الإخوة من يقول بأن المفقود هو الصواع، فما بالكم تلصقون بنا تهمة السرقة من أجل السقاية؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: مادام أن إخوة يوسف لم يحتجوا على ذلك، فإننا نفتري الظن بأن الصواع الذي أذن المؤذن بفقدانه له علاقة مباشرة بالسقاية التي استخرجت من وعاء الأخ.

سؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن العلاقة بين الصواع والسقاية هي علاقة جزئية، فالصواع والسقاية (نحن نتخيل) كينونتان كان أحدهما جزءً من الآخر، لأن أحدهما أكبر حجما من الآخر .

تصوراتنا: نحن نتخيل أن الصواع والسقاية هما شيئان متلازمان مع بعضهما البعض، وأن أحدهما أكبر حجما من الآخر، فيتم وضع الصغير منهما داخل الكبير.

السؤال: ما هو الشيء الأكبر وما هو الشيء الأصغر، الصواع أم السقاية؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن السقاية أكبر حجما من الصواع، فالصواع هو جزء من السقاية.

السؤال: ذلك بالنسبة للحجم، فما بال قيمتهما؟ أيهما ذو قيمة أكبر السقاية أم الصواع؟

رأينا المفترى، بالرغم أن السقاية هي أكبر حجما من الصواع، إلا أن الصواع أكثر أهمية وأعلى قيمة من السقاية. لذا نحن نتخيل أن السقاية ليست أكثر من وعاء الغرض منها أن يحفظ الصواع فيها. فهي في ظننا عبارة عن شيء يشبه "الصندوق الصغير" حيث يوضع الصواع في داخله.

الدليل

لو تدبرنا النص القرآني لوجدنا أن الصواع قد نسب للملك ولكن السقاية لم تنسب إلى الملك:

- ﴿قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ٧٢﴾ [يوسف: 72]

ولا شك عندنا أنه لا يضاف شيئا إلى الملك (رأس الدولة) شخصيا إلا أن يكون ذا قيمة عالية جدا.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: إنَّ طرحنا السابق يقودنا إلى الاستنباط (ربما مخطئين) بأن الصواع هو شيء خاص جدا بالملك، وأن السقاية هي الوعاء الذي كان يوضع به ذاك الصواع للمحافظة عليه.

السؤال: ما هو ذاك الصواع ذو القيمة العالية الذي كان موجودا في السقاية كوعاء للحفاظ عليه كما تزعم؟ ربما يريد صاحبنا أن يسأل.

جواب: لابد أنه "شيء محدد بذاته" له علاقة مباشرة بعمل يوسف وفتيانه

علاقة الصواع بعمل يوسف

السؤال: ما علاقة الصواع (الذي نحاول البحث عنه هنا) بعمل يوسف وفتيانه؟

جواب: لو تدبرنا النص القرآني جيدا لوجدنا أن يوسف لم ينتظر طويلا للخروج باحثا عن الصواع الذي فُقد. فلو كان الصواع من مقتنيات القصر، لربما لم يخرج يوسف باحثا عنه بهذه العجلة. والأهم من ذلك كله، لما حق ليوسف أن يصيح في العير كلهم:

- ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ٧٠﴾ [يوسف: 70]

فالمؤذن كان يؤذن في العير كلهم، أليس كذلك؟ ولا أظن بأن العير هم إخوة يوسف فقط، بدليل أن إخوة يوسف أنفسهم قد طلبوا من والدهم أن يسأل العير التي أقبلوا فيها:

- ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ٨٢﴾ [يوسف: 82]

نتيجة: كان المؤذن قد أذن بالعير كلهم أجمعين على أنهم سارقون. لذا من المنطقي أن نفتري الظن بأن كل واحد من العير جميعا كان له فرصة أن يسرق صواع الملك .

السؤال: مادام أن السرقة قد وجهت إليهم أجمعين، فكيف كان سيصل كل واحد من العير إلى صواع الملك؟ أي كيف كان يمكن لأي واحد من العير أن تصل يده إلى صواع الملك؟ فهل كانت الفرصة مهيأة لكل واحد من العير أن يلتقي بالملك في قصره لتصل يده إلى الوعاء الذي كان يشرب به الملك هناك (إن صح ما قاله سادتنا العلماء عن وظيفة ذاك الصواع)؟ فهل كان الوصول إلى الملك متاحا لكل من جاء إلى أرض مصر ليكتل؟ من يدري؟!!!

رأينا المفترى 1: نحن نظن (مفترين القول من عند أنفسنا) أنه من الاستحالة بمكان أن يكون لكل واحد من العير فرصة مقابلة الملك شخصيا أو الوصول إلى بلاطه. فدخول بلاط الملك لا يمكن أن يكون بهذه السهولة.

رأينا المفترى 2: لكن مع ذلك، نحن نظن (مفترين القول من عند أنفسنا أيضا) أنه كان بإمكان كل واحد من العير أن تصل يده إلى صواع الملك وإن لم يصل إلى بلاطه.

السؤال: وكيف ذلك؟ أليس ذلك هو التناقض بعينه؟ كيف لا تستطيع العير أن تصل إلى بلاط الملك لكنهم يستطيعون الوصول إلى صواع الملك؟

جواب مفترى من عند أنفسنا خطير جدا جدا: لأن صواع الملك (نحن نظن) لم يكن موجودا في بلاط الملك ولكنه كان موجودا عند فتيان يوسف الذين كانوا يتولون مهمة الكيل للعير.

السؤال: لماذا؟ لماذا كان صواع الملك موجودا عند يوسف وفتيانه الذين يكتالون للعير؟

جواب: لأنه يستحيل على فتيان يوسف أن يقوموا بمهمتهم (أي الكيل للعير) دون وجود الصواع معهم.

سؤال: فهل هو المكيال الذي كانوا يكتالون به إذن؟

جواب: كلا وألف كلا، وذلك للأسباب التالية:

أن هذا الصواع (كما أسلفنا) كان ذا قيمة عالية جدا يمكن أن يدفع بشخص مثل هذا الأخ أن يسرقه أن هذا الصواع له علاقة بالسقاية لأنه بمجرد استخراج السقاية من وعاء الأخ توقف البحث عن الصواع فورا لأن يوسف وفتيانه خرجوا يبحثون عنه على الفور وربما الأهم من ذلك كله أن يوسف قد قدم جائزة كبيرة لمن يجيء به:

- ﴿قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ۝٧٢﴾ [يوسف: 72]

السؤال: هل يمكن أن تثار كل تلك الجلبة من أجل مكيال؟ وهل يحتاج العثور على مكيال أن يتم التضحية بمقدار كيل بعير؟ من يدري؟!!!

جواب مفترى :

نحن نظن أن الصواع هو شيء ثمين يستحيل أن يعوّض وإلا لما خرج يوسف بنفسه باحثا عنه،كما نظن أنه مهم جدا لدرجة أنه يستحق أن يدفع مقابل العثور عليه جائزة كهذه، وهو ذات أهمية عظيمة لدرجة أن يُغري به شخص مثل هذا الأخ فيقع في جريمة السرقة من أجله، وهو موجود في مكان يمكن أن تصل إليه يد أي واحد من العير مادام أن المؤذن قد أذن بهم جميعا، والأهم من ذلك كله أنه صغير الحجم لدرجة أن من أخذه يستطيع أن يخفيه طوال الرحلة عن كل من هم حوله.

ما هو الصواع وماهي السقاية؟

السؤال: ما هو إذن صواع الملك؟ ألن تتوقف عن المراوغة في الإجابة؟ يسأل صاحبنا وقد تعب من مطاردة الفكرة معنا.

جواب مفترى خطير جدا من عند أنفسنا:

إنه الختم الخاص بالملك شخصيا أو –King's stamp – باللسان الأعجمي.

السؤال: وما هي السقاية؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: إنها "المحبرة" التي كان يوضع فيها ختم الملك – أي صواع الملك –، أو بكلمات أكثر دقة، هي أداة الكتابة التي كانت تستخدم في التنمير الذي تحدثنا عنه في بعض الأجزاء السابقة.

طريقة عمل يوسف وفتيانه وكيف نفَّذ يوسف خطة السرقة

تخيلات: نحن نتخيل أن يوسف وفتيانه كانوا يقومون بعملهم هذا (أي الكيل للعير) على نحو تسجيل كل مدخلات ومخرجات الدولة بالطريقة الرسمية (أي الصادر والوارد بمفردات السكريتاريا الحديثة)، ولا شك عندنا أن يوسف (الحفيظ العليم) كان يقوم بختم كل ما يدخل في خزينة الدولة وكل ما يخرج منها بخاتم الملك نفسه، ليتخذ الصفة الرسمية التي لا يمكن تزويرها أو التلاعب فيها. وكان يقوم بذلك (نحن لا زلنا نتخيل) باستخدام الصواع الذي تظهر فيه هوية الملك الشخصية، فما أن يختم الجهاز مثلا بختم الملك هذا (أي الصواع) حتى يكون قد أخذ الصفة الرسمية، وكان لابد لذاك الختم أن يتواجد في "المحبرة" التي تزوده بالحبر (إن صح القول) حتى يتم تنمير الأشخاص الذين تم الكيل لهم. فتتخذ السجلات التي تم ختمها بالصواع الطابع الرسمي الذي لا يمكن تزويره. فتصبح سجلات يوسف تظهر مقدار حفظه وعلمه .

وقد جاء كيد يوسف (نحن نتخيل) على نحو أن يأخذ السقاية (حيث يوضع الصواع) كلها فيجعلها في رحل أخيه، فيقوم أخوه هذا على الفور بنقل تلك السقاية بما فيها (أي الصواع) إلى وعائه الخاص، فيكون بذلك قد وقع في فعل السرقة، ولعلي أكاد أجزم الظن بأن جهاز أخ يوسف هذا كان هو الجهاز الأخير الذي جهزهم به يوسف بنفسه، وانظر – إن شئت – في الآية الكريمة التالية:

- ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ٧٠﴾ [يوسف: 70]

فبعد أن تم تنمير جميع الرحل، عمد يوسف إلى تجهيزهم جميعا بجهازهم، فختمت جميعها بختم الملك (أي الصواع)، فأخذت جميعها الطابع الرسمي. وما أن انتهى يوسف من ذلك حتى خرجت العير كلها من المكان الذي تم تجهيزهم فيه، فكانت وجهتهم إلى بلادهم. وما أن خرج أخر رحل في ذلك العير على وجه التحديد حتى يكون العمل قد توقف لبعض الوقت ليتم تجهيز عير أخرى قادمة من مكان آخر، فكل عير (نحن نظن) كانت تجهز منفصلة عن العير الأخرى. وانظر إن شئت في الفصل الزمني بين تجهيز الجهاز والآذان في العير بحرف العطف (ثُمَّ):

- ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ٧٠﴾ [يوسف: 70]

نتيجة: نحن نظن أنه كان هناك فارق زمني بسيط بين تجهيز الجهاز والآذان في العير بالسرقة، وهي في ظننا الفترة الزمنية التي كانت تفصل بين تجهيز عير قادمة من مكان ما وعير أخرى قادمة من مكان آخر.

وما أن بدأ العمل بتجهيز عير جديدة (غير تلك العير التي أقبل فيها إخوته) حتى واجهت فتيان يوسف المشكلة الأولى على الفور وهي (نحن نتخيل) عدم وجود السقاية التي يوجد فيها الصواع ليتم تنمير هذه العير الجديدة وختم جهازهم بصواع الملك. عندها خرج فتيان يوسف مسرعين للبحث عن صواع الملك، فالمهم بالنسبة لهم هو الصواع نفسه لأنه خاص بالملك، يستحيل أن يتم تعويضه أو استبداله، والأهم من ذلك استحالة إتمام العمل دون وجود صواع الملك. فخرج مؤذنهم يؤذن بفقدانه بالعير التي سبقت:

- ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ٧٠﴾ [يوسف: 70]

ولحق بهم يوسف وفتيانه وربما بعض جنده في مكان قريب، وهناك بدأ البحث عن الصواع. لكن الملفت للانتباه أن البحث لم يتم في الرحل، ولكن في الأوعية:

- ﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ٧٦﴾ [يوسف: 76]

السؤال: لماذا؟ لماذا لم يبحث يوسف عن الصواع في رحل العير أو في جهازهم؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن هناك على الأقل سببان على الأقل يمكن أن يسوغا بحث يوسف عن الصواع في أوعية الرحل وليس في رحالهم أو في جهازهم:

1. لو تم العثور على الصواع في الرحل أو في الجهاز لما حق ليوسف أن يتهم أحدا بسرقته لأن يوسف وفتيانه هما من قاما بإعداد الرحل وتجهيز الجهاز
2. والأهم من ذلك – في ظننا – لأن الرحل الذي أعده فتيانه أو الجهاز الذي جهزهم هو بنفسه) كان قد تم ختمه بختم الملك (أي الصواع) ليتخذ الصفة الرسمية، فمن الاستحالة بمكان أن يخرج رحل أو جهاز من مكان الكيل دون أن يكون قد ختم بختم الملك قبل أن يخرج من هناك. لذا يستحيل (نحن نفتري القول) أن يتواجد الصواع داخل الرحل مادام أن استخدام الصواع يأتي بعد الانتهاء من تجهيز الجهاز. فلابد – نحن نتخيل – أن يتم البحث عنه في المقتنيات الشخصية للأشخاص الذين كانوا حاضرين هناك وليس في رحالهم التي أعدها فتيان يوسف أو في الجهاز الذي جهزهم به يوسف بنفسه.

منطقنا المفترى: نحن نظن أن الغلط الذي وقع فيه سادتنا العلماء أهل الدراية قد جاء من مصدرين: افتراضهم بأن السقاية هي الصواع وأن الصواع هو السقاية نفسها، فما حاولوا التفريق بينهما (انظر جميع التفسيرات الواردة من عند أهل العلم) بالرغم من تأكيدهم المستمر على خصوصية اللفظ القرآني واستحالة أن تحل لفظة مكان أخرى. وهذا دليل – كما زعمنا أكثر من مرة – أن عقيدة سادتنا العلماء غالبا ما تضاربت مع ممارساتهم، ففي حين أن عقيدتهم تنص بأن كل لفظ في القرآن الكريم مقصود بذاته، لا تنفك تفسيراتهم عن تركيب الألفاظ على بعضها البعض دون وجه حق، فالصواع هو سقاية والسقاية هي صواع، وهكذا. ولو سألتهم عن خصوصية اللفظ القرآني لما انفكوا أن يتغنوا به ليل نهار، في حين أن مثل كتاباتهم هذه تكذب عقائدهم تلك. ولو ألححت في السؤال عن الفرق، لربما احتجت أن تسمع منهم ساعات وساعات عن أصول التفسير التي لا يملك ناصيتها إلا علماؤهم الذين ما ولدت النساء من أمثالهم. وأنا مالي؟!!!

ربط مفردة السقاية بالشراب الذي يتناوله الإنسان فقط. فهم يظنون (ربما محقين) بأن السقاية لا تكون إلا من أجل تقديم الشراب للبشر (كالملك مثلا)، ولعلي أجزم أنهم قد ربطوا السقاية بما جاء في قصة يوسف في الآيات الكريمة التالية:

- ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ٤١﴾ [يوسف: 41]

بينما نظن نحن (ربما مخطئين) بأن السقاية هي مفردة عامة يمكن أن تنسب للبشر ولأشياء أخرى.

معنى السقاية بين تفاسير أهل الدراية وآيات القرآن الكريم

الدليل

لو تدبرنا السياقات القرآنية الأخرى الخاصة بـ "السقي" ومشتقاتها، لوجدنا – لا شك عندنا – أن موسى قد سقى للامرأتين اللتين وجدهما عند ماء مدين:

- ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ٢٣ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ٢٤ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥﴾ [القصص: 23-25]

السؤال: كيف سقى موسى لهما؟ وماذا سقى لهما؟ من الذين شربوا؟ وكيف كانت آلية السقاية التي قام بها موسى؟ فما الأداة التي استخدمها موسى في تلك السقاية؟

ولو رجعنا إلى قصة بقرة بني إسرائيل لوجدنا أن البقرة هي نفسها ما كانت تسقي الحرث:

- ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ قَالُواْ ٱلۡـَٔـٰنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ ٧١﴾ [البقرة: 71]

السؤال: إذا كانت هذه البقرة على وجه التحديد لا تسقي الحرث، ألا يدل ذلك على أن هناك بقر يمكن أن يسقي الحرث؟

هناك سياقات قرآنية كثيرة تتحدث عن سقاية الزرع:

- ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٤﴾ [الرعد: 4]

السؤال: كيف يمكن سقاية الزرع؟ وما هي أدوات سقاية الزرع؟ وهل يسقى الزرع فقط بماء المطر؟ وماذا عن سقاية الزرع بغير ماء المطر كالري مثلا؟

والله أنزل من السماء ماء ليسقينا:

- ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ٢٢﴾ [الحجر: 22]

السؤال: هل نفتح أفواهنا للماء النازل من السماء لنشرب منه مباشرة؟ وإذا استطعنا أن نفعل نحن البشر ذلك، فهل تقدر على ذلك الأنعام؟

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ٤٨ لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا ٤٩﴾ [الفرقان: 48-49]

والله أسقانا من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا لكل الشاربين:

- ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ٦٦ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٦٧﴾ [النحل: 66-67]
- ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٢١﴾ [المؤمنون: 21]

السؤال: كيف نشرب من اللبن الذي أسقانا الله إياه من بطون الأنعام؟

ثم، أليس الله هو من يطعمنا ويسقينا؟

- ﴿وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ٧٩﴾ [الشعراء: 79]

فكيف يتم ذلك؟ وما هي الأدوات التي تستخدم؟

وها هم المعذبون في جهنم يسقون من ماء صديد:

- ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ ١٦ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ ١٧﴾ [إبراهيم: 16-17]

فهل تقتصر السقاية إذن على الماء فقط؟

- ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ١٦﴾ [الجن: 16]
- ﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٖ وَأَسۡقَيۡنَٰكُم مَّآءٗ فُرَاتٗا ٢٧﴾ [المرسلات: 27]

نتيجة: لا شك عندنا أن الشراب الذي يسقى له مصدره الذي يخرج منه:

- ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ٢ عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ ٣ تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةٗ ٤ تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ ٥﴾ [الغاشية: 2-5]

ولا شك أن هناك الأداة التي يتم بها فعل السقاية:

- ﴿فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا ١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا ١٤﴾ [الشمس: 13-14]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن السقاية هي الأداة التي تمد بالسائل (بغض النظر عن نوعه سواء كان ماء فراتا أو ماء صديدا، وبغض النظر عمن يشربه سواء كان من الأناسي أو من الأنعام، الخ.)

نتيجة مفتراة: نحن نظن أن السقاية هي عبارة عن وعاء أو إناء يتم وضع سائل ما فيه للاستخدام

تخيلات: لمّا كان صواع الملك هو عبارة عن الختم الرسمي للدولة التي لا يمكن للمعاملات الرسمية حينئذ أن تتم بدونه، كان لابد أن يكون متواجدا على الدوام في المكان الذي يستخدم فيه، ولا شك أن وجود ذلك الصواع هناك كان بمثابة وجود الملك نفسه، فما تم ختمه بصواع الملك، فهو إذن لا محالة نافذ بأمر الملك نفسه، ومن هنا (نحن نظن) تكمن أهميته.

السؤال: لماذا خرج القوم على الفور يبحثون عن الصواع؟ هل كان ذلك بسبب قيمته المادية كأن يكون مصنوعا من الذهب أو الفضة (يا أهل العلم)؟ نحن نصيح.

رأينا المفترى: كلا، نحن نظن أن قيمته أكبر من ذلك بكثير، فذاك الصواع يمثل الدولة المصرية كلها لأنه هو أمر الملك نفسه، فلو استطاع أحد أن يحصل على ذلك الصواع وقام بكتابة رسالة إلى قائد الجند مثلا، وطلب منه في تلك الرسالة أن يشن حربا، لما تردد قائد الجند عن فعل ذلك متى ما وجد أن الرسالة قد "صُوِّعت" (أي مهرت بختم الملك وهو الصواع). فالمراسلات والوثائق الرسمية تعتبر (نحن نفتري القول من عند أنفسنا) سارية المفعول بمجرد أن تُصوَّع (إنْ صح القول).

نتيجة: لو تدبرنا السياق القرآني لوجدنا أن ما كان يهم يوسف وفتيانه هو العثور على الصواع وليس على السقاية (لأن السقاية يمكن تعويضها وهي لا تخص الملك) ولكن لا يمكن تعويض الصواع أو الاستغناء عنه لأنه يمثل الملك نفسه.

هل سرق أخ يوسف؟ هل سرق يوسف من قبل؟

السؤال: ماذا لو فقد الصواع فعلا؟ ما الذي يمكن أن يحدث؟

جواب: لأصبح الجميع محاسبون أمام الملك عن ذلك، ولشكل فقدان الصواع إرباكا للدولة المصرية بأكملها حينئذ.

السؤال: هل يمكن أن يقتنع إخوة يوسف أن أخاهم هذا سارق إن كان ظننا هذا صحيحا؟

جواب: بكل تأكيد. لأن هذا الأخ قد عمد إلى سرقة الدولة المصرية بأكملها. فمادام أنه امتلك صواع الملك، فهو يستطيع أن يتصرف كالملك نفسه .

السؤال: لماذا؟

جواب: نحن نظن أن إخوة يوسف على قناعة بأن أخاهم هذا لا يمكن أن يقع في جرم السرقة إلا من أجل غنيمة عظيمة كما فعل أخ له من قبل (أي يوسف)، وهذا ما انطلقت ألسنتهم على الفور للتصريح به:

- ﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧ ﴾ [يوسف: 77]

فلقد قارن إخوة يوسف سرقة أخيهم هذه بسرقة سابقة (هم يظنون) أن أخ له من قبل قد ارتكبها .

السؤال: لماذا؟ لماذا تمت المقارنة على الفور مع يوسف؟

جواب: لأن الإخوة يظنون أن هذان الأخوين (يوسف وأخيه) قد ارتكبا فعلا جريمة السرقة ولكن من أجل أمر جلل. فكيف ذلك؟

رأينا المفترى 1: نحن نعتقد أن إخوة يوسف يظنون أن أخاهم يوسف قد أقدم على سرقة شيء ما في الماضي من أجل حيازة ميراث النبوة بأكمله (أي من أثر النبي)

رأينا المفترى 2: نحن نعتقد أن إخوة يوسف يظنون أن أخاهم هذا قد أقدم على سرقة الصواع هذا من أجل حيازة شيء من الملك (أي من أثر الملك)

السؤال: وهل فعل كان يوسف سارقا؟

جواب: نحن نظن أن الإخوة كانوا مقتنعين تماما بأن أخاهم يوسف قد كان سارقا فعلا.

السؤال: وماذا كان الشيء – حسب ظن إخوته – الذي سرقه يوسف؟

جواب: لقد كان ظن الإخوة أن يوسف قد سرقا شيئا من ميراث النبوة ألا وهو (كما زعمنا في الأجزاء السابقة) القميص.

الدليل: وَاللّهُ أَعْلَمْ بِمَا تَصِفُونَ

لو تدبرنا الآية الكريمة التي قارن فيها إخوة يوسف سرقة أخيهم هذا بسرقة يوسف المزعومة سابقا لوجدنا شيئا عجيبا يخص وصف ما قاله الإخوة كما جاء على لسان يوسف نفسه:

- ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧﴾ [يوسف: 77]

فعند قراءة هذه الآية الكريمة، رجعنا نبحث عن كيفية وصف يعقوب نفسه كلام أبنائه عندما جاءوه بخبر موت يوسف:

- ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨﴾ [يوسف: 18]

أنواع الكذب في كتاب الله

قد استوقفتنا مفردة "تَصِفُونَ" التي استخدمت في هذين السياقين، فدعتنا الحاجة إلى جلب السياقات الخاصة بالكذب، فوجدناها في كتاب الله على ثلاثة أشكال وهي:

1. أن تصف الكذب

- ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكۡرَهُونَۚ وَتَصِفُ أَلۡسِنَتُهُمُ ٱلۡكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفۡرَطُونَ ٦٢﴾ [النحل: 62]

- ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨﴾ [يوسف: 18]
- ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ١١٦﴾ [النحل: 116]
- ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ ١٨﴾ [الأنبياء: 18]
- ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١١٢﴾ [الأنبياء: 112]

2. أن تفتري الكذب

- ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثۡمٗا مُّبِينًا ٥٠﴾ [النساء: 50]
- ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٠٣﴾ [المائدة: 103]
- ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ٦٠﴾ [يونس: 60]
- ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٦٨ قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ٦٩﴾ [يونس: 68-69]
- ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ١١٦﴾ [النحل: 116]

3. أن تقول الكذب

- ﴿۞ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٧٥﴾ [آل عمران: 75]
- ﴿وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٧٨﴾ [آل عمران: 78]

السؤال: ما الفرق بين أن تصف الكذب وأن تفتري الكذب وأن تقول الكذب؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نعتقد أن الذي يكذب يكون على حالات ثلاثة وهي:

1. أن يظهر لغيره بأنه مقتنعا بأن ما يقوله صحيحا، وهذا هو (في ظننا) الذي يصف بلسانه الكذب:

- ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ١١٦﴾ [النحل: 116]

فأهل العلم الذين يحلّون هذا ويحرمون ذاك يفعلون ذلك بطريقة الوصف، لقناعتهم (كما تبين للآخرين من حولهم) بأن ما يقولونه لهم صحيحا، لكن الهدف من ذلك هو أن يفتروا على الله الكذب، ليمرروا العقائد المزيفة بالأدلة التي يظن الناس أنها موصوفة (أي صحيحة برأي أهل العلم). فهم يقولون لك بأن الرجل منا لا يستطيع مثلا أن يتزوج بأكثر من أربعة نساء مستشهدين بالآية الكريمة التالية:

- ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ٣﴾ [النساء: 3]

ولو سألتهم عن سبب أن يكون الرسول محمد هو أول من خالف هذه العقيدة التي جاء بها من عند ربه عندما تزوج بأكثر من هذا العدد من النساء، لجاءوك بالدليل تلو الدليل واصفين ما فعله محمد بأنه صحيح (وهم يظنون أنهم بذلك يدافعون عن محمد)، ولكن هدفهم هو – لا نشك قيد أنملة – افتراء الكذب من أجل غاية واحدة، ألا وهي إثبات صحة العقيدة التي يؤمنون بها هم دون غيرها من شرائع الأرض الأخرى. إنها العقائد المسبّقة التي تنكسر عندها كل أمواج التصحيح. فهم يرفضون كل فكرة (مهما كان مصدرها ومهما كانت درجة معقوليتها) مادام أنها تخالف ما وصفوه كذبا من عند أنفسهم. وأنا مالي؟ !!!

2. أن يكون من يكذب شاكًا في كذبه، يحتاج أن يدلّل عليه، وهذا هو (نحن نظن) الذي يفتري الكذب

- ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٦٨ قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ٦٩﴾ [يونس: 68-69]

فالذين نسبوا لله الولد لا يملكون الدليل على ذلك، وما عندهم ليس أكثر من ظن قد يكون بعضه إثما، ولكنهم لا ينكرون ذلك. فهم على قناعة بأن كلامهم افتراء يمكن أن يثبت أو أن يرد بالدليل (البرهان).

3. أن يكون من يكذب عارفا تماما بأنه يكذب، وهذا هو (نحن نظن) الذي يقول الكذب:

- ﴿وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٧٨﴾ [آل عمران: 78]

ولا شك أن هؤلاء الذين يعرفون الحق، ولكنهم يكذبون عن علم افتراء أو قولا، يمكن أن نجدهم على فئتين:

أ. من يلبسون الحق بالباطل عن علم

ب. ومن يكتمون الحق عن علم

- ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٧١﴾ [آل عمران: 71]

تصنيف كذب إخوة يوسف

السؤال: إذا كان هناك من يصف الكذب بلسانه وصفا، وهناك من يفتري الكذب افتراء وهناك من يقول الكذب قولا، فأين يمكن أن نضع إخوة يوسف في هذا التصنيف المفترى من عند أنفسنا؟

جواب مفترى: نحن نعتقد أن إخوة يوسف لم يكونوا يفترون الكذب لأنهم لم يكونوا مضطرين لتقديم الدليل، ولا أظن أنهم كانوا يقولون الكذب لأنهم لم يكونوا قاصدين الكذب من أجل قول الكذب نفسه، فهم أبناء أنبياء وهم ورثة بيت النبوة. ولكني أجزم الظن بأنهم كانوا يصفون الكذب بألسنتهم، وذلك لأنهم كانوا (نحن نظن) يحاولون أن يقنعوا من حولهم بصحة المعلومة التي يريدون إيصالها حتى وإن كانت كاذبة. فهذا والدهم يعقوب يرى إصرار أبناءه على ما يصفون له:

- ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨﴾ [يوسف: 18]

لذا فهو يريد أن يوصل رسالة لأبنائه مفادها (نحن نظن) أنكم مصرين على الكذب لأنكم تحاولون جاهدين أن تقنعوني بأن ما حصل ليوسف كان صحيحا. فأنا أعلم مقدار إصراركم على المعلومة، لكن هذا لا ينفي عنها طابع الكذب.

وهذا يوسف يعيد على مسامعهم تماما ما قاله والده لهم من قبل، فينعت كذبهم بأنه جاء من باب الوصف:

- ﴿۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧﴾ [يوسف: 77]

ويكأن يوسف يقول لهم – نحن نتخيل – أنني على يقين بقناعتكم بما تقولون، لكن هذا لا ينفي أن يكون ما قلتموه بحقي هو من باب من يصف الكذب بلسانه وصفا.

السؤال: لماذا كان إخوة يوسف ربما على قناعة بأن يوسف كان سارقا؟

السؤال: ألم يكن أخوه هذا سارقا؟

السؤال: فما الذي يمنع أن يكون يوسف قد سرق فعلا؟

السؤال المهم جداً: لماذا لا يريد يوسف أن تلقى عليه تهمة السرقة وهو الذي بذل كل جهده لإلصاقها بأخيه لكي يأخذه في دين الملك؟ فلماذا يتنصل يوسف من تهمة هو (دبرها بنفسه) لتلصق بأخيه؟

رأينا: نحن نظن أن الذي فعله يوسف في الزمن الماضي كان سرقة (من وجه نظر الإخوة) لكنه لم يكن سرقة من وجه نظر يوسف نفسه. ولكن كيف يكون ذلك؟

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن يوسف كان قد عمد في الماضي إلى القيام بفعل ما تقع فيه شبهة السرقة، فقام إخوته بتفسيره على أنه يقع في باب السرقة فعلا، فكان يوسف في نظرهم سارقا، بينما كان من وجه نظر يوسف غير ذلك، فلا يقع في باب السرقة إطلاقا.

لماذا لم يرد يوسف تهمة السرقة عن نفسه علانية؟

السؤال: ما الذي فعله يوسف واختلف الإخوة في تفسيره؟

جواب: إنه نوع من الشر. وانظر – إن شئت – في رد يوسف نفسه على اتهام إخوانه له بالسرقة:

- ﴿۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧﴾ [يوسف: 77]

ألا ترى – عزيزي القارئ – أن يوسف لا ينفي عن نفسه "بعض الشر"؟ أليس إخوته أكثر شرا منه؟ ألا يكون هو بذلك أقل شرا منهم؟

السؤال: ماذا كان ذاك الشر (بغض النظر عن حجمه) الذي فعله يوسف وولد في ضمائر الإخوة جميعا بأنه سرقة ارتكبها يوسف في الزمن الماضي؟

رأينا: إنها حيازة يوسف شيئا من إرث النبوة كان الإخوة يتنافسون فيما بينهم على حيازته.

السؤال: كيف ذلك؟

جواب مفترى: لقد كان الإخوة على قناعة تامة بأن هناك شيء من إرث للنبوة موجود في بيت والدهم يعقوب وصل إليهم من عند جدهم إبراهيم، وأن هذا الإرث قد حاز عليه يوسف من دونهم جميعا، ففسروا ذلك على نحو أن يوسف قد أخذه بطريقة غير شرعية (السرقة) بالضبط كما فعل أخوه هذا عندما حاول أن يحيز على شيء من مقتنيات الملك، فتم ربط الحادثتين مع بعضهما البعض كما تصور ذلك الآية الكريمة نفسها أحسن تصوير:

- ﴿۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧﴾ [يوسف: 77]

فالإخوة – نحن نتخيل – يظنون أن ما قام به هذا الأخ يشبه تماما ما فعله أخوه يوسف من قبل .

السؤال: هل كان يوسف فعلا سارقا؟

جواب: لو تدبرنا الآية الكريمة لوجدنا أن يوسف لم يرد التهمة عن نفسه على العلن، وجل ما فعل حينئذ هو أنه أسرها في نفسه ولم يبدها لهم (فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا) .

السؤال: لماذا أسرها يوسف في نفسها؟ لماذا لم يرد التهمة عن نفسه؟

السؤال: كيف أسر يوسف الأمر في نفسه؟ وكيف أنه لم يبدها لهم؟ وما الفرق بين أن يسرّ يوسف الأمر في نفسه وأن لا يبدها لهم؟

رأينا: نحن نظن أن يوسف قد أسر الأمر في نفسه عندما سكت عن رد التهمة عن نفسه، فهو لم يحاول أن يناقش الأمر مع إخوته، واكتفى بالقول:

- ... أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ

السؤال: كيف بيوسف لا يبدي ذلك لهم؟ ألم يقل ذلك في حضورهم؟

جواب مفترى: نحن نتخيل أنه ما أن سمع يوسف ما قاله الإخوة بحقه حتى سكت على مضض (كما يقولون) عما يصفون بألسنهم من الكذب، فلم يرد لهم التهمة وجها لوجه، ولكنه أشاح بوجه (نحن نتخيل) عنهم وقال بصوت منخفض لم يسمعه الإخوة (أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ)

السؤال: لماذا؟ لماذا لم يحاول يوسف أن يقول ذلك على العلن؟ ولماذا قالها بعيدا عن سمع إخوته كما تزعم؟ يسأل صاحبنا.

رأينا المفترى: نحن نتخيل بأنه لو قال يوسف لهم ذلك (أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ) وجها لوجه وعلى سمعهم، لربما انكشف أمره على الفور، ولكن كيف ذلك؟

السؤال: تخيل – معي عزيزي القارئ – أن يوسف قد رد التهمة عن نفسه وعن أخيه في تلك اللحظة بالقول العلني (أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللّهُ أَعْلَمْ بِمَا تَصِفُونَ)، ألن يشك الإخوة حينها بأمره؟ ألا يحق لهم حينها أن يسألوه: كيف بك تكذب قولنا وأنت لا تعرفنا؟ وكيف بك تصدق أن يوسف لم يسرق إذا كنت لا تعرفه؟ هل لك أن تدلنا – ربما كان الإخوة سيسألون حينها – كيف عرفت أننا كاذبون وأن يوسف ذاك لم يسرق؟ لماذا تقف في طرف فريق منا وأنت لا تعرفنا؟

السؤال: لماذا لم ينفي يوسف عن نفسه ارتكابه لبعض الشر؟

- ﴿۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧﴾ [يوسف: 77]

فهل كان في يوسف بعض الشر؟ نحن نسأل.

جواب نعم، بكل تأكيد. لقد وقع يوسف في شيء من الشر لأن يوسف لم ينفي احتمالية نجاح الشيطان في بعض مهامه التي كانت تخص يوسف نفسه. وانظر – إن شئت – في الآية الكريمة التالية التي جاءت على لسان يوسف نفسه:

- ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ١٠٠﴾ [يوسف: 100]

نتيجة: لا شك إذا أن الشيطان قد نزغ بين يوسف وبين إخوته. فكيف تم ذلك؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن المنافسة كانت شديدة جدا بين يوسف وإخوته جميعا على بعض ميراث النبوة، فكان كل طرف يحاول أن يستأثر به لنفسه، ولم ينفي يوسف رغبته في ذلك، ولكن الإخوة حاولوا جاهدين منع يوسف من الحصول عليه، بينما كان يوسف يطمع بالحصول عليه ولكنه لم يكن ليمنعهم من ذلك لو تبين له أن أحقيته امتلاك ذلك الإرث تذهب لأحد منهم دونه. فالفرق بين يوسف وإخوته كان على نحو التالي:

⇐ كان يوسف يحاول أن يحصل على بعض ميراث النبوة ولكنه لم يسعى في منعه عن غيره

⇐ كان إخوته يحاولون الحصول على ميراث النبوة وفي الوقت ذاته كانوا يحاولون منع يوسف من الوصول إليه.

لذا، نحن نفتري أن الشر الذي كان لا محالة واقع بينهم كان فيهم أكبر منه في يوسف، ومن هذا الباب نحن نفهم قول يوسف (أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ)

- ﴿۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧﴾ [يوسف: 77]

ويكأن يوسف يقول لهم، لو أنكم كنتم مكاني لكنتم أكثر شرا مني، لذا يصبح المشهد على النحو التالي:

تخيلات: يصل بعض ميراث النبوة إلى يوسف، فيحرص عليه ليكون من نصيبه، فلا يعطيه لأحد من إخوته، ولا يطلع أحدا من إخوته عليه، وما أن انكشف الأمر للإخوة حتى وصفوا ذلك الفعل بألسنتهم بأنه يقع في باب السرقة، ولكن لما كان الأمر بينهم يقع في باب التنافس، كان أحدهم لا محالة سيحصل عليه لنفسه، ولما وقع في يد يوسف لم ينظر للأمر على أنه سرقة، بل نظر إليه على أنه أحقية، فجاء قوله لهم على نحو:

- ﴿۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧﴾ [يوسف: 77]

السؤال: ما هو ذاك الإرث الذي كان الإخوة يتنافسون فيما بينهم للحصول عليه؟

جواب: إنه القميص الذي سيلقى في نهاية القصة على وجه الوالد الكظيم ليرتد بصيرا:

- ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩٣﴾ [يوسف: 93]

تساؤلات

⇐ كيف وصل هذا القميص إلى يوسف؟
⇐ من أين جاءه هذا القميص؟
⇐ كيف استطاع يوسف الاحتفاظ به كل هذه السنوات؟
⇐ وأين ذهب هذا القميص بعد أن ألقي على وجه الوالد الكظيم؟
⇐ الخ.

هذه بعض التساؤلات التي سنثيرها عن حكايتنا المفتراة عن ذلك القميص العظيم في الأجزاء القادمة.

فالله وحده أسأل أن يعلمني وصاحبي عليّا ما لم نكن نعلم، وأن يجعل فضله علينا عظيما، وأن يهدينا إلى نوره الذي أبى إلاّ أن يتمّه ولو كره الكافرون، ونعوذ به أن نكون ممن يفترون عليه الكذب أو ممن يقولون عليه ما ليس لهم بحق، ونعوذ به أن نكون ممن يصدون عن سبيله أو ممن يبغونها عوجا - إنه هو العليم الحكيم.

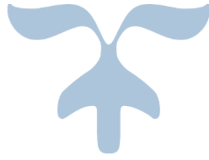
المدّكرون: رشيد سليم الجراح & علي محمود سالم الشرمان
بقلم: د. رشيد الجراح، 27 نيسان 2014، مركز اللغات جامعة اليرموك



قصة يوسف – الجزء الرابع والعشرون

"اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا"

(1)





الجزء الرابع والعشرون – اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا (1)

تمهيد

علاقة السرقة بإرث النبوة – القميص –

كان الافتراء الأكبر الذي حاولنا تسويقه في نهاية الجزء السابق هو وقوع يوسف نفسه فيما يشبه فعل السرقة كما صوّر ذلك القرآن الكريم على لسان إخوته، وجاء ذلك بعد أن استقر في وجدان الإخوة بأن أخاهم الآخر الذي أحضروه معهم إلى أرض مصر قد وقع أيضا في فعل السرقة، فربطوا سرقة أخيهم هذا "بسرقة" أخ له من قبل:

- قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ...

وقد كانت ردة فعل يوسف على هذا الاتهام الصريح له بالسرقة لا تُخفي في ثناياها تحمّل يوسف قسطا من المسئولية، فنسب بعض الشر إلى نفسه وإن كان شر إخوته أكبر من شره بكثير، وانظر – إن شئت – في تتمة الآية السابقة نفسها:

- ﴿... فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧﴾ [يوسف: 77]

وحصل كل هذا بسبب نزغ الشيطان بين يوسف من جهة وإخوته من جهة أخرى، وانظر – إن شئت – في كلمات يوسف نفسه:

- ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ١٠٠﴾ [يوسف: 100]

وقد حاولنا افتراء القول بأن كل هذا قد جاء بسبب حيازة يوسف على شيء من ميراث النبوة كان الإخوة جميعا يتنافسون على حيازته، فظن الإخوة أن يوسف قد تحصل عليه عن طريق السرقة. لكن يوسف رد عن نفسه التهمة بالعبارة التالية (وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ) التي تكمل الآية الكريمة التي جاء فيها الاتهام صريحا ليوسف بالسرقة:

- ﴿۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧﴾ [يوسف: 77]

ويكأن يوسف يقول لهم – نحن لا زلنا نتخيل – بأنكم لستم دقيقين في وصف ما حدث، وأن الله هو أعلم بوصف ذلك منكم (وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ)، فما حزت عليه أنا من مقتنيات إرث النبوة حينئذ لم يتحصل لي بطريقة غير شرعية (كالسرقة كما ظننتم)، ولكنه كان حقا مكتسبا لي من دونكم جميعا، وستثبت لكم الأيام ما أقول، لكن الوقت لم يحن بعد لرد التهمة عن نفسي علانية. فسكت يوسف عن البوح بذلك أمام إخوته جميعا في تلك اللحظة، منتظرا الفرصة المناسبة ليعترفوا هم بذلك بالضبط كما حصل في نهاية القصة:

- ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ٩١﴾ [يوسف: 91]

وقد خلصنا في نهاية ذلك الجزء إلى افتراء الظن من عند أنفسنا بأن الذي حاز عليه يوسف من مقتنيات إرث النبوة (والذي ظن إخوته بأن يوسف قد حصل عليه عن طريق فعل السرقة) هو القميص الذي سيلقى في نهاية القصة على وجه الوالد الكظيم ليرتد بصيرا:

- ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩٣﴾ [يوسف: 93]

تساؤلات حول القميص

وعندها طرحنا التساؤلات التالية التي وعدنا القارئ الكريم بمتابعة النبش فيها، ألا وهي:

⇐ كيف وصل هذا القميص إلى يوسف؟
⇐ من أين جاءه هذا القميص؟
⇐ كيف استطاع يوسف الاحتفاظ به كل هذه السنوات؟
⇐ وأين ذهب هذا القميص بعد أن أُلقي على وجه الوالد الكظيم؟
⇐ وما سر ذلك القميص الذي نظن أن أحداث قصة يوسف قد دارت جميعها حوله؟
⇐ الخ.

باب القميص

كم قميص تم ذكره في قصة يوسف

لعلي أجزم الظن بأن المفتاح الحقيقي لكل أحداث قصة يوسف العظيمة التي كانت أحسن القصص في كتاب الله (انظر الجزء الأول) هو ذلك القميص، الذي جاء ذكره في القصة في ثلاثة مواطن وهي:

1. بداية القصة (انطلاق الأحداث): حيث ورد ذكر القميص الذي جاء به الإخوة وعليه دم كذب ليقدموا البرهان لأبيهم يعقوب بأن نهاية يوسف قد كانت بين أنياب الذئب:

- ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرًاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨﴾ [يوسف: 18]

2. في وسط القصة (ذروة الأحداث): حيث ورد ذكر القميص الذي قدَّته امرأة العزيز عندما كانت تحاول أن تراود يوسف عن نفسه:

- ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٥﴾ [يوسف: 25]

في نهاية القصة (نهاية الأحداث): حيث جاء ذكر القميص الذي بعث به يوسف لوالده يعقوب الكظيم ليرتد بصيرا:

- ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩٣﴾ [يوسف: 93]

وبالمفردات الأدبية الدارجة، يمكننا القول بأن القصة قد بدأت خيوطها الأولى تُحاك مع ذاك القميص الأول الذي جاء به إخوته ملطخا بدم كذب، وقد وصلت القصة إلى حبكتها (ذروتها) مع القميص الثاني الذي قدّته امرأة العزيز، وتحلحلت خيوطها في النهاية مع القميص الثالث الذي أرسل به يوسف إلى أبيه يعقوب ليرتد بصيرا.

السؤال: فأي قميص من هذه الثلاثة هو من مقتنيات إرث النبوة؟ وأي قميص منها ظن إخوة يوسف أن يوسف قد حاز عليه بالسرقة حسب وصفهم ذلك؟

جواب مفترى: إنه القميص الثالث، الذي حدده يوسف باسم الإشارة (هَٰذَا)

- ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩٣﴾ [يوسف: 93]

فلو تفقدنا النص القرآني جيدا لوجدنا أن كل الذين حاولوا الكيد بيوسف (إخوته وامرأة العزيز ونسوة المدينة) كان هدفهم – نحن نظن – هو الوصول إلى هذا القميص. ليكون السؤال الذي نطرحه هو: لماذا؟

منطقنا مفترى: مادام أن إلقاء هذا القميص على وجه يعقوب كان سببا كافيا في أن يرد له بصره الذي فقده حزنا على يوسف، فإن لهذا القميص خصوصية يصعب المجادلة فيها، فما هي خصوصية هذا القميص؟ ومن أين جاء هذا القميص؟ وإلى أين انتهى الأمر به؟ وكيف ارتد يعقوب بصيرا بمجرد أن ألقي هذا القميص على وجه التحديد على وجهه؟

دعاء: اللهم أسألك وحدك أن تأذن لي الإحاطة بشيء من علمك لا ينبغي لغيري إنك أنت الواسع العليم - أمين

عودة على بدء

يوسف والقميص مع أبيه الأول يعقوب

عندما كان يعقوب حائرا في أمر هذا الإرث النبوي العظيم، لم يستطع أن يتخذ قرار حاسما لأن حيرته في البداية كانت تتراوح بين اثنين من أبناءه وهما يوسف وأخوه، ليكون أحدهما هو صاحب الحق في حيازة هذا الأثر النبوي العظيم، لذا ظهر حب يعقوب لهما الاثنين على العلن في بادئ الأمر، فظن الأبناء جميعا بأن أباهم في ضلال مبين، مادام أن حبه كان منحصرا في هذين الأخوين:

- ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٨﴾ [يوسف: 8]

وما استطاع يعقوب – نحن نفتري القول – أن يحسم أمره في أي منهما ستكون تمام النعمة الإلهية على آل يعقوب حتى تبين له ذلك برؤيا يوسف الأولى:

- ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبٗا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ٤﴾ [يوسف: 4]

عندها فقط أصبح واضحا للأب يعقوب (نحن نظن) أن هذا "الحب الخاص" يجب أن يتوجه نحو يوسف فقط مادام أنه هو صاحب الاجتباء الإلهي في تمام تلك النعمة، فانحصر "حب" يعقوب (كما كان باديا للإخوة جميعا) في يوسف فقط، وغاب الأخ الآخر عن الساحة تماما، فأصبح جليا لبقية الإخوة أن التخلص من يوسف (فقط) هو ما سيمكّنهم من وجه أبيهم، فخططوا للإطاحة بيوسف دون أخيه الآخر:

- ﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضٗا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمٗا صَٰلِحِينَ ٩﴾ [يوسف: 9]

وعندها علم يعقوب بأن يوسف لا محالة سيطرح أرضا (أي سيعمد إخوته إلى إخراجه من هذه الديار = البدو):

- ﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ١٠﴾ [يوسف: 10]

لذا، عمد يعقوب (نحن نفتري الظن من عند أنفسنا) إلى رسم خطة التخلص من يوسف لأبنائه بنفسه، فكانت على النحو التالي:

- ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ١٣﴾ [يوسف: 13]

وبالفعل نفّذ الأبناء الخطة كما رسمها والدهم لهم، فرجعوا إليه عشاء يبكون، واصفين نهاية يوسف على النحو الذي رسمه والده نفسه:

- ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [يوسف: 16-17]

(للتفصيل انظر الأجزاء الأولى السابقة)

السؤال: ما الذي فعله يعقوب قبل أن يرسل يوسف معهم ليلقى مصيره هناك؟

رأينا: نحن نتخيل يعقوب يقوم بتجهيز يوسف تجهيزا كاملا، كالأب الذي يجهّز ولده للسفر الطويل، فعمد (نحن نتخيل) إلى أن يُلبس يوسف هذا القميص الذي أصبح من حقه فقط من دون إخوته جميعا، فألبسه إياه (نحن لازلنا نتخيل) كأول قطعة لباس يضعها على يوسف ليستر بها عورته، ربما لعلم يعقوب (وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ) بأن هذا القميص سيكون هو الحاجز الحقيقي بين يوسف وبين الوقوع في الفاحشة لاحقا، وبكأن يعقوب يرى ما سيحل بيوسف في قادم الأيام في بلاد الاغتراب، ليكون هذا القميص (كما زعمنا سابقا) هو برهان ربه الذي رءاه عندما همّ بامرأة العزيز كما همت هي به:

- ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: 24]

(انظر الأجزاء السابقة)

لكن يعقوب (نحن نظن) لم يكتفي بإلباس يوسف هذا القميص فقط، وإنما قام (كأب ربما كان يحاول حماية ولده أيضا من تقلبات الطقس والمناخ) بإلباسه "قمصان" (إنْ صحّ الجمع على هذا النحو) أخرى فوق هذا القميص، فخرج يوسف من عند والده يعقوب لابسا هذا القميص ومن فوقه "قمصان" أخرى.

وما أن وصل إخوة يوسف عند غيابة الجب ليجعلوه فيه حتى خلعوا عن يوسف قميصه الخارجي الذي سيلطخونه بالدم الكذب، كدليل يعودوا به إلى أبيهم على نهاية يوسف بين أنياب الذئب. ولكنهم لم يصلوا إلى "هذا القميص" الخاص الذي كان يستر يوسف به عورته. فجُعِل يوسف في غيابة الجب لابساً هذا القميص وبعض قمصانه الأخرى، وهناك بالضبط جاءه الوحي أول مرة:

- ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾ [يوسف: 15]

يوسف في أرض مصر مع أبيه الثاني

وصل يوسف إلى أرض مصر، وتم شراءه بضاعة، وكان لازال (نحن نتخيل) يلبس هذا القميص، فحصل له التمكين الأول في بيت الذي اشتراه من مصر، وهناك بدأ تعليم يوسف تأويل الأحاديث:

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يوسف: 21]

وكان ذلك بالضبط هو العلم الذي لم يكن يوسف ليجده عند والده يعقوب، وخرج يوسف (كما زعمنا في الأجزاء السابقة) للبحث عنه لاكتسابه، إنه علم تأويل الأحاديث:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾ [يوسف: 6]

فخرج يوسف من البدو ليتلقى علما ما كان ليجده عند أبيه يعقوب، ولكنه وجده عند أبيه الثاني الذي اشتراه من مصر، وهو الأب الثاني (القمر) الذي رفعه يوسف على العرش مع أبيه الأول يعقوب (الشمس):

- ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ * رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف: 100-101]

يوسف والقميص مع امرأة العزيز والنسوة

وفي تلك الأثناء، كان يوسف محتفظا بهذا القميص، لا يظهر عليه أحد حتى كان يوم عمله في بيت امرأة العزيز التي أخذت تراوده عن نفسه.

وقد زعمنا الظن في أحد الأجزاء السابقة أن الذي جلب انتباه امرأة العزيز ليوسف لم يكن (كما ظنّ من سبقنا من سادتنا العلماء أهل الدراية) جمال يوسف الشكلي، وإلاّ لكانت كل نساء المدينة ضحايا يوسف مادام أنه كان يعمل في القصر ويتنقل في الطرقات، ويعيش حياة طبيعية تتطلب اختلاطه بمن حوله. ولكن الذي جلب انتباه امرأة العزيز التي كان يعمل يوسف في بيتها (نحن نفتري القول) هو هذا القميص، فنحن نتخيل أن الفرصة قد سنحت لامرأة العزيز أن ترى (ولو بالصدفة) يوسف الذي كان يعمل في بيتها مرتديا هذا القميص، عندها لم تستطع إلا أن تنظر إليه، فما وجدته في ذلك القميص إلا ملكا كريما، وهذا بالضبط (نحن نتخيل) ما

حصل مع كل النسوة اللاتي حاولن مراودة يوسف عن نفسه، عندما أخرجته امرأة العزيز عليهن، فما أن رأينه حتى انطلقت ألسنتهن جميعا بتنزيهه عن مرتبة البشرية بوصفه على أنه ملك كريم:

- ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ٣١﴾ [يوسف: 31]

ونحن نفتري الظن بأن كل هذا كان بسبب هذا القميص الذي كان يوسف يرتديه في تلك اللحظة، وهو ما جلب انتباه النسوة ليوسف، وأصررن على فتنته عندما أكبرنه:

- ... وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ...

فبذلن ما بوسعهن من جهد لإيقاع يوسف في الفتنة، فراودنه جميعا عن نفسه:

- ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٥١﴾ [يوسف: 51]

وحصل كل ذلك في المتكأ الذي أعتدته لهن امرأة العزيز بنفسها:

- ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ٣١﴾ [يوسف: 31]

السؤال: ما الدليل على أن يوسف قد خرج على تلك النسوة لابسا فقط هذا القميص؟

جواب مفترى: نحن نجد الدليل على ذلك في ما قالته النسوة بملء الفيه وهو أن يوسف ليس بشرا ولكنه ملكا كريما:

- ﴿... وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ٣١﴾ [يوسف: 31]

السؤال: وكيف ذلك؟

يوسف – المَلَك الكريم – قصة الخلق الأولى

رأينا: دعنا نعود إلى قصة الخلق الأولى عندما كان إبليس يحاول الإيقاع بآدم وزوجه في الفخ، فكانت الحجة التي ساقها حينها هي ما تنص عليه الآية الكريمة التالية:

- ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأعراف: 20]

فلو دققنا في هذه الآية الكريمة لوجدنا أن فكرة الإيقاع بآدم وزوجه (أي غوايتهما) قد بدأت بتصويرهما على نحو أن يكونا ملكين (إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ) بعد الأكل من الشجرة، وهذا يدعونا على الفور إلى طرح التصور التالي: هناك فرق جوهري بين الملائكة الذين أمروا بالسجود لآدم:

- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة: 34]

والملك الذين لم يؤمروا بالسجود لآدم، لأن الشيطان حاول الإيقاع بآدم وزوجه من هذا الباب، فمن غير المنطقي أن يكون الملك (جمع) قد أمر بالسجود لآدم ومن ثم يرضى آدم (المسجود له) بأن يكون مثلهم (الساجدين له)، ولكن لما كان الملك (جمع) يختلف عن الملائكة استطاع الشيطان أن يتلاعب برغبة آدم وزوجه.

الدليل:

نحن نجد أن الملك الذي كان الشيطان يحاول أن يغوي آدم وزوجه ليكونا مثلهما هم من جاء ذكرهم في الآيات الكريمة التالية:

- ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر: 21-22]
- ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحاقة: 13-17]

إن ما يهمنا من هذا الطرح هو التساؤل التالي: ما الذي أغرى آدم وزوجه بأن يكونا ملكين؟ لماذا رغب آدم وزوجه في أن يكونا ملكين؟ ما دافع آدم وزوجه في أن يكونا ملكين؟

رأينا المفترى: لقد تعرضنا في مقالة سابقة لنا لهذه الجزئية وزعمنا الظن مفترينه من عند أنفسنا أن الملكين اللذين كانا محط نظر آدم وزوجه في غواية الشيطان لهما كانا – نحن نظن – جبريل وميكال، فقد افترينا القول بأن جبريل وميكال هما زوجين، لأن الله قد خلق من كل شيء زوجين اثنين:

- ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الذاريات: 49]

فكان الزوجان هما الذكر والأنثى:

- ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾﴾ [النجم: 45]

فكان جبريل هو زوج (الذكر) وكانت ميكال هي زوج (الأنثى).

وبهذا المنطق المفترى من عند أنفسنا (نحن نظن) استطاع الشيطان الدخول إلى آدم وزوجه لغوايتهما، فلقد كان "يطمع" آدم وزوجه في أن يكونا ملكين كجبريل وميكال. ليكون السؤال التالي هو: لماذا؟

لا شك أن واحدة من أسباب القبول بغواية الشيطان هو الشكل، فلا شك أن شكل الملك يختلف عن شكل غيره، وهذا بالضبط ما قالته النسوة عندما رأين يوسف بعد أن أخرجته امرأة العزيز عليهن:

- ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ٣١﴾ [يوسف: 31]

ليكون السؤال هو: ماذا كان شكل يوسف عندما رأته النسوة على تلك الهيئة في تلك المرة بالذات؟

جواب: لقد كان على شكل ملك كريم

السؤال: وكيف يكون شكل الملك الكريم؟

رأينا: لا شك أن البياض هو الصفة الأولى التي تتبادر للذهن عندما نتحدث عن الملَك، فنحن نظن أن الصفة الغالبة على شكل يوسف حينها كان البياض. ولكن هل هذا كل شيء؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: كلا، فنحن نظن أيضا بأن لشكل الملَك خاصية أخرى مهمة جدا، وهي عدم ظهور السوءة (أي الجسد). وهذا بالضبط ما كان يحاول الشيطان أن يفعله للإيقاع بآدم وزوجه:

- ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٢٧﴾ [الأعراف: 27]

فالملَك – لا شك عندنا – عليه من اللباس ما يخفي كل سوءة له. والسوءة هي (كما تحدثنا في مقالة لماذا يدفن الناس موتاهم؟) تعني الجسد بأكمله بدليل ما قاله ولد آدم الذي عجز أن يواري سوءة أخيه بعد أن قتله:

- ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ٣١﴾ [المائدة: 31]

فلقد بعث الله غرابا ليري القاتل من أبناء آدم كيف يواري (أي يخفي في التراب) سوءة (أي كامل جسد) أخيه.

نتيجة: لقد كان آدم وزوجه (كما الملك الكريم) يلبسان عليهما ما يواري سوءاتهما. وقد اجتهد الشيطان في أن ينزع عنهما لباسهما الذي كان يواري سوءاتهما. فكيف حصل له ذلك؟

رأينا: لما كان آدم وزوجه في الجنة كانا مأمورين بأن يأكلا منها حيث شاءا باستثناء الأكل من شجرة واحدة:

- ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٣٥﴾ [البقرة: 35]
- ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٩ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ۝٢٠﴾ [الأعراف: 19-20]

وعندما ألح عليهم، مقسما لهما بأنه لهما لمن الناصحين:

- ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٢١﴾ [الأعراف: 21]

استطاع التغرير بهما، فأوقعهما في الفخ عندما نزلا عند نصيحته فاقتربا من الشجرة، فذاقا الشجرة:

- ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٢٢﴾ [الأعراف: 22]

وما أن ذاقا الشجرة حتى بدت لهما سوءاتهما على الفور، وانظر – إن شئت – في تتمة الآية السابقة:

- ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٢٢﴾ [الأعراف: 22]

وقد رُسِمت الصورة نفسها في موطن آخر من كتاب الله:

- ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝١٢١﴾ [طه: 121]

السؤال: كيف بدت السوءة بمجرد الأكل من الشجرة؟ ولماذا طفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة؟

تخيلات: نحن نؤمن أن الجنة هي المكان الذي لا جوع فيه ولا عري، أليس كذلك؟

- ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ١١٧ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ١١٨﴾ [طه: 117-118]

ومادام أن الجنة هي مكان لا عري فيه، فهي المكان الذي لا يحتاج صاحبها أن يقضي حاجته فيها (كالدخول في الخلاء، أي الحمام)، فهي مكان لا وجود لشبكات الصرف الصحي فيها. فحتى يستطيع الإنسان منا قضاء حاجته (أي الدخول في الحمام) فلابد أن تبد له سوءته. وهذا نحن نظن ما حصل مع آدم وزوجه عندما ذاقا (وأكلا) من تلك الشجرة التي نهاهم ربهما عن الاقتراب منها:

- ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ٢٢﴾ [الأعراف: 22]

فلقد أوقع الشيطان آدم وزوجه في المعصية عندما استطاع أن يقنعهما بالأكل من الشجرة لأن النتيجة الحتمية التي لم يكن آدم وزوجه ربما يدركانها هي أن الأكل من تلك الشجرة ستكون عاقبته أن تبد لهما سوءاتهما، ولكن لماذا؟

جواب مفترى: لأن آدم وزوجه أصبحا منذ تلك اللحظة بحاجة أن يقضيا حاجتهما، (أي استخدام الحمام أو Toilet بالمفردات الأعجمية).

وبهذا المنطق المفترى من عند أنفسنا ربما نستطيع إعادة تسليط الضوء على الآيات الكريمة التالية:

- ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ١١٩﴾ [طه: 118-119]

التي جاءت في سياق الحديث عن التحذير الإلهي المسبق لآدم وزوجه من غواية الشيطان لهما، وانظر – إن شئت – في السياق الأوسع:

- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ١١٦ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ١١٧ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ١١٩﴾ [طه: 116-119]

السؤال: ما معنى أن آدم في تلك الجنة لا يجوع ولا يعرى؟ وما معنى أنه لا يظمأ فيها ولا يضحى؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن هناك تقابل في الحديث على النحو التالي:

جوع	يقابله	عري
ظمأ	يقابله	ضحى

سؤال: كيف يمكن أن نفهم ذلك؟

جواب: نحن نفتري القول من عند أنفسنا أن الإنسان إذا ما جاع فهو بحاجة إلى الطعام، ومادام أنه يأكل الطعام ليسد جوعه، فإنه سيتكون هناك في جسمه فضلات زائدة عن الحاجة يجب التخلص منها بالتغوط، لذا سيكون بحاجة أن يعرى ليتخلص منها.

وبالمنطق المفترى نفسه نقول إنه إذا ما ظمأ الإنسان فإنه بحاجة أن يسد ظمأه هذا بالشرب (الماء)، ولكن سيبقى هناك ما يزيد عن حاجته لابد من أن يتخلص منه بالتبول، لذا سيكون بحاجة أن يضحى.

نتيجة مفتراة (1): نحن نفتري الظن بأن العري جاء من أجل التخلص من فضلات الأكل (التغوط).

نتيجة مفتراة (2): نحن نفتري الظن بأن الضحى قد جاء من أجل التخلص من فضلات الشرب (التبول).

تخيلات: لقد كانت من نعم الله على آدم وزوجه في تلك الجنة أن الأكل منها حيثما شاءا لم يكن يسبب لهما حاجة في استخدام الحمام، فثمر الجنة تلك لم يكن ينتج عن أكله وجود مخلفات لابد من التخلص منها باستخدام الحمام.

السؤال: لماذا لا يسبب الأكل من الجنة التغوط؟

جواب: لأن الأكل منها لا يكون مدفوعا بالجوع

السؤال: لماذا لا يسبب الشرب من الجنة التبول؟

جواب: لأن الشرب منها لا يكون مدفوعا بالظمأ

نتيجة مفتراة: فآدم وزوجه كانا مطهرين في الجنة لا يصيبهما عري من جوع ولا يصيبهما ضحى من ظمأ.

الدليل

نحن نجد الدليل على هذا الافتراء في قصة مريم، فلربما يعلم الجميع أن الله هو الذي طهّر مريم، فكان جزء من طهارتها (نحن نظن) نابعا من الطعام (الرزق) الذي كان يأتيها مباشرة من عند الله:

- ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: 37]

ونتيجة لذلك أصبحت مريم (نحن نظن) مؤهلة أن تتواجد على الدوام في المحراب، لتقنت لربها ولتسجد ولتركع مع الراكعين:

- ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [آل عمران: 42-43]

وكهذا (نحن نفتري القول) هو الرزق الذي كان معدّا لآدم وزوجه في الجنة قبل الوقوع في المعصية، ولكن ما أن أكلا من تلك الشجرة حتى أصبح استخدام الحمام (نحن نفتري القول من عند أنفسنا) أمرا لا مفر منه، ومن هناك بدأت المعاناة الإنسانية الأولى: ألا وهي الحمام (أو شبكة المجاري الصحية كتلك التي وعدت بتنفيذه بلديتنا العتيدة منذ عقود من الزمن عندما أخذت تجني منا الرسوم لإنشاء شبكة المجاري التي بتنا نحلم بها مادام أنها لن تتحقق أبدا، فقد أصبحت الأموال في جيب الشباب – وهم لا شك يحتاجون إلى مصاريف كثيرة) وأنا مالي؟!!!

تخيلات: ما أن أصبح آدم وزوجه بحاجة إلى تصريف الزائد من الأكل (أي الفضلات) من جسميهما بسبب الأكل من تلك الشجرة التي نهاهما ربهما عن الاقتراب منها حتى اضطرا إلى نزع لباسهما، فبدت لهما سوءاتهما:

- ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأعراف: 20]

وهناك بالضبط أُمرا بالهبوط من الجنة، مادام أن تلك الجنة لم تكن المكان المناسب لتصريف تلك الفضلات:

- ﴿قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [الأعراف: 24]
- ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طه: 123]

(للتفصيل انظر مقالة: هل كذب الشيطان على آدم؟)

وهنا ربما يثار التساؤل التالي: لماذا فعل الشيطان ذلك؟ لماذا كان الشيطان يجهد نفسه لينزع عن آدم وزوجه لباسهما؟

جواب مفترى: نحن نظن أن السبب في ذلك ربما يكون في عدم استطاعة الشيطان أن ينفذ مراده بآدم وزوجه إلا بعد أن ينزع عنهما لباسهما.

السؤال: ولماذا؟ ألم يكن يستطيع تنفيذ مراده فيهما دون أن ينزع عنهما لباسهما؟

جواب: كلا، لا يستطيع الشيطان أن ينفذ مراده في آدم وزوجه إلا بعد أن ينزع عنهما لباسهما.

السؤال: وماذا كان مراد الشيطان في آدم وزوجه وذريتهما؟

جواب: نحن نظن أن مراد الشيطان هو ما تصوره الآية الكريمة التالية:

- ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ۝٦٢ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ۝٦٣ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ۝٦٤ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ۝٦٥﴾ [الإسراء: 62-65]

السؤال: كيف كان الشيطان يستطيع أن يستفزز من أستطاع منهم بصوته؟ وكيف كان سيجلب عليهم بخيله ورجله؟ وكيف كان سيشاركهم في الأموال والأولاد؟

جواب: لكي يستطيع إبليس أن يفعل ذلك، فلابد من أن ينزع عنهما لباسهما.

السؤال: لماذا؟

جواب مفترى: لتبد لهما سوءاتهما ومن ثم يكون آدم وزوجه فريسة سهلة له مادام أنه سيستطيع أن يرانا من حيث لا نراه نحن. وانظر – إن شئت – في السياق القرآني الذي يربط ذلك باستطاعة الشيطان أن ينزع عن آدم وزوجه لباسهما:

- ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٧﴾ [الأعراف: 27]

السؤال: كيف أصبح آدم وزوجه بعد أن نزع الشيطان عنهما لباسهما فريسة سهلة له؟

جواب: لأنه ببساطة يستطيع أن يرانا (نحن بني آدم) من حيث لا نراه.

سؤال: وكيف كان الأمر قبل الوقوع في المعصية؟

جواب: لو تدبرنا السياقات القرآنية الخاصة بحياة آدم في الجنة قبل الوقوع في المعصية لوجدنا أن الخطاب كان مباشرا بين آدم وزوجه (من جهة) والشيطان من جهة أخرى، لذا نحن نفتري القول بأن آدم

وزوجه كانا قبل المعصية قادرين على رؤية الشيطان، ولكن ما أن استطاع الشيطان أن ينزع عنهما لباسهما حتى فقد آدم وزوجه تلك القدرة، فأصبحت الرؤيا ممكنة من طرف واحد، وهو طرف الشيطان وقبيله:

- ... إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ...

ومن هنا أصبح بإمكان الشيطان أن يلحق الأذى بآدم وذريته من حيث لا يستطيع آدم وزوجه ملاحظة ذلك.

المنطق المفترى: إذا كان شخص ما يستطيع أن يراك بينما لا تستطيع أنت أن تراه فإن إمكانية إلحاقه الأذى بك تكون ممكنه مادام أنه يستطيع أن يراك، بينما ربما تنعدم إمكانية أن تلحق أنت الأذى به مادام أنك أصلا لا تراه.

جواب: وكيف يحصل ذلك في حالة الشيطان الذي يرانا من حيث لا نراه؟

رأينا: يمكن أن نتصور ذلك لو حاولنا أن نربط مفردة الشياطين مثلا بالمفردة التي تسبب الأذى الأكبر لنا نحن بني آدم، أليست هي الجراثيم؟

نتيجة مفتراة خطيرة جدا: شياطين = جراثيم

رأينا المفترى: نحن نعتقد (ربما مخطئين) أن تلك الجراثيم (التي تجمع على الطريقة العبرية باستخدام ضمير الجمع يم في تلك اللغة هي الكينونة نفسها التي تجمع حسب الطريقة العربية باستخدام ضمير الجمع ين في مفردة شياطين العربية) هي نفسها التي تنخر في أجسامنا ونحن لا نستطيع رؤيتها، لذا هي ليست أكثر من رجل الشيطان (وَرَجِلِكَ) التي استفززها علينا إبليس، فشاركنا فيها. ولو أن آدم وزوجه لم يقعا في مكيدة الشيطان (نحن نظن) لبقيت أجسامهم نورانية خالصة، غير بادية السوءة، ولما استطاعت تلك الشياطين (الجراثيم) النفاذ إلى أجسمنا وذلك لسببين اثنين على الأقل:

1. أن أجسامنا النورانية الأصلية لن تكون مرتعا خصبا لجنود إبليس (الشياطين = الجراثيم)
2. لأننا لن نكون قد فقدنا القدرة على مشاهدتها وبالتالي نستطيع تجنبها.

وربما يتوجب على الجميع منا التفكر بالتساؤلين التاليين:

⇐ لماذا نجوع؟ ألا تكفي كمية الطعام التي يتناولها الإنسان في وجبة واحدة أن تمده بالطاقة أياما وربما أسابيع كاملة لو تم استهلاكها كلها؟ فلم يتبقى منها فضلات يتم التخلص منها بالتغوط؟ وكم هي أصلا حاجة الجسم الفعلية من كل ذلك الطعام الذي نأكله؟ أليست قليلة بالمقارنة بما نتناوله؟ من يدري؟!!!

⇐ لماذا نظمأ؟؟ ألا تكفي كمية الشراب التي يتناولها الإنسان في مرة واحدة أن تمده بما يحتاج أياما وربما أسابيع كاملة لو تم استهلاكها كلها؟ فلم يتبقى منها فضلات يتم التخلص منها بالتبول؟ من يدري؟!!!

السؤال: لماذا نبقى نأكل ونشرب على الدوام؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نظن أننا نفعل ذلك بسبب تلك الشياطين التي تنمو وتتكاثر على سوءاتنا التي أصبحت مرتعا خصبا لهم. ولو أن سوءاتنا لم تبد، ولو أن الشيطان لم يستطع أن ينزع عنا لباسنا، لما أصبحت تلك السوءة مرتعا خصبا لرجل إبليس (الشياطين = الجراثيم).

السؤال: وهل هذا ممكن؟ وماذا كان يمكن أن تكون الآلية حينئذ؟

جواب مفترى: نحن نفتري الظن بأنه لو لم يستطع الشيطان أن ينزع عن آدم وزوجه لباسهما، لظلّ تكاثر البشر بنفس الآلية التي حصلت لمريم ابنت عمران، فما كان الجنين سيمكث في بطن أمه فترة الشهور التسعة. ولتكوّن وخرج من بطن أمه في ليلة واحدة كما حصل في حالة المسيح ابن مريم. ولما استطاعت الشياطين الوصول إلينا.

نتيجة مفتراة: فنحن نفتري الظن بأن الجسم الوحيد الذي بقي نظيفا من كل نصب من الشيطان هو عيسى بن مريم فقط. فذاك هو الجسم الذي لم يستطع الشيطان النفاذ إليه. ونحن نفتري الظن بأن الجوع والظمأ لم يكونا يصيبان المسيح ابن مريم، فما كان المسيح (كلمة الله وروح منه) بحاجة أن يستخدم الحمام بالتغوط أو التبول. فما كان المسيح ابن مريم يعرى وما كان يضحى لأنه لم يكن يجوع ولم يكن يظمأ أصلا.

دعاء: اللهم رب ما دمت أني أعرى وأضحى، فإني أعوذ بك وحدك من كل نصب مسني من الشيطان بسبب جوعي وظمأي.

آمين

السؤال: ولماذا حصل الأمر على النحو الذي نعرفه بعد الأكل من الشجرة؟

جواب: لأن الشيطان استطاع أن ينزع عنّا لباسنا، فأرانا سوءاتنا، وعندها استطاع أن يرانا هو وقبيله من حيث لا نستطيع نحن أن نراه.

السؤال: وكيف حصل كل ذلك؟ أي كيف تم كل ذلك بمجرد الأكل من الشجرة؟

جواب: لأن تلك الشجرة التي أكل منها آدم وزوجه كانت شجرة تنبت بالدهن وصبغ للآكلين:

- ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ۝٢٠﴾ [المؤمنون: 20]

تخيلات: نحن نتخيل بأنه ما أن أكل آدم وزوجه من تلك الشجرة حتى حصل لهما تغيران، أحدهما داخلي بسبب الدُّهْنِ وثانيهما خارجي بسبب الَصِبْغٍ. فأدى التغير الداخلي (الدُّهْنِ) إلى تكوين الفضلات في داخل جسم آدم وزوجه، الأمر الذي أضطرهما إلى نزع لباسهما للتخلص منه بقضاء الحاجة في الخلاء (أي استخدام الحمام)، وأما التغير الخارجي فكان بسبب الصبغ الذي نتج عن الأكل من الشجرة، فأدى إلى تلوين أجسامهم، فبدت نتيجة لذلك تلك السوءة التي مكّنت الشيطان من أن يرانا هو وقبيله ومنعتنا نحن من رؤيته:

- ... إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ...

وهي السوءة نفسها التي طفق آدم وزوجه يخصفان عليهما من ورق الجنة:

- ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٢٢﴾ [الأعراف: 22]

وأصبح ذلك سلوك بشري لا ينقطع منذ تلك اللحظة، وهو تغطية السوءة (الجسم) باللباس الذي اضطر آدم وزوجه إلى نزعه عنهما. فأصبح الجوع والظمأ ملازما لنا لا نستطيع أن نتخلص منهما.

السؤال: أين ذهب ذلك اللباس؟ ماذا حصل لذلك اللباس الذي نزع عنهما؟

نتيجة مفتراة: لم يعد آدم وزوجه مؤهلين لأن يلبساه من جديد، فهبط آدم وزوجه من الجنة منزوع عنهما لباسهما الذي كان يواري سوءاتهما بعد أن بدت لهما سوءاتهما نتيجة الأكل من الشجرة.

أين هو هذا اللباس الذي نزعه الشيطان عن أبوينا؟

سؤال: هل توقف الأمر عند ذلك الحد؟ هل انتهى الأمر بذلك اللباس عند تلك الحادثة؟

جواب مفترى خطير جدا: نحن نظن أن الأب الثاني للبشرية (بعد آدم) هو إبراهيم الذي كان أمة:

- ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝١٢٠﴾ [النحل: 120]

لذا، نحن نفتري القول بأن واحدة من أسباب تجدد قصة البشرية عند إبراهيم على وجه التحديد هو ذلك اللباس، ولكن كيف يكون ذلك؟

بداية، نحن نعلم من صريح اللفظ القرآني بأن الدين عند الله هو الإسلام؟

- ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٩﴾ [آل عمران: 19]

فكان نوح (الذي جاء قبل إبراهيم) مسلما، أليس كذلك؟

- ﴿۞وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ٧١﴾ [يونس: 71]

ولكن المفارقة تكمن في أننا نعلم أيضا من صريح اللفظ القرآني أن إبراهيم هو من سمّانا مسلمين:

- ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨﴾ [الحج: 78]

السؤال المربك لنا: كيف يكون إبراهيم هو من سمانا مسلمين وفي الوقت ذاته يكون الدين عند الله (منذ الأزل) هو الإسلام؟

جواب مفترى: لا شك أن هذه هي لحظة تجدد رحلة البشرية على الأرض.

السؤال: متى كان ذلك؟

جواب: نحن نظن أن هذا قد حصل في تلك اللحظة التي أسلم فيها إبراهيم لرب العالمين:

- ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٣٠ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٣١﴾ [البقرة: 130-131]

لكن هذه الآية الكريمة تثير على الفور التساؤل التالي: من هو رب إبراهيم الذي دعاه أن يسلم كما في الجزء التالي من الآية الكريمة؟

- إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡ...

كما تثير التساؤل الآخر وهو: لماذا جاء رد إبراهيم على النحو التالي كما تشير تتمة الآية نفسها؟

- ... قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ

ليكون السؤال الآن: كيف برب إبراهيم يدعوه أن يسلم فيرد عليه بالقول بأنه قد أسلم لرب العالمين؟ أليس رب إبراهيم الذي دعاه أن يسلم (إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ) هو رب العالمين الذي أسلم له (قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ)؟

رأينا: نحن نظن أن رب إبراهيم الذي دعاه أن يسلم لم يكن رب العالمين وإنما كان أبوه آزر الذي كان يعبد الشيطان:

- ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝٤١ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ۝٤٢ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ۝٤٣ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ۝٤٤﴾ [مريم: 41-44]

فمفردة الرب لا تطلق فقط على رب العالمين، فهذا يوسف نفسه يطلب من صاحبه السجن الذي ظن أنه ناج أن يذكره عند ربه:

- ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ۝٤٢﴾ [يوسف: 42]

لذا كان آزر (نحن نظن) هو رب إبراهيم الذي دعاه أن يسلم، فحاول إبراهيم أن يثني أباه آزر (الذي هو ربه) عن أن يتخذ أصناما آلهة، فما نجح في تلك المهمة:

- ﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٧٤﴾ [الأنعام: 74]

وما أن دعاه ربه هذا (آزر) أن يسلم حتى جاء قرار إبراهيم بالإسلام ليس لربه هذا (آزر) وإنما بالإسلام لرب العالمين:

- ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٣١﴾ [البقرة: 131]
- ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٦٧﴾ [آل عمران: 67]

وهناك جاءت المنّة الإلهية على إبراهيم بأن أراه الله ملكوت السموات والأرض:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ۝٧٥﴾ [الأنعام: 75]

ولما كان ملكوت كل شيء بيد الله:

- ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٨﴾ [المؤمنون: 88]
- ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٨٣﴾ [يس: 83]

رأى إبراهيم ما في يد ربه. ومنذ تلك اللحظة تجدد الإسلام الذي وصى به إبراهيم ويعقوب بنيه جميعا:

- ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٣٢﴾ [البقرة: 132]

فكان يوسف مسلما:

- ﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠١﴾ [يوسف: 101]

وكذلك كان موسى وكل من آمن معه بمن فيهم السحرة الذين حشرهم فرعون ضد موسى ليوم الزينة:

- ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ۝١٢٦﴾ [الأعراف: 126]
- ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ۝٨٤﴾ [يونس: 84]

وانتهى الأمر بفرعون نفسه أن يكون مسلما:

- ﴿۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٩٠﴾ [يونس: 90]

وكذلك كان داوود وولده سليمان وكل من آمن معهم:

- ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ۝٢٩ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠ أَلَّا تَعْلُواْ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ۝٣١﴾ [النمل: 29-31]
- ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ۝٣٨﴾ [النمل: 38]
- ﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ۝٤٢﴾ [النمل: 42]

وكذلك كان عيسى ومن آمن معه من الحواريين:

- ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ۝١١١﴾ [المائدة: 111]

خروج عن النص: من هو المسلم؟

تدعونا هذه الجزئية على وجه التحديد أن نخرج لبعض الوقت عن موضوع حديثنا هنا وذلك لأهمية الطرح، والموضوع الذي سنعرج عليه في هذا الخروج هو التساؤل الكبير التالي: من هو المسلم؟

عندما كنت أسأل بعض المحاورين عن تعريفهم للمسلم، كان السواد الأعظم منهم يردون بالقول بأن المسلم هو الذي ينطق بالشهادة على النحو التالي:

أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله

وعندما كنت أفاجئهم بالسؤال عن هؤلاء الأمم السابقة، طالبا التوضيح من المحاورين الأكارم كيف جاء وصف من سبقوا محمدا في كتاب الله على أنهم مسلمون وهم الذين لم يشهدوا له بالرسالة، كانت علامات الارتباك تظهر في وجوههم على الفور، ولكن ربما هي العزة بالإثم التي كانت تأخذ الكثير منهم لينقلوا المسألة من المحاورة إلى المجادلة، فلا ينفكوا عن اتهامنا بتخريب العقيدة، ويكأن لسان حالهم يقولوا: إذا أنت لا تؤمن بديننا أو بعقيدتنا.

رأينا: صحيح أني لا أؤمن بعقيدتكم، ولكني لا شك أؤمن بدينكم، فنحن قد نختلف في العقيدة ولكننا نتفق في الدين وذلك لأن الدين عند الله الإسلام، وأظن نفسي مسلما. فاللهم اشهد بأني أسلمت لك وحدك.

لكن – يا سادة – بغض النظر عن الهدف المعلن أو المخفي عندنا أو عندكم: يبقى السؤال الذي لا مفر منه هو: كيف يمكن أن نفهم أن نوحا وإبراهيم ويعقوب ويوسف وموسى وعيسى وكل من تبعهم كانوا مسلمين وهم الذين لم يشهدوا لمحمد بالرسالة؟ فهل شهد إبراهيم لمحمد بالرسالة حتى أصبح مسلما؟ وهل شهد موسى بذلك؟ وهل شهد لوط ونوح (وهما اللذان خانتاهما امرأتهما) لمحمد بالرسالة؟ من يدري؟!!!

جواب مفترى: كلا وألف كلا. نحن نظن أن هؤلاء جميعا مسلمين بصريح اللفظ القرآني وإن لم يشهدوا لمحمد بالرسالة، وذلك لأن المسلم (نحن نؤمن يقينا) هو من شهد لله فقط بالوحدانية، أي من كانت عقيدته مفادها:

أشهد أن لا إله إلا الله

وإن لم يكن قد شهد لمحمد بالرسالة. فالشهادة لمحمد بالرسالة لا تدخل ولا تخرج الإنسان من دائرة الإسلام. رضي من رضي وغضب من غضب.

وهذا في ظننا ما يمكن أن ينقل الإسلام من دائرة الشعوبية (البداوة) إلى العالمية. فنحن نظن أنه لو أفلح سادتنا العلماء في توصيل هذه الرسالة للعالم أجمع، الرسالة التي مفادها أنك تصبح مسلما متى ما شهدت لله الخالق بالوحدانية، لما تردد العالم بأكمله (نحن نظن) أن يكون مسلما. ولكن لما رُبط الإسلام ربطا لا انفكاك فيه مع شخصية النبي محمد فقط، أخذ هذا الدين بالاندحار شيئا فشيئا. فالغالبية الساحقة من البشرية

ترضى بأن تشهد لله بالوحدانية وإن ترددت في الشهادة لمحمد بالرسالة. ولكل المنافحين والمدافعين عن النبي محمد بعاطفتهم الجياشة (وإن كنا قد نشك بقدراتهم العقلية) نذكرهم بقوله تعالى:

- ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران: 144]

بالضبط كما كان المسيح مثلا:

- ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المائدة: 75]

فمحمد لم يكن بدعا من الرسل:

- ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾﴾ [الأحقاف: 9]

إلا (نحن نظن) في عقيدة من تطيروا به لدرجة أنهم قد ظنوا بأن الكون كله قد خلق من أجله. ولو أمعنوا التفكر في الآية الكريمة التالية لما وجدوا محمدا أكثر من متّبع لملّة إبراهيم:

- ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: 161-163]
- ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل: 123]

فكيف سنتلاقى مع من كانت عقيدتهم أن محمد سيشفع لهم ليخرجهم من النار، وهذا محمد نفسه يخاطب في القرآن بالآية الكريمة التالية:

- ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾﴾ [الأحقاف: 9]

فلا شك أن سادتنا العلماء مدينون لنا بالتوضيح كيف سيخرجنا محمد من النار وهو الذي لا يدري ما سيفعل به؟!

ولا شك أنهم مدانون لنا بالتوضيح كيف سيخرجنا محمد من النار وهو الذي خرج (كما تقول بعض أحاديثهم المروية عنه) يصيح بفاطمة والعباس أنه لن يغني عنهم من الله شيئا؟ من يدري؟!!!

لندع هذا الحديث جانبا، لنقول إن أحسن الدين (لا شك عندنا) هو اتباع ملة أبينا إبراهيم كما جاء بصريح اللفظ القرآني:

- ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ١٢٥﴾ [النساء: 125]

دعاء: اللهم اشهد بأني قد أسلمت وجهي لك وحدك واتبعت ملة إبراهيم حنيفا - آمين

وهو الذي كان أمة:

- ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٢٠﴾ [النحل: 120]

ولو دققنا في سلوك أتباع جميع الديانات السماوية (اليهود والنصارى والمسلمين) لوجدنا أنهم يرضون جميعا بإبراهيم، فاليهود يرضون بإبراهيم، وكذلك يرضى به النصارى كما نرضى به نحن المسلمون. فلو انطلق لسان حال سادتنا العلماء بالدعوة إلى ملة إبراهيم لما وجدنا أحدا ينكر عليهم ذلك:

- ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ١٢٥﴾ [النساء: 125]

فإبراهيم هو أمة لأنه (نحن نظن) هو من يرضى به الجميع فيجتمعون عنده (كما هيئة الأمم المتحدة التي تجتمع تحت مظلتها كل أمم الأرض مثلا). وربما لهذا كان إبراهيم (نحن نظن) أمة من دون رسل الله أجمعين. فمحمد ليس أمة لأنه ليس محط إجماع من كل أتباع الديات السماوية، وكذلك عيسى وموسى ونوح. وانفرد إبراهيم من بينهم جميعا ليكون هو أمة.

إن هذا المنطق البسيط يقتضي عدم المغالاة، لأن في المغالاة انحراف للعقائد، كما حصل مع كل الأمم التي سبقتنا. ومن هنا ربما يأتي فهمنا للآية الكريمة التالية:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٦٢﴾ [البقرة: 62]

فلا أظن أن لك الفضل – عزيزي القارئ المسلم – إن كنت قد ولدت في عائلة مسلمة على شخص آخر وُلِد في عائلة مسيحية أو يهودية ونشأ على ذلك. لأن الفضل هو فيما تختاره أنت بنفسك لا فيما تجد فيه نفسك دون اختيار منك.

عودة على ما سبق

علاقة قصة اللباس في الجنة بقصة إبراهيم.

نحن نعود إلى صلب الموضوع بعد هذا الانعطاف بالافتراء التالي: تجدد الإسلام (فتجددت رحلة البشرية) عند إبراهيم (فكان هو الأب الثاني للبشرية).

السؤال: ما علاقة هذا كله بقصة اللباس (لباس آدم وزوجه في الجنة)؟

رأينا المفترى والخطير جدا: لقد كان إبراهيم هو من أُلبس ذلك اللباس الذي نزع عن آدم من ذي قبل، ليعيدنا إلى تلك الملة:

- ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨﴾ [الحج: 78]

وإلى المكان نفسه عاد إبراهيم لابسا ذلك اللباس ليرفع القواعد من البيت الذي كان أول بيت قد وضع للناس:

- ﴿قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٩٥ إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩٦ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩٧﴾ [آل عمران: 95-97]

السؤال: متى ألبس إبراهيم ذلك اللباس؟ ومتى جاء إبراهيم إلى ذلك البيت أول مرة لابسا ذلك اللباس؟

رأينا: نحن نظن أن ذلك حصل عندما ألقي بإبراهيم في النار، فأخرجه الله سالما من النار، لابسا ذلك اللباس الذي نزع عن آدم من ذي قبل:

- ﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩﴾ [الأنبياء: 69]

الدليل

نحن نظن أن النار كانت (بأمر من ربها) بردا وسلاما على إبراهيم نفسه، لكنها (نحن نفتري القول) لم تكن كذلك على ما كان يغطي إبراهيم سوءته به عندما ألقوه في النار:

- ﴿قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ ٩٧﴾ [الصافات: 97]

فالنار (نحن نظن) قد التهمت ما كان يلبس إبراهيم قبل أن يلقى فيها، فما خرج إبراهيم لابسا ما كان يغطي سوءته قبل أن يلقى في النار لأن النار لم تكن بردا وسلاما إلا على إبراهيم نفسه. كما نعتقد بأن النار قد التهمت شعر إبراهيم وبعض أطراف بدنه (كأظفاره) التي هي ليست جزءا من إبراهيم نفسه. فأنت الشخص نفسه بغض النظر عن تسريحة الشعر التي تظهر بها أو الملابس التي تخرج بها علينا.

تخيلات مفتراة: ما أن ألقى القوم بإبراهيم في النار التي أعدوها له حتى التهمت تلك النار ما كان يلبس إبراهيم من الملابس التي كانت تغطي سوءته، وشعره، وشيئا من أظفاره، ولكن نعمة الله على إبراهيم لم تكن لتتوقف عند نجاته من النار فقط، وإنما ألبسه الله (نحن نتخيل) لباسا ليواري به سوءته بعد أن أنقذه من النار. فخرج إبراهيم مستور السوءة ولكن بلباس جديد، فتجددت رحلة البشرية في تلك اللحظة مرة أخرى.

السؤال: ماذا كان ذلك اللباس؟

رأينا: إنه اللباس نفسه الذي استطاع الشيطان أن ينزعه عن آدم عندما دلاه وزوجه بغرور.

- ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٢﴾ [الأعراف: 22]

السؤال: وماذا كان شكل ذاك اللباس؟

رأينا المفترى: نحن نظن أنه يشبه في شكله ما يلبسه المُحرِم عند أداء فريضة الحج.

السؤال: متى حصل الحج الأول إلى البيت؟

رأينا: كان أول من حج البيت هو إبراهيم؟

سؤال: ومتى حصل ذلك؟

رأينا: مباشرة بعد أن أخرجه الله من النار:

- ﴿قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ ٩٧ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ٩٨ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٩٩﴾ [الصافات: 97-99]
- ﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٦ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧﴾ [العنكبوت: 26-27]

الفرق بين "ذاهب" و "مهاجر" في سياق سفر إبراهيم.

الدليل

لو حاولنا أن نتدبر السياقين القرآنيين السابقين اللذين يصوران خروج إبراهيم من النار، لوجدنا أنهما قد وردا بلفظين مختلفين ففي حين أن أحدهما جاء بلفظ "ذاهب":

- ﴿قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ ٩٧ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ٩٨ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٩٩﴾ [الصافات: 97-99]

جاء الآخر بلفظ مهاجر:

- ﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٦ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧﴾ [العنكبوت: 26-27]

السؤال: ما الفرق بين الاثنين؟ ما الفرق بين أن يكون إبراهيم ذاهبا وأن يكون مهاجرا؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن المهاجر هو الذي يترك بلاده الأصلية إلى بلاد غيرها بهدف المكوث في تلك البلاد الجديدة، لذا فقد هاجر إبراهيم تاركا موطنه الأصلي، قاصدا بلادا جديدة ليقيم فيها، فكانت هجرته في ظننا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين وإلى هناك هاجر معه لوط، وهناك رزق الرجل بإسحق كهبة ربانية:

- ﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٦ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧﴾ [العنكبوت: 26-27]

نتيجة مفتراة (1): كانت هجرة إبراهيم ولوط إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين وارتبطت بها الهبة الربانية لإبراهيم بإسحق ويعقوب.

ولكن الذاهب – في المقابل – هو الذي يترك بلاده الأصلية، ويقصد بلادا أخرى لفترة محدودة من الزمن ربما لغرض الزيارة فقط، فلا يمكث فيها طويلا، لذا كان ذهاب إبراهيم إلى مكان البيت العتيق، وإلى هناك ذهب وحده فلم يصحبه لوط في رحلته تلك، وهناك جاءته البشرى بإسماعيل. و – إن شئت – انظر الآية في سياقها الأوسع:

- ﴿قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ ٩٧ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ٩٨ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٩٩ رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠٠ فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ١٠١ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢﴾ [الصافات: 97-102]

نتيجة مفتراة (2): كان ذهاب إبراهيم وحده إلى البيت العتيق، وهناك جاءته البشرى بإسماعيل، فارتبطت بها.

وربما يفسر منطقنا المفترى هذا سبب أن يكون إبراهيم قد اختار لإسماعيل وأمه مكان البيت العتيق:

- ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ٢٦ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ٢٧ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ٢٨ ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ٢٩﴾ [الحج: 26-29]

وسبب أن يختار لإسحق وأمه الأرض التي باركنا فيها للعالمين:

- ﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٦ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧﴾ [العنكبوت: 26-27]
- ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ٧١ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ ٧٢﴾ [الأنبياء: 71-72]

(للتفصيل انظر سلسلة مقلاتنا تحت عنوان: لماذا قدم لوط بناته بدلا من ضيوفه؟)

نتيجة مفتراة (1): توجه إبراهيم إلى مكان البيت العتيق زائرا، فكان ذاهبا

نتيجة مفتراة (2): توجه إبراهيم على الأرض التي باركنا فيها ماكثا، فكان مهاجرا

السؤال: متى حصل ذلك؟ وكيف حصل ذلك؟

رأينا: ما أن خرج إبراهيم من النار لابسا ذلك اللباس الذي ألبسه إياه ربه ليستر به سوءته حتى ذهب إلى ربه طالبا الهداية:

- ﴿قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ۝٩٧ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ۝٩٨ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۝٩٩ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠٠ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ۝١٠١ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٠٢﴾ [الصافات: 97-102]

فكانت مناسك الحج الأولى، فقام إبراهيم بأداء شعائر الحج كلها، لابسا ذاك الذي أصبحنا نعرفه (وربما لا نعلم سببه) بلباس الإحرام، متجردا من كل ما هو مخيط، لا يلبس إلا قطعة واحدة من اللباس ليستر به سوءته، محلقا شعرة (ربما بسبب تلك النار التي التهمته)، ومقصرا أظفاره (ربما بسبب تلك النار أيضا)، فأصبحت تلك من شعائر الحج على مر الزمان – إنها تطبيق ملّة أبينا إبراهيم.

تخيلات: كان أول ما فعله إبراهيم بعد خروجه من النار هو أن يذهب (في رحلة قصيرة زمنيا) إلى مكان البيت العتيق، طالبا الهداية من ربه. فأدى مناسك الحج هناك. وما أن فرغ من ذلك حتى توجه من هناك (من تلك الزيارة القصيرة التي راح إليها ذاهبا) إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين مهاجرا، قاصدا المكوث فيها إلى الأبد. وهناك أصبح فيهم علم الكتاب والنبوة:

- ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢٦ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٢٧﴾ [العنكبوت: 26-27]

أين ذهب اللباس بعد موت إبراهيم – لإسماعيل أم إسحق؟

إبراهيم (نحن لا زلنا نتخيل) لم يصل إلى تلك الأرض لابسا ذلك الإحرام الذي تطوّف به عند البيت العتيق، ولكنه عاد لابسا ملابس أخرى غير ذلك اللباس. فتحلل من إحرامه، وعاد ليمارس حياته الطبيعية المعتادة.

تخيلات مفتراة: نحن نظن أن إبراهيم لم يكن ليفرط في ذلك اللباس الذي ألبسه الله إياه يوم أن أخرجه سالما من النار ليواري به سوءته. فحافظ إبراهيم على ذلك الإرث النبوي، وما أن مات إبراهيم حتى انتقل ذلك الإرث النبوي إلى واحد من أولاده وهو إسحق.

السؤال: لماذا؟ لماذا ذهب ذلك الإرث النبوي إلى إسحق؟ لِم لَم ينتقل إلى إسماعيل؟ ألم يكن إسماعيل هو الولد الأكبر؟ ألم يكن إسماعيل هو من جاءت إبراهيم البشرى به عند البيت الحرام؟ ألم يكن إسماعيل إذن هو الأحق بذلك الإرث النبوي من أخيه إسحق؟

رأينا: نحن نظن (ربما مخطئين) أن هذا كان أحد الأسباب التي دعت إبراهيم أن يفصل بين ولديه إسماعيل وإسحق. فلو بقي إسماعيل في المكان نفسه مجاورا أخاه إسحق لربما (نحن نتخيل) نشب خلاف

بينهما حول ذلك الإرث النبوي كما حصل مع يوسف وإخوته، ولربما استطاع الشيطان أن ينزغ بين إسحق وإسماعيل كما نجح في تلك المهمة مع يوسف وإخوته:

- ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ١٠٠﴾ [يوسف: 100]

لقد كانت من حكمة إبراهيم أن يفصل بين الإخوة قبل أن يدخل الشيطان بينهما

(للتفصيل انظر سلسلة مقالاتنا تحت عنوان: لماذا قدم لوط بناته بدلا من ضيوفه؟)

لكن يبقى التساؤل نفسه قائما: لماذا لم ينتقل ذلك اللباس (الإرث النبوي) إلى إسماعيل؟ ولماذا انتهي بين يدي إسحق (كما تزعم مفتريا القول من عند نفسك)؟ يسأل صاحبنا.

رأينا: نحن نظن أن السبب في ذلك كان حكمة الأم. فالأمر كان تدبيرا واضحا من تلك العجوز (أم إسحق) صاحبة الخبرة الطويلة في بعلها إبراهيم:

- ﴿قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ٧٢﴾ [هود: 72]

وهي التي كانت قائمة عندما جاءت رسل رب إبراهيم بالبشرى بإسحق:

- ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١﴾ [هود: 71]

فلقد كانت تلك المرأة صاحبة حنكة ودهاء بدليل استقبالها الجميل (فَضَحِكَتْ) لرسل رب إبراهيم في بيتها.

لكن مثل هذه الخبرة كانت تنقص والدة إسماعيل التي أقبلت في تلك اللحظة بصرة فصكت وجهها واعتدت بالكلام على ضرتها التي نعتتها بالعقم:

- ﴿فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ٢٩﴾ [الذاريات: 29]

(للتفصيل انظر سلسلة مقالاتنا تحت عنوان: لماذا قدم لوط بناته بدلا من ضيوفه؟)

النتيجة المفتراة: ما أن شارف إبراهيم على الموت حتى كانت تلك المرأة العجوز تدبر أمرها جيدا في الحصول على ما تستطيع الحصول عليه من مقتنيات إرث النبوة لولدها إسحق، فاستطاعت أن تحوز على ذلك اللباس،

فألبسته ولدها إسحق، فكان في ذلك تمام نعمة من الله على إسحق كما كان على والده إبراهيم من قبله كما جاء على لسان يعقوب:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦﴾ [يوسف: 6]

فأصبح ذلك اللباس قميصا يلبسه إسحق (العليم) من بعد والده إبراهيم.

وما أن قضى الموت على إسحق حتى انتهى ذلك القميص بيد يعقوب، لكن جاءت هنا مفارقة عجيبة، ألا وهي أن يعقوب لم يلبس ذلك القميص وإن كان في حوزته. السؤال لماذا؟

جواب: لأن والده إسحق لم يلبسه إياه؟

سؤال: لماذا؟

جواب: لأن يعقوب (نحن نظن) كان قد ولد بعد وفاة والده إسحق

الدليل

- ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١﴾ [هود: 71]

الدليل

نحن نظن أنه عندما يموت الإنسان تاركا ذرية له أنجبها وعاش معها فترة من الزمن قبل موته، فإنه يتركهم خلفه وليس وراءه. وانظر – إن شئت في الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا ٩﴾ [النساء: 9]

ولكن عندما يموت الإنسان ويترك ذرية هو لم يرها بأم عينه في حياته، كأن يموت الإنسان ولازال المولود في بطن أمه ليأتي في قادم الأيام بعد وفاته، فإن ذلك يكون من وراءه. لأن ما كان ورائك (نحن نظن) هو ما لا تراه أنت بأم عينك. فهؤلاء نفر هم وراء النبي ومن يصلون معه، لأن النبي ومن يصلون معه لا يرونهم:

- ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمۡ فَأَقَمۡتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلۡتَقُمۡ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُم مَّعَكَ وَلۡيَأۡخُذُوٓاْ أَسۡلِحَتَهُمۡۖ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلۡيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمۡ وَلۡتَأۡتِ طَآئِفَةٌ أُخۡرَىٰ لَمۡ يُصَلُّواْ فَلۡيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلۡيَأۡخُذُواْ حِذۡرَهُمۡ وَأَسۡلِحَتَهُمۡۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ

لَوۡ تَغۡفُلُونَ عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ وَأَمۡتِعَتِكُمۡ فَيَمِيلُونَ عَلَيۡكُم مَّيۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن كَانَ بِكُمۡ أَذٗى مِّن مَّطَرٍ أَوۡ كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسۡلِحَتَكُمۡۖ وَخُذُواْ حِذۡرَكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ١٠٢﴾ [النساء: 102]

وهذه جهنم من وراء بعض الناس لأنهم لا يرونها بعد، حتى وإن كانت جهنم تراهم، فجهنم هي التي من ورائهم:

- ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ ١٦﴾ [إبراهيم: 16]

وقد أُمر المسلمون أن يسألوا نساء النبي من وراء حجاب فلا ينظروا إليهن:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ٥٣﴾ [الأحزاب: 53]

وقد كان نفر من المسلمين ينادون النبي من وراء الحجرات:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ٤﴾ [الحجرات: 4]

وكذا هي حالة الذين يقاتلون من وراء جدر حيث تنحجب الرؤيا المباشرة:

- ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۢۚ بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ١٤﴾ [الحشر: 14]

والله – لا شك – لا يكلم بشرا إلا من وراء حجاب، فلا يستطيع بشر أن يرى الله، وإن كان الله لا شك يستطيع أن يرانا جميعا:

- ﴿۞وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ ٥١﴾ [الشورى: 51]

وربما لهذا السبب خاف زكريا الموالي من وراءه، فهو لا يخافهم مادام أنه على قيد الحياة، ولكن خوفه منهم مصدره ما سيحل في لاحق الأيام بعد أن يفارق زكريا الحياة:

- ﴿وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ٥﴾ [مريم: 5]

(للتفصيل انظر مقالتنا تحت عنوان: والله من ورائهم محيط وكذلك سلسلة مقالات: كيف تم خلق عيسى بن مريم؟)

نتيجة: نحن نظن أن الذرية الذين يتركهم الشخص وراءه هم ذريته الذين لم يعاصرهم، فهم من ولدوا له بعد وفاته بالموت. كأن تكون الأم حاملا ويموت عنها زوجها، وما هي إلا أيام أو بعض أشهر حتى تضع ما في بطنها، فيكون ما وضعته هو ذرية جاء من وراء والده.

نتيجة مفتراة: أما الذرية الذين يموت الأب عنهم بعد ولادتهم، فيكون قد عاصرهم ورآهم بأم عينه، فهم (في ظننا) الذرية التي جاءت من خلفه.

- ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٩﴾ [النساء: 9]

نتيجة مفتراة: نحن نظن أنه لمّا كان يعقوب قد جاء من وراء إسحق، فإن إسحق (الوالد) لم يشهد مولد يعقوب بنفسه. فقد مات الأب (إسحق) قبل أن يرى ولده يعقوب بأم عينه.

السؤال: ما علاقة هذا بعدم تمام نعمة الله على يعقوب؟

رأينا: لما كان إسحق الوريث الشرعي لإبراهيم كان هو الذي ورث عنه هذا اللباس (القميص)، ولما كان إسحق قد عايش والده إبراهيم، كان إبراهيم هو من اتخذ القرار (ربما بوحي رباني) أن ينقل هذا الإرث إلى ولده من بعده. فكان إسحق نبيا من الصالحين:

- ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١١٢﴾ [الصافات: 112]

ولما كان إسحق قد عاصر والده إبراهيم، فقد تلقى العلم على يديه، فلقد كان إسحق – بصريح اللفظ القرآني – غلاما عليما:

- ﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝٥٢ قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ۝٥٣﴾ [الحجر: 52-53]
- ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝٢٧ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُواْ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ۝٢٨﴾ [الذاريات: 27-28]

نتيجة مهمة جدا جدا: كان إسحق عليما

ولكن المتدبر في بقية السياقات القرآنية يجد شيئا غاية في الغرابة بخصوص يعقوب وهو أن يعقوب كان نافلة:

- ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ ٧٢﴾ [الأنبياء: 72]

السؤال: لماذا كان يعقوب نافلة؟

جواب: لا شك عندنا أن النافلة هي زيادة تضاف إلى الأصل كتهجد الليل الذي هو نافلة لمن قامه:

- ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩﴾ [الإسراء: 79]

نتيجة مفترة: ما كان يعقوب في تلك السلالة الطاهرة إلا نافلة

إبراهيم – إسحق – يعقوب – يوسف

ولا يقف الأمر عند هذا الحد، لنجد أن يعقوب لم يكن عليما (كوالده إسحق) ولكنه كان "ذو علم" فقط. وأنظر – إن شئت – في الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٦٨﴾ [يوسف: 68]

نتيجة: ما كان يعقوب عليما ولكنه كان ذا علم في تلك السلالة الطاهرة:

إبراهيم – إسحق – يعقوب – يوسف

ولكن يوسف (ولد يعقوب) كان عليما كجده إسحق:

- ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ٥٥﴾ [يوسف: 55]

لتصبح الصورة الآن في تلك السلالة الطاهرة على النحو التالي:

إبراهيم – إسحق – يعقوب – يوسف

عليم – ذو علم – عليم

السؤال: أين كانت تتمة النعمة الإلهية؟

جواب: كانت على إبراهيم (المصدر) وعلى إسحق (العليم) وعلى يوسف (العليم)، ولكنها لم تتم على يعقوب (ذو العلم)، وانظر – إن شئت – في قول يعقوب نفسه لولده يوسف:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦﴾ [يوسف: 6]

تخيلات: ما أن ولد يعقوب حتى كان والده إسحق قد مات، فما تحصل ليعقوب العلم، وإن كان قد تحصل له شيئا من العلم (ذو علم). وهنا وجد يعقوب أنه وريث شرعي لمقتنيات بيت النبوة، ولكن لم يكن هناك من يعترف له بذلك مادام أنه لم يتحصل على العلم الذي يؤهله لذلك. فوالده إسحق قد توفاه الله بالموت قبل مولده، فبقي نافلة. وهنا ظل يعقوب ينتظر تتمة النعمة الإلهية له بالعلم، فما تحصل عليها، فما استطاع أن يلبس ذلك القميص (الذي وصله من عند أبويه إبراهيم وإسحق). فقضت مشيئة الله بأن لا يتم نعمته على يعقوب نفسه، فما كان يعقوب أكثر من حلقة وصل (نافلة) بين من كان عليما (والده إسحق) ومن سيصبح عليما (ولده يوسف). فاحتفظ يعقوب بذلك الإرث النبوي حتى نقله إلى صاحب الحق فيه وهو ولده يوسف.

هذا والله أعلم

السؤال: أين ذهب هذا القميص بعد يوسف؟

هذا ما سنحاول النبش فيه في الجزء القادم إن شاء الله.

فالله وحده أسأل أن يأذن لنا بعلم لا ينبغي لغيرنا. وأسأله وحده أن يعلمني وصاحبي عليّا ما لم نكن نعلم، وأن يجعل فضله علينا عظيما، وأن يهدينا إلى نوره الذي أبى إلاّ أن يتمّه ولو كره الكافرون، ونعوذ به أن نكون ممن يفترون عليه الكذب أو ممن يقولون عليه ما ليس لهم بحق، ونعوذ به أن نكون ممن يصدون عن سبيله أو ممن يبغونها عوجا - إنه هو العليم الحكيم.

وأساله وحده أن ينفذ قوله بمشيئته وإرادته لي الإحاطة بشيء من علمه لا ينبغي لأحد غيري، إنه هو الواسع العليم - آمين

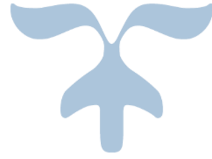
المدّكرون: رشيد سليم الجراح & علي محمود سالم الشرمان
بقلم: د. رشيد الجراح
21 أيار 2014
د. رشيد الجراح مركز اللغات، جامعة اليرموك



قصة يوسف – الجزء الخامس والعشرون

"اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا"

(2)





الجزء الخامس والعشرون – اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا (2)

تمهيد

أين ذهب القميص بعد يوسف؟

سنتابع في هذا الجزء حديثنا المفترى من عند أنفسنا عن قصة قميص يوسف، لنطرح التساؤل التالي:

أين ذهب قميص يوسف هذا الذي ألقاه على وجه أبيه فارتد بصيرا؟

- **اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا**

رأينا المفترى من عند أنفسنا: لما كان هذا القميص (نحن نظن) هو جزء من الإرث النبوي الذي وصل إلى يوسف عن طريق والده يعقوب الذي احتفظ به من عند والده إسحق الذي ورثه من أبيه إبراهيم الذي ألبسه الله إياه يوم أخرجه من النار ليواري به سوءته بعد أن التهمت النار لباسه الذي كان يغطي سوءته عندما ألقاه القوم في النار، ما كان من و...صَلهُ هذا الإرث العظيم ليفرط فيه، وذلك لأن مصدره هو ذلك اللباس نفسه الذي استطاع الشيطان أن ينزعه عن أبوينا في الجنة، فأخرجهما مما كانا فيه:

- ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف: 27]

وقد افترينا الظن في الجزء السابق أن اللباس الذي نزعه عنهما كان جزءا مما كانا فيه:

- ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ [البقرة: 36]

فاضطرا للهبوط منها، مادام أن الحاجة قد أصبحت ملحة لهما للتغوط (العري) والتبول (التضحى)، لأن حياتهما في الجنة كانت لا تتطلب ذلك إطلاقا قبل الوقوع في المعصية:

- ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ [طه: 117-119]

(للتفصيل انظر الجزء السابق)

السؤال: أين ذهب ذلك اللباس (القميص) إذن بعد يوسف؟

بماذا خرج إبراهيم من النار؟

عند محاولتنا الإجابة على هذا التساؤل وطرح تصور أشمل لأحداث القصة نفسها ينسجم مع القصص القرآني في مواطن أخرى، وجدنا أن الحاجة ملحّة لطرح التساؤل التالي أيضا: هل كان اللباس (القميص) هو فقط ما خرج به إبراهيم من النار بعد أن ألقاه القوم فيها؟

رأينا المفترى: حاولنا افتراء القول من عند أنفسنا في مقالة سابقة لنا (لماذا قدم لوط بناته بدلا من ضيوفه؟ الجزء الثالث عشر) بأن إبراهيم قد خرج من النار بشيئين اثنين وهما:

1. القميص (أي اللباس) الذي ستر الله به عورة إبراهيم
2. العصا التي مكنته من الخروج من ذلك الجحيم سالما دون أذى

تفاصيل مشهد إلقاء إبراهيم في الجحيم

الدليل

لو دققنا في السياقات القرآنية الخاصة بقصة إلقاء إبراهيم في النار، لوجدنا القوم يلقون به في الجحيم من فوق بنيان مرتفع جدا:

- ﴿قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ ۝٩٧﴾ [الصافات: 97]

فكانت الضرورة تستدعي أن يُلقى بإبراهيم من مكان مرتفع، بعيد عن ألسنة اللهب حتى لا تصيب من ألقى إبراهيم في النار بأذى (فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ)، فمن قام بفعل إلقاء إبراهيم من القوم من فوق ذلك البنيان لابد أنه كان بمأمن من النار نفسها. وقد حاولنا في الجزء الثالث عشر أن نطرح التساؤلات التالية الخاصة بإلقاء إبراهيم في النار:

1. كيف تم إلقاء إبراهيم في النار؟
2. كيف نجا إبراهيم من السنة اللهب؟
3. كيف خرج إبراهيم منها سالما دون أن ينكسر له عظم مادام أنه قد ألقي من فوق بنيان؟

وبعد محاولتنا تدبر ما جاء في كتاب الله حول كيفية إلقاء إبراهيم في النار من الآية الكريمة التالية:

- ﴿قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ ۝٩٧﴾ [الصافات: 97]

وجدنا أنه بإمكاننا تصوير المشهد على النحو التالي:

⇐ أن القوم قد قاموا ببناء بنيان خاص ليتم إلقاء إبراهيم من فوقه في الجحيم (ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا)، فالبنيان لم يكن أساسا موجودا ولكن تم تجهيزه لتلك الغاية فقط.

⇐ أن عملية الإلقاء قد تمت بشكل قوسي من الأعلى إلى الأسفل لأنها حركة إلقاء كحركة إلقاء السحرة عصيهم وحبالهم مثلا، الخ. فمن يلقى من فوق بنيان مرتفع إلى أسفل (كالجحيم) لا ينزل بشكل مستقيم، ولكن بشكل قوسي يتناسب طردياً مع ارتفاع البنيان، فكلما ارتفع البنيان زادت المسافة التي سيحط بها الجسم الملقى من فوقه إلى الأسفل، فيبتعد الجسم الملقى من فوق البنيان عن البنيان نفسه بمقدار ارتفاع البنيان فوق الأرض كما في الشكل التالي:



k6848442 www.fotosearch.com

وربما يدلّنا هذا – حسب منطقنا المفترى من عند أنفسنا – بأن البنيان الذي بنوه لإبراهيم لم يكن ملاصقاً للجحيم التي سيلقونه بها، وفي هذا تصور طبيعي لأن النار ستكون في تلك اللحظة مشتعلة، فمن البديهي إذن أن يكون البنيان الذي سيلقون بإبراهيم من فوقه بعيداً عن ألسنة اللهب، لأن نفرا من القوم سيكونون متواجدين فوق البنيان ليقوموا هم بأنفسهم بإلقاء إبراهيم في الجحيم (فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ)، إذن لابد أنهم قد حسبوا الأمر بطريقة رياضية صحيحة تجعلهم أنفسهم في مأمن من ألسنة اللهب المتطاير (النار)، وربما يرشدنا هذا إلى الظن بأن البنيان كان مرتفعا جداً ليحط إبراهيم في سواء الجحيم، لأن الآية الكريمة نفسها تدلنا أيضا بأنه كان من المفترض أن يحط إبراهيم في الجحيم:

- ﴿قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ ٩٧﴾ [الصافات: 97]

ونحن نتصور (ربما مخطئين) بأن الجحيم هو مكان منخفض تشتعل في داخله النار، فالجحيم – في تصورنا – هو وعاء النار، ولكن لابد أن يكون مكانا منخفضا كالحفرة (أو الوادي)، بدليل أن من أراد أن ينظر فيه فعليه أن يطّلع اطلاعا:

- ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ٥٥﴾ [الصافات: 55]

وليس أدل على انخفاض الجحيم مما جاء في قوله تعالى:

- ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ۝٦٤﴾ [الصافات: 64]

وهنا ربما تأتي المفارقة التي نود أن نجلب انتباه القارئ الكريم لها، وهي أن الأمر الإلهي قد صدر للنار بأن تكون برداً وسلاماً على إبراهيم نفسه:

- ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ۝٦٩﴾ [الأنبياء: 69]

فسلم إبراهيم من النار بأمر ربها، ولكن ألا ترى – عزيزي القارئ – بأنه لم يصدر أمر إلهي مماثل للجحيم؟ فكيف إذن حطّ إبراهيم من أعلى البنيان إلى الجحيم كل هذا المسافة الشاهقة جدا ولم يصب بأذى؟ نحن نسأل.

تخيلات: نحن نتخيل أن القوم قاموا بتشييد بناء مرتفع جداً يلقوا بإبراهيم من فوقه، وقاموا – في الوقت ذاته – بحفر ما يشبه الوادي (أو أن ذلك الواد كان أصلاً موجودا في جغرافية المنطقة ذاتها) ليكون هو الجحيم الذي سيستقر فيه إبراهيم بعد أن يلقوه فيه من فوق البنيان الذي بنوه على شفا تلك الحفرة، وقاموا بإشعال نار عظيمة في ذلك الوادي (الجحيم) أو أنها أصلاً كانت مشتعلة على الدوام هناك (كأن تكون بركاناً نارياً مثلاً)، وحملوا إبراهيم إلى أعلى البنيان، وألقوا به من أعلى البنيان إلى سواء الجحيم.

إذا كان هذا هو فعلا ما حدث، ألا يحق لنا إذن أن نطرح التساؤلات التالية:

1. كيف خرج إبراهيم من الجحيم؟
2. ألم يصب إبراهيم بأذى بسبب إلقاءه من فوق ذلك المكان المرتفع (البنيان) إلى ذلك المكان المنخفض (الجحيم)؟ ألم تتكسر بعض عظام إبراهيم بسبب ذلك السقوط؟ ألم يتأذى جسم إبراهيم بسب الإلقاء من الأعلى إلى أسفل؟
3. كيف استطاع إبراهيم أن يخرج من تلك الحفرة (الجحيم) التي سقط بها؟

إن أحد التساؤلات الرئيسة التي حاولنا الخوض فيها في (لماذا قدم لوط بناته بدلا من ضيوفه؟ الجزء الثالث عشر) ونود أن نجلب انتباه القارئ لها في هذا الجزء من الكتاب هو: ماذا حل بإبراهيم نتيجة سقوطه من فوق البناء (المرتفع) في سواء الجحيم (المنخفض)؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن بأن إبراهيم لم يصب بأذى نتيجة ذلك السقوط (الإلقاء) بسبب العصا، التي ساعدته في سقوطه من الأعلى إلى أسفل ومن ثم في خروجه من الجحيم الذي أُلقي فيه سالما دون أذى.

إن صح هذا الافتراء، فإننا مدينون للقارئ الكريم بالإجابة على التساؤلات التالية:

⇐ أين الدليل على هذه التخريجات المفتراة من عند أنفسنا؟
⇐ من أين جاءت تلك العصا؟
⇐ ماذا كانت الآلية التي تعمل بها تلك العصا حتى ساعدت إبراهيم في سقوطه من أعلى إلى أسفل؟
⇐ أين ذهبت تلك العصا؟
⇐ الخ.

العصا كانت أداة نجاة إبراهيم

حاولنا في ذلك الجزء أن نربط قصة إبراهيم هذه بقصة العصا التي جاء خبرها مفصلا في قصة موسى، والتي تطرقنا لها بشيء من التفصيل في سلسلة مقالاتنا تحت عنوان: باب السامري . وقد كان الافتراء الأكبر الذي حاولنا تسويقه حينئذ هو أن العصا التي كانت بيمين موسى هي نفسها تلك العصا التي ساعدت إبراهيم للخروج من النار التي ألقي فيها، فمكنته من الخروج من الجحيم سالما. وقد استنبطنا الدليل على ذلك (ربما مخطئين) من السياق القرآني التالي:

- ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝١٧ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ۝١٨ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ۝١٩ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۝٢٠ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ۝٢١﴾ [طه: 17-21]

وقد كانت نتيجة محاولتنا تدبر هذا السياق القرآني هو تقديم الافتراء التالي: لم يكن موسى هو أول من امتلك تلك العصا، وذلك لأن الله قد تعهد بنفسه بأن يعيد تلك العصا نفسها سيرتها الأولى:

- ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ۝٢١﴾ [طه: 21]

ليكون السؤال الذي يطرح نفسه على الفور هو: ما هي سيرة تلك العصا الأولى التي تعهد الله لموسى بأن يعيدها؟

وقد دعانا طرح هذا السؤال إلى طرح سؤال آخر ربما لا يقل أهمية عن سابقه وهو: لم جعل الله سر "قوة" موسى (إن صح القول) في عصا يحملها الرجل معه بيمينه؟

جواب مفترى: إننا نظن أنه لولا أن تلك العصا ذات دلالة "وسيرة" عظيمة سابقة، وأنها مهمة بذاتها، لما كانت جل "قوة" موسى متركزة في تلك العصا، فالله – من حيث المبدأ – يستطيع أن يؤيد موسى في قصته مع فرعون بطرق أخرى كثيرة ومتعددة، والله – من حيث المبدأ – يستطيع أن يؤيد موسى ليقهر السحرة بطريق أخرى كثيرة ومتعددة، والله – من حيث المبدأ – يستطيع أن يشق البحر لموسى بوسيلة غير العصا، والله – من حيث المبدأ – قادر على أن يفلق الحجر لتنفجر منه عيون الماء لموسى وقومه بوسيلة أخرى، وهكذا. أليس الله على كل شيء قدير؟

لكن، لماذا – نحن نسأل – قضت مشيئة الله أن تتم كل تلك الأمور باستخدام العصا؟ أليس في ذلك سر عظيم ربما يكمن في تلك العصا بذاتها؟

افتراء خطير جدا: نحن لا شك نفتري الظن من عند أنفسنا بأن تلك العصا كانت ذات قيمة، وأنها لم تصل إلى موسى عن طريق الصدفة، ولكنها وصلت إليه كحق مكتسب لأنها – في ظننا – جزء من ميراث النبوة، بدليل أن موسى قد نسب ملكيتها لنفسه عندما سأله الله عنها

- ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝١٧ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ ۝١٨﴾ [طه: 17-18]

(للتفصيل انظر سلسلة مقالاتنا تحت عنوان: قصة موسى)

عندها طلب الله منه أن يلقيها، فرأى موسى ما أودع الله في تلك العصا من "قوة" عجيبة، وطلب منه أن يأخذها ليعيدها سيرتها الأولى:

- ﴿قَالَ خُذۡهَا وَلَا تَخَفۡۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ ۝٢١﴾ [طه: 21]

لذا ظننا أن باستطاعتنا الخروج بالاستنباط المفترى التالي: إن سيرة تلك العصا لم تبدأ عند موسى ولكنها بدأت من قبل ذلك. عندها كان لابد من طرح التساؤلات التالية:

⇐ من أين جاءت عصا موسى؟
⇐ كيف وصلت تلك العصا إلى موسى؟
⇐ ما هو مصدر تلك العصا؟
⇐ ما هي سيرتها الأولى التي تعهد الله بنفسه أن يعيدها؟
⇐ الخ.

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن مفترين القول من عند أنفسنا بأن عصا موسى التي كانت بيده في الواد المقدس يوم أن لقي ربه هناك هي نفسها التي استخدمها إبراهيم للخروج من الجحيم بعد أن ألقاه القوم فيها من فوق البنيان.

كيف كان يتنقل إبراهيم

الدليل

من أجل جلب الدليل على مثل هذا الافتراء الخطير جدا كان لابد من طرح تساؤل آخر لا يقل أهمية عن سابقه وهو: كيف كان يتنقل إبراهيم من مكان إلى مكان آخر بعد أن أصبح شيخا كبيرا؟

رأينا: ربما يستطيع المتدبر للسياقات القرآنية الخاصة بإبراهيم أن يجد أن إبراهيم كان يستطيع الانتقال من الأرض التي باركنا فيها للعالمين حيث تتواجد امرأته سارة مع طفلها إسحق والبيت الحرام ببكة حيث تتواجد امرأته هاجر مع طفلها إسماعيل بكل يسر وسهولة. كما قد يجد بأن إبراهيم قد كان دائم الترحال بين المكانين:

- ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم: 37]
- ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢﴾ [الصافات: 102]
- ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧﴾ [البقرة: 127]

السؤال: أليست المسافة بين المكانين كبيرة جداً؟ ألم يكن إبراهيم قد بلغ سن الشيخوخة؟ ألم تأتي الهبة الربانية لإبراهيم بإسماعيل وإسحق أصلا على الكبر؟

- ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٩﴾ [إبراهيم: 39]

السؤال المربك لنا: كيف كان يستطيع إبراهيم إذن تحمل أعباء السفر (إن كان تقليديا) بين المكانين بالرغم من البعد الجغرافي بينهما وبالرغم من تقدمه في السن؟

- ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم: 37]

رأينا المفترى الخطير جدا: نحن نظن أن إبراهيم كان يستطيع التنقل بين المكانين بسرعة كبيرة جدا ربما لا تقل عن السرعة التي انتقل فيها محمد في ليلة الإسراء من مكة عند البيت الحرام إلى المسجد الأقصى في الأرض التي باركنا فيها في ليلة واحدة:

- ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١﴾ [الإسراء: 1]

فانتقال محمد بين المكانين في ليلة واحدة (نحن نتخيل) تشكل – في رأينا – نموذجاً عملياً لما كان يستطيع إبراهيم القيام به في انتقاله بين المكانين ذاتهما، فمحمد كان قد أُسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى في ليلة واحدة، وكذا – نحن نفتري القول – كان انتقال إبراهيم بين المكانين. لكن هذا الطرح يثير التساؤل التالي على الفور: ماذا كانت واسطة (الأداة) التنقل التي استخدمها إبراهيم ومحمد في انتقالهما بين المكانين؟

الرأي السائد: غالباً ما حاول أهل الفكر الديني من سادتنا العلماء أهل الدراية تسويق فكرة أن النبي محمد قد امتطى ما يسمونه "البراق" في رحلته تلك، وأخذ أهل الرواية من كلام أهل الدراية هذا مجدهم في تقديم تصوراتهم لذاك "الكائن العجيب"، فيصورونه تارة ويكأنه دابة أو حيوان، ويصورونه تارة أخرى ويكأنه كائن أسطوري بأجنحة عملاقة تطوي الأرض بزمن يصعب على العقل البشري تدبره، حتى ذهب أكثرهم إلى الظن بأن ذلك الكائن قد كان هو الوسيلة نفسها التي عرج بها محمد إلى السموات العلى. من يدري؟!!!

رأينا البديل المفترى من عند أنفسنا: بعيداً عن جدلية التسميات (سمّه براقاً أو ما شئت) فإني أعتقد جازماً أن القرآن الكريم قد أثبت الواسطة باستخدام حرف الجر الباء المصاحب للفعل أَسْرَى الذي جاء فيه قول الحق "أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ"، لكنه في الوقت ذاته لم يذكر صراحة اسم تلك الوسيلة على وجه التحديد. والدليل لدينا هو وجود حرف الجر "بـ" الذي يدل على استخدام الواسطة "أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ"، لذا نحن نرى وجاهة أن نسوق الظن التالي: لقد استخدم محمد في رحلة تلك واسطة للتنقل، ولكن ما هي؟

رأينا المفترى: لما كان إبراهيم يحتاج إلى تنفيذ ما يحتاج إليه كان يستخدم تلك العصا نفسها التي استخدمها للخروج من الجحيم الذي ألقي فيه دون أن يصيبه أذى، وهي نفسها التي كان يستخدمها كلما كان يريد أن ينتقل من مكان إلى مكان. وهذا بالضبط ما نفهمه من الآية الكريمة التي جاءت تصور لنا التعهد الإلهي بأن يعيد تلك العصا سيرتها الأولى على يد موسى:

- ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ۝٢١﴾ [طه: 21]

لذا، لما كان موسى بحاجة أن يشق البحر استخدم العصا، ولما كان يحتاج أن يستسقي لقومه استخدم العصا في ضرب الحجر فانبجست منه عيون الماء، ولما كان بحاجة أن يقهر السحرة وكذبهم استخدم تلك العصا. لذا نحن نظن أن تلك العصا كانت هي الأداة التي كانت تمكن موسى من فعل كل ما كان يحتاج إلى فعله.

السؤال: من أين جاءت العصا لإبراهيم؟ وكيف وصلت إليه؟

رأينا: لو تدبرنا العلاقة بين الأرض التي باركنا فيها للعالمين ومكة حيث البيت الحرام كأول بيت وضع للناس في سير رسل الله، لوجدنا أن الرحلة الأولى بين المكانين لم يقم بها محمد ولم يقم بها إبراهيم وإنما قام بها آدم من ذي قبل:

- ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران: 96]

فلقد افترينا القول من عند أنفسنا في مقالتنا تحت عنوان: أين كانت جنة آدم؟ وفي مقالتنا أين حصلت مناداة الله نبيه موسى؟ بأن جنة آدم الأولى كانت في الأرض التي باركنا فيها للعالمين (أي بيت المقدس وما حوله التي ترد في النص القرآني باسم سيناء)، وما أن حصلت المعصية الأولى عندما أكل آدم من تلك الشجرة التي تخرج من طور سيناء بناء على نصيحة الشيطان لهما:

- ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المؤمنون: 20]

حتى جاء الأمر الإلهي لآدم وزوجه بالهبوط من تلك الجنة والانتقال إلى مكان آخر:

- ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٢٣﴾﴾ [طه: 123]

فحط بهم الترحال (نحن نظن) في مكة، حيث تم هناك وضع أول بيت للناس:

- ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران: 96-97]

وهو البيت نفسه الذي عاد إبراهيم ليرفع القواعد منه مع ولده إسماعيل من جديد:

- ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة: 127]

ليكون الافتراء الأكبر الذي نحاول تسويقه هو أن الرحلة بين المسجد الحرام في مكة والمسجد الأقصى في القدس حصلت بدايةً في عهد آدم، وسار إبراهيم في رحلته تلك على خطى الرحلة الأولى، وأسري بمحمد في خط سير الرحلة نفسها. فالرابط بين هذين المكانين حصل ثلاث مرات في تاريخ البشرية: في عهد آدم، وفي عهد إبراهيم، وفي عهد محمد.

السؤال: إذا كانت العصا التي كانت بيد إبراهيم هي التي وصلته من آدم، فكيف وصلت بعد ذلك إلى موسى؟

من أين جاءت العصا وكيف وصلت إلى موسى

هذا هو السؤال الذي حاولنا جاهدين الوصول إليه بعد هذه الإعادة لافتراءات كثيرة تعرضنا لها في مقالات سابقة منفصلة. د. رشيد الجراح

جواب مفترى: نحن نظن أن جوابنا المفترى على هذا السؤال يحمل في ثناياه التفاصيل نفسها التي حاولنا تسويقها عن قصة القميص، فكما زعمنا القول بأن القميص (اللباس) كان هو لباس آدم الأول، وهو الذي نزعه الشيطان عن آدم، ليبدي لهما سوءاتهما، وهو الذي ألبسه الله إبراهيم ليواري به سوءته، وهو الذي بقي كميراث بيت النبوة فانتقل من إبراهيم إلى إسحق إلى يعقوب فيوسف. فإن التفاصيل نفسها تنطبق على العصا، ولكن كيف ذلك؟

رأينا: نحن نظن أن آدم قد سكن الجنة وكان يستطيع أن يأكل منها (مع زوجه) رغدا حيث يشاء، وأن الله كان قد طلب من الملائكة السجود لآدم، فكان آدم إذن يستطيع تنفيذ مراده في الحال مادام أن الملائكة لا تستطيع إلا أن تسجد لآدم (باستثناء إبليس وجنده من الشياطين). ليكون التساؤل الذي يجب أن ننطلق منه الآن هو: كيف كان يستطيع آدم أن ينفذ أوامره في الجنة؟ وما هي آلية قيامه بإصدار تلك الأوامر؟ وما هي الآلية التي كانت تنفذ بها أوامره تلك على أرض الواقع؟

رأينا المفترى: بعيدا أن التخيلات المجازية التي قلما تسمن أو تغني من جوع، فإن الحاجة ملحة لوضع تصور متكامل عن ما كان يحدث في الجنة قبل وقوع آدم وزوجه في المعصية. فكيف يمكن تصوير المشهد حينئذ؟

جواب مفترى (1): نحن نظن أن الملائكة هم من كانوا مأمورين بتنفيذ أوامر آدم على أرض الواقع وهذا بالضبط ما يمكننا أن نفهمه من أهمية سجود الملائكة لآدم بأمر من ربهم من قبل:

- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ۝١١﴾ [الأعراف: 11]
- ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۝٢٩﴾ [الحجر: 29]
- ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۝٧٢﴾ [ص: 72]

وما تخلف عن هذا الأمر الإلهي إلا إبليس نفسه:

- ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٣٠ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ۝٣١﴾ [الحجر: 30-31]
- ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۝٧٢ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٧٣ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۝٧٤﴾ [ص: 72-74]

وبرر إبليس فعلته تلك بالحجة التالية:

- ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ٧٥ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ٧٦﴾ [ص: 75-76]
- ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٣٢ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ٣٣﴾ [الحجر: 32-33]

فطرده الله منها، فكان رجيما:

- ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ٣٤﴾ [الحجر: 34]
- ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ٧٧﴾ [ص: 77]

ولنقرأ السياق القرآني التالي الذي يصور المشهد كاملا:

- ﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ٧١ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٧٢ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ٧٣ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧٤ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ٧٥ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ٧٦ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ٧٧ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٧٨ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ٧٩ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ٨٠ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ٨١ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٨٣ قَالَ فَٱلۡحَقُّ وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ ٨٤ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٨٥ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ ٨٦ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٨٧ وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ ٨٨﴾ [ص: 71-88]

نتيجة مفتراة: اتخذ الله قراره باستخلاف آدم في الأرض (الجنة)، فاسجد له الملائكة الذين سينفذون أوامر آدم، فكانت خيرية آدم عليهم واضحة، فأبدى البعض منهم احتجاجه على هذا القرار الإلهي:

- ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٠﴾ [البقرة: 30]

فاختص الله آدم بعلم الأسماء كلها:

- ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣١﴾ [البقرة: 31]

وقام بعرضهم على الملائكة ليبين الفرق بين ما يملك آدم من العلم وما يملكون هم منه، فبان الفرق واضحا كما جاء في قول الملائكة أنفسهم:

- ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٣٢﴾ [البقرة: 32]

فطلب الله من آدم أن ينبئهم بأسمائهم:

- ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٣٣﴾ [البقرة: 33]

فأصبح جليا للجميع بأن هذا المخلوق الجديد له خيرية لا يمكن مجاراته بها، فعندها طلب الله من الملائكة جميعا السجود لآدم، فما تخلف عن ركب الساجدين إلا إبليس:

- ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٤﴾ [البقرة: 34]

فجاء القرار الإلهي بإخراج إبليس منها مرجوما:

- ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ٧٧﴾ [ص: 77]

وطلب الإله من آدم أن يسكن وزوجه الجنة يأكلان منها رغدا حيث شاءا:

- ﴿وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٥﴾ [البقرة: 35]

محذرا في الوقت ذاته آدم وزوجه من عداوة الشيطان لهما:

- ﴿فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ١١٧ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ ١١٩﴾ [طه: 117-119]

لكن بالرغم من هذا التحذير الإلهي الصريح لهما، استطاع إبليس أن يجلب عليهم خيله ورجله عندما نزل آدم وزوجه عند نصيحة الشيطان لهما بالأكل من الشجرة:

- ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ٣٦﴾ [البقرة: 36]

التي حذرهما الله من الاقتراب منها من ذي قبل:

- ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٣٥﴾ [البقرة: 35]
- ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٩﴾ [الأعراف: 19]

السؤال المحوري قيد النقاش هو: كيف كانت طبيعة حياة آدم وزوجه في الجنة قبل الوقوع في هذه المعصية؟

جواب: لقد كانت حياة رغدا (وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا).

السؤال: وكيف ذلك؟

جواب: عكس الشقاء، لأن الخروج منها سيكون كذلك (فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ)

السؤال: وكيف يمكن أن نفهم ذلك؟

جواب: نحن نظن أن هذا ما يمكن أن تدلنا عليه الآيات الكريمة التالية:

- ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ۝١١٧ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ۝١١٩﴾ [طه: 117-119]

السؤال: وكيف يمكن أن نتصور ذلك بمفرداتنا الدراجة التي نستطيع من خلالها فهم ما كان يحدث فعلا على أرض الواقع؟

جواب مفترى: للإجابة على هذا التساؤل نحن نظن أنه لابد من التعريج على التساؤلين السابقين وهما:

1. كيف كان آدم يصدر أوامره؟
2. ومن الذي كان يتلقى من آدم الأوامر لتحقيقها على أرض الواقع؟

كيف كان يصدر آدم أوامره في الجنة؟

جواب: كان آدم يفعل ذلك (نحن نفتري الظن من عند أنفسنا) بما كان يمتلك من علم الأسماء الذي جاءه بتعليم مباشر من ربه:

- ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٣١﴾ [البقرة: 31]

فكان آدم – نحن نفتري الظن – يعلم المسميات الحقيقية لكل الأشياء، لذا كان يستطيع أن يطلبها (للتفصيل انظر مقالتنا تحت عنوان: النظرية العالمية الجزء الأول و النظرية العالمية الجزء الثاني).

السؤال: كيف كانت آلية تنفيذ طلبات آدم وزوجه؟

جواب: لقد كان الملائكة (باستثناء إبليس بالطبع) هم من ينفذون أوامر آدم على أرض الواقع.

السؤال: لماذا كانت الملائكة تنفذ أوامر آدم؟

جواب مفترى خطير جدا: لأن آدم كان يستطيع أن يجبر الملائكة على فعل ذلك له.

السؤال: ومن أين جاءت قدرة آدم على إجبار الملائكة للرضوخ لأوامره وطلباته؟

جواب (عن جد) خطير جدا: لقد كان يفعل ذلك لأنه كان يمتلك تلك العصا

تخيلات: نحن نظن أنه لما كان الملائكة مأمورون جميعا بالسجود لآدم، كان لابد لهم من تنفيذ أوامره والنزول عند رغباته لتنفيذ طلباته على أرض الواقع، فكان الملائكة بذلك (نحن نتخيل) كعمال مأمورين بتنفيذ أوامر سيدهم.

من هم الملائكة؟ ومن هو إبليس؟

لا شك أن مثل هذا الافتراء الخطير سيثير حفيظة الكثيرين اللذين قد يظنون أن في هذا تقليل (أو ربما قدح) في شأن الملائكة، لكننا ندعوهم للتوقف عند سؤالين اثنين وهما:

1. من هم الملائكة أصلا؟
2. كيف سجد الملائكة لآدم؟

الفكر السائد: غالبا ما سوّق الفكر السائد الملائكة "ككينونات" هلامية يصعب على الناس فهمها أو إدراك حقيقتها، وظن العامة من الناس أن هذه المخلوقات هي ذات قدرات خارقة جدا يصعب تخيلها. ومن أراد الاستزادة فما عليه إلا أن ينظر في بطون الكتب الصفراء ليرى بأم عينه ما خط أهل الرواية عن أهل الدراية من أقوال وآراء حول كينونة الملائكة. وإلى القارئ الذي قد لا يجد الوقت الكافي ليبحث عن ذلك في بطون تلك الكتب أو على الشبكة العنكبوتية، فإننا نقدم له ما جاءنا في الطبري مثلا عن مفردة الملائكة التي وردت أول مرة في كتاب الله في الآية الكريمة التي نحاول هنا الوقوف عند بعض معانيها:

- ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٣٠﴾ [البقرة: 30]

للملائكة

القول في تأويل قوله تعالى: {للملائكة } قال أبو جعفر : والملائكة جمع ملك , غير أن واحدهم بغير الهمز أكثر وأشهر في كلام العرب منه بالهمز , وذلك أنهم يقولون في واحدهم ملك من الملائكة , فيحذفون الهمز منه , ويحركون اللام التي كانت مسكنة لو همز الاسم . وإنما يحركونها بالفتح , لأنهم ينقلون حركة الهمزة التي فيه بسقوطها إلى الحرف الساكن قبلها , فإذا جمعوا واحدهم ردوا الجمع إلى الأصل وهمزوا , فقالوا : ملائكة . وقد تفعل العرب نحو ذلك كثيرا في كلامها , فتترك الهمز في الكلمة التي هي مهموزة فيجري كلامهم بترك همزها في حال , وبهمزها في أخرى , كقولهم : رأيت فلانا , فجرى كلامهم بهمز رأيت , ثم قالوا : نرى وترى ويرى , فجرى كلامهم في يفعل ونظائرها بترك الهمز , حتى صار الهمز معها شاذا مع كون الهمز فيها أصلا . فكذلك ذلك في ملك وملائكة , جرى كلامهم بترك الهمز من واحدهم , وبالهمز في جميعهم . وربما جاء الواحد مهموزا كما قال الشاعر : فلست لإنسي ولكن لملأك تحدر من جو السماء يصوب وقد يقال في واحدهم : مألك , فيكون ذلك مثل قولهم : جبذ وجذب , وشأمل وشمأل , وما أشبه ذلك من الحروف المقلوبة . غير أن الذي يجب إذا سمي واحدهم مألك , أن يجمع إذ جمع على ذلك : مالك , ولست أحفظ جمعهم كذلك سماعا , ولكنهم قد يجمعون ملائك وملائكة , كما يجمع أشعث : أشاعث وأشاعثة , ومسمع : مسامع ومسامعة . قال أمية بن أبي الصلت في جمعهم كذلك : وفيها من عباد الله قوم ملائك ذللوا وهم صعاب وأصل الملأك : الرسالة , كما قال عدي بن زيد العبادي أبلغ النعمان عني ملأكا أنه قد طال حبسي وانتظاري وقد ينشد " مألكا " على اللغة الأخرى , فمن قال : ملأكا , فهو مفعل من لأك إليه يلأك : إذا أرسل إليه رسالة ملأكة . ومن قال : مألكا , فهو مفعل من ألكت إليه آلك : إذا أرسلت إليه مألكة وألوكا , كما قال لبيد بن ربيعة : وغلام أرسلته أمه بألوك فبذلنا ما سأل فهذا من ألكت . ومنه قول نابغة بني ذبيان : ألكني يا عيين إليك قولا ستهديه الرواة إليك عني وقال عبد بني الحسحاس : ألكني إليها عمرك الله يا فتى بآية ما جاءت إلينا تهاديا يعني بذلك : أبلغها رسالتي . فسميت الملائكة ملائكة بالرسالة , لأنها رسل الله بينه وبين أنبيائه ومن أرسلت إليه من عباده .

انتهى الاقتباس من هذا العلم العظيم!!!

وقد أدى بالغالبية الساحقة من سادتنا العلماء أهل الدراية والرواية أن ينزهوا الملائكة عن كل ما يظنون أنه لا يليق، الأمر الذي دفع بالكثير منهم إلى الظن بأن إبليس ليس منهم، لأنه خرج عن الأمر الإلهي بالسجود لآدم. وانظر– إن شئت – ما أوصله لنا أهل الرواية عن أهل الدراية كما ورد في الطبري نفسه:

وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين

القول في تأويل قوله تعالى : {وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين } قال أبو جعفر : أما قوله : {وإذ قلنا } فمعطوف على قوله : {وإذ قال ربك للملائكة } كأنه قال جل ذكره لليهود الذين كانوا بين ظهراني مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم من بني إسرائيل معددا عليهم نعمه , ومذكرهم آلاءه على نحو الذي وصفنا فيما مضى قبل : اذكروا فعلي بكم إذ أنعمت عليكم , فخلقت لكم ما في الأرض جميعا , وإذ قلت للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة , فكرمت أباكم آدم بما آتيته من علمي وفضلي وكرامتي , وإذ أسجدت له ملائكتي فسجدوا له . ثم استثنى من جميعهم إبليس , فدل باستثنائه إياه منهم على أنه منهم , وأنه ممن قد أمر بالسجود معهم , كما قال جل ثناؤه : {إلا إبليس لم يكن من الساجدين قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك } 7 11 : 12 فأخبر جل ثناؤه أنه قد أمر إبليس فيمن أمره من الملائكة بالسجود لآدم . ثم استثناه جل ثناؤه مما أخبر عنهم أنهم فعلوه من السجود لآدم , فأخرجه من الصفة التي وصفهم بها من الطاعة لأمره ونفى عنه ما أثبته لملائكته من السجود لعبده آدم . ثم اختلف أهل التأويل فيه هل هو من الملائكة أم هو من غيرهم ؟ فقال بعضهم بما : 573 - حدثنا به أبو كريب , قال : حدثنا عثمان بن سعيد , عن بشر بن عمارة , عن أبي روق عن الضحاك , عن ابن عباس , قال : كان إبليس من حي من أحياء الملائكة , يقال لهم " الجن " خلقوا من نار السموم من بين الملائكة . قال : فكان اسمه الحارث . قال : وكان خازنا من خزان الجنة . قال : وخلقت الملائكة من نور غير هذا الحي . قال : وخلقت الجن الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار , وهو لسان النار الذي يكون في طرفها إذا التهبت . 574 - وحدثنا ابن حميد , قال : حدثنا سلمة , عن ابن إسحاق , عن خلاد , عن عطاء , عن طاوس , عن ابن عباس , قال : كان إبليس قبل أن يركب المعصية من الملائكة اسمه عزازيل , وكان من سكان الأرض وكان من أشد الملائكة اجتهادا وأكثرهم علما , فذلك دعاه إلى الكبر , وكان من حي يسمون حنا . 575 - وحدثنا به ابن حميد مرة أخرى , قال : حدثنا سلمة , عن ابن إسحاق , عن خلاد , عن عطاء , عن طاوس , أو مجاهد أبي الحجاج , عن ابن عباس وغيره بنحوه , إلا أنه قال : كان ملكا من الملائكة اسمه عزازيل , وكان من سكان الأرض وعمارها , وكان سكان الأرض فيهم يسمون الجن من بين الملائكة . 576 - وحدثني موسى بن هارون قال : حدثنا عمرو بن حماد , قال : حدثنا أسباط , عن السدي في خبر ذكره عن أبي مالك , وعن أبي صالح , عن ابن عباس , وعن مرة , عن ابن مسعود , وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : جعل إبليس على ملك سماء الدنيا , وكان من قبيلة من الملائكة يقال لهم الجن , وإنما سموا الجن لأنهم خزان الجنة , وكان إبليس مع ملكه خازنا . 577 - وحدثنا القاسم بن الحسن , قال : حدثنا حسين , قال : حدثني حجاج , عن ابن جريج , قال : قال ابن عباس : كان إبليس من أشراف الملائكة وأكرمهم قبيلة وكان خازنا على الجنان , وكان له سلطان سماء الدنيا , وكان له سلطان الأرض . قال : قال ابن عباس : وقوله : {كان من الجن } , إنما يسمى بالجنان أنه كان خازنا عليها , كما يقال للرجل : مكي , ومدني , وكوفي , وبصري . قال

ابن جريج : وقال آخرون : هم سبط من الملائكة قبيلة , فكان اسم قبيلته الجن . 578 - وحدثنا القاسم , قال : حدثنا الحسين , قال : حدثني حجاج , عن ابن جريج , عن صالح مولى التوأمة وشريك بن أبي نمر أحدهما أو كلاهما , عن ابن عباس , قال : إن من الملائكة قبيلة من الجن , وكان إبليس منها , وكان يسوس ما بين السماء والأرض . وحدثت عن الحسن بن الفرج , قال : سمعت أبا معاذ الفضل بن خالد , قال : أخبرنا عبيد بن سليمان , قال : سمعت الضحاك بن مزاحم , يقول في قوله : {فسجدوا إلا إبليس كان من الجن } 18 50 قال : كان ابن عباس يقول : إن إبليس كان من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلة , ثم ذكر مثل حديث ابن جريج الأول سواء . 579 - وحدثنا محمد بن المثنى , قال : حدثني شيبان , قال : حدثنا سلام بن مسكين , عن قتادة , عن سعيد بن المسيب , قال : كان إبليس رئيس ملائكة سماء الدنيا . 580 - وحدثنا بشر بن معاذ , قال : حدثنا يزيد , قال : حدثنا سعيد , عن قتادة قوله : {وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن } 18 50 كان من قبيل من الملائكة يقال لهم الجن . وكان ابن عباس يقول : لو لم يكن من الملائكة لم يؤمر بالسجود وكان على خزانة سماء الدنيا . قال : وكان قتادة يقول : جن عن طاعة ربه . وحدثنا الحسين بن يحيى , قال : أخبرنا عبد الرزاق , قال : أخبرنا معمر , عن قتادة في قوله {إلا إبليس كان من الجن } 18 50 قال : كان من قبيل من الملائكة يقال لهم الجن . 581 - وحدثنا ابن حميد , قال : حدثنا سلمة , قال : حدثنا محمد بن إسحاق , قال : أما العرب فيقولون : ما الجن إلا كل من اجتن فلم ير . وأما قوله : {إلا إبليس كان من الجن } 18 50 أي كان من الملائكة , وذلك أن الملائكة اجتنوا فلم يروا , وقد قال الله جل ثناؤه {وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون } 37 158 وذلك لقول قريش : إن الملائكة بنات الله . فيقول الله : إن تكن الملائكة بناتي فإبليس منها , وقد جعلوا بيني وبين إبليس وذريته نسبا . قال : وقد قال الأعشى , أعشى بني قيس بن ثعلبة البكري , وهو يذكر سليمان بن داود وما أعطاه الله : ولو كان شيء خالدا أو معمرا لكان سليمان البري من الدهر براه إلهي واصطفاه عباده وملكه ما بين ثريا إلى مصر وسخر من جن الملائك تسعة قياما لديه يعملون بلا أجر قال : فأبت العرب في لغتها إلا أن " الجن " كل ما اجتن . يقول : ما سمى الله الجن إلا أنهم اجتنوا فلم يروا , وما سمي بني آدم الإنس إلا أنهم ظهروا فلم يجتنوا , فما ظهر فهو إنس , وما اجتن فلم ير فهو جن . وقال آخرون بما : 582 - حدثنا به محمد بن بشار , قال : حدثنا ابن أبي عدي , عن عوف , عن الحسن , قال : ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط , وإنه لأصل الجن كما أن آدم أصل الإنس . 583 - وحدثنا بشر بن معاذ , قال : حدثنا يزيد بن زريع , قال : حدثنا سعيد , عن قتادة , قال : كان الحسن يقول في قوله : {إلا إبليس كان من الجن } إلجاء إلى نسبه فقال الله : {أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني } الآية . .. وهم يتوالدون كما يتوالد بنو آدم . 584 - وحدثنا ابن حميد , قال : حدثنا يحيى بن واضح , قال : حدثنا أبو سعيد اليحمدي , حدثنا إسماعيل بن إبراهيم , قال : حدثنا سوار بن الجعد اليحمدي , عن شهر بن حوشب قوله : {من الجن } قال : كان إبليس من الجن الذين طردتهم الملائكة , فأسره بعض الملائكة فذهب به إلى السماء . 585 - وحدثني علي بن الحسين , قال : حدثني أبو نصر أحمد بن محمد الخلال , قال : حدثني سنيد بن داود , قال : حدثنا هشيم , قال : أخبرنا عبد الرحمن بن يحيى , عن موسى بن نمير , وعثمان بن سعيد بن كامل , عن سعد بن مسعود , قال : كانت الملائكة تقاتل الجن , فسبي إبليس وكان صغيرا , فكان مع الملائكة فتعبد معها . فلما أمروا بالسجود لآدم سجدوا , فأبى إبليس ; فلذلك قال الله : {إلا إبليس كان من الجن } 18 50 586 - وحدثنا ابن حميد , قال : حدثنا سلمة بن الفضل , قال : حدثنا المبارك بن مجاهد أبو الأزهر , عن شريك بن عبد الله بن أبي نمر , عن صالح مولى التوأمة , عن ابن عباس , قال : إن من الملائكة قبيلا يقال لهم الجن , فكان إبليس منهم , وكان إبليس يسوس ما بين السماء والأرض فعصى , فمسخه

الله شيطانا رجيما . 587 - قال : وحدثنا يونس , عن ابن وهب , قال : قال ابن زيد : إبليس أبو الجن , كما آدم أبو الإنس . وعلة من قال هذه المقالة , أن الله جل ثناؤه أخبر في كتابه أنه خلق إبليس من نار السموم ومن مارج من نار , ولم يخبر عن الملائكة أنه خلقها من شيء من ذلك . وأن الله جل ثناؤه أخبر أنه من الجن . فقالوا : فغير جائز أن ينسب إلى غير ما نسبه الله إليه . قالوا : ولإبليس نسل وذرية , والملائكة لا تتناسل ولا تتوالد . 588 - حدثنا محمد بن سنان القزاز , قال : حدثنا أبو عاصم , عن شريك عن رجل عن عكرمة , عن ابن عباس , قال : إن الله خلق خلقا , فقال : اسجدوا لآدم فقالوا : لا نفعل . فبعث الله عليهم نارا تحرقهم . ثم خلق خلقا آخر , فقال : إني خالق بشرا من طين , اسجدوا لآدم ! فأبوا , فبعث الله عليهم نارا فأحرقتهم . قال : ثم خلق هؤلاء , فقال : اسجدوا لآدم ! فقالوا : نعم . وكان إبليس من أولئك الذين أبوا أن يسجدوا لآدم . قال أبو جعفر : وهذه علل تنبئ عن ضعف معرفة أهلها . وذلك أنه غير مستنكر أن يكون الله جل ثناؤه خلق أصناف ملائكته من أصناف من خلقه شتى , فخلق بعضا من نور . وبعضا من نار , وبعضا مما شاء من غير ذلك . وليس في ترك الله جل ثناؤه الخبر عما خلق منه ملائكته وإخباره عما خلق منه إبليس ما يوجب أن يكون إبليس خارجا عن معناهم , إذ كان جائزا أن يكون خلق صنفا من ملائكته من نار كان منهم إبليس , وأن يكون أفرد إبليس بأن خلقه من نار السموم دون سائر ملائكته . وكذلك غير مخرجه أن يكون كان من الملائكة بأن كان له نسل وذرية لما ركب فيه من الشهوة واللذة التي نزعت من سائر الملائكة لما أراد الله به من المعصية . وأما خبر الله عن أنه من الجن , فغير مدفوع أن يسمى ما اجتن من الأشياء عن الأبصار كلها جنا , كما قد ذكرنا قبل في شعر الأعشى , فيكون إبليس والملائكة منهم لاجتنانهم عن أبصار بني آدم . القول في معنى إبليس . قال أبو جعفر : وإبليس " إفعيل " من الإبلاس : وهو الإياس من الخير والندم والحزن . كما : 589 - حدثنا به أبو كريب , قال : حدثنا عثمان بن سعيد , قال : حدثنا بشر بن عمارة , عن أبي روق , عن الضحاك , عن ابن عباس , قال : إبليس أبلسه الله من الخير كله وجعله شيطانا رجيما عقوبة لمعصيته . 590 - وحدثنا موسى بن هارون , قال : حدثنا عمرو بن حماد , قال : حدثنا أسباط عن السدي , قال : كان اسم إبليس الحارث , وإنما سمي إبليس حين أبلس متحيرا . [قال أبو جعفر : وكما] قال الله جل ثناؤه : {فإذا هم مبلسون } 6 44 يعني به أنهم آيسون من الخير , نادمون حزنا , كما قال العجاج : يا صاح هل تعرف رسما مكرسا قال نعم أعرفه وأبلسا وقال رؤبة : وحضرت يوم الخميس الأخماس وفي الوجوه صفرة وإبلاس يعني به اكتئابا وكسوفا . فإن قال لنا قائل : فإن كان إبليس كما قلت " إفعيل " من الإبلاس , فهلا صرف وأجري ؟ قيل : ترك إجراؤه استثقالا إذ كان اسما لا نظير له من أسماء العرب , فشبهته العرب إذ كان كذلك بأسماء العجم التي لا تجرى , وقد قالوا : مررت بإسحاق , فلم يجروه , وهو من أسحقه الله إسحاقا , إذ كان وقع مبتدأ اسما لغير العرب ثم تسمت به العرب فجرى مجراه , وهو من أسماء العجم في الإعراب , فلم يصرف . وكذلك أيوب إنما هو فيعول من آب يئوب . وتأويل قوله : {أبى } يعني جل ثناؤه بذلك إبليس أنه امتنع من السجود لآدم فلم يسجد له . {واستكبر } يعني بذلك أنه تعظم وتكبر عن طاعة الله في السجود لآدم . وهذا وإن كان من الله جل ثناؤه خبرا عن إبليس , فإنه تقريع لضربائه من خلق الله الذين يتكبرون عن الخضوع لأمر الله والانقياد لطاعته فيما أمرهم به وفيما نهاهم عنه , والتسليم له فيما أوجب لبعضهم على بعض من الحق . وكان ممن تكبر عن الخضوع لأمر الله والتذلل لطاعته والتسليم لقضائه فيما ألزمهم من حقوق غيرهم اليهود الذين كانوا بين ظهراني مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم , وأحبارهم الذين كانوا برسول الله صلى الله عليه وسلم وصفته عارفين وبأنه لله رسول عالمين , ثم استكبروا مع علمهم بذلك عن الإقرار بنبوته والإذعان لطاعته , بغيا منهم له وحسدا , فقرعهم الله بخبره عن إبليس الذي فعل في استكباره عن السجود لآدم حسدا له وبغيا

نظير فعلهم في التكبر عن الإذعان لمحمد نبي الله صلى الله عليه وسلم ونبوته , إذ جاءهم بالحق من عند ربهم حسدا وبغيا . ثم وصف إبليس بمثل الذي وصف به الذين ضربه لهم مثلا في الاستكبار والحسد والاستنكاف عن الخضوع لمن أمره الله بالخضوع له , فقال جل ثناؤه : {وكان } يعني إبليس {من الكافرين } من الجاحدين نعم الله عليه وأياديه عنده بخلافه عليه فيما أمره به من السجود لآدم , كما كفرت اليهود نعم ربها التي آتاها وآباءها قبل : من إطعام الله أسلافهم المن والسلوى , وإظلال الغمام عليهم وما لا يحصى من نعمه التي كانت لهم , خصوصا ما خص الذين أدركوا محمدا صلى الله عليه وسلم بإدراكهم إياه ومشاهدتهم حجة الله عليهم ; فجحدت نبوته بعد علمهم به , ومعرفتهم بنبوته حسدا وبغيا . فنسبه الله جل ثناؤه إلى الكافرين , فجعله من عدادهم في الدين والملة , وإن خالفهم في الجنس والنسبة , كما جعل أهل النفاق بعضهم من بعض لاجتماعهم على النفاق , وإن اختلفت أنسابهم وأجناسهم , فقال : {المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض } 9 67 يعني بذلك أن بعضهم من بعض في النفاق والضلال , فكذلك قوله في إبليس : {كان من الكافرين } كان منهم في الكفر بالله ومخالفته أمره وإن كان مخالفا جنسه أجناسهم ونسبه نسبهم . ومعنى قوله : {وكان من الكافرين } أنه كان حين أبى عن السجود من الكافرين حينئذ . وقد روي عن الربيع بن أنس , عن أبي العالية أنه كان يقول في تأويل قوله : {وكان من الكافرين } في هذا الموضع وكان من العاصين . 591 - حدثني المثنى بن إبراهيم , قال : حدثنا آدم العسقلاني , قال : حدثنا أبو جعفر , عن الربيع , عن أبي العالية في قوله : {وكان من الكافرين } يعني العاصين . وحدثت عن عمار بن الحسن , قال : حدثنا عبد الله بن أبي جعفر , عن أبيه , عن الربيع بمثله . وذلك شبيه بمعنى قولنا فيه . وكان سجود الملائكة لآدم تكرمة لآدم وطاعة لله , لا عبادة لآدم . كما : 592 - حدثنا به بشر بن معاذ , قال : حدثنا يزيد بن زريع , قال : حدثنا سعيد , عن قتادة قوله : {وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم } فكانت الطاعة لله , والسجدة لآدم , أكرم الله آدم أن أسجد له ملائكته

إن القراءة في هذا التفسير "العظيم" ترشدنا إلى ما يلي:

⇐ اختلاف السادة العلماء أهل الدراية في ماهية الملائكة
⇐ اختلاف السادة العلماء أهل الدراية في ماهية إبليس
⇐ تضارب الآراء المنقولة عن الشخص الواحد منهم (انظر ما نقل عن ابن عباس في هذا الشأن، فقد جاء في قول بعضهم أن ابن عباس رجح أن إبليس من الملائكة وجاء في نقل آخرين أن ابن عباس استثنى إبليس من جمع الملائكة)
⇐ وجود أقول غريبة جدا يصعب ربطها بالسياق العام
⇐ عدم تقديم أحد منهم الدليل على ظنه بغض النظر عن ماهيته
⇐ الخ.

ولما كانت هذه حال سادتنا العلماء، فإننا نظن أن حالهم ليست بأحسن من حالنا، فتعالوا نخرّص في هذا الموضوع، علنا نستطيع أن نخرج بقصة جديدة عن تلك المخلوقات.

سائلين الله وحده أن يهدينا رشدنا وأن يعلمنا ما لم نكن نعلم، ونعوذ به أن نفتري عليه الكذب أو أنقول عليه ما ليس لنا بحق،

إنه هو الواسع العليم - آمين.

أما بعد،

التساؤلات:

⇐ من هم الملائكة؟
⇐ من هو إبليس؟
⇐ لماذا سجد الملائكة كلهم أجمعون؟
⇐ لماذا رفض إبليس السجود لآدم؟

الآية الكريمة:

- ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٣٠ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٣١﴾ [الحجر: 30-31]

الافتراء الكبير: إبليس كان واحد من جمع الملائكة الذين كانوا مأمورين بالسجود لآدم.

الدليل المنطقي: إن دليلنا المنطقي الذي نحاول أن نسوقه هو لو أن إبليس لم يكن من الملائكة لما استوجب عدم تنفيذه الأمر الإلهي الطرد. فنحن نعلم بصريح اللفظ القرآني بأن الأمر الإلهي بالسجود لآدم قد كان موجها للملائكة على وجه التحديد:

- ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٠﴾ [البقرة: 30]
- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٣٤﴾ [البقرة: 34]
- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝١١﴾ [الأعراف: 11]
- ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٨ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٢٩﴾ [الحجر: 28-29]

- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ٦١﴾ [الإسراء: 61]
- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ٥٠﴾ [الكهف: 50]
- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ١١٦﴾ [طه: 116]
- ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٧٢ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ٧٣ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ٧٤ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ٧٥ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ٧٦ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ٧٧﴾ [ص: 71-77]

فلو أن إبليس لم يكن من جمع الملائكة، لما صح أن يعاقب على عدم فعل أمر هو ليس مأمور به، فلقد كان يكفي إبليس أن يرد على سؤال ربه:

- ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ٧٥﴾ [ص: 75]

بالقول بأن الخطاب لم يوجه إليّ، فلِمَ أسجد لآدم وأنت لم تأمرني بذلك؟ ألم يكن أمرك موجها للملائكة؟ فما دخلي أنا بما أمرت به الملائكة؟

رأينا البديل: لما كان إبليس من جمع الملائكة (أي هو واحد منهم) لم يستطيع أن يتنصل من الأمر الإلهي بالسجود لآدم.

الدليل النصي: نحن نظن أن هناك دليل نصي من الكتاب نفسه ربما يرشدنا (إن صح فهمنا له) إلى أن إبليس كان واحدا من الملائكة، لكن هذا الدليل يحتاج إلى أن يمنحنا القارئ الكريم فسحة من الوقت للوصول إليه، لأن الوصول إليه يحتاج إلى ربط عدة حلقات ذهنية، تفضي بمجموعها (حسب منطقنا) إلى هذه النتيجة التي نحاول تسويقها وهي الإجابة على التساؤلين الرئيسين التاليين:

⇐ من هم الملائكة؟

⇐ ومن هو إبليس؟

أما بعد،

الافتراء الأول: الملائكة هم جميعا من الذكور

فلقد كانت التهمة التي دفعها الله بنفسه عن الملائكة هي ظن الكافرين بأن الملائكة إناثا:

- ﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ١٩﴾ [الزخرف: 19]

- ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ۝٤٠﴾ [الإسراء: 40]
- ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ۝١٤٩ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ۝١٥٠﴾ [الصافات: 149-150]

فالله سبحانه يستنكر قولهم هذا، ويرد التهمة عن الملائكة بأنهم ليسوا إناثا، ويعتبر ذلك من باب القول العظيم (إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيمًا). فهذا – نحن نظن – يقع في باب ما قد يقوله الشخص منا بأفواههم، فيظنون أنه من باب القول الهين وهو في الحقيقة عند الله عظيم:

- ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ۝١٥﴾ [النور: 15]

نتيجة مفتراة: الملائكة ليسوا إناثا، وإنما هم ذكورا.

ولو راقبنا الضمير المستخدم في القرآن الكريم الذي يعود على كينونة الملائكة لوجدناه أن جميع الضمائر (المنفصلة والمتصلة) التي تعود على الملائكة هي ضمائر المذكر على الدوام:

- ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةًۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٠ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٣١﴾ [البقرة: 30-31]
- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٣٤﴾ [البقرة: 34]
- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝١١﴾ [الأعراف: 11]
- ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٨ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٢٩﴾ [الحجر: 28-29]
- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ۝٦١﴾ [الإسراء: 61]
- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوُّۢۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ۝٥٠﴾ [الكهف: 50]
- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ۝١١٦﴾ [طه: 116]
- ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٧٢ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٧٣ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧٤ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ۝٧٥ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ۝٧٦ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝٧٧﴾ [ص: 71-77]

نتيجة مفتراة 2: الملائكة هم جميعا من الذكور المكلفين بالعبادة.

وانظر – إن شئت – في قوله تعالى:

- ﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ١٩﴾ [الزخرف: 19]

نتيجة مفتراة 3: الملائكة من يقابلهم عندنا هم الناس

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ١٦١﴾ [البقرة: 161]

فلقد حاولنا جاهدين في أكثر من مقالة سابقة لنا أن نبين بأن مفردة الناس هي خاصة بالمكلفين بالعبادة من الذكور:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ٢١﴾ [البقرة: 21]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءًۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ١ وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ٢ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ٣﴾ [النساء: 1-3]

وهم الذين يستطيعون نكاح النساء:

- ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ١٤﴾ [آل عمران: 14]

للتفصيل انظر مقالاتنا تحت عنوان جدلية الذكر والأنثى و زواج المتعة وتعدد الزوجات 1 و تعدد الزوجات 2 و ثلاثية المرأة و ماذا ستفعل النساء في الجنة 1

نتيجة مفتراة 4: الملائكة هم من الجن

فإبليس نفسه كان من الجن:

- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف: 50]

فبالرغم أن إبليس كان من الملائكة إلا أن هذا لا يستثني أن يكون من الجن وذلك للسبب المفترى الخطير التالي الذي هو من عند أنفسنا: لأن الملائكة كلهم من الجن.

- ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: 56]

نتيجة مفتراة 5: المخلوقات المكلفة بالعبادة هم اثنان: الجن والإنس

فخطاب الرباني جاء موجها للجن والأنس على حد سواء:

- ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الأنعام: 130]
- ﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأعراف: 38]
- ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: 179]
- ﴿۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [فصلت: 25]
- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [فصلت: 29]
- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الأحقاف: 18]
- ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الرحمن: 33]

نتيجة مفتراة: الخلق نوعان وهما الجن والإنس وتشمل الذكور والإناث منهما

نتيجة مفتراة: الناس هم الذكور من الإنس

نتيجة مفتراة: الملائكة هم الذكور من الجن

من هم الشياطين؟

السؤال: من هم الشياطين إذن؟

جواب مفترى: نحن نظن أن الشياطين هم جنود إبليس من الجن والإنس، لذا فهم أعداء الأنبياء:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ١١٢﴾ [الأنعام: 112]

فالشياطين لا تقتصر على الجن وإنما هناك شياطين من الإنس كذلك.

والجدول التالي يلخص الافتراءات السابقة كلها:

الإنس (تشمل الذكور والإناث)	الناس هم ذكور الإنس	شياطين الإنس
الجن (تشمل الذكور والإناث)	الملائكة هم ذكور الجن	شياطين الجن

النتيجة المفتراة التي نحاول الوصول إليها هي: الملائكة هم الذكور المكلفون بالعبادة من الجن كإبليس مثلا.

لعلي أجزم أظن أن أكثر الذي أشكل على أهل العلم في هذه الجزئية هي مادة الخلق، فبعد مراجعة بطون أمهات كتب التفسير وجدنا الغالبية الساحقة من سادتنا العلماء يظنون أن مادة خلق الملائكة تختلف عن مادة خلق الجن، فهم يظنون أن الملائكة كائنات مخلوقة من نور بينما الجن مخلوق من نار مصداقا لقوله تعالى:

- ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ٢٧﴾ [الحجر: 27]

ولما كنا لا ننكر جميعا بأن مادة خلق الجآن هي النار، فإنه ربما يحق لنا أن نسأل سادتنا العلماء عن الدليل على أن الملائكة كائنات مخلوقة من نور، فأين دليلكم على ذلك؟ هل يوجد في كتاب الله إشارة واحدة إلى مادة خلق الملائكة؟

رأينا: كلا وألف كلا، فالملائكة (كجان) هم جميعا مخلوقين من نار، ولو تدبرنا الآية الكريمة السابقة في سياقها الأوسع لوجدنا الربط بين هذه الكائنات جميعا:

- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٦ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٨﴾ [الحجر: 26-28]

لتكون النتائج على النحو التالي:

⇐ الإنسان مخلوق من حمأ مسنون
⇐ الجان مخلوق من نار السموم
⇐ أمر الله الملائكة الذين خلقوا من قبل من نار السموم بالسجود للبشر الذي خلقه من حمأ مسنون.
⇐ أذعن جمع الملائكة لهذا الأمر الإلهي وتخلف إبليس عنه:

- ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٣٠ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٣١﴾ [الحجر: 30-31]

⇐ برر إبليس فعلته تلك بخيريته على آدم في مادة الخلق (خيرية النار على الطين):

- ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٣٢ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٣٣﴾ [الحجر: 32-33]

عودة على بدء

⇐ لماذا إذن أمر الله الملائكة بالسجود لآدم؟
⇐ لماذا رفض إبليس السجود لآدم؟

رأينا: عندما اتخذ الله قراره باستخلاف آدم كبشر، جاء التذمر من الملائكة (وهم ذكور الجن) واضحا:

- ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ... ۝٣٠﴾ [البقرة: 30]

فعرضوا أنفسهم على ربهم ليكونوا هم خلفاءه على الأرض، وانظر – إن شئت – في تتمة الآية نفسها:

- ﴿... وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ ... ۝٣٠﴾ [البقرة: 30]

فما كان الله ليرد ما كان قد قضت مشيئته به، فنبّه الملائكة إلى أنه هو الأعلم بذلك:

- ﴿... قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٠﴾ [البقرة: 30]

فعمد الإله إلى تعليم آدم الأسماء كلها ثم قام بعرضهم على جمع الملائكة:

- ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ [البقرة: 31]

فما استطاع الملائكة مجاراة آدم في ذلك العلم،

- ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾ [البقرة: 32]

فتحققت الخيرية لآدم بعد أن أنبأ الملائكة بأسمائهم:

- ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [البقرة: 33]

وهنا استحق آدم سجود الملائكة له، إنه سجود الذي لا يعلم للذي يعلم:

- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة: 34]

بالضبط كما حصل في حالة يوسف وإخوته:

- ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [يوسف: 100]

فلقد أقر الإخوة بأفضلية أخيهم عليهم:

- ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾﴾ [يوسف: 91]

وبذلك استحق آدم أن يسكن الجنة لتكون حياته فيها رغدا شريطة أن لا يقربا تلك الشجرة:

- ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة: 35]

فما كان ليجوع فيها ولا يعري ولا يظمأ فيها ولا يضحى:

- ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ [طه: 117-119]

ولكن الشيطان استطاع أن يوقع آدم في المصيدة، فأصبحت حياته شقاء بعد أن كانت رغدا

- ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾ [طه: 117-121]

فكان النتيجة لذلك كله أنّ آدم قد عصى ربه، أليس كذلك؟

السؤال: كيف عصى آدم ربه؟ وما الذي حدث بمجرد أن آدم قد عصا ربه؟

- ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾ [طه: 121]

جواب: حصول النسيان عند آدم:

- ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [طه: 115]

السؤال: ما الذي نسيه آدم؟

جواب مفترى: علم الأسماء الذي علمه إياه ربه

السؤال: ما الذي حدث بعد ذلك؟

جواب: لم يستطع آدم بعد ذلك أن يجبر الملائكة على إطاعة أوامره. لقد نسي آدم اللغة (الأسماء) التي يستطيع من خلالها إجبار الملائكة (الذين سجدوا له) على تلبية طلباته. وبكلمات أخرى نقول لقد فقد آدم اللغة التي كان يستخدمها في توجيه أوامره للملائكة.

السؤال: وماذا كانت تلك الوسيلة؟

رأينا: إنها العصا. لقد أصبحت عصا لأنها (نحن نظن) لم تعد تطيع آدم في تنفيذ مراده. وذلك لأن آدم قد فقد العلم الذي يجبرها على ذلك. فأصبحت عصا (غير حية) بعد أن كانت الحياة دابة فيها، بالضبط كما حصل بعد أن ألقاها موسى في النار في الواد المقدس:

- ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [طه: 17-21]

هناك فقط عادت العصا إلى سيرتها الأولى ليستطيع من يحملها أن ينفذ أوامره مهما كانت كما حدث مع موسى منذ اليوم الأول عند النار وحتى نهاية رحلته مع بني إسرائيل.

والله أعلم

السؤال: أين هي تلك العصا؟

هذا ما سنحاول النبش فيه في الجزء القادم إن شاء الله.

فالله وحده أسأل أن يأذن لنا بعلم لا ينبغي لغيرنا. وأسأله وحده أن يعلمنى وصاحبى عليّا ما لم نكن نعلم، وأن يجعل فضله علينا عظيما، وأن يهدينا إلى نوره الذي أبى إلاّ أن يتمّه ولو كره الكافرون، ونعوذ به أن نكون ممن يفترون عليه الكذب أو ممن يقولون عليه ما ليس لهم بحق، ونعوذ به أن نكون ممن يصدون عن سبيله أو ممن يبغونها عوجا - إنه هو العليم الحكيم.

وأساله وحده أن ينفذ قوله بمشيئته وإرادته لى الإحاطة بشى من علمه لا ينبغى لأحد غيري، إنه هو الواسع العليم - آمين.

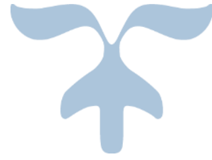
المدّكرون: رشيد سليم الجراح & علي محمود سالم الشرمان
بقلم: د. رشيد الجراح
27 أيار 2014
د. رشيد الجراح مركز اللغات، جامعة اليرموك



قصة يوسف – الجزء السادس والعشرون

"اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا"

(3)





الجزء السادس والعشرون: اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا (3)

تمهيد: القميص والعصا – إرث النبوة وعلاقته بمقتنيات الجنة

السؤال: أين ذهبت تلك العصا؟

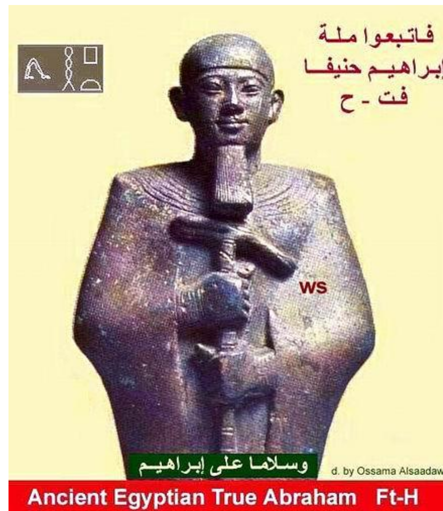
جواب: لقد انتهت إلى حيث انتهى هذا القميص.

السؤال: وأين انتهى هذا القميص؟

جواب مفترى: نحن نظن أن تلك العصا وهذا القميص كانا إرث النبوة العظيم الذي وصل إلى يوسف من عند جده الأول إبراهيم عن طريق آباءه إسحق ويعقوب:

- ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ٣٨﴾ [يوسف: 38]

وأظن أن الجدارية التالية التي وصلتني من عند صاحبي عالم الآثار المصري عصام درويش (من مؤلفات العالم المصري أسامة السعداوي) تظهر لنا إبراهيم يلبس ذلك القميص ويحمل تلك العصا:



ولهذه الجدارية وأمثالها من أرض مصر الخالدة قصة طويلة سيرويها لنا الأخ الكبير عصام درويش في مقالات لاحقة إن شاء الله. على المدونة د. رشيد الجراح

فالله أسأل أن يعلمني وأخي عصام ما لم يعلم أحدا من خلقه وأن يأذن لنا الإحاطة بشيء من علمه لا ينبغي لأحد غيرنا، إنه هو الواسع العليم - آمين.

السؤال: كيف وصلا (هذا القميص وتلك العصا) إلى يوسف؟

رأينا: كنا قد تحدثنا سابقا عن القميص، مفترين الظن من عند أنفسنا بأن يعقوب هو من ألبس يوسف ذلك القميص كجزء من ميراث النبوة يوم أن أرسله مع إخوته ليرتع ويلعب:

- ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ١٢﴾ [يوسف: 12]

(للتفصيل انظر الأجزاء السابقة)

فاحتفظ يوسف بذلك القميص، ولم يطلع عليه أحد، حتى رأته يوما التي هو في بيتها وهو يلبسه، فراودته عن نفسه لما رأته من أمر هذا القميص، الذي كان يظهر فيه يوسف وكأنه ملك كريم:

- ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾ [يوسف: 23]

وهو في ظننا كان السبب الذي دفع بالنسوة اللاتي جئن متحديات امرأة العزيز أن يقعن في الفخ نفسه:

- ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنْهُنَّ سِكِّينٗا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ ٣١﴾ [يوسف: 31]

فكان ذلك القميص هو برهان ربه الذي حال بينه وبين الوقوع في الفاحشة:

- ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ٢٤﴾ [يوسف: 24]

حتى كان اليوم الذي أخرجه على العلن، ليذهب به بعض إخوته ليُلقوه على وجه أبيه ليرتد بصيرا، فأشار إليه يوسف بصيغة التحديد مستخدما اسم الإشارة هَذَا:

- ﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرٗا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ٩٣﴾ [يوسف: 93]

فعاد الإخوة يحملون هَذَا القميص، وما أن فصلت العير حتى وجد يعقوب ريح يوسف:

- ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ۝٩٤﴾ [يوسف: 94]

وما أن ألقى البشير منهم هَذَا القميص على وجه يعقوب حتى ارتد بصيرا:

- ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٩٦﴾ [يوسف: 96]

السؤال: لماذا ارتدّ يعقوب بصيرا بمجرد أن ألقي البشير هَذَا القميص على وجهه؟

رأينا: لأن هَذَا القميص من مقتنيات الجنة نفسها.

السؤال: وما علاقة ذلك بمقتنيات الجنة؟

باب: هَذَا القميص و تِلْكَ العصا

إن المدقق في السياق القرآني الخاص بالقميص يجد أن اسم الإشارة الذي استخدم معه هو هَذَا (وهو اسم الإشارة الذي يدل على القريب كما يحب أهل اللغة أن يفهمونا):

- ﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٣﴾ [يوسف: 93]

السؤال: لماذا استخدم اسم الإشارة هذا في سياق الحديث عن القميص؟

جواب لغوي: ليدل على القرب، فالقميص خاص بيوسف وهو لازال بين يديه، أليس كذلك؟

رأينا: هذا لا شك رد جميل لولا أن هناك سؤال آخر لابد أن يطرح على الفور خاص بالعصا، وانظر السياق القرآني قبل طرح السؤال:

- ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝١٧ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ۝١٨﴾ [طه: 17-18]

السؤال: لماذا استخدم الإله اسم الإشارة تلك (الذي يدل على البعد) في إشارته إلى العصا؟ أليس الله قريب منا؟

- ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ١٨٦﴾ [البقرة: 186]

أليس الله أقرب إلينا من حبل الوريد؟

- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ١٦﴾ [ق: 16]

أليس الله أقرب إلينا من أنفسنا:

- ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ٨٥﴾ [الواقعة: 85]

العلاقة بين العصا والشجرة

بعيدا عن التأويلات المجازية التي سيتحفنا بها أهل اللغة والشريعة من سادتنا أهل علم في الرد على تخريصاتنا هذه، يبقى السؤال التالي قائما: هل الله قريب أم بعيد مكانيا عنّا؟

رأينا المفترى: إذا ما تخلّينا عن التحليق في عالم المجازات والاستعارات، وحاولنا فهم الحقيقة كما هي فعلا (فالله هو الحق – انظر مقالتنا تحت عنوان: جدلية الحقيقة والمجاز)، فإن الحاجة ستكون ملحّة لجلب السياقات القرآنية التالية التي تتحدث عن القرب والبعد في القرآن الكريم، ولتوضيح الفكرة فسنحاول تقديم مثال واحد هنا نظن أنه له علاقة بفحوى الموضوع قيد النقاش، ألا وهو مثال الشجرة التي نهى الله آدم وزوجه عن الاقتراب منها. فدعنا ننظر إلى السياق القرآني الذي يتحدث عن الشجرة قبل الوقوع في العصية:

- ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٥﴾ [البقرة: 35]
- ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩﴾ [الأعراف: 19]

ثم انظر بعد ذلك إلى السياق القرآني الخاص بالشجرة نفسها بعد أن أكلا منها (أي بعد الوقوع في المعصية):

- ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ٢٢﴾ [الأعراف: 22]

ألا تجد – عزيزي القارئ – أن هناك تغيرا في استخدام اسم الإشارة قد حصل؛ فبعد أن كان اسم الإشارة المستخدم هو هَذِهِ (الذي يدل على القريب) تحول ليكون " تِلْكُمَا " ليدل على البعيد؟ أليس المتكلم هو الله نفسه؟ أوليست الشجرة هي نفسها؟ فما الذي حصل يا ترى؟

رأينا: لو تدبّرنا ما قاله الشيطان لآدم وزوجه في سياق التغرير بهما للوقوع بالمعصية لوجدنا أنه يتحدث عن الشجرة نفسها على أنها شجرة الخلد:

- ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ۝٢٠﴾ [الأعراف: 20]
- ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ۝١٢٠﴾ [طه: 120]

ولعلنا لا نختلف كثيرا بأن الخلد هو عكس الموت:

- ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ۝٣٤﴾ [الأنبياء: 34]

وأن جُهد الشيطان كان منصبا على إقناع آدم وزوجه بأن تلك الشجرة ستجلب لهما الخلد (أي عدم الموت). لذا فإن الحياة هي من أهم ميزات تلك الشجرة.

السؤال الافتراضي: ماذا لو حصل آدم على شيء من تلك الشجرة؟ ألن تكون الحياة (عدم الموت) هي أهم خصائصه؟

منطقنا المفترى: إن كان هذا صحيحا، فإن لتلك العصا (نحن نظن) علاقة مباشرة بتلك الشجرة، فما أن ألقاها موسى في النار حتى خرجت تهتز كأنها جان:

- ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٠ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١١﴾ [النمل: 10-11]
- ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ۝٣١﴾ [القصص: 31]

فكانت حيَّة تسعى:

- ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۝٢٠﴾ [طه: 20]

فأمره الله بأن يأخذها، متعهدا بأن يعيدها سيرتها الأولى:

- ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ۝٢١﴾ [طه: 21]

وطلب منه في الموقف نفسه أن يضمم يده إلى جناحه لتخرج بيضاء من غير سوء لتكون آية أخرى:

- ﴿وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ ٢٢ لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى ٢٣﴾ [طه: 22-23]

فكانت تلك العصا وكان هذا القميص (الذي سلك موسى يده فيه) هما (نحن نظن) من آيات ربه الكبرى (لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى).

العصا وسلطة آدم على الملائكة – المنسأة وسلطة سليمان على الشياطين

السؤال المحوري: إذا كان الله قد تعهد لموسى في الواد المقدس عند النار أن يعيد تلك العصا سيرتها الأولى، فكيف كانت سيرة تلك العصا الأولى؟ نحن نسأل لكي نفهم.

افتراء خطير جدا من عند أنفسنا: نحن نفتري القول من عند أنفسنا بأن آدم كان يتحكم بالملائكة (وهم ذكور الجن) الذين سجدوا له بتلك العصا. ولتقريب الصورة إلى الأذهان فإننا نعقد مشابهة بين ما كان يفعله آدم يوم أن كان في الجنة مسيطرا على الملائكة هناك بما كان يفعله سليمان بهم بمنسأته (التي هي أصلا الجزء المتبقي من تلك العصا بعد حادثة السامري

للتفصيل انظر مقالتنا تحت عنوان: باب السامري, و ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته):

- ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ١٢﴾ [سبأ: 12]

فعندما كان أحد من الجن (الملائكة) يزيغ عن أمر آدم كان يستطيع آدم أن يذيقه من عذاب السعير بالقوة العجيبة الكامنة في تلك العصا التي كانت بيده بالضبط كما كان يفعل سليمان بهم. فكان ملك آدم عليهم ملكا عظيما. ونحن نستطيع أن نتخيل ملك آدم الذي تنص عليه الآية الكريمة التالية:

- ﴿فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ١٢٠﴾ [طه: 120]

بنفس الآلية التي وهبها الله لسليمان من بعد:

- ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٣٥﴾ [ص: 35]

فكانت نتيجة دعاء سليمان هذا أن سخّر الله له الريح والشياطين وآخرين مقرنين في الأصفاد:

- ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٣٥ فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ٣٦ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ٣٧ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ٣٨﴾ [ص: 35-38]

- ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ١٢﴾ [سبأ: 12]

السؤال: إذا استطعنا أن نفهم أن الله قد سخر لسليمان الشياطين (من الجن) وآخرين مقرنين في الأصفاد، فكيف نستطيع أن نفهم أنه قد سخر له الريح؟ ولماذا الريح على وجه التحديد؟

رأينا المفترى: إنها تلك العصا. إنها القوة الكامنة في تلك العصا على الطيران. فكما أن تلك العصا قد شقّت البحر (فكان كل فرق كالطود العظيم) والحجر (فانبجست منه أعين الماء) ولقفت ما كان السحرة يأفكون عندما كانت بيد موسى، فإن فيها من القوة الكامنة العجيبة ما يمكّن صاحبها على الطيران. فاستخدمها إبراهيم في خروجه سالما من النار، واستخدمها في انتقاله بين المكانين اللذين أسكانا فيهما من ذريته (إسحق في الأرض التي باركنا فيها للعالمين وإسماعيل عند البيت الحرام الذي ببكة). فكان دائم الترحال بينهما. واستخدمها سليمان في تسخير الشياطين من الجن، فما كان أحد منهم يستطيع أن يزغ عن الأمر. فكانوا في العذاب المهين حتى يوم موته:

- ﴿فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ١٤﴾ [سبأ: 14]

واستخدمها سليمان للانتقال في أرجاء ملكه الواسع، فكانت تجري به الريح غدوها شهر ورواحها شهر:

- ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ١٢﴾ [سبأ: 12]

(للتفصيل انظر مقالتنا تحت عنوان: ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته: باب الشهر)

لكن هذا المنطق المفترى من عندنا لا يحل إشكالية السؤال الذي طرحناه عن اسم الإشارة عند الحديث عن هذا القميص وتلك العصا. فلماذا صاحب القميص اسم الإشارة هَذَا؟

- ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩٣﴾ [يوسف: 93]

بينما جاء اسم الإشارة تِلْكَ للحديث عن العصا؟

- ﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ١٧﴾ [طه: 17]

رأينا المفترى من عند أنفسنا الذي نطلب من القارئ الكريم ألا يصدقه ما لم يجد أن الدليل من كتاب الله يدعمه: نحن نفتري القول بأن السبب في ذلك ربما يعود إلى أن العصا قد خرجت مع آدم عندما هبط من الجنة، فأصبحت تلك العصا، بينما بقي القميص في الجنة فلم يخرج مع آدم فبقي هذا القميص.

انتقال القميص والعصا إلى إبراهيم

السؤال: كيف وصلا إلى إبراهيم؟

رأينا: حاولنا في بعض الأجزاء السابقة تمرير زعمنا المفترى بأن الله هو من ألبس إبراهيم ذلك القميص ليواري به سوءته بعد أن ألقاه القوم في النار، فظننا أن الله ما كان ليُخرِجَ إبراهيم من تلك النار مكشوفا السوءة، فألبسه هذا القميص من عنده مباشرة. وهو كما زعمنا في الأجزاء السابقة اللباس نفسه الذي نزعه الشيطان عن آدم في الجنة، وبقي فيها هناك حتى جاء اليوم الذي ألبسه الله إبراهيم. وانتقل هذا القميص كإرث نبوي من إبراهيم إلى إسحق فيعقوب وانتهى إلى يوسف – صاحب الاجتباء الرباني من بيت يعقوب.

لكن – إن صح ما تزعم – يبقى السؤال الآخر قائما: كيف حصل إبراهيم على العصا التي خرجت مع آدم؟

رأينا: إن هذا السؤال يعيدنا فورا إلى قصة آدم بعد الهبوط من الجنة لنثير حولها التساؤلات التالية:

- ⇐ لماذا اختلف ابني آدم؟
- ⇐ ولماذا قتل الأخ أخاه؟
- ⇐ وما هي أداة القتل التي مكنته من قتل أخيه؟
- ⇐ الخ

تخيلات: نحن نتخيل أن آدم وزوجه قد خرجا من الجنة منزوع عنهما لباسهما، بدليل أنهما اضطرا أن يخصفان على سوءاتهما من ورق الجنة:

- ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٢﴾ [الأعراف: 22]
- ﴿فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ١٢١﴾ [طه: 121]

ولكن آدم (نحن لا زلنا نتخيل) هبط من الجنة يحمل بيده تلك العصا (بعد أن عصى ربه)، فما عادت حيّة لأن آدم كان قد نسي:

- ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا ١١٥﴾ [طه: 115]

نتيجة مفتراة: كان آدم في الجنة (نحن نتخيل) يحمل في يده الأداة التي تمكنه من إخضاع الجن (خاصة الملائكة الذين سجدوا له) لطلباته. فلا يستطيع أحد منهم أن يزغ عن أمره لأنه كان سيذيقه بتلك العصا من عذاب السعير (كما كان يفعل سليمان بهم لاحقا). ولكن ما أن عصى آدم ربه حتى أصبحت تلك الأداة عصا (أي لم تعد تطيع أوامره لأنه ببساطة نسي العلم – علم الأسماء – الذي علمه إياه ربه. فما عاد يستطيع أن يستفيد من تلك الأداة بالطريقة نفسها التي كان يستفيدها منها عندما كان في الجنة قبل الوقوع في المعصية، فخرجت معه عصا بعد أن كانت (نحن نظن) حيّة تسعى:

كانت معه في الجنة حية تسعى = فخرجت معه من الجنة عصا

فما عاد يستطيع تسخير الجن له بها، فتوقفت سيرة تلك العصا الأولى هناك. وعادت إلى سيرتها هذه (الأولى) يوم أن ألقاها موسى في النار في الواد المقدس، وهناك تعهد الله بنفسه أن يعيد تلك العصا سيرتها الأولى، فعادت – كما كانت – حيّة تسعى.

وصلت إلى يد موسى عصا = فعادت حيّة تسعى في الواد المقدس طوى

تخيلات: خرج آدم من الجنة يحمل تلك الأداة وقد أصبحت عصا (لا تطيع أوامره)، وعندما نشب الخلاف بين الأخوين (ابني آدم) بعد أن قربا القربان الذي تُقبّل من أحدهما ولم يُتقبَّل من الآخر، طوعت نفس أحدهما قتل أخيه الآخر، فقتله:

- ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٧﴾ [المائدة: 27]

قصة ابني آدم وأداة القتل

كان لابد للقاتل (نحن نزعم الظن) من تنفيذ فعل القتل بطريقة ما، أليس كذلك؟

السؤال: كيف قتل الأخ أخاه؟ وما هي أداة القتل التي وجدها المحققون في مسرح الجريمة؟ فهل يعقل أن يحدث قتل دون أداة؟

رأينا: نحن نظن بداية أننا يجب أن لا ننسى أن قتل الأخ أخيه هذا كان من باب القتل العمد:

- ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا ٩٣﴾ [النساء: 93]

ليكون مراد القول هنا هو أن فعل القتل يحتاج إلى أداة ليحدث على أرض الواقع كما في فعل الصيد مثلا:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ٩٥﴾ [المائدة: 95]

ففعل القتل هو ما كان يفعله آل فرعون ببني إسرائيل مثلا:

- ﴿وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ١٤١﴾ [الأعراف: 141]

وها هو موسى نفسه يقتل رجلا من آل فرعون:

- ﴿إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ فَتَقُولُ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ فَلَبِثۡتَ سِنِينَ فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ ٤٠﴾ [طه: 40]

وهذا داوود يقتل جالوت، فلا أظن أنه قد قتله دون وجود أداة:

- ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٥١﴾ [البقرة: 251]

نتيجة نظن أنها مهمة: صحيح أن طرق القتل متعددة، لكن لابد (نحن نزعم الظن) من وجود الأداة التي تمكّن القاتل من تنفيذ فعل القتل بالمقتول، ليكون السؤال هو: ما هي الأداة التي قتل بها أحد أبناء آدم أخاه عندما طوعت له نفسه قتله؟

تخيلات: لمّا كان أبناء آدم لازالوا حديثي العهد بالحياة الجديدة، فلا أظن أنهم قد توصلوا بعد إلى مخترعات بشرية كالقنابل والمدافع والبنادق والسيوف والسكاكين والأحزمة الناسفة والبراميل المتفجرة وغيرها تمكنهم من تنفيذ مرادهم، فحياتهم في هذه الأرض الجديدة لازالت بدائية بدليل أن الأخ القاتل لم يكن يعرف بعد كيف يواري سوءة أخيه عندما قتله حتى بعث الله غرابا يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه:

- ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ٣١﴾ [المائدة: 31]

لذا، فإننا نعتقد (ربما مخطئين) أن من الضروري أن يستخدم القاتل ما كان متوافرا لديه من أدوات في تنفيذ مراده. والحالة هذه، فإننا نفتري القول من عند أنفسنا بأن القاتل لم يجد حوله ما يمكنه من قتل أخيه إلا تلك العصا التي هبط بها آدم من الجنة.

نتيجة مفتراة: نحن نزعم الظن بأن ولد آدم (القاتل) قد استخدم تلك العصا نفسها في قتل أخيه

(للتفصيل حول شخصية ابني آدم انظر سلسلة مقالتنا تحت عنوان: لماذا قدم لوط بناته بدلا من ضيوفه؟).

السؤال: وأين ذهبت تلك العصا؟

رأينا: بقيت تلك العصا في حيازة القاتل من ابني آدم حتى وصلت إلى يد إبراهيم.

السؤال: كيف وصلت تلك العصا إلى يد إبراهيم؟

جواب مفترى: نحن نظن أن إبراهيم حصل على تلك العصا ربما لأن الله قد أراه ملكوت السموات والأرض:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ۝٧٥﴾ [الأنعام: 75]

ولكن كيف ذلك؟

جواب: لما كان ملكوت كل شيء هو بيد الله:

- ﴿قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٨٨﴾ [المؤمنون: 88]
- ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝٨٣﴾ [يس: 83]

فإن منطقنا المفترى من عندنا يدفعنا إلى الظن بأن إبراهيم قد رأى ما هو بيد الله نفسه: إنه ملكوت السموات والأرض. فما فائدة أن يكون إبراهيم قد رأى ملكوت السموات والأرض الذي هو بيد الله نفسه؟ نحن نسأل.

جواب مفترى: لو راقبنا ردة فعل إبراهيم الأولى بعد خروجه من النار لوجدناها في الآية الكريمة التالية:

- ﴿قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ ۝٩٧ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ۝٩٨ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ۝٩٩﴾ [الصافات: 97-99]

سَيَهْدِينِ: العصا وهداية إبراهيم وموسى

لاحظ – عزيزي القارئ – كيف يتحدث إبراهيم هنا بصيغة المستقبل (سَيَهْدِينِ)، لنثير حول ذلك التساؤلات التالية:

⇐ أين هو رب إبراهيم الذي كان سيذهب إليه بعد خروجه من النار؟
⇐ وكيف سيهديه بعد أن يذهب إليه؟
⇐ ألم يكن رب إبراهيم قد هداه من قبل؟
⇐ الخ.

لو راقبنا الصيغة نفسها في كتاب الله لوجدناها قد تكررت مع موسى في الآيات الكريمة التالية:

- ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ۝٦٠ فَلَمَّا تَرَآءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۝٦٢ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ۝٦٣﴾ [الشعراء: 60-63]

ليكون السؤال الآن: ما معنى الهداية (**سَيَهْدِينِ**) في هذه السياقات القرآنية؟ فهل هي هداية إلى الله (من الكفر إلى الإيمان مثلا)؟

رأينا: كلا وألف كلا، نحن نظن أنها هداية للخروج من مأزق فقط. فهذا موسى يصل مع بني إسرائيل إلى حافة البحر فلا يستطيعون التقدم إلى الأمام خطوة واحدة، فأصبح البحر من أمامهم، وهذا فرعون وجنوده يتبعونهم مشرقين، فيصبح العدو من خلفهم، فيتراءى الجمعان، عندها يصبح يقينا في ذهن أصحاب موسى أنهم مدركون لا محالة، وما أن يجد موسى نفسه في هذا المقام حتى تكون ردة فعله هي:

- ﴿قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۝٦٢﴾ [الشعراء: 62]

ومما لا شك فيه عندنا أن موسى لم يكن يعلم آلية الهداية، أي كيف سيهديه ربه للخروج من هذا المأزق، لكن لمّا كان موسى مؤمنا يقينا بهداية ربه له لأن الله هو من وعده بذلك عند اللقاء الأول عندما طلب من موسى وأخيه هارون أن يذهبا إلى فرعون ليقولا له قولا لينا لعله يذكر أو يخشى:

- ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۝٤٤﴾ [طه: 43-44]

عندها كان التردد باديا في ردة فعلهما:

- ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ۝٤٥﴾ [طه: 45]

فجاءهما التطمين الإلهي بأن الله معهما يسمع ويرى:

- ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦﴾ [طه: 46]

وفي هذه اللحظة (لحظة أن تراءى الجمعان)، لم يكن موسى ليفقد الإيمان بوعد ربه، فهو يعلم أن ربه معه يسمع ويرى (إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ)، لذا لابد أنه سيهديه.

السؤال إذن: ما معنى قول موسى في ذلك الموقف أن ربه سيهديه (قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ)؟

رأينا: نحن نظن أن موسى قد قالها موقنا بأن ربه سيدله على الطريقة التي سيخرج بها مع بني إسرائيل سالما من فرعون وجنوده؟

السؤال: وما هي تلك الطريقة؟

رأينا: لم يكن موسى يعلم ما ستكون آلية الهداية (أي آلية الخروج من المأزق).

السؤال: وكيف تحققت على أرض الواقع؟

رأينا: إنها تلك العصا.

- ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٦٣﴾ [الشعراء: 63]

نتيجة: كانت هداية الله لموسى في ذلك الموقف قد تحققت بأن أعلمه بأمر تلك العصا، فهي الأداة التي ستمكنه من النجاة ببني إسرائيل سالما من خطر فرعون وجنده القادمين من الخلف.

نتيجة خطيرة جدا: كانت العصا هي من أنقذت موسى وبني إسرائيل من قبضة فرعون وليس الله نفسه.

كلام خطير، أليس كذلك؟

منطقنا المفترى: نحن نظن أن ما فعله الله هو هداية موسى إلى الأداة التي تمكنه من النجاة (وهي العصا). ولو كان الله هو من أنقذ موسى وبني إسرائيل، لما كان بحاجة إلى هداية موسى إلى تلك العصا، ولربما فعل ذلك بنفسه، كأن يفلق البحر من عنده دون الحاجة لأن يضربه موسى بالعصا. لذا نحن نفرق بين الإنقاذ والنجاة. فالله هو من نجى موسى وبني إسرائيل:

- ﴿وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ۝٥٠﴾ [البقرة: 50]

ولكن العصا هي التي أنقذتهم، لأن الله كان (بمفردات أهل القواعد) هو الفاعل غير المباشر (فحصلت النجاة) بينما كانت العصا هي الفاعل المباشر (فحصل الإنقاذ) كما في الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٠٣﴾ [آل عمران: 103]

فالإنقاذ من النار لا يقدر عليه أحد كفاعل مباشر (نحن نظن) إلا الله. وانظر – إن شئت – في الآيات الكريمة التالية:

- ﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ١٩﴾ [الزمر: 19]
- ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ٢٣﴾ [يس: 23]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣﴾ [الحج: 73]

نتيجة مفتراة: تمثلت الهداية التي كان ينتظرها موسى من ربه في ذلك المأزق في أن هداه الله إلى تلك العصا التي كانت بيمينه. فكانت هي الوسيلة المباشرة التي أخرجته وقومه من ذلك المأزق الذي وجدوا أنفسهم فيه.

السؤال: إذا كان هذا ما حصل مع موسى عندما قال بأن ربه سيهديه (سَيَهۡدِينِ)، فما هي الهداية التي كان يبحث عنها إبراهيم عندما قال بأن ربه سيهديه (سَيَهۡدِينِ)؟ وكيف تحققت على أرض الواقع؟

رأينا: نحن نظن أن إبراهيم قد وجد نفسه أيضا في مأزق مع قومه، فخطط القوم للتخلص منه، ولم يجد إبراهيم بدا من اللجوء إلى ربه لهدايته، أي لخروجه من ذلك المأزق:

- ﴿قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ ٩٧ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ٩٨ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٩٩﴾ [الصافات: 97-99]

وتكرر اللفظ نفسه (**سَيَهْدِينِ**) في السياق القرآني التالي:

- ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ٢٧ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٢٨ بَلۡ مَتَّعۡتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ وَرَسُولٞ مُّبِينٞ ٢٩ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٣٠﴾ [الزخرف: 26-30]

السؤال: كيف حصلت الهداية الإلهية لإبراهيم للخروج من هذا المأزق؟

افتراء خطير جدا جدا: لقد هدى الله إبراهيم إلى تلك العصا، وقد افترينا الظن من عند أنفسنا بأن إبراهيم قد استخدم تلك العصا في تجذيذ أصنام القوم

- ﴿فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرٗا لَّهُمۡ لَعَلَّهُمۡ إِلَيۡهِ يَرۡجِعُونَ ٥٨﴾ [الأنبياء: 58]

عندها اتخذ القوم قرارهم بتحريق إبراهيم مع عصاه التي استخدمها في تجذيذ أصنامهم، غير مدركين بالطبع للقوة العجيبة التي وضعها الله في تلك العصا.

قوة العصا: كيف كان قوم إبراهيم هم الأسفلين

الدليل

نحن نجد الدليل على افتراءاتنا هذه في الآية الكريمة التالية التي تصور إبراهيم مكانيا مقارنة بقومه الذين ألقوه في النار:

- ﴿قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ ٩٧ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ٩٨﴾ [الصافات: 97-98]

السؤال: وكيف كان القوم الذين ألقوه في النار هم الأسفلون (فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ) كما جاء بصريح اللفظ في هذه الآية الكريمة؟

منطقنا المفترى: لمّا كان القوم قد بنوا لإبراهيم بنيانا (قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا)، ولمّا كان القوم هم من سيقومون بإلقاء إبراهيم من فوق البينان إلى الجحيم (فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ). كان من المفترض (نحن نتفكر) أن يكونوا من الناحية المكانية هم الأعلون (مادام أنهم متواجدون فوق البنيان) وهو – أي إبراهيم – الأسفل (مادام أنه هو الذي سيسقط في الجحيم)، أليس كذلك؟

لكن ما الذي حدث فعلا؟ ألم يصبحوا هم الأسفلون؟ انظر – عزيزي القارئ – السياق القرآني نفسه مرة أخرى جيدا:

- ﴿قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنٗا فَأَلْقُوهُ فِي ٱلْجَحِيمِ ۝٩٧ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدٗا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ۝٩٨﴾ [الصافات: 97-98]

ليكون السؤال الذي لا مفر منه هو: كيف كانوا هم الأسفلون وهم المتواجدون فعليا فوق البنيان؟ ثم إذا كانوا هم الأسفلون، فمن هو الأعلى مكانة؟ أليس هو إبراهيم؟

السؤال: كيف حصل ذلك؟

تخيلات: ما أن حمل القوم إبراهيم وعصاه إلى فوق البنيان، وأرادوا أن يجعلوه في النار بإلقائه فيها من فوق ذلك البنيان حتى أدرك إبراهيم (كما فعل موسى) أن الله معه يسمع ويرى، فما فقد إبراهيم الأيمان المطلق بأن الله سيهديه إلى النجاة من هذا المأزق. فما خاب ظن إبراهيم. فعندما ألقى القوم بإبراهيم في النار (نحن نؤمن) حتى جعلهم الله هم الأسفلين، ونحن نتخيل أن ذلك قد حصل على أرض الواقع على نحو أنه ما أن دخلت تلك العصا التي كان لازال إبراهيم يحملها بيده في النار حتى خرجت من النار وهي تطير بإبراهيم إلى الأعلى بدل أن تنزل به إلى الجحيم.

السؤال: ومتى حصل ذلك بالفعل؟

رأينا: نحن نظن أن ذلك قد حصل بمجرد أن دخلت العصا في النار، فما أن ألقيت تلك العصا في النار حتى عادت إليها بعض قواها الدفينة، فخرجت طائرة بإبراهيم من النار، فما أصاب إبراهيم أذى سوى أن لباسه الذي كان يغطي سوءته وشعره وبعضا من أظفاره قد التهمتها تلك النار، ولكنها كانت – لا شك – بردا وسلاما على إبراهيم نفسه:

- ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩﴾ [الأنبياء: 69]

الدليل

نحن نظن أن الدليل على هذا الزعم المفترى من عندنا موجود في قصة موسى، ويمكن استنباطه بكل سهولة بعد طرح التساؤل التالي: لماذا طلب الله من موسى أن يلقي بالعصا بالنار في الواد المقدس؟ ألم يكن بالإمكان أن تعود القوة الكامنة إلى العصا دون الحاجة أن تلقى في النار؟

رأينا: حاولنا في مقالة سابقة لنا تقديم الظن بأن موسى قد ألقى عصاه في النار، بدليل أنها خرجت كأنها جان:

- ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدْبِرٗا وَلَمْ يُعَقِّبْۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٠﴾ [النمل: 10]
- ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدْبِرٗا وَلَمْ يُعَقِّبْۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْأٓمِنِينَ ۝٣١﴾ [القصص: 31]

وحاولنا تدبر سبب خروج العصا من النار ويكأنها جان على وجه التحديد، فظننا مفترين القول من عند أنفسنا بأنها قد شبّهت بالجان وذلك لأن الجان هو المخلوق من نار السموم أصلا:

- ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧﴾ [الحجر: 27]

ليكون منطقنا المفترى من عند أنفسنا هو: كان لابدّ لتلك العصا حتى تعود إلى سيرتها الأولى أن تلقى في النار، لذا ما أن ألقيت مع إبراهيم في النار حتى اكتسبت بعض صفاتها الدفينة، فطارت به فوق البنيان بدل أن تنزل به إلى الجحيم، فكان القوم الذين ألقوا بإبراهيم في النار هم الأسفلون:

- ﴿قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ۝٩٧ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ۝٩٨﴾ [الصافات: 97-98]

وكان إبراهيم هو الأعلى مكانيا. وبمثل هذا المنطق تكرر (نحن نظن) السيناريو نفسه في حالة موسى، فما أن ألقى موسى بتلك العصا في النار حتى خرجت تهتز كأنها جان. وكان ذلك سببا كافيا لأن يدب الخوف منها في قلب موسى، فولى مدبرا ولم يعقب (أي لم يكن لينظر وراءه من سرعة هروبه منها بالرغم من أنه كان حاف القدمين، فالله هو من طلب منه أن يخلع نعليه هناك:

- ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢﴾ [طه: 9-12]

لماذا خاف موسى من العصا؟

السؤال: لماذا خاف منها موسى ولم يخف منها إبراهيم؟ فلا يجب أن ننسى إن موسى كان يشتغل برعي الغنم في مدين. وهل تظن بأن الراعي يخاف من أفعى؟ وهل تظن أن شخصا سيرته كسيرة موسى ربما يخاف من حية (أفعى) فيولي منها مدبرا لا يعقب أبدا؟

جواب: نحن نظن أن الخوف قد دب في قلب موسى من تلك العصا التي خرجت كأنها جان لأن موسى كان من الذين ظلموا. وانظر – إن شئت – في تكملة السياق القرآني نفسه:

- ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٠ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١١﴾ [النمل: 10-11]

السؤال: ومتى كان موسى من الذين ظلموا؟

جواب: عندما قتل الرجل الذي هو من عدوه. وانظر – إن شئت – في ردة فعل موسى نفسه بعد تلك الحادثة مباشرة:

- ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ [القصص: 15-16]

نتيجة: مادام موسى قد ظلم نفسه من ذي قبل لذا كان لابد أن يخاف في مثل ذلك الموقف، ولو كان إبراهيم أو محمد أو أي أحد آخر من رسل الله في ذلك الموقف لما خاف حتى لو خرجت تلك العصا كأنها جآن.

السؤال: لماذا يخاف الذين ظلموا من المرسلين (كموسى مثلا) في مثل هذا الموقف؟

- ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [النمل: 10-11]

رأينا: نحن نعلم يقينا أن موسى (كباقي رسل الله أجمعين) كان يبحث على الدوام عن الهدى، فهو أصلا من طلب من أهله المكوث لاستطلاع خبر النار علّه يجد عليها هدى:

- ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾﴾ [طه: 9-10]

فقد كان موسى يبحث عن الهدى، وهو لا يمكن أن يقنط من رحمة ربه بأن يهديه مادام أنه قد غفر له:

- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ [القصص: 16-17]

لذا، نحن نتخيل أن موسى كان يؤمن بأن الله سيهديه، لكن لماذا خاف في ذلك الموقف وهو الذي جاء إلى النار باحثا عن الهداية أصلا؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن السبب في ذلك ربما يعود إلى أن موسى (وإن كان باحثا عن الهداية) لم يكن (نحن نظن) ليخطر على قلبه (وربما لم يكن يستطيع أن يتخيل) أن يكلّمه الله بنفسه مادام أنه كان من الظالمين. فلماذا؟

رأينا: نحن نعتقد أن موسى كان يعلم أن الله غفور رحيم، وهو يعلم الكرم الإلهي اللامحدود، لكن الذي لم يكن ليخطر ببال موسى هو أن يصل الكرم الإلهي أن يكلم الله بنفسه من كان قد وقع في فعل القتل وظلم نفسه كموسى. ويكأن موسى في تلك اللحظة يقول في نفسه (نحن نتخيل) هل يمكن أن يكون هذا الذي

يخاطبني مباشرة هو الله نفسه؟ هل يمكن أن يخاطب الله من كان ظالما مثلي؟ لقد ظن موسى أن لحظة المحاسبة قد حانت. فهو يظن (نحن نتخيل) بأن هذه العصا التي خرجت من النار تهتز كالجان إنما هي موجهة إليه لتقتص منه جزاء ظلمه (قتله للنفس)، فموسى قد وكز ذلك الرجل وكزا فقضى عليه:

- ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [القصص: 15]

وقد ظننا في مقالة سابقة لنا الوكز يعني أن موسى قد استخدم تلك العصا في ضرب الرجل. وها هو رب موسى يطلب من موسى الآن أن يلقي بتلك العصا في النار فإذا هي تخرج كأنها جآن. عندها نسي موسى (نحن نتخيل) أنه حاف القدمين، والأهم من ذلك أنه نسي أن الذي يخاطبه مباشرة هو الله نفسه، فما كان منه إلا أن يولي مدبرا غير معقب (أي لم يكن – نحن نظن – لينظر خلفه):

- ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ ... ﴿١٠﴾﴾ [النمل: 10]

ظانا بأن وقت المحاسبة على تلك الفعلة الشنيعة (القتل) قد حانت بأداة القتل نفسها (وهي العصا).

ولكن التطمين الإلهي جاءه على الفور على النحو الذي تصوره بقية الآيات نفسها:

- ﴿... يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾﴾ [النمل: 10]
- ﴿...يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾﴾ [القصص: 31]

ويكأن الله (نحن نظن) يقول لموسى في تلك اللحظة أني أعلم أنك خائف، وأعلم سبب خوفك وهو ظلمك السابق، لكن لا يجب أن تنسى أني أنا الغفور الرحيم، وأن رحمتي وسعت كل شيء، فهي أكبر بكثير مما يمكن أن تتخيل يا موسى. لذا فإنك من المرسلين (أي نعم أنت رسولي الذي اخترته بالرغم من ظلمك) لأنك بدّلت حسنا من بعد سوء:

- ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [النمل: 11]

فموسى فعل فعلته التي فعل، فكان من الضالين:

- ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الشعراء: 19-20]

ولكنّه مكث سنين من عمره في مدين نادما مستغفرا، يحاول أن يبدّل حسنا بعد سوء:

- ﴿إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ فَتَقُولُ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ فَلَبِثۡتَ سِنِينَ فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ ۝٤٠﴾ [طه: 40]

نتيجة مفتراة خطيرة جدا: نحن نظن أن اصطفاء موسى بالرسالة قد تأخر بمقدار الفترة الزمنية التي لبثها في مدين، وكان ذلك حتى استطاع موسى أن يبدل حسنا بعد سوء. وقد جاء هروبه لهذه الغاية

- ﴿فَفَرَرۡتُ مِنكُمۡ لَمَّا خِفۡتُكُمۡ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكۡمٗا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٢١﴾ [الشعراء: 21]

دعاء: رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي، وأسألك رب أن أكون ممن بدّلوا حسنا بعد سوء، فإنك أنت الغفور الرحيم - آمين

وسنتحدث عن سبب فرار موسى في مقالات مستقلة د. رشيد الجراح عن تطبيق الحدود الشرعية إن أذن الله لنا بشيء من علمه، طارحين حينها التساؤل المثير التالي: ألم يكن الأجدر بالقاتل (كموسى) أن يسلّم نفسه ليقتص منه؟ فلماذا هرب موسى من العقاب؟ ولماذا خاف أصلا من العقاب؟

هذا ما سنحاول النبش فيه لاحقا، سائلين الله أن يهدينا رشدنا، فلا نفتري عليه الكذب – آمين.

عودة على بدء

تفعيل العصا: الفرق بين نار قوم إبراهيم والنار التي آنسها موسى

السؤال: ما الفرق بين ما حصل للعصا في حالة إبراهيم وما حصل للعصا في حالة موسى؟

رأينا: نحن نظن أن العصا قد ألقيت في النار في الحالتين، وقد خرجت من النار بنفسها في الحالتين، ولكن هناك (نحن نظن) فرقا جوهريا بين الموقفين، يتمثل في طبيعة النار التي دخلت فيها تلك العصا. ففي حين أن النار التي دخلت بها العصا في حالة إبراهيم كانت نارا من صنع القوم أنفسهم، لم تكن النار التي دخلت بها العصا في حالة موسى من صنع الناس، وإنما هي (نحن نظن) نار أعظم بكثير من ذلك، أشعلها ذلك النجم الذي هوى:

- ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾ [النجم: 1]

ولما كان هؤلاء النفر من الناس (وهم المرسلون) ممن يهتدون بالنجم:

- ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ١٦﴾ [النحل: 16]

كانت النار التي حصلت في حالة موسى هي نار خاصة جدا بدليل أن موسى وحده هو من آنسها:

- ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ٩ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ١٠﴾ [طه: 9-10]

(للتفصيل انظر سلسلة مقالاتنا: لماذا قدم لوط بناته بدلا من ضيوفه؟)

وما أن وصل موسى إلى تلك النار حتى وجد الهداية عندها، فبدأ الحوار من عند الإله على النحو التالي الذي تظهر فيه المباركة لمن في النار ولمن حولها:

- ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٨﴾ [النمل: 8]

ثم استمر الحوار على النحو التالي:

- ﴿يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٩ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ١٠﴾ [النمل: 9-10]

تساؤلات:

⇐ ما هي تلك النار؟ وما هي ماهيتها؟
⇐ ومن هو الذي بورك فيها؟ (أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ)
⇐ ومن هم الذي بورك من حولها؟ (أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا)
⇐ الخ.

إذا كنا نعلم أن الذي حول النار هو موسى، فمن هو الذي فيها؟

رأينا: لا شك عندنا أن كينونة ما كانت في النار، فحصلت المباركة له. لذا فهذه النار التي أنسها موسى من جانب الطور هي نار عظيمة، يستحيل أن تقارن بالنار التي أوقدها القوم لإبراهيم ليجعلوه فيها.

سؤال: وما فائدة هذا الطرح هنا؟

جواب مفترى: لما كانت النار هي التي أعادت للعصا بعض خصائصها الدفينة، كان هناك فرق بين الخصائص التي عادت للعصا عندما ألقيت في نار قوم إبراهيم وتلك التي عادت إليها عندما ألقيت في النار في الواد المقدس في حالة موسى. فما الفرق؟

رأينا: في حين أن نار إبراهيم قد أعادت للعصا قدرتها على الطيران، فإن نار الواد المقدس قد أعادت للعصا خصائص دفينة أخرى كثيرة، فأصبحت قادرة على أن تلقف عصي وحبال السحرة، وأصبحت قادرة أن تشق البحر وأن تفجر عيون الماء من الحجر وأن تدب الحياة في عجل السامري، وأن يسخر بها الجن، لذا عادت إلى سيرتها الأولى هناك في الواد المقدس طوى. وانظر – إن شئت – في السياق القرآني الأوسع:

- ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝١٥ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٦ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝١٧ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ۝١٩ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝٢٠ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ۝٢١﴾ [النازعات: 15-21]

فكانت تلك العصا آية كبرى. ولو تدبرنا السياق القرآني التالي لوجدنا أنهما أصبحا آيتين بعد أن أدخل موسى يده في جيبه (لتخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى):

- ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ۝١٤ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ۝١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ۝١٦ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝١٧ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ۝١٨ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ۝١٩ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۝٢٠ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ۝٢١ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ۝٢٢ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ۝٢٣﴾ [طه: 9-23]

والله أعلم.

ليعود حديثنا من جديد من آية العصا (ذات المواصفات العديدة الخارقة) التي تعرضنا لها في هذا الجزء إلى آية القميص ذات المواصفات المحدّدة والتي من أهمها أنها أعادت إلى يعقوب بصره والتي بدأنا الحديث عنها في الأجزاء السابقة.

السؤال: كيف حصل ذلك؟ كيف ارتد يعقوب بصيرا بمجرد أن ألقى البشير بالقميص على وجهه:

- ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًاۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٩٦﴾ [يوسف: 96]

هذا ما سنحاول النبش فيه في الجزء القادم.

فالله وحده أسأل أن يأذن لنا بعلم لا ينبغي لغيرنا. وأسأله وحده أن يعلمني وصاحبي عليّا ما لم نكن نعلم، وأن يجعل فضله علينا عظيما، وأن يهدينا إلى نوره الذي أبى إلاّ أن يتمّه ولو كره الكافرون، ونعوذ به أن نكون ممن يفترون عليه الكذب أو ممن يقولون عليه ما ليس لهم بحق، ونعوذ به أن نكون ممن يصدون عن سبيله أو ممن يبغونها عوجا - إنه هو العليم الحكيم.

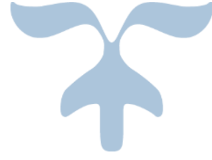
وأساله وحده أن ينفذ قوله بمشيئته وإرادته لي الإحاطة بشيء من علمه لا ينبغي لأحد غيري، إنه هو الواسع العليم - آمين.

المدّكرون: رشيد سليم الجراح & علي محمود سالم الشرمان
بقلم: د. رشيد الجراح
27 أيار 2014
د. رشيد الجراح مركز اللغات، جامعة اليرموك.



قصة يوسف – الجزء السابع والعشرون

"باب كتابة الأرض المقدسة"





الجزء السابع والعشرون – باب كتابة الأرض المقدسة لبني إسرائيل

تساؤلات:

- هل فعلا كتب الله الأرض المقدسة لبني إسرائيل؟
- متى كان ذلك؟
- لماذا؟

تمهيد:

سنحاول في هذا الجزء الجديد من قصة يوسف التعرض لقضية كتابة الأرض المقدسة لبني إسرائيل، ظانين بأن في تفاصيل قصة يوسف من الأحداث (كما نفهمها) ما قد يساعد في فهم هذه القضية التي ربما سببت إشكالات نظن أنها متناقضة في فكر المتدينين من أتباع العقائد المختلفة؛ فكل أهل عقيدة يذهبون بالآيات الخاصة بهذه القضية بالاتجاه الذي يخدم مصالحهم ويحقق مآربهم الشوفانية الطائفية. وسنبدأ الطرح هنا باستعراض ما عند هؤلاء الطوائف من الأثر الذي يرتكزون عليه ليروجوا لفهمهم الذي يظنون أنه الحق المطلق. وسنتبع ذلك برأينا المفترى من عند أنفسنا الذي نظن أنه لا يتوافق (من حيث المبدأ) مع ما عند أهل هذه العقائد، لأنها برأينا (ربما المغلوط) لا تعدو أكثر من تحريفات مقصودة للنص الديني. ونترك للقارئ الكريم نفسه أن يتبنى ما يظن أنه أقرب إلى الصواب بناء على وجود الدليل (أو عدمه) في كل جزئية من البحث. ونجد لزاما هنا أن نؤكد على موقفنا الذي لا نملّ من تكراره، ألا وهو أن ما نقدمه يقع في باب الافتراءات التي لا تثبت إلا بالدليل. لذا، يمكن ردها كذلك بالدليل، فمن يجد عنده الدليل على ردها، فسيجد بأننا كنا آذان صاغية لما يقول. ونحن على استعداد للتخلي عنها متى وجد الدليل على تكذيبها.

أما بعد،

المشهد الأول: التفاسير المختلفة – أحقية بني إسرائيل بالأرض المقدسة

تركز كاميرا المصور على "إسرائيل يصارع الرب"– كما جاء في تراث الأمم السابقة من أهل الكتاب – لينتزع منه اعترافا بأحقية ذريته بالأرض المقدسة، فالمشهد في الكتاب المقدس – كما شرحه لنا أهل تلك العقائد – على نحو أن إسرائيل هو يعقوب نفسه، وأن الصراع قد حصل في الواد المقدس، وأن الهدف من ذلك الصراع هو أن ينتزع إسرائيل اعترافا من الرب بوراثة ذريته الأرض المقدسة.

ونجد عند الطرف الآخر قولا خجولا باعترافهم بأحقية بني إسرائيل بوراثة الأرض المقدسة، فتجد التفسيرات الكثيرة التي تلوي عنق النص الذي يقرؤونه في أكثر من مكان في كتابهم، من مثل:

- ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٠ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ۝٢١﴾ [المائدة: 20-21]

فيظن بعض هؤلاء أن ذلك كان مرحليًا، مشروطًا بأولئك الذين كانوا مع موسى حينئذ، ولا ينسحب (هم يظنون) على من جاء منهم بعد ذلك. ويشترط بعضهم الآخر وجود عنصر الإيمان عند بني إسرائيل لحيازة الأرض المقدسة، فلسان حال هؤلاء يقول: مادام أن بني إسرائيل ما عادوا مؤمنين، فلا حق لهم بالأرض المقدسة، وهكذا.

لكن يبقى السؤال قائما: هل لبني إسرائيل حق في وراثة الأرض المقدسة في كل زمن؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن بأن الإجابة على هذا السؤال هي بالإيجاب شريطة التعرض لمجموعة من الأسئلة الرئيسية حول هذه القضية الكبيرة جدًا، ألا وهي:

⇐ من هم بنو إسرائيل؟
⇐ متى كتب الله الأرض المقدسة لبني إسرائيل؟
⇐ كيف كتبها لهم؟
⇐ لماذا كتبها لهم؟
⇐ الخ

رأينا: بنو إسرائيل لهم الأحقية بوراثة الأرض المقدسة

رأينا المفترى: نحن – ابتداء – لا ننكر أحقية بني إسرائيل بوراثة الأرض المقدسة في كل وقت امتثالا لما جاء في كتاب الله في قوله تعالى:

- ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٠ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ۝٢١﴾ [المائدة: 20-21]

كما نظن (ربما مخطئين) بأنهم قد تحصلوا على هذا الحق فعلا زمن نبي الله يعقوب، وأن ذلك كان بسبب الاجتباء الإلهي ليوسف على إخوته، وخروجه من الأرض المقدسة إلى مصر، لكن يبرز السؤال الآن على نحو: كيف حصل ذلك؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: كان ليعقوب النبي اثنا عشر ولدا، وكان من بينهم يوسف الذي كاد له إخوته كيدا، وطرحوه أرضا، ليتخلصوا منه، فيخلو لهم وجه أبيهم، ويكونوا من بعده قومًا صالحين:

- ﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ۝٩﴾ [يوسف: 9]

وكان يعقوب –كما افترينا في هذه الأجزاء حول قصة يوسف – هو من رسم لأبنائه خطة التخلص من يوسف، فأرشدهم إلى طريقة الخلاص من يوسف بأن يلقوه في غيابت الجب، ثم يدّعون بأن الذئب قد أكله. وبالفعل ينفذ الأولاد (نحن مازلنا نتخيل) الخطة التي رسمها لهم أبوهم بحذافيرها وهم لا يشعرون. فيلقوا يوسف في غيابت الجب. وتأتي السيارة، فيسرّوه بضاعة، ويخرج يوسف من تلك الديار سالمًا من بين أيدي الإخوة الذين كادوا له. (للتفصيل انظر الأجزاء السابقة)

ونحن نفتري الظن هنا بأن خروج يوسف من الأرض كان أمرًا متفقا عليه بين يعقوب من جهة مع أحد أبنائه الاثني عشر من جهة أخرى. فبنود الاتفاق كانت (نحن نظن) على نحو أن يكون ميراث النبوة ليوسف بينما تكون وراثة الأرض المقدسة لأخيه وذريته من بعده. وبالتالي، تم إخراج يوسف من تلك الأرض ومعه بعض ميراث بيت النبوة، ألا وهو القميص باتفاق مسبّق بين يعقوب وواحد من أبنائه الاثني عشر. ليكون السؤال الآن: كيف تم ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن الإجابة على هذا السؤال المفترى من عند أنفسنا يتطلب طرح سؤال آخر مفاده: كيف استطاع يوسف الخروج بشيء من ميراث النبوة (القميص) دون أن ينتبه لذلك إخوته المتآمرين عليه؟

رأينا المفترى: كان ليوسف أحد عشر أخ، عشرة منهم غير أشقاء (أي من أبيه فقط)، وواحد فقط أخ شقيق له (من أبيه وأمه). فتآمر العشرة (كعصبة) على يوسف، محاولين التخلص منه ليخلو لهم وجه أبيهم، ويكونوا من بعده قومًا صالحين. فالأبناء لن يقروا بأفضلية يوسف عليهم، لأنه (نحن نظن) ليس أكبرهم سنا، وبالتالي ليس هو – برأيهم – صاحب الحق الشرعي في وراثة بيت النبوة.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن بأن احتجاج الإخوة على أفضلية يوسف عليهم في هذا الوقت كان مدفوعًا بالرأي الذي مفاده أن ميراث الأب يكون في الابن الأكبر سنا. لذا، ما أن يتخلصوا من يوسف حتى تكون الشرعية بوراثة بيت النبوة لواحد منهم هو – في نظرهم – صاحب الحق الشرعي في ميراث النبوة. ليكون السؤال الآن هو: من هو ذلك الأخ الذي كان من المفترض أن يكون له الحق في ميراث النبوة إن لم يكن يوسف؟

جواب مفترى: إنه الأخ الأكبر سنا بينهم. فالابن الأكبر هو – على الدوام – صاحب الحق الشرعي الذي يتولى الأمر بعد والده. فهكذا درج الناس في كل زمان ومكان. فالابن الأكبر للملك – مثلًا – هو من يتسلم مقالد

الحكم بعد والده، ولن يستطيع بقية الأبناء الاحتجاج على شرعيته، وينتقل الحكم بطريقة سلسلة لا تؤجج الخلاف بين الإخوة جميعا. لكن لو حصل أنْ آل الأمر إلى غير الابن الأكبر، لربما احتج الابن الأكبر نفسه على ذلك، ولربما سانده في هذا الاحتجاج كثير من الآخرين من حوله. فإخوة يوسف أحد عشر شخصا، فيستحيل أن يكون الأمر لهم جميعا بعد والدهم، ولكن لابد أن يكون لواحد منهم. ولابد أن يكون هذا الشخص هو (نحن نظن) كبيرهم حتى لا يتنازعوا الأمر بينهم.

من هو الأخ الأكبر ليوسف؟

السؤال: من هو الأخ الأكبر؟

جواب مفترى: إنه إسرائيل. انتهى.

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: كان ليعقوب اثنا عشر ولدا، وكان أكبرهم هو "إسرائيل"، وكان من المفترض (نحن نفتري الظن من عند أنفسنا) أن يكون هو صاحب الحق في إرث النبوة من بعد والده يعقوب، وهذا ما كان يظنه جميع الإخوة. فكان من المتوقع أن يحظى هذا الشخص بمكانة خاصة عند أبيه يعقوب، تحضيرًا له لتولى الأمر من بعد والده. لكن يعقوب علم مما علّمه الله أن ذلك الإرث لن يكون في ولده الأكبر (إسرائيل هذا)، وأن الاجتباء الإلهي قد يكون في واحد من أثنين من أبنائه الآخرين: إما يوسف أو أخيه الشقيق، فولى وجهه شطر الإثنين، فظن الإخوة أن الأب يحبهما أكثر من البقية:

- ﴿إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝٨﴾ [يوسف: 8]

ولكن عندما رأى يوسف تلك الرؤيا وقصّها على أبيه، ثبت ليعقوب النبي (والأب) بأن ميراث النبوة من حق يوسف فقط، فوجّه وجهه شطر يوسف، تاركا الأخ الشقيق الآخر ليكون في زمرة بقية الإخوة الآخرين، فجاء قرار الإخوة بالتخلص من يوسف فقط، بعدما أيقنوا أن والدهم يعقوب مؤثِرا يوسف على وجه التحديد على الجميع، فقالوا:

- ﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ۝٩﴾ [يوسف: 9]

لماذا يوسف أو أخوه الشقيق؟

السؤال: لماذا كان في علم يعقوب (قبل أن يأتيه يوسف بخبر الرؤيا) أن إرث بيت النبوة سيكون في يوسف أو أخيه الشقيق هذا، فكان مولي وجهه شطر الاثنين دون بقية الإخوة الآخرين؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن بأن علم يعقوب المسبق في أن إرث بيت النبوة سيكون في واحد من ولديه هذين (يوسف أو أخيه) لأنهما إخوة غير أشقاء للآخرين؟

السؤال: كيف ذلك؟

رأينا المفترى: كان يوسف وأخوه أشقاء (من نفس الأب والأم)، بينما كان الإخوة الآخرين غير أشقاء ليوسف وأخيه لأنهما كانا يشاركانهما الأب فقط. فهم إخوة لهم من أبيهم، كما جاء على لسان يوسف لاحقًا عندما طلب من إخوته الآخرين يوم كان عزيز مصر أن يأتوه بأخ لهم من أبيهم:

- ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾﴾ [يوسف: 59]

نتيجة مفتراة: كان يوسف وأخوه أشقاء يتشاركون الأب والأم، بينما كان بقية الإخوة يشاركونهم الأب فقط (اي إخوة غير أشقاء ليوسف وأخيه الشقيقين).

السؤال: ما علاقة ذلك بعلم يعقوب المسبق بأن إرث النبوة سيكون في يوسف أو أخيه، فولى وجهه شطرهما؟

جواب مفترى خطير جدا: لأن ميراث النبوة ليوسف جاءه ليس فقط من خلال أبيه يعقوب وإنما أيضا من خلال أمه. فوالدة يوسف هي من بيت فيه "جينات" النبوة. انتهى.

تخيلات مفتراة: نحن نفتري الظن بأن النبي يكتسب ميراث النبوة من خلال والده، ويحظى بالاصطفاء الإلهي من خلال أمه. فللأم – نحن نظن – دور محوري في الاجتباء الإلهي بالرسالة.

نتيجة مفتراة: نحن نظن بأن علم يعقوب المسبق بأن الاجتباء الإلهي سيكون في يوسف أو أخيه بسبب معرفته بأن لهذين الولدين من أبنائه ميزة على بقية الإخوة بسبب أمهم. فالإخوة جميعا يتشاركون بجينات الأب، فيتساوون في ذلك، لكنهم يختلفون في جينات الأم. ولذا، وجه يعقوب في الفترة السابقة لرؤيا يوسف وجهه تجاه هذين الإخوين، فما كان ليخفى هذا التصرف على بقية الأبناء، فقالوا:

- ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾﴾ [يوسف: 8]

لكن ما أن جاء يوسف أباه بخبر الرؤيا قائلا:

- ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [يوسف: 4]

حتى تأكد ليعقوب ظنه في واحد منهما وهو يوسف على وجه التحديد، فولى وجهه شطر يوسف تاركًا الأخ الشقيق ليوسف لينظم إلى بقية الإخوة الآخرين. وفي هذه اللحظة أدرك جميع إخوة يوسف (نحن نظن) أن التخلص من يوسف على وجه التحديد هو الحل لمعضلتهم مع أبيهم، فقالوا:

- ﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩﴾ [يوسف: 9]

فبدأ الإخوة يدبرون الكيد ليتخلصوا من يوسف فقط. وفي خضم المؤامرة التي أخذ الإخوة يحيكونها ضد أخيهم يوسف، يخرج صوت من بينهم يدعوهم ألا يقتلوا يوسف بل يجعلوه في غيابت الجب ليلتقطه بعض السيارة، ويظهر لهم بأنه غير راض عما يفعلون:

- ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝١٠﴾ [يوسف: 10]

دور الأخ الأكبر في إنقاذ يوسف

فلو دققنا في هذا النص جيدًا، سنجد بأن هذا الصوت (غير المتوقع) يقدم لهم المشورة بأن لا يقتلوا يوسف، ويقترح عليهم أن يلقوه في غيابت الجب، مبررا عدم موافقته التامة بقوله (إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ). ويكأن لسان حاله يقول لهم بأنه إن كان لابد من التخلص من يوسف، فالطريقة الأمثل هي إلقائه في غيابت الجب، ويكأنه يقول بطريقة غير مباشرة بأن هذا خيار أفضل من قتله. ونحن نظن (ربما مخطئين) بأن هذه هي الإشارة النصية الأولى التي تبين "انفصاله غير المعلن" عمّا يخطط له الإخوة بحق أخيهم يوسف. فالمشهد يمكن تصويره على نحو حصول اجتماع مغلق بين الإخوة للتشاور بكيفية التخلص من يوسف، فكان اجماعهم على قتله ليخلو لهم وجه أبيهم، فيخرج هذا الصوت في الاجتماع ليقدم اقتراحًا بديلًا عن قتل يوسف، ألا وهو أن يلقوه في غيابت الجب ليلتقطه بعض السيارة. وأظن أن هذا الأخ قد قدم لهم مبررات هذا المقترح على نحو أن أقنعهم بأن هذا هو الخيار الأمثل. لذا، نزل جميع الإخوة عند اقتراحه – برأينا – لسببين اثنين:

أولا، أنه كبيرهم، وهو المتضرر الأكبر من اجتباء يوسف عليهم. فهو – برأيهم جميعا – الخاسر الأكبر من وجود يوسف.

ثانيا، أن لديه الحجة على أن هذا الخيار (أي القاء يوسف في غيابت الجب ليلتقطه بعض السيارة) أفضل من خيار قتله.

ونحن نظن بأن الأخ الأكبر قد أقنع بقية الإخوة بأن خيار قتل يوسف سيكلّف الجميع خسارة كبيرة تتمثل بظهور الفساد في الأرض، الأمر الذي قد ينتهي بهم جميعا إلى خسران ميراث النبوة كله. فهو يعلم بأن إراقة الدم بين الإخوة سبب كاف لظهور الفساد، وخسران الصلاح الذي ينشدونه من جراء التخلص من يوسف، والمتمثل بأن يكونوا من بعده قوما صالحين:

- ﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩﴾ [يوسف: 9]

السؤال: من هو صاحب هذا الصوت الذي ظهر في تلك اللحظة؟ ولماذا نزل الإخوة جميعا عند قراره؟

رأينا المفترى: إنه الأخ الأكبر لهم، وهو (نحن نظن) الشخص نفسه الذي رفض لاحقًا أن يبرح أرض مصر إلا أن يأذن له أبوه أو أن يحكم الله:

- ﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٨٠﴾ [يوسف: 80]

الدليل

لو دققنا فيما قاله كبيرهم هذا، لوجدنا بأنه يخرج نفسه تمامًا من المؤامرة الأولى ضد يوسف، ويلقي باللائمة فيما حصل عليهم جميعًا، قائلا:

- ... وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ...

فالرجل الآن يستخدم ضمير المخاطب (فَرَّطتُمۡ)، ملقيًا باللائمة على التفريط بيوسف من قبل عليهم، وينأى بنفسه عن تلك المؤامرة الأولى التي حيكت ضد يوسف؛ فهو لم يستخدم ضمير الجمع الذي يشمل المتكلم مع المخاطبين، فهو لم يقل – مثلًا – (من قبل ما فرطنا في يوسف). لنستنتج (ربما مخطئين) بأنه لم يكن شريكًا لهم في ذلك الكيد ليوسف، وبالتالي لم يشاركهم التفريط بيوسف من قبل. ليكون السؤال الآن هو: لماذا لم يفرط هذا الأخ الكبير في يوسف من قبل؟ وكيف يمكن تبرير هذا الافتراء الخطير الذي هو – لا شك – من عند نفسي؟

جواب مفترى خطير جدًا (لا تصدقوه): لأنه هو (نحن نظن) من كان ينفذ الخطة التي رسمها هو شخصيا مع والده يعقوب في الواد المقدس لإخراج يوسف سالمًا من بين أيدي إخوته الذين كادوا ليوسف. فلا يراق دم يكون سببًا في فسادهم أجمعين.

السؤال: كيف ذلك؟

المشهد الثاني: تخطيط يعقوب واختبار إسرائيل

دعنا نحاول أن نتخيل – ابتداءً – نبي الله يعقوب حائرًا، متسائلًا مع نفسه، في كيفية تنفيذ القرار الإلهي بأن لا يكون ميراث بيت النبوة في يوسف وليس في ابنه الأكبر (إسرائيل هذا)، فيقلقه الأمر فترة من الزمن، ويعلم أن ذلك سيكون سببًا كافيًا في إثارة كيد الأخوة لأخيهم يوسف. فقد كان يعقوب (كأب) يتمنى – نحن نظن – أن يكون ميراث النبوة في ابنه الأكبر، وهذا الشعور عند يعقوب والذي نحاول الترويج له هنا (ربما مخطئين) مدفوعا بأمرين اثنين:

⇐ أن الطبيعة النفسية للأب تميل – في العادة – للأبن الأكبر. فالأب (أي أب) يشعر الاستمرارية له في ولده الأكبر من بين جميع أبنائه الآخرين

⇐ أن تغيير هذه الطبيعة البشرية سيؤدي إلى خلق مشاكل بين الإخوة جميعا. فليس من المتوقع أن يحتج بقية الإخوة إذا ما كانت الوراثة في الابن الأكبر، فالسلطة تنتقل بسلالة إلى الابن الأكبر، لكن إن حصل أن انحاز الأب إلى غير الابن الأكبر، فربما سيرى كل واحد من الآخرين بأن له أحقية في ذلك. فسيكون لسان حال كل طامع منهم في ذلك هو طرح السؤال التالي: لماذا فلان من بيننا جميعا؟

لكن لمّا كان القرار ليس بيد يعقوب، كان عليه أن ينزل عند الاجتباء الإلهي في غير الابن الأكبر. فكيف سينفذ ذلك بأقل الخسائر الممكنة؟ وكيف سيكبح جماح كل الطامعين؟ وكيف سيكف نزغ الشيطان بين الإخوة جميعا؟

رأينا المفترى: كان يعقوب يعلم أن الأمر – لا محالة – سيكون من بعده ليوسف، لكن كيف سيجمع الأبناء معا، فلا يلحقوا الضرر بيوسف أولا؟ ولا يراق الدم بين الأبناء فلا يعودوا قومًا صالحين ثانيا؟ فيعقوب على يقين بأن الخلاف بين الإخوة سيغذيه الشيطان بالنزغ بينهم، وبالتالي سيتفرقون وتذهب ريحهم إنْ لم يعمد إلى حلّ الخلاف بطريقة ذكية جدًا، فكيف سيحافظ على إرث النبوة بالرغم من ظهور بوادر الخلاف الأولى بين الإخوة فلا يتفاقم الخلاف بينهم ويستعصي حلّه بعد ذلك؟

المشهد الثالث: الاجتماع المصيري – اختبار يعقوب لابنه الأكبر

تترای الآن أمام عيني صورة يعقوب (النبي والأب) وهو على تلك الشاكلة، وأراه يحيك في نفسه (في مكان محدد بذاته سنتحدث عنه لاحقًا متى ما أذن الله لنا بذلك) كل الخيارات الممكنة، فما يجد بدّا من التسليم بالإجتباء الإلهي ليوسف على إخوته لأن تلك هي المشيئة الإلهية التي لا يستطيع إلا أن يتقبلها، لكن عليه الآن أن يجد الطريقة المثلى لتنفيذ تلك المشيئة على أرض الواقع بحنكة وذكاء، فيقلل الضرر الذي ربما يعصف ببيته كله جراء ذلك، لأنه يعلم يقينًا بأن الإخوة – لا محالة – سيكيدون لأخيهم (الذي ما يزال طري العظم، قليل الحيلة والتجربة). فكان أول ما يتوجب على يعقوب – أنا أفتري الظن من عند نفسي – أن يرى بأم عينه ردة فعل ابنه الأكبر – على وجه التحديد – على تلك المشيئة الإلهية التي قضت باجتباء يوسف عليه وعلى بقية إخوته، وهو الابن الذي كان من المفترض أن يكون هو صاحب الحق الشرعي – في ظن الجميع من حوله – في إرث بيت النبوة. فالمنطق المفترى من عند أنفسنا مفاده – كما نتخيله في ذهن يعقوب – هو على النحو التالي: إن استطاع الأب يعقوب أن يضمن قبول هذا الابن بواقع الحال (أي بالاجتباء الإلهي ليوسف عليهم)، فلن يكون هناك خطر محدق من قبل الآخرين من أبنائه. فهو يعلم أن الآخرين من أبنائه لا يطمعون بأن يكونوا هم ورثة بيت النبوة كأشخاص مستقلين، ولكنهم بمجموعهم مدافعين حتى الساعة عن شرعية انتقال الإرث إلى صاحبه الذي هو – برأيهم – أخوهم الأكبر صاحب الأحقية في ذلك. فما الذي سيفعله؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن يعقوب قد عمد إلى عقد اجتماع خاص وسري بولده الأكبر على انفراد، ليختبر ردة فعله على القرار الإلهي باجتباء يوسف على الإخوة جميعا. فكيف سيفعل ذلك؟ وأين سيعقد ذلك الاجتماع المصيري الخطير جدا جدا؟

المشهد الرابع: اتفاقية الواد المقدس – صراع الإرث بين يعقوب وابنه إسرائيل

نحن نتخيل بأن يعقوب قد اختار الواد المقدس ليكون هو مكان اجتماعه الانفرادي بابنه الأكبر "إسرائيل". ونظن (ربما مخطئين) بأن اختياره لهذا المكان قد كان مدفوعًا بطبيعة الحدث الذي يتطلب أن يعرض يعقوب فيه على هذا الابن الأكبر عدة سيناريوهات سابقة، ليختار ابنه هذا واحدة منها. فكانت السيناريوهات التي عرضها يعقوب على ابنه الأكبر في الواد المقدس بعد أن أخبره بالاجتباء الإلهي ليوسف عليهم جميعا (وبعد أن هدأت نفسه من هول الصدمة والمفاجأة) على النحو التالي:

السيناريو الأول: يُذكّر يعقوبُ ولدَه إسرائيل بقصة إسرائيل الأول (ابن آدم) الذي قتل أخاه:

- ﴿۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٧﴾ [المائدة: 27]

السيناريو الثاني: يُذكّر يعقوبُ ولدَه إسرائيل بقصة ابن نوح الذي رفض الركوب مع والده:

- ﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٤٢﴾ [هود: 42]

السيناريو الثالث: يُذكّر يعقوبُ ولدَه إسرائيل بقصة أبيهم الأكبر إبراهيم مع ولده اسماعيل في حادثة الذبح الشهيرة:

- ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ ... ١٠٢﴾ [الصافات: 102]

نعم، فانظر ماذا ترى؟ هذا (نحن نتخيل) ما قاله يعقوب لابنه إسرائيل في ذلك المكان بعد أن صعقه بخبر الاجتباء الإلهي ليوسف على إخوته.

السؤال: ماذا تتوقع – عزيزي القارئ – أن تكون ردة فعل الابن إسرائيل على الخبر الذي فاجأه به والده يعقوب في تلك اللحظة؟ وما القرار الذي سيتخذه ذلك الابن بعد أن عرض عليه أبوه السيناريوهات السابقة في قصص الأنبياء السابقين من عباد الله الصالحين؟ فهل سيفعل إسرائيل هذا ما فعل إسرائيل ذاك (ابن آدم) بأخيه، فيقدم على قتل أخيه؟ وهل سيتصرف كما تصرف ابن نوح الذي رفض دعوة والده بالركوب معهم؟ أم هل ستكون ردة فعل هذا الابن ما كانت عليه ردة فعل إسماعيل (الأقرب زمنيًا وعرقيًا لهذه العائلة الكريمة) حينئذ؟

- ﴿... قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٠٢﴾ [الصافات: 102]

تلخيص الافتراءات المفتراة من عند نفسي في هذه القضية: يذهب يعقوب إلى الواد المقدس مصطحبًا معه واحدًا من أبنائه، وهو الابن الأكبر الذين نظن أن اسمه إسرائيل، وهناك في ذلك المكان (نحن نظن) يصارح يعقوب هذا الابن بالاجتباء الإلهي ليوسف، وبأحقية يوسف في ميراث بيت النبوة، فتثور (نحن نتخيل) ثائرة ذلك الابن من هول الصدمة. ولك أن تتخيل – عند سماعه الخبر المفاجئ – كل ردة فعل من غضب ونقمة وعدم رضى، لكن ما الذي يستطيع أن يفعله؟ وما هو إلا وقت قصير (نحن مازلنا نتخيل) حتى تهدأ ثورة الابن ليفكر بطريقة أخرى بعد أن تركه والده يعقوب يعبر عمّا أحدث ذلك الخبر في نفسه من صدمة مفاجئة. ليجد الابن نفسه – بعد أن هدأت ثورته الأولى – أمام واحدة من خيارين اثنين لا ثالث لهما، وهما:

⇐ إما أن يثأر لنفسه، فيصر على أحقيته (كأكبر أبناء يعقوب سنا) في وراثة بيت النبوة من بعد والده يعقوب، فلا يكون أمامه خيار إلا أن يقتل يوسف (كما يخطط لذلك بقية الإخوة)، فينحاز إلى إخوته، ويبتعد بالتالي عن والده يعقوب، فاقترابه من مخطط إخوته يعني بالضرورة ابتعاده عن والده. وبالتالي حصول الفساد – لا محالة – في الأرض، فلا يعودوا قومًا صالحين، مادام أن الدم قد أريق على تلك الأرض، وتتكرر – مرة أخرى – قصة إسرائيل الأول (ابن آدم) على يد إسرائيل الثاني (ابن يعقوب) ويكون بعد ذلك من النادمين، أو

⇐ أن يتقبل الأمر ولو على مضض، لكن ربما مقابل أن يكسب شيئا، فلا يكون من الخاسرين.

تخيلات من عند أنفسنا: تتجول الصور القديمة كلها أمام عيني إسرائيل هذا وفي مخيلته، ويذكره والده يعقوب – أكثر من مرة – بتلك الصور، وتفاصيلها وتداعياتها، ويناقش معه تفاصيلا ربما تغيب عن ذهن غيره، ثم يدع له القرار فيما سيختار.

الصورة الأولى: ها هي صورة ابني آدم تلوح أمام عينيه، فما الذي سيفعله؟ هل يفعل ما فعله القاتل (إسرائيل) ابن آدم، فيكون من الخاسرين ومن النادمين بعد أن يقتل أخاه؟

الصورة الثانية: وهذه صورة ابن نوح تلوح في مخيلته، فهل سيرفع صوته فوق صوت أبيه ويرفض الذهاب معه في سفينة النجاة؟

الصورة الثالثة: وهذه صورة أبيهم الأكبر إبراهيم وولده اسماعيل تلوح أيضا في مخيلته. فهل سيكون كإسماعيل الذي نزل عند القرار الإلهي ليصدق رؤيا والده إبراهيم أم سيرفض ويكون بالتالي من الخاسرين لهذا الإرث العظيم؟

تخيلات من عند أنفسنا: بعد أن لاحت كل تلك الصور في مخيلة ذلك الفتى، وبعد أن عززتها مصارعته لأبيه (ربه) يعقوب في ذلك الواد المقدس: نطق الابن قائلا لوالده (نحن ما زلنا نتخيل طبعا): أقبل بذلك – يا

أبت – لكن ما الذي سيعوضني عن تلك الخسارة؟ وبكلمات أخرى نحن نتخيل الابن يسأل أباه: وماذا سيكون لي (أنا شخصيا) إن كان ميراث بيت النبوة في يوسف؟

رأينا المفترى: تدور في هذه اللحظة رحى معركة المفاوضات بين الابن إسرائيل من جهة "وربه" يعقوب من جهة أخرى. وتنتهي بالموافقة المشروطة بأن تكون لذرية إسرائيل هذا وراثة الأرض المقدسة. انتهى.

تخيلات مفتراة من عندنا: في هذه اللحظة ترتسم الابتسامة على وجه يعقوب عند سماعه هذه الكلمات من فم ابنه الأكبر، وتنفرج سرائره، وينزاح جزء كبير من الحمل الذي كان يثقل كاهله: لقد وافق الابن أن يستمر ميراث النبوة في هذا البيت الطاهر. وينتهي الصراع بين الابن (إسرائيل) من جهة وربه (أي والده يعقوب) من جهة أخرى في الواد المقدس بتوقيع اتفاقية ثنائية تنص على أن تكون وراثة الأرض المقدسة من نصيب ذرية الابن الأكبر (إسرائيل).

السؤال: كيف ستتحقق وراثة الأرض المقدسة لذرية إسرائيل؟

جواب مفترى: أن يخرج يوسف من الأرض المقدسة كلها.

سؤال مفترى: لماذا سيخرج يوسف من الأرض المقدسة؟

جواب مفترى: لكيلا تكون وراثة الأرض المقدسة ليوسف.

السؤال: وكيف ستتم وراثة الأرض المقدسة لذرية إسرائيل؟

جواب مفترى: بمفتاح الأرض المقدسة، ألا وهو التابوت. انتهى.

نتيجة مفتراة: كان من بنود تلك الصفقة (كما رسمناها من مخيلتنا المهترئة) أن يخرج يوسف ببعض ميراث النبوة، تاركًا الأرض المقدّسة كلها لذرية أخيه إسرائيل، فلا يرجع إليها أبدًا. وهو ما حصل بالفعل، ونحن ندعو القارئ – إن أراد – أن يتساءل عن السبب في عدم مجيئ يوسف (الابن قوي البنية والسلطة) لأبيه يعقوب (الشيخ الكبير) بعد أن أصبح عزيز مصر؟ ولماذا طلب يوسف أن يحضروا جميع أهل إخوته إلى مصر حينئذ بدلًا من أن يذهب هو إليهم؟ لكن كيف تم تنفيذ الخطة على أرض الواقع؟

رأينا المفترى: كان الاتفاق بين يعقوب (الرب) وولده إسرائيل (الابن) تتمثل بأن يقنع الأخ الأكبر إخوته بأن لا يقتلوا يوسف وأن يلقوه – بدلًا من ذلك – في غيابت الجب، فجاء قوله لهم على نحو:

- ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ١٠﴾ [يوسف: 10]

⇐ هذا القائل منهم، ينأى بنفسه عن التفريط بيوسف، ويُلقي بفعل التآمر (اللائمة) على يوسف على إخوته الآخرين وذلك بأن أتبع اقتراح طرح يوسف أرضا قائلا: إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ، لكنّه يلتزم معهم لئلا تنفك عصبتهم، وبالتالي يذهب ريحهم. لذا، فهو بمثابة صمام الأمان الذي يضبط تلك العصبة في العلن، لكنه في الخفاء يحافظ على أخيه يوسف، وينفّذ خطة أبيه يعقوب بكل حنكة وذكاء. فكيف سينفذ لك؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: عندما ذهب الإخوة بأخيهم وجعلوه في غيابت الجب، هناك جاء الوحي الأول ليوسف على النحو التالي:

- **فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (12:15)**

السؤال: لماذا جاء الوحي ليوسف هناك عندما أجمعوا أن يجعلوه في غيابت الجب؟

جواب مفترى خطير جدا (لا تصدقوه إن استطعتم): هناك استلم يوسف القميص (إرث النبوة) من أخيه إسرائيل (كما خطط والده) دون أن يشعر الإخوة الآخرون بذلك. فمجرد أن تلقّى يوسف "القميص" من أخيه إسرائيل دون أن يشعر بذلك بقية الإخوة الآخرين، بدأت رحلة الوحي ليوسف. فالوحي كان – نحن نفتري الظن من عند أنفسنا – ملازمًا لذلك القميص. وما تفعل ذلك الوحي إلا لحظة أن استلم صاحب الاجتباء الإلهي ذلك القميص. فكان الوحي.

- ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١٥﴾ [يوسف: 15]

السؤال: كيف تمت الخطة؟

المشهد الخامس: إسرائيل ينفذ خطة يعقوب سرا على أرض الواقع

كانت خطة الأب يعقوب تتمثل بأن يجعل الأخ الأكبر إسرائيل القميص في رحل أخيه (الذي لا محالة ستأخذه السيارة) دون أن يشعر بذلك بقية الإخوة. وكان ذلك على شكل اتفاق بين الأب يعقوب وابنه إسرائيل. فالمشهد السينمائي يكون على نحو أن يقوم هذا الأخ (صاحب خطة القاء يوسف في غيابت الجب) بإنجاز المهمة بنفسه، فهو الذي اقتاد يوسف بطريقة عنيفة ليظهر (أمام بقية الإخوة) جديته في تنفيذ الخطة، فلا يشعر بقية الإخوة بوجود شبهة فيما يفعل، فأشغل إخوته كلهم بفعل القاء يوسف في غيابت الجب، فيصرف انتباههم عن الرحل الذي كان ليوسف، ليجعل القميص الذي عهده أبوه إليه في رحل يوسف، ويلقي به مع ذلك الرحل في غيابت الجب. ولو حاولنا أن نسقط هذا المشهد السينمائي (المفتعل في مخيالنا) على ما فعل يوسف لاحقًا مع أخيه عندما أخذه بتهمة السرقة في أرض مصر، لوجدنا السناريو ذاته. فهو نفسه من وضع السقاية في رحل أخيه دون أن يشعر الآخرين، حتى أذّن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون. فبان الأمر على العامة

بأن ذلك سرقة، لكنها في الحقيقة كيد عظيم. ولو ركزنا بما قاله الإخوة هنا، لوجدناهم يعقدون مقارنة لحادثة "السرقة المفتعلة" في أرض مصر مع السرقة التي حصلت من قبل:

- ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧﴾ [يوسف: 77]

المقارنة بين حادثتي السرقة في القصة

السؤال: لماذا شبّه الإخوة ما يجري الآن في أرض مصر بما حصل من قبلُ عندما كان يوسف بينهم؟

رأينا المفترى: لقد أدرك الإخوة بأن هذا الأخ المتهم بالسرقة في أرض مصر قد أخذ شيئًا لا حق له فيه (وهو السقاية)، كما فعل (هم يظنون) أخوه يوسف من قبل، فهم يصفون ما أخذه يوسف (وهو القميص) على نحو أنه يقع في باب سرقة شيء ظنوا أنه لا حق له فيه. وسنحاول أن نبين لاحقًا – إن شاء الله – كيف كان ما فعله يوسف من تدبير حادثة السرقة المفتعلة في مصر هو الإشارة القوية – والرسالة الضمنية – لأبيه يعقوب بأن هذا من فعل من كان عليمًا. فيوسف يقوم بتدبير كيد يظهر للناس من حوله بأنها "سرقة" في أرض مصر بالطريقة ذاتها التي دبّرها يعقوب نفسه لإخراج يوسف من بين أيدي إخوته ومعه إرث النبوة (القميص).

- ﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ٧٦﴾ [يوسف: 76]

لكن ما يهمنا الآن هو ردة فعل أحدهم، وهو كبيرهم:

- ﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٨٠﴾ [يوسف: 80]

لنطرح هنا سيلًا من التساؤلات:

⇐ لماذا رفض كبيرهم هذا العودة دون إذن أبيه أو حكم الله؟
⇐ لماذا قدم إذن أبيه على حكم الله؟
⇐ من هو هذا الأخ الأكبر؟
⇐ لماذا علّل ذلك بتفريط إخوته بيوسف من قبل؟
⇐ لماذا تحدث عن التزامه بالموثق؟
⇐ ما هو ذلك الموثق؟
⇐ الخ

المشهد السادس: استجابة يعقوب لرسالة الكيد القادمة من مصر

تعود بنا كاميرا تصوير أحداث القصة إلى يعقوب، لنجده قد التقط الرسالة القادمة له من أرض مصر على الفور، فعلم أن ما يحصل لابنه المأخوذ في دين الملك في مصر هو كيد لا يقدر عليه إلا من كان قد فعل ذلك من قبل، خاصة إذا اتفقنا بأن يعقوب كان على ثقة تامة باستحالة أن يكون ابنه من السارقين، فكان ما قاله لأبنائه الآخرين هو:

- ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧﴾ [يوسف: 87]

التساؤلات

⇐ لماذا طلب الأب من أبنائه أن يذهبوا فيتحسسوا من يوسف وأخيه؟
⇐ لماذا وافق الأبناء على الذهاب فورا بالرغم أنهم هم من أخبروه منذ سنين خلت بأن يوسف قد أكله الذئب؟
⇐ هل ذهب جميع الأبناء ليتحسسوا من يوسف وأخيه؟
⇐ الخ

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: ما أن رجع الأبناء من رحلتهم الأولى من أرض مصر، محاولين مراودة يعقوب عن ابنه بطلب من عزيز مصر:

- ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ٥٩﴾ [يوسف: 59]

أصر يعقوب على موقفه بأن لا يبعثه معه، معللًا ذلك بتفريطهم من قبل بيوسف:

- ﴿قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٦٤﴾ [يوسف: 64]

لكن ما أن فتحوا متاعهم، ووجدوا بضاعتهم قد ردت إليهم داخل رحالهم، حتى أدرك يعقوب (نحن نفتري الظن) بأن هناك كيد يدبر في أرض مصر له علاقة به وبأبنائه، فلن يفوت يعقوب أن وضع المتاع في رحل الأبناء أمر لا يمكن أن يكون عفويا، فجاءت موافقته على إرسال ولده الآخر إلى أرض مصر مع إخوته بعد أن أخذ من أبنائه موثقا من الله:

- ﴿قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ٦٦﴾ [يوسف: 66]

فيعقوب على يقين (نحن نرى) بأن الإخوة لن يمسوا أخاهم بسوء في طريق الذهاب إلى مصر، ربما لقناعته بأن على الإخوة أن يصلوا بأخيهم إلى عزيز مصر، فهم لن يقربوا عزيز مصر إذا لم يكن أخوهم هذا معهم. فهذا ما قاله لهم عزيز مصر من ذي قبل:

- ﴿فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ ۝٦٠﴾ [يوسف: 60]

لكنه يخشى على الابن هذا من كيد الإخوة في طريق العودة من أرض مصر. لذا، عندما عاد الإخوة إلى أبيهم في الرحلة الثانية ليخبروه بأمر السرقة كما شرحها كبيرهم:

- ﴿ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ۝٨١﴾ [يوسف: 81]

وعلم أن كبير الإخوة قد رفض العودة لأبيه بسبب ما حصل، مذكرا إخوته بالموثق الذي أخذه أبوهم منهم:

- ﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ۝٨٠﴾ [يوسف: 80]

تأكد ليعقوب – بعد كل هذه الأحداث غير العادية – بأن هناك أمر جلل يدبر في أرض مصر، فما كان منه إلا أن قال:

- ﴿قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٨٣﴾ [يوسف: 83]

فهذا يعقوب يدعو الله أن يأتيه بهم جميعا، أي بجميع أبنائه المفقودين حتى الساعة، وهم:

⇐ يوسف المفقود منذ زمن بعيد
⇐ كبيرهم الذي رفض الرجوع إلا بإذن من أبيه أو بحكم من الله
⇐ الابن الثالث الذي أُخِذ في دين الملك، وهو المتهم الآن بسرقة صواع الملك

السؤال: ما الذي سيفعله يعقوب الآن؟ هل سينظر إلى هذه الأحداث على أنها مجريات وقعت بمحض الصدفة؟

المشهد السابع: عزلة يعقوب وتدبر الأحداث

نحن نتخيل يعقوب يأخذ وقته ليتدبر كل المجريات حتى الساعة بعيدا عن الجميع، وليتدبر الأمر من كل جوانبه، ولن تنقصه الفراسة بأن يربط الأحداث بعضها ببعض منذ ولادة يوسف وأخيه مرورا بكيد الإخوة له وانتهاء بهذا الحدث الذي اتهم به هذا الابن بجرم السرقة في أرض مصر. وهنا ربما يحق لنا أن نجلب الآية القرآنية التي فصلت لنا عزلة يعقوب بنفسه بعيدا عن الجميع:

- ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾ [يوسف: 84]

فنحن نتخيل وجود يعقوب الآن بعيدا عن الآخرين في مكان خاص به، يقلب الأحداث من أولها إلى آخرها، ويحاول ربطها معا، ليخرج بتصور متكامل عمّا جرى في سابق الأيام وما يجري الآن في أرض مصر. فكان أول ما فعل هو التعبير عن أسفه على يوسف على وجه التحديد. فبالرغم من فقدانه ثلاثة من أبنائه الآن، إلا أنه يذكر يوسف فقط، فكانت ردة فعل بعض من حوله على النحو التالي:

- ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [يوسف: 85]

ليكون السؤال الآن هو: لماذا ذكر يعقوب يوسف في هذا المقام بالرغم من أن الحدث الآن يخص اثنين من أبنائه الآخرين؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن بأن يعقوب قد علم يقينا بأنه من الاستحالة بمكان أن يكون ما يحصل في أرض مصر بعيدا عن يوسف، لذا جاء رده على قول أبنائه على النحو التالي:

- ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [يوسف: 86]

نعم، يعقوب يعلم من الله ما لا يعلم أبناؤه، فيعقوب على يقين بأن سجود الإخوة ليوسف لا محالة سيتحقق، فذلك وعد إلهي لا محالة سيحصل في يوم من الأيام، وأنه سيشهد هو بنفسه على ذلك الحدث. ولنقرأ رؤية يوسف التي قصها على والده في سابق الأيام:

- ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [يوسف: 4]

وأن قصة أكل الذئب ليوسف قصة مفبركة لم يصدقها يعقوب أصلا منذ أول لحظة قيلت، فهو نفسه من دبرها ومررها لأبنائه من خلال ابنه الأكبر إسرائيل. لذا، نحن نرى بأن يعقوب كان على الدوام موقنًا بأن يوسف حي يرزق في مكان ما من الأرض. وتتأكد الظنون عنده الآن بعد كل مجريات الأمور التي بين يديه، فيكون أول طلب له من بعد عزلته عمن حوله لفترة من الزمن هو على النحو التالي:

- ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧﴾ [يوسف: 87]

ليكون السؤال المربك الآن: لماذا لم يتردد الأبناء في تنفيذ طلب أبيهم بالذهاب إلى مصر والتحسس من يوسف وأخيه؟ لماذا لم ينبري من بينهم صوت يذكّره بأكل الذئب ليوسف؟ وبكلمات أخرى نحن نسأل: لماذا ذهب الأبناء ليتحسسوا من يوسف وأخيه بطلب من أبيهم؟

رأينا المفترى: للإجابة على هذا التساؤل، لابد من إثارة تساؤل آخر وهو: هل ذهب جميع الأبناء ليتحسسوا من يوسف وأخيه؟

رأينا المفترى: لا، لم يذهب جميع الأبناء ليتحسسوا من يوسف وأخيه، بل ذهب (نحن نظن) بعضهم، وظل بعضهم الآخر عند أبيهم، بدليل أنه لما فصلت العير، وذكر يعقوب ريح يوسف:

- ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ٩٤﴾ [يوسف: 94]

كانت ردة من حوله على النحو التالي:

- ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ٩٥﴾ [يوسف: 95]

وبدليل أنه عندما تأكد صدق قول أبيهم بخصوص ريح يوسف خاطب بعض أبنائه قائلا:

- ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٩٦﴾ [يوسف: 96]

وهنا نجد الأبناء يقرون بخطئهم ويطلبون منه أن يستغفر لهم:

- ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ٩٧ قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٩٨﴾ [يوسف: 97-98]

نتيجة مفتراة: نحن نفتري الظن بأنه عندما طلب الأب من أبنائه الذهاب ليتحسسوا من يوسف وأخيه، لم يذهبوا جميعا. فذهب نفر، وظل نفر آخر منهم عند أبيهم يعقوب.

تساؤلات

⇐ لماذا ذهب بعضهم؟

⇐ لماذا لم يذهب بعضهم الآخر؟

⇐ كم عدد الذين ذهبوا؟
⇐ كم عدد الذين لم يذهبوا؟
⇐ من الذين كانوا خاطئين؟
⇐ الخ

رأينا المفترى: نحن نظن بأنه من أجل الإجابة على هذه التساؤلات، فلابد من محاولة إعادة حبك قصة هذه العائلة الكريمة من بداياتها.

فالله وحده أسأل أن يعلمنى ما لم أكن أعلم، وأن يزدنى علما، وأن يهدينى لأقرب من هذا رشدا، وأعوذ به وحده أن أفتري عليه الكذب أو أن أقول ما ليس لى بحق، إنه هو السميع البصير.

أما بعد،

جزئية مهمة: عائلة يعقوب

كان هناك في قديم الزمان رسول كريم، اسمه إبراهيم، وهو الذي حاول أن يثني قومه عن عبادة الأصنام، فكادوا به، فجعلهم الله الأسفلين:

- ﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ٩٨﴾ [الصافات: 98]

وأخرجه الله من النار سالمًا، لابسًا ثوبًا (قميصا) يستر عورته، ويقيه نار القوم الظالمين، فكان ثوب النبوة. وذهب إلى ربه طالبًا الهداية:

- ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٩٩﴾ [الصافات: 99]

وظل (نحن ما زلنا نتخيل) لابسًا ذلك الثوب حتى غدا شيخًا كبيرًا. فما تحصلت له الذرية، وذلك لأن من يلبس هذا القميص (نحن نفتري الظن من عند أنفسنا) لن تتحصل له الذرية إلا بالهبة الإلهية، وسيكون من الصديقين:

- ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ٤١﴾ [مريم: 41]

كما كان إدريس من قبل:

- ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ٥٦﴾ [مريم: 56]

وكما أصبح يوسف من بعد:

- ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٤٦﴾ [يوسف: 46]

وكما كانت مريم:

- ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٧٥﴾ [المائدة: 75]

وما أن بلغ إبراهيم من الكِبر عتيًا حتى جاء قراره بأن يكون له ذرية من الصالحين، يعهد إليهم بميراث بيت النبوة الكريم، فخلع إبراهيم (نحن نظن) ذلك القميص عنه، ووضعه في مكان ما كإرث لبيت النبوة، وتوجه إلى ربه بالدعاء بأن يهب له من الصالحين:

- ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠٠﴾ [الصافات: 100]

فكان له على الكبر إسماعيل وإسحاق:

- ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٩ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ٤٠ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ٤١﴾ [إبراهيم: 39-41]

وقد كانت قصة هبة الله إسحاق لإبراهيم مختلفة بطبيعتها، لأنها جاءته بشرى على لسان رسل الله إليه (أي على لسان ضيوفه المكرمين):

- ﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١١٢ وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ١١٣﴾ [الصافات: 112-113]

فكان مستغربا من تلك البشارة بسبب بلوغه الكبر:

- ﴿قَالَ أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ٥٤﴾ [الحجر: 54]

وكانت المفاجأة الأكبر (نحن نظن) أن البشارة بإسحاق قد صاحبتها البشارة (لواحدة من نساء إبراهيم) بيعقوب من وراء إسحاق:

- ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١﴾ [هود: 71]

وكانت تلك المرأة التي بشرتها رسل الله بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب عجوز عقيم:

- ﴿قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ٧٢ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ٧٣﴾ [هود: 72-73]

⇐ فكانت ولادة إسحاق قد حصلت في بطن تلك المرأة العجوز التي – لا محالة – قد انقطع عنها المحيض منذ زمن بعيد. فتكوّن إسحاق في بطن تلك المرأة التي لا تحيض، فما مسه أذى المحيض، فكان غلامًا عليمًا:

- ﴿فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ٢٨﴾ [الذاريات: 28]

فأصبح العلم متوارثا جينيا في إسحاق وذريته من ورائه (للتفصل في هذا الموضوع، انظر مقالاتنا الأخرى د. رشيد الجراح).

نتيجة مفتراة 1: كان إسحاق غلامًا عليمًا لأنه تكون طفلا في بطن امرأة لا تحيض، فما مسه أذى المحيض

نتيجة مفتراة 2: أصبح العلم متوارثا في ذرية إسحاق التي جاءت من ورائه

ولما كان إسحاق غلامًا عليمًا بسبب طبيعة ولادته في بطن امرأة لا تحيض، لم يكن ليعيش فترة طويلة من العمر، فتوفاه الله بالموت بعد ولادة يعقوب مباشرة (للتفصيل انظر مقالاتنا السابقة حول هذه الجزئية د. رشيد الجراح). فنشأ يعقوب يتيم الأب، لكنه محمل جينيا بالعلم، ولديه جزء من ميراث بيت النبوة الكريم:

- ﴿أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا ٥٤﴾ [النساء: 54]

فكان آل إبراهيم من المصطفين، الذين هم أصلا ذرية بعضها من بعض:

- ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٣٤﴾ [آل عمران: 33-34]

عندما بلغ يعقوب (ولد إسحاق) سن الزواج، كان عليه أن يتخذ قرارًا حاسمًا يتعلق بميراث بيت النبوة، وخاصة القميص. فكان (نحن نفتري الظن) أمام خيارين اثنين لا ثالث لهما:

⇐ أن يلبس القميص فلا ينجب، أو
⇐ أن لا يلبس القميص، فتمسه بركة ذلك القميص، فينجب ما يشاء من البنين والبنات.

السؤال: ماذا كان قرار يعقوب (إن صح منطقنا المفترى هذا)؟

تخيلات مفتراة: لما كان يعقوب مدركا أهمية استمرار هذه الذرية الطيبة التي تتصف بالعلم الوراثي، اتخذ قراره بأن لا يلبس ذلك القميص، لتكون له ذرية كثيرة من الأبناء العالمين. فيعقوب (نحن نفتري الظن) يريد أن لا تندثر ذرية العلماء الذين هم من نسل هذا البيت الطيب، فالرجل يعلم أهمية الجين الوراثي في ذرية والده إسحاق العليم. فكيف سيحقق ذلك على أرض الواقع؟

رأينا المفترى: كان هناك خيار واحد أمام يعقوب وهو كثرة الإنجاب، فكان له اثنا عشر ولدا.

السؤال: كيف تحصلت ليعقوب هذه الذرية الكثيرة من الأبناء؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن ذلك قد تحصل له بالزواج من أكثر من امرأة واحدة.

السؤال: كم تزوج يعقوب من النساء؟ يسأل صاحبنا متعجبا

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن (ربما مخطئين) بأنه كان ليعقوب ثلاثة من النساء. انتهى.

الدليل

عندما حصلت المشكلة بين يوسف وإخوته، انقسم الإخوة إلى فريقين، فكان الفريق الأول المُتآمَر عليه يتكون من يوسف وأخيه:

- ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾﴾ [يوسف: 8]

فكان يوسف وأخوه أشقاء من نفس الاب والأم. بينما كان البقية هم إخوة لهما غير أشقاء، يشاركونهما الأب ولا يشاركونهما الأم، بدليل ما قاله يوسف لهم لاحقا في أرض مصر:

- ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾﴾ [يوسف: 59]

السؤال: ماذا عن بقية الإخوة غير الأشقاء، فهل كانوا جميعا من نفس الأب والأم؟ أم هل كانوا هم أيضا إخوة غير أشقاء؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن الإخوة العشرة الآخرين كانوا غير أشقاء بدليل أنهم عصبة:

- ﴿إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٨﴾ [يوسف: 8]

وقد حاولنا في أكثر من مقال سابق الترويج لفكرة أن العصبة هي المجموعة المتكونة من فريقين اثنين، في كل فريق خمسة من الأشخاص، كحال الذين قد يحملون مفاتيح كنوز قارون:

- ﴿۞إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ٧٦﴾ [القصص: 76]

فمشهد حمل المفاتيح من قبل عصبة من الرجال لا يمكن (نحن نتخيل) أن يتبلور للخيال العادي إلا بوجود طرفين متساويين متقابلين، يحمل كل طرف بمجموعة المفاتيح من أحد الجهتين. فهم كحال أصابع اليدين الاثنتين، في كل يد خمسة منها. فيتكاتفون معا، ليشكلوا معا اتحادًا واحدًا لغاية محددة بذاتها. فكان إخوة يوسف العشرة مكونين (نحن نفتري الظن) من فريقين، في كل فريق خمسة منهم. وكان هذا الانقسام مبني على مبدأ الإخوة. فكل فريق منهم إخوة أشقاء (يتشاركون الأب والأم). وهم مع المجموعة الأخرى إخوة غير أشقاء (يتشاركون الأب فقط). ونحن نكرر القول هنا لأهميته على النحو التالي: كل مجموعة تتكون من خمسة أفراد يتشاركون الأب والأم معا. وهم يتشاركون الاب فقط مع المجموعة الأخرى. فكان الترتيب (كما نتخيله طبعا) على النحو التالي:

⇐ يعقوب والزوجة الأولى (خمسة أبناء أشقاء)
⇐ يعقوب والزوجة الأخرى (خمسة أبناء أشقاء)
⇐ يعقوب والزوجة الثالثة (اثنان من الأبناء أشقاء، هم يوسف وأخوه)

ونحن نفتري الظن بأن الإخوة جميعًا كانوا متقاربين في العمر، وذلك لأنهم خرجوا ليلعبوا ويرتعوا معا.

- ﴿أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ١٢﴾ [يوسف: 12]

فلو كانوا من أم واحدة، لأصبح (نحن نرى) هناك فارق عمري كبير بينهم، ولربما أصبح من المتعذر أن يلعب أكبرهم سنا مع أصغرهم سنا.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن بأن الذرية من الأبناء كانت تتحصل ليعقوب من أكثر من زوجة واحدة في ذات الوقت.

مكانة الأخ الأكبر ودوره في القصة

السؤال: ماذا يفيد النبش في هذه الجزئية من قصة يوسف؟ هل لهذا تبعات مهمة على تطور مجريات الأحداث من أوّلها إلى آخرها؟

رأينا المفترى: نعم، نحن نظن أن لهذا الافتراء تداعيات جمّة على تطور مجريات أحداث القصة كلها، أولها التنبه بأن الأكبر سنا فيهم هو كبيرهم. فهناك كبير لهؤلاء الإخوة كما فُصِّل ذلك في قوله تعالى:

- ﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٨٠﴾ [يوسف: 80]

وكان كبيرهم هذا (نحن نكاد نجزم الظن) هو من كان من المفترض أن يكون وريث بيت النبوة لولا الاجتباء الإلهي ليوسف، فالطبيعة والنفس والبشرية تقضيان أن يؤول الأمر إلى الابن الأكبر سنا بعد والده.

السؤال: ما أهمية هذا الظن في قصة الكيد ليوسف؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن الإبن الأكبر ليعقوب قد وُلِد له من الزوجة الأولى، فكان هذا الابن يظن – موقنا – أنه هو الوريث الشرعي لبيت النبوة من بعد والده، وأنه سيكون سيد إخوته جميعا في غياب والدهم يعقوب. ونحن نظن بأن إخوته الأشقاء من أمه يقرون له بذلك، ولا ينازعونه في الأمر. فالقضية بالنسبة لهم محسومة بأن يكون أخوهم الشقيق الأكبر هو وريث أبيهم يعقوب، وهو سيدهم من بعده. لذا، فهم يحرصون على الشرعية لأنهم (نحن نظن) الأكثر انتفاعا بها مادام أن أخوهم الشقيق الأكبر هو صاحب حق وراثة بيت النبوة. لذا، كان هؤلاء على وجه التحديد هم الأحرص على أن يكونوا قوما صالحين، فلا يراق الدم بين الإخوة، وذلك لأنهم يعلمون العواقب الكارثية لو أن ذلك حصل على أرض الواقع. فهم أشد المطالبين بالانتقال السلمي "للسلطة" (إن صح القول) من بعد والدهم يعقوب.

لكن – المقابل – كان هناك خمسة من الأبناء ليعقوب من الزوجة الثانية الذين يعلمون يقينا بأنه من الاستحالة بمكان أن تؤول وراثة بيت النبوة لأحد منهم. فسواء كان يوسف هو الوريث الشرعي أو كان أخوهم غير الشقيق (الأكبر) هو وريث بيت النبوة، فالأمر بالنسبة لهم سيان. ففي كلا الحالتين هم ليسوا أكثر من جمهور متفرج، سيُطلَب منهم الخصوع لمن كان له الحق في وراثة بيت النبوة من الطرفين الآخرين. فماذا ستظن هؤلاء فاعلون؟

المشهد الثامن: نزغ الشيطان بين الإخوة

لما كان هؤلاء غير مستفيدين من وراثة بيت النبوة بأي اتجاه كان، خرج (نحن نفتري الظن) من بينهم من ينزل عند نزغ الشيطان:

- ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [يوسف: 100]

نعم، من هذا الباب (نحن نتخيل) دخل الشيطان بينهم، فنزغ بين الإخوة. فماذا كانت خطة الشيطان؟

جواب مفترى: نحن نفتري الظن بأن خطة الشيطان – على الدوام – هي واحدة: ايقاع الفتنة بين الناس. انتهى

السؤال: كيف نزغ الشيطان بين الإخوة في قصة يوسف؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نعتقد بأن الشيطان كان يحاول – ما استطاع إلى ذلك سبيلا – أن يوقع الفتنة بين الإخوة، فينزع عنهما لباسهما، فيخسروا ما وعدهما ربهما به:

- ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ۗ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف: 27]

نعم، لقد كانت خطة الشيطان تتلخص بأن ينزع ذلك القميص (إرث النبوة) من بين يدي تلك العائلة الكريمة، فيحدث بينهم الفتنة التي تؤدي إلى خسارتهم وراثة بيت النبوة كله. فكيف حصل ذلك على أرض الواقع؟

جواب مفترى: نحن نظن بأن الشيطان قد عمد إلى ذلك بالكيد، فهذا يعقوب يحذر ولده يوسف من أن يقص على إخوته رؤياه، لأنهم لا محالة سيكيدون له كيدا:

- ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾﴾ [يوسف: 5]

والمدقق في قول يعقوب ليوسف هنا سيجد أن يعقوب يحذر يوسف من كيد إخوته له، ويربط ذلك بعداوة الشيطان للإنسان.

نتيجة مفتراة مهمة جدا: نحن نظن بأن يعقوب يعلم يقينا بأن الإخوة سيكيدون ليوسف، كما يحذره بأن ذلك الكيد سيغذيه الشيطان نفسه.

تخيلات مفتراة من عن أنفسنا: لما كان أبناء الزوجة الثانية يعلمون يقينا بأن الأمر لن يكون فيهم، وأنه سيكون في غيرهم، استغل الشيطان الضعف عند هؤلاء (وخاصة أحدهم)، خاصة عندما وجدوا أن الأب يعقوب يولي وجهه شطر يوسف وأخيه:

- ﴿إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٨﴾ [يوسف: 8]

فقد سنحت الفرصة للشيطان الآن أن يشق صفهم، وبالتالي اضاعت الفرصة على الجميع. فكيف سيفعل ذلك؟

المشهد التاسع: بداية الصراع بين الإخوة

نحن نكاد نرى صورة الشيطان تتراى للفريق الثاني من الإخوة الذين هم غير مستفيدين من وارثة بيت النبوة في أي اتجاه ذهبت. فساند هذا الطرف الفريق الأول المطالب بالشرعية المعهودة فيهم، ليكونوا ظاهريا مساندين لشرعية الوراثة في الأخ الأكبر الذي يبدو أنه لا محالة سيخسر ميراث بيت النبوة ليوسف، ولكنهم باطنيا مظاهرين لنزغ الشيطان حتى يخسر الجميع وينتفي الصلاح. فأصبحت الصورة (كما تتطاير أجزاؤها في مخيلتنا) على النحو التالي:

⇐ **الفريق الأول**: خمسة من الأخوة هم الأحق بالشرعية ولكنهم سيخسرونها
⇐ **الفريق الثاني**: خمسة من الإخوة ليس لهم حق بالشرعية سواء كانت في إخوتهم غير الأشقاء من الفريق الأول أو في إخوتهم غير الاشقاء من الفريق الثالث)
⇐ **الفريق الثالث**: اثنين من الإخوة الأشقاء الذين سيكسبون وراثة بيت النبوة والذين هم في نظر الباقين لا حق لهم فيها

السؤال: كيف تطورت مجريات الأمور على أرض الواقع؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: لمّا بان للجميع بأن أباهم يعقوب مولّ وجهه شطر يوسف وأخيه، علم الجميع بأن هناك كلاما آخر عند يعقوب فيما يتعلق بوراثة بيت النبوة، وأن الأمر لن يكون انتقالًا طبيعيا إلى أكبرهم (كما كانوا يتوقعون). فبدأ الشيطان ينشط عند الطرف الخاسر بكل السيناريوهات المحتملة، فوجد بعضهم (بمعاونة من الشيطان) الفرصة سانحة لاستغلال الظرف وإفساد الأرض كلها، وخسارة الجميع مادام أنهم هم أنفسهم غير رابحين مهما كانت طبيعة انتقال وراثة بيت النبوة. فانعقد الاجتماع الأول بين أفراد الفريق الثاني لتدارس الأمر، فجمعوا كيدهم (بمشورة من الشيطان) وجاءوا صفا، فكان قرارهم هو قتل يوسف ولا خيار آخر. ودخلوا بذلك المشروع المقترح من باب حرصهم على الشرعية. فظهروا لمن حولهم وبكأنهم مناصرين لأخيهم غير الشقيق الأكبر، مدافعين عن الشرعية أمام العامة من الناس. ولقي هذا الخيار صدى عند بعض الإخوة من الفريق الأول (وهم أصحاب الشرعية في وراثة بيت النبوة). فما الذي حصل بعد ذلك؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: لم يكن ذلك الكيد ليخفى على يعقوب، فعلم أن الفتنة لا محالة قادمة، وأن الخطر المحدق بإرث النبوة عظيم، وأن المشغل لهذه الفتنة هو الشيطان نفسه. لكنه يعلم أن كيد الشيطان كان على الدوام ضعيفا:

- ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ٧٦﴾ [النساء: 76]

فعليه إذًا أن يتصرف على الفور، فيكبح كيد الشيطان من بدايته، قبل أن تهب العاصفة الكبرى، فلا يستطيع أن يطفئ نيرانها بعد ذلك. فكيف تصرف ذاك الشيخ الحكيم الحائر؟

رأينا المفترى: كان على يعقوب (نحن نظن) أن ينبّه الفريق الأول من أبنائه عما يدبر له الفريق الثاني (الذي يسانده الشيطان)، وكان يعلم بأن مفتاح الحل بيد ابنه الأكبر الذي كان من المفترض أن يكون هو صاحب الشرعية في إرث بيت النبوة، فما وجد يعقوب (نحن نتخيل) بدّا من الاجتماع به على انفراد واطلاعه على تفاصيل مجريات الأمور التي يعلمها الشيخ الكبير وما زال ابنه الأكبر غير متيقظ لها. فماذا فعل يعقوب؟

المشهد العاشر: الاجتماع السري والمداولات حول مصير يوسف

نحن نرى الآن يعقوب مصطحبا ابنه الأكبر هذا في رحلة خاصة إلى الواد المقدس بعيدا عن أعين الناظرين. وهناك بدأ يعقوب حديثه مع هذا الابن الأكبر مبينا له أمرين اثنين:

⇐ الاجتباء الإلهي ليوسف على إخوته جميعا. فيحاول يعقوب النبي جهده أن يوضح لهذا الابن الأكبر بأن هذا قرار إلهي لا يملك هو فيه من الأمر شيئا. ويبدأ يعقوب (الأب) حديثة مصارحا هذا الابن الأكبر بأن رغبته الشخصية (مثل كل آباء العالمين) بأن تكون الوراثة في ابنه الأكبر، لكن المشيئة الإلهية التي هي لا محالة نافذه جاءت على غير ما يتمنى ويرغب. وبكلمات أخرى، يجتهد يعقوب ليوصل الرسالة واضحة وجلية لهذا الابن بأن القرار ليس قراره، وأنه لا يملك إلا أن يقبل بالمشيئة الإلهية التي قضت باجتباء يوسف على جميع إخوته بمن فيهم الأخ الأكبر هذا.

اطلاع يعقوب ابنه الأكبر على ما يخطط له إخوته غير الاشقاء من الفريق الثاني الذين يظهرون في العلن مساندين له، لكنهم في الخفاء معادين له، يساندهم الشيطان بكيده لينزغ بين الإخوة، وذلك بإحداث الفتنة، وبالتالي خسارة إرث النبوة عن بكرة أبيه.

السؤال: ما الذي سيفعله هذا الابن الأكبر جراء ما علم من أبيه يعقوب فيما يتعلق بتفاصيل ما يجري على الساحة من حوله؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: بعد جولات مضنية من المفاوضات والمناقشات بين الابن المصدوم وابيه (ربه) في الواد المقدس، سوّي الأمر بين الطرفين بأن يتقبل الابن الأكبر أن تنفذ المشيئة الإلهية فيكون ميراث بيت النبوة في يوسف مقابل أن تكون وراثة الأرض المقدسة لذرية إسرائيل هذا (أي لبني إسرائيل). فكيف سيتم تنفيذ ذلك على أرض الواقع؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: لما رجع إسرائيل (الابن الأكبر ليعقوب) إلى إخوته الأشقاء عقد معهم اجتماعًا خاصا، وشرح لهم تبعات الموقف. فاجتهد معهم بأن لا يكونوا في صف من ينادي بإراقة الدم بين الإخوة، لأن الخسارة ستكون محدقة بالجميع. فخرج معهم من ذلك الاجتماع بموقف موحد مفاده طرح يوسف أرضا، أي إخراجه من البلاد كلها. فظن هؤلاء الإخوة بأن ذلك سيضمن ألا يراق الدم بين أبناء يعقوب، فلا تكون الخسارة محدقة بالجميع، كما اعتقدوا بأن في طرح يوسف أرضا انقاذ للموقف، فتكون وراثة بيت النبوة في أخيهم الأكبر. فأصبح الموقف بين الطرفين على النحو التالي:

- ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩﴾ [يوسف: 9]

تخيلات مفتراة: ما أن جاء يوسف أباه بخبر الرؤيا حتى علم يقينا بأن وراثة بيت النبوة هي من حق يوسف فقط، وأنه ليس لأخيه الذي ظنوا أنه يحبه كما يحب يوسف حق في ذلك. فكان ذلك (نحن نظن) سببا في تغير سلوك يعقوب تجاه هذا الأخ الشقيق ليوسف، فأصبح مع البقية في عداد الذين لا يُوَلي يعقوب وجهه شطرهم. وما عاد مولّ وجهه بعد خبر الرؤيا إلا ليوسف، فبان للإخوة جميعا بأن المشكلة منحصرة فقط في يوسف. فكان اجتماعهم لتدارك الأمر يتنازعه رأيان اثنان لا ثالث لهما:

⇐ قتل يوسف: يناصره الفريق الثاني الذي يغذيه نزغ الشيطان
⇐ اطرح يوسف أرضا: يؤيده لفريق الأول

السؤال: كيف سيحسمون الخلاف بينهما هنا؟

رأينا المفترى: لمّا كان هؤلاء هم ورثة الأنبياء، ولهم حظ من العلم عظيما، حلوا الخلاف بينهم (نحن نتخيل) بطريقة علمية رصينة، يقبل بنتائجها الجميع ويرضون بها، ألا وهي التصويت الفردي، الذي سيفضي إلى ثلاث سيناريوهات محتملة:

⇐ أن يفوز رأي القائلين بقتل يوسف
⇐ أن يفوز رأي القائلين بطرحه أرضا
⇐ أن يتعادل رأي الفريقين

والمنطق عندهم (نحن نرى) يقضي بأنه لا مجال لأن يتنصل أي منهم من القرار في الحالتين الأولى أو الثانية. فعلى الفريق الخاسر أن يقبل بخيار الفريق الرابح. لكن في حالة أن تساوى رأي الطرفين (خمسة مقابل خمسة)، فهناك آلية متفق عليها يعلمها الجميع ويقبلون بها، ألا وهي الصوت المُرجِّح. انتهى

السؤال: لمن سيكون الصوت المرجح في حالة التعادل بين الفريقين في عملية التصويت على القرار؟

رأينا المفترى: لكبيرهم. فالطرف الذي سيكون معه كبيرهم هو الذي سيؤخذ بقراره، لسببين اثنين:

⇐ لأن كبيرهم هو قائد المجموعتين الاثنتين،

⇐ ولأن كبيرهم صاحب الشرعية والمتضرر الأكبر من انتقالها إلى أي شخص آخر غيره. انتهى.

السؤال: كيف جرت عملية التصويت؟

رأينا المفترى: لو دققنا في السياق القرآني ذات العلاقة، وهو قوله تعالى:

- ﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ۝٩﴾ [يوسف: 9]

لوجدنا بأن خيار قتل يوسف قد جاء سابقا لخيار طرحه أرضا، أليس كذلك؟

ولو دققنا في السياق القرآني اللاحق لذلك، وهو قوله تعالى:

- ﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ۝١٠﴾ [يوسف: 10]

لوجدنا بأن النتيجة النهائية كانت على نحو حسم الخلاف على لسان ذلك القائل منهم. ليكون السؤال هو: كيف نستطيع أن نتخيل ما حصل بهذا الترتيب الذي يفصّله كتاب الله؟

المشهد الحادي عشر: التصويت على مصير يوسف

يتم تحديد وقت ومكان الاجتماع. فيحضر العشرة من الإخوة، فيقف أفراد الفريق الأول إلى يمين كبيرهم، ويقف أفراد الفريق الثاني إلى شماله، وتبدأ مراسيم عملية التصويت. ولما كان هذا الأخ الأكبر قد اتخذ جميع التدابير لإنجاح الخطة التي رسمها والده في الواد المقدس معه، بدأ الخطابة فيهم، مركزا (نحن نتخيل) على أهمية الشرعية في ميراث بيت النبوة وضرورة مناصرتها. كما بدا للجميع – قولًا وشكلًا – بأنه متمسك بحقه فيها بكل الوسائل الممكنة، موضحًا في الوقت ذاته من خطر انتهاك تلك الشرعية وعواقبها الوخيمة عليهم جميعا. فتحدث بلهجة القائد المتمرس الذي يستحق أن يكون هو سيد القوم وكبيرهم، الجامع لهم على الصلاح إذا ما انتقلت وراثة بيت النبوة بالشرعية المعهودة، وبالتالي استمرارها فيهم من بعدهم جميعا. فعزز كلامه ذلك موقف الفريق الآخر القائل بقتل يوسف لفكرة مناصرة الشرعية، والوقوف صفا واحدا إلى جانبه، وهم في حقيقة الأمر مناهضين له وليوسف معا، طامعين في إفساد الأمر على الفريقين الآخرين. فكان مما قاله لهم (أنا أرى):

يا إخوتي جميعا، يا أبناء يعقوب، يا ورثة بيت النبوة، أنتم اليوم أمام مسئوليتكم التاريخية في الحفاظ على انتقال ميراث بيت النبوة بالشرعية التي نعرفها ونناصرها جميعا. وأنا أعلم يقينا موقف إخوتي الاشقاء الواقفين على يميني من هذا الأمر، فهم مناصرون لي جميعا، متمسكين برأيهم في أن يكون ميراث بيت النبوة لي، فأنا سيدهم، وأنا كبيرهم، وأعلم أنهم ينزلون عند قراري. ثم (أراه) يولي وجهه شطرهم، طالبًا موافقتهم

على ما يقول، مؤكدين الرأي في أنه هو فعلا كبيرهم جميعا. فتتحرك الرؤوس كلها على يمينه إلى الأسفل، لتشير إلى نزولهم عند رأيه، وليسمع منهم جملة واحدة (نعم أنت كبيرنا وصاحب الحق الشرعي في وراثة بيت النبوة)

في هذه الأثناء يولي كبيرهم وجهه (أنا ما زلت أتخيل المشهد) شطر إخوته غير الأشقاء من الفريق الثاني قائلا: أنا أحب أن أسمع من إخوتي غير الأشقاء الواقفين على شمالي إن كانوا فعلًا سيساندونني في دعواي هذه، أم تراهم يخذلونني ويقفون في صف يوسف الذي يفضّله أبونا (يعقوب النبي والأب) علينا جميعا، ويوجه لهم السؤال قائلًا: هل ستكونون إلى صف يوسف الذي هو أصغر مني سنا وأصغر من بعضكم سنا، والذي لا شرعية له علينا جميعا؟ فأروني ماذا ترون؟

في هذا الوقت بالذات (نحن نتخيل) يقف أكبر الإخوة من الفريق الثاني، وهو الذي (نحن نظن) يسانده الشيطان لينزغ بين الإخوة، فيثني على كلام أخيه الأكبر، وينطلق لسانه بكل عبارات الثقة والجزم بأنه (وإخوته الأشقاء الآخرين) إلى جانبه إلى نهاية الطريق، مهما كلف الأمر حتى لو انتهى بهم المطاف إلى قتل يوسف. فقال:

- ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ ...

وهنا يتدخل كبيرهم صاحب الشرعية مولّ وجهه شطر أفراد هذا الفريق ليسمع منهم إن كانوا يؤيدون هذا الرأي الذي قال به أحدهم، سائلا: هل أنتم (يا اخوتي غير الأشقاء) مع هذا الرأي: قتل يوسف؟

فيرد الجميع بالإيجاب. وبهذا تحسب خمسة أصوات للاقتراح القاضي بقتل يوسف.

في هذه اللحظة، يتوجه الأخ الأكبر إلى إخوته الأشقاء، طالبا منهم النصيحة والتأييد ثم التصويت. فما الذي حصل؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: في اللحظة التي ظن الإخوة غير الأشقاء بأن قتل يوسف سيكون هو المقترح الحائز على كل الأصوات، يخرج صوت متلعثم متردد من بين أفراد المجموعة الأولى (أي الإخوة الأشقاء لكبيرهم)، تشعر فيه لهجة التردد في القول ويؤكده التلعثم في الكلام، وتحس منه حرارة الخوف ومرارة الحيرة والارتباك، فينطلق لسانه قائلا: أنت تعلم يا أخي أنك منا ولنا، وأنك كبيرنا، وصاحب الحق الشرعي الذي نسانده بكل حزم وقوة في وراثة بيت النبوة، وأننا على الدوام ننزل عند قرارك، فأنت الخاسر الأكبر فينا لو – لا قدر الله – انتقلت الشرعية إلى غيرك. لذا، لن نكون إلا يدك التي تبطش بها، ولكنّا لن نكون أكثر حرصا منك، ولا أكثر حكمة منك، فانظر أنت بنفسك ماذا ترى، فأمامك خياران اثنان لا ثالث لهم:

- ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا...

ونحن لا محالة مناصرين لك بأي الاتجاهين ذهبت. وإننا نتخذ موقفنا هذا هنا، لنثبت لك بأنك أنت كبيرنا وصاحب القول الفصل فينا. وحتى لا تحملنا – يا ابن أم – تبعات الأمر لاحقًا. فمن هذه اللحظة نحن ننصبك سيدًا لنا وصاحب الحق في شرعية وراثة بيت النبوة. فاتخذ القرار بما شئت، ونحن لك طائعين راضين.

فلا تثقل كاهلنا بما قد لا نقدر عليه لاحقًا، فما دمت أنت كبيرنا، فاتخذ أنت في هذه اللحظة قرارك، ونحن من ورائك سائرون، ولك طائعون. ولتعلم يا كبيرنا بأننا نجتمع الآن للتخلص من يوسف لهدف نبيل، ألا وهو أن يخلو لنا وجه أبينا ونكون من بعده قوما صالحين:

- ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾ [يوسف: 9]

السؤال: ما الذي حصل بعد ذلك؟ ماذا فعل الأخ الأكبر فيهم بعد أن السمع الرأي من الفريقين؟

تخيلات مفتراة من عند نفسي: يسود الصمت المكان من كل اتجاه. فتسكت الألسن، وتفتح الآذان لما سيقوله كبيرهم هذا، وتتجه العيون كلها صوب هذا الذي هو كبيرهم. وهم الآن يعلمون أن التصويت سيكون للرأي الذي يتخذه كبيرهم حتى لو تساوت الأصوات (خمسة * خمسة). فماذا قال ذلك الكبير؟

تخيلات مفتراة: بعد أن أطبق الصمت على المكان برهة من الزمن. وبعد أن أصبح الجميع يعلمون أن القرار بيد كبيرهم نفسه، وبعد أن أظهر كل طرف حجته، نطق الرجل قائلا: ما دمت أني أنا صاحب القرار، فاعلموا يا إخوتي أني لن أكون سببا في إراقة الدم بين أبناء يعقوب ابن اسحاق ابن إبراهيم. لذا، فإني أرى:

- ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [يوسف: 10]

وبهذا القرار الذي خرج من ذلك الاجتماع كانت الجولة الأولى من المواجهة الشرسة لصالح يعقوب النبي ضد الشيطان الذي كاد أن ينزغ بين الإخوة:

- ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [يوسف: 100]

وللحديث بقية بقلم: د. رشيد الجراح
18 كانون ثاني 2023